د. جمال حمدان

استراتيجيّة الاستعمار والتحرير

دار الشروق

استراتيجيّة
الاستعمار والتحرير

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

© دار الشروق

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - برقياً: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - برقياً: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

الفهرس

الصفحة

مقدمة ٧

الباب الأول ـ من العصور القديمة إلى الحديثة

الفصل الأول ـ فى العصور القديمة ١٣
الفصل الثانى ـ العصور الوسطى ٢٤
الفصل الثالث ـ عصر الكشوف الجغرافية ٤٩
الفصل الرابع ـ الاستعمار البحرى ٦٤
الفصل الخامس ـ القوى البرية والاستعمار ٨٤

الباب الثانى ـ قرن الاستعمار

الفصل السادس ـ الانقلاب الصناعى والاستعمار ١٠٣
الفصل السابع ـ نماذج من الاستعمار المدارى ١٢١
الفصل الثامن ـ صراع القوى فى العصر الصناعى ١٤٢
الفصل التاسع ـ امتداد صراع القوى ١٦٧
الفصل العاشر ـ النظرية العامة فى الاستراتيجية العالمية ١٩٢

الباب الثالث ـ عالمنا المعاصر

الفصل الحادى عشر ـ ثورة التحرير ٢١٨
الفصل الثانى عشر ـ الانقلاب النووى ٢٥٢
الفصل الثالث عشر ـ من الحرب الباردة إلى الوفاق ٢٩٨
الفصل الرابع عشر ـ استراتيجية عدم الانحياز ٣٣٢
الفصل الخامس عشر ـ ما بعد الوفاق وعدم الانحياز ٣٧٤

مقدمة

الصراع الذى يعيشه عالم اليوم ، هذا الذى يتمزق بين كتل العقائديات المتناقضة ، وقوى التحرير الفوارة ، ورواجع الماضى المتربصة ، ما نمطه الإقليمى ـ إن كان ثمة نمط ـ وما أصوله التاريخية ؟ وهذه التطورات العميقة التى يشهدها توزيع القوى والأوزان السياسية بين الدول والكتل والقارات ، وهذه الانقلابات الكاملة فى الاستراتيجية الكوكبية فى ظل العصر النووى ، هل هى تحولات أو تحويرات للماضى بدرجة ما ، أم هى طفرات بكر تماما فى تاريخ البشرية ؟ إلى أين يتجه نمط توزيع القوى السياسية والاستراتيجية فى مستقبل سيخلو من الإمبراطورية واحتكار القوة والعلم وقد تنتشر فيه الأسلحة النووية انتشار الحضارة والتكنولوجيا الحديثة ذاتها ؟ وما احتمالات المستقبل بالنسبة لسياسة وليدة كعدم الانحياز ، ولقوة جديدة كالعالم الثالث ؟

قد لا يكون من الصعب أن نرى نمط القوة العالمية المعاصر يتنضد ـ قاعديا ـ فى هيكل ثلاثى يبدأ من كتلة قديمة غربية رأسمالية استعمارية ، يمر بكتلة أحدث شرقية اشتراكية تقدمية ، حتى ينتهى بقوة ـ وليس بكتلة ـ أشد حداثة وأميل إلى الاشتراكية بقدر أو بآخر ، ولكنها تمتاز أساسا بأنها متخلفة اقتصاديا ، حديثة الاستقلال والتحرر سياسيا . ولكن ألم تكن الصورة تقتصر ، حتى الحرب العالمية الثانية فقط ، على قطبى القوتين الأوليين وحدهما ؟ بل أليست قوة المعسكر الشرقى ذاتها ، بالقياس إلى القوة الغربية المخضرمة ، طارئا حديثا نسبيا لا يتعدى الحرب العالمية الأولى بصرامة ؟

النمط إذن حديث ، أو هكذا يبدو على السطح ، وهو على كل حال متطور سريع التغير . ولكن ـ تحت الجلد ـ هل هو منفصل حقا عما سبقه من تاريخ ؟ إن الذى يستقرئ مراحل التاريخ السياسى والاستراتيجى المتعاقبة يجبهه ـ وهو جدير أيضا بأن يروعه ـ دائما أو غالبا نمط ثلاثى متواتر لصراع القوى قد يختلف عن النمط المعاصر فى التفاصيل والظلال

والأبعاد ، ولكن لعله لا يختلف عنه كثيرا فى أساسياته وجوهره . وإذا كان لنا أن نستبق نتائج مثل هذه الدراسة ، فحسبنا أن نشير هنا إلى نظرية مفكر جغرافى كبير مثل ماكيندر ، فقد اختزل تاريخ الصراع الاستراتيجى فى العالم فى أنه فى جوهره صراع بين قوة البر وقوة البحر يترك بينهما قوة بينية برمائية فى المنزلة بين المنزلتين ـ ثلاثية استراتيجية أخرى تستبق ثلاثية اليوم وإن لم تكررها تماما بالطبع !

ومثل هذا عن الاستعمار يقال . فالاستعمار ـ هذا الذى يبدو بعامة حديث العهد ويرتبط لأمر ما فى الكتابات الدارجة بالقرن التاسع عشر بوجه خاص ـ هو الآخر ظاهرة قديمة لها أصول تاريخية بعيدة بدرجة أو بأخرى . فالاستعمار الحديث الذى يحتضر اليوم إنما استوى على سوقه فى القرن التاسع عشر فقط ، أما جذوره فتضرب فى أعماق عصر الكشوف الجغرافية منذ القرن السادس عشر وما بعده ، بل لعلك واجد بذوره الأولى قبل ذلك جميعا . وأنت لن تستطيع أن تفهم نمو الاستعمار العالمى ولا تطور صراع القوى الدولية إذا قصرت بؤرتك على المنظور المعاصر ، أكثر مما يمكنك أن ترى ناطحة سحاب إذا نظرت إليها من سطحها .

والذى نود أن نؤكده بهذا هو أهمية البعد التاريخى مدخلا إلى أية دراسة علمية جادة وعميقة لواقعنا السياسى والاستراتيجى المعاصر . وبغير هذا تبدو الحقائق مقتلعة ، والتعميمات ـ ربما ـ مبتسرة مفتعلة ، وتخرج الصورة كلها ولها مسطح ولكن ليس لها عمق . ولهذا فنحن بحاجة حقيقية وملحة إلى دراسة كاملة متكاملة ، أصولية منظمة ، لتاريخ الاستعمار فى العالم من ناحية ، ولتاريخ الصراع الاستراتيجى من ناحية أخرى . وبغير هذا فلن نخرج بقوانين علمية أو أشباه قوانين ، ولن نختزل التاريخ فى معادلات إقليمية موجزة مركزة ذات مغزى مثلما هى خفيفة الحمل فى الذهن .

والحقيقة أن التاريخ هو معمل الجغرافى كما قيل ، وهو كذلك مخزن الاستراتيجى الذى لا ينضب ، وكل منهما يستمد منه خامته ويجرى عليها تجاربه . وبالنسبة للجغرافى بالذات ، فإن التاريخ إذا كرر نفسه ـ وهو قد يفعل ـ فهذا التكرار هو الجغرافيا : أعنى أن الجغرافيا بهذا هى الجذر الجبرى للتاريخ ، وعملية استقطاب له وتركيز . أكثر من هذا ، ليس التاريخ كما عبر البعض إلا جغرافية متحركة ، بينما أن الجغرافيا تاريخ توقف ، وهما معا أشبه شىء بقرص الطيف : إذا سكن على عجلته تعددت ألوانه ، فإن هو دار وتحرك استحال لونا جديدا واحدا .

وعلى هذا الأساس يقوم البحث الحالى . فهو دراسة فى الجغرافيا السياسية بجانبيها التاريخى والمعاصر ، تحاول أن تتبع مورفولوجية التاريخ داخل إطار أو أطر واضحة التحديد من مورفولوجية الجغرافيا ، وتسعى إلى أن تصب حركة التاريخ وتقنّلها فى خطوط اقليمية غير باهتة أو متميعة على الأقل . وعلى ذلك فالدراسة تتتبع أولا حركات بناء الإمبراطوريات والتوسع الاستعمارى عبر العصور ، عصرا بعد عصر ، محللين دوافعها ومحركاتها ، أنماطها الجغرافية وصراعات القوى فيها أو من حولها ، نقاط قوتها أو ضعفها الاستراتيجى ، كما نحاول أن نستشف ونستنتج منها دروسها الجيوستراتيجية الأكثر خلودا وبقاء .

كل أولئك دون أن نفرض على الحقيقة التاريخية الموضوعية الغفل ذاتها « نظرية عاملة » بعينها أو قانونا مبتسرا أو شبه قانون . إلى أن نصل إلى الفترة المعاصرة ، فبعدها يكون قد تجمعت لدينا من ناحية كل روافد التاريخ وتياراته ، وتراكمت دروسه ، وتواتر تكراره ، بحيث يتجسد منطقه تلقائيا ويمكننا أن نضع أيدينا على نبضه . ومن ناحية أخرى نكون فى حل علميا من أن نحاول إخضاع هذا الركام الضخم من الحقيقة التاريخية لنظرية أو أخرى تستقطبها أو تختزلها لتكون تلخيصا أو تقنينا للتاريخ أولا ومفتاحا للتنبؤ بالمستقبل ثانيا .

وفى هذه الدراسة ينبغى لنا أن ننبه إلى تداخل بعدين أو عنصرين ، لا انفصام لهما فى الواقع ، وهما الاستعمار كحركة توسع وتسلط ، وصراع القوى الاستراتيجية كعملية بقاء أو تضخم . وليس كل صراع بين القوى هو من أجل الاستعمار ، ولكن كل استعمار هو صراع من أجل القوة . بيد أنه يبقى فى النهاية أن كلا منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به ، إن لم يكونا فى الحقيقة جانبين لنفس الشىء .

ولقد يمكن أن نكتفى فى تتبع أصول الاستعمار الحديث بالبدء بعصر الكشوف الجغرافية ، ولكن لكى نفهم استراتيجية القوى العالمية لابد أن نوغل إلى أبعد أعماق التاريخ ، لأنه بالدور التاريخى الكامل وحده تبرز الشخصية الاستراتيجية الكامنة لأى اقليم . وهكذا تعود الدراسة الأصولية التاريخية الكاملة فتؤكد أهميتها وضرورتها ، وصولا إلى كليات ودخائل الموقف السياسى المعاصر . وإنها لرحلة طويلة شاقة بالتأكيد ، ولكنها شيقة طموح بنفس الدرجة ، وأكثر منها واعدة ومجزية إلى أقصى حد .

البَـابُ الأوّلـ

من العصـور القديمـة إلى العصـور الحديثـة

الفصل الأول

فى العصور القديمة

قد نعد الاستعمار قديما قدم الإنسان . فمن الممكن أن ننظر إلى التاريخ القديم على أنه فصول متلاحقة أو متداخلة من الهجرات والغزوات . ولكن مثل هذه كانت أقرب إلى التحركات غير الهادفة ، بل البدائية أو « الغريزية » ، منها إلى الحركات المقننة المخططة الواعية[1] . فقد كانت البشرية لا تزال فى حالة هلامية رجراجة ، أو هى كانت غلافا زئبقيا بعيدا عن الاستقرار والتوطن والارتباط الوثيق المحدد بأرض محددة . ونحن أقرب الى الصواب إذا اعتبرناها أدخل فى عداد ما يسميه والتر باجهوت بفترة تكوين الأجناس race-making period منها فى فترة تكوين الأمم nation-making ، ومن ثم أقرب إلى الأنثروبولوجيا منها إلى السياسة .

ومع تطور المجتمع والحضارة وزيادة الارتباط الإيكولوجى عضويا ومجتمعيا بين الجماعات والأقاليم ، ومع اطراد نمو الدولة كشكل سياسى ، تأخذ الحركات البشرية بالتدريج اتجاها أوضح نحو الاستعمار ، الاستعمار بمعنى سيطرة منظمة لجماعة على جماعة أخرى . ويمكننا عبر تلسكوب التاريخ أن نرى العالم القديم فى فجره المكتوب يتألف من سلاسل مرصعة كالموزايكو من الصراعات المحلية الصغيرة أو الضيقة فى مداها وحدودها الجغرافية ، وأغلبها أو أخطرها لا يخرج عن معادلة بعينها محددة هى « الصراع بين الرعاة والزراع » .

من معادلات الصراع

وعادة ما تتشكل هذه المعادلة بشكل بيئتها الجغرافية فتأخذ لونا محليا خاصا . فهو إما الصراع بين « الرمل والطين » ، وإما بين « الاستبس والغابة » ، أو بين « الجبل

---

(١) G.H.T. Kimble, World's open spaces, Lond., 1947, p. 9-10.

والسهل » . وقد تتداخل هذه الصراعات كلها أو بعضها فى حالات أو تتعاقب فى حالات أخرى . وكلها فى النهاية صراع بين قوى بر وبر ، بين فلاحين ورعاة ـ بمعنى آخر صراع أشباه أكثر منه صراع أضداد .

فأما معادلة الرمل والطين فهى تلخص عند برستد تاريخ الشرق القديم ، حيث نجد هجرات الرعاة وغزواتهم ـ ابتداء من الآراميين إلى الكنعانيين والفلسطينيين والعبرانيين والفينيقيين .. الخ ـ تتواتر خارجة من قلب الجزيرة العربية خاصة إلى كل المناطق الزراعية المجاورة فى الهلال الخصيب ووادى النيل ، ومثلها إلى حد كبير هجات المور من الصحراء الكبرى الغربية على إقليم المغرب .

أما معادلة الصراع بين السهل والجبل فهى بحكم طبيعتها محلية أساسا ، ولذا تنتثر فى تضاعيف العالم القديم كدوامات موضعية . وهى تختلف عن أنماط الصراع الأخرى فى أنها رأسية لا أفقية ، كما أنها أكثرها قارية بطبيعتها . فنرى رعاة الجبال المحاربين يهبطون على السهول وينقضون عليها من حالق كالهيار الجليدى غزاة أو مخربين : من جبال أرمينيا وكردستان إلى سهول الرافدين التى هبط عليها من قبل الكاسيون **Kassites** فى الشمال والعيلاميون فى الجنوب ، ومن بعد الأشوريون الذين سيطروا عليها جميعا . كذلك من مرتفعات الأناضول توالى هجوم ونزول الميتانى والميديين والحيثيين على الهلال الخصيب شرقا وغربا [1] . وفى أوربا من قلاع البلقان إلى أحواضها ، ومن كتلة الألب إلى سهول البو ولومبارديا .

أما الصراع بين الاستبس والغابة ، فلعله أبعد أنماط الصراع القديم مدى وتراميا ، ولو أنه لم يكن استعمارا بقدر ما كان تخريبا ، ولم ينشئ دولا أو إمبراطوريات مثلما حطم دولا وإمبراطوريات . فمنذ فجر التاريخ والاستبس الأسيوى العظيم يمثل ضد إعصار بشرى يلفظ بالموجات البشرية المتتابعة لتظهر كالطفح على طول القوس الهائل من الأراضى الزراعية الغنية التى تحف به شرقا وجنوبا وغربا .

وتحت تأثير طرد البيئة الرعوية الفقيرة وما قد يعتريها من نوبات من الجفاف ، مع إغراء المناطق الغنية الرخية ، كانت جحافل الرعاة تخرج كالطوفان لتنتشر كالمروحة . ومع الانتخاب الطبيعى القاسى الذى تفرضه البيئة وقسوة النمط البشرى الناتج ، وبفضل حركة

---

(١) James Fairgrieve, Geography & world power, Lond., 1941, p. 38 et seq.

الخيل الكاسحة ، كانت هذه الموجات تزحف آلاف الأميال لتهوى عاتية كالمطرقة على مناطق الاستقرار المحيطة .

ورغم قلة عدد سكان الاستبس كثيرا بالنسبة لسكان النطاقات الزراعية ، فقد كان لرعاة الاستبس دائما التفوق العددى فى النقطة المحددة التى يختارونها لضرباتهم تلك . فإذا أضفنا إلى هذا مرونة حركة الخيالة ، سواء بالحصان أو بالعربة وهى اختراع استبسى أصلا ، والتى تتمثل فى « الكروالفر » كتكتيك استبسى أصيل به يحدد وحده مكان وزمان المعركة ، أدركنا ميزة الاستبس على المزروع استراتيجيا[1] . ومن هذا جميعا نفهم كيف أمكن « لتراب الرعاة » المخلخل هذا ـ كما يسميه برون[2] ـ أن يسيطر ويتغلب على « الارسابات البشرية » الكثيفة المستقرة فى تضاعيف الغابة أو أودية الأنهار .

ولكن نقطة ضعف الاستبس الأصيلة والتى تصم دوره التاريخى بالعقم والسلبية فى النهاية هى أنه ـ بحكم حركته وسيولته تلك بالذات ـ عجز عن أن يقيم إمبراطوريات دائمة أو أن يستقر فى دول ثابتة راسخة . فقد كانت موجاته تأتى كالزوبعة ، وكالدوامة تختفى . فإما أن تعود وترتد بعد السلب والنهب ، وإما أن تتلاشى وتذوى فى دويلات حاجزة على حدود المزروع وحسابه ـ بوليس إمبراطورى أو حرس حدود بمعنى آخر . ولهذا فإن مكان الاستبس فى الاستعمار أقرب شىء إلى الاستعمار السلبى ، ودوره التاريخى أشبه بالنيازك والشهب بين النجوم : ضجيج وبريق رهيب سناه ، لا يلبث أن يستهلك نفسه ويحترق بنفسه .

موجـات الاستبـس

فإذا ما تتبعنا موجات الاستبس فى التاريخ القديم[3] وجدناها تتجه إلى الصين أكثر منها إلى الهند ، أولا لأن على باب الصين تقع منشوريا وهى محيط استبسى ومحطة احتشاد وانطلاق للاستبسيين ، وثانيا لأن الصين لا تملك حائط الهملايا ، ذلك « السور الطبيعى العظيم » الذى حمى الهند بقدر الامكان من ضغوط الاستبس . أما الصين بأنهارها وسهولها فكانت مفتوحة لهذا التيفون ـ (والكلمة مأخوذة عن الطوفان العربية)[4] ـ

---

(١) Owen Lattimore, Inner Asian frontiers, in New compass of the world, N.Y., 1949, p. 269.

(٢) Jean Brunhes, La Géographie humaine, Paris, 1925, t.II, p. 802.

(٣) Edmond Demolins, Comment la route crée le type social, Paris, t.I.

(٤) Thomas Quayle, "Geography & language", Geog. teacher, 1917-8, p. 81.

البشرى ، فكان عليها أن تبنى سورها الصناعى العظيم فى وجههم ـ دون جدوى . ويسجل التاريخ موجتين هامتين فى تلك الفترة ، غزوة كبرى فى القرن الثالث ق . م كان من جرائها مباشرة بناء ذلك السور ، ثم موجة أخرى فى القرن الثانى الميلادى .

غـربـا

أما غربا ، فقد اتخذ الاستبس طريقين ووجهتين ، أولا طريق الاستبس المرتفع على طول هضاب ومرتفعات وسط وجنوب غرب آسيا ابتداء من منغوليا حتى إيران . والوجهة هى الشرق الأوسط الخصيب . فهؤلاء هم الذين أسقطوا آشور ، ومنهم جاء الهكسوس إلى مصر . ولعل موجة الهكسوس هى الموجة الوحيدة فى التاريخ القديم التى استطاعت أن تضرب من قلب الاستبس بعيدا إلى حد الوصول إلى مصر . ولكن الهكسوس لم يخضعوا مصر جميعا بل شمالها فقط ، ولم يلبثوا فيه طويلا عند ذلك .

أما الطريق الثانية فهى الاستبس المنخفض على طول السهول العظمى فى قلب آسيا وشرق أوربا ابتداء من طوران حتى المجر . وكان هذا فى الحقيقة أخطر طريق طرقه الاستبسيون وارتبطوا به وارتبط بهم . ولهم معه ميكانيكية خاصة فريدة فى بابها وخطيرة فى نتائجها . فكممر سهلى قارى متصل Durchgangsland تتجاوب أجزاؤه كما لو بقانون الأوانى المستطرقة ، كانت كل حركة تبدأ من القلب ـ قلب الاستبس فى آسيا ـ تدفع بالجماعات الرعوية الواقعة غربها ، فتدفع هذه بما بعدها غربا ، وهكذا حتى تدفع الأخيرة الزراع فى شرق أوربا ووسطها (١) .

وبهذا التأثير والدفع غير المباشر لعب الاستبس الأسيوى دورا خطيرا فى تشكيل تاريخ وتكوين أوربا ، حتى أصبح تاريخها منذ ذلك الحين لا يفهم إلا كجزء فى الحقيقة من تاريخ أوراسيا ككل (٢) . ولما كان الجيران المباشرون للإمبراطورية الرومانية هم برابرة التيوتون والجرمان الذين جمعوا بين الرعى والزراعة ، فكثيرا ما كانت حركات البرابرة الأسيويين تنتهى بتحريك البرابرة الأوربيين ليغيروا على الإمبراطورية .

ففى أوائل العصر المسيحى ، وخاصة فى القرنين الثالث والرابع ، اشتدت غارات القبائل الجرمانية من الألمانى Allemanni والقوط والوندال والفرانك « الفرنجه » ، على

---

(١) جمال حمدان ، أنماط من البيئات ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٧٩ .

(٢) Halford J. Mackinder, The geog. pivot of history. Lond., 1951, p. 31.

الأرجح نتيجة لضغط برابرة آسيا عليهم من الخلف[1] . وأدى تغلغل هذه الغزوات فى جسم الإمبراطورية إلى تكوين إمارات داخلها حتى انتهت بانهيار الإمبراطورية . وفى القرن الخامس وصل الأسيويون بأنفسهم إلى حدود الإمبراطورية فى شكل الألان Alans والهون تحت قيادة أتيلا الهون المشهور .

وقد كانت موجة الهون من أعتى ما تعرضت له روما وأكثرها تخريبا وتدميرا . وقد اتخذوا من استبس المجر ـ حوض ألفولد Alföld الكبير أو البوشتا Puszta ـ نقطة ارتكاز للهجوم على الإمبراطورية التى كانت بالنسبة للبوشتا فى موقع كموقع الصين بالنسبة لاستبس منشوريا . فاندفع أتيلا من البوشتا غربا حتى فرنسا ، لكنه صد أخيرا عند شالون . وقد يكون فى هذه الهزيمة مغزى هام ، لأن معناها أن رعاة الاستبس لم يفشلوا إلا حين خرجوا عن نطاق بيئتهم الطبيعية[2] .

ومع ذلك فقد كان أثر الهون فى تشكيل أوربا بعيد المدى . فربما كنتيجة لضغوطهم قفز الآنجلز والسكسون من غرب القارة إلى الجزر البريطانية ليؤسسوا إنجلترا ، بمثل ما هرب سكان أكويليا وبادوا فى إيطاليا بعد تخريبها المباشر إلى الجزر الساحلية المواجهة ليؤسسوا البندقيه . وعدا هذا ، فكرد فعل للخطر الهونى تحالف الفرانك والقوط والرومان لأول مرة فى شالون ونما بينهم وعى قومى جنينى ، وبهذا كان الهون فى الحقيقة يصنعون فرنسا الجديدة بوحدتها وقوميتها[3] .

على أن الهون ككل سرعان ما تفتتوا بعد وفاة أتيلا نفسه وتحاربوا وارتدوا شرقا إلى مصدرهم الأصلى ، ولو أن قلة منهم استقرت نسبيا فى الزراعة وحاولت الإمبراطورية تثبيتهم بكل الوسائل كمنعهم من العودة أو إغرائهم بإمارات وولايات حدية خاضعة لها .

على أن خطر الهون لم يرتفع إلا ليتلوه خطر الأفار Avars فى القرن السادس ، وكان لا يقل عن سابقه فى التخريب والتدمير . وقد اتخذوا من سهل المجر الاستبسى مركزا لحكمهم عدة قرون . وكنتيجة مباشرة لضغط الأفار ، طردت قبائل اللونجوبارد Longobards المتبربرة وقذف بهم من تخوم الإمبراطورية حتى استقرت فى سهل لمبارديا ـ ومن هنا

(١) Fairgrieve, p. 106-8.

(٢) Demolins, loc. cit.

(٣) Mackinder, op. cit., p. 31, 35.

الاسم . وبالمثل يعود إنشاء شارلمان لمملكة النمسا إلى خطر الأفار ، فقد أسسها لتكون دولة حاجزية وكموقع أمامى للدفاع عن الإمبراطورية[١] .

أخيرا ، وفى مؤخرة الأفار ، أتى البوجار (البلغار) Bolgar من منطقة الفولجا ـ لاحظ وحدة اشتقاق الاسمين[٢] ـ ليذوبوا فى النهاية فى وسط السكان الأصليين من السلاف فى المنطقة التى تستمد اليوم اسمها منهم (بلغاريا) . وكانت هذه آخر ما أرسل الاستبس فى صراعه مع الغابة قبل أن تبدأ العصور الوسطى .

بين البر والبحر

تلك قصة الصراعات التاريخية المختلفة فى العالم القديم بين قوى بر وبر . ولكن على الماء ينبغى أن نضيف صيغة أخرى أصيلة هى « الصراع بين البر والبحر » ، بين الفلاحين والملاحين . وبينما تشتعل الصراعات السابقة من أجل « الموضع » أساسا أى من أجل الثروة المحلية الزراعية الغنية ، فإن صراع البر والبحر يذكيه الفوز بالموضع والموقع معا . فكثيرة هى جدا حركات الاستعمار القديم التى قامت بها جماعات بحرية من سكان الجزر والسواحل قاصدة جزرا وسواحل أخرى أو مناطق برية داخلية تماما .

ولقد كان البحر المتوسط هو المسرح الرئيسى لمثل هذه النشاطات التعميرية أو الاستعمارية . فكمشتل مبكر ممتاز للبيئات البحرية والفنون الملاحية ، نجد موجات الاستعمار البحرى تقطع البحر فى كل اتجاه : من فينيقيا إلى قرطاجنه ، من أثينا إلى أسيا الصغرى وإيطاليا ، ومن قرطاجنه إلى أيبريا .. الخ . ومما ساعد لا شك على دفع هذه الحركات عوامل الطرد الطبيعية ، فثمة حلقة جبلية تطوق البحر فى معظمه ولا تترك إلا عقدا متقطعا ودقيقا من السهول الساحلية لا تكفى سكانها ، فتلفظهم إلى البحر .

وسنرى بسهولة أن كل هذه الاستعمارات كانت تتم فى وسط بيئى وجغرافى واحد هو حوض البحر المتوسط ببيئته الطبيعية المعروفة ، فلم تكن لذلك تستدعى تغييرا كبيرا فى نمط الحياة أو تثير مشكلة التأقلم فى وجه المستعمر النازح[٣] . كما سنرى أن المحيط الجغرافى الذى تمور داخله هذه الحركات هو ـ كبحر داخلى mare internum ـ مجال محدود إقليميا

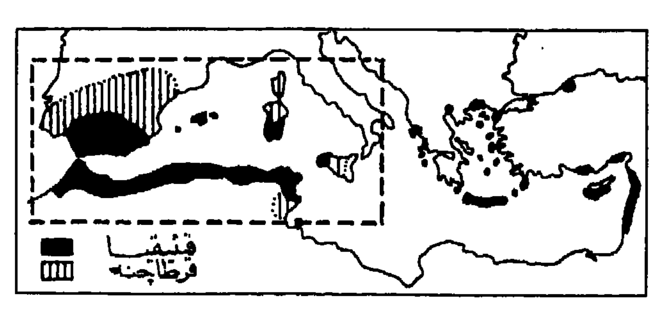
---

(١) Ibid.

(٢) W. Gordon East, An historical geog. of europe, Lond., 1950, p. 217.

(٣) Kimble, p. 17.

ولا يزيد فى أبعاده كثيرا عن أبعاد الصراعات البرية المحضة السابقة إن لم يقل . ولكن الحقيقة أن كل هذه الحركات هى أقرب فى جوهرها إلى أن تكون صراعا بين قوى بحر وبحر أكثر منها إلى الصراع بين قوى البحر والبر بمعنى الكلمة . وحين نصل إلى هذا اللون الكامل من الصراع تأخذ الصورة أبعادا جغرافية جديدة تماما .



شكل (١) فجر الاستعمار البحري فينيقيا وقرطاجنة

وقد تطلعت قوة البحر أول ما تطلعت إلى التوسع الإقليمى فى الأراضى المقابلة أو المجاورة أو المحيطة على اليابس . وبدأ بهذا خلق الإمبراطوريات البحرية المترامية الشهيرة فى التاريخ thalassocracies والتى ستكون بمثابة نمط أولى بدائى prototype لإمبراطوريات الاستعمار الأوربى فى عصرنا الحديث .

أثينـا ورومـا

فكانت اليونان أول مثل من هذا النوع حين توسعت عن دائرة العالم الإيجى لتشمل غرب آسيا الصغرى وأجزاء من إيطاليا Magna Graecia وأيبريا وشمال أفريقيا وليبيا ومصر والشام والعراق . ورغم أن الاستعمار الاغريقى كان ساحليا فى جوهره ، وحتى على السواحل كان يتألف غالبا من « جزر » تعميرية متقطعة ـ « كالنمل والضفادع حول بركة » كما عبر أفلاطون[١] ـ فإنه بدأ ما أصبح يعرف فيما بعد بنظرية « وحدة البحر المتوسط » حيث جمع بين سواحله جميعا فى ظل نظام سياسى إمبراطورى واحد[٢] .

وبعد اليونان نجحت روما فى خلق إمبراطورية ارتكزت على البحر ولكنها لم تلبث أن تغلغلت فى البر حتى أصبحت « الطرق الرومانية » أخطر أثرا فى هيكل شبكة الإمبراطورية

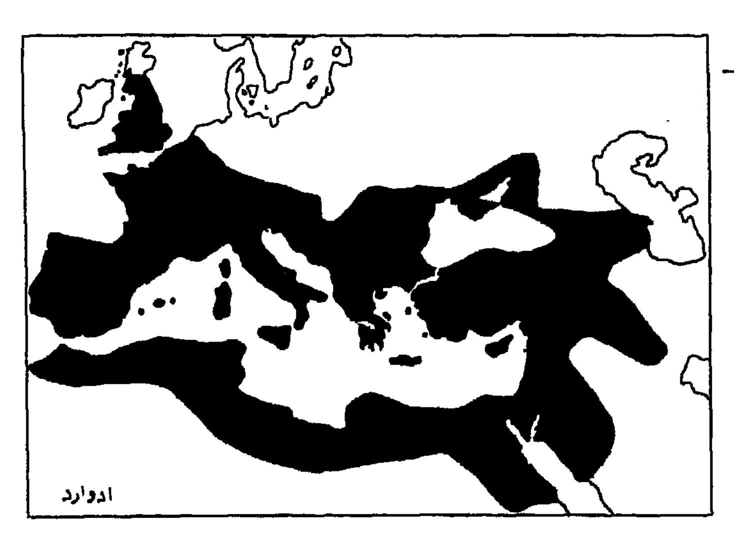
---

(١) Gordon East, p. 3.

(٢) G.F. Hourani, Arab seafaring in the Indian ocean, Princeton, 1951, p. 170.

من الخطوط البحرية ، والفيالق المشهورة legions أبعد مدى من الزوارق الرومانية المعروفة galleons . وقد ابتلعت روما الإمبراطورية الاغريقية كاملة فى الشرق الأوسط والأدنى القديم ، وتمددت بعدها لتشمل كل أوربا جنوب الدانوب وغرب الراين ، بالاضافة إلى أنها قفزت المانش لتضم إنجلترا السهلية . وفى هذا المجال المترامى فرضت روما « السلام الرومانى Pax Romana » بقوتها عدة قرون (١) .

وواضح أن هذه الأبعاد الإمبراطورية طفرة جديدة فى سجل الاستعمار العسكرى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ، وصلت « بوحدة البحر المتوسط » إلى منتهاها وجعلت من ذلك البحر بحيرة رومانية ــ « بحرنا Mare Nostrum » كما كانوا يفاخرون ــ وبحرا مغلقا mare clausum أشبه بنواة للإمبراطورية ، هذا بينما ترامت حدودها إلى تخومها الشهيرة limes التى تتراوح بين النهر فى وسط أوربا ، والغابة فى غربها ، والجبل فى إنجلترا ، والصحراء فى إفريقيا ، والتى تقف سدا حاميا ضد القبائل المتبربرة . ويلخص توينبى الإمبراطورية الرومانية فى أنها المثال النموذجى لما يسميه ــ فى حدود العالم المسيحى ــ « بالدولة العالمية universal state » (٢) .

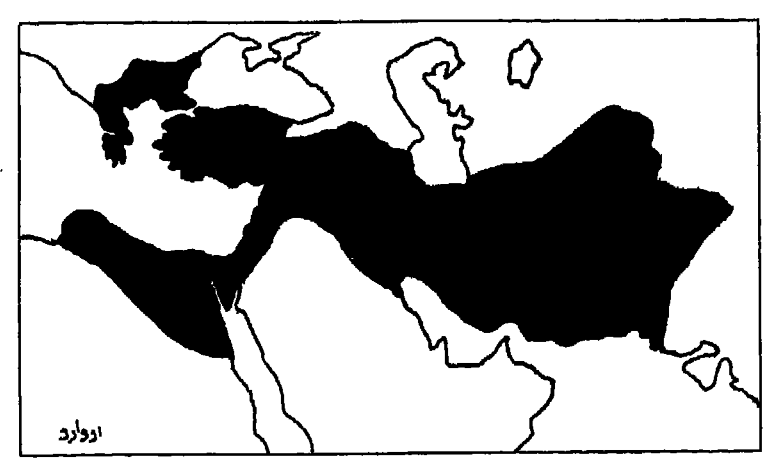


شكل (٢) الامبراطورية الرومانية

(١) East, p. 3-4; Fairgrieve, p. 90-92.

(٢) C.B. Fawcett, Geography & empire, in: Geog. in the 20th century, Lond., 1951, p. 419.

ويأخذ الصراع بين البر والبحر بعد ذلك أبعادا أكبر ويتمدد إلى آفاق اقليمية مترامية حقا حين يصل التوسع الإقليمي على اليابس بالقوى البحرية إلى الاحتكاك والتصادم بقوى برية ضخمة متعمقة القاعدة . فهنا تبدأ تلك المبارزة الاستراتيجية وذلك الصراع التاريخي المرير الممطوط الذى سيصبح فيما بعد النغمة الرئيسية السائدة فى صراع القوى الحديثة .



شكل (٣) امبراطورية الإسكندر

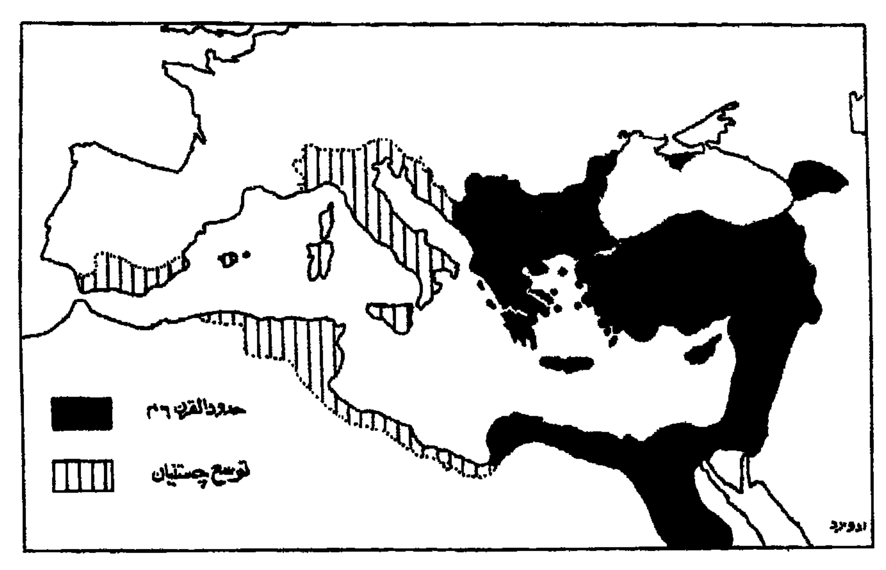
اليونـان والفـرس

وتبدأ هذه القصة بأثينا وفارس ، فقدكانت هاتان فى العصور الكلاسيكية هماكل القوى الكبرى فى المعمور القديم ، وظل الصراع بينهما سجالا فى حروب طرواده قرونا طويلة . وكما وصلت جيوش كزركسيس Xerxes برا حتى ثرموبيل الشهيرة بعد لفة كاسحة عبر النهرين وآسيا الصغرى ومقدونيا إلى أن هزمت بحرا فى معركة سلاميس الحاسمة ، كانت اكتساحة الاسكندر الخاطفة التى سجلت قتها فى معركة أربلا (أربيل) والتى وصلت إلى الهند شرقا ، أول إمبراطورية من هذا المقياس شبه القارى فى التاريخ . وإذاكان النصر من نصيب قوة البحر ، ففى كلتا الحالين استولى كل من الطرفين على المنطقة البينية فى الشرق الأوسط بالضرورة [١] .

---

(١) W. B. Fisher, The Middle East, Lond., 1950, p. 127-133.

ثم تتكرر نفس المعادلة فى الصراع بين روما وريثة أثينا والبارثيين ورثة فارس ـ وكلمة فارس تحريف لكلمة بارثيا (ومعنى كلمتى روما وفارس وحده يعكس مدى قوتهما : Hroma= الجبارة ، Persae = المخربين) . وفى هذا الصراع تحاول كل من قوة البر والبحر الاستيلاء على المنطقة البينية فى الشرق الأوسط ، إلا أنه نظرا لبعد مراكزها المتطوح يقع شرقه لبارثيا (العراق) وغربه لروما (الشام ومصر) ، بينما ظلت صحراء العرب بينهما منطقة حاجزية . ومرة ثالثة حين انكمشت قوة البحر من الإمبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطه) وورثت الدولة الساسانية قوة البر البارثية ، تحققت نفس المعادلة فى أطرافها الأساسية وبنفس النتائج بالنسبة للمنطقة البينية[1] .



شكل (٤) الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) .

والنتيجة الهامة التى يمكن أن نخرج بها من هذه الصورة المتواترة فى الصراع بين قوى البر والبحر هى أنها ، وقد تضخمت وتطاولت أذرعتها إلى أبعاد شبه قارية ، قد أصبحت حساسة بالنسبة للمواقع البينية التى تفصل بينها وواعية باستراتيجية الموقع . فقد شعرت قوى

---

(١) جمال حمدان ، دراسات فى العالم العربى ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٢٤ .

البر الداخلية ، بحكم أنها شبه حبيسة فى قاريتها ، بأنها مغلولة اليد فى صراعها مع قوى البحر التى تمتاز بمرونة الحركة وسهولة الانطلاق على الماء ، ولابد لها فى مواجهتها من السيطرة على المناطق الفاصلة التى تتاخمها من ناحية وتطل على البحر من الناحية الأخرى . وبالمثل وجدت القوى البحرية نفسها محتاجة إلى اجتياح هذه المناطق لتطويق القوى البرية والوصول إليها .

وبهذا وذلك أصبحت هذه المناطق البينية ، الأمفيبية بطبيعتها ، منطقة صراع وأرض معركة بين الطرفين القطبيين . أصبحت محصورة بين شقى الرحى تتنازعها هذه مرة وتلك أخرى ، واتضحت حساسية موقعها الاستراتيجى فى هذا الإطار . ولا تتمثل هذه الخاصية كما تتمثل فى منطقة الشرق الأوسط بحكم وقوعها بين فارس ووسط آسيا فى جانب وروما فى جانب آخر . وقد يبدو فى هذا المنطق ـ مؤقتا ـ أن المنطقة بحكم الطبيعة وبأمر الجغرافيا ضحية موقعها الجغرافى الأوسط ، ولا أمل لها فى السيادة ولا مفر لها من التبعية لقوى البر أو البحر . ولكن هل هكذا درس التاريخ اللاحق ؟

الفصل الثاني

العصور الوسطى
الدولة الإسلامية العربية

ونحن نتقدم خطوة أخرى نحو فهم استراتيجية الصراع التاريخى حين ننتقل إلى العصور الوسطى التى تفتتحها الموجة العربية الكاسحة بانقلاب جذرى فى تلك الاستراتيجية . فقد خرج عرب الاسلام من قلب الجزيرة ليبنوا دولة لم تسبقها من قبل دولة فى الامتداد والرقعة ولم تلحقها من بعد إلا إمبراطوريات العصر الحديث وحدها . بل هى فى نظر ماكيندر الإمبراطورية العالمية world empire الأولى فى التاريخ « تقلد الاسكندر وتستبق نابليون »[1] .

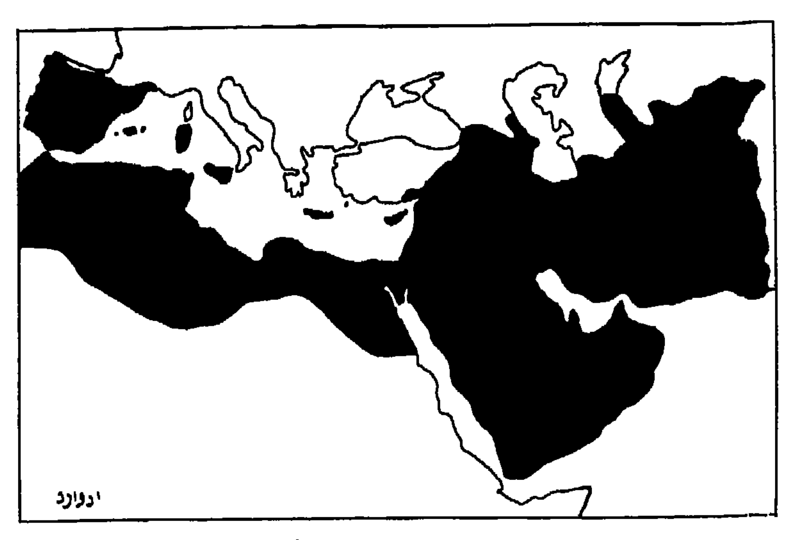
أبعاد الإمبراطورية

فمن أطراف الصين الى أبواب فرنسا . ضمت دولة العرب والإسلام شمال الهند ووسط آسيا وكل هضبة إيران ــ سجستان وخراسان وفارس ــ إلى جانب العالم العربى بتحديده الحديث ، مضافا إلى ذلك جميعا شبه الجزيرة الأيبرية إلا قليلا أو المغرب الأوربى أو المغرب الثانى كما كان يسمى . بل لقد طغت هذه الموجة المدية على شطر كبير من شرقى هضبة الأناضول ــ أرض الروم ــ حيث كانت التخوم الشهيرة (الثغور والعواصم) بين الخلافة وبيزنطه ، وكادت تنتزع القسطنطينية لولا أنها ارتدت فى ٧١٨ ، كما أرسلت فى الغرب ألسنة متقدمة إلى فرنسا وسويسرا ولو أنها ارتدت فى النهاية فى معركة تور ٧٣٢ .

وفيما بين الهامشين انقلب ميزان القوى فى البحر المتوسط رأسا على عقب ، فبعد أن كان الساحل الجنوبى الأفريقى ــ الأسيوى يخضع كلية للساحل الشمالى ، أصبحت السيطرة للساحل الجنوبى على نقط كثيرة من الساحل الشمالى ، كما فى جنوب إيطاليا وبروفانس ،

---

(١) H.J. Mackinder, Democratic ideals & reality. Pelican books. 1944, p. 74; Geog. pivot, p. 39.



شكل (٥) الدولة العربية الإسلامية : قوة برمائية أخضعت قوى البر والبحر

وآلت كل جزر البحر ابتداء من « قبرس وإقريطش » حتى صقلية بل « الصقليتين » والبليار إلى النفوذ العربى[١] ، وهكذا لم تتحطم نظرية وحدة البحر المتوسط بمفهومها اللاتينى الاستعمارى فحسب ، بل تحول البحر جميعا إلى بحيرة عربية شبه خالصة . ولو أن العرب سموه بحر العرب بدلا من بحر الروم لما تعسفوا الحقيقة التاريخية أو الجغرافية فى شىء .

أما فى الجنوب فقد انطلقت الموجة العربية لتتحلق حول المحيط الهندى بسواحله الأفريقية والهندية ، ساحل الزنج وساحل الملبار . ثم توغلت حتى الملايو وجزر الهند الشرقية حيث تغلغل النفوذ العربى الحضارى فى الدرجة الأولى والسياسى فى المحل الثانى . وبهذا تحول المحيط الهندى ـ هذا « النصف محيط » الذى يأخذ إلى حد كبير شكل جمل ذى سنامين قد برك مادا رقبته ورأسه إلى بحار الهند الشرقية[٢] ـ تحول إلى بحيرة عربية لا يشارك فيها مشارك .

والمحصلة النهائية لهذا إمبراطورية تترامى على القارات القديمة الثلاث وتطل أو تشرف على المحيطات الثلاثة الأطلسى والهندى والهادى أو على الأقل تتماس معها . وهى فى نفس الوقت ترتكز على محور قاطع يمتد من ملقا الملايو Malacca فى الشرق إلى ملقا الأندلس

(١) East, p. 186-9.

(٢) G.T. Renner, Global geog.

... « ملق » من أنه بالفعل أصله يستمد عربى الاسمين وكلا ـ الغرب فى (مالقه) Malaga

أو هو كان يمتد من جبل طارق الأطلسى إلى جبل طارق الهادى (سنغافوره) . كذلك كانت الإمبراطورية ترتكز على قاطع آخر يبدأ ـ كما كان يقول مؤرخو الإسلام ـ من فرغانه وينتهى بغانه . هذا بالعرض ، أما طوليا فيصل هذا المجال فى أقصاه من بحر الخزر (قزوين) إلى مدغشقر (واسمها تحريف بالصدفة لمقديشو)[1] . وفى تضاعيف هذه الرقعة تستقر « بحيرتان » عربيتان هما المتوسط والهندى ، كما تتوسطها « أرض البحار الخمسة » : قزوين ـ الأسود ـ « الفارسى » ـ الأحمر ـ المتوسط . فلو قلنا إن هذا المحيط يحدد الجزء الأكبر من المعمور (الإكيومين) العالمى الذى يهم حينئذ لما تعدينا الحقيقة .

إمبراطوريـة تحريريـة

ويجادل كثير من الكتاب الغربيين ـ فى لجاج مفهوم ـ بأن هذه الدولة كانت « إمبراطورية استعمارية » ، لم تخرج عن أن تكون غزوا وإخضاعا وتبعية أجنبية [2] . والحقيقة أن الدولة العربية كانت « إمبراطورية تحريرية » بكل معنى الكلمة كما قد نقول ، فهى التى حررت كل هذه المناطق من ربقة الاستعمار الرومانى أو الفارسى المتداعى واضطهاده الوثنى وابتزازه المادى . وبعدها لم تعرف الدولة الجديدة عنصرية أو حاجزا لونيا بل كانت وحدة مفتوحة من الاختلاط والتزاوج الحر ، وما عرفت قط شعوبية أو حاجزا حضاريا حيث كانت وسطا حضاريا متجانسا مشاعا للجميع . لا ولم تخلق نواة متروبولية سائدة تتميز على سائر المقاطعات والأقاليم فى شيء .

بل إن نواة جغرافية ما لم تحتكر السلطة السياسية قط . على العكس كانت السلطة « دولة بين الجميع » بلا استثناء إن صح التعبير . فقد هاجر مركز الحكم السياسى بانتظام ، فلم يلبث بعد قليل أن ترك « النواة النووية » فى جزيرة العرب التى أصبحت فى النهاية وهى جزيرة الإسلام بقدر ما أصبحت دار الإسلام دار العرب الكبرى Greater Arabia. فانتقل ذلك المركز إلى الشام الأموية ثم غادرها بدورها إلى العراق العباسى حتى تركه فى وقت ما إلى مصر الفاطمية . وكان المغرب مركزا آخر للقوة ، ومثله كانت الأندلس .

---

(١) Statesman's year book, 1961.

(٢) Nevill Barbour, A Survey of North West Africa (The Maghrib), Lond., 1959, P. 16.

واضح إذن أن أخوة الدين كان يقابلها أخوة الأقاليم ، وسواسية الناس كانت تترجم سياسيا إلى سواسية الولايات والمقاطعات . والحقيقة أن الدولة العربية الإسلامية كانت شركة مساهمة بين كل أعضائها وأطرافها ، ولعلنا لا ندفع بالتشبيه إلى أبعد من حدوده السليمة إذا قلنا إنها كانت أول « كومونولث » فى التاريخ بالمعنى الحديث ، مع هذا الفارق الهام جدا وهى أنها لم تمر بالمرحلة الاستعمارية المشينة التى مر بها كومونولث اليوم . والحقيقية — أخيرا — أن دولة العرب الإسلامية هى فصل — أول فصل — فى جغرافية التحرير ، وأبعد شىء عن جغرافية الاستعمار ، وعلى هذا الأساس ننظر إليها ونعالجها .

قواعد الإمبراطورية

كيف أمكن أن تقوم هذه الدولة « الماموث » التى — بالمقياس الجغرافى والاحصائى وحده — تسبق زمانها وعصرها بقرون ؟ أكانت حقا فلتة شيطانية أو نموا طفيليا كما يصور بعض أعدائها ؟ كيف انبثقت من « قلب ميت » فى صحراء الجزيرة ، وكيف جمعت بين أقاليم البر وأقاليم البحر ؟ لا شك أن مما يدعو إلى الحيرة والتساؤل حقا أن تستطيع قوى الصحراء الطاردة — قاعدة أرضية شبه خاوية وموارد طبيعية شحيحة وإنتاج اقتصادى متواضع وكثافة سكانية هزيلة شفافة — أن تقهر وتخضع قوى البر والبحر التقليدية العتيدة فارس شرقا وروما غربا ، وفى مدى زمنى يحسب بالسنين أكثر مما يحسب بالعقود . معادلة صعبة !

إن علينا ابتداء أن نسلم — موضوعيا — بأن هناك حوافز وقوى « ميتافيزيقية » ، لا تستمد من الواقع المادى بل تتخطاه ، تكمن خلف هذه الدينامية المتفجرة والحيوية الدافقة . ولا شك أن جذوة الحماس الدينى المتقدة هى التى ألهبت خيال « المؤمنين » ، حتى تحولت بهم إلى شعلة ملتهبة وتحولوا هم بها إلى مشعل مضىء . ولكن علينا بعد هذا أن نبحث عن أسباب صلبة مادية .

الحلقة السعيدة

ولعل « الحلقة السعيدة » التى تحف بقلب الجزيرة الميت هى البداية السعيدة . فحول مهد العرب دائرة متصلة أو شبه ذلك من الأراضى الزراعية الخصبة الغنية تجعلها « كخرقة بالية حواشيها من الذهب » : الهلال الخصيب فى الشمال بقطاعيه العراق والشام ، وهلال خصيب آخر أقل غنى نوعا فى الجنوب يجمع الحسا وعمان وحضرموت واليمن والحجاز ، ثم

يغلق الدائرة وادى النيل فى مصر[1] . فما أن يضع القلب الميت يده على هذه الحلقة المحدقة إلا وقد ضمن لنفسه قاعدة أرضية عريضة واحتياطيا عمرانيا مكثفا يكفل له كل عناصر القوة . فكان انتزاع الشام أولا من الرومان ثم العراق من الفرس ثم مصر الرومانية كفيلا بأن يمنح العرب عناصر القوة لمزيد من المواجهة مع تلك الإمبراطوريات .

وهنا يأتى دور الموقع . فلا شك أن موقع الجزيرة العربية المتوسط بين قارات اليابس وكتل المعمور وقوى البر والبحر كان منطلقا استراتيجيا خطيرا ، جعل من السهل على العرب أن تمد ذراعيها بسهولة يمينا ويسارا إلى أبعد مدى . والحقيقة التى ينبغى أن نعيها بعمق وإدراك فى هذا الصدد أن كتلة الجزيرة العربية بموقعها وطبيعتها الجغرافية ليست قوة بر فقط كما يظن البعض فى غير دقة ، ولا هى قوة بحر مطلقة بالتأكيد ، وإنما هى تجمع بين قوة البر والبحر ، قوة أمفيبية تضع قدما فى الماء وقدما على اليابس ، بمثل ما تقع بين قوى البحر فى جنوب أوربا غربا وقوى البر وسط آسيا شرقا .

حقا ، لا شك أن الدولة العربية بدأت قوة بر ، وتوسعت بريا ، وتمثل فى جوهرها كتلة أرضية متصلة لا يقطعها ماء إلا فى جبل طارق ، بينما تأخرت سيطرتها على جزر البحر المتوسط نسبيا [2] . ولكن العرب لم يلبثوا بحكم موقعهم وتحدياته أن نزلوا إلى البحر المتوسط ولم يعودوا فيه «كدود على عود» ، بل رادوه حتى تسيدوه ، وكان ذلك بفضل وجود قطاعات بحرية ملائمة فى الدولة تتمم القطاعات البرية المناسبة للتوسع البرى .

فبفضل قطاعاتها البرية العريضة المتناظرة فى مصر والعراق ، استطاعت أن تنطلق برا وتنشر جناحيها الأرضى . فكانت أرض الرافدين الفسيحة الخصبة هى « رأس الحربة » فى توسع العالم العربى فى آسيا بحكم موقعها المتقدم شرقا . ولعل هذا الدور هو الذى يفسر استقطاب السلطة والحكم مبكرا وطويلا فى بغداد العباسية ويفسر معها حضارة دار السلام الرائعة القمية .

وبالمثل كانت مصر هى « رأس الجسر » فى التوسع الأفريقى غربا وجنوبا . ولعل ارتباط الدولة العربية الإسلامية فى البداية بتجارة الصين والموسميات أكثر منها بالعالم الأوربى البيزنطى ـ أي غلبة التوجيه الأسيوى على الأوربى ـ أن يفسر أسبقية دور العراق فى المحيط

---

(١) جمال حمدان ، دراسات فى العالم العربى ، ص ١٤ .

(٢) East, p. 189.

العربى على مصر ، بينما قد يفسر انتقال المركز والقطب إلى مصر فى مرحلة تالية ما أصاب الجناح الشرقى من الدولة العربية من طرقات المغول والتتار ، وبروز العالم الأوربى بالتدريج فى ميدان الانتاج والحضارة ، أى غلبة التوجيه الأوربى على الأسيوى .

أما القطاعات البحرية الحاسمة فى الكتلة العربية ، والتى تتناظر هى أيضا فى الشام والجنوب العربى ، فقد قدمت الترسانات الملاحية اللازمة للخروج إلى البحر . فالشام ـ مهد الفينيقيين ومدرسة البحرية التاريخية ـ كان خشبة القفز التى انقض منها العرب على فلول البحرية الرومانية والبيزنطية وعلى جزر البحر المتوسط إلى أن ناجزوا ساحله الشمالى . ودور الشام الأموى كقوة بحر أشهر من أن نشير إليه ، وتلخصه معركة واحدة : ذات الصوارى ، فهى سلاميس الإسلام أو أكتيوم العرب كما قد نقول .

وفى الطرف المقابل كان الجنوب العربى فى مجموعه هو دائما « بلاد العرب البحرية » ، يرعى البحر مثلما يرعى الجبل ، ويستعمر البحر كما يعمر الصحراء ، ويرمز له ببلاغة السندباد البحرى كمسرح ودراما . ومنذ البداية والعمانيون والحضارمة هم « اغريق المحيط الهندى وبنادقته » . وإذا كان دور التوسع العربى هنا حضاريا وتجاريا أساسا ولم يأخذ الصبغة العسكرية الحربية التى أخذها فى البحر المتوسط ، فما ذاك إلا لأن هذا الجانب خلا من الإمبراطوريات الاستعمارية القائمة والمركزة فى الشمال . ومع ذلك فقد عرف بعض مناجزات هامة مع أساطيل الفرس والرومان .

وكما أعطت البحرية العربية المتوسطية قاموسها الملاحى كاملا أو شبه كامل للغات الأوربية ، كانت البحرية العربية فى الهند هى وحدها التى تملك أسراره ومفاتيحه الملاحية ، فلكيا وهوائيا ، نجومه وموسمياته ، وهى التى أعطتها فيما بعد للقوى البحرية الأوربية (أحمد بن ماجد) .

والخلاصة أن القوة العربية الصاعدة مع الإسلام وإن بدأت قوة صحراء ورعاة تملك حركة mobility الخيالة والأباله ، فإنها سرعان ما تحولت إلى قوة بر وبحر تجمع بين موارد الفلاحين ومرونة الملاحين ـ باختصار قوة برمائية تتوسط قلب العالم القديم وسرته . لقد خرجت عن وصاية الصحراء لتضع قوى العالم الكبرى البرية والبحرية تحت وصايتها[1] .

---

(١) Mackinder, Democratic ideals, p. 70-4.

والمغزى الاستراتيجى لهذه الطفرة مفعم بالدلالات والظلال . فهى تناقض مباشرة دلالة الفترات السابقة حين كانت منطقة الشرق الأوسط والأدنى قوة مغلوبة على أمرها بين قوى البر والبحر ، تتبع إحداهما أو كلتيهما ، بغير ما كيان ذاتى صلب . فهذه التجربة التاريخية الفذة أثبتت أن المنطقة ليست منطقة ضعف كامن بالطبع ولا بالضرورة ، وأنها قادرة على أن تحقق سيادتها بل وأكثر منها أن تخضع القوى الضخمة الواقعة على ضلوعها . هذه التجربة تأتى إذن كمصحح ومكمل لمغزى الكيان الاستراتيجى الكامن للمنطقة فى العصور السابقة ــ واللاحقة كما سنرى .

عوامل الانحدار

والسؤال الآن : لماذا انهارت هذه الدولة العظمى بعد أن ظلت قائمة فى صورة أو أخرى بضعة قرون ؟ هناك مجموعتان من العوامل ، داخلية وخارجية . فداخليا ، لا جدال فى أن ضخامة الدولة وفرط تراميها فى حد ذاته عامل ضعف وتفكك فى النهاية . فمن الصعب جدا أن تمسك بمثل هذا الجسم العملاق فى قبضتك طويلا دون أن ينشطر وتتساقط منه أجزاء وأعضاء وبخاصة أطراف متطوحة . لا سيما أن جزءا كبيرا جدا من الرقعة كان صحارى وأشباه صحارى واستبس أو أشباه الاستبس : شبه فراغ يعوق الحركة والاتصال ويضعف الارتباط ، فى وقت لم تتعد فيه وسيلة الترابط حركة الخيل والإبل التى إن اتسع نفسها فى الحرب والغزو الخاطف فهو ينقطع ويتخلخل فى علاقات السلم المنتظمة الرتيبة المتكررة .

والملاحظ بعد هذا أن الدولة العربية كانت تجنح إلى الافراط فى الاستطالة من الشرق إلى الغرب وإلى التفريط نسبيا فى العمق من الشمال إلى الجنوب مما عرضها ــ من الناحية الميكانيكية البحتة على الأقل ــ إلى التقصف والتمزق[1] . أضف إلى هذا تنافر التركيب الجنسى فى الدولة وتعدد الأقليات والعناصر فى نسيجها السياسى . فرغم أن الدولة كانت وحيدة اللغة عمليا ، فإنها لم تكن بالتصنيف الجيوبوليتيكى الحديث « دولة كثيفة intensive » بل كانت تتراوح بين « الدولة الواسعة والمختلطة extensive, mixed » ، كما كانت جغرافيا دولة عديدة النوايا polynuclear[2] .

---

(١) East, p. 187; Fairgrieve, p. 123.

(٢) Yves M. Goblet, Political geog. & the world map, Long., 1955, p. 185 ff.

من هنا تعرضت الدولة لسلسلة متصلة من الحركات الانفصالية والتفكك : فتعددت الخلافات واستقلت الولايات وانكمش نفوذ الدولة المركزية . وقد أتى على الدولة العربية حين من الدهر تقاسمتها ثلاث أو أربع خلافات : العباسية فى العراق ، والفاطمية فى مصر ، والأندلس فى إسبانيا .. الخ ، وكل منها ـ سيلاحظ ـ يتخذ لنفسه كنواة منطقة زراعية غنية لتكون قاعدة أرضية كافية ، بينما كانت الفراغات الصحراوية هى التخوم الفاصلة بينها .

وفوق هذا وذاك جميعا ، هناك نقطة ضعف أصيلة فى كيان الدولة . فبحكم بيئتها الصحراوية وشبه الصحراوية ، كان عدد السكان فيها ، على الاطلاق وبالنسبة إلى مساحتها ، محدودا فى النهاية . ويضغط ماكيندر على ضعف القوة البشرية man-power وقوة الرجال كعامل جوهرى فى تفتت وانهيار الدولة العربية فى آخر الأمر[1] . بل منذ البداية الباكرة اضطرت الدولة الناشئة إلى أن تترك مهدها فى صحراء الجزيرة وأن تبنى لنفسها قاعدة إيكيومينية حقيقية فى الهلال الخصيب ـ أساسا لهذا العامل الحاسم ، ضعف القوة البشرية وعدم كفايتها لأعباء الدولة الجديدة .

أما العوامل الخارجية التى عملت على تعرية الدولة وتحللها فتعود بنا مرة أخرى إلى موقعها الاستراتيجى البينى بين قوى البر والبحر . فبعد قليل من قيامها واستقرارها بدأت القوى الغربية فى جنوب وغرب أوربا تتجمع ضدها لتنال منها ، وفى نفس الوقت تواترت هجمات القوى البرية من وسط آسيا لتنقض عليها . ولكن هذه وتلك فصل طويل كامل فى ذاته يحسن أن يعالج على حدة . وإنما يعنينا هنا أن نضع خطا تحت هذه الاستراتيجية العريضة ـ استراتيجية الكماشة أو الرحى ـ كعامل خطير فى تضعضع ثم سقوط الدولة الإسلاميه الكبرى .

الاستعمار الصليبي

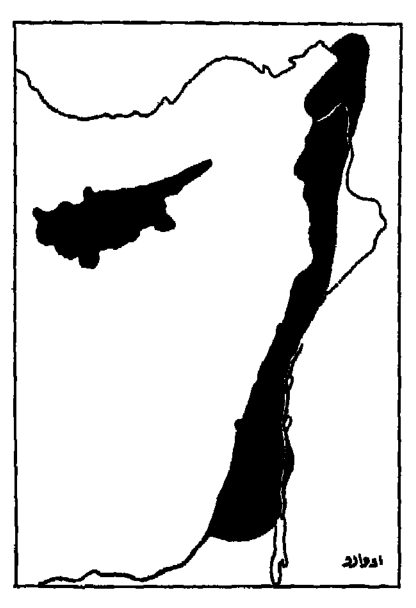
استعمار مقنع بلا قناع

قد تكون الصليبيات بدرجة أو بأخرى اسما على غير مسمى ، لأنها وإن كان الدين شعارها المعلن ، فإن من المسلم به اليوم غربا وشرقا أن محركاتها ودوافعها الخبيئة كانت

---

(١) Democratic ideals, p. 74.

أساسا علمانية : مادية : اقتصادية . فقد كانت الدولة العربية الإسلامية فى الشرق الأوسط والأدنى بحكم موقعها البؤرى تسيطر سيطرة شبه احتكارية على مجمع أعصاب التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وكانت هذه تصب فيها دخلا ضخما يمثل حصيلة استثمارات الموقع الجغرافى ويمنح السراقنه Saracens ، كما كان الغرب يسمى عرب المشرق (ولعلها تحريف للشرقيين أو السوريين) ، يمنحهم قوة مادية وحضارية وحربية لا تقدر .



شكل (٦) الصليبيات في الشام : أقصى التوسع

فبدأت مدن أوربا التجارية النامية تتطلع إلى هذا الفيض الدافق فى غبطة أو حسد ، تريد إما أن تشارك فيه وإما أن تنقض عليه . وضاعف من هذه الغيرة الملتهبة الفارق الحضارى والاجتماعى والمعيشى الشاسع بين الشرق العربى والغرب المسيحى . فبينما كان الأول فى أوج عصره الذهبى ، كان الثانى فى حضيض عصوره المظلمة ، وبينما كان الأول يتمتع باقتصاد زراعى مستقر ، كان الثانى يعانى من اقتصاد زراعى متخلف يكبله رق الاقطاع الفاحش .

ولا أدل على أن الحروب الصليبية كانت حروبا اقتصادية من أنها بدأت وهى تتغذى بمساعدة كبار تجار وأوليجاركية البندقية وجنوا وبيزا وانتهت أقرب شىء إلى حرب القراصنة التى تستهدف النهب والسلب وحدهما . أما دعوى الدفاع عن المسيحيين فى الأراضى

المقدسة وحماية الحجاج من اضطهاد السلجوقية الحاكمة حينذاك فهو بإجماع الآراء حجة ملفقة ومنطق تبرير لا أكثر[1] .

ولهذا فالصليبيات ، فى رأى السواد الأعظم من المؤرخين ، كانت حربا استعمارية : استعمارا سياسيا واقتصاديا لا شبهة فيه إلا شبهة قناع الدين ، بل يعدها بعض كتاب الغرب أول حركة استعمارية كبرى قام بها الغرب الأوربى فى العصور الوسطى . ولعلها فى الحقيقة حلقة الوصل ومرحلة الانتقال بين الاستعمار الجزئى القديم الذى باشرته أثينا وروما وبين الاستعمار الحديث الذى ستخرج إليه أوربا بأسرها فى المستقبل . وهى فى الحالين ليست ـ استراتيجيا ـ إلا مظهرا من مظاهر الصراع بين القوى البحرية الغربية وبين المناطق البينية فى العالم القديم ، وعلى هذا الأساس ننظر إليها .

وليس معنى هذا بطبيعة الحال أن أوربا الغربية تحولت فى تلك الفترة إلى وحدة متماسكة تخلو من المتناقضات الداخلية ، فقد ظلت الصراعات المحلية وصراع الأشباه جنبا إلى جنب مع صراع الأضداد . فكانت الممالك والإمارات والقبائل مستمرة فى حروبها وغاراتها ، وعلى طول السواحل الغربية وحتى الجنوبية زحف خطر قراصنة البحر من الفيكينج الذين نزلوا من بحار سكندينافيا ليغيروا من البحر على كل النطاق الساحلى ، إلا أن تأثيرهم كان محدودا بالمياه الملحة وقليلا ما بمصبات الأنهار ونهاياتها[2] .

ولعل أبرز ما يميز الصليبيات عن موجات الاستعمار البحرى السابقة أنها لم تقتصر على قوة أو دولة واحدة بل خرجت من أغلب دول غرب أوربا وجنوبها ووسطها . ولذا نجدها تأخذ طريقين أساسيتين : الطريق البرية عبر قلب أوربا فالبلقان فالأناضول البيزينطية ، وطريق البحر المتوسط . وإذا كان هدفها الدينى هو الأراضى المقدسة ، فإن الهدف الاستراتيجى اتسع ليشمل إلى جانب الشام كله العراق والحجاز ومصر ، أى النصف الشمالى من دائرة المشرق العربى .

الموجـات الصليبيـة

وتكاد الحملات الصليبية فى الشام تغطى قرنين بالضبط ، الثانى عشر والثالث عشر . ويتعرف المؤرخون خلالها على ثمانى موجات رئيسية ـ آخرون يقولون تسعا ـ ولكن الحقيقة

---

(١) Fisher, Middle East, p. 136; Mackinder, Pivot, p. 38.

(٢) Pivot, p. 36.

أن هذه هي قمم الموجات . أما التيار نفسه فظل متصلا كالسيال الكهربائى . ومن ثم فهى شكلا وموضوعا إلى صورة أرجال الجراد المنتشر أقرب منها إلى صورة أسراب الطيور المهاجرة إن صح التشبيه . كذلك لم تكن تلك الغزوات من صنع جيوش نظامية بل انتظمت كثيرا من ميليشيا البروليتارية والعبودية الاقطاعية . وهذا يعطى الصليبيات مسحة بربرية تذكر بدرجة ما بغارات المتبربرين فى أوربا على الإمبراطورية نفسها[1] .

صليبيـات المشـرق

ولقد بدأت الصليبيات برا عن طريق بوابة قيليقيا البيزنطية وبحرا عن طريق قبرص ، مما يوضح خطورة الأناضول كمدخل برى إلى الشام وخطورة قبرص كمفتاح بحرى وخشبة للقفز على اللفانت ومصر. والواقع أن كلا منهما كان أول مااحتله الصليبيون وآخر ماغادروه . ثم استطاعت الصليبيات أن تحتل ـ فى أقصى توسعها ـ النطاق الساحلى من الشام حتى قمم السلسلة الجبلية الغربية دون أن تتعداها غالبا ، ورسمت زاوية قائمة بتوغلها إلى أعلى الفرات فى الرها . وأقامت فى هذا النطاق سلسلة مفككة من الإمارات وممالك المدن الاقطاعية على غرار تنظيمها السياسى الاقطاعى فى أوربا . وقد كان ترتيب التوسع وإقامة هذة الممالك ، سواء زمنيا أو مكانيا ، هو من الشمال إلى الجنوب : أنطاكية فطرابلس ثم عكا . وهذه الثلاثية نفسها كانت أعظم معاقلهم بالمنطقة بالفعل .

أما لماذا نجحت الحملة الصليبية على هذا النحو ، فذلك لسبب أساسى هو عدم وحدة الشام العربى تقليديا وتمزقه إلى كوكبة متنافسة من دول المدن والولايات « والأتابكيات » الضئيلة الحجم والوزن غالبا . ومع ذلك فإن توحيد الشام العربى بعد ذلك ومساندة ظهيره إلى الشرق لم تكف لرد العدوان ، وكان تحرير الأراضى المقدسة رهنا باتحاد قوة مصر البشرية مع قوة الشام . والغريب فى هذا التحرير أنه ، رغم المصدر الجنوبى ، بدأ من الشمال إلى الجنوب وليس العكس ، أى على نفس ترتيب التوسع الصليبى نفسه أصلا ، إذ تم تحرير أنطاكية أولا ثم طرابلس ثم أخيرا عكا . وعلى أية حال ، فحين تحقق هذا التحرير ، كانت حطين صلاح الدين فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر هى « أرماجدون » الصليبيات وبداية نهايتها . وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر كانت هذه النهاية .

---

(١) Philip Hitti, The Arabs, Lond. 1948.

ولكن مابين بداية النهاية ونهايتها تحولت الصليبيات إلى مصر حيث قد أدركت بالتجربة المريرة أنها قطب المنطقة بشريا واستراتيجيا ، أو كما وصفتها هي حرفيا « رأس الأفعى ومستودع الامدادات » . وإلى مصر من ثم اتجهت ، وعن طريق قبرص أيضا مثلما كانت الحال مع الشام . ففي النصف الأول من القرن الثالث عشر نالت مصر موجتان أبيدتا بالضربة القاضية في براري وسهول الدلتا بعد أن أغرقتا في بيئتها الاسفنجية المشبعة . فعاد صراع التصفية إلى الشام ثانية حيث دفنت الصليبيات في البحر نهائيا .

صليبيات المغرب

إلا أن ذيول الصراع ظلت في البحر المتوسط بعد ذلك طويلا وهي تتراجع بالتدريج غربا . فقد لجأت القوى الصليبية ، بعد أن تكسرت سيوفها على قلعة اللفانت ، إلى لون من « الحصار القاري » للعالم العربي لخنق تجارته مع أوربا ، وإلى « مبارزة بحرية » عبر « كباريه المتحركة » ــ جزره ومضايقه ــ تمثلت في سلسلة من غارات القرصنة على سواحل أفريقيا العربية وفي حملتين من الغزو على تونس في النصف الأخير من كل من القرنين الثالث عشر والرابع عشر . على أن ذلك فشل جميعا . وهنا سنلاحظ أن الصليبيات تحركت في خط سيرها التاريخي حركة محددة مع عقارب الساعة ، فقد بدأت من الشام ثم انتقلت إلى مصر فتونس .

على أن مصير الصراع اختلف تماما في إسبانيا . فإذا اعتبرنا ــ مع جمهرة المؤرخين ــ أن الاسترداد Reconquista هو آخر فصل في الصليبيات ، فإن القرون الثلاثة الثالث والرابع والخامس عشر ترسم في هيكلها وبانتظام خريطة تقدم للمسيحية وتقهقر للعرب نحو الجنوب حتى كان الخروج النهائي في ١٤٩٢ . ويمكن أن نلخص محاور هذة الخريطة ونرمز إلى مراحلها بخطوط « الثغور » العسكرية الثلاثة المتعاقبة التي عرفها وحددها العرب : الثغر الأدنى ، الثغر الأوسط ، الثغر الأقصى . وقد كانت قلاع الشمال الجبلية هي معقل المقاومة ونواة الزحف ، كما كان اطراد اتحاد الإمارات المسيحية مع اطراد انقسام الإمارات العربية هي ضوابط الصراع المصيري . ومع طرد الموريسكيين ــ بضعة ملايين ــ إلى المغرب العربي ، انتهى المغرب الأوربي ، وأصبحت الأندلس « فردوس العرب المفقود » .

التصفية

ولقد كانت الصليبيات درسا حضاريا قبل كل شيء لأوربا . فقد كانت احتكاكا حضاريا بين الشرق المتقدم والغرب المتخلف . وستنعطف أوربا على نفسها بعدها قليلا أو

كثيراً ، وستترك البحر المتوسط فى حالة رهو وترقب إلا من مناوشات القراصنة ، خاصة فى حوضه الغربى ، وذلك لتعكف على تنمية وتطوير ما تعلمته من الشرق العربى حتى تخرج به فى النهاية أقوى من هذا الشرق وتقلب موازين الصراع من جديد كما سنرى . كذلك فقد كانت الصليبيات أول ما وحد أوربا ومنحها شعورا بالقومية حتى ليعدها البعض بداية التاريخ الحديث [1] .

أما من ناحية العرب ، فلاشك أن درس الصليبيات هو درس استراتيجى أساسا . فهى تؤكد لنا مرة أخرى خطورة موقعها البينى الذى يجعلها مطمع أنظار الهامشيين ، وتعلمنا أن قوته رهن بوحدته فى وجه هذا التحدى الموقعى ، وأن بها ــ وربما بها وحدها ــ يمكن أن تأمل فى أن تتصدى للقوى الغربية البحرية مجتمعة وتصدها فى النهاية .

الاستبس الأسيوى

التتار ، المغول ، الأتراك

لم تتوقف غارات الاستبس خلال العصور الوسطى بل ربما زادت عنفا وتخريبا ، ولو أنها تختلف فى تواترها من جانب إلى آخر . فلعلنا لانخطئ كثيرا إذا عممنا فقلنا إن مركز ثقل الموجات الاستبسية انتقل إلى حد ما من الطريق الشمالى السهلى إلى الطريق الجنوبى الهضبى ، أو من أوربا إلى الشرق الأوسط [2] .

ففى الشرق تعرضت الصين لغزوات عديدة مابين القرنين التاسع والثالث عشر . إلا أن موجة جنكيز خان ثم كوبلاى خان فى القرن الثالث عشر كانت أضخم حدث فى تلك المرحلة . فهى التى أعطت الرعاة حكم الصين عدة قرون ، إلى أن كانت آخر موجة فى القرن السابع عشر على يد مغول المانشو ــ أبناء استبس منشوريا ــ فأعطت الصين أسرتها الحاكمة حتى الحرب العالمية الأولى فى القرن العشرين .

أما الهند فقد نالتها فى القرن الحادى عشر موجة التتار الغزنويين التى أخضعت شمالها . فلما كان القرن الرابع عشر أخضعتها جميعا موجة تيمور لنك التى طغت على رقعة كبيرة من آسيا وحكمتها . وفى القرن السادس عشر استطاع أحد خلفاء تيمور لنك وهو محمد أكبر

(١) Mackinder, Pivot, p. 38.

(٢) فى هذه الموجات راجع ديمولان ، سبق ذكره .

Akbar أن يؤسس بالهند إمبراطورية المغول الأكبر التى استمرت حتى الاحتلال البريطانى فى منتصف القرن الثامن عشر.

وإذا التفتنا غربا ، فعلى الطريق السهلى الشمالى يظل الاستبس كما كان مصدرا مزمنا للغارات والغزوات ، إلا أنها فيما يبدو أقل عددا منها فى العصور الكلاسيكية . ولعل هذا يرجع إلى أن جزءا كبيرا من وسط أوربا كان قد بدأ برابرته ورعاته تستقر وتجمد ، وإن ظل شرق القارة متميعا فى تركيبة ومسرحا لقلقلات وتحركات الرعاة . ففى القرن التاسع وصل المجيار إلى المجر ـ التى أعطوها اسمهم ـ نتيجة لضغط الباتزيناك Patzinaks بمنطقة الفولجا ، والذين تحركوا بدورهم نتيجة لضغط الخزر إلى الشرق بمنطقة بحر قزوين (بحر الخزر عند العرب المعاصرين) .

المغـول والغـرب

حتى إذا كان القرن الثالث عشر نجد جنكيز خان ـ هو الذى بدأ بالصين ـ يطرق أبواب شرق أوربا ووسطها ! والواقع أن طوفان جنكيز خان ـ القائد الكبير وسيد القبيل الذهبى Golden Horde ـ عملية تفوق فتوح الاسكندر الأكبر وتتفوق على نابليون فى المدى الجغرافى وإن اختلف المجال . فقد اكتسح نفسه الطويل محيط أوراسيا ـ أكثر من ٣٠٠٠ ميل ـ ابتداء من الصين حتى وسط أوربا ، موحدا بذلك كل السهل الاستبسى الأوراسى العظيم تحت قيادة رجل واحد ، ولعل هذه كانت أكبر إمبراطورية شهدها كل التاريخ قديمه والحديث من حيث المساحة والامتداد(١) . وفيما عدا الأتراك ، كانت هذه الموجة آخر موجة استبسية عظمى تصل إلى أوربا الوسيطة .

وبسبب تلك الموجات سنجد أن هناك فارقا سياسيا بدأ ينمو بين شرق وغرب أوربا . فإذا كانت غرب أوربا قد قفزت إلى مبدأ القومية مبكرا بفضل خطر الاستبس ، فإن القوام السياسى فى شرق أوربا ظل متميعا أبعد مايكون عن التبلور حتى وقت متأخر جدا ، وما زال بعيدا عن النضج السياسى حتى الآن ، وكل ذلك نتيجة للخلط الجنسى والاجتماعى والتخلف الحضارى الذى صحب الاستبس .

أما إذا انتقلنا إلى الطريق الجنوبى ، فكان أحفل فى هذه الفترة بطرقات المغول والتتار

---

(١) John Mogey, The study of geog, H.U.L., 1950, p. 134.

والأتراك . والحقيقة أن تاريخ الدولة العربية الإسلامية فى الشرق الأوسط والأدنى لايمكن أن يفصل عن تاريخ هذه الموجات التى أصبحت بعدا أوليا وأساسيا من أبعاده . بل الواقع أننا ينبغى أن ننظر إلى هذه العناصر باعتبارها برابرة الدولة الإسلامية بمثل ماكان التيوتون والجرمان والوندال .. الخ برابرة الإمبراطورية الرومانية .

فكماكانت هذه تقتطع من جسم الإمبراطورية دولا لها ، فكذلك فعل أولئك بالدولة الإسلامية . وكما كانت الأولى تتصارع فيما بينها ويزيغ بعضها البعض إلى جانب صراعها العام مع الإمبراطورية ، فكذلك نجد برابرة الدولة الإسلامية العربية تتصارع فيما بينها صراع الأشباه ويرث بعضها البعض وذلك فى إطار صراعها العام صراع الأضداد مع الخلافة . وكما كانت روما تحاول تحييد برابرتها بتثبيتهم فى ممالك حدية وتحويلهم إلى المسيحية ، فكذلك كانت الخلافة تفعل مع برابرة المغول والتتار والأتراك حيث تكاثرت على تخومها دولهم الحدية وحيث كثيرا ماكسبتهم فى صفها بإدخالهم فى الإسلام ، ولو أن هذا لم يمنع أن تكون نهاية الدولة على أيديهم ، تماما كما حدث فى الإمبراطورية الرومانية . بل أبعد من هذا ، كما أن البرابرة الأوربيين أعادوا الإمبراطورية الرومانية المقدسة كاستمرار بشكل ما للإمبراطورية التى حطموها ، فكذلك ستنتقل الخلافة الإسلامية إلى أيدى من حطموها وسيحتفظون بها فى صورة ما عدة قرون .

الشرق الإسلامى والعربى

أول ماوصل المنطقة من برابرة العالم الإسلامى الموجة الغزنوية فى القرن الحادى عشر ، وانتزعت فارس وماجاورها . وفى منتصف القرن نفسه أيضا بدأت قوة الأتراك السلاجقة الوافدة من وسط آسيا تتسلل وتظهر فى الدولة العباسية المفككة حتى استطاعوا أن يقتطعوا منها أجزاء كثيرة فى غرب آسيا . فأقاموا قاعدتهم فى كرمان وهمدان ثم فى آسيا الصغرى ، ثم قلبوا الحكم العربى فى بغداد ودمشق واكتسحوا أغلب منطقة البحار الخمسة حتى امتد سلطانهم إلى الشام والأراضى المقدسة ، حيث كان اضطهادهم المزعوم للحجاج المسيحيين حجة من حجج الصليبية . ولكن قوة السلاجقة لم تلبث أن تضعضعت تحت طرقات المغول فى القرن الثالث عشر على يد جنكيزخان .

فقد جاء جنكيزخان فى ثلاثينات القرن ليكسر شوكة السلاجقة ، وقدر لإيران ومدنها أن تتلقى أكبر جرعة من التخريب والتدمير الرهيب . وبعد عقود ثلاثة عاد المغول ــ الوثنيون ــ تحت زعامة هولاكو حيث وصلوا إلى العراق ، فكانت فاجعة بغداد التاريخية

١٢٥٨ ونهاية الخلافة العباسية[١] . وبعدها تقدم المغول إلى الشام مستهدفين مصر فى النهاية فى وقت كانت الصليبيات قد عبرت خط الزوال ودخلت مرحلة الشفق ولكنها لاتزال تستوعب قوة مصر والشام المشتركة .

وهنا نصل إلى حالة فريدة فى تاريخ الشرق العربى وهى أن تواجه المنطقة قوى البر والبحر فى آن واحد ـ أى أن تواجه استراتيجية الكماشة . وبالفعل نجد أن الغرب الصليبى يحاول أن يحصر الشرق العربى بين شقى الرحى ، فحاول أن يتحالف مع المغول ليضع الإسلام العربى الأمفيبى بين حلف المسيحية الأوربية البحرية والوثنية المغولية البرية ، أو أن يحصر السراسنه بين قراصنة البحر وقراصنة السهوب بلغة كارل هاوسهوفر[٢] أو بين ذئاب البحر وذئاب البر بلغة ماكيندر[٣] !

ولعل وضعا فى تاريخ المنطقة العربية لا يمثل خطورة موقعها الاستراتيجى البينى كما تمثله هذه التجربة ، التى بدورها لا يمثل إمكانيات المنطقة وقوتها الكامنه كما تمثلها هى . فرغم أن مصر والشام حاولت سياسة التحييد إزاء هؤلاء مرة وهؤلاء مرة أخرى حتى لاتحارب فى جبهتين فى وقت واحد ، فقد أثبتت المنطقة قدرتها على مواجهة الخطرين معا وفى آن واحد . فبينما ظل الصراع الصليبى مستمرا ، تقدمت مصر المملوكية بقيادة قطز لتعطى المغول أول وآخر انكسار لهم فى عين جالوت التاريخية (١٢٦٠) .

ولكن المطرقة المغولية عادت ثانية بعد قرن مع تيمورلنك ـ الذى اتخذ عاصمته فى سمرقند[٤] ـ ليكتسح فارس والعراق ثم شمال سوريا حتى دمشق ، ولكنة عجز دون جنوبها أمام المقاومة المصرية . وهنا نرى كيف أن أغلب غارات الاستبس تصل دائما إلى العراق الذى يكاد يتاخم قلب الاستبس ، وقد تصل أحيانا إلى الشام ، ولكنها لا تصل إطلاقا أو بالكاد إلى مصر ـ ربما بحكم المسافة المتزايدة ، فإن مصر بعكس العراق أبعد المشرق العربى عن الاستبس الأسيوى ، ولكن أيضا كرد فعل لقوة المقاومة .

وهنا يتضح لنا دور العراق الجديد فى هذة المرحلة ، فقد تحول من « رأس حربة » للعالم العربى إلى « درع » له وقاعدة أمامية ، ولذا تلقى أغلب الضربات التى جاءته من

---

(١) W. B. Fisher, p. 89.

(٢) فايفيلد وبيرسى ، الجيوبولتيكا ، مترجم ، القاهرة ، ص ٥٤ .

(٣) On the scope & methods of geography, Lond., 1951. p. 28.

(٤) W. Fitzgerald. The new Europe, Lond., 1946, p. 171.

الشرق حتى تحطم للأسف ، ولكنه فى هذا قد افتدى العالم العربى كله فكان هذا فضله الكبير جغرافيا وتاريخيا .

ولقد اتجه تيمورلنك بعد ذلك إلى الأناضول حيث كانت قوة الأتراك العثمانيين ، التى بدأت كتابع فى خدمة السلجوقية ضد المغول ، قد أخذت تظهر وتنمو حتى انتزعت لنفسها من الخلافة دولة صغيرة فى شمال غرب الأناضول ، ولم يختتم القرن الرابع عشر حتى كانوا قد سيطروا على كل الأناضول بالاضافة إلى رقعة كبيرة فى البلقان .

وقد اصطدم تيمور لنك بالعثمانيين منتصرا فى معركة أنقرة ١٤٠٢ ، ومع ذلك فقد أوقف هذا اللقاء المد المغولى إلى الأبد ، ولكنه لم يوقف التوسع العثمانى الذى قدر له أن يرث الدولة العربية الإسلامية وأن يضيف إليها إمبراطورية أوربية برمتها . وكانت العثمانية بذلك آخر ما أرسل الاستبس من غزوات وأول ما نجح منها سياسيا فى تحقيق دولة دائمة مستقرة .

المغوليات والصليبيات

ولكن قبل أن نتساءل كيف ولماذا هذا النجاح ، دعنا نقف وقفة مقارنة وتقييم لكل من الخطر التتارى المغولى والخطر الصليبى . فابتداء إذا قلنا الصليبيات والمغوليات فقد قلنا جغرافيا زحف أوربا وآسيا ، وحضاريا خروج الزراع المستقرين والرعاة الرحل ، واستراتيجيا قوى البحر والبر مباشرة ، وإيديولوجيا الاستعمار الدينى والوثنى على الترتيب . وإذا كان طوفان المغوليات المدمر يمثل حل الرعاة التقليدى لمشكلة ضغط السكان ، فكذلك كان الخروج الصليبى على الأرجح هو الحل الأوربى لمشكلة الانفجار السكانى بها فى ظل الاقطاع والدين . وكما كان الأول مدفوعا على الأرجح بموجات الجفاف المناخى فى قلب آسيا الميت ، كان الثانى مدفوعا بالجفاف الحضارى الذى أصاب النظام الاقطاعى وكشف عقمه حين بدأ خطر جرثومة البورجوازية البازغة فى المدن الجديدة يهدده بعد نحو ألف سنة من الاستقرار الزراعى الجامد[1] .

كذلك فإن كلا المدَّيْن لم يخرج فى موجة واحدة بل فى عدة أو عديد من الموجات الكاسحة المتلاحقة ، لاتنكسر إحداها إلا لتعلوها غيرها ، كما خرجا على حد سواء بجيوش

---

(١) لويس عوض ، الملحمة الأخيرة ، الأهرام ، ١٩٧٧/١٢/٣٠ ، ص ١٥ ؛
Philip Hitti, The Arabs, Lond., 1948.

كثيفة جدا بمقياس العصر وفى أعداد لايسعها حصر. المؤرخون الغربيون أنفسهم شبهوا الموجات الصليبية « بغزارة رمال البحر ونجوم السماء » . بينما نعتوا جحافل المغول والتتار بأنهم كأرجال الجراد المنتشر والهيارات الجليدية المنقضة. وبعض الحملات الصليبية تجاوزت المليون محارب . ولم تقل عادة عن نصف المليون . ذلك عدا شرنقة أكثف وأضخم من المتطوعة والأتباع[1] . وبالمثل لم تكن جيوش الفرسان المغول والتتار لتقل عن مئات الآلاف.

أخيرا . وانتهاء . فلعلنا لانبتعد عن الحقيقة كثيرا إذا قلنا إن الخطر التترى المغولى كان صراعا بدائيا أو بدويا نوعا . أى صراعا فطريا بيولوجيا تقريبا . أما الصليبى فكان أكثر تطورا وتحضرا . إذ كان إيديولوجيا دينيا . الخطر التترى المغولى كان « استخرابا » . حيث كان الصليبى استعمارا . استعمارا كاملا بمعنى الكلمة . واستعمارا استيطانيا بالتحديد عند ذلك . ذلك أن الغزو المغولى التترى كان غزوا ذكريا أساسا من الجيوش والشبان . أما الصليبى فكان مجتمعا منقولا مزروعا بالكامل من الذكور والإناث والكبار والصغار. فى كلمة واحدة . كان الأول غزوا والثانى هجرة.

من هنا أيضا كان الأول أشد خطرا وهولا وتخريبا . أقرب إلى الحرب الخاطفة . قصير الأمد على الجملة فلم يطل عن قرن واحد على الأكثر . وإذا هزم فى النهاية ــ كما حدث بالفعل ــ انفض نهائيا . أما الخطر الصليبى فكان أشمل وأوسع جغرافيا . وأطول تاريخيا حيث تكرر مرارا على مدى بضعة قرون . وإذا هزم عاد وعاود الكرة من جديد إلى أن يستنفد آخر قواه وأغراضه.

الأتــراك
نحــو الغــرب

إذا عدنا الآن نستأنف زحف العثمانية الناجح . فسنجد أنه فى الربع الأول من القرن الثالث عشر قد تجرثمت قوة الأتراك العثمانيين[2] فى شمال غرب الأناضول . فاتجه توسعهم غربا ــ وليس شرقا كما قد نتصور ــ وذلك فى البلقان ودون أن يستولوا فى البداية على

---

(١) وحيدة ، ص ٧٦ .

(٢) W. B. Fisher, p. 138-142.

القسطنطينية . ولم ينتصف القرن حتى كانوا يملكون على وجه التقريب مايسمى الآن « تركيا فى أوربا » . وكانت القوة الكبرى التى تقف فى وجههم هى دولة الصرب ، ولكنهم تغلبوا عليها واجتاحوا بلغاريا ثم الصرب ، مستفيدين فى ذلك من فتحة المارتيزا ــ الفاردار الحاسمة ، وواصلين بذلك إلى الدانوب ، والقرن الرابع عشر لما يلفظ أنفاسه بعد تماما . وبذلك صاروا سادة البلقان بلا منازع .

ولكن هذا الخطر حرك الصليبية فى أوربا مرة ثانية ، فخرجت حملة صليبية من كل أجزاء غرب القارة ووسطها ، تراجعت أمامها العسكرية العثمانية على الدانوب قليلا أول الأمر ، حتى سحقتها فى النهاية مابين أول القرن الخامس عشر ومنتصفه . وإذ تم هذا الاقرار pacification ، كان دور القسطنطينية ــ التى أصبحت من قبل إسفينا ضئيلا محاصرا فى وسط الكتلة العثمانية الضخمة ــ كان دورها قد أزف ، فسقطت سقطتها التاريخية الشهيرة فى ١٤٥٣ ، وبهذا ختم على مصير الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطه) إلى الأبد بعد أن ظلت تحتضر قرونا .

وفى نهاية هذا القرن الخامس عشر كانت حدود الإمبراطورية العثمانية فى أوربا قد وصلت من كرواتيا إلى الدون الأسفل . وفى خلال القرن السادس عشر سقطت المجر وظلت تحت العثمانية حتى نهاية القرن التالى ، وأصبحت النمسا بذلك مهددة ، وتحولت فى الحقيقة إلى دولة تخوم ــ كما أراد لها شارلمان حين أنشأها لأول مرة فى وجه الآفار منذ أكثر من ألف سنة ــ دولة حدية تفصل بين تركيا وأوربا . وفى هذا المعنى قال مترنيخ قولته المشهورة : « عند فينا ، آسيا تبدأ : Am der Landstrasse beginnt Asia » . وفى هذا الصدد أيضا لم يكن غريبا أن وقر فى ذهن أوروبا أن الترك لا يغلبون ، تماما مثلما وقر فى ذهن آسيا من قبل عن التتار والمغول .

ثمة الآن بضع حقائق هامة تبرز من استعراض هذا الزحف . فأولا يمتاز التوسع العثمانى بظاهرة القفز الضفدعية leap-frogging ، بمعنى أنه لم يكن متصلا بدأ من نقطة ثم استمر فى اتجاه وخط متتابع بصرامة ، بل هو قد يترك منطقة فى طريقه ويتخطاها إلى مابعدها ثم يعود إلى تلك الأولى . فمثلا قفز إلى البلقان ولم يكن قد سيطر على الأناضول جميعا ، بل لقد ظلت بها أجزاء وقطاعات لم يسيطر عليها إلا بعد أن كان قد وصل إلى الدانوب ! كذلك ظل يقيم فى البلقان بل يملكه قرنا كاملا وبعض قرن قبل أن يستولى على القسطنطينية !



شكل (٧) الامبراطورية العثمانية

ثانيا ، سيلاحظ أن العثمانية توسعت فى أوربا قبل أن تتوسع فى آسيا وإفريقيا ، وأسقطت الدولة البيزنطية قبل أن تسقط الدولة العربية الإسلامية . وقد أعطاها هذا قاعدة أرضية ضخمة لقوة سياسية ومادية وعسكرية كبرى قبل أن تبدأ الاتجاه جنوبا نحو الشرق الأوسط العربى . وهذا يفسر ، من جانب ، السرعة والبتر التى كسحت بهما العالم العربى . فهى لم تكن حينئذ مجرد قوه رعاة وفرسان بدائية ولكن قوة دولة وحضارة بدرجة أو بأخرى .

ثالثا ، سنرى أن هذه أول موجة استبسية تأتى من الطريق الجنوبى الهضبى وتصل إلى أوربا . فبينما ولجت الموجات الاستبسية السابقة قلب أوربا مرارا وتكرارا عن طريق السهل الشمالى ، لم يستطع أحد قبل الأتراك أن يطرق أبواب أوربا عن الطريق الجنوبى . ولعل هذا كان من حسن حظ الأتراك ، فقد أدخلهم إلى أوربا من أضعف ـ وإن لم يكن من أوسع ـ أبوابها حيث كانت البلقان أشدها تأخرا وأضعفها ناصرا وأقربها إلى حضارة الرعى والترحل حينذاك .

نحـو الشـرق

بعد البلقان ، اتجهت العثمانية إلى الشرق العربى وذلك ابتداء من العقد الثانى من القرن السادس عشر ، أى بعد نحو ثلاثة قرون من ظهورهم كقوة لأول مرة فى الأناضول . وقد اتجه الزحف إلى مصر رأسا عن طريق سوريا التى كانت تابعة لمصر المملوكية . وهذا الاتجاه

المجدد يؤكد ماسبق أن أوضحته الصليبيات من أن مصر هى مفتاح المنطقة العربية ، لاسيما أن كل ثقل الدولة العربية الإسلامية كان قد انتقل كاملا ونهائيا إلى مصر بعد تدمير العراق على يد المغول .

ومن الناحية الأخرى فقد سارعت مصر لملاقاة الزحف العثمانى على ضلوع الأناضول نفسها ، كأنما كانوا يدركون منذ ذلك الوقت المبكر أن خط الدفاع الأول عن مصر لايقل عمقا عن تخوم الشام . ولكن تمزقت المقاومة المصرية فى مرج دابق حلب ، وتقهقرت إلى خط دفاعها الثانى فى قلب مصر بعد سقوط الشام . إلا أنها مرة ثانية وأخيرة انهارت فى ريدانية القاهرة ، وسقطت مصر فى ١٥١٧ . وكانت تلك أول مرة منذ الهكسوس والفرس تقع فيها مصر لقوة استبسية .

وفى ذلك الوقت كانت الضغوط المسيحية من حربية وبحرية وقرصنة على المغرب قد اشتدت ووصلت إلى النقطة الحرجة التى استدعت الاستغاثة بقوى الإسلام أنى وجدت . ولما كانت تركيا هى كبراها الآن ، فقد تدخلت بحريا (عروج بربروس وأخوه خير الدين) لحماية المغرب الأوسط ، ولم تلبث أن احتلته فى ١٥٢٩ ، ثم أردفته بتونس فى ١٥٣٤ ، إلى أن توسعت مؤخرا فى طرابلس فى ١٥٦٥ .

وعند هذه النقطة يبدو غريبا بعض الشىء أن تنجح تركيا الآن حيث فشلت مصر ، أو على أية حال لم تغامر ، للأسف من قبل . فمصر المملوكية ، بعد انتصاراتها الحاسمة الداوية على كل من التتار والصليبيين ، لم تستطع أو تشأ أن تساعد المغرب العربى ضد الصليبيات الغربية رغم استنجاد تونس والجزائر بها مرارا وبإلحاح . أما الذى نجح فى هذا الانقاذ فكان الأتراك العثمانيون من الأناضول فيما بعد . وبهذا كان الصراع ضد الصليبية فى البحر المتوسط وخاصة حوضه الغربى دور تركيا أكثر منه دور مصر ، الذى يظل بذلك محليا نسبيا للأسف . ورغم أن كلا من مصر وتركيا قوة أمفيبية أساسا أى برمائية ، فلعل هذا يرجع إلى أن البعد البحرى فى الأخيرة أكبر منه فى الأولى نوعا .

ومهما يكن ، فإذا ماعدنا إلى مسيرة الأتراك فى الشرق ، فقد تأخر التوسع العثمانى فى العراق وذلك فى وجه المقاومة الفارسية ، ولكنه سقط فى النهاية فى ١٥٥٢ . ولم تستطع تركيا أن تتوغل بعده شرقا لأن قوة فارس استطاعت أن تصمد لها ، بل وستصبح ندا عنيدا لها فى المستقبل طويلا . وظلت هناك منطقة متنازع عليها بينهما يتجاذبانها دون أن يتمكن

أحدهما من انتزاعها نهائيا ، فبقيت بعد ذلك حتى النهاية منطقة تخوم قلقة . تلك هى الرقعة الجبلية التى تشمل أرمينيا الشرقية والقوقاز وزاجروس[1] .

استراتيجيـة الإمبراطوريـة العثمـانية

ومرة أخرى تبرز من هذا العرض عدة ملامح واضحة . فأولا ، تتكرر ظاهرة القفز الضفدعى التى سبقت فى البلقان . فبينما استولت تركيا على الشام ومصر ، ظل العراق فترة غير خاضع لها . كذلك سبق الاستيلاء على الجزائر الاستيلاء على تونس ، وهذا سبق الاستيلاء على طرابلس . بل يمكن أن نعتبر زحف العثمانية فى المغرب بمثابة تيار عكسى راجع ، وأن هناك أكثر من نواة منفصلة متباعدة بدأ منها الزحف فى العالم العربى . ولهذا فإن الفكرة الوهلية التى قد تتصور زحفا قوسيا متصلا من الأناضول حتى الجزائر لامكان لها من الحقيقة .

ثانيا ، سقط أغلب العالم العربى وورثت تركيا معظم الدولة الإسلامية العربية فى نحو نصف قرن تقريبا من القرن السادس عشر . وقد تأخر الاستيلاء على أجزاء فى الجزيرة العربية وكذلك السودان إلى مراحل تالية بعيدة . ولكن هناك جزأين لم يخضعا مطلقا للأتراك لتطرفهما ، وهما المغرب الأقصى (مراكش) والجنوب العربى حتى عمان .

ثالثا ، وقع العالم العربى فى يد الأتراك بسرعة وسهولة نسبية لأسباب عدة . أولها ما استمدوه من قوة مادية وسياسية بعد أن ملكوا البلقان وموارده نحو قرنين . سبب ثان الضعف والتفكك والعجز الشديد الذى وصلت إليه الدول العربية فى تلك الفترة ، وهى التى ــ منذ قرنين فقط ــ صدت المد الصليبى والموجة المغولية معا . ولم يتكتل من العرب فى وجه الأتراك إلا مصر وسوريا .

رابعا ، لامفر من أن نلاحظ التناقض الكامن ــ وإن يكن مألوفا ــ فى تفوق قوة رعاة بلا حضارة عميقة مهما كان على منطقة حضارية زراعية راقية ذات أصول عريقة . وإذا كان الاستعمار هو فى التحليل الأخير سيطرة حضارة راقية على حضارة متخلفة ، فإن الاستعمار التركى للعالم العربى يبدو فى هذا المعنى استعمارا عكسيا أو مقلوبا كما قد نقول ، ولهذا سيأتى عقيما فى نتائجه وإنجازاته . وفى هذا الصدد يشبه البعض الإمبراطورية الإسلامية

---

(١) Fisher, p. 139.

العربية بالإمبراطورية الاغريقية ، والإمبراطورية العثمانية بالرومانية : تلك خلقت تراثا وحضارة ، وهذه قامت على القوة العسكرية المحض .

خامسا : جاء الأتراك فى مسوح الدين الإسلامى وتحت قناعه ، وكان هذا فى عصر الدين لا القومية ، وفى وهج ذكريات الصليبيات ، مما سهل عليهم الفتح بلا ريب . بل لقد رأينا أن الجزائر هى التى استنجدت بالأتراك واستدعتهم لحمايتها . ولكن هذا لاينفى الحقيقة المقررة من أن الوجود التركى هنا يعد نوعا خاصا ــ ومحيرا ربما ــ من الاستعمار هو « الاستعمار الدينى » ، ولولا القناع الدينى لعد مماثلا للغزو المغولى الوثنى الذى سبقه ولووجه على هذا الأساس بكل تأكيد[1] .

وكل مظاهر الاستعمار الاستغلالى الابتزازى لاتنقص العثمانية : فقد كانت تركيا هى « المتروبول » وبقية الإيالات والولايات مستعمرات تابعة تعتصر كل مواردها وخيراتها بلا مواربة لتحشد حشدا فى المتروبول . بل لقد قيل إن الأتراك طبقوا فى حكمهم السياسى طريقتهم الاستبسية فى معاملة الحيوان ، فهم ما انتقلوا من رعى قطعان الحيوان إلا إلى رعى قطعان الانسان : كما يفصل الراعى بين أنواع القطعان ، فصل الأتراك بين الأمم والأجناس المختلفة عملا بمبدأ فرق تسد (نظام الملة) ، وكما يسوس الراعى قطيعه بالكلاب ، كانت الانكشارية كلاب صيد الدولة العثمانية ، وكما يحلب الراعى ماشيته كانت الإمبراطورية بقرة كبرى عند الأتراك للحلب فقط[2] .

سادسا ، وأخيرا ، ينبغى أن نسجل بعناية أن الدولة العربية إنما انتهت على يد الغزو التركى وليس على يد الغزو الصليبى ، أى على يد قوة البروليس على يد قوة البحر . وإذا كانت المنطقة قد نجحت فى صد القوتين معا من قبل ، فإن سقوطها فى النهاية على يد قوة البر أكبر دليل على أن هذة القوة لايستهان بها ولها مقومات يجب أن يحسب لها حساب . وإذا كان هذا تحصيل حاصل بالنسبة لتلك الفترة ، فهو أكثر منه نذير وإنذار واضح للمستقبل بوجه خاص كما سنرى بعد حين .

تلك إذن قصة الموجة التركية وقيام الإمبراطورية العثمانية بجناحيها الأوربى والعربى . فإذا نحن حاولنا أن ننظر إليها ككل ، فسنجد عدة حقائق بالغة الأهمية . فلعلها ، أولا ،

---

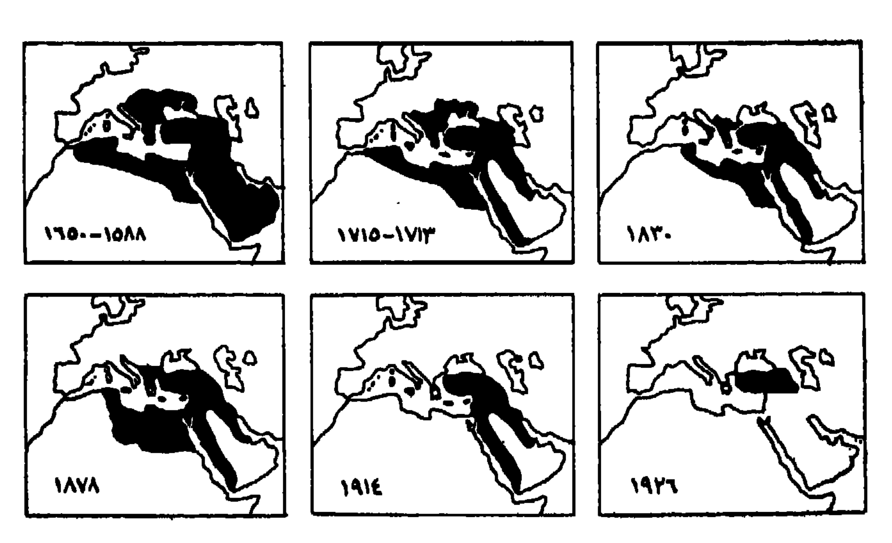
(١) جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير فى العالم العربى ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٣ وما بعدها .

(٢) Fisher, p. 139-141.

غطت مساحة أكبر مما عرفت أى إمبراطورية سابقة عليها باستثناء إمبراطورية جنكيزخان القصيرة العمر . فقد امتدت فى أقصاها من مشارف سهوب الروسيا والدانوب إلى سفانا السودان والنيل ، ومن القوقاز حتى أطلس . وفى تضاعيف ذلك سيطرت على البحر المتوسط وساحله ، هذا بالاضافة إلى البحر الأحمر وبحر العرب ، وبالتالى أصبحت سيدة البرزخ (السويس) والمضيق (البسفور) . وبصورة عامة ، تغطى الإمبراطورية رقعة واحدة متصله لا انقطاع فيها سوى المضيق .

ثانيا ، الإمبراطورية العثمانية هى أول موجة خرجت من الاستبس ونجحت فى إقامة دولة مستقرة طويلة الأمد . فقد تحولت من رعاة رحل إلى حضارة استقرار وتوطن وقطعت كل جذورها بالاستبس ، واتخذت لها وطنا وقاعدة أرضية ثابتة ولو بالتبنى (الأناضول) ... وهى كذلك أول موجة خرجت من الاستبس ونجحت فى إقامة دولة تجمع بين أجزاء من أوربا وآسيا وأفريقيا معا . وقد سبقها من الاستبسيين من أنشأ دولا فى أوربا أو فى آسيا وحدها ، ولكن لم تمتد قط فى الاثنتين معا .

وفضلا عن هذا فقد كانت أول اندفاعة من الاستبس تنساح فى أفريقيا وتبتلع نطاقا كاملا منها . والواقع أن جزءا من السبب فى نجاح الأتراك فى الوصول غربا إلى آفاق أبعد جدا مما عرفت موجات الاستبس السابقة سواء فى أوربا أو فى آسيا وأفريقيا هو أنها لم تبدأ تاريخها الفعال من قلب الاستبس مباشرة كقاعدة ، وإنما بدأت من مركز متطرف نحو



شكل (٨) مراحل انكماش الاستعمار العثماني

الغرب كثيرا ، أى من قاعدة متقدمة هى الأناضول مما أطال ومد نفسها فى ذلك الاتجاه بسهولة نسبيا .

ثالثا ، وأخيرا ، بدأ الأتراك قوة بر مطلقة ن الفرن ت القاعدة الأرضية البرية والجبهة الساحلية البحرية ، أى أصبحت قوة بر مائية فى المنطقة البينية النموذجية بين معقل القوى البرية شرقا والبحرية غربا ، سواء ذلك فى البلقان وشرق أوربا أو فى المشرق العربى . وهذه حقيقة بالغة الخطورة والمغزى ، لا لأن الأتراك فقط أول من فعلها من بين الاستبسيين ، وإنما أيضا لأنها ستفسر أساسا مصير الإمبراطورية واستراتيجيتها السياسية وأنواع الضغوط والصراعات التى ستتعرض لها . وهذا ماينقلنا فى نفس الوقت إلى تطور الاستعمار خارج هذه المنطقة ، وإلى مرحلة جديدة من تاريخ الاستراتيجية العالمية .

الفصل الثالث

عصر الكشوف الجغرافية

يمكن أن نقسم تاريخ الاستعمار فى العصور الحديثة إلى موجتين أساسيتين ، أولاهما تغطى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، واتجهت أساسا وإن لم يكن كلية إلى العروض المعتدلة والبلاد الجديدة ، ولهذا اتسمت بالاستعمار السكنى الاستيطانى إلى حد بعيد ، أما الثانية فتحتل القرن التاسع عشر وتنصرف فى جوهرها إلى العروض المدارية والبلاد القديمة ، ومن ثم سادها طابع الاستعمار الاستغلالى[1] . والمرحلة كلها ترتبط بعدة تطورات طفرية فى الفنون والحضارة البشرية كانت شرطا لازما لتحقيقها . تلك هى الثورات الكبرى الثلاث : الانقلاب التجارى والانقلاب الميكانيكى ، والانقلاب الصناعى . وكل منها يرتبط وثيقا بالآخر ارتباط السبب بالنتيجة ، ولهذا تتداعى منطقيا وتاريخيا .

فالانقلاب الأول ـ التجارى ـ لا انفصال له عن الكشوف الجغرافية كسبب ولا عن الموجة الأولى للاستعمار فى القرنين السادس عشر والسابع عشر كنتيجة . هذا بينما يرتبط الانقلاب الأخير ـ الصناعى ـ مباشرة وحميا ، بل دراميا ، بالموجة الثانية للاستعمار فى القرن التاسع عشر . أما الانقلاب الميكانيكى فانتقالى تمخض عن الانقلاب الأول ومهد للأخير . وسنبدأ هنا بالمرحلة الأولى مرحلة الكشوف الجغرافية واستعمار المعتدلات الجديدة .

الكشوف الجغرافية والاستعمار

مع الكشوف الجغرافية نتعامل مع جذور ، أو على الأقل بذور ، الاستعمار المعاصر مباشرة . فقد ولد الاستعمار الحديث فى حجر الكشوف الجغرافية ولانقول فى رحمها . ففى

---

(١) R.J. Harrison Church, Modern colonisation, Lond., 1951, p. 18-22. 106.

تلك الفترة خرجت أوربا تضرب فى المجهول ، فعادت تحمل إلى العالم عالما جديدا بل عوالم جديدة . ومن الصعب علينا فى القرن العشرين أن نقدر حقا مدى ضخامة ووقع الهزة التى أحدثها هذا الكشف فى وقت كانت رقعة المعمور المعروف محدودة ثابتة لاتكاد تتغير ، ثم فجأة وفى عالم متمدد بأقصى سرعة تضاعف العالم عدة مرات . وربما لايعدل تلك الطفرة فى عالم الإنسان شىء من قبل إلا كشف الزراعة ، ولامن بعد إلا غزو الفضاء .

بل وكما نشهد اليوم انقلابا فى الاستراتيجية العالمية مع عصر الفضاء ، قلبت الكشوف الجغرافية استراتيجية العالم القديم من صميمها . فأولا ، مع اتساع أبعاد العالم اتسعت أبعاد الصراع بين القوى وخرج الاستعمار لأول مرة عن دائرتة التقليدية المغلقة حول حوض البحر المتوسط وتخومه وانتقل من عروضه المألوفة إلى عروض مختلفة كل الاختلاف تحمل معها بيئات مغايرة جدا . ومن الناحية العملية قفز الاستعمار من عالم متناه إلى عالم لامتناه ، وبعد أن كان محليا أو إقليميا أساسا أصبح عالميا كوكبيا تماما .

ثانيا ، بعد أن كانت السياسة والاستراتيجية تتحرك فى عالم مسطح أفقى أو « إقليدى » بكل معنى الكلمة ، أصبحت تتفاعل فى وسط « ريمانى » Riemannian لا إقليدى ، وسط كروى مجسم . ولم يعد للمكان يمين وشمال فحسب ، بل وخلف وقدام أيضا . ولاشك أن أعظم حقيقة تمخضت عنها الكشوف هى وحدة المحيط . فقبلها كان العالم المعروف يتألف من يابس واحد ومحيطين اثنين ، أما بعدها فقد أصبح العالم يتألف من محيط واحد ويابس متعدد[1] . ولم يكن بد من أن يرج هذا كل قيم المواقع الجغرافية الاستاتيكية الموروثة حتى النخاع ، وأن يهز العلائق المكانية التقليدية والنسب الجيوماتيكية geomatic بين القارات والأقاليم والدول ، فما كان منها بالأمس بؤريا مركزيا قد صار اليوم هامشيا متطرفا ـ والعكس .

ثالثا ، كان أخطر مظاهر هذا الانقلاب الجيوماتيكى بروز أهمية المحيط إلى الصدارة . فقد خرج العالم القديم إلى المحيط واتسع نفس الحركة البشرية بعد أن كانت محدودة بالمرحلة البحرية thalassic . فضاعت أهمية البحار الداخلية المغلقة وبرزت أهمية البحار المحيطية epi-continental . فإذا بالبحر المتوسط والبلطيق ، ولكن الأول خاصة ، يفقد كل منهما أهميته التاريخية ، ليصبح الأول زقاقا مغلقا والثانى بركة صيد آسنة herring pond ،

---

(١)

بينما يتحول المحيط الأطلسى إلى « البحر المتوسط » الجديد . ومع هذا الانقلاب انقلب التوجيه الجغرافى للقارات والأقاليم ، فقلبت القارات بطنا لظهر تطلعا إلى المحيط ، وانحدرت قيمة دول وموانى البحر المتوسط لتنتقل الزعامة إلى دول وموانى غرب أوربا[1] .

رابعا ، ومن الناحية السياسية ، أصبح الوقوع على البحار ـ البحر المحيط ـ ميزة كبرى تتمتع بها الدول الساحلية وتجنى حصادها الثرى الفياض ، فبدأ عصر الإمبراطوريات البحرية العظمى ، بينما أخذت الدول الداخلية القارية تتجاذب إلى مغناطيسية البحر كما لو بقدرية ميكانيكية قاهرة . وبمعنى آخر اشتد مغزى الصراع بين قوى البر والبحر كما وكيفا ، أبعادا وأعماقا . ولهذا فمن الآن فصاعدا وإلى أبعد حد ، ستزيغ معادلة الصراع بين البر والبحر كل معادلات الصراع الأخرى كالاستبس والغابة ، والسهل والجبل ، والرمل والطين ، التى كانت تشاركها تفسير التاريخ البشرى ، لتصبح هى وحدها قطب الرحى فى الاستراتيجية العالمية . بل سنجد الصراع بين الاستبس والغابة بالذات يتحول نهائيا ليأخذ شكل الصراع بين البر والبحر .

دور أوربا الغربية

ذلك جميعا هو مغزى الكشوف الجغرافية ، ولكن السؤال المنطقى قبل أن نتتبع خطى الكشوف هو : لماذا خرجت أوربا ـ وأوربا الغربية ـ بالذات فى ذلك التاريخ بعينه ؟ لقد تحرك قطب الحضارة البشرية ومركز الثقل فى القوة السياسية العالمية حركة تاريخية محددة ، وئيدة ولكنها أكيدة ، عبر العصور القديمة والوسطى ، حتى اتضحت بجلاء على أبواب عصر الكشوف إلى أن تبلورت تماما مع الانقلاب الصناعى . فالحضارة نشأت فى دائرة الشرق الأوسط القديم ، مصر والعراق وفينيقيا ، ثم انتقلت إلى كريت فاليونان فروما ، وعشية الكشوف جاء دور غرب أوربا ، جنوبه أولا ثم شماله .

هناك إذن سهم حركى واضح يبدأ من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ، ومن عروض دون مدارية إلى عروض معتدلة باردة . هذا مايعرف فى مجموعه بنظرية هجرة الحضارة نحو الشمال ، بعيدا عن خط الاستواء ، وتجاه القطب[2] . والمسلم به علميا

(١) Derwent Whittlesey, Earth & state, Wash., 1944, p. 56-59.

(٢) E. Huntington, Civilisation & climate, 1924, p. 396-7; Mainsprings of cilvilisation, N.Y., 1945.

وتاريخيا أن هذه الحركة ارتبطت تماما بالاحتكاك والاقتباس الحضارى ، بمعنى أن كل مركز لاحق استمد حضارته أصلا من مركز سابق ثم نماها إلى مستويات أعلى ربما . والكشوف الجغرافية فى الحقيقة لاتخرج كثيرا عن هذه القاعدة .

غير أن كثيرا من الكتاب الغربيين يحلو لهم أن يردوها إلى حيوية وتطلع غير عادى فى شعوب غرب أوربا ، وإلى حب استطلاع ومغامرة وتفوق طبيعى فى الجنس . هم بمعنى آخر يثيرون تفسيرا عنصريا . إلا أن الحقيقة أن أوربا الغربية خرجت إلى الكشوف بسبب عدة ضوابط وضواغط أهمها ماجاء من الخارج وأقلها ماصدر عن الداخل . وبتحليل هذه العوامل لن نعدم أن نرى أثر مراكز الحضارة والقوة الأسبق من عرب واستبس وغيره ، ويمكن أن نحدد تلك العوامل فى ثلاثة : حضارى ، وسياسى ، وجغرافى .

العوامل الحضارية والسياسية

فحضاريا لا جدال فى أن الكشوف نتيجة من نتائج النهضة الأوربية ، وهذه بدورها وبالقطع نتيجة من نتائج الاحتكاك الحضارى بالعرب . فمن مركز الحضارة العالمية فى العصر الوسيط ــ العالم العربى ــ تسربت عناصر الحضارة المادية وغير المادية إلى أوربا عبر البحر الأبيض المتوسط مع التجارة والانتقالات ، ولكن بصورة درامية حاسمة فى الحروب الصليبية التى أيقظت أوربا من سباتها وتخلفها . ويكفى كمجرد مثال أن إسبانيا ماعرفت البارود والأسلحة النارية التى ستبنى بها إمبراطوريتها إلا نقلا عن العرب أثناء صراعها معهم . وقد انعطفت أوربا بعد ذلك على ذلك الدرس الحضارى وتمثلته ثم طورته ماشاء لها التطوير . وبفضل ذلك التراث ــ وبما فيه من فنون البحر بالذات ــ استطاعت أن تخرج إلى المحيط .

أما سياسيا فقد كانت أوربا الوسيطة تعيش فى عالم اقطاعى ممزق ، عالم الفرسان والأقنان ، والأمراء وعبيد الأرض . وبذلك كانت تتألف سياسيا من موزايكو لانهاية له من الوحدات المحلية والإقليمية الضيقة ، سواء من دوقيات وبارونيات الاقطاع أو دول المدن ونقابات الأوليجاركية guilds ، الكل قد مزقته الحروب والصراعات الصغيرة . ولم يكن من الممكن لمثلها أن تخرج إلى استعمار الكشوف بهذا الهيكل السياسى البدائى القزمى . بل هى لم تخرج إلا بعد أن بدأت فيها جراثيم القومية الأولى والشعور والوعى بالذات الوطنية واتجهت نحو لم جزئياتها السياسية فى وحدات وطنية أكبر فى طريقها إلى الدولة الوطنية الحديثة nation state .

وهنا نقرر مباشرة أن الذى دفعها إلى هذه الطريق إنما هى ضغوط القوى الخارجية المعادية . فكما يعترف ماكيندر ، إن الذى خلق الشعور القومى مبكرا فى أوربا هى الضغوط الثلاثة التى أحدقت بها من جهاتها الثلاث : خطر الفيكينج من الشمال ، والاستبس من الشرق ، والسراسنة (العرب) من الجنوب . وقد رأيناه من قبل يعترف بأن الآسيويين فى موقعة شالون كانوا يصنعون فرنسا الحديثة دون وعى . كما رأينا أن الصليبيات كانت أول حركة وحدت أوربا وهى وإن تكن إطارا دينيا فإنها تدريجا نمت إلى منتهاها الطبيعى وهو الاطار القومى . ويكفى أن الوحدة السياسية ثم الكشوف الجغرافية بدأت مباشرة فى إسبانيا والبرتغال بعد طرد المور والعرب وكرد فعل للصراع معهم . إن القومية المبكرة والوحدة الوطنية الباكرة التى عرفتها أوربا ، ومكنت لها من الخروج إلى الكشوف والاستعمار ، هى فى التحليل الأخير هدية غير مقصودة من العرب والشرق .

أكثر من هذا ، إن الضغوط الشرقية والأسيوية هى – جزئيا على الأقل – التى قذفت بأوربا الغربية إلى ماعبر المحيط ! لقد سبق أن رأينا أن غزوات الاستبس وموجاته هى التى دفعت القبائل المتبربرة غربا حتى قفزت من القارة إلى جزيرة بريطانيا هنا وإلى جزيرة البندقية هناك . وبالمثل ، ولكن فى إطار مختلف ، قد يمكن أن نقول إن مما دفع بأوربا الغربية لتقفز قفزة أوسع عبر المحيط إلى العالم الجديد ضغط العالم العثمانى من الشرق حين أغلق طرق التجارة البرية مع الشرق الأقصى حتى اضطرت أوربا قسرا إلى البحث عن الطريق الدائرى البديل . وفى إلماعة موحية وثاقبة ، يؤكد فيرجريف هذا الرأى حيث يقول : « ...ليس من المستكثر أن نقول إن القبائل الغازية (الأسيوية) ، بتوسيعها لأفق النظرة ، كان لها تأثير واضح جدا فى إحداث سلسلة الظروف التى أدت إلى كشوف كولمبس ومن تلاه »[1] .

العوامل الجغرافية

يبقى أخيرا من العوامل التى أهلت أوربا الغربية للكشوف ، العامل الجغرافى موضعا وموقعا . فمن الواضح أن البيئة الطبيعية هنا بيئة بحرية مثالية . القارة كلها ليست إلا « شبه

(١) ص ١١٣ A.E. Moodie, Geog. behind politics, Lond., 1947, p. 86.

جزيرة من أشباه الجزر »[1] ، سواحل مترامية متعرجة « مسننة » بالخلجان والفيوردات والريا rias ، ومحمية بالجزر والأرخبيلات ، خلفها أنهار وأحواض أنهار غنية ، تدعمها غابات أخشاب جيدة وآجام القنب والكتان ، وثلاثتها خامة بناء السفن ، هذا إن لم تقع وراء تلك السواحل أو الأنهار تربات جرداء وأقاليم برمتها « متجلدة glaciated » تطرد السكان طردا إلى البحر ، والبحر بدورة غنى بثروته السميكة الكثيفة .

وإذن فكل عوامل الجذب فى البحر مكفولة ، وعلى اليابس إما عوامل طرد وإما قواعد أرضية متواتية لغزو البحر . كذلك لن ننسى أن هذه البيئة البحرية الفريدة كانت من عوامل سرعة تبلور القومية فى غرب أوربا . فبفضل تداخل المحيط فى اليابس وتقطيعه له بالبحار الداخلية والخلجان الكبيرة ، انقسم اليابس إلى وحدات جغرافية طبيعية معقولة الأحجام ، متميزة الحدود ، واضحة الشخصيات ، مما سهل تبلورها القومى ونشأة الدولة الوطنية الحديثة فى كل منها .

ثم هناك أخيرا الموقع المواجه للعالم الجديد المجهول . ولعل مما ينبغى أن نلاحظه هنا أن ما خرج إلى الكشوف والاستعمار البحرى بعد ذلك من أوربا إنما هو غربها الساحلى البحرى فقط ، ابتداء من النرويج والدنمرك حتى إسبانيا والبرتغال ، بينما أن الدول الأبعد عن نفوذ وعالم المحيط كالسويد وألمانيا ثم شرقها لم تدخل فى مرحلة ما حلبة الاستعمار البحرى ، ولا يستثنى منها إلا بعض مقاطعاتها الساحلية كبراندنبرج فى ألمانيا ، وعلى مقياس متواضع عند ذلك .

الاستعمار البرتغالى
نحو الشرق

بدأت الكشوف فى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر من البرتغال وبها . وكان هذا أمرا طبيعيا إلى حد بعيد ، وامتدادا للحروب الصليبية إلى حد ما . فبعد — بل حتى قبل — طرد المور من أيبريا ، استأنف البرتغال والإسبان صراعهم الصليبى بمده ونقله إلى المغرب العربى نفسه . فمنذ غارات القرصنة الإسبانية على المغرب وقبل الاسترداد النهائى انتزع الإسبان سبتة ومليلة على الساحل المقابل[2] ، بينما بعده بقليل بدأ البرتغال فى

---

(١) Whittlesey, p. 87.

(٢) Nevill Barbour, loc. cit.

إقامة مستعمرة على الساحل الأفريقى للمغرب هى « الغرب عبر البحر » ، مقابلة لمقاطعتهم هم المعروفة الغرب Algarve [1] . وهكذا كانت البرتغال بموقعها من أفريقيا وفى أفريقيا فى موضع يسمح لها بالمخاطرة جنوبا فى « بحر الظلمات » .

ثم كانت هناك الرغبة العارمة فى انتزاع تجارة الشرق الثمينة من العرب والوصول إلى جزر التوابل بالدوران حول اليابس الأفريقى أى بطريق بحرى بديل . وثمة فوق هذا الرغبة الصليبية الكامنه فى الانتقام من الإسلام بتطويقه والالتفاف حوله ، وهى الرغبة التى أعطت الاستعمار البرتغالى من بدايته نزعة كثلكية ومسحة صليبية لاشك فيها . فالاستعمار البرتغالى ــ والإسبانى من بعده ــ خرج أولا « كاستعمار كاثوليكى » وظل كذلك طويلا فيما بعد . يؤكد هذا أن البابوية باركت أكثر من مرة امتلاك الإسبان والبرتغال لكل ما قد يكتشفونه « خارج العالم المسيحى » ، كما أنها هى التى قسمت العالم بعد قليل مابين القوتين الجديدتين .

هكذا فى مدى عقد واحد من الاسترداد (١٤٩٧ ــ ١٤٩٩) كان البرتغال قد داروا حول الكيب (دياز) ووصلوا إلى الهند (داجاما) . وهم إذا كانوا قد أفادوا من التجاريات الشمالية الشرقية فى بداية الرحلة ، فقد أفادوا فى نهايتها من الموسميات الجنوبية الغربية التى أعطاها العرب (أحمد بن ماجد) سرها ــ ليكونوا لهم عدوا وحزنا ... فقد كانت النتيجة المباشرة لهذا الكشف عملية « أسر » كامل للعرب : فالطريق البحرى الجديد كان « أسرا نقليا » للطريق البرى التقليدى بحيث « سرقوا » الموقع الجغرافى البؤرى للعرب ، ومعه سرقوا تجارة الشرق ، ومع هذا وذاك سرقوا قوتهم السياسية بالكامل .

وينبغى أن نضغط جيدا على حقيقة هامة وهى أن توسع البرتغال إنما قام على حساب العرب أساسا سواء تجاريا أو استراتيجيا ، وهم فى الواقع الذين ورثوا دورها السلمى وبدأوا انهيارها العسكرى . وإذا كانت المدن الإيطالية قد شاركت العرب فى هذا المصير ، فهذا باعتبارها المكمل الأوربى الثانوى فقط فى سلسلة تجارة الشرق القديمة . ففى خلال العقد الأول من عودة داجاما من الهند كانت سفن العرب من الاسكندرية وبيروت تدخل البندقية فارغة لأول مرة . لقد غاض الدم وجف من الشريان والوريد معا ، فتوقف قلب الاقتصاد العربى الإسلامى .

---

(١) Fairgrieve, p. 137.

وفى خلال العقد نفسه كان غزو البرتغال لجزر الهند (الشرقية) قد اكتمل ، وهزم العرب فى بحر العرب وفى ملقا ، واستقرت قوة البرتغال على كل سواحل الهند والمحيط الهندى[1] . فبدأوا بمطاردة دول المدن العربية على طول ساحل شرق أفريقيا ، وفى العقد الأول من القرن السادس عشر استولوا على جزر البحرين وأقاموا فيها الحصون والمواقع factories ، وظلوا بها نحو قرن كامل حتى تمكن العرب من طردهم . وفى العقد الثانى من نفس القرن هاجموا عدن مرتين ولكن بدون جدوى ، وكذلك فعلوا بمسقط حيث نجحوا فى البقاء نحو نصف قرن[2] .

صــراع الأضــداد

وفى هذا الصراع العربى ــ البرتغالى فى الهند تحالف البرتغال مع الحبشة المسيحية التى قدمت لهم مساعدات كثيرة ضد مصر خاصة . وكان التعاون بينهما قد بدأ فى الواقع قبل الكشف بقرن كامل إبان الصليبيات ، وكان بينهما مشروع خيالى لتحويل مجرى النيل الأزرق فى الحبشة إلى البحر الأحمر لتجف مصر وتنقرض جوعا ! .. وقد حاول ألبوكيرك بعد الكشف تنفيذ هذا الحلم « الفاوستى » المريد ، ولكن الجغرافيا سخرت منه وبددته تبديدا . وعموما فقد كانت استراتيجية البرتغال أن تكتسح العرب من الباب الخلفى بعد إذ عجزت من الباب الأمامى ، وحاولت أن تطوقهم بكماشة فكاها فى المغرب وبحر العرب .

ولقد كان هذا جميعا إيذانا بنهاية الدولة العربية ، فبدأت الانحدار الرهيب الذى سيجعلها بعد قليل فريسة سهلة للعثمانية . وهذه بدورها ستأتى لتخنق ــ بسياستها الجمركية الابتزازية الغبية ــ البقية الباقية من تجارة المرور وتضاعف من الانهيار المخيف . وقد حاول الأتراك فيما بعد ملاقاة البرتغال فى المحيط الهندى وبحر العرب والبحر الأحمر ، ولكنهم هزموا فى النهاية فى موقعة ديو البحرية .

على أن الإمبراطورية البرتغالية فى الشرق لم تزد فى الحقيقة على نقط ومواقع عسكرية منتشرة على السواحل ، ولم تمتد أبدا على مساحات واسعة من اليابس ، وكانت فى نمطها أقرب ما تكون إلى نوع الاستعمار الاغريقى مع هذا الفارق أنه لم يعرف استعمار السكنى والتوطن . فمن ناحية ظلت أفريقيا بالنسبة للبرتغال مجرد عقبة لا عتبة إلى الهند ، وكل

---

(١) Fairgrieve, p. 140.

(٢) Royal institute of international affairs. The Middle East, Lond., 1958, p. 103, 132, 143.

قيمتها لها أنها موطئ قدم ونقط مراحل على الطريق ، ولهذا لم يزد استعمارها فيها عن نقط وأشرطة ساحلية ومواقع حربية أهمها فى ساحل غرب أفريقيا (ساحل الذهب) وشرق أفريقيا . وفى المراحل التالية أصبحت المواقع البرتغالية على ساحل غرب أفريقيا محطات لحشد وتصدير الرقيق . وفى الهند لم يتعد البرتغال نقطة قاليقوط على جنوب الساحل الغربى فى البداية ، ولا رقعة جوا على شماله فى النهاية ، ولعل مما ساعد على حصرهم على الشقة الساحلية حائط جبال الغات المنيع [1] .

ومن ناحية أخرى لم يكن لدى البرتغال ، بعددهم المحدود ، القوة البشرية الكافية للاستعمار السكنى الاستيطانى حتى لو أرادت . بل إن أمر هذه القوة البشرية ليثير الدهشة حقا ، ففى عصرها البطولى هذا لم تكن البرتغال تزيد على المليون نسمة سكانا ! [2] فالغرابة إذن ليست فى سقوط الاستعمار البرتغالى فى النهاية ، وإنما هى فى الدرجة الأولى فى قيامه أصلا . ولهذا وبالأحرى كان الاستعمار السكنى الاستيطانى سؤالا غير وارد على الاطلاق ، وظل الاستعمار البرتغالى فى جزر الهند الشرقية « استعمار البهار » أساسا وبامتياز . ومن ثم يمكن أن نلخص محاور الاستعمار البرتغالى فى ثلاثية : الكثلكة : التجارة : الغزو .

تحلل الإمبراطورية

وسيلاحظ أن البرتغال ــ التى هى أول بناة الإمبراطوريات ــ قد حققت استعمارها فى عقود قليلة بسرعة غير عادية ، وملكت مناطق أضعاف أضعاف مساحتها هى وتترامى فى إطار جغرافى لا يقل عن نصف محيط الأرض ! .. ومع ذلك ، ورغم أن القرن السادس عشر كان بلا نزاع قرن سيطرة وتسيد البرتغال وإسبانيا ، فان الإمبراطورية البرتغالية لم تعمر فى الواقع أكثر من جيل بالكاد . ولم تلبث بعد ذلك أن أخذت فى التقلص والانكماش . فما أن ظهرت قوى بحرية جديدة حتى انهارت البرتغال بلا مقاومة تقريبا [3] . ففى الوطن ضمت إسبانيا إليها البرتغال بمستعمراتها فى نهاية القرن السادس عشر. ورغم أن البرتغال استعادت كيانها بعد ذلك ، فقد كانت تلك هى الضربة القاضية . وإذا كان لها مغزى فهو أن موقع البرتغال الممتاز وتجارتها القائدة لم تجد شيئا أمام ضخامة إسبانيا : لقد كان لابد للموضع الضخم أن يتغلب على الموقع مهما كان ممتازا .

---

(١) Mackinder, scope & methods etc., p. 28.

(٢) Whittlesey, p. 403.

(٣) Fawcett, p. 422.

ومن ناحية أخرى اهتبلت هولندا كقوة بحرية صاعدة فرصة تحطيم البرتغال على يد إسبانيا لترث دورها وتجارتها بل ومستعمراتها ، وكانت تلك بداية دخولها دائرة الإمبراطورية . فلم تزل « تختطف » من البرتغال مواقعها ومستعمراتها فى الهند والهند الشرقية واحدا بعد الآخر ، حتى تقلصت الأخيرة إلى جيوب قزمية متخلفة ــ دامان وجوا فى الهند وتيمور فى الهند الشرقية ــ وحتى ليمكن القول إنها فقدت إمبراطوريتها فى العالم القديم . وهنا لم يتبق لها إلا مستعمرتها القارية الضخمة البرازيل فى العالم الجديد .

وإذا كان الغزو البرتغالى فى العالم الجديد قد جاء سريعا ، فقد جاء الاستقرار بطيئا . فقد ظلت البرازيل فى البدء مجرد نقطة تموين فى الطريق إلى الهند لا أكثر ، وكان أغلب المهاجرين الأوائل إليها من المجرمين والمطرودين . لكن ضياع الإمبراطورية فى الشرق نقل اهتمام البرتغال إلى البرازيل فى أواخر القرن السادس عشر بعد ذلك الاهمال الطويل . فبدأ الاستثمار الزراعى المدارى بالأبعاديات والعمل الوطنى والسخرة . غير أنه لما لم يصلح الهنود لذلك ، بدأ جلب الرقيق الأفريقى بأعداد ضخمة منذ ذلك الوقت حتى تضاءل بجانبهم عدد البرتغاليين كثيرا ، وكان البرتغال بذلك مؤسسى مدرسة الرق فى العصر الحديث . وفى وقت ما من القرن السابع عشر كانت نسبة الزنوج إلى البيض فى باهيا ــ على سبيل المثال ــ نحو ٢٠ ــ ١ [١] ورغم أن القرن الثامن عشر شهد بعض موجات للذهب والماس فى البرازيل ، فقد ظلت الزراعة المدارية هى أساس الاستعمار البرتغالى هناك .

الاستعمار الإسبانى [٢]

كان لنجاح البرتغال فى الوصول إلى الهند شرقا نتيجتان مباشرتان ، أولا : أنه ما دامت كروية الأرض حقيقة فمن الممكن الوصول إلى الهند غربا ، وثانيا : أن عدوى الكشف انتقلت بالمنافسة إلى الجارة المباشرة إسبانيا . ولكن إسبانيا وإن تكن بسواحلها وموقعها دولة بحرية ، فهى لم تكن أمة بحرية بقدر ما كانت أمة رعاة وفرسان المزيتا . ولعل مما له مغزاه أن كشوف إسبانيا قام بها اثنان من غير الإسبان ، كولمبس الجنوى ، وماجلان البرتغالى . والحقيقة أن وضع إسبانيا سواء فى الوطن أو فى الاستعمار عبر البحار يشبه بالنسبة

---

(١) Kimble, p. 21-22.

(٢) فى هذا الموضوع راجع :

Whittlesey, p. 403-470; Fairgrieve, p. 128-145; East, p. 350; 354; Fawcett, p. 422-5.

للبرتغال وضع الرومان بالنسبة لليونان : حجما وقوة ، توجيها بحريا ، ترتيبا زمنيا ، نوع استعمار ، ثم علاقة مصير .

نحو الغــرب

وقد خرجت إسبانيا إلى الكشف بعد التوحيد مباشرة مغربة فى الأطلسى . ومن الطريف أن نلاحظ أن هذا عكس اتجاه البرتغال فى الكشوف ، وكلا عكس مواقعها النسبية فى الوطن . وليس من المؤكد أن إسبانيا أول من غامر فى الأطلسى ، فهناك أدلة على محاولات أسبق . فالنورس Norse وصلوا من سكندنافيا إلى جرينلند وأقصى أصقاع أمريكا الشمالية فى العصور المظلمة ، كما أن هناك رواية « الفتية المغررين » من عرب الأندلس الذين يقال إنهم خرجوا من البرتغال إلى شمال أمريكا الجنوبية . هذا عدا النظرية الصينية الحديثة التى تجادل بأن الصينيين سبقوا كولمبس إلى العالم الجديد عن طريق الهادى .



شكل (٩) الاستعمار في العالم الجديد ١٧٦٣

إلا أن كشف النورس جاء موءودا من البداية لأنه انتهى إلى نهاية اللامعمور ، أما الفتية فلم يعودوا ، والكشف الصينى إن صح لا أثر تاريخى له . وهكذا قدر لإسبانيا أن تكشف أمريكا ، وقدر للأطلسى أن يخترق لا من حيث يضيق إلى أدناه فى الشمال ولكن من حيث يتسع إلى أقصاه فى الوسط . وقد لعبت الرياح دورا هاما فى توجيه وتوقيع الكشوف الإسبانية والاستعمار الإسبانى بعدها . فقد اتخذت رحلة الذهاب مسارا متعمقا نحو الجنوب حتى تحملها الرياح التجارية الشمالية الشرقية الدائمة ، مما انتهى بكولمبس إلى جزر الهند « الغربية » وأمريكا الوسطى . هذا بينما كانت رحلة العودة تأخذ مسارا أكثر شمالية بكثير لتفيد من الرياح العكسية الغربية .

ورغم أن كولمبس لم يعرف قط أن هناك « أمريكا شمالية » ، فالمهم أن جزر الهند الغربية كانت أول ما وطئ الإسبان ، فكانت لصغرها وتفتتها فريسة سهلة لهم ومن ثم ، شأن كل الجزر الساحلية المماثلة ، خشبة قفز مثالية على القارة ـ وستكون بالمثل آخر ما يغادرون من العالم الجديد . ومن أمريكا الوسطى توسع الإسبان بعد ذلك شمالا عبر هضبة المكسيك ، وفيما بعد وصلوا إلى فلوريدا وكاليفورنيا . ومن أمريكا الوسطى أيضا عبروا برزخ بنما إلى الهادى وتمددوا على طول ساحل أمريكا الجنوبية الغربى ومنه دلفوا إلى نطاق مرتفعاتها الغربية ، إلا أنهم أهملوا شرق أمريكا الجنوبية المنخفض كما لم يهتموا إلا متأخرا بالأرجنتين . وبهذا يرسم تقدمهم فى أمريكا الجنوبية قوسا هلاليا عكس عقارب الساعة ، يبدأ من جزر الهند ثم يتبع المرتفعات الغربية إلى أن ينتهى فى سهول الأرجنتين .

وقد تم ذلك جميعا أو تقريبا قبل أن ينتصف القرن السادس عشر ، بل الواقع أن الهيكل الأساسى لكل الإمبراطورية الإسبانية فى أمريكا اللاتينية تم وضعه فى ربع قرن فقط . وهو معدل مذهل ، لا سيما إذا عرفنا أن إسبانيا حينئذ لم تكن تتعدى ٦ ملايين نسمة ، مقابل ١٢ مليونا من الهنود الحمر . وفى أوج الاستعمار الإسبانى لم تقل المساحى دى خضعت له صف العالم الجديدمرهنلم تزحف نحو الثلثين ، وذلك يعادل مساحة الوطن عشرات المرات !

كيف نفسر هذا ؟ ـ بالفارق الحضارى والحربى بين الغزاة والوطنيين أولا ، أى بين البارود والمدفعية والفروسية وبين أسلحة المشاة البدائية . ولكن هناك أيضا العامل الجغرافى ، فإن هناك تشابها طبيعيا ومناخيا كبيرا بين هضاب أمريكا وهضبة المزيتا فى الوطن ، وكان هذا مما سهل عملية الانتشار وسرعة التمدد . ونفس هذا العامل الطبيعى

هو الذى يفسر لماذا لم يتوغل الإسبان كثيرا فى أمريكا الشمالية ، فهناك يبدأ وسط بيئى ومناخى مختلف كثيرا عما ألف الغزاة المتوسطيون ، وهناك بالتالى وضعت الطبيعة الحد السياسى للاستعمار الإسبانى . وإذا كان هذا قد وصل إلى أعماق مذكورة فى أمريكا الشمالية ، فقد جاء ذلك متأخرا وانحسر مبكرا .

ومع كشف العالم الجديد كان لابد من تنسيق السيادة بين إسبانيا والبرتغال . فنالت إسبانيا ـ فى تحكيم البابوية فى معاهدة توردسيلـلاس ـ كل ما يكشف فى نصف الكرة الغربى ، والبرتغال كل ما يكشف فى نصفها الشرقى ! .. وقد جعل خط هذه المعاهدة شرق أمريكا الجنوبية (البرازيل) من نصيب البرتغال ، بينما أصبح بقية جسم أمريكا الجنوبية والوسطى إمبراطورية قارية إسبانية ضخمة ، ولو أن البرتغال تخطت الخط كثيرا نحو الغرب بعد ذلك .

وفى نفس الوقت كان ماجلان يتجه إلى مضيق ماجلان ليعبر الهادى ويكشف الفلبين (التى أعطيت اسم الملك الإسبانى) ويصل إلى جزر الهند الشرقية . وبهذا دار حول الكرة دورة كاملة ، وكانت رحلته تعادل رحلتى دياز وكولمبس معا ، وعلى نطاق أضخم بكثير أيضا . ومع ذلك فسيأتى هذا الطريق فاشلا تجاريا لأنه أطول جدا من طريق البرتغال ، على أنه منذ ذلك الحين دخلت الفلبين فلك الإمبراطورية الإسبانية .

وهكذا خرجت إسبانيا والبرتغال من الوطن وقد أعطى كل منهما ظهره للآخر ليجدا نفسيهما فى النهاية يلتقيان وجها لوجه فى الشرق الأقصى : إسبانيا فى الفلبين شرقا إزاء البرتغال فى جزر الهند الشرقية غربا : أى على غرار مواقعهما فى أيبريا وعلى عكس ترتيب المواجهة بينهما فى أمريكا الجنوبية . وبهذا أغلقت الدائرة الاستعمارية حول محيط الكرة الأرضية ، وأصبحت إمبراطورية البرتغال تمتد من الأنديز فى الغرب إلى جزر الهند الشرقية فى الشرق ، وإمبراطورية إسبانيا تمتد من الأنديز وجزر الهند الغربية فى الشرق إلى الفلبين فى الغرب !

الاستعمار الأيبيرى : مقارنة

ولئن كان الاستعمار الإسبانى يشترك مع البرتغالى فى المثل التبشيرية ، فإنه يختلف عنه فى أنه لم يستهدف التجارة أصلا ، وعلى كل حال فإن المناطق التى دخلها لم يكن بها بهار أو تجارة لتستغل . أما « بهار » الإسبان فكان المعادن النفيسة ، الذهب والفضة . ولهذا اندفعوا فى أمريكا الجنوبية مباشرة إلى المرتفعات الغربية الغنية جيولوجيا بهذه الثروات فى

المكسيك وبيرو ، فى حين أن جزر الهند الغربية وشرق القارة لم تكن بها ثروة إلا الزراعة المدارية التى تحتاج إلى أيد عاملة كثيرة وأبعاديات واسعة ولهذا تأخر استثمارها فترة ما . وفى المرتفعات وجد الإسبان مجالا لهدف أساسى من أهدافهم وهو الغزو ، فحطموا ممالك الأزتك والإنكا وغيرها من الدول الهندية ، وفى هذا برز دور الغزاة الفاتحين conquistadores كورتيز وبيزارو .

وأخيرا فإن الاستعمار الإسبانى يختلف عن البرتغالى فى أن الأخير دخل مناطق مأهولة بالسكان كثيفة ومدارية ، فلم يكن ثمة مجال لاستعمار سكنى ، ولم يكن للبرتغال على أية حال القوة البشرية لمثله . أما الاستعمار الإسبانى فقد حدث فى مناطق مخلخلة قليلة السكان يصلح كثير منها بحكم ارتفاعه لتوطن البيض . ولهذا ، ولوفرة القوة البشرية فى إسبانيا نسبيا ، اتخذ نمطا سكنيا استيطانيا سيشتد فيما بعد ويتحول إلى خلط جنسى لا مثيل له فى أى قارة أخرى . والحقيقة أن الهجرة الإسبانية ظلت ذكرية أساسا لفترة طويلة ــ دليل آخر على طابعها العسكرى ــ مما فتح الباب أمام التزاوج من الوطنيين ، ثم فيما بعد مع الزنوج المجلوبين .

ويمكننا أن نلخص الموقف كله فى أنه إذا كانت أركان الاستعمار البرتغالى هى التبشير والتجارة والاستعمار الاستراتيجى الساحلى ، فإن أركان الاستعمار الإسبانى هى التبشير والمعادن النفيسة والغزو والاستعمار الاستيطانى أو السكنى . وبهذا يبدو الاستعمار البرتغالى ، كما ألمحنا عابرين من قبل ، أقرب فى طبيعته ومجاله إلى الاستعمار الإغريقى القديم بمركبه التجارى ــ البحرى ــ النقطى ، بينما يقترب الإسبانى كثيرا من الاستعمار الرومانى القديم العسكرى ــ الأرضى ــ القارى .

وإذا كانت إسبانيا والبرتغال قد تقاسمتا السيادة والقوة العالمية فى القرن السادس عشر ، فقد كانت اليد العليا لإسبانيا بكل تأكيد بحكم جرمها وضخامتها ، بل لقد رأينا كيف ضمت البرتغال فى نهاية القرن وحطمت قوتها . وقد احتكرت إسبانيا التجارة طويلا وحرمت القوى الأخرى من التجارة فى إمبراطوريتها Spanish Main كذلك . إلا أن إسبانيا لم تكن تملك شيئا فى العالم القديم سوى الفلبين .

ولكن إذا لم يكن لإسبانيا إمبراطورية فى الشرق أو العالم القديم كالبرتغال ، فقد عوضت عنها بإمبراطورية كبرى فى أوربا نفسها : فكان لها أملاك واسعة فى إيطاليا ، وآلت إليها الأراضى المنخفضة (هولندا وبلجيكا) بالوراثة ، وحاولت أن تعيد

الإمبراطورية الرومانية « المقدسة » ، وتطلعت إلى السيطرة على أوربا جميعا . ولذلك دخلت حروبا طويلة فى غرب القارة ووسطها ، هذا عدا الحرب مع الأتراك ، مما امتص طاقتها فى النهاية وأنهكها .

مرحلة السقوط

ولقد كان المنافس والعدو الأكبر لإسبانيا على القارة هو فرنسا . وحاولت الأولى ـ وهى التى كانت تطوق أملاكها فرنسا من الجنوب ومن الشمال فى الأراضى المنخفضة ومن الشرق فى إيطاليا والراين ـ حاولت غزوها ولكنها فشلت . كذلك ستنجح هولندا فى انتزاع استقلالها من إسبانيا وشيكا . ثم حاولت إسبانيا غزو انجلترا فى نهاية القرن بالأرمادا « التى لا تقهر the invincible Armada « (Armada armata arms) ، فكانت الهزيمة الشهيرة فى سنة ١٥٨٨ التى وضعت حدا لإسبانيا كقوة بحر . وإذا كان هذا قد ترك بريطانيا آمنة فى جزيرتها ، فقد ثبت أيضا استقلال هولندا ، وأكد وقفة فرنسا فى وجه إسبانيا ، وأنهى أطماع السيادة الإسبانية .

هكذا ضاعت إمبراطوريتها الأوربية مثلما ضاعت إمبراطورية البرتغال فى الشرق ، ولم يتبق لها ـ مثلها ـ إلا إمبراطوريتها فى العالم الجديد . وحتى هذه لم تلبث القوى الجديدة فرنسا وهولندا وبريطانيا أن بدأت تتخاطفها بالقوة فى جزر الهند الغربية خاصة . فانتزعت بريطانيا جميكا وبعض جزر الأنتيل الصغرى فى القرنين السابع والثامن عشر ، وابتلعت فرنسا جواديلوب والمارتنيك ، كما اقتسمت الاثنتان هايتى ، بينما خرجت كل من هولندا والدنمرك ببعض الجزر الصغرى ، إلى أن تظهر الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر لتتم تصفية التركة . وبذلك بدأ دور إسبانيا العسكرى يؤول إلى فرنسا ، مثلما آل دور البرتغال التجارى إلى هولندا ، وهاتان هما القوتان اللتان سينتقل إليهما الصراع على السيادة العالمية فى القرن التالى .

الفصل الرابع

الاستعمار البحرى
الثلاثة الكبار

الاستعمار الهولندى[1]

القرن السابع عشر هو بلا ريب قرن هولندا[2] . فقد طفرت فيه إلى المقدمة كقوة بحرية تجارية استعمارية ، ودخلت الاستعمار من أوسع أبوابه . وقد كانت الأراضى المنخفضة (هولندا وبلجيكا) خاضعة لإسبانيا ، وشاركت بهذه الصفة فى التجارة البحرية الجديدة بدرجة ما فى وجه الاحتكار التجارى البرتغالى . ولكن الحقيقة أن موقع البرتغال ــ أيبريا عامة ــ وإن أعطاها الأسبقية إلى الشرق ، لم يكن الأمثل بالنسبة لتجارة الشرق مع أوربا ، لأن أيبريا تنعزل عن القارة ومواصلاتها البرية بالحائط الجبلى والبعد الجغرافى . ومنذ أن انتهى دور المدن الإيطالية ، أصبح المدخل الطبيعى لتجارة أوربا مع الشرق هو الأراضى المنخفضة باعتبارها نهاية الشارع الرئيسى للحركة فى قلب القارة ، ونعنى به الراين الذى ــ وحده من بين أنهار غرب القارة ــ يتوغل حتى قلبها .

ولم تتوان هولندا عن توظيف هذا الموقع المدخلى الجديد . فنجحت أولا فى انتزاع استقلالها من إسبانيا فى حروب الاصلاح الدينى فى العقد التاسع من القرن السادس عشر ، وذلك بفضل تحصنها فى دلتاها الاسفنجية وإغراقها لأراضيها الواطئة فى وجه العدو ، بالاضافة إلى مزاياها كأمة ملاحية فى بيئة بحرية مثالية . هذا بينما ظلت بلجيكا إسبانية ولم تستطع أن تخرج إلى البحر والاستعمار فيما بعد ، إلا فى موجة القرن التاسع عشر .

ومنذ ذلك الحين ، بدأت تجارة البهار والشرق تنصب انصبابا فى هولندا ، التى ورثت دور البرتغال بمثل ما ورثت أنتورب دور لشبونه ، فصارت أكبر مركز تجارى فى أوربا . أو

---

(١) Fairgrieve, p. 146-160, East, p. 354-8, Fawcett. p. 425.

(٢) Harrison Church, p. 21.

قد نقول بطريق غير مباشر : ورثت هولندا دور إيطاليا ، بل دور العرب . وسنحت الفرصة الكبرى لهولندا لتأكيد مكانتها حين حطمت إسبانيا قوة البرتغال . ثم حين تحطمت قوة الأرمادا .

قـرن هـولنـدا

فبدأت هولندا تنقض على المستعمرات البرتغالية (الإسبانية فى وقت ما) . وقبل أن يمضى نصف قرن على الاستقلال كانت هولندا فى كل بحار العالم ، وبعدها بقليل وصلت إلى أوج قوتها وانتزعت السيادة من البرتغال فى جزر الهند الشرقية التى ظلت ــ باستثناء تيمور ــ هولندية بعد ذلك باستمرار . وهى بذلك قد ورثت إمبراطورية البرتغال كما ورثت موقعها الجغرافى ودورها التجارى . وفى الطريق إلى الهند أقاموا مستعمرات ساحلية فى ساحل غانه ، وكانوا أول من نزل فى الكاب بموقعه الحيوى بعد إذ أخطأها البرتغاليون بصورة محيرة وغير مفهومة .

ثم بعدها امتلكوا جزيرة موريشس (التى أعطوها اسم أميرهم موريس) ، وأخيرا احتلوا جزيرة سيلون حيث سيكون لهم دور طويل فيها . أكثر من هذا غامر الهولنديون من جزر الهند الشرقية جنوبا حتى كشفوا ساحل شمال أستراليا لأول مرة فى بداية القرن السابع عشر وحتى سميت لحين ما بهولندا الجديدة . كذلك كشف تازمان تازمانيا ونيوزيلند (نسبة إلى زيلند بهولندا) فى النصف الأول من نفس القرن . إلا أن هذه الكشوف لم تؤد إلى دور استعمارى ما .

لا . ولم تقتصر الإمبراطورية الهولندية على العالم القديم . بل أسسوا مستعمرات فى البرازيل وجيانا . وكانوا هم الذين اكتشفوا لأول مرة رأس هورن الذى يحمل اسم إحدى قراهم . فضلا عن ذلك امتلكوا مفتاح مدخل أمريكا الشمالية فى نيو أمستردام (نيويورك فيما بعد) . وعدا هذا فقد تسيدوا تجارة البحار والمحيطات بالنقل البحرى لكل أوربا ، حتى سموا أنفسهم « نقلة البحر Wagoners of the sea rouliers des mers » . كما سماهم غيرهم « بقالة أوربا » .

وسيلاحظ عند هذا الحد أن الإمبراطورية الهولندية صورة محرفة للإمبراطورية البرتغالية : ففى أوربا نفسها لم يكن ثمة مجال لتوسع أى منهما ابتداء . أما عبر البحار فكل منهما إمبراطورية بحرية ساحلية تتألف من رقع متناثرة . كذلك فقد بدأت تجارة لا توطنا ، وذلك بحكم كثافة السكان فى مستعمرات العالم القديم . ومع ذلك فقد تحولت هناك

بالتدريج من الاستعمار الاستغلالى إلى درجة ما من الاستعمار السكنى ومن التجارة إلى الأبعاديات ، بينما فى العالم الجديد ساد هذا الطابع الأخير مبكرا .

وكالبرتغال ، لم يكن لتوهج هولندا ولمعانها كقوة بحرية أن يبقى طويلا . فهى مثلها تعانى أساسا من قاعدة أرضية محدودة الرقعة ، فقيرة فى تربتها وإنتاجها الزراعى ، لا تعرف الكفاية الذاتية حتى فى الغذاء ، فاقدة حتى للموارد الغابية والمعدنية اللازمة لبناء السفن . والواقع أنه كان على هولندا أن تستورد كل مقومات حياتها اليومية والغذائية والبحرية شأنها فى ذلك شأن بريطانيا فيما بعد ، حتى لقد قيل إن كل رأسمالها لم يكن سوى موقعها الجغرافى وكل خامها لم يكن إلا النقل . ومن ثم كان مقتلها يكمن ــ كالبرتغال ــ فى حرمانها من تجارتها ...

ثم هى كانت كالبرتغال أيضا تعانى من قوة بشرية محدودة الحجم ، ولها مثلها حدود برية مشتركة مع قوة ضخمة ــ فرنسا ــ على يديها سيكون تحطيم قوتها كما خبرت البرتغال على يد إسبانيا . وتماما كما اغتنمت هولندا الفرصة لترث البرتغال ، فستغتنم قوة بحرية أخرى ــ بريطانيا ــ الفرصة لترث هولندا ! بل كانت هولندا فى وضع أسوأ من البرتغال ، لأنها وقعت بين شقى رحى فرنسا على القارة وبريطانيا فى البحر .

دور الانحـدار

ففى القرن السابع عشر بدأت كل من فرنسا وإنجلترا تتطلع وتخرج إلى البحر وتنافس هولندا على التجارة العالمية والقوة البحرية . ولكن خطر فرنسا كان الأسبق ، ظهر فى القرن السابع عشر ، غير أن هولندا استطاعت أن تحتفظ بقوتها إزاءها طوال هذا القرن ، فى حين كان موقف إنجلترا أقرب إلى السلام الاسمى ، ولم يتخذ شكلا حربيا إلا فى القرن الثامن عشر . وعموما فلم يكن عداء بريطانيا لهولندا أو خطرها عليها يصل إلى عداء فرنسا وخطرها . ويتراوح تاريخ الصراع إما بين حروب منفصلة بين هولندا وفرنسا أو بين هولندا وإنجلترا ، وإما بين حروب أحلاف بين هولندا وفرنسا ضد إنجلترا أو بين هولندا وإنجلترا ضد فرنسا .

وفى كل هذه الحالات وأيا كانت النتائج المباشرة للحروب ، كان هذا عبئا خطيرا على موارد هولندا المحدودة وامتصاصا لطاقتها . وقد كان دور فرنسا فى تحطيم قوة هولندا أكبر من دور بريطانيا ، لأن هولندا كانت أضعف على البر منها على البحر كثيرا ، فكان يمكن أن

تواجه بريطانيا بدرجة أو بأخرى ، أما مع فرنسا فلم يكن ظل لندية ما . ومع ذلك فقد كان صراع هولندا مع الإنجليز فى البحر مريرا بل وحشيا ، واستماتوا فى وجههم لأنهم هم مباشرة الطامعون فى تجارة المحيط ، حياة هولندا أو موتها .

ولا يبدأ القرن الثامن عشر إلا وكانت هولندا قد فقدت معظم تجارتها وخسرت كل قوتها البحرية ، وخرجت تماما من دائرة صراع القوة ، وأصبحت بمثابة برتغال الشمال . حتى مستعمراتها أخذت تتقلص فيما بعد ، كما فى أعقاب الحروب النابليونية حين انتزعت بريطانيا منها مستعمرة الكاب ، هذا عدا أنها هى نفسها سقطت لفرنسا نابليون . وكما انقضت هولندا من قبل على المستعمرات البرتغالية فى الشرق الأقصى ، انقضت إنجلترا على مستعمرات هولندا هناك . ومن الغريب أن هولندا بعد ذلك مالت ـ تماما كالبرتغال ـ إلى أن تصبح حليفا تقليديا بل وعالة على الحماية البريطانية سواء فى القارة أو فى البحر أو فى المستعمرات . وباختصار فقد ورثت بريطانيا بالذات دور هولندا مثلما ورثت فرنسا دور إسبانيا .

الاستعمار الفرنسى

مع نهاية القرن الخامس عشر كانت فرنسا قد استكملت وحدتها القومية حول باريس . غير أنها فى وصولها وتدعيمها لحدودها الشرقية البرية غير الواضحة دخلت فى صراع برى مع القوى المجاورة استغرقها مدى النصف الأول من القرن السادس عشر ، كما أنفقت نصفه الآخر فى حروب الاصلاح الدينى . كذلك كان عليها أن تقاوم أطماع إسبانيا فى السيطرة عليها طوال ذلك القرن . فلم تكن لذلك كله مستعدة للخروج إلى العالم الخارجى سواء فى القارة أو عبر البحار إلا مع مطلع القرن السابع عشر .

ولكن إذا كانت قوة إسبانيا قد تدهورت حينذاك ، فقد كانت هولندا فى طريقها إلى السيطرة البحرية . ولهذا أصبحت السياسة الفرنسية منذ ذلك الوقت موزعة بين هدفين محوريين : التوسع القارى شرقا وصولا إلى « الحدود الطبيعية les limites naturelles » ، عقدة فرنسا منذ البداية وإلى اليوم ، وبناء قوة بحرية عظمى للتوسع عبر البحار . وقد قام على تلك السياسة كل من ريشيليو وكولبير فى القرن السابع عشر . وسيصبح هذان الهدفان والتمزق العضوى بينهما ملمحا أساسيا مزمنا فى كل كيان فرنسا المقبل[1] .

---

(١) Fairgrieve, p. 146-160.

ولا شك أن فرنسا خلال العصور الحديثة وحتى الانقلاب الصناعى كانت أوسع وأرسخ وأقوى قاعدة أرضية فى غرب أوربا : فهى تكاد تمثل أقصى رقعة للدولة الوطنية الموحدة قبل عصر السكك الحديدية [1] ، وهى ضعف بريطانيا مساحة ، وكانت إلى ما قبل الانقلاب ضعفها سكانا . ثم هى أغنى القوى بالموارد الطبيعية وأقربها إلى التوازن الحرفى والاكتفاء الذاتى . وقدكان من الممكن لها أن تبنى أعظم قوة بحر فى ذلك الوقت ، بل بنتها بالفعل فى بعض مراحل القرنين السابع والثامن عشر ، وكان من الممكن لها أن تكون إمبراطورية استعمارية كبرى ، ونجحت فى ذلك فعلا .

إلا أن توزيع اهتمامها بين البحر والقارة ، وحروبها المتصلة فى القارة ، كان يمتص مواردها وطاقاتها بإزمان ، ويسلب أكثر مشاريعها البحرية كثيرا من إمكانياتها . وفضلا عن هذا فإن فرنسا ، بغناها الزراعى الداخلى واقترابها التقليدى من الكفاية الذاتية ، لم تكن تشعر بقوة طرد طبيعى على اليابس أو قوة جذب على البحر . كذلك فإنها ـ كإسبانيا ـ دولة بحرين مما يعوق وحدة أسطولها البحرى [2] . وفى هذا كله تكرر فرنسا دور إسبانيا وتوسعاتها إلى حد بعيد وإن يكن على نطاق أكبر . والحقيقة أنها ورثت إسبانيا استراتيجيا مثلما ورثت هولندا البرتغال ، وكما كان على إسبانيا إن تواجه البرتغال كان على فرنسا أن تتصدى لقوة هولندا الطافرة .

فى أوربـــا

وقد بدأت فرنسا بانتزاع الأراضى المنخفضة (بلجيكا) من إسبانيا المتداعية فى منتصف القرن السابع عشر . وبدأت حروبها ضد هولندا مستفيدة من تحالف إنجلترا معها ضدها فى بعض الحالات حتى تداعت قوة هولندا على يدها فى نهاية القرن . ولكن فرنسا رغم ما تراكم لديها من قوة بحرية ضخمة لم تكن تسيطر على التجارة المربحة إلا إلى حد ضئيل ، وظلت ـ بحريا ـ قوة عسكرية أكثر منها تجارية . ولذلك فقد كانت إنجلترا هى التى ورثت دور هولندا التجارى رغم أن فرنسا هى التى حطمت قوتها عسكريا ـ تماما كما كانت إسبانيا هى التى حطمت البرتغال ولكن التى ورثتها هى هولندا !

(١) Mogey. p. 125.

(٢) Ibid. p. 124.

ولذلك أيضا كانت هذه القوة البحرية كاستهلاك لا يقابله إنتاج عبئا على مواردها . وقد كان أمام فرنسا إمكانية بناء إمبراطورية تجارية فى البحر المتوسط والشرق العربى تزرى بهولندا وتعجز إنجلترا ، إلا أن ترددها بين الاهتمامات القارية البرية والتوسع البحرى بدد مشاريع كولبير وضيع نصيحة الفيلسوف ليبنتز المعروفة فى هذا الصدد .

ورغم أن قوة بريطانيا البحرية حربيا وتجاريا كانت تطفر فى القرن الثامن عشر باستفحال ، ورغم أنه كان على فرنسا أن تتصدى لها بحيث تحول هذا القرن إلى صراع ثنائى خطير بينهما ، فإن من الممكن أن نعد القرن الثامن عشر قرن فرنسا كأكبر قوة فى أوربا ، فقد كانت تفوق بريطانيا على القارة برا ، ولا تقل عنها بحرا . وقد جمعت فرنسا قواها مع إسبانيا خلال القرن عدة مرات فى حروب مطولة ضد بريطانيا بسبب توسع تجارة هذه توسعا خطيرا . ولكن ظلت صراعات فرنسا القارية خاصة مع النمسا تستنزف طاقاتها .

وفى أواخر القرن كان الفارق فى القوة بين فرنسا وانجلترا يزداد ضيقا ، إلى أن كانت انتفاضة فرنسا نابليون بعد الثورة وفيها وصلت السيادة الفرنسية فى أوربا إلى قمتها ـ ولكن أيضا إلى نهايتها . فقد انتهى لمعان القوة الفرنسية وبريقها الشديد كالشهب إلى احتراق أخير ، لتعطى فرنسا مكان الصدارة لبريطانيا .

تفصيل ذلك أن نابليون حاول أولا أن يؤسس إمبراطورية فى المشرق فى مصر والشام تكون مواقع الخطى إلى الهند كى يضرب بريطانيا فيها ، أو لتكون مصر لؤلؤة الإمبراطورية الفرنسية فى مقابل الهند لؤلؤة الإمبراطورية البريطانية كما قيل . وفى مرحلة تالية حاول أن يغزو بريطانيا فى جزيرتها ، لكن قصور فرنسا البحرى التقليدى وصل إلى قمته فى هذه المحاولة التى انتهت بالطرف الأغر . وكانت المرحلة الأخيرة هى « الحصار القارى » لبريطانيا لحرمانها من كل تجارة أوربا . وفى هذا السبيل أخضع أوربا جميعها عدا السويد والنطاق العثمانى ، كما انتهى به إلى حملة الروسيا القاتلة . ولعل هذه كانت أعظم إمبراطورية أوربية شهدتها العصور الحديثة إن لم يكن التاريخ جميعا . لكن تلك كانت نقطة الضعف النهائية : فقد اتسعت الجبهة إلى مدى غير عملى ، فجاءت النهاية نتيجة للاستنزاف المطلق لقوة وموارد فرنسا[1] .

---

(١) Fairgrieve, loc. cit.

تلك التوجيهات وهذه الصراعات تنعكس بوضوح على الاستعمار الفرنسى عبر البحار . ففى النصف الأول من القرن السادس عشر وصلت فرنسا فى العالم الجديد إلى السنت لورنس (جاك كارتييه) ، وأسست فى النصف الأول من القرن التالى مستعمرتها الكبرى فى كيبيك (كويبك) كنواة لكندا الفرنسية أو « فرنسا الجديدة » (شامبلين) . وقد بدأت هذه حقل صيد للفراء ثم حقل توطن وزراعة ، ولكنها ارتبطت بصرامة بالنهر حيث كانت الكتلة اللورنسية الغابية الجرداء إلى الشمال تضع حدا للتوسع [١] . وحتى على النهر ، ارتبط التوسع بآخر حد للملاحة المحيطية الممكنة حينذاك[٢] .

ومن البحيرات اقتيدت فرنسا تلقائيا إلى قلب القارة ، فهبطت فى النصف الثانى من القرن السابع عشر مع المسيسبى حتى وصلت إلى الخليج (لاسال) . وعلى محور نهرى – مرة أخرى – أسست مستعمرة لويزيانا المترامية التى تشمل القطاع الأكبر من سهول وسط القارة[٣] . والحقيقة أن فرنسا كانت خير من أفاد من الأنهار فى التوسع السياسى واتخذت منها هيكلا لإمبراطوريتها فى العالم الجديد[٤] . وفى الحالين سيرى الطابع القارى أو البرى واضحا فى الارتباط بنهر ، بل فى الارتباط بقلب القارة .

على أن ضخامة المستعمرات الفرنسية فى أمريكا الشمالية جاءت فى النهاية نقطة ضعف لا قوة . فبعكس بريطانيا فى الولايات الثلاث عشرة التى تحصرها الأبلاش واللجينى ، كان من سوء حظ فرنسا بعد توغلها فى السنت لورنس أنها لم تجد عقبة طبيعية كبرى توقف توسعها حتى توطد أقدامها وتعمق وجودها فيما ملكته . ولهذا أدى تقدمها الكاسح السريع إلى لويزيانا إلى أن أصبح وجودها كله مساحة لا كثافة ، قوة بشرية ضئيلة فى رقعة قارية هائلة ، ولهذا لم تستطع أن تحتفظ بها طويلا[٥] .

وفيما عدا هذا اتجهت فرنسا فى العالم الجديد إلى جزر الهند الغربية ، حيث نجحت فى أن تنتزع عددا من جزرها الصغرى من إسبانيا أهمها جواديلوب والمارتنيك . كما قفزت منها

(١) Th. Pickles, North America, 1954, p. 2.

(٢) Church, p. 21.

(٣) E.C. Semple, Influences of geog. environment, 1911.

(٤) Mogey, p. 128.

(٥) L. Rodwell Jones, W.P. Bryan, North America; Fairgrieve, p. 309.

إلى الساحل المقابل فى أمريكا الجنوبية لتتخذ لها موطئ قدم فى جيانا الفرنسية . وحتى ذلك الوقت كانت التجارة أسهل وأربح من التعمير ، ولذلك كانت جزر الهند الغربية تدر على فرنسا عائدا أكبر من لويزيانا وكندا . والحقيقة أن هذا يرجع أيضا إلى قيمة الحاصلات المدارية والحاجة إليها فى أوربا بالنسبة إلى محاصيل أمريكا الشمالية التى كانت على أحسن تقدير تكرر إنتاج أوربا .

أما فى العالم القديم فقد اتجهت فرنسا إلى الهند الشرقية ولكن الهند خاصة . فأنشأت مجموعة من القواعد التجارية على سواحل الهند شرقا وغربا وتوغلت منها إلى الداخل قليلا أو كثيرا (ديبليه Dupleix وشركة الهند الشرقية الفرنسية) . وقد نشطت تجارة فرنسا مع هذه المستعمرات نشاطا كبيرا فى القرن السابع عشر . ولكن المنافسة والصراع مع بريطانيا سلب فرنسا كثيرا من تلك التجارة أولا ، ثم كثيرا من تلك المستعمرات نفسها ثانيا . فبعد أن أسرت المنافسة البريطانية كثيرا من تجارة فرنسا فى الهند ، بدأ الغزو والفتح ، وخسرت فرنسا الحرب بسبب قصورها البحرى ، فضاعت منها الهند بعد حرب السنوات السبع التى انتهت فى ١٧٦٣ ، ولم يبق لها إلا بعض جيوب ساحلية رمزية بحتة تتوزع فى شاندراناجور ويانون وبونديشيرى وكريكال وماهى !

وفى نفس الوقت ، تكرر نفس المصير فى العالم الجديد . فقد انتقل صراع فرنسا ـ بريطانيا إلى كندا ، ونجحت الأخيرة بفضل قوتها البحرية وقصور فرنسا البحرى فى انتزاعها بعد حرب السنوات السبع وتحويلها إلى دومنيون بريطانى . ومرة أخرى لم يبق لفرنسا إلا بقايا تذكارية شكلية فى جزيرتى سان بيير وميكلون تجاه ساحل نيوفوندلند ! وإذا كانت فرنسا قد عادت بعد قليل فى حرب الاستقلال الأمريكية لمساعدة أمريكا وحاربت مع إسبانيا ضد بريطانيا إلى أن طردت هذه فى النهاية ، إلا أن فرنسا بدورها سرعان ما فقدت لويزيانا فى صفقة البيع السياسية التى قام بها نابليون . والحقيقة أنها لم يكن من الممكن الاحتفاظ بها بعد أن اضطرت قوة بحرية أكبر إلى الخروج من القارة[1] .

وهكذا يمكن أن نخلص إلى أن أغلب مساحة الإمبراطورية الفرنسية التى تكونت فى الموجة الأولى للاستعمار فى القرنين السادس والسابع عشر ، سواء فى العالم الجديد أو القديم ، سواء فى العروض المعتدلة أو المدارية ، قد ضاعت قبل أن تبدأ الموجة الثانية فى

---

(١) فايفيلد وبيرسى ، ج ٢ ، ص ٧ ص ١٧١ ــ ١٧٢

القرن التاسع عشر. وهى قد ضاعت أساسا على يد بريطانيا. بل أكثر من هذا يمكن أن نقرر أن فرنسا خرجت من تلك الموجة الأولى بإمبراطورية متواضعة ـ بقايا إمبراطورية ـ أقل اتساعا وغنى مما خرجت به أى من البرتغال أو إسبانيا أو هولندا ـ عدا بريطانيا بالطبع. ولعل فرنسا وحدها هى التى تنفرد بهذه الحقيقة الغريبة فى تاريخ الاستعمار. ومعنى هذا أيضا أن إمبراطورية فرنسا، كما كانت فى عصر ما قبل التحرير المعاصر، ترجع أصولها فى معظمها إلى موجة الاستعمار الثانية فى القرن التاسع عشر.

الاستعمار البريطاني[1]

الحقيقة الكبرى والضابط الحاسم فى تاريخ بريطانيا السياسى والاستعمارى هى أنها بصدفة جيولوجية جزيرة قارية: من القارة وليست فيها. فمرة قد تفرض عليها جزريتها التخلف، فإذا بها مرة أخرى ترعى نموها، ومرة ثالثة تضمن تقدمها. تفسير ذلك أن بريطانيا مرت بثلاث مراحل واضحة فى تطورها: المرحلة الاستعمارية، فالقارية، فالجزرية. الاستعمارية حين خضعت لغزوات وموجات القارة أيام الأنجلز والسكسون، والقارية حين حكمت أجزاء من فرنسا فى العصور الوسطى، والجزرية حين انعزلت عن القارة قبيل عصر الكشوف[2].

المرحلة الجزرية

ولكن جزرية بريطانيا ليست وحدها كل شىء، إذ لا يقل عن ذلك أهمية أنها جزيرة كبيرة فسيحة، يعنى أنها تقدم قاعدة أرضية عريضة متعددة الموارد يمكن أن تقيم دولة كبيرة. ولولا هذا لما زادت عن مجرد تابع أو ذيل لقوة مقابلة على القارة، أشبه شىء بصقلية مثلا ولكن دون تاريخها المفعم. ولئن كانت بريطانيا لا تزيد مساحة عن نصف فرنسا، فإن السهل الإنجليزى ـ نواتها النووية سياسيا واقتصاديا ـ لا يقل كثيرا عن مساحة السهل الفرنسى. ومع هذا فإن قوة الطرد على اليابس والجذب إلى البحر أقوى بلا شك منها فى حالة فرنسا. ولهذا فبريطانيا هى البيئة البحرية الكاملة التى حملت قوة بشرية كبيرة أولا، وخلقت أمة ملاحة من الدرجة الأولى بعد ذلك، ومنحتها فى نفس الوقت عنصر

---

(١) Fairgrieve, p. 161-196. Fawcett, p. 421-428; Whittlesey, p. 96-128;
فايفيلد وبيرسي، جـ ٢، ص ١٠٨ – ١٦٠

(٢) Democratic Ideals, p. 56.

الحماية وحفظتها من اضطرابات وقلقلات القارة .

ومنذ الكشوف تطور موقع بريطانيا تطورا جذريا . فقبلها كانت على نهاية العالم ، ولا تؤدى إلى شيء . كانت بالضبط « أستراليا العصور الوسطى » كما قيل ــ بل وفى أكثر من معنى ذلك : فلقد كانت كل ثروتها الصوف الذى تصدره إلى القارة ، خاصة إلى هولندا وإيطاليا . ولكن الكشوف الجغرافية حولت هذا القطب السالب المعزول المتطوح إلى قطب موجب فى قلب المعمور المتمدد ما بين العالم القديم والجديد . وفى هذا المعنى يمكن أن نقول إن إسبانيا والبرتغال بكشوفها هما ــ بلا قصد ــ اللتان أعطتا بريطانيا حياة جديدة ومكانة جديدة فى العالم .

ولقد أنفقت بريطانيا العصور الوسطى فى الحروب الاقطاعية ثم الاقليمية لتنسج وحدتها السياسية دون ما خطر من الحروب الخارجية التى يمكن أن تؤخر تلك الوحدة . وبفضل هذه « العزلة الرائعة splendid isolation» كانت أولى دول أوربا إلى تحقيق الوحدة القومية فى العصور الحديثة . وقد حررها هذا لتنزل إلى البحر الذى جعلته العروض الشمالية العاصفة والبيئة المدية المتلاطمة مدرسة بحرية قاسية ولكنها ممتازة ، تتطلب المرونة قبل الضخامة والمناورة قبل الحجم .

ومع ذلك فلم تكن بريطانيا مهيأة لتخرج إلى البحار حين الكشوف أو بعدها ، حيث كانت السيادة للبرتغال وإسبانيا ثم لهولندا وفرنسا ، وظلت هى فى منطقة الظل أو شبه الظل . ولكنها فى حدود هذا الظل كانت تحاول ــ خلال القرن السادس عشر ــ أن تلتقط أى مكسب أو فتات من التجارة المحيطية إما بعيدا عن النفوذ الإسبانى أو مغافلة له . بعيدا عنه ــ بالاتجاه إلى العالم الجديد من طريق شمالى متطوح ، فكان أول خروج لها نحو الشمال الغربى حيث اكتشفت فى آخر القرن الخامس عشر نيوفوندلند ولبرادور (جون كابوت) ، وهى دائرة محدودة القيمة التجارية .

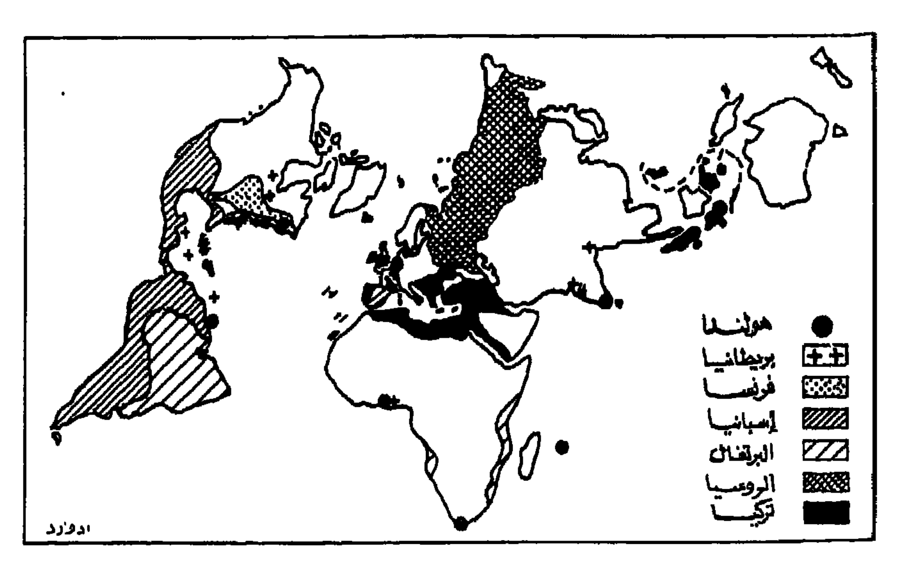
أما مغافلة له ــ فبالتسلل إلى المستعمرات الإسبانية الاحتكارية S. main للتجارة معها سرا . فبدأت بين الجانبين « حروب عصابات بحرية » بكل معنى الكلمة ، فكان هذا عصر القرصان المشهور بكل مغامراته وإثاراته وملاحمه التى دارت على البحار العليا والبحار الدافئة وتمركزت خاصة فى الكاريبى ، والتى تؤلف « ساجا » بحرية أسطورية تكاد تكون « ألف ليلة » الغرب أو العصور الحديثة إلا أنها دموية عدوانية . وفى هذه القرصنة الدامية ستكون نواة البحرية والاستعمار البريطانيين .

وفى هذه الفترة كان كل ما تطمح إليه بريطانيا فى وجه أطماع القوى السائدة هو أن تحافظ بحذر على استقلالها ، وذلك بمضاربتها بعضها ببعض ـ إسبانيا بفرنسا خاصة . إلى أن حاولت إسبانيا غزوها بالأرمادا فى ١٥٨٨ ، فكانت المعركة بين الضخامة والمرونة ، وانتصرت المرونة لأن سفن الأرمادا كقلاع عائمة حقيقية كانت ثقيلة بطيئة ، بينما سفن القرصنة البريطانية (دريك) خفيفة سريعة . لقد تغلبت بحرية العروض العكسية الشمالية العاصفة القاسية على بحرية العروض التجارية المعتدلة الهادئة ... نتيجة منطقية !

مع أن هزيمة الأرمادا لم تضع مباشرة حدا لقوة وإمبراطورية إسبانيا ، فإنها فتحت الباب على مصراعية أمام بريطانيا لتدخل الميدان البحرى والتجارى الجديد مع افتتاح القرن السابع عشر . ففى غضون عقدين كانت قد أسست بنجاح أول مستعمرة فى جيمزتون « والدومنيون القديم » فى فرجينيا فى ١٦٠٧ على يد رالى . وقبلها بقليل أنشأت شركة الهند الشرقية ووصلت سفنها إلى الهند وشاركت فى تجارتها . وفى نفس الجيل استقر « الآباء المهاجرون Pilgrim fathers » فى نيوإنجلند .

ولكن فى هذا القرن ـ السابع عشر ـ كان على بريطانيا أن تواجه قوة هولندا التجارية وقوة فرنسا الحربية . ورغم أن قوة فرنسا كانت الأكبر والأخطر ، فقد كان الذى يعنى بريطانيا مباشرة هو هولندا لأنها هى المحتكر الحقيقى للتجارة المحيطية التى تتطلع إليها . ولذلك ورغم أن بريطانيا وقفت فى عدة حروب مع هولندا ضد فرنسا حتى لا تتعاظم قوة الأخيرة إلى درجة تهدد الجميع ، فالأغلب أن بريطانيا كانت إما تترك هولندا تواجه فرنسا وحدها وإما تنضم إلى فرنسا فى صراعها لتحطيم هولندا .

وفى خلال هذا جميعا كانت كل خسائر هولندا وفرنسا تتحول إلى حساب بريطانيا مكاسب وأرباحا . فكانت التجارة عبر البحار تنتقل إليها بالتدريج ، حتى إذا ما حطمت فرنسا قوة هولندا نهائيا فى أواخر القرن كانت بريطانيا قد ورثت بالفعل معظم دورها التجارى ، وورثت لندن وبرستول أنتورب وأمستردام ، باختصار ورثت بريطانيا موقع ودور هولندا . وإذا قلنا إن بريطانيا ورثت موقع ودور هولندا ، فقد قلنا فى الحقيقة وإن يكن بطريق غير مباشر إنها ورثت موقع ودور البرتغال ، وبطريق غير مباشر أكثر موقع ودور العرب القديم ، وبالتحديد مصر .



شكل (١٠) الاستعمار العالمي في سنة ١٧٠٠

نعم مصر ! فلقد أصبحت بريطانيا فى عصرها التجارى الجديد فى العالم بنصفيه فى موقع ووظيفة أشبه ما يكون بموقع مصر ووظيفتها فى العالم القديم أثناء العصور الوسطى : هى همزة الوصل بين العالم القديم والجديد بمثل ما كانت مصر همزة الوصل بين آسيا وأوربا ، وهى تقع فى ركن المحيط الأطلسى أو البحر المتوسط الجديد بمثل ما تقع مصر على أرض الزاوية من البحر المتوسط القديم .

ولم يكن غريبا بعد ذلك كله أن تصبح التجارة بعدا أساسيا فى حياة بريطانيا بعد أن كانت دولة زراعة ورعى وصيد ، وأن تصبح بحق « أمة من أصحاب الحوانيت a nation of shopkeepers » على حد تعبير نابليون فيما بعد ، وأن يصبح « بنك إنجلترا » رمزا عتيدا للمركانتليه العارمة . وفضلا عن احتكار التجارة ، فقد نجحت بريطانيا فى صلح أوترخت فى أن تنتزع جبل طارق وبورت ماهون فى البحر المتوسط ، وتأكد امتلاكها لنيوفوندلند ونوفاسكوشيا .

وهنا لابد أن نلاحظ كيف يكرر الموقف المواقف الصراعية السابقة : فرنسا الضخمة الأكثر قارية تحطم هولندا الأصغر حجما الأكثر بحرية ، فترثها دولة بحرية أكبر إلى الشمال هى بريطانيا ، مثلما حطمت إسبانيا الكبيرة شبه القارية من قبل البرتغال الصغيرة البحرية فورثتها هولندا البحرية الشمالية .

وهنا أيضا لابد أن نلاحظ سياسة بريطانيا الجزرية : فقد كان محورها دائما أن تترك القوى الأخرى على القارة تتصارع ، وأن تغذى هذا الصراع حتى تضعف جميعا ، فتتقدم هى لترثها وهى بمنأى فى جزيرتها عن خطر الصراع نفسه . وفى نفس الوقت كان توازن القوى على القارة هدفها الآخر . فكانت تعمل على ألا تسود قوة واحدة كبرى فى القارة . ولهذا كانت الحليف التقليدى للقوى الصغيرة التى سبق أن عادتها وساهمت فى انحدارها ، وذلك ضد القوى الكبرى الجديدة . هكذا وقفت مع البرتغال ضد إسبانيا ، ثم مع هولندا ضد فرنسا ، ثم كما سنرى فيما بعد مع فرنسا ضد ألمانيا . فهى عدوة القوى الذى قد يهددها ، وحليفة الضعيف الذى لا يهددها . ولعل هذا هو ما أكسبها التسمية غير الأثيرة « بألبيون الغادر perfidious Albion » .

الصـراع البريطـانى ـ الفرنسـى

هكذا إذن لم يبق إلا فرنسا والقرن الثامن عشر . ورغم سيطرة فرنسا الواضحة فى القارة فإنها لم تستطع أن تمنع بريطانيا من الانطلاق نحو السيادة على البحار واحتكار التجارة المحيطية والتوسع الاستعمارى . وقد بدأت بريطانيا بتحالفها مع عدوها السابق المهزوم هولندا ضد القوة السائدة الجديدة فرنسا . ثم أصبح القرن قرن الصراع بين بريطانيا وفرنسا . وكان الفارق الرئيسى أن فرنسا مرتبطة فى صراعاتها بالقارة ولها جبهتان برية وبحرية ، بينما لبريطانيا جبهة واحدة بحرية .

من هنا كانت الأولى مضطرة إلى الاحتفاظ بجيش برى ضخم ، وتهمل الأسطول عمدا وبالضرورة ، بينما كان جيش بريطانيا البرى دائما رمزيا ولم تحاول قط أن تنافس فرنسا على البر ، والقوة كلها للأسطول . ولذا فما دامت بريطانيا قادرة على منع غزوها بحرا ، فلا قيمة لضخامة جيوش فرنسا ضدها ، بينما على العكس : مادامت فرنسا أضعف فى البحر فأمام بريطانيا الفرصة لضربها فى مستعمراتها عبر البحار وانتزاعها منها . أى أن وجود حدود برية لفرنسا كان جديرا فى النهاية بأن يكلفها ضياع إمبراطوريتها الاستعمارية ، بينما كان تحرر بريطانيا من الحدود البرية كفيلا بأن يمنحها إمبراطورية استعمارية كاملة . وهكذا بالفعل كان .

فمن ناحية لم تستطع فرنسا أن تضرب بريطانيا فى جزيرتها ، والواقع أن أحدا لم يستطع أن يغزوها منذ الفتح النورماندى حتى يومنا هذا . فقد كان الأسطول كفيلا بقطع الطريق على أية محاولة كهذه . ولقد تحدت فرنسا ـ ومعها إسبانيا ـ قوة بريطانيا البحرية مرات

عديدة فى القرن الثامن عشر فى حروب ممطوطة مطولة . ولكن هذه كانت تخرج فى كل مرة أقوى ، بينما غالبا ماكانت فرنسا تخسر شيئا من مستعمراتها . ففقدت أولا كندا حين عزلتها بريطانيا بحرا فى كويبك وعجزت البحرية الفرنسيه عن معاونتها وبذلك سقطت كدومنيون لبريطانيا فى ١٧٦٣ ، كما ارتفع الضغط الفرنسى بذلك عن ضلوع بريطانيا فى نيوإنجلند .

ثم فقدت فرنسا بعد ذلك الهند التى غزتها بريطانيا بقليل من قواتها ولكن بكثير من القوات الهندية (!) وضمتها فى ١٧٦٣ «كالإمبراطورية الثانية» بعد ضياع الولايات المتحدة ، وخرجت فرنسا إلا من جيوب وأسافين لا وزن لها . ومما يلاحظ أن بريطانيا اقتربت أولا كالبرتغال من الهند من الغرب ، من بومباى بالذات . ولكنها مثلها لم تستطع أن تمرق إلى الداخل من تلك الجبهة الجبلية المغلقة ، فعادت ودارت حول شبه الجزيرة لتقتحمها من بوابتها البحرية الوحيدة والصحيحة وهى بوابة الكنج (الهوجلى سيد) . وما أن وضعت قدمها على المدخل الطبيعى وانفتح الطريق أمامها إلى قلب شبه القارة حتى أخضعتها جميعا وحطمت إمبراطورية « المغول الأكبر » ليبدأ « الراج Raj » البريطانى فى الهند[1] . هذا ، وإذا كانت بريطانيا قد وضعت قدمها فى « حذاء » الهند بدل فرنسا فى منتصف القرن الثامن عشر ، فقد استغرقت قرنا كاملا أى حتى منتصف القرن التاسع عشر لتبسط نفوذها على جميع أجزائها .

على أن بريطانيا خسرت فى تلك الفترة « إمبراطوريتها الأولى » فى الولايات الثلاث عشرة فى أمريكا . فقد ثارت الولايات فى حرب الاستقلال فى مرحلة ضعف لقوة بريطانيا البحرية ، وانتصرت لبعد المسافة وضعف الارتباط ، ولكن أيضا لمساعدة فرنسا وإسبانيا للانفصال (١٧٨٣) . على أن ضياع الولايات الثلاث عشرة أدى إلى خروج كثير من المعمرين (الموالين لبريطانيا loyalists) وهجرتهم إلى كندا من ناحية وإلى أستراليا من ناحية أخرى ، أى إلى تحويل تيار الهجرة والتعمير إلى مناطق الدومنيون التى كانت مهملة والمساعدة فى تدعيم الإمبراطورية الثانية . وهذا يذكرنا بما حدث من تحويل اهتمام البرتغال إلى البرازيل المهملة حين ضاعت إمبراطوريتها فى الشرق والعالم القديم .

وقد عاد الصراع بين بريطانيا وفرنسا على أعتى مستوى مع نابليون الذى كان أعظم تحد واختبار لقوة البحر . وقد فشلت كل مشاريعه البحرية ضد بريطانيا سواء فى مصر أو فى غزو

---

(١) Mackinder, Scope & methods, Raj etc., p. 28.

بريطانيا . فقد خسر أسطوله فى أبو قير فى الأولى وفى الطرف الأغر فى الثانية . وبهذا عجز عن الوصول إلى بريطانيا أو مستعمراتها بسبب تفوق قوة البحر البريطانية أساسا . ومنذ البداية أدرك نابليون أن العقبة الوحيدة فى طريقه إلى السيادة العالمية هى قوة البحر البريطانية . وحين سيطر على أوربا جميعا كانت هذه وحدها هى العقبة التى تحطم عليها فى النهاية . ولهذا تعد الطرف الأغر بداية السيطرة العالمية المطلقة لقوة البحر البريطانية التى ستظل أكثر من قرن دون تحد ، بل سيصبح القرن التاسع عشر بلا منافسة قرن السيطرة البريطانية العالمية .. .

ولا شك أنه لما يدعو إلى التساؤل كيف استطاعت بريطانيا أن تقف بمفردها إزاء نابليون ومعه أو تحت سيطرته كل أوربا . ولكن الحقيقة أن بريطانيا كانت تقف ووراءها كل موارد الإمبراطورية والاستعمار عبر البحار ، وأهم من ذلك أنها كانت تقف وأمامها ذلك « الشريط الذهبى golden streak » الحامى العتيد كما يسمى الإنجليز قنال المانش . والواقع أنه ـ فى ضوء هذا العرض الاستراتيجى التاريخى ـ قد لا يوجد فى العالم عشرون ميلا ونيف من الماء لعبت دورا فى التاريخ كما لعب المانش .

هذا وقد خرجت بريطانيا من الملحمة النابليونية بمزيد من المستعمرات . فقد انتزعت الكاب من هولندا ، وحصلت على سنغافوره بالشراء البخس فى ١٨١٩ ، كما كانت قد ضمت مالطه أثناء الصراع . وسيلاحظ فى هذه جميعا صفة المواقع البحرية الاستراتيجية التى تعد مفاتيح حيوية فى إمبراطورية بحرية مترامية ، وهى الصفة التى ستتبلور بصورة حاسمة فيما بعد فى تركيب هذه الإمبراطورية .

الاستعمار البحرى :
خطوط عامة

تلك إذن قصة الاستعمار وصراع القوى الاستعمارية الجديدة فى الموجة الأولى للإمبريالية فى العصور الحديثة . بماذا يمكن أن نخرج منها ؟ ـ بعدة حقائق عامة بعيدة المغزى .

الخروج البحرى

فأولا ، بعد أن كانت أوربا حبيسة فى شبه جزيرتها فى موقف دفاعى ، محاصرة بين قوى مختلفة من كل الجهات فى العصور الوسطى ، انقلب الوضع وأخذت جانب الهجوم

على عوالم جديدة برمتها ، وفرضت حصارها على القوى القديمة من خلف أو من قدام . وكان هذا بداية سيادة أوربا على العالم . على أن الخروج الاستعمارى قد ارتبط بدول غرب أوربا البحرية الساحلية وحدها ، بينما كانت بقيتها الداخلية بعيدة عنه . كذلك لم تشارك الدول البحرية الساحلية الضئيلة أو الصغرى . فرغم بعض محاولات ثانوية للغاية لأمثال الدنمرك والنرويج وبراندنبرج ، فإنها تخلفت عن السباق تماما . وباختصار فقد ارتبط الاستعمار الحديث أشد الارتباط بالمحيط ونداء البحر والموقع الساحلى .

ويلاحظ فى هذا الخروج البحرى أن اتجاه كل من البرتغال وإسبانيا إلى أمريكا الجنوبية ، وكل من فرنسا وبريطانيا إلى أمريكا الشمالية ، إنما هو توجيه طبيعى يتسق إلى حد كبير مع المنطق الجغرافى وخطوط العرض وإيحاءات الموقع ، وكذلك مع تشابه البيئة الطبيعية بين الموطن والمهجر . ومن هنا انتهى العالم الجديد إلى عالمين : لاتينى فى الجنوب وأنجلو - سكسونى فى الشمال ، يتناظران بصورة عامة مع ترتيب الأوطان الأم . وكما تحتل إسبانيا الرقعة الكبرى من أمريكا اللاتينية وتكمل البرتغال بدور ثانوى بالاضافة إلى شظايا هولندية وفرنسية وبريطانية ، تحتل بريطانيا مركز الصدارة فى أمريكا السكسونية وتأتى فرنسا فى مرتبة ثانوية مع تذييل إسبانى . ولما كان خروج أيبريا البحرى قد سبق خروج شمال غرب أوربا بنحو قرن ، فإن تاريخ أمريكا الجنوبية يسبق هو الآخر تاريخ أمريكا الشمالية بنحو هذا المدى[1] .

القوميـة والاستعمـار

ثانيا ، كانت الوحدة القومية شرطا أساسيا سابقا مسبقا للخروج الاستعمارى ، إذ لم يكن من الممكن القفز إلى العالم الخارجى قبل ترتيب البيت داخليا . فكان الخروج نتيجة للوحدة وعلامة عليها ، وترتيب توقيته يعكس الترتيب الزمنى لتحقيق تلك الوحدة . ومع الوحدة القومية أتى استعمار الكشوف ، ومع الاثنين أتى الانقلاب التجارى ، ومع الجميع أتت - أخيرا - البورجوازية الليبرالية . فقد انصبت مكاسب المركانتليه والتجارة الاستعمارية فى العواصم والمدن الكبرى والموانى لتخلق تركيبا اجتماعيا جديدا أزاغ فلول الاقطاع نهائيا وأحل محله مجتمع التجار والمهنيين ، مما « برجز » مجتمع المدن وغلب الفكر الليبرالى والأوليجاركى على الحكم المطلق .

(١) Whittlesey, p. 504-17.

ومعنى هذا أن استعمار الكشوف خلق طبقة جديدة قوية تنافس الطبقة القديمة التقليدية التى كانت تحتكر السلطة والحكم فى المجتمع . فالصراع الجديد هو فى الحقيقة صراع بين أصحاب الموارد المحلية فى الوطن ، وأصحاب الموارد المتدفقة من عبر البحار . ولقد كانت الثورة الفرنسية هى نقطة الانكسار العنيفة فى هذا التطور حيث التحمت البورجوازية المتعاظمة ــ على فيض مكاسب مستعمرات ما وراء البحار ــ التحاما نهائيا مع بقايا الاقطاع الزراعى المتحفرة وختمت على مصيرها ووضعت بذلك جرثومة أو خميرة الرأسمالية الناشئة . وبمعنى آخر ، فإن الكشوف قد ثورت الكيان السياسى والاقتصادى والاجتماعى لدول أوربا البحرية تثويرا ، وكانت بذلك الأساس لهيكل النظام الجديد .

ومن المحتمل أنه لو لم تحدث الكشوف الجغرافية لتأخر الانتقال من الحقب الاقطاعى إلى الحقب البورجوازى كثيرا أو قليلا . ولعلنا كذلك لا نسرف فى التصور إذا قلنا إن هذا التطور من الاقطاع نحو البورجوازية كان يمكن أن يكون أصلا وأساسا من نصيب الشرق العربى عامة ومصر والشام خاصة لو لم يكن قد حدث هذا الأسر التجارى الكامل . ولعل هذا أيضا أن يفسر لماذا تجمد المجتمع العربى الوسيط على النمط الاقطاعى حتى خضرم فيه إلى صميم القرن التاسع عشر بل والعشرين حين قفز مرة واحدة من الاقطاع إلى الرأسمالية دون أن يمر بمرحلة البورجوازية بمعناها الكامل . لقد ورث غرب أوربا الجديد دور الشرق العربى القديم ليس موقعا ووظيفة فحسب ، ولكن ورث قدره السياسى والاجتماعى كذلك .

ميكانيزم الصراع

ثالثا ، يرتبط صراع القوى السياسية ارتباطا وثيقا جدا بالصراع الاستعمارى . فمن أجل الصراعات الداخلية بين القوى الأوربية فى القارة خرجت للحصول على المستعمرات لتعود أقوى وأقدر على تلك الصراعات ، ومن أجل الحصول على المستعمرات كانت القوى الأوربية تتصارع فيما بينها على القارة [1] . من ثم كان النشاط الاستعمارى ظاهرة « معدية » . وقد تحرك مركز الثقل فى النشاط الاستعمارى وفى صراع القوة حركة قاطعة من الجنوب إلى الشمال بصرامة ما بين البرتغال جنوبا حتى بريطانيا شمالا . ولعل هذا جزء واضح المعالم من نظرية هجرة الحضارة والقوة نحو العروض الشمالية . وإذا فهم البعض

(١) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

هذا على أنه يعنى انتقال التفوق إلى البلاد الشمالية ، فلا ينبغى أن ينسوا أنه يعنى كذلك تخلفها فى البداية .

والمهم أنه فى هذه الحركة تأخذ ميكانيكية الصراع بين القوى البحرية ـ الذى هو صراع أشباه أساسا من أجل التصفية النهائية للقوة العالمية ـ تأخذ نمطا محددا ومتواترا بصورة مثيرة . فهى تبدأ بدولة رائدة صغيرة بحرية جدا بحكم الموقع والطبيعة ، تلحقها دولة متاخمة أكبر حجما وأقل بحرية ، لا تلبث بحكم جرمها أن تحطم قوتها ، ولكنها تعجز عن أن ترث دورها ، وإنما تلتقطه ببراعة دولة أخرى صغيرة بحرية جدا إلى الشمال . هكذا ظهرت البرتغال أولا وتلتها إسبانيا لتحطمها بعد قليل ، فترثها هولندا ، ثم تلى هولندا على المسرح فرنسا لتحطم هولندا وشيكا ، فترثها بريطانيا . وسنرى فيما بعد إلى أى حد ستستمر أو تنتهى هذه الميكانيكية الفذة فى بقية مراحل الاستعمار الحديث .

الموقـع والموضـع

رابعا ، فى هذا الصراع لم يكن البقاء لمن يملك القوة البحرية وحدها ، بل والقوة البرية إلى جانبها . فقد كانت القاعدة الأرضية القومية العريضة هى الضمان الأخير لبقاء تلك القوة البحرية . فإذا كانت الدول المحرومة من القوة البحرية لم تخرج إطلاقا إلى الاستعمار مهما ملكت من قوة برية ، فإن الدول التى تملك القوة البحرية دون قاعدة برية متكافئة تسندها وتدعمها ، قد تخرج إلى عالم الاستعمار قليلا أو كثيرا ولكنها لا تلبث أن تنقرض فى النهاية . أما النجاح الأكبر فللدول البحرية القوية ذات القاعدة البرية الضخمة[1] . وبمعنى آخر ، فإن « الموقع » البحرى الأمثل وحده لا يكفى وإن أعطى أحيانا ميزة السبق ، وفى المدى الطويل يلعب « الموضع » دورا تحديديا أخطر وأكثر بقاء . كما كان السمك الكبير ـ يعنى ـ يأكل السمك الصغير فى المستعمرات ، كان السمك الأكبر بين القوى الاستعمارية البحرية يأكل السمك الأصغر !

استعمـار سـاحلى

خامسا ، إذا كان الاستعمار قد قرع أبواب أغلب القارات فى تلك المرحلة ، فقد ظل فى جوهره ساحليا أوشبه ساحلى بدرجة أو بأخرى ، ولو أنه كان أعمق توغلا فى قارات

---

(١) Church, p. 22.

العالم الجديد منه فى قارات العالم القديم . وفى أفريقيا بالذات كان الاستعمار ساحليا بحتا وبصرامة . وسواء على الساحل أو فى الداخل ، فقد كانت تلك المرحلة مرحلة الاستعمار « الواسع » لا « الكثيف » . وبوجه عام انعكست هذه الطبيعة الساحلية على نظرة الاستعمار إلى القارات الجديدة ، فقد كانت نظرة ملاح أساسا ، أعنى أنه لم يكن يتعرف على كتل قارية بقدر ما كان يعرف أشرطة ساحلية . ومن تراث هذه الفترة وتلك النظرة الأسماء العديدة التى مازلنا نطلقها : ساحل غانه ، ساحل الذهب ، ساحل العبيد . ساحل العاج ، ساحل الغلال ، ساحل الزنج ، ساحل البنات أو القرصان ، ساحل ملبار ، ساحل كرومندل ، ساحل كارنتيك Carnatic ، ساحل مورمان Murman ، ساحل جولكوندا ... إلخ[1] .

الاستعمار الديموغرافى

سادسا ، تعويضا لعجزه عن التوغل الداخلى وعن « الاستعمار الجغرافى » ، أخذ الاستعمار فى أفريقيا بالذات نمطا خاصا جدا فى هذه المرحلة هو « الاستعمار الديموغرافى » — أعنى تجارة الرقيق . وذلك إذن كان عصر النخاسة الذى لم يعرف العالم له مثيلا من قبل ولا من بعد ، وتلك كانت بالتالى أسود نقطة وأبشع وصمة فى تاريخ الاستعمار العالمى . فقد كان الرقيق أغلى سلعة فى التجارة الاستعمارية ، وبخار آلة المركانتليه إن لم يكن وقودها الأسود ، وعليه بنت القوى البحرية اقتصادها ورخاءها . وكان للبرتغال أولا ثم الإنجليز بعدهم الدور الأكبر فى هذه التجارة الآثمة ، ولو أن الهولنديين والفرنسيين شاركوا بقدر .

ولهذا فإذا كان الهولنديون يقولون إن أمستردام قد بنيت على « عظام الرنجة » [2] ، فمن الصحيح كل الصحة أن نقول إن لشبونه وليفربول قد بنيتا على عظام الرقيق الأسود ودماه . وقد شهد المحيط الأطلسى مثلثا دمويا يدور مع عقارب الساعة — التجارة المثلثة كما تسمى — تبدأ فيه السفن بنقل بضائع ومصنوعات بريطانيا إلى غرب أفريقيا حيث تستبدل بها شحنات آدمية ، ثم تنطلق عبر المحيط لتفرغها فى أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية ، ومنها تعود محملة بمحاصيل المداريات من سكر وروم وقطن وتبغ .. إلخ[3] .

---

(١) Democratic ideals, p. 60.

(٢) سمبل ، ص ٣٥٦ .

(٣) L. Dudely Stamp. Africa, N.Y. 1953; W. Fitzgerald, Africa, Lond. 1950.

وتختلف تقديرات تجارة الرقيق من أفريقيا ، ولكن البعض يضعها حوالى المائة مليون على أساس أن من مات أثناء « الصيد » والرحلة ثلاثة أو أربعة أمثال ما وصل بالفعل إلى العالم الجديد [١] . وكان هذا الاستعمار أو بالأحرى الاستخراب الديموغرافى نزيفا بشريا رهيبا أصاب القارة بفقر الدم والضمور . ولئن صح هذا الرقم ـ الذى لا يمكن الحكم له أو عليه هنا ـ فلا شك أن هذه أعظم موجة فى حركات السكان Völkerwanderung فى التاريخ البشرى جميعا . وإذا كانت أوربا تتهم العرب اليوم ـ تهويلا وتضليلا ـ بدور « الجلاب » ، فالذى لا جدال فيه ولا لجاج أنها هى قد لعبت دور « الجلاب والجلاد » معا .

---

(١) Jacqueline Beaujeu — Garnier, Géog. de la population, Paris, 1958, t. II, p. 39.

الفصل الخامس

القوى البرية والاستعمار

الروسيا (1)

هناك تشابه مثير يدعو إلى كثير من التأمل بين ظهور وتوسع الروسيا الحديثة فى الشرق ، وبين توسع دول أوربا البحرية فى الغرب ، سواء فى ذلك الأصول السياسية أو الضغوط الخارجية أو توقيت التوسع . ففى العصور الوسطى خضعت الروسيا لضغوط مزدوجة من الشمال والشمال الغربى ومن الجنوب والجنوب الشرقى . فمن الشمال الغربى أتى من سكنديناڤيا وعبر البلطيق الغزاة النورس ، الذين يعرفون أيضا باسم الفارانجيين Varangians أو الروس Rus (= رجال الزوارق) . وإذا كانت غاراتهم تخريبية مدمرة فى البداية ، فقد تحولوا بعد حين إلى التجارة واستقروا فى مدن السلاف وحكموها سياسيا . أما الجنوب الاستبسى فقد كان ممرا أساسيا لرعاه الاستبس ومنه أتت غاراتهم بلا انقطاع على وسط الروسيا .

وبين أخطار هذه الكماشة ، رجال الزوارق ورجال الخيل ، تبدأ الروسيا سياسيا فى القرن التاسع فى إطار نطاق الغابات بعدد من الإمارات الصغيرة المستقلة محمية فى تضاعيف الغابة ومسطحات المستنقعات ، إما على تخومها مع الاستبس وإما على جبهة الالتحام بين النفضيات والصنوبريات . وكانت كل مدينة من هذه المدن النهرية أساسا نواة لتوسع سياسى بعيد المدى فى الغابة سواء نحو الشمال الجليدى أو الجنوب السهوبى ، حتى

---

(1) المصادر الأساسية هى :

قايفيلد وبيرسى ، ج ٢ ص ، ٨١ — ١٠٨ ،

East, p. 212-225; Fairgrieve, p. 193-199; Fawcett, p. 429-430; G.B. Cressey, Asia's lands and peoples. Mc Graw Hill, 1951, p. 243-248;
Mackinder, Pivot; Democratic ideals, p. 59-88; Cole, p. 227-30.

إذا تلاقت جميعا وسيطرت إحداها فى النهاية كانت تلك بداية التوحيد السياسى للروسيا الحديثة . وبهذا أيضا أصبح خط الغابة ــ الاستبس خطا سياسيا بالغ الأهمية .

ولقد كانت كييف ــ « أم المدن جميعا » ــ هى أولى تلك الإمارات ، حيث ظهرت فى القرن التاسع . وبعدها ظهرت كوكبة من مدن الغابه التجارية أهمها : نوفجورود . ولكن طرقات رعاة الاستبس لم تنقطع ، وكثيرا مادفعت تلك المدن الجزية لهم وخضعت لسيطرتهم ، حتى سقطت كييف فى القرن الثالث عشر للمغول (جنكيزخان) ، الذين اتخذوا عاصمتهم على الفولجا الأدنى . وقد ساعد على سقوط كييف وقوعها على تخوم الاستبس ، هذا بينما نجت نوفجورود لتوغلها فى الغابة ، ولذا انتقلت إليها الأهمية ، إلى أن بدأت إمارة موسكو (مسكفا) تظهر فى موقع أكثر مناعة وتوسطا بين الفولجا ورافده الأوكا أو ما يسمى أحيانا « مابين النهرين الروسية Mesopotamia Russian ، فأخذت تسيطر منذ أواخر القرن الثالث عشر .

وقد استمر حكم المغول والتتار لجزء كبير من الروسيا نحو ٢٥٠ سنة ، حين استطاع إيفان الأكبر من قاعدة دوقية موسكو أن يضع نهاية له فى أواخر القرن ١٥ (١٤٨٠) . ولكن حتى بعد هذا فإن الروسيا لم تنج من موجات التتار المتكررة وغاراتها المخربة التى كانت تستهدف السلب والنهب والأسر واختطاف العبيد . ولمقاومة هذا الخطر الداهم الدائم دخلت الروسيا لفترة طويلة فى حرب شاملة شبه مستمرة طوال العصور الحديثة تقريبا ؛ وهكذا كان الخطر المغولى التترى ــ خطر الاستبس ــ هو أول وأطول خطر خارجى شكل تاريخ وتكوين الروسيا الحديثة .

على الجانب الآخر ، ما أن انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت موسكو خلال قرنين من التوسع المستمر قد أخضعت جميع الإمارات الأخرى بعد أن ربطت بينها الأخطار الخارجية . وقد استطاع إيفان الأكبر وحده أن يوسع رقعة السيطرة المسكوفية إلى ثلاثة أمثالها حتى امتدت من البلطيق إلى الأورال . وبهذه الوحدة ، وبفضل فرسان القوزاق ، خرجت الدولة من قوقعة الغابة لتزحف جنوبا حتى تخضع استبس جنوب الروسيا ــ استبس الكيبشاك Kipshak ــ فى مدى ٥٠ عاما ، كما دخلت فى صراعات متصلة مع بولندا حول أوكرانيا . وقد كان بطرس الأكبر ــ أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر ــ هو الموحد الحقيقى للروسيا . ومما لاشك فيه أن دور الاستبس قد أخر الوحدة القومية فى الروسيا عنها فى أوربا لفترة ما . ولكن بعد إخضاعه وضمه بدأ زحف سكانى روسى ضخم نحو الجنوب وصل إلى أقصاه فى القرن التاسع عشر حين أصبح حركة عارمة تاريخية حقا .

وعند هذا الحد سنلاحظ أنه إذا كانت فجوات الغابة هى القوقعة التى تبرعمت فيها إمارات الروسيا ، فإن الأنهار كانت الشرايين التى ربطت بينها أولا ثم توسعت على طولها ثانيا . والواقع أن نمط الأنهار فى الروسيا الأوربية ، الذى يتشعع من الوسط من نقطة مركزية فى جميع الاتجاهات ، يجعل التوسع سهلا تلقائيا[1]، حتى ليعتبر إيست أن تاريخ الروسيا السياسى تاريخ نهرى أساسا . ولاننسى كذلك طبيعة الاقليم كسهل متجانس مترام ، يدعو بطبيعته إلى الوحدة السياسية وضخامة الدولة . ومن مجموع هذا وذاك نخرج بدولة من حجم وصفات قارية لاشك فيها .

كذلك لابد أن يستوقفنا فى ظهور الروسيا إخضاع الغابة للاستبس . فلقد طالما أخضع الإستبس الغابة أو على الأقل حصرها حبيسة فى قوقعتها . ولكن منذ اختراع البارود انقلب الميزان الاستراتيجى من أساسه رأسا على عقب انقلابا تاريخيا بالغ الخطورة والدلالة . فقد ضاعت معه ميزة حركة الفرسان وسرعة انقضاضهم ، وضاع إلى الأبد تفوق الرعاة الغزاة على الزراع المستقرين . وأخذت الصورة تنعكس ، فإذا بجيوش الزراع ومدفعيتهم هى التى تغزو الآن فرسان الاستبس وتخضعهم لأول مرة [2] . بل لقد اتخذت الغابة من فرسان الاستبس القوزاق « بوليسا » يحرس الاستبس من الجماعات الرعوية الأخرى . أو كما عبر البعض ، لقد تغلب « الدب » على « الحصان » بعد أن ظل هذا يحاصره طويلا و يغلقه فى قلب الغابة .

ولهذا فقد كان ظهور الروسيا الحديثة إيذانا بإغلاق ممر الاستبس الأوراسى وانتهاء طوفاناتهم إلى الأبد . وبعد أن كانت الخريطة السياسية للروسيا مابين القرن العاشر والخامس عشر تتألف من مجموعتين أساسيتين من الإمارات والدويلات : كوكبة روسية سلافية شمال الخط ، خط الغابة ـ الاستبس ، وكوكبة سريعة التغير من الولايات الرعوية الاستبسية جنوبه ، ابتداء من الخزر إلى البلغار حتى المغول والتتار ، نقول بعد هذا اندمجت الروسيا جميعا فى دولة مركزية واحدة موحدة .

غير أن دور الاستبس أو الحكم المغولى التترى لم ينته إلا بعد أن ترك بصمته بعمق ليس فقط على تاريخ وتطور الروسيا الحديثة ولكن أيضا على كيانها وشخصيتها المعاصرة ربما .

---

(١) Semple, op. eit.

(٢) Owen Lattimore, Inner Asian Frontiers, op. cit., p. 186-8.

فكثيرا ماكان الحكم المغولى والتترى مرادفا للنهب والتخريب وحرق المدن الكبرى ومضاربتها ببعضها البعض ، مما ردّ حضارة المدن الروسية المتطورة إلى دور البربرية والهمج أحيانا . ولكنه أساسا فرض عليها العبودية والرق والذل باستمرار . وإلى هذا النظام ، بل وإلى ضرورات مراحل الكفاح والحرب ضده فيما بعد ، يرجع الكثيرون أصول الاستبداد الروسى القيصرى الحديث ، بل ويتتبع استمراره فى النظام الشمولى الشيوعى المعاصر ، على أساس أن « الرفاق الجدد هم القياصرة الجدد » وبمعنى أن « الدولة البوليسية السوفيتية إنما يرجع أثرها وأصلها إلى حكم التتار » ، وبمقولة أن الحكم فى الروسيا لم يكن يوما طوال تاريخها إلا حكما استبداديا ديكتاتوريا ، وبالتالى بدعوى أن الاستبداد والطغيان تقليد طبيعى فى تاريخ الروسيا وأنه لا تقاليد للحرية بها داخليا [1] .

ومهما يكن الرأى ، فيكفينا أن يلخص لنا كارل ماركس نفسه القصة بأسلوبه وبألفاظه . فكما يقول ، إن « المستنقع الدموى للاستعباد المغولى هو مهد روسيا القديمة . وليست روسيا الحديثة إلا شكلا جديدا للروسيا القديمة [...] لقد نشأت الروسيا ونمت فى مدرسة الرق المغولى الرهيبة ، ثم ازدادت قوة بأن أصبحت أمهر من عرف صناعة الاستعباد والرق . وحتى بعد أن تحررت فإنها واصلت أداء دورها التقليدى للعبد الذى أصبح سيدا » [2] .

التوسع القيصرى

هذه وحدة الروسيا القومية تتم إذن فى توقيت لايختلف كثيرا ، وإن تخلف قليلا ، عما حدث فى الدولة الوطنية الحديثة فى غرب أوربا . وكما خرجت هذه إلى التوسع والاستعمار عبر البحار غربا وجنوبا ، سنجد الروسيا تخرج بدورها وفى توقيت معاصر تقريبا للتوسع والاستعمار ، ولكن برا ، شرقا وجنوبا . هنا نداء البحر وهنا نداء السهول ، وكل يغرى بالتوسع ويدعو إلى بناء الإمبراطورية .

وكما فى غرب أوربا ، يمكن أن نميز بين موجتين رئيسيتين من التوسع الروسى : الأولى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر واتجهت كمثيلتها فى غرب أوربا إلى عروض شمالية باردة ومناطق شبة خالية من السكان ، وكانت أقرب إلى التعمير البشرى منها إلى الاستعمار

(١) Richard Nixon, The real war. N.Y., 1981.

(٢) Id.

السياسى . أما الموجة الثانية فاتجهت ـ أيضا كمثيلتها فى غرب أوربا ـ إلى عروض جنوبية أدفأ ومناطق مأهولة بدرجة أو بأخرى . فكانت من ثم إلى الاستعمار السياسى أقرب .

وقبل أن نعرض بالتحليل لهذا التوسع القيصرى ينبغى أن نذكر أنه ـ فى نظر أغلب الكتاب لاسيا منهم الغربيون ـ يعد « استعمارا إمبرياليا » كاملا بكل معنى الكلمة . وبنفس المعنى الذى يقصد به الاستعمار الغربى عبر البحار[1] ـ الإمبريالية الروسية كما يسمونها . ولعلهم يقصدون بذلك أن هذه المناطق التى ضمتها الروسيا إليها واعتبرتها بعد ذلك جزءا لايتجزأ من الوطن الأب ليست إلا مستعمرات أجنبية عنها وإن لم يفصلها عن الروسيا الأوربية فاصل بحرى أو برى . ومنطقهم فى هذا أن سكان هذه المناطق التى ضمت يختلفون تماما عن سكان الروسيا الأوربية . فهم سواء فى سيبريا أو التركستان من العناصر المغولية والتركية والتترية والطورانية . بينما الروس من السلاف أساسا وإن اختلطوا بنسب ثانوية من العناصر الفنية فى الشمال المتجمد والتترية فى الجنوب الاستبسى . وقد كانت القيصرية تنظر إليهم على أنهم أجانب منحطون . وظيفتهم أن يقدموا العمل الرخيص للمتروبول الصناعية المتقدمة . وأقاليمهم ليست إلا موارد خامات لها . بينما كانت هى تعتمد فى إخضاعهم على مضاربة شعوبهم المختلفة بعضها ببعض وبأعنف وسائل الكبت والقهر[1] .

والنقاد أصحاب هذا الرأى يعترفون بأن مسافة الخلف الجنسية والإثنولوجية بين تلك الشعوب الأسيوية وبين الروس السلاف أقل بدرجة أو بأخرى منها بين الدول الأوربية الاستعمارية وبين أبناء المستعمرات عبر البحار الذين لايربطهم بهم بالقطع أدنى رابطة جنسية أو تاريخية . ولكنهم فى نفس الوقت يحتجون بأن هذا لاينفى صفة الاستعمار عن توسع روسيا القيصرية فى آسيا . ومن تساهل منهم عد هذه « الإمبريالية الروسية » أشبه شىء « باستعمار » الأنجلوسكسون لأمريكا الهنود الحمر . وعلى أية حال فإن الثورة الشيوعية تشارك فى هذه النظرة . فقد أعلن لينين نفسه أن الإمبراطورية القيصرية لم تكن إلا « سجن أمم » من مقياس رهيب[2] .

---

(١) Goblet p. 200.

(٢) James Gregory, Land of the Soviets, Pelican, 1946, p. 47-8.

ومهما يكن من أمر ، فإذا مانحن عدنا إلى موجات التوسع الروسى فسنجد أن الموجة الأولى قد اتجهت شرقا إلى سيبريا . وبدأت أقرب فى الواقع ألى نوع روسى من « الكشوف الجغرافية » القارية ، وانتهت فى النهاية كزحف قيصرى نحو الشرق Drang nach Osten. ولم يبدأ التيار إلا فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، حين عبر المغامر القوزاقى يرملك Yermek جبال الأورال فى سنة ١٥٨٠ واستولى على مدينة سيبير على الإرتش . ولم يكن هذا جزءا من خطة غزو منظم موضوعة ، لا ولا يدل على أطماع استعمارية قيصرية ما . وإنما كان الدافع والهدف ـ كما حدث فى كندا ـ هو التجارة أساسا ، والفراء بوجه خاص ، ومن تنظيم وعمل كبار التجار فى الأورال . أما الجانب العسكرى فيها فلم يزد على نشاط فرسان القوزاق الذين صاحبوا القوافل التجارية ؛ أصلا كحرس وأحيانا كعصابات نهب[١] .

ولقد كانت سيبريا هى جبهة الريادة للروسيا مثلما كان العالم الجديد بالنسبة للأنجلو سكسون ـ بل كانت بجدارة « العالم الجديد » بالنسبة للسلاف . بل إن تواريخ الزحف والتقدم تكاد تتعاصر وتتناظر فى أكثر من حالة حتى ليمكن مقارنتها ومقابلتها بدقة مثيرة . وكما فى العالم الجديد ، جاء الزحف كاسحا سريعا كالسهم المرسل ، لأنه تم فى مناطق مخلخلة السكان جدا إن لم تكن من الناحية العملية فراغا بشريا تقريبا ، كما كان المستوى الحضارى الذى ينحصر مابين الرعى والصيد بدائيا أو شبه بدائى على الأحسن ، فلم تكن ثمة مقاومة فعليا .

وإذا كانت الروسيا قد توسعت فى حدودها الأوربية على طول الأنهار بالذات ، فقد استمر توسعهم خارجها فى سيبريا على أساس الأنهار كذلك . وكان كل نهر يؤدى بالرواد إلى النهر الذى يليه ، وهذا يسلمهم إلى مابعده ، وهكذا . وتم هذا فى نطاق دهليزى ضيق من الأعشاب الجيدة يقع مباشرة إلى الجنوب من « التاييجا » محصورا بينها وبين مرتفعات وسط آسيا فى الجنوب ، وهو نفس ذلك الدهليز الذى تتبعته فيما بعد سكة حديد سيبريا . ولذلك فإذا كانت الأنهار هى حملة الاستعمار هنا ، فقد جاءت بعدها السكك

---

(١) Fitzgerald, New Europe, p. 163-8.

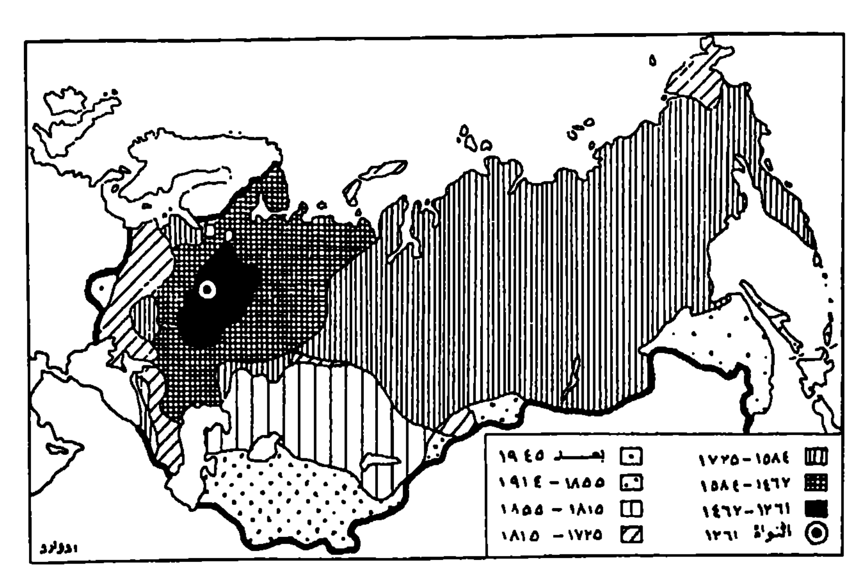
الحديدية لتصبح شريان الحركة فيها ، وذلك دون أن تمر المنطقة مطلقا بمرحلة الطرق البرية .

وعلى طول الرحلة بذر الرواد بذور المدن المحصنة Ostrogs على ملاقى الأنهار : تومسك على الإرتش فى ١٦٠٤ (وتقابل جيمز تاون فى أمريكا ١٦٠٧) ، ياكوتسك على نهر لينا ١٦٣٢ (وتقابل هارتفورد فى ١٦٣٨) . وبهذا نكون قد قطعنا أكثر من ٢٥٠٠ ميل فى أقل من نصف قرن !

وحين وصل الزحف إلى بيكال انشعب إلى شعبتين : الأولى إلى الشرق توا نحو الهادى إلى أوختسك ، وهى التى ستؤدى بالروسيا بعد حين إلى مواجهة أمريكا الشمالية من بابها الخلفى لتنتهى « ببهرنج » إلى اكتشاف ألاسكا فى ١٧٤١ وإلى استعمار روسيا لها ، حيث ظلت تعرف « بأمريكا الروسية » ، ثم إلى الزحف جنوبا على طول الساحل الأمريكى حتى أصبحت الروسيا على بعد ٤٠ ميلا فقط شمال سان فرنسسكو فى ١٨١٢ ، لتجد نفسها وجها لوجه مع إسبانيا ، بعد أن بدأ كل منهما من أقصى طرفى أوربا وأعطى ظهره للآخر فى رحلة عكسية حول العالم !

وهنا نجد الروسيا لأول مرة تترك اليابس لتعبر المحيط ــ طفرة غريبة فى تاريخها وتكوينها القارى البحت . وفضلا عن هذا فقد وصل بها هذا الاندفاع الصاروخى إلى نقطة تبعد عن العاصمة الوطنية بمسافة قد لاتقل عن ثلث محيط الكرة الأرضية ! ولهذا لم يكن غريبا أن تنسحب الروسيا إلى أوراسيتها حين قررت ــ بحكمة ــ بيع ألاسكا للولايات المتحدة فى ١٨٦٧ . ولعل هذا يذكرنا ببيع فرنسا للويزيانا وانسحابها إلى أوربيتها . أوكأنما قد أصبح قانونا من قوانين السياسة الروسية ألا تملك أراضى عبر البحار ، بمثل ماأصبح من قوانين السياسة البريطانية أن تملك أراضى عبر البحار .

ذلك عن الشعبة الأولى بعد بيكال . أما الشعبة الثانية من توسع الروسيا شرقا فقد انحرفت مع التضاريس نحو الجنوب الشرقى إلى هضبة فيتيم ، التى هى خط تقسيم المياه بين الأمور ولينا ، لتنتهى إلى فلاديفوستك ١٨٦٠ . وهذه الشعبة أتت بالروسيا إلى أبواب الصين ومنشوريا حيث بدأت صداقة تقليدية ستتطور فى المستقبل لتصبح ذات مغزى سياسى كبير . ومع تقدم العمل فى خط حديد سيبريا إلى فلاديفوستك وبورت آرثر ازداد التعمير الروسى فى شمال منشوريا ، ولكن دون أن يعوق تيار الفلاحين الصينيين العرم إلى هذا الاقليم أو يصطدم به .



شكل (١١) توسع الروسيا : الإمبراطورية القارية الكاملة

غير أن هذا الخط ، من الناحية الأخرى ، كان يحمل الروسيا إلى أبواب اليابان التى كانت قد تطورت كثيرا وقطعت شوطا بعيدا فى التحضر والقوة وبدأت تتطلع إلى التوسع والنفوذ . من هنا جاء الصدام الذى تمثل فى الحرب الروسية ـ اليابانية عام ١٩٠٥ والذى كشف ضعف الروسيا أو على الأقل سوء موقعها الاستراتيجى فى هذه التخوم المتطرفة بسبب بعدها السحيق عن قلب الدولة غرب الأورال .

تلك فى مجموعها هى الموجة التوسعية الأولى للروسيا الحديثة . وفيها سنلاحظ أن التعمير الروسى فى سيبريا طوال تلك المرحلة لم يكن جديا حقا ، ولا كان الاستعمار القيصرى مهتما بأملاكه الحديثة فى الشرق حيث كان منصرفا إلى المجال الأوربى . بل لقد ظلت سيبريا لفترة طويلة مجرد منفى للمجرمين والمبعدين ، شأنها فى ذلك شأن البرازيل بالنسبة للبرتغال وأستراليا بالنسبة لبريطانيا . إلا أن الموقف تغير منذ منتصف القرن التاسع عشر ، حين انعطفت القيصرية على سيبريا بشدة ونظرت بطموح إلى الهادى بحثا عن مخارج لها بعد أن فشلت فى الوصول إلى مخارج لها فى المياه الأوربية . والواقع أن التعمير الروسى لسيبريا يقتصر تقليديا على سهم أو إسفين يبدو كرشاش متطاير خفيف مرسل من كتلة سلاف روسيا الأوربية على فرشة مخلخلة للغاية من السكان المغوليين الأصليين .

هذه النكسة التى قابلت الروسيا فى سياستها الأوربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر دفعت بها أيضا إلى مجال أسيوى جديد غير سيبريا هو القوقاز والتركستان[1] . فكانت الموجة الاستعمارية الثانية . أو الاتجاه نحو الجنوب Drang nach Süden التى تناظر وتعاصر الموجة الثانية المدارية للاستعمار الأوربى . وبحكم الموقع الجغرافى كان طبيعيا أن يأتى دور القوقاز أولا فى النصف الأول من القرن ، ثم التركستان بعد ذلك فى نصفه الثانى . ولهذا تأخذ الموجة شكل كماشة فكاها غرب بحر قزوين أو منطقة Trans- Caucasia وشرق البحر أو Trans-Caspia . وفى كلا الحالين كان لابد أن تصطدم الروسيا فى نهاية توسعها بالنفوذ الفارسى الذى كان سائدا فى تلك التخوم . وفى وقت كانت فارس فيه قوة ضخمة قادرة على أن تناطح تركيا .

ففى غرب البحر . إذا بدأنا من البداية . بدأ الزحف مع بداية القرن وانتهى فى ثلاثة عقود بعد حربين مع فارس . وقد سارعت قوى أوربا البحرية فرنسا ثم بريطانيا إلى مساعدة فارس والوقوف إلى جانبها منعا للتوسع الروسى . ولكن بلا جدوى : فقد فقدت فارس جورجيا وأرمينيا (اريفان ولنكوران) . وبهذا انتهى الصراع إلى الحدود التى ستظل حتى يومنا هذا . ومن حينها تداعت فارس واتضعت بصورة كاسفة وانتهت كقوى كبرى فى المنطقة ولم يعد لها بعدها قبل بأن تواجه الروسيا على الاطلاق .

وبعد عقد واحد من اكتساح القوقاز . كانت الروسيا قد استدارت فى ١٨٤٠ حول بحر قزوين متجهة إلى سهل طوران لتخضع قبائل التركمان والأوزبك والقرغيز وغيرها من العناصر الطورانية أو المغولية . وفى ١٨٤٦ كانت طشقند قد سقطت . وفى ١٨٦٨ تلتها سمرقند . ثم جاء دور خيوه فى ١٨٧٣ . ولحقتها خوقند فى ١٨٧٦ . أى أن أهم المراكز التاريخية سقطت جميعا فى عقد واحد .

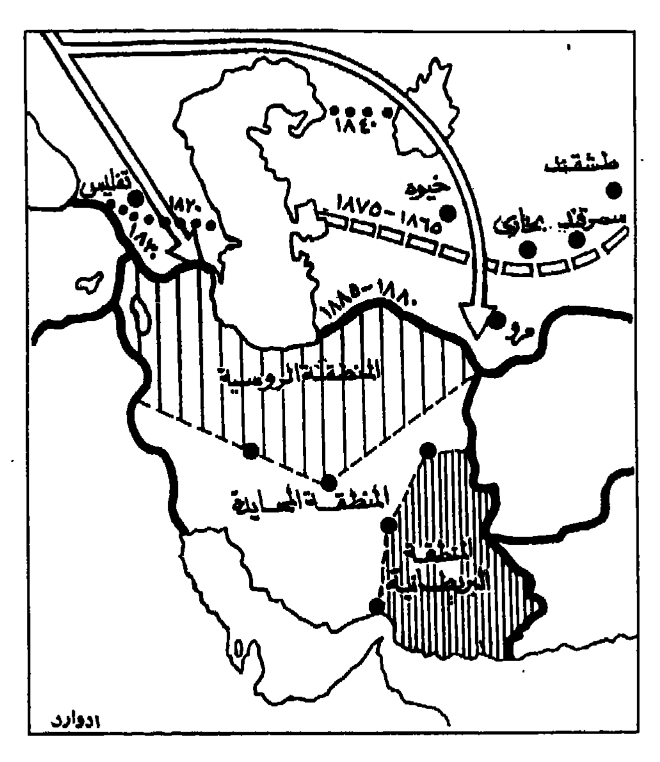
هناك لم يبق إلا النطاق الجنوبى الأقصى من الحوض . حيث ضم نهائيا فى العقدين الأخيرين من القرن بعد اصطدام آخر مع فارس التى انتزعت الروسيا منها مرو . واصلة بذلك إلى الفاصل الجبلى النهائى . وبه تحددت الحدود السياسية القائمة حتى الآن . كذلك

---

(١) W.B. Fisher. p 161-3

فقد أوصلها هذا إلى تخوم الهند البريطانية حيث بدأ التوتر يزداد بين القوتين النقيضتين ، قوة البر وقوة البحر .

فى هذا التوسع الجنوبى بشقيه سيلاحظ أنه ـ ابتداء ـ قد تأخر طويلا عن التوسع الشرقى فى سيبريا . فكانت الروسيا قد شارفت الهادى حين كانت بالكاد قد بدأت التوسع الجنوبى ، وذلك رغم القرب الجغرافى النسبى . كذلك فقد أنفقت الروسيا فيه وقتا طويلا نسبيا . والسبب فى هذا وذاك هو أن التوسع شرقا فى سيبريا كان يتم كما رأينا فى شبه فراغ عمرانى وحضارى ، أما التوسع الجنوبى فجاء فى وسط غير منفذ بسهولة للاستعمار : كثافة سكان أعلى ، وتجمعات آهلة مستقرة ، وشعوب ذات تاريخ حضارى طويل ، وتكوين سياسى راق ، وتركيب دينى توحيدى (الإسلام شرق قزوين ، والمسيحية غربه) . لهذا كان لابد من القضاء على « الخانات » الإسلامية وقمع الحضارة المحلية والشعور القومى بالإرهاب . وتاريخ قياصرة آل رومانوف فى هذا دموى ومعروف بما فيه الكفاية .



شكل (١٢) توسع قياصرة رومانوف في وسط آسيا

كذلك . وبعكس سيبريا . لم يكن هناك مجال للاستعمار الاستيطانى السكنى أو لانتقال معمرين من الروس السلاف للاستقرار فى المنطقة وهى الآهلة العامرة بأصحابها من قبل . ولذا تحتم أن يقتصر التوسع على الاستعمار الاستغلالى . ومما يلفت النظر أن الفارق فى هذا بين التوسع شرقا والتوسع جنوبا يكرر فى الوقت نفسه الفارق بين الموجة الأولى من الاستعمار الأوربى عبر البحار فى العروض المعتدلة وبين موجته الثانية فى العروض المدارية .

ماهو . أخيرا . وعلى أية حال ، المغزى الاستراتيجى لهذا التوسع الخطير ؟ انقلاب ثورى فى تاريخ العالم القديم لايمكن ـ مهما حاولنا ـ أن نبالغ فى تقديره ! فلأول مرة تظهر قوة توحد كل قلب أوراسيا فى تنظيم سياسى واحد ، ولأول مرة لايكون الاستبس الأوراسى قوة رحل رعوية بل قوة زراعية مستقرة دائمة . إن الانقلاب الذى بدأت بذورة مع اختراع البارود قد استكمل الآن كل مغزاه الاستراتيجى . وخضع الاستبس الأوراسى جميعا لسيطرة حكومة مركزية قوية فى قاعدة أرضية غنية متحضرة . لتصبح الروسيا أول وأضخم قوة بر فى التاريخ لا تعتمد على حركة الخيل وكوكبات الفرسان وإنما على حركة القطار والمدفعية المدرعة .

ثم لا ننسى بعد هذا أو قبله حقيقة التوسع نفسه كصفة أساسية أصيلة فى كيان الروسيا الجيوبوليتيكى وتاريخها السياسى . فالروسيا القيصرية نتاج سبعة قرون من التوسع المستمر الذى بدأ من نواة واحدة هى موسكو حتى وصل إلى قمته فى القرن التاسع عشر أو العشرين . وعلى سبيل المثال . فكما كتب ماركس نفسه سنة ١٨٥٣ كمراسل لصحيفة أمريكية « لقد تقدمت الحدود الروسية خلال الستين سنة الماضية ٧٠٠ ميل نحو برلين ودرسدن وفينا ، ٥٠٠ ميل نحو القسطنطينية ، ٦٣٣ ميلا نحو ستوكهولم ، ١٠٠٠ ميل نحو طهران » . بل إن البعض يتتبع هذا التوسع المزمن إلى العصر الشيوعى ، فلا يرى فى الاتحاد السوفيتى إلا « وحدة سياسية تتكون من ١٥ جمهورية ، ١٤ منها تم غزوها بواسطة واحدة فقط هى الروسيا » .

وأيا ماكان . فإن البعض يرى أن الروسيا لم تكن فى يوم ما طوال تاريخها إلا دولة توسعية فى الخارج . مثلما لم تكن إلا دولة استبدادية فى الداخل . وكما أنه لا تقاليد للحريّة داخليا فلا تقاليد لعدم الاعتداء خارجيا ، فضلا عن أن الظاهرتين مترابطتان كسبب ونتيجة حيث كان الخضوع للاستبداد فى الداخل هو الثمن الحتمى الذى دفعه الشعب للدولة مقابل الغزو والتوسع فى الخارج أو مقاومة الخطر الخارجى . وعلى أية حال ودون أن

نذهب بالضرورة إلى حد القول بأن « التوسع فى الأرض أمر طبيعى بالنسبة للروسيا مثل صيد الفريسة بالنسبة للأسد أو أكل السمك بالنسبة للدب »(١) . فلقد كان صاحب مقولة « من كف عن التوسع أصابه العفن » هو بعض ساسة القيصرية . كذلك يستطرد البعض فيرى أن الاتحاد السوفيتى مازال يعمل على أساس مبدأ « أوسع وأوسع وإلا انكمش » ، وأنه وإن بدأ قوة دفاعية أساسا فإن الدفاع عادة يتحول إلى الحرب والحرب إلى عدوان(٢) .

استراتيجيــة البــر والبــرد

من هذا التوسع المديد تخرج الروسيا أيضا بصفة أساسية هى بلاشك « القارية » ، القارية المطلقة . فهى أولا رقعة واحدة متصلة سحيقة الأبعاد من اليابس ، كبقعة زيت تمددت . بل لعل العالم لم يعرف فى تاريخه دولة أو إمبراطورية برية متصلة contiguous فى مثل هذا الحجم ، إلا أن تكون إمبراطورية جنكيز خان . ثم إنها تخرج وهى دولة أوراسية ذات بعدين ، تضع قدما فى أوربا وقدما فى آسيا ، وتبدو كما لاحظ دستويفسكى أسيوية للأوربيين وأوربية للأسيويين(٣) ، وحين تلق إعراضا أو انتكاسا هنا تتجه هناك ـ والعكس . على أنه لما كان مركز ثقل المعمور والنواة النووية هى روسيا الأوربية ، رغم أن المساحة الكبرى فى آسيا ، فيمكن أن نقول إن الرأس أوربى والجسم أسيوى .

والمهم أنها الآن الدولة القارية الكاملة وقوة البر الكلاسيكية ، والنقيض المباشر لبريطانيا فى القرن التاسع عشر ، النموذج التام للإمبراطورية البحرية المتناثرة فى أركان الدنيا ولقوة البحر الكلاسيكية . وإذا كانت الإمبراطورية البريطانية ـ كما قيل ـ من صنع السفينة البخارية ، فإن الروسيا القيصرية كالولايات المتحدة هى من صنع القطار .

وهى بعد تخرج من ذلك التوسع وهى أطول الدول حدودا ، سواء برية أو بحرية : نحو ٣٨ ألف ميل(٤) ، أى مثل محيط الكرة الأرضية مرة ونصف مرة ! ومع ذلك فلم يكن هناك دولة معزولة بالطبيعة وحبيسة عن عالم المعمور كالروسيا . فهى وإن بدت ساحلية

---

(١) Richard Nixon, loc. cit.

(٢) "East-West Struggle", Economist, p. 41.

(٣) Dostoyevsky, Diary of a Writer.

(٤) Gregory, p. 10.

شكلا ، تعد قارية موضوعا . فشمالا ثمة المحيط المتجمد ، وجنوبا نطاق عميق من الصحارى والمرتفعات الصارمة ، وشرقا فراغ المحيط الهادى الهائل وأضخم صحراء على ظهر الأرض كما يعبر هويتلزى . إنها ـ نكاد نقول ـ رهينة المحبسين ، صحراء الجليد وصحراء الرمل .

لهذا جميعا كانت تطلعاتها وسياستها الخارجية انعكاسا مباشرا وتلقائيا لتركيبها الداخلى : هنا القارية الحبيسة ، وهناك الخروج إلى البحر والبحر الدافئ بالذات . هنا الحدود الشاسعة ، وهناك الرغبة فى خلق نطاق حولها من الدول الصغرى المحيدة أو الخاضعة لنفوذها لتكون حاجزا بينها وبين القوى الساحلية البحرية . وهذان بالفعل هما المؤشران اللذان يكونان معا بوصلة السياسة الروسية أو حجر المغنطيس فى استراتيجيتها . وقد بدأ التوجيه إلى البحار الدافئة منذ بطرس الأكبر بالتحديد أو بالتفصيل ، وبعده يمكن تفسير كل السياسة الخارجية « برغبة الدب الروسى فى المياه الدافئة » أو بتعبير آخر « بجيوبولتيكا درجة الحرارة » . وعلى الجملة يلخص البعض « وجهة نظر الدب bear's eye-view » فى التوسع الأرضى والامتداد الهائل كرد وحيد على عقدة الحصار والتطويق الطبيعى والسياسى .

ولقد كان معنى هذا مباشرة أن تصطدم بالقوى البحرية فى أكثر من جبهة ، ومن ثم يأخذ الصراع السياسى شكل صراع سافر وبلا مواربة بين قوة البر وقوه البحر . ومن الغريب أن السياسة المعلنة للقوى البحرية الغربية فى القرن التاسع عشر كان يعبر عنها بالاحتواء containment والتطويق encirclement ـ وهى نفس الألفاظ التى تستعملها اليوم ! ـ حتى تظل الروسيا محصورة فى قاريتها[1] . وباختصار فلقد اتخذت القوى البحرية إزاء الروسيا : سياسة الصد checkmate ، وكان ذلك كله صراع « الفيل » (قوة البر) و « الحوت » (قوة البحر) كما وصف فى حينه .

التوسع غربا

هذا وقد كانت المنافذ البحرية الممكنة أو المتاحة للروسيا هى أساسا البلطيق فى الشمال والبحر الأسود فى الجنوب ، ولو أنها بحار داخلية تتحكم دول فى مخارجها كما تتحكم أخرى فى سواحلها . وفيما بعد أضيف الخليج الفارسى (العربى) كمغنطيس ثالث . أما

(١) John S. Badeau, "Middle East: Conflict in Priorities", Foreign Affairs., Jan, 1958, p. 233-7.

الهادى فنصف متجمد فضلا عن أنه متطوح مقطوع ويمثل طريقا غير اقتصادية . ولهذا فقد تركز ضغط السياسة القيصرية فى الغرب على ضلوعه الأوربية . ففى البلطيق بدأ بطرس الأكبر « بنافذة الروسيا على أوربا » حين خلق سان بطرسبرج (لننجراد) من لاشىء . ثم كانت أوكرانيا أرض صراع مزمن بين الروسيا وبولندا فى البداية ، فلما تغلبت الروسيا أصبحت بولندا نفسها هى الهدف .

وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كانت الروسيا شريكا فى تقسيمات بولندا الثلاث الشهيرة وغالبا ماخرجت منها بنصيب الأسد . أما دويلات البلطيق فقد تمت السيطرة عليها فى نفس الفترة ، بينما ضمت فنلندا فى أيام الحروب النابليونية بعد انتزاعها من السويد . وبذلك أصبح للروسيا جبهة بحرية حقيقية فسيحة على البلطيق إلى جانب نطاق أمان ضد وسط أوربا . ويلاحظ أن الروسيا كانت بهذا أوسع رقعة وأبعد حدودا ناحية الغرب من الاتحاد السوفيتى اليوم .

البحر الأسود والمضايق

غير أن البحر الأسود كان الهدف الأكبر بالطبع نظرا لموقعه ودفئه ، ولأن الجزء الأكبر من حوضة روسى مباشرة أو على الأقل سلافى بوجه عام . إلا أن مفاتيحه ليست فى يدها وإنما فى يد تركيا . ولهذا كان الصراع بينهما هو قدرهما المشترك ، لاسيما أن تركيا كانت القوة التى تقهر أكبر عدد من السلاف فى البلقان وشرق أوربا ، بينما أن الروسيا هى بطل السلافية الحامى . أقطاب جغرافية متنافرة وأقدار تاريخية متصادمة ! هذه قوة بر ، وهذه قوة بر مائية بينية .

وقد شهد القرن الثامن عشر عدة اندفاعات روسية عاصفة على عهد كاترين الثانية لتقتحم المضايق ، وذلك بعد أن كانت الروسيا قد انتزعت السواحل الشمالية للبحر الأسود وشبه جزيرة القرم من الأتراك . وقد بدا أحيانا أن هدف الروسيا هو ضم المضايق ضما سياسيا كاملا ، وفى أحيان أخرى كان ضمان حقوق وامتيازات المرور الخاصة هو الهدف الوحيد . وبعامة فلقد حدثت سبع حروب على الأقل بين الروسيا وتركيا للسيطرة على المضايق [1] . وفى كل هذه الحروب بلا استثناء ولا اختلاف كانت تتقدم دولة بحرية غربية ـ فرنسا أو إنجلترا ـ لتساند تركيا ضد الروسيا .

---

(١) Mogey. p. 132.

أحيانا كانت إنجلترا تصادق الروسيا وتقف موقف برود إزاء تركيا عنادا فى فرنسا التى تساعد تركيا . وأحيانا تساعد بريطانيا تركيا معارضة لفرنسا حين تتقارب هذه مع الروسيا . أى أن الصراع الداخلى بين الأشباه البحرية كان ينعكس على مواقفها من صراع تركيا مع الروسيا ، ولكن فى كل الحالات لم تكن تركيا تعدم قوة ما منها فى جانبها . ولعل حرب القرم فى سنة ١٨٥٣ هى أبرز وأخطر مجابهة من بريطانيا للروسيا فى تهديدها لتركيا . وقد انتهى الصراع بفشل الروسيا فى السيطرة على المضايق . وإذا كان قد قيل إن هذا كان أول التحام مباشر ومواجهة بين الفيل (الروسيا البرية) والحوت (بريطانيا البحرية) ، فهل نضيف من جانبنا أنه كان يدور حول التمساح (تركيا الأمفيبية) ؟

أيا ما كان ، فلقد أدركت كل من فرنسا وبريطانيا بالتدريج بعد ذلك خطأ مواقفها التكتيكية المتعارضة السابقة إزاء كل من الروسيا وتركيا والتى حكمتها مناورات العداء بينهما فى الوطن ، وسرعان ما أيقنتا وحدة مصالحها الاستراتيجية العميقة ضد الروسيا وبالتالى مع تركيا . ومن حينها أصبحت سياستها المشتركة المتصلة هى تدعيم تركيا وحقنها بكل المساعدات الحربية والسياسية لتكون درعا ضد توسع الروسيا ونطاقا صحيا حولها[1] . والمغزى الاستراتيجى واضح كل الوضوح : فى صراع القوى البحرية (فرنسا وبريطانيا) ضد توسع قوة البر (الروسيا) ، كانت قوة بينية (تركيا) هى أرض المعركة الطبيعية ، ولما كانت هذه مهددة بالسقوط أمام قوة البر فقد اجتمعت قوى البحر لتسندها وتدعمها .

حتى حين هدد قطاع من المنطقة البينية ــ مصر محمد على ــ كيان تركيا وأنذر بأن يرث السيطرة على تلك المنطقة ، اتضحت نفس الاستراتيجية ، فقد تكلفت قوتا البحر فرنسا وبريطانيا بكبت الحركة بالقوة فى سوريا . وهذه الاستراتيجية وحدها هى التى أطالت عمر رجل أوربا المريض أكثر مما كان يمكن له ، ومنحته « سلفة » جديدة من الحياة بكل الوسائل الاصطناعية .

ومع ذلك فلم يجد هذا كثيرا . فقد اجتمعت طرقات الروسيا البرية مع طرقات إمبراطورية النمسا ــ المجر البينية ضد تركيا البينية طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى البلقان . فالنمسا ــ التى استطاعت بعد حصار الأتراك لفينا فى القرن السابع عشر ، وبفضل موقعها الجغرافى ، أن تطردهم خطوة خطوة من المجر خلال القرن الثامن عشر وأن

(١) Reader Bullard, Britain & the Middle East. Lond., 1952, p. 28-36.

تؤسس بذلك الإمبراطورية الثنائية النمسا ـ المجر ـ هذه النمسا عادت فى القرن التاسع عشر إلى انتزاع البوسنه والهرسك من تركيا فى حرب ١٨٧٨ . وبعد ذلك أخذت تركيا تتقلص فى البلقان بالتدريج حتى كانت النهاية الكاملة فى الحرب الكبرى الأولى حين أصبحت قوى البحر الغربية ـ حاميتها القديمة ـ عدوة لتركيا البينية .

نحو الخليج

لايبقى لنا الآن من مخارج الروسيا إلا الخليج الفارسى ، الذى قال فيه بطرس الأكبر مقولته التنبؤية الشهيرة « من يسيطر على الخليج ، يسيطر على العالم » . وهذا بدأت الروسيا تتطلع إليه بعد توسعها الجنوبى فى القوقاز ووسط آسيا منذ منتصف القرن التاسع عشر . وقد ازداد نفوذ الروسيا فى فارس ، بعد انتصاراتها عليها وبعد أن أصبحت تطوقها من ثلاث جهات ، ازديادا خطيرا حتى انتزعت كثيرا من الامتيازات الاقتصادية الهامة فيها . وفى وقت ما اعتبرت السياسة الروسية أن المنطقة الواقعة جنوب القوقاز وفى اتجاه الخليج الفارسى هى الأطماع الشرعية لها ، وأن إيران هى « قناه السويس الروسية » وأن لابد لها من « ممر » إلى الخليج الفارسى[1] .

وفى أوائل القرن العشرين وصل تغلغل الروسيا فى إيران إلى حد أن بدا أن هذه قد تسقط كاملة لسيطرتها . ولكن ـ كما حدث مع تركيا ـ وقفت فرنسا أولا فترة مع إيران ، ثم جاءت بريطانيا معتمدة على قوتها البحرية فى الهندى لتنذر بأن أى محاولة روسية لبسط نفوذها فى الخليج ستقاوم بالقوة . على أن هزيمة الروسيا فى حرب اليابان كشفت عجزا غير منتظر ، فاضطرت إلى مساومة تسوية مع بريطانيا بمقتضاها قسمت إيران إلى مناطق نفوذ ثلاث ، الشمالية للروسيا ، والجنوبية لبريطانيا ، والوسطى محايدة . وهذه التسوية تلخص فى نفس الوقت كل استراتيجية إيران من أجل البقاء والمحافظة على كيانها منذ ظهرت قوة الروسيا على ضلوعها ، وهى استراتيجية مضاربة كل من القوى البرية بالبحرية حتى تعيش هى على التناقض بينهما ، باختصار سياسة المضاربة Stalemate[2] .

وبالمثل اصطدمت الروسيا مع بريطانيا على تخوم الهند الشمالية الغربية حيث كانت

(١) المرجع السابق . ص ١٧٠ .

(٢) W. B. Fisher, p. 163-4.

الأولى بتوسعها فى وسط آسيا قد بدأت تقرع باب الهند . من هنا كانت حروب الأفغان فى القرن التاسع عشر التى انتهت « بتحييد » أفغانستان ـ التى شبهها أحد حكامها فى موقعها الاستراتيجى المسحوق بين قوة البر والبحر « بشاة » بين الدب الروسى والأسد البريطانى ! [1] ـ لتصبح دولة حاجزية بين النفوذين البرى والبحرى . ومثل هذا اتفق عليه أيضا بالنسبة للتبت . وبهذا وذاك تحققت استراتيجية الروسيا على حدودها البرية من خلق نطاق من الدويلات الحاجزة بينها وبين القوى البحرية ، وإن كانت قد فشلت فى تحقيق استراتيجية الوصول إلى المياة الدافئة .

---

(١) Cressey, p. 409.

البَـابُ الثّـَانِي

قــرن الاستعمـــار

الفصل السادس

الانقلاب الصناعى والاستعمار

عالم جديد

إن يكن الانقلاب التجارى قد كشف عالما جديدا ، فقد خلق الانقلاب الصناعى عالما جديدا ـ وفرق بين الكشف والخلق كبير . ومهما حاولنا فلا يمكننا المبالغة فى خطورة ونتائج الانقلاب الصناعى ، ويكفى أن تاريخ البشرية كله قبل الصناعة وحدة واحدة ، وبعده وحدة أخرى بذاتها [1] . فالانقلاب إذن أخطر نقطة انقطاع فى تاريخ الانسانية ، ولعله كذلك فى تاريخ الاستعمار وسياسة القوة .

وإذا كان الانقلاب الميكانيكى فى القرن الثامن عشر هو الذى يمهد مباشرة للانقلاب الصناعى ، فإن له أيضا جراثيم فى الانقلاب التجارى الذى سبق الاثنين فى القرن الخامس عشر . فإن مكاسب المستعمرات واقتصاديات المركانتليه الجديدة خلقت بالتدريج فى أوربا البيئة والظروف التى ساعدت على تفريخ الانقلاب الصناعى . وهكذا يبدأ الانقلاب فى بريطانيا حوالى ١٨٢٠ لينتقل إلى فرنسا فى العقد التالى ١٨٣٠ ، ثم لينتشر بعد ذلك شرقا عبر القارة خلال القرن .

والانقلاب مركب حضارى كامل برمته ، لم يخلق علما وفنا وتكنولوجيا جديدة فحسب ، ولا اقتصادا جديدا وكفى ، بل ومجتمعا جديدا وجيوبوليتيك جديدا تماما . وإذا كان هيكل الانقلاب يتلخص فى أنه عصر الفحم والحديد ، والبخار والقطار ، فهو بنفس القوة والأهمية عصر السفينة البخارية والمواصلات السلكية واللاسلكية ، أى المواصلات المكانية واللامكانية ، كما انتهى إلى أن يكون عصر الطيارة فى الجو والغواصة فى الأعماق . وقد ترتب على هذا كله ثورة جذرية فى النقل والمواصلات ، فتقلص العالم

---

(١) V. Gordon Childe, Man Makes Himself. N.Y., 1951, p. 17-19.

واختزلت المسافة . وأصبحنا نعيش فى « عالم صغير » منكمش باطراد جغرافيا ـ كما هو جيولوجيا ـ حتى وإن تمدد ظاهريا ببعض كشوف من المجاهيل !

ولما كان القطار قد حقق وحدة اليابس ، فإنه لم تعد هناك قارات متعددة بل « قارة عالمية World Island » كما سمى ماكيندر العالم القديم[1] ، وقارة صغرى هى العالم الجديد . ولأن السفينة البخارية قد حققت وحدة المحيط ، فإنه لم يعد هناك عمليا محيطات متعددة ، وإنما محيط واحد يغلف عالما واحدا متماسكا مترابطا كما لم يكن قبل فى التاريخ . وأتت المواصلات اللاسلكية والجوية لتؤكد هذه الوحدة كل التوكيد .

وفى الجانب السياسى ، كانت النتيجة المباشرة لهذه الانقلابات هى سهولة ضبط وربط الدولة من الداخل عمقا واتساعا . فبعد أن كان من المتعذر على الدول أن تتعدى حجما أو مساحة معينة فى العادة ، أمكن للدول الكبيرة الحجم أن تظهر . وبعد أن كانت الدولة الكبيرة الرقعة نوعا تتعرض ، على بعد مئات قليلة من الأميال من العاصمة ، لحركات الانفصال والتمرد ، أصبحت الوحدة القومية مضمونة حتى أبعد الحدود وهوامش الأطراف من الدولة[2] . ولهذا فإن العصر هو عصر استكمال مالم يكن قد تم من وحدات فى القارة أو خارجها ، وتوسيع وتوطيد ما كان منها قد بدأ .

من ثم فإن الوحدات التى ولدت فى عصر الانقلاب الصناعى تميل إلى أن تكون من الدول الضخمة المساحة والحجم ، كألمانيا وكندا والولايات المتحدة وأستراليا ، وبالتالى سيكون لها مكان خاص فى ميزان القوة السياسية[3] . ولولا أن أتى الانقلاب الصناعى بكل أدواته ووسائله ـ لاسيما منها وسائل النقل ـ فى الوقت المناسب ، أو لو تأخر عقودا ، لما استطاعت بعض هذه الوحدات الضخمة ـ ربما ـ أن تظهر ، ولظهر بدلا من كل منها عدد أكبر من وحدات أصغر . فلولا القطار وخط سكة حديد الباسفيك لما دخلت كولمبيا البريطانية ـ وربما مقاطعات الوسط أيضا ـ اتحاد كندا . ومثل هذا وأكثر منه يقال عن الولايات المتحدة . بل لو أن الانقلاب الصناعى تقدم قليلا فى مجيئه فلربما لم تستقل ، أو لم تستطع أن تنفصل ، الولايات المتحدة عن بريطانيا . ولولا سكة حديد الجنوب لكانت

---

(١) Democratic Ideals, p. 52.

(٢) Fawcett, op. cit., p. 428.

(٣) Mogey, p. 125.

أستراليا الغربية ، وهى التى لاتزال تعانى من اتجاهات انفصالية ، دولة منفصلة عن الاتحاد الاسترالى[1] .

هذا داخل الدولة الواحدة ، أما خارج الدولة الوطنية فإن انقلاب المواصلات والصناعة سيمكن للإمبراطوريات الماموث والجبارة من الظهور مهما تباعدت أطرافها فى أركان المعمورة . لاسيما أن الانقلاب الصناعى نفسه خلق مستويات جديدة تماما من القوة المادية والعسكرية لاتقارن البتة بكل ماسبقها . ويكفى على ذلك دليلا أن أول حرب حديثة فى العصر الصناعى ، وهى الحرب الأهلية الأمريكية ، تفوق فى حجمها وجيوشها وأهوالها آخر وأضخم حرب فى عصر ماقبل الصناعة والتى تحتل مكانة خاصة فى كل التاريخ وهى الحروب النابليونية ـ حقيقة مذهلة ![2]

ولهذا فإذا كان الاستعمار فى العصور القديمة والوسطى هو صراع بين الزراع والرعاة ، فإنه الآن سيكون صراعا بين صناع ورعاة ، بين الحضارة الميكانيكية والحضارة البدائية ، بل بين العصر الصناعى والعصر الحجرى أحيانا ، وبين المدفعية المدرعة والقوس والسهم بالتالى . ومن ثم فقد كان الفارق رهيبا والنتيجة محتومة . وبهذا وذاك جميعا تستمر الحركة التاريخية الصاعدة النظيمة من اتجاه الإمبراطوريات وصراع القوى إلى أن يأخذ أبعاد وآفاقا أكبر باطراد .

الصناعة ، الرأسمالية ، والاستعمار

ولم يكن مفر كذلك ولذلك من أن يصبح العصر الصناعى مرادفا للعصر الاستعمارى ، وأن يكون الاستعمار « وباء » القرن التاسع عشر . فإذا كان الانقلاب التجارى هو الجد الأعلى للاستعمار الحديث ، فان الانقلاب الصناعى هو أبوه المباشر . تفسير ذلك أن الأنقلاب الصناعى خلق اقتصادا مفتوح الشهية ، بل حاد الشهوة ، ينتج بالجملة ليستهلك بشراهة ، وهو فى النهاية أبعد ما يكون عن الكفاية الذاتية ، ولا يمكن لأى دولة أو مجتمع أن يجد عناصر وأركان صناعته داخل حدوده ، بل حتى داخل اقليمه الجغرافى الطبيعى الرئيسى . وإنما هى تعتمد أساسا على عملية « استقطاب » تركيزية عنيفة لكل موارد وخامات وقوى الأقاليم المتباينة والعروض المتفاوتة والبيئات المتنافرة . إنها ببساطة

(١) Harrison Church, Modern Colonisation, p. 86.

(٢) Oswald Spengler, Decline of the West, trans., N.Y., 1946, vol. 2, p. 421.

محاولة لاختزال الكرة الأرضية ـ اقتصاديا ـ فى نقطة . وكما يتفق ، فإن أخطر طرفين فى هذه العملية هما العروض المعتدلة والمدارية .

والصناعة بعد هذا لا تخرج من حمى البحث عن الخامات وموارد الخامات ، إلا لتدخل فى حمى البحث عن الأسواق لتصريف ما قد أنتجت . ولذا فالصناعة محمومة أبدا بتركيبها الذاتى ، وترياقها كما تصورت وكما لازالت تتصور هو الاستعمار ، والاستعمار المدارى بالذات . من هنا انطلقت القوى الاستعمارية الصناعية إلى استعمار المداريات الجديدة ، أو تعميق استعمارها للمداريات القديمة . فإذا كان استعمار الكشوف والعصر التجارى كما رأينا « اندفاعا نحو الشرق Drang nach Osten » (وإن كان بعض هذا « الشرق » غربا فى الحقيقة) ، فإن استعمار الانقلاب الصناعى هو أساسا « اندفاع نحو الجنوب Drang nach Süden » . الأول استعمار خطوط الطول ، والثانى استعمار خطوط عرض كما قد نقول .

ليس هذا فحسب ، وإنما خلقت الصناعة أيضا المجتمع الذى يحض على ، ويؤدى إلى ، الاستعمار كواقع وكمثال . فلقد ولد الانقلاب الصناعى فى إرهاصات تغيير اجتماعى من الاقطاع إلى البورجوازية ترمز له الثورة الفرنسية ، وجاء هو بعدها بعقدين ليقفز بهذا التغيير إلى ثورة اجتماعية سياسية كاملة وجذرية . فالانقلاب الصناعى تمخض عن الرأسمالية وخلق المجتمع البورجوازى الرأسمالى الذى هو فى صميمه مجتمع تنافسى تملكى وتوسعى .

ولهذا فلم يكن منتهاه وقصاراه خلق طبقات اجتماعية متعارضة متصارعة داخل الدولة ممن يملكون وممن لا يملكون Haves & Have nots ، من البورجوازية والبرولتارية ، وإنما خلق معها طبقات سياسية متنافرة بين الدول المختلفة ممن يملكون وممن يملكون Haves & Hads ، أى من المستعمِرين والمستعمَرين . فالاستعمار فعلا أعلى مراحل الرأسمالية ، وهو امتداد خارج الحدود للطبقية داخل الحدود ، والمستعمرات ليست إلا « برولتارية السياسة الدولية » . لذلك جميعا فقد كان الانقلاب الصناعى إشارة البدء بسباق محموم معربد نحو الاستعمار ، وعاملا حاسما فى الصراع الدولى ، وكان القرن التاسع عشر هو بالضرورة والامتياز قرن الاستعمار .

كذلك لعب الانقلاب الصناعى دورا خطيرا ومباشرا فى التمكين للاستعمار والتعمير ، فقد قدم معا وفى وقت واحد « جسم » التعمير وضواغط التهجير وأداة الحركة وظروف

التوطن . فمن ناحية حرك الانقلاب « ثورة ديموغرافية » عارمة لم تعرف البشرية لها مثيلا من قبل . ففى القرن التاسع عشر ارتفع سكان أوربا من ١٨٧ مليونا فى ١٨٠٠ إلى ٤٠١ مليون فى ١٩٠٠ [1] ، وأصبحت أوربا متخمة بفائض سكانى تحول بالهجرة إلى طفح بشرى خرج من القارة كالطوفان ليتوطن نهائيا فى المستعمرات والأقطار الجديدة .

ومن ناحية أخرى كانت النظم الاقتصادية والاجتماعية الجديدة التى خلقها الانقلاب الصناعى من أهم الضواغط التى دفعت إلى الهجرة من أوربا . فالصراعات الطبقية والاضطرابات السياسية والثورات العديدة والضغوط المادية والانسانية على البرولتارية الكثيفة المسحوقة كانت عوامل طرد مباشرة ومحققة . وليس من الصدفة أن موجات الهجرة من أوربا تتعاصر زمنيا مع تواريخ الثورات الكبرى التى تنقط مجرى القرن الصناعى ابتداء من ١٨٣٠ إلى ١٨٤٨ إلى ١٨٧٠ [2] .

الصناعة والقوة

ومع ذلك فلولا ما أحدث الانقلاب الصناعى من ثورة فى وسائل النقل البرى والبحرى بالجملة ومن تسهيلات الحركة التى لم تعرف قط من قبل ، لما استطاع هذا التيار الكاسح أن يتحقق . وبعد هذا فإنه الانقلاب الصناعى وحده ، بما أنتج من علوم وفنون وطب ووسائل صحية ومخترعات تدفئة صناعية وتكييف .. الخ ، هو الذى خلق الظروف البيئية المعقولة والملائمة للسكنى والتوطن فى « جبهات الريادة » القارية تلك . باختصار إذن ، لقد جعل الانقلاب الصناعى من الاستعمار حاجة وإمكانية فى نفس الوقت .

يبقى أخيرا أن الانقلاب نفسه كان عاملا حاسما فى تحديد مصاير الصراع الاستعمارى وصدامات القوى . فقد كان نمط القوة السياسة وتوزيع مواطنها الطبيعية natural seats of power يتحدد فى العصر التجارى ببعدين أساسيين ، هما موارد الزراعة المحلية وموارد الموقع التجارى . ولكن جاءت الصناعة لتضيف بعدا ثالثا وفيصلا ، أعاد تقييم الأوزان الجغرافية للأقاليم والدول المختلفة . وأحدث انتخابا جغرافيا جديدا للقوى السياسية ، فاستبعد البعض من الصدارة ودفع البعض إلى المقدمة وخلق البعض جديدا أو من جديد .

---

(١) J.M. Houston, A Social Geog. of Europe, Lond.. 1953, p. 152; A. Landry. Traité de Démographie, Paris, 1949, p. 66.

(٢) E. E. Bergel, Urban Sociology, Mc Graw-Hill. 1955, p. 251-5.

وتفسير ذلك أن مركب الفحم والحديد ـ وهو « صدفة جيولوجية » إما لك وإما عليك ـ قد أصبح أساس القوة الجديدة . ولهذا جاء الانقلاب الصناعى لينهى إلى الأبد الصراع على السيادة العالمية بين فرنسا وبريطانيا ، ذلك الذى كان أبرز طابع فى القرن الثامن عشر . وليضع بريطانيا فى الصدارة المطلقة طوال القرن التاسع عشر . لكنه خلق لها ـ بالمقابل ـ منافسها المقبل ـ ألمانيا ـ ليصبح النصف الأول من القرن العشرين هو عصر الصراع العالمى بين بريطانيا وألمانيا ، ثم ليختزله بسرعة ليضعنا مع بداية النصف الثانى من القرن فى مواجهة صراع جديد من قدر أضخم وأعظم هو هذا الذى نعيشه بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى .

تلك إذن هى الخطوط العريضة فى الانقلاب الصناعى كمحرك وضابط للاستعمار والصراع الدولى . وعلينا الآن أن نتقدم أولا إلى دراسة الاستعمار فى هذا القرن المفعم خارج القارة فنبدأ بالتعمير ثم نردفه بالاستعمار ، ثم نعود ثانيا إلى القارة لنحلل محاور صراع القوى داخلها ثم خارجها ، فنتتبع حركة انتقال مركز القوة العالمية وتتابع ظهور القوى الجديدة واحدة بعد الأخرى ـ بريطانيا ثم الولايات المتحدة ثم اليابان فألمانيا ـ حتى نصل إلى قمة الصراع فى العصر الصناعى وهى الحروب العالمية فى القرن العشرين .

تعمير المعتدلات : الاستعمار الاستيطانى

ينبغى لنا أن نميز بين ظاهرتين بارزتين فى القرن التاسع عشر : الأولى هى التعمير ، أى خروج أوربا إلى القارات والأقطار الجديدة بقصد السكنى والاقامة الدائمة فيها واستبدالا لوطن بوطن آخر ، أى بقصد الاستعمار الاستيطانى أو السكنى . والثانية هى الاستعمار بمعنى الغزو والتملك السياسى بقصد استغلالها لا التوطن الدائم فيها ، أى بقصد الاستعمار الاستغلالى أو الاستراتيجى .

ولعلنا نذكر أن أغلب القارات الجديدة قد استعمر بالغزو فى ظل الانقلاب التجارى ، ولكن تيار الهجرة طوال قرون أربعة لم يزد عن بضعة ملايين معدودة . مثلا لم يكن عدد المعمرين البريطانيين فى أمريكا الشمالية حتى سنة ١٧٠٠ ليزيد عن ٣٠٠ ألف ، ولم يكن عدد البيض فى مستعمرات إسبانيا فى أمريكا حتى سنة ١٨٢٠ ليزيد عن ٣,٢٥ مليون أغلبهم نتيجة للتزايد الطبيعى [١] . أما التعمير الحقيقى فلم يحدث إلا فى ظل الانقلاب

(١) Cole, Geog, of World Affairs, p. 40.

الصناعى فى القرن التاسع عشر. أى أن التعمير السكانى قد تخلف طويلا عن الاستعمار السياسى. وعلى العكس من هذا نجد أن ما تم من استعمار سياسى فى ظل الانقلاب الصناعى لم يصحبه أو يتبعه تعمير سكانى حقيقى يذكر. وتفسير هذا بطبيعة الحال أنه ارتبط بالمداريات الكثيفة السكان أو المأهولة التى لا تشجع طبيعيا على الاستعمار الاستيطانى أو لا تسمح به بشريا.

الأوربــة

وحتى نهاية القرن الثامن عشر كان الوجود الأوربى فى القارات الجديدة سواء تعميرا أو استعمارا هو وجود ساحلى بحت لا يزيد فى أعمق جبهاته عن شقة ساحلية مضغوطة، بعدها لا يزيد عن وجود رمزى. أما فى القرن التاسع عشر وبفضل ثورة المواصلات الجديدة فقد غزا هذا الوجود داخل القارات استعمارا وتعميرا، ولا ينتهى القرن حتى يكون كل شبر منها قد احتل. فالاستعمار العالمى من الوجهة الفعالة هو ابن الانقلاب الصناعى وأخو القرن التاسع عشر.

وقد لفظ القرن التاسع عشر وحده من أوربا نحوا من ٦٠ مليون نسمة ـ ولو أن نسبة كبيرة عادت إلى أوربا بعد ذلك[1] ـ توزعت على القارات الملائمة مناخيا للسكنى الأوربية، ابتداء من أمريكا الشمالية إلى أمريكا الجنوبية ومن أستراليا إلى نيوزيلند. تلك إذن أضخم وأطول رحلة فى التاريخ عبر القارات والمحيط، تتضاءل بجانبها كل حركات رعاة الاستبس الرجراج فى العصور الوسطى، ولا يفوقها إلا تيار تهجير الرقيق. هذا إذن، وليست فترة هجرات الشعوب فى التاريخ القديم، هو «عصر الهجرة Völkerwanderung» الحقيقى فى تاريخ البشرية.

وهو خروج أبيض أولا وقبل كل شىء. فقد صدرت أوربا وحدها هذا السيل لتحقق عالمية الجنس الأبيض Universalisation، أو أوربة العالم Europeanisation، ولتزرع خلايا بشرية انشطارية تخلقت منها أوربات صغرى Little Europes تدين لأوربا الأم، أوربا الكبرى، بالولاء والتبعية بدرجة أو بأخرى. ومن الملاحظ أن هذه الشظايا التى انفصلت عن النواة تتحلق حولها من غرب وجنوب وشرق، تحف بها كأقمار تابعة تدور فى فلك

(١) Carr-Saunders, We Europeans, p. 201 ff.

شمس كبرى . وتحدق فى نفس الوقت بالأجناس البشرية الأخرى غير البيضاء وتطوقها كحلقة خارجية متصلة بدرجة أو بأخرى . أما عالمية الجنس الأبيض المترتبة فتنعكس فى أنه أصبح وحده يملك ٤ قارات ، بينما يملك كل من الجنسين الآخرين قارة واحدة .

وإذن فلقد جعل الاستعمار أوربا قلب العالم ورأسه جغرافيا وسياسيا ، وجعل العالم يتمركز حول قبلة أوربا Euro-centric ، وفى نفس الوقت جعل الرجل الأبيض يحاصر الأجناس من خلف ومن قدام ومن خلاف . بل قد يمكننا أن نتحدث عن « أوروقراطية » حقيقية ـ حكم أوربا Eurocracy ـ بمعنى الكلمة ، وعن عصر الأوروقراطية العالمية ، عصر لعبت فيه هذه القارة دور أرستقراطية العالم ، وتصرفت فيه كما لو كان الجنس الأبيض وحده دون الجنس البشرى كله خليفة الله فى الأرض ، واتخذت فيه فى مجال السياسة والحضارة عقلية وفلسفة أشبه ما تكون بعقلية العصور الوسطى فى الفلك والكوزمولوجيا حين كانت تحسب الأرض مركز الكون ومحور المجموعة الشمسية ! .. وإذا كان لهذا التشبيه مغزى ، فهو أن أوربا كانت تحتقر الجغرافيا وتحتكر التاريخ ، أى كانت ضد الطبيعة ، ومن هنا ستكون سقطتها وانهيارها فيما بعد .

وأنت تطالع افسمظهر لأوربة العالم فى أسماء البلاد الجديدة ، فكثير منها أو أغلبها على مختلف المستويات ، من الأقطار إلى المدن ، ليس إلا سميا homonym لأماكن وبقاع من القارة « الأم » . ابتداء من نيوإنجلند ونوفاسكوشيا (اسكتلندا الجديدة) ومن قبلهما فرنسا الجديدة وإسبانيا الجديدة ، إلى نيوزيلند ونيوسوث ويلز ونيوبريتن ونيوأورليانز ومن فنزويلا إلى هسبنيولا .. الخ .. هذا بينما تحمل إفريقيا ـ أو كانت ـ أسماء أجنبية أوربية صرفة فى كل جنباتها كأنما هى بصمات أصابع اللص يتركها على جسم جريمته .

صـــراع الأجنـــاس

وقبل أن نحلل تيار الخروج الأبيض العرم هذا إلى روافده وفروعه ، ينبغى ألا نغفل عن حقيقة هامة وخطيرة تعد ـ ربما أكثر من تجارة الرقيق ـ نقطة سوداء فاجرة فى صفحة الاستعمار الأوربى استيطانيا وغير استيطانى . فهذا التعمير ، هذا الاستعمار الاستيطانى السكنى ، ما قام إلا على أشلاء وأنقاض السكان الأصليين فى قارات المهجر ، فقد صحب الهجرة الأوربية وتبعها عملية إبادة رهيبة ، عامدة أو عفوية ، للأهالى الوطنيين ، وصلت بهم فى بعض الحالات إلى حد الانقراض . فقد كان على الاستعمار الاستيطانى السكنى لينجح أن ينتزع الأرض الجديدة والجيدة ، ومن ثم أن يطرد منها

أصحابها إلى الأطراف غير الصالحة للسكنى أو للزراعة ، وذلك إما بالحرب والافناء وإما بالمطاردة حتى الانزواء .

يضاف إلى هذا أن دخول الرجل الأبيض إلى وسط بيولوجى مختلف وبمركب باثوجينى مختلف ، حمل معه فى حد ذاته عديدا من الأمراض التى لم تكن معروفة فى المهجر ولم يكن لأهلها ضدها مناعة ، ولذلك أحدثت الأمراض الوافدة أوبئة رهيبة أفنت مئات الآلاف من الوطنيين . ولا ننسى كذلك دخول الأسلحة النارية والكحوليات والسخرة الأوربية ، وكلها من عوامل الموت للوطنيين . وبهذا تكون الهجرة الأوربية قد أتت للوطنيين بعوامل الموت المباشرة وغير المباشرة . من هنا نجد التعدادات تسجل زيادة مطردة فى عدد المهاجرين وتناقصا خطيرا فى عدد الأهالى ، خطوة بخطوة . وبمعنى آخر فقد أتى التعمير الأوربى عملية دموية إبادية ، وانتهت من احتلال سياسى إلى إحلال جنسى[1] .

ففى أستراليا وصلت عملية إبادة الجنس إلى حد « صيد رؤوس head-hunting » علنى ومنظم ـ أحيانا كنوع من الرياضة ! .. بينما فى تزمانيا انقرض الجنس التزمانى تماما من عالم الوجود . وفى أمريكا الشمالية ـ تذكر الشعار الأمريكى الخالد « الهندى الطيب هو وحده الهندى الميت » ![2] ـ تحول الهندى الأحمر إلى شبح وأسطورة أو على الأكثر إلى عينات متحفية لأجناس بائدة لا يأبه لها أو يحتفل بها إلا الأنثروبولوجيون وهواة الحفريات البشرية وصناعة الأفلام ! .. وقد كان مصير هذه الأجناس مقدورا منذ البداية ، لأن أعدادها الأصلية كانت ضعيفة جدا بالنسبة لتيار المهاجرين ، كما كان مستواهم الحضارى بدائيا إلى حد لا قبل له بمواجهتهم[3] .

والحالات الوحيدة التى نجت من هذا المصير الأسود على يد الجنس الأبيض هم ماورى نيوزيلند (٩٠ ألفا) الذين بدأوا أخيرا يتزايدون بعد تناقص ، والأستراليون الذين تقلصوا كثيرا (١٥٠ ألفا) . ثم هناك ممن أفلتوا من الاحتراق بنار الاحتكاك الحضارى وارتطام الأجناس هنود أمريكا الجنوبية والوسطى ـ اللاتينية بعامة . فنظرا لضخامة عددهم نسبيا (١٢ مليونا) ، مع صلاحية القارة فى معظمها للسكنى البيضاء إما بسبب خطوط العرض أو خطوط الكنتور ، فقد حل هنا محل الاحلال الجنسى الخلط الجنسى

(١) Carr-Saunders, World Population, op. cit.

(٢) Whittlesey, Earth & State, p. 508.

(٣) G. H. Pitt-Rivers, Clash of Cultures & Contact of Races, Long., 1927.

الذى لا مثيل له فى العالم كله . فهنا يزيد عدد العناصر الخلاسية على العناصر النقية من أى جنس . ولا يمثل البيض الخلص إلا نحو الثلث[1] .

ولهذا السبب فإن أمريكا الجنوبية بوتقة أجناس melting-pot بدرجة أكبر فى مداها وعناصرها الجنسية من أمريكا الشمالية . فهى تجمع بين ثلاثة أجناس هى : البيض ، والهنود . والزنوج . بينما أن أمريكا الشمالية بوتقة انصهار للجنس الأبيض وحده أساسا . ومع ذلك فإن العالم الجديد ككل يختلف ـ كنتيجة لسيادة الاستعمار السكنى الاستيطانى ـ عن القديم فى أنه بوتقة جنسية إلى أبعد مدى .

والخلاصة العامة هى أن استعمار المعتدلات السكنى الاستيطانى فى القرن التاسع عشر أخذ صورة صراع أجناس أساسا ، أى كان حركة عنصرية ضخمة ، انتهت بإبادة أجناس برمتها وابتزاز قارات بأسرها . وهو بهذا يعود بالبشرية إلى أحط مراحل البربرية والهمجية الأولى حين كان صراع الجماعات ينتهى بإبادة المغلوب . ولن يجدى فى هذا تعلل الاستعمار أو اعتذاره بأنه لم يكن من المعقول أن تترك تلك القارات البكر بإمكانياتها الهائلة لحضارات قليلة من البدائيين الذين عجزوا عن استعمارها ، فليس هذا إلا منطق القوة الغاشمة .

ولكم يبدو غريبا شاذا بعد هذا منطق الاستعمار : بدأ بإبادة الهنود الحمر فى العالم الجديد . فلما افتقد اليد العاملة نقل إليه زنوج إفريقيا بالجملة . وحين دخل أفريقيا بدأ يهجر إليها الهنود والآسيويين لتملأ الفجوة الناجمة ـ حركة تفريغ ونقل من الشرق إلى الغرب باطراد تشمل وتغطى الكرة الجنوبى من أقصاه الى أقصاه .

وهذه الحركة القسرية أو التحريك القهرى يكاد بذلك يناظر ـ بالمناسبة ـ حركة الجماعات والسكان والأجناس المستمرة عبر التاريخ فى نصف الكرة الشمالى فى الاتجاه نفسه من قلب آسيا إلى غربها ومن غربها إلى شرق أوربا ومنها إلى غربها ثم أخيرا من أوربا كلها إلى أمريكا والعالم الجديد . والحركتان معا ـ سيلاحظ ـ تجمعان معا كل ديناميات السكان أو الجنس البشرى تقريبا طوال التاريخ فى تيار محورى هائل يدور حول الأرض بأسرها وبنصفيها من الشرق إلى الغرب باطراد واستمرار ، قل مع حركة الشمس الظاهرية أو عكس حركة الأرض نفسها حول نفسها .

---

(١) We Europeans, loc. cit.

على أنه إذا كان لهذا كله من مغزى ، فهو الاستعمار السكنى الاستيطانى قد أعاد توزيع البشرية ديموغرافيا وأنثروبولوجيا على ظهر الأرض ، وغير الأوزان والألوان التقليدية للقارات ، ولم يكد جنس يفلت من هذه العملية ، ولكنها فى جميع الحالات كانت بفعل الاستعمار الأبيض ولحساب الجنس الأبيض .

أما إذا انتقلنا إلى جزئيات الهجرة البيضاء وروافد تيارها ، فقد وصلت الهجرة من أوربا فى بعض السنوات إلى نحو مليون نسمة ، وكان السبق الزمنى لبريطانيا حتى منتصف القرن ، وبعدها وحتى أواخره أصبح السبق لشمال غرب أوربا عامة ، ثم تحولت بؤرة التصدير إلى جنوب أوربا وشرقها . وقد صدرت بريطانيا خلال القرن نحو ٢٠ مليون نسمة ، وإيطاليا نحو ١٠ ملايين ، وتأتى بعدهما ألمانيا[1] .

أما عن الاستيراد ، فقد كانت الولايات المتحدة هى أعظم مستقبل (٣٦ مليونا أو ٦٠٪) ، كما كان العالم الجديد كله هو المصب الأكبر للتيار (٩٠٪) ، وتلى الولايات المتحدة كندا (٧ ملايين) ثم الأرجنتين (٦ ملايين) ثم البرازيل (٤,٥ مليون) ثم أستراليا (٣ ملايين) فنيوزيلند (مليونان) ، وأخيرا جنوب إفريقيا (١,٥ مليون)[2] .

ومن المهم أن ندرك المغزى السياسى لهذه الهجرة . لقد أضافت إلى هيبة أوربا السياسية وقوتها الاستراتيجية والاقتصادية الشىء الكثير ما فى ذلك شك ، وبفضلها أصبحت أوربا سيدة القارات ومحور ارتكاز العالم . ولكن هذه البلاد الأبناء daughter countries لن تلبث أن تستقل إما تماما وإما كدومنيون فى حالة بريطانيا ، ولذا فهى فى النهاية مخصومة من حساب أوربا وعامل ضعف لها هى ذاتيا . ولقد كانت أكثر الدول الخاسرة هى بريطانيا بعكس ألمانيا مثلا ، وكان لهذا بالفعل انعكاسه المباشر على القوة البشرية لكل منهما وصراع القوة داخل القارة وخارجها[3] .

الاستعمار المدارى

المجال الجديد للاستعمار فى القرن التاسع عشر ، والذى يرمز « لأصالة » الانقلاب الصناعى بالذات ، هو الاستعمار المدارى . فهنا يضرب الاستعمار أرضا جديدة وقف

---

(١) Maurice Davie. World Immigration; We Europeans, p. 201.

(٢) Kimble. World's Open Spaces. p. 25-6.

(٣) Fitzgerald. The New Europe. p. 222-3.

عاجزا عن ولوجها ثلاثة قرون من قبل . وينقسم هذا المجال إلى دوائر ثلاث واضحة هى : أفريقيا المدارية ، والعالم العربى دون المدارى ، والشرق الأقصى الموسمى . فنى هذا القرن انطلقت أوربا فى موجة مدية عاتية لتبتلع هذه المناطق ، وتم لها ذلك فى وقت قصير نسبيا ، وأكثر من هذا فى مراحل متعاصرة إلى حد بعيد .

القطاعات الاقليمية

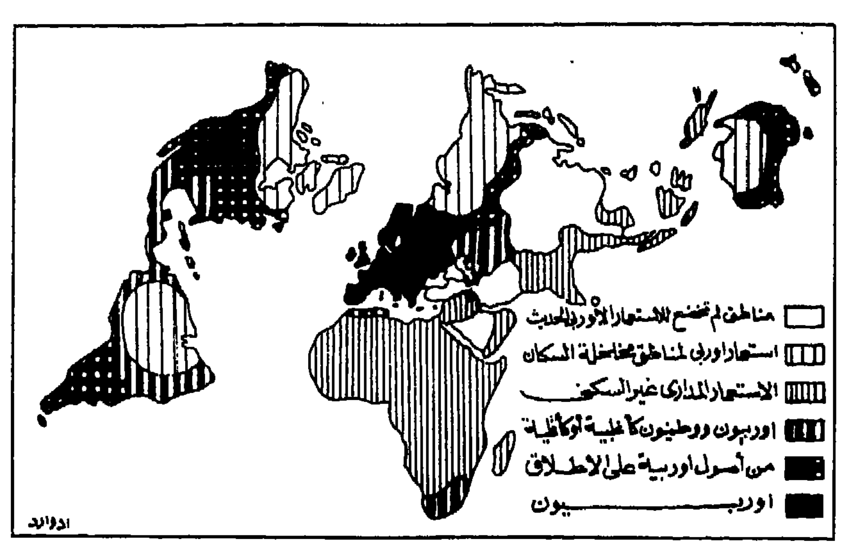
والسؤال المدخلى الذى يفرض نفسه منطقيا هو : لماذا تأخر استعمار المداريات إلى هذا المدى ، ولماذا حدث ــ حين حدث ــ بتلك السرعة المثيرة ، وأخيرا لماذا تعاصرت قطاعاته فى سقوطها له ؟ الذى لاشك فيه أن الاستعمار قد طرق سواحل أو بعض سواحل هذه المناطق من قبل ، ولكنه ظل يتأرجح معلقا أمامها طويلا مكتفيا « بالاستعمار الديموغرافى » فى أفريقيا ، أو القرصنة شبه الصليبية على العالم العربى ، أو بالتجارة الابتزازية مع الشرق الأقصى . ذلك لأن حضارة الانقلاب التجارى ــ وسائل نقله خاصة ــ لم تكن لتستطيع أن تمرق به إلى داخل القارات .

ففى أفريقيا المدارية كانت الطبيعة تغلف القارة السوداء بساحل خطى صقيل غير مضياف تقل فيه المرافئ الجيدة وتتكاثر عليه الأمواج الضاربة Surf ، بينما فى أعماق القارة بأبعادها السحيقة والساحقة معا تسود إما صحراوات قاحلة موحشة وإما غطاءات نباتية تتكاثف كالأسلاك الشائكة . وحتى أنهار القارة العظيمة هى الأخرى طرق مسدودة أو شرايين مقطوعة ، وذلك بحكم تركيب القارة ككتلة هضبية ، فقرب مصابها تهوى من حالق فى شلالاتدفع « تشل » الملاحة والحركة دخولا أو خروجا[1] .

أفريقيا المدارية إذن كانت للاستعمار صندوقا مغلقا رهيبا ، يدور حوله جيئة وذهابا ولكنه لا يملك مفاتيحة ولا يملك أن ينفذ إليه . ولهذا ظلت تستمد كل أهميتها طوال العصر التجارى من أنها عقبة لا عتبة إلى الهند . وبعض هذا ، مضافا إليه البعد الجغرافى الشديد ، يقال عن الشرق الأقصى الموسمى . ولكن الانقلاب الصناعى قلب هذا الوضع ، فقد مد أوربا بالمفتاح الحضارى اللازم لقهر هذه البيئات الطبيعية الصعبة . أى أن الاستعمار عجز عن دخول المداريات بحضارة الانقلاب التجارى ولكنه نجح بحضارة الانقلاب الصناعى .

---

(١) Dudley L. Stamp. Africa. N.Y., 1953; W. Fitzgerald. Africa. Lond., 1950.



شكل (١٣) العالم اليوم كما شكله الاستعمار ووحدته « الأوربة ».لاحظ عالمية الجنس الأبيض أو أوربة العالم

أما العالم العربى فله فى هذا التحليل وضع خاص . فهو لم يكن ببعيد عن موطن الاستعمار الأوربى ، بل هو الجار المواجه مباشرة . ولا هو كذلك بالبيئة الطبيعية المغلقة أو الطاردة . ولكن الذى أعجز الاستعمار دونه إنما هو العامل الحضارى . فرغم كل شىء ، كان للشرق العربى حضارة قديمة عريقة وقوة أكبر من هينة . ومن هنا ظل صامدا للضغوط الأوربية المتزايدة التى تهاوت أمامها ــ مثلا ــ حضارة آسيا الموسمية فى الهند وجزر الهند . إلى أن كانت طفرة الغرب الحضارية الحاسمة فى الانقلاب الصناعى ، فكان هذا إيذانا بعدم جدوى المقاومة . فمرة أخرى ، وكما فى أفريقيا وإن يكن لأسباب حضارية لا طبيعية ، عجزت أوربا عن التغلب على العالم العربى بحضارة الانقلاب التجارى ولكنها نجحت بحضارة الانقلاب الصناعى[1] .

ولعل هذا الذى قلناه أن يكون ردا ضمنيا على سؤالنا عن سبب تعاصر توقيت الاستعمار المدارى فى قطاعاته الثلاثة : فهو قد تأخر فى العالم العربى رغم الموقع القريب والبيئة المفتوحة ، أساسا بسبب تماسك وصمود المستوى الحضارى ، أى أساسا بسبب الجغرافيا الحضارية . وهو قد تأخر بنفس الدرجة فى أفريقيا المدارية رغم المستوى الحضارى البدائى

---

(١) جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير فى العالم العربى ، ص ٢٢ - ٢٣ .

والعجز المادى المحقق . أساسا بسبب البعد الجغرافى والبيئة المغلقة المصمتة ، أى أساسا بسبب الجغرافيا الطبيعية . وفى المنزلة بين المنزلتين يأتى الشرق الأقصى .

أغـراض الاستعمـار

السؤال الآن : فما أغراض الاستعمار المدارى وأهدافه ؟ وهذه حسمتها الطبيعة مرة واحدة وإلى الأبد . فلم يكن فى هذه العروض المدارية بمناخها المضاد للرجل الأبيض (anticlimes) مجال للاستعمار الاستيطانى السكنى أو التوطن . ولهذا كانت الصبغة السائدة بالضرورة هى الاستعمار الاستغلالى أو الاستراتيجى . وثمة عامل يعمل فى نفس الاتجاه ويجب كل فرصة للاستيطان وللاستعمار السكنى . ونعنى به العامل السكانى .

فهذه كلها مناطق قديمة العمران . كثيفة السكان ، وبعضها عريق الحضارة ، فليس فيها طاقة أو كوة لدخيل يستوطن . وحتى فى أدناها حضارة لم يكن هناك أى احتمال لإبادة الجنس والاحلال الجنسى كما عرفت المعتدلات الجديدة أو مداريات العالم الجديد . ففى أفريقيا كانت حيوية الجنس الزنجى ، وهى التى هزمت تجارة الرقيق والاستعمار الديموغرافى من قبل ، كفيلة بأن تهزم أى مشروع للاستعمار السكنى الاستيطانى .

ومع ذلك فثمة جيوب من أفريقيا المدارية وخارج المدارية معا لم تنج من الاستعمار السكنى الاستيطانى : فى أفريقيا المدارية جزر الكنتور المرتفع التى تصحح المناخ للأبيض (alticlimes) ، وأفريقيا خارج المدارية فى قطاعات المناخ دون المدارى أو المناخ المشابه لجنوب أوربا (homoclimes) . فالأولى تتحدد فى نطاق المرتفعات الهضبية الممتدة بتقطع من كتلة الحبشة حتى (ماكان وديسيتين ، حيث حوله الاستعمار إلى « المرتفعات البيضاء » وحاول أن يتوطن فيها ببضع مئات من الآلاف موزعة هنا وهناك لا سيما فى كينيا وروديسيا الجنوبية . أما الثانية فتتحدد فى الشمال بشبه جزيرة المغرب الكبير ابتداء من ليبيا حتى المغرب ولكن الجزائر بالذات . وهنا وصل الإستعمار الاستيطانى السكنى فى مجموعه إلى المليونين تقريبا . ثم هناك جنوب أفريقيا فى طرف القارة حيث زرع الاستعمار ثلاثة أو أربعة ملايين من المستوطنين .

وفيما عدا هذا الشذوذ الذى يؤكد القاعدة ، فقد كانت حوافز الاستعمار المدارى أساسا هى الاستغلال أو الاستراتيجية أو كليهما معا . وبصورة عامة يمكن أن نغلب الاستعمار الاستراتيجى على الاستغلالى فى العالم العربى ، وإن لم يلغه مطلقا . والعكس

صحيح فى أفريقيا المدارية والشرق الأقصى ، فهناك يأتى الاستغلال فى الدرجة الأولى وتتراجع الاستراتيجية إلى الصف الثانى .

وتغليب الأهداف الاستراتيجية فى العالم العربى ، لا سيما منه المشرق ، إنما يرجع بطبيعة الحال الى موقعه الجغرافى البؤرى الحاسم الذى أصبح مركز ثقل العالم القديم بلا منازع بعد شق قناة السويس فى أواسط القرن . فقد أصبح العالم العربى هو عنق الزجاجة فى طريق الاستعمار إلى الشرق الأقصى جميعا وبوابة الإمبراطورية ـ أى إمبراطورية ـ و « خط الحياة » للإمبريالية .

الاستعمــار الاستغـلالى

فى ضوء هذا التحديد والتوجيه ، أصبح حجر المغناطيس فى الاستعمار المدارى فى العصر الصناعى هو موارده الخام الثمينة الرخيصة معا ، زراعية ومعدنية ، غابية أو سكانية . وبعدها تأتى السوق المحتكرة المضمونة لتصريف منتجاته وخاصة سلعه الرخيصة الرديئة . وسوق المستعمرات وإن كانت فقيرة فى قدرتها الشرائية فهى تعوض بضخامة حجمها .

وتجربة الاستثمار الاستعمارى لم تخرج يوما ، وباعتراف كتابه ، عن اقتصاد هدمى ابتزازى سافر Raubwirtschaft ، لم يكتف بأن يسرق السكان بل والطبيعة أيضا . فقانونه هو امتصاص زبد الاقليم skim the cream حتى يتركه زبدا وغثاء أحوى . حتى الزراعة الاستعمارية ، الأبعاديات التى هى مشروع صناعى بقدر ما هى عملية زراعية ، وصفت بأنها زراعة تعدينية .mining agric أى تخريبية هدمية ببساطة[1] . ميكانيكية الاستعمار باختصار أنه مضخة ماصة فى المستعمرات ، كابسة فى المتروبول ، ورياضياته عملية طرح هنا وجمع هناك .

الاستغلال إذن هو بوصلة الاستعمار المدارى وقبلته . وإذا كان هذا الاستعمار قد وجد محركه فى الانقلاب الصناعى ، فإنه سرعان ما أصبح وقوده وبخار آلته الضخمة . فمن المحقق أنه لولا موارد المستعمرات ومكاسبها الفلكية التى ذهبت لتنصب فى تراكم رأس المال الأوربى ، لما وصل التطور الصناعى ـ بكل ما يعنيه من تطور حضارى ومعيشى ونمو

---

(١) Karl J. Pelzer, Geog. & the Tropics, in : Geog. in 20th Century, Lond., 1951, p. 321.

فى القوة .. الخ ـ إلى ما وصل إليه . فبقدر ما كان الاستعمار نزيفا اقتصاديا رهيبا أصاب المداريات بالشلل الزاحف ، كان يضخ فى الاقتصاد الأوربى ما لا يمكن حصره بل تخيله من آلاف المليارات من الجنيهات .

وقد كان طبيعيا لذلك أن ينتهى الاستعمار إلى تقسيم عمل يحتكر فيه الحرف الثانية (الصناعة) والثالثة (التجارة) وهى التى تدر أعلى الدخول ، ويفرض على المستعمرات الحرف الأولية (الزراعة والتعدين) التى لا تكاد ترد من الدخل إلا الفتات . وبهذه القسمة غير السليمانية الضيزى احتكرت أوربا لنفسها دور مصنع العالم وأبقت على المستعمرات كمزرعة له ، وبه أيضا أصبحت هى مدينة العالم والمستعمرات ريفه . وهذا هو التكامل الاقتصادى الذى زعمه الاستعمار . والحقيقة أن الاستعمار كان ينظر إلى المداريات على أنها « أقاليم تكميلية Ergaenzungsraeume » كما سماها الجغرافيون الألمان[1] ، تكمل عروضه المعتدلة ، ومن ثم مجال حيوى لأوربا Lebensraum . وفى أفريقيا مثلا كان الاستعمار يتشدق بأنه شركة تعاونية بين « العقل الأبيض والعضل الأسود White brain & black brawn »[2] . وعلى هذه الدعاوى رتب أنه « زواج سياسى » بين المتروبول ، أى الدولة الأم ، وبين المستعمرة التابعة !

ولكن الحقيقة الموضوعية المحايدة هى أن المداريات لم تكن أكثر من سندرلا أوربا ، وأن الاستعمار لم يكن إلا شركة ابتزازية غير مقدسة ، أما العلاقة السياسية المفروضة فليست إلا اغتصابا سياسيا داعرا . وإذا صح أن المداريات كانت المجال الحيوى لأوربا ، فإنها فى معنى حقيقى جدا مجال الموت Todesraum لأبنائها هى[3] . ولئن صح كذلك أن الاستعمار خلق كأمر واقع « أورافريقيا » وغير أورافريقيا ، فإنها لم تكن فى الحقيقة إلا نوعا من « أوربا العظمى » ، لم تكن فيه أفريقيا وغيرها إلا ظلا أسود للقارة البيضاء ، أو ضاحية ضخمة للمتروبول وشرنقة استعمارية منتفخة حول نواته الكثيفة .

العنصرية

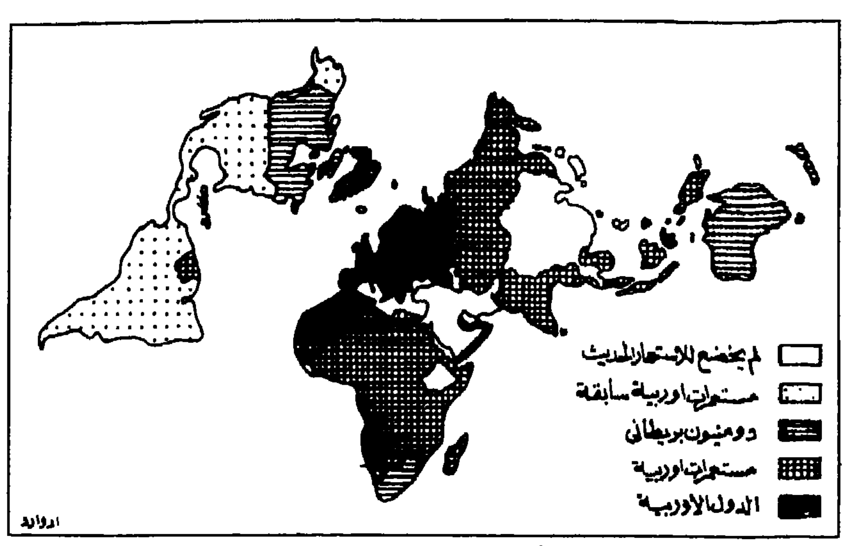
وهنا نجد أن الاستعمار قد « ارتقى » فى هذه المرحلة عما كان عليه فى مرحلة الموجة الأولى ، فاستبدل بالإبادة الاسترقاق ، ثم استبدل بهذا الاستعمار السياسى ، ثم سنجده

---

(١) Ibid.. p. 314.

(٢) D. Westermann. The African Today & Tomorrow. Lond., 1939. p. 3.

(٣) فايفيلد وبيرسى ، الجيوبولتيكا ، ج ١ ص ١٥٧ .



شكل (١٤) الاستعمار العالمي في ذروته ١٩١٤ . مناطق ثلاث فقط نجت من الاستعمار : اليابان ، الصين ، وجزء من الشرق الأوسط

مع الاستعمار الجديد يستبدل بالاستعمار السياسى الاستعمار الاقتصادى . ولكن يظل الجميع على خط النسب المباشر الذى ينحدر من صراع الإبادة ، ويظل الاستعمار فى صميمه صراع أجناس Rassenkampf وحركة عنصرية من الناب والظفر برهانها الوحيد .

ومن الحقائق الجديرة بالتأمل والتى تؤكد هذا الذى نقول عن عنصرية الاستعمار وصراع الأجناس ، أن الاستعمار كله ما تم إلا على يد أوربا وما تم إلا خارجها . فلم يحدث فى التاريخ الحديث أن استعمر جزء من أوربا باستثناء نقط من الاستعمار الاستراتيجى فى جبل طارق ومالطه وقبرص . وفيما عدا هذا ، فقد تشتعل الحروب الدامية داخل أوربا ، ولكنه احتلال عسكرى مؤقت أو تسوية حدود داخل إطارات القوميات ، ذلك الذى يحدث . أما أن تستعمر دولة أو شعبوبى دولة أو شعبا أوربيا آخر فهذا قط لم يحدث . لقد كان الاستعمار ـ بوضوح ـ صناعة أوربية مسجلة ولكنها للتصدير إلى خارج أوربا فقط وغير قابلة للاستهلاك المحلى بحال .

ولقد كان الاستعمار فى أوج بطشه يبرر نفسه ـ متبجحا ـ بنظريات القهر والتفوق العنصرى ، حتى إذا استشعر نهايته وطاردته عقدة الذنب بحث ـ منافقا ـ عن التبرير فى نظريات الإنسانية والأخوة ! وبين النقيضين خرج من النظريات ما يندى له اليوم جبين العلم والحقيقة خجلا . فمن نظريات القهر والتفوق بدأ بتقسيم حضارى للأجناس أو تقسيم

جنسي للحضارات . فزعم مرة أن « الرجل الأصفر يعيش فى الماضى ، والأسود فى الحاضر ، أما الأبيض فيعيش فى المستقبل »[1] . ومرة أخرى وضع نظرية « الأجناس الأطفال » . وأخيرا انتهى الاستعمار مع العنصرية النازية إلى تصنيف بيولوجى للأجناس يميز بين الأجناس السادة Herrenvolk وهم البيض ، والأجناس الفعلة Hilfenvolk وهم « الملونون » ، وكلا جعل مراتب ودرجات ![2] .

وإذاكانت عنصرية الاستعمار فى عنفوانه سافرة بلا حياء ولا خجل ، فهى لم تفعل فى شيخوختها إلا أن تقنعت بنقاب الرياء والزيف دون أن تغير جلدها ، فكانت النظريات « الإنسانية والأبوية Paternalism» فى الاستعمار (كذا !) مثل « عبء الرجل الأبيض Whiteman's burden » ورسالة الحضارة « والأب الأبيض White Father » أو « الأخ الأكبر Elder Brother » ... الخ[3] . ولكن هذا جميعا منطق تبرير فج لا يبرر أكثر مما يبرئ ، ويظل الاستعمار وصمة فى جبين المستعمر أكثر منه فى جبين المستعمرات وعار أوربا أكثر منه عار المداريات ، ويظل فى النهاية ظاهرة عنصرية جنسية بحته . ويكفى أن يتحدث بعض الكتاب الأوربيين أنفسهم عن « السجل المأساوى القذر لعملية الأوربة » وعن « قصة الأوربة التعسة »[4] .

---

(١) G. Montandon, Traité d'Ethnologie, Paris.

(٢) فايفيلد وبيرسى . ج ١ ، ص ١٧٨ .

(٣) N. Sithole, African Nationalism, Cape Town 1959, p. 122.

(٤) Cole, p. 47, 49.

الفصل السابع

نماذج من الاستعمار المدارى
أفريقيا

التكالب

لننتقل الآن بشيء من تفصيل إلى تحليل حركة الاستعمار فى كل قطاع من المداريات على حدة . ولنبدأ بأفريقيا المدارية . كان مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ ، الذى أجمعت فيه القوى الأوربية على أن الادعاءات الاستعمارية فى أفريقيا لا تكون إلا بالاحتلال الفعلى الواقع ، إشارة البدء بسباق جنونى مسعور على القارة . هذا هو « التكالب » المشهور Scamble for Africa . وجاء الزحف كاسحا بصورة لم تعرف بالقطع فى التاريخ ، حتى فى العالم الجديد . ففى مدى عقد واحد كان قد تحدد كل شىء .

ففى سنة ١٨٩٣ ، أى بعد عقد واحد من مؤتمر برلين ، كانت كل القارة قد اقتسمت بين القوى الأوربية وانخفضت نسبة المساحة المستقلة فيها من ٩٥٪ فى سنة ١٨٨٥ إلى ٨٪ فى سنة ١٩١٠ ! [1] هذا بينما فى آسيا لم يصل الاستعمار إلى منتهى رقعته إلا على مدى فترة طويلة ، كما أنه لم يتعد فيها فى حده الأقصى إلا قطاعا معينا من القارة . أما أفريقيا فإنها تنفرد بين القارات الجنوبية بأنها الوحيدة التى خضع أغلبها ، وفى وقت ما لم يكن دولة مستقلة ــ ولكن شكليا ــ إلا ليبيريا . وبهذا كانت أفريقيا هى القارة المستعمرة أو المستعمرة القارة بالضرورة ، كانت أكبر مستعمرة منفردة فى العالم وأضخم معمل للتجارب الاستعمارية فى التاريخ .

والذى شارك فى هذا التكالب هو دول أوربا البحرية بالذات ، لكن مع تخلف واستبعاد بعض القوى القديمة كهولندا والدنمرك ودخول بعض القوى الجديدة كألمانيا

---

(١) Stamp. Africa.

وإيطاليا وبلجيكا . وقد كان الصراع فى أفريقيا انعكاسا للصراع فى أوربا ، وتحددت نتائجه بأقدار وأوزان تلك القوى فى قارتها ، كما أن هذه النتائج بدورها أكدت تلك الأقدار والأوزان والهيبة فإما ضاعفتها وإما أضعفتها . ففازت القوى الكبرى بنصيب الأسد ، وخرجت القوى الصغرى بفتات المائدة .

ولقد كان الحد الأقصى من التوسع هو الهدف المباشر للجميع ، يضاف إليه الوصول بقدر الامكان إلى الأنهار الرئيسية ، وإن أمكن كذلك تحقيق الاتصال الأرضى بين مستعمرات كل قوة . وفى هذا التوجيه ، بدأ الهجوم على القارة من جميع الجهات تقريبا . وعدا القوة المباشرة ، كان للمقايضات الاقليمية والمساومات ، والمبادلات والتفاهمات ، دورها مثلما كان للعداوات والتحديات ، والمخالفات والمصادمات .

وبوجه عام كانت الصدامات الأكثر خطرا هى تلك التى دارت بين القوى الكبرى كبريطانيا وفرنسا وألمانيا ، بينما كانت القوى الصغرى تعتمد إما على نوع من الرعاية أو حتى الحماية الصامتة من بعض القوى الكبرى (مثل البرتغال بالنسبة إلى بريطانيا) ، وإما على « تحييد » القوى الكبرى لبعضها البعض (مثل بلجيكا بين بريطانيا وألمانيا) . وبصفة عامة يمكن أن نقول إن كل الصراع الاستعمارى فى أفريقيا لم يصل أبدا إلى حد الحرب وإن أشرف أحيانا على المبارزة [١] . والمغزى هام وخطير : فللاستعمار حتى يعيش « وحدته » ، وعلى التناقضات أن تتراجع فى النهاية أمام وحدة المتآمرين !

صـــراع القـــوى

ولقد بدأ التوغل ببريطانيا ، وبدأت بريطانيا التوغل من قواعدها الساحلية فى غرب أفريقيا حيث حققت توسعا « بحريا » يتمثل فى عدة مستعمرات متوسطة الأحجام ولا تتعمق كثيرا فى الداخل فضلا عن أنها منفصلة عن بعضها البعض [٢] . كذلك دخلت ألمانيا بإسفينين منفصلين فى توجو والكمرون . أما فرنسا فقد دخلت من الكوة أو البوابة الحقيقية لغرب أفريقيا وهى ذلك الشريط السفانى المحصور بين الصحراء شمالا والغابة جنوبا . وقد قادها هذا إلى الشارع الرئيسى للحركة فى غرب أفريقيا وهو نطاق

---

(١) Whittlesey, p. 331-341.

(٢) R.W. Steel, Some Problems of Population in British West Africa, in Geog. Essays on British Tropical Lands, Lond., 1956, p. 27 et seq.

السودان[1] . فاندفعت فيه شرقا واندفعت منه جنوبا لتدخل إقليم غانه من الباب الخلفى ولتملأ الفجوات الأرضية الواسعة بين الأسافين البريطانية والألمانية .

وبهذا أصبح النمط السياسى متداخلا على التوالى : مستعمرة فرنسية فبريطانية ، ففرنسية فألمانية ، ففرنسية فبريطانية ، وهكذا . وهنا أيضا نرى « قارية » التوسع الفرنسى واضحة كل الوضوح ، لا سيما أن خلف ذلك جميعا كانت تترامى لفرنسا إمبراطورية عسكرية قارية صحراوية بدأتها من الجزائر من قبل . وكما دخلت فرنسا من شمال غرب أفريقيا ، دخلتها بريطانيا من شمالها الشرقى فى مصر حيث اتخذتها قاعدة للتوسع فى سودان النيل .

وفى شرق أفريقيا بدأت بريطانيا بمستعمرة فى كينيا وأوغندا ، لم تلبث أن اتصلت بمستعمراتها النيلية فى الشمال . ولم تلبث أن ناظرتها ألمانيا بمستعمرة واسعة فى تنجانيقا ، بينما أغلقت بلجيكا جذع القارة من الغرب بمستعمرتها الضخمة فى الكونجو . وإلى الجنوب من هذا كانت البرتغال تتوسع من شريطيها الساحليين القديمين لتكون موزمبيق وأنجولا . وفى نفس الوقت كانت بريطانيا ، بعد أن انتزعت الكاب من هولندا فى الحروب النابليونية ، قد اتخذت منها رأس حربة للاندفاع إلى قلب القارة شمالا على طول العمود الفقرى للمرتفعات والهضاب السافانية . بينما ملأت ألمانيا الفراغ على الساحل الغربى بين الكاب وأنجولا بجنوب غرب أفريقيا .

وهنا حاولت كل من ألمانيا والبرتغال أن تصل ما بين أراضيها شرقا وغربا لتغلق الطريق على التوسع البريطانى : ألمانيا ما بين تنجانيقا وجنوب غرب أفريقيا ، والبرتغال ما بين موزمبيق وأنجولا . ولكن كانت اليد العليا لبريطانيا ، فنجحت فى أن تتمدد شمالا عبر الروديسيتين . إلا أن هذا كان معناه ــ فى الحقيقة وللغرابة ــ « إمبراطورية داخلية » لبريطانيا القوة البحرية أساسا وبالضرورة ، وصاحبة الاستعمار الساحلى بامتياز ! [2] على أنها لم تر بأسا أن تعتمد على المستعمرات البرتغالية كمخرج ، وذلك لصداقتها التقليدية بل حمايتها الحقيقية للبرتغال . وبعد هذا بدأت بريطانيا تتطلع إلى حلم ضخم هو طريق الكاب ــ القاهرة فى محاولة عظمى لربط مستعمراتها فى أقصى شمال وجنوب القارة على محور طولى هضبى فى الجنوب نيلى فى الشمال .

---

(١) Fairgrieve, op. cit., p. 278-9.

(٢) G. Hamdan, "Political Map of the New Africa", Geog. Review, Oct. 1963, p. 425-6.

وقد اصطدم هذا المشروع مع مشروع مماثل ـ ولكنه عرضى ـ لفرنسا للتوسع على طول محور السافانا عبر السودان الأوسط حتى يصل عبر سودان النيل إلى جيبها الصغير فى الصومال الفرنسى على البحر الأحمر. وكان اللقاء بين الأسد والنمر فى سفانا فاشودة ؛ فكانت « الحادثة » المشهورة التى حسمها فى الحقيقة توازن الأساطيل الحربية فى الأطلسى أكثر منه توازن الكتائب المتوغلة فى أفريقيا[1] . فتراجعت فرنسا وتحطم المحور العرضى الفرنسى ، ليسود المحور الطولى البريطانى ، إلا من حلقة فى شرق أفريقيا لم تلبث أن استكملت فى الحرب الكبرى الأولى حين آلت تنجانيقا إلى بريطانيا التى تقاسمت مع فرنسا مستعمرات ألمانيا المنهزمة .

التكالب الثانى

لم يبق بعد ذلك إلا القرن الإفريقى الذى تتوسطه وتسوده الحبشة التى استطاعت بنوع من المضاربة Stalemate أن تحتفظ باستقلالها الحرج نتيجة للصراع المثلث بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا هناك . وقد حدث هنا فى الواقع تكالب صغير يعرف محليا « بالتكالب الثانى Second Scramble »[2] تقاسمت فيه القوى الثلاث الصومالات الثلاثة وإرتريا . وحاولت إيطاليا غزو الحبشة ولكنها هزمت فى معركة عدوه ، حتى عادت فى ثلاثينات القرن العشرين ، فسقط آخر معقل مستقل فى أفريقيا . إلا أن هزيمة إيطاليا الأولى لم تنس قط وكانت صفعة لادعاءاتها الإمبراطورية ولهيبتها فى ميدان القوة ، إذ أنها كانت أول قوة أوربية تهزم فى العصر الحديث على يد غير أوربية وتسبق فى هذا هزيمة الروسيا على يد اليابان .

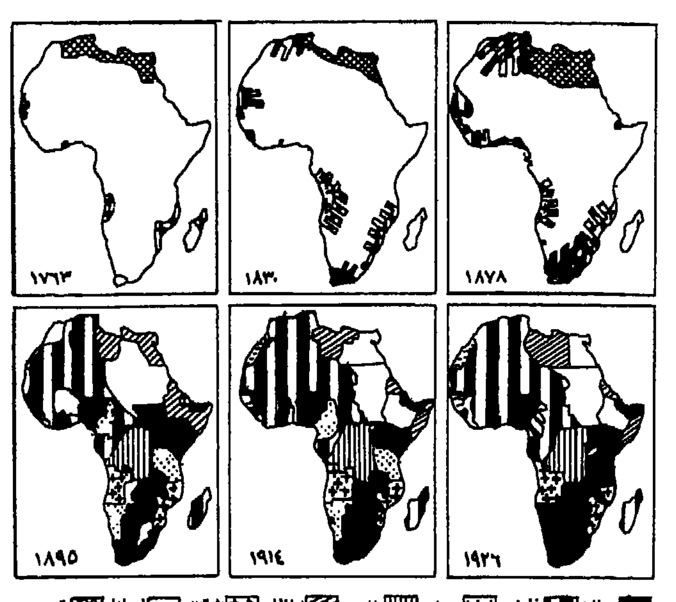
طبقات الاستعمار

وإذا نحن الآن حللنا المحصلة النهائية للصراع كما أخذت شكلها النهائى بعد الحرب الكبرى الأولى ، فسنجد أن بريطانيا هى التى خرجت بنصيب الأسد مسيطرة على نحو ٤٥٪ من سكان القارة وموزعة فى وحدات كلها من أغنى مناطق أفريقيا طبيعيا واقتصاديا . إنها « الإمبراطورية الثالثة » لبريطانيا بعد أمريكا سابقا والهند لاحقا . ثم تلى

---

(١) Fairgrieve, p. 279.

(٢) J. Drysdale. The Somali Dispute, Lond., 1964, p. 25.



شكل (١٥) زحف الاستعمار على أفريقيا : مرحلة طويلة من الاستعمار الساحلي والديموغرافي يصمها «الرق» ، ثم مرحلة خاطفة من الاستعمار الداخلي والجغرافي يلخصها «التكالب»

فرنسا بنحو ٢١٪ من السكان[1] فى مساحة مترامية ، لكن رقعة ضخمة جدا منها صحارى وأشباه صحارى . هذان إذن هما : «الاستعمار الكبير» ، ينتشر فى كل أركان القارة وفى أغلب أقاليمها الطبيعية ، فى النصف الشمالى والجنوبى ، شرقا وغربا على السواء .

أما «الاستعمار الصغير» ــ وهو محلى التوزيع كقاعدة ــ فتمثله إيطاليا التى خرجت «بصندوق من الرمال» فى الأعم الأغلب ، داخلى بقدر ما هو ساحلى ، ويطل على البحرين المتوسط والأحمر ، ويتألف من أربع وحدات تلتئم فى كتلتين منفصلتين . وتأتى البرتغال بوحدتين كبيرتين وإسفينين قزميين . ولكن إذا كان الاستعمار الإيطالى هو أحدث استعمار فى القارة ، فالبرتغال أقدمه إطلاقا (خمسة قرون) . وإذا كانت مستعمرات إيطاليا لفقرها أعجز من أن تتلق الاستعمار ، فإن البرتغال على العكس قوة أعجز من أن

(١) United Nations, Review of Econ. Conditions in Africa. 1951.

انظر أيضا : جمال حمدان ، افريقيا الجديدة ، دراسة فى الجغرافيا السياسية ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

تتحمل أو تستثمر مستعمراتها . ومن الناحية الأخرى فإن إمبراطورية إسبانيا فى أفريقيا لا تخرج عن إمبراطورية جيوب وأسافين هزيلة فقيرة مشتتة ما بين المغرب وخليج بيافرا . هى إمبراطورية رمزية بحتة ، وميكروسكوبية عند ذلك .

لا يبقى إلا دول المستعمرة الواحدة . ثمة منها بلجيكا التى لا تملك فى العالم إلا الكونجو ، لكن الكونجو قد يكون أغنى مستعمرة فى أفريقيا اقتصاديا[1] ، كما يبلغ ٥٠ مرة مساحة بلجيكا ! على أن هنا حالة أخرى لقوة صغرى تستعمر ولكنها وحدها أعجز عن أن تستثمر . ثم هناك الولايات المتحدة فى ليبريا ، وكالمألوف مع الولايات ، ليس هذا استعمارا رسميا بل علاقة مثل عليا وفروسية سياسية ، ترجع إلى محاولة توطين الرقيق الأمريكى المحرر العائد ، وتترجم فى الواقع إلى استعمار غير رسمى كما يعترف الكتاب الأمريكيون أنفسهم[2] !

الشـرق الأقصـى

شهد القرن التاسع عشر مسرحا جديدا للصراع الاستعمارى فى الشرق الأقصى فى ثلاث دوائر : الهند الصينية بما فيها الملايو ، والصين لا سيما سواحلها ، وجزر الأوقيانوسية المتناثرة . فأما الهند الصينية فهى ـ ابتداء ـ لم تخضع لأى قوة خارجية من جهة القارة طوال التاريخ فيما عدا بعض فترات من السيطرة الصينية . والفضل فى ذلك يرجع إلى طبيعتها الجبلية الغابية المنعزلة . إلى أن جاء الاستعمار البحرى : فأخذ يحوم حول المنطقة منذ القرن السابع عشر حين بدأ يعمل فى شبه القارة الهندية ، إلا أنه لم يتدعم إلا منذ منتصف القرن التاسع عشر . وكانت القوى الاستعمارية هنا هى بريطانيا وفرنسا ، وقد بدأ صراعهما المتبادل فى الهند حتى إذا انتهى فيها انتقل إلى الهند الصينية ليصبح هو النغمة السائدة فى كيانها السياسى .

الهنـد الصينيـة

فقد اتجهت فرنسا إلى الهند الصينية نتيجة لطردها من الهند وتعويضا عنه ، واستطاعت منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى أواخره أن تكون لنفسها مستعمرة الهند الصينية

---

(١) Church, Modern Colonisation. p. 4.

(٢) G.T. Renner, Africa: A Study in Colonialism, in: World Political Geog., ed, Pearcy & Fifield. N.Y. 1951, p. 411.

الفرنسية بأقسامها المختلفة . أما بريطانيا فقد تبعتها امتدادا لوجودها فى الهند ، فمن هناك انساحت تلقائيا إلى بورما حيث كونت مستعمرة ضمتها إلى الهند حتى فصلتها فى أخريات أيامها بها . كذلك توسعت بريطانيا من الجنوب من سنغافوره التى اشترتها فى ١٨١٩ بأبخس ثمن والتى أصبحت قاعدة ونواة لإخضاع الملايو حتى أصبحت مستعمرة بريطانية خلال القرن ، لكن دون أن تتصل أرضيا ببورما[١] .

وهكذا بقى بين شق الرحى نواة شبه جزيرة الهند الصينية ـ سيام . فأصبحت هدفا لضغوط توسعية عنيفة من الشرق والغرب ، حتى اتفقت القوتان المتنافستان على « تحييدها » فى آخر القرن التاسع عشر (١٨٩٦) لتكون دولة حاجزة تحفظ التوازن بينهما وتمنع الاصطدام . وبهذا أصبحت سيام ـ التى لم تستعمر قط من قبل فى التاريخ ـ الوحدة الوحيدة فى جنوب شرق آسيا التى نجت من الاستعمار الأوربى الحديث . ومن هنا غيرت اسمها إلى تايلاند أى أرض الأحرار . ولكن دور الدولة الحاجزية هو تقليديا دور المضاربة stalemate بين القطبين المتاخمين وذلك حتى تحفظ استقلالها[٢] . وهكذا كان . فقد ظلت تايلاند مسرحا للمؤامرات الاستعمارية والدسائس المزمنة ، فكانت بمثابة « أفغان موسمية » .

الصيـن

ولا بد أن نشير هنا إلى الصين فى مجال النشاط الاستعمارى الأوربى فى الشرق الأقصى ، فاستعمار هذا العملاق ـ نائما أو غير نائم ـ لم يكن قط مجال تفكير الاستعمار الأوربى ، وهو فى الواقع أحد منطقتين اثنتين فى العالم كله (ثانيتهما هى شرق الشرق الأوسط) أفلتتا من الاستعمار بشكله المطلق[٣] . غير أن توغل النفوذ الأجنبى كان ممكنا على السواحل . وبالفعل أرغمت القوى الأوربية الصين على فتح أبوابها وموانيها للنفوذ والامتيازات الأجنبية ، وذلك بعد حرب الأفيون فى أربعينات القرن التاسع عشر . وكنتيجة لهذا انتزعت بريطانيا هونج كونج ، وظهرت مناطق الامتيازات المعروفة Extra-territorialities . ومنذ ذلك الحين كانت سياسة القوى الأوربية هى الابقاء على الصين كمجال مفتوح لنفوذها جميعا ، وهى ما تعرف « بسياسة الباب المفتوح open-door policy »[٤] .

---

(١) Cressey, Asia's Lands & Peoples, p. 494 ff.

(٢) Ibid., p. 509.

(٣) Cole, p.

(٤) Dorothy Woodman, A.B.C. of the Pacific, Penguin Books, 1943, p. 34-5.

الأوقيانوسية

أما فى الأوقيانوسية ـ هذا الأرخبيل السديمى المترامى كنهر مجرة فى غرب الهادى ـ فقد كان مجالا سهلا للسيطرة البحرية الأوربية فى القرن التاسع عشر. فحوالى منتصف القرن كانت فرنسا قد استولت على مجموعة من الجزر أهمها نيوكاليدونيا، بينما تأخرت نيوهبرديز إلى العقد الأول من القرن الحالى حين اقتسمتها فرنسا مع بريطانيا. وإلى الشمال كانت إسبانيا قد وضعت يدها على جزر كارولين وماريانا فى العقد السابع من القرن، بينما استولت ألمانيا على جزر مارشال فى العقد التالى. ولكن بعد الحرب الإسبانية ـ الأمريكية فى نهاية القرن باعت إسبانيا جزرها لألمانيا فيما عدا جوام التى آلت إلى الولايات المتحدة. ثم فقدت ألمانيا بدورها تلك الجزر لليابان بعد هزيمتها فى الحرب الأولى، إلى أن فقدتها اليابان بدورها للولايات المتحدة بعد هزيمتها فى الحرب الأخيرة[1].

العالم العربى[2]

وضع خاص

عود على بدء

للاستعمار الحديث فى العالم العربى، كما للعالم العربى بدوره فى الاستعمار الحديث، وضع خاص شبه متفرد. فهو، أولا، عودة أكثر مما هو بدء، عود على بدء يعنى. ذلك أن للاستعمار الأوربى مع العالم العربى جولة وربما جولات دامية ودرامية سابقة ولقاءات عاصفة هوجاء ومريرة ليس فقط فى العصور الوسطى والحروب الصليبية ولكن أيضا قبلها فى العصور القديمة ذاتها أيام الكلاسيكية والاستعمار اليونانى والرومانى. وبالتالى فإن الاستعمار الأوربى الحديث هنا فى القرن ١٩ إنما يلتقط طرف الخيط الذى ألقى به لآخر مرة مع نهاية وانحسار الصليبيات.

وهذا الوضع كله يختلف بالطبع جذريا عن سائر مناطق المداريات أو أكثرها حيث كان الاستعمار الأوربى طارئا وافدا لأول مرة فى القرن ١٩ أو على الأكثر فى العصور

---

(١) الجيوبولتيكا، ج ٢، ص٢٠، ١٧٦.

(٢) جمال حمدان، الاستعمار والتحرير فى العالم العربى، ص٢٦ ـ ٣١.

الحديثة . فالاستعمار الأوربى فى العالم العربى « وباء راجع » ، فيما هو فى المداريات « وباء وافد » كما يمكن أن نشبه أو نستعير . أما لماذا ، فلا لشىء بالطبع سوى أن هذه المناطق الأخيرة كانت من المجاهل ولم تعرف إلا بعد الكشوف الجغرافية .

النـد الوحيـد

ثانيا ، العالم العربى ، ربما بمعناه الموسع الذى يضم قطاعا من العالم الإسلامى كتركيا ... الخ ، هو المنطقة الوحيدة فى العالم خارج أوربا التى تعد ندا كفئا لها ومنافسا خطيرا ليس فقط تاريخيا وحضاريا ولكن أيضا سياسيا وحربيا ومن حيث القوة . ولقد كانت الصليبيات بالتحديد هى آخر مظاهر ومراحل هذه الندية والتكافؤ ، حيث ردت المنطقة الغزوة الأوربية الكاسحة على أعقابها مدحورة مكسورة . بل إن العالم العربى هو المنطقة الوحيدة قبل وخارج أوربا التى كانت فى وقت ما القوة العظمى الأولى فى العالم ، وأحرزت لنفسها السيادة العالمية قرونا وأجيالا ، وأخضعت مناطق شاسعة خارجها بما فى ذلك أجزاء من أوربا نفسها . وفى كل الأحوال ، فإن العالم العربى وحده ، جنبا إلى جنب ، مع أوربا هما فقط المنطقتان الوحيدتان فى العالم اللتان تنازعتا أو تناوبتا أو شاركتا فى السيادة العالمية عبر التاريخ وفى تأسيس الإمبراطوريات والفتح والتوسع السياسى ، فضلا عن خلق الحضارة الراقية بالمعنى المفهوم .

لهذا فقد كان حتما أن يكون للقاء الجديد أو المجدد فى العصر الحديث حسابا خاصا جدا فائق الخطر لأنه كان جزئيا تصفية حسابات قديمة مؤجلة ومتراكمة ومعقدة . ولهذا كان اختراق العالم العربى بالذات هو التحدى الأكبر للاستعمار ، بدونه لا تكتمل له السيادة العالمية حقا ، وبه وحده يتحقق التتويج القمّى لزحفه . وبالمقابل ، فلم يكن صدفة أن تبدأ نهايته فى المنطقة وأن يكون مقتله على يدها .

المسحـة الصليبيـة

ثالثا ، وأخيرا ، فليس من سبيل إلى الشك فى ، أو التهرب من ، أن جزءا من هذه التصفية وهذه المجابهة اتخذ بالضرورة مسحة دينية معينة بقدر أو بآخر . فكقلب العالم الإسلامى ورأسه وطليعته ، وكما حدث فى العالم الإسلامى ككل ولكن من باب أولى

بالطبع ، أخذت موجة الاستعمار الأوربى الحديث فى المنطقة من جديد شكل مواجهة بين الإسلام والمسيحية . كانت ، يعنى ، ذات ظلال وإشعاعات صليبية بالضرورة . وفى هذا المعنى فلعل قولة الجنرال الفرنسى جورو فى دمشق « ها قد عدنا ياصلاح الدين » ، والجنرال أللنبى البريطانى فى القدس « الآن انتهت الحروب الصليبية » ، أن تكون رامزة ومؤشرة بما فيه الكفاية . ومن الغريب المثير ـ المثير للملاحظة كما للأسف ، أن هذه المسحة الدينية عادت مرة أخرى وأخيرة لتكرر وتؤكد نفسها مع آخر وأدنى موجة من موجات الاستعمار الأوربى الحديث فى المنطقة وهى الاستعمار الصهيونى القمىء .

ولعل هذا أيضا أن يفسر فارقا آخر بقدر أو بآخر بين لون ونظرة ونوعية الاستعمار الأوربى الحديث فى المداريات من جهة والعالم العربى أو العربى ـ الإسلامى من الجهة الأخرى . فلأن الجانبين أساسا من الجنس القوقازى الأبيض بدرجة أو بأخرى ، كان الفارق الأبرز والألحظ بين الغرب الاستعمارى والعالم العربى هو الدين لا اللون . أما فى العالم المدارى فلم يكن الفارق الدين ـ لم يكن ثمة دين أصلا فى أغلب الحالات ـ وإنما الفارق كل الفارق وإلى الحد الصارم أحيانا هو اللون أساسا .

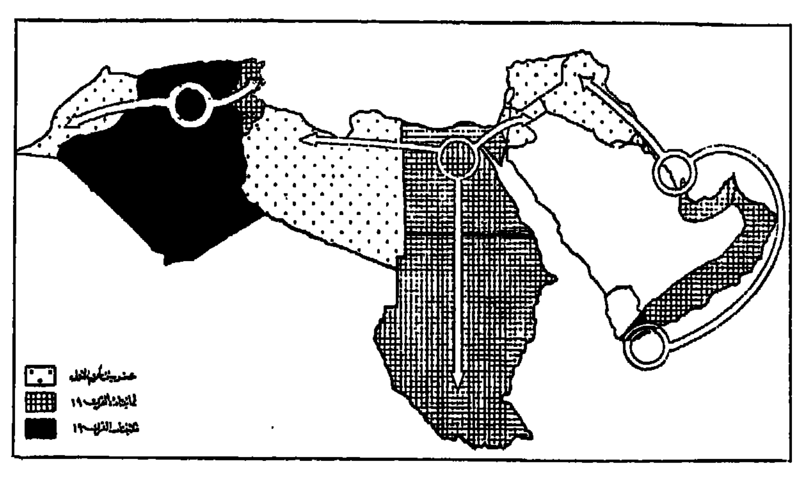
من هنا كان عداء أوربا الاستعمارى مختلف التوجيه والتوكيد والتعبير . فهو مع العالم العربى والإسلامى يحمل روح الصليبية أو الطائفية فى الدرجة الأولى ، بينما يحمل مع سائر أفريقيا وآسيا طابع العنصرية والعرقية وضد الملونين فى المحل الأول . ومن المؤشرات الدالة فى هذا الصدد أن الاستعمار الأوربى فى العالم العربى لم يجرؤ حتى فى عز سطوته أن يقيم « الحاجز اللونى » ولا أن يمارس التفرقة العنصرية أو العزل العرقى ، فى حين كان هذا هو الأمر اليومى والنظام المقرر السائد فى سائر المداريات حيث اتخذ الوضع أحيانا شكل صراع الأجناس بالمعنى الغاشم والاستفزاز الفظ الفج .

الزحـف الاستعمـارى

قبل الاستعمار الحديث ، وكحلقة وصل وإن كانت واهية للغاية بينه وبين الاستعمار الصليبى الوسيط ، دعنا أولا نذكر حالة خاصة وشاذة مثلما هى مجهرية لم تزل تعشش فى النسيج السياسى للعالم العربى حتى اليوم . تلك أعنى جيوب الاستعمار الإسبانى فى سبتة

ومليلة التى اقتطعها فى أخريات القرن الخامس عشر ، بل وبالتحديد قبيل خروج العرب من الأندلس ذاتها ! فهذا على شدة ضآلته أقدم استعمار أوربى فى العالم العربى إطلاقا حيث يبلغ الآن خمسة قرون ويعاصر بذلك أقدم استعمار برتغالى فى أفريقيا المدارية . وهنا وجه الخطورة ، فقد تحولت أغلبية السكان فى هذين الإسفينين القزميين إلى إسبان مسيحيين ، تدعى إسبانيا لذلك أنهما جزء لا يتجزأ من التراب والتراث الإسبانى !

أما عن الاستعمار الحديث ، فإن الزحف الاستعمارى فى العالم العربى لم يأت دفعة واحدة ، بل يمكننا بالقياس إلى منطقة شاسعة مثل أفريقيا المدارية ، أن نقول إن زحف الاستعمار فى العالم العربى كان بطيئا متسكعا . فلم تتحقق له السيطرة على المنطقة إلا فى مدى ٩٠ عاما من ١٨٣٠ إلى ١٩٢٠ . وقد تم هذا الزحف فى ثلاث موجات رئيسية واضحة التحديد . أيضا لم تنته كل موجة فى تاريخها تماما بل لها ما بعدها من توسيع وتعميق ، بحيث تؤدى نهايات كل موجة إلى طلائع التالية . وبوجه عام كانت كل موجة لاحقة أوسع انتشارا ونطاقا من سابقتها .



شكل (١٦) موجات الاستعمار في الوطن العربي.لاحظ نقط الارتكاز كبؤرات للتوسع والتشعع

موجـات الزحـف

فاما الموجة الأولى ففى ثلاثينات القرن التاسع عشر ، وفيها وقعت الجزائر فى يد الاستعمار الفرنسى فى ١٨٣٠ ، وعدن فى يد الاستعمار البريطانى فى ١٨٣٩ . ومنذ ذلك

الوقت أخذ الاستعمار البريطانى يزحف بانتظام واطراد من عدن على طول الساحل الجنوبى والشرقى للجزيرة العربية حتى سيطر عليها جميعا حتى الكويت شمالا قبل نهاية القرن .

وجاءت الموجة الثانية فى الثمانينات حين مدت فرنسا نفوذها من الجزائر إلى تونس فى ١٨٨١ ، واحتلت بريطانيا مصر فى ١٨٨٢ . وفى العقدين التاليين استطاعت بريطانيا أن تتخذ من مصر قاعدة للتوسع فى السودان تحت ستار التبعية التركية ، وعند دورة القرن كان قد استقر به تماما .

الموجة الثالثة والأخيرة فى العقد الثانى من القرن الحالى قبل وفى أثناء الحرب الكبرى الأولى . وقد بدأت بانقضاض إيطاليا على ليبيا واقتطاعها من « الدولة العلية » العاجزة فى ١٩١١ ـ ١٩١٢ . وفى نفس الوقت بدأت فرنسا تتوسع من الجزائر غربا فى مراكش لتنفرد بها من بين مناورات القوى المختلفة ، وتم لها هذا خلال الحرب حتى ١٩١٤ . أما فى المشرق العربى فقد كانت هذه الموجة أخطر فترة فى تاريخه ، فقد سقط أغلبه ـ الهلال الخصيب ـ للاستعمار دفعة واحدة وذلك كجزء من مساومات الصلح . فاستولت فرنسا على سوريا ولبنان ، وبريطانيا على فلسطين والأردن والعراق .

خريطة الاستعمار

من هذه الصورة نرى أن الاستعمار بدأ فى كل موجة ساحليا ثم توسع تدريجا نحو الداخل . فتلك طبيعة الاستعمار البحرى والضبط الساحلى . ثم فى كل موجة اتخذ الاستعمار من أول مستعمرة نقطة ارتكاز يتوسع منها دائريا أو خطيا : دائريا كما حدث من مصر إلى السودان ففلسطين والأردن ثم فيما بعد إلى ليبيا ، وخطيا كما حدث من الجزائر إلى تونس فراكش حيث ـ كما قيل ـ أفطرت فرنسا بالجزائر وتغدت بتونس وتعشت بمراكش !

كذلك نرى تناظرا وسمترية نادرة بين الزحف فى المشرق العربى والمغرب . ففى كل موجة يسقط عضو أو أكثر فى كل من القطاعين معا بحيث يصبح لدينا هذه الثنائيات أو

الأزواج المتناظرة على الترتيب الزمنى : الجزائر ـ عدن والجنوب العربى ، تونس ـ مصر والسودان ، مراكش وليبيا ـ الهلال الخصيب .

وعدا هذا فسنرى أن العالم العربى الأفريقى كان أسبق وقوعا فى مجموعه فى يد الاستعمار من العالم العربى الأسيوى . والجزء الأكبر منه وقع بالفعل فى القرن الماضى ، بينما لم يسقط نظيره الأسيوى إلا فى القرن الحالى . هذا ولم يفلت من الاستعمار فى العالم العربى كله إلا قطاع ضئيل فى الجانب الأسيوى هو قلب الجزيرة العربية وقلعة اليمن ، وكل منطقة فقيرة فى ذاتها صحراوية أو جبلية ، وداخلية بعيدة عن مجال واهتمامات الاستعمار البحرى .

وأخيرا نرى أن الاستعمار اللاتينى فى المغرب أخذ ترتيبا مناظرا ومقابلا للأوطان « الأم » على الساحل الشمالى للبحر . فالاستعمار الإسبانى فى مراكش الخليفية أو الريف يواجه إسبانيا ، والإيطالى فى ليبيا يواجه شبه الجزيرة ، بينما فى الوسط يقابل النطاق الفرنسى فرنسا فى القارة .

أما إذا وضعنا قوى الاستعمار فى العالم العربى فى الميزان ، فإن الجدول الآتى يعطى النسب التى اقتسم بها المنطقة كما كانت حوالى منتصف القرن الحالى قبيل التحرير .

الاستعمـــار	المساحة بالكم ٢	٪	السكان بالمليون	٪
البريطـانى	٤,٦٥٤,٧٠٠	٤١,٦	٣٨	٤٨
الفرنســى	٢,٩٣٣,٠٠٠	٢٦,٢	٢٧	٣٤
الإيطـالى	١,٧٥٩,٥٠٠	١٥,٧	١	١,٢
الإســبانى	٥٠,٠٠٠	٠,٤	١,٧	١,٤
الوحدات المستقلة	١,٧٩٥,٠٠٠	١٥,٥	١١,٥	١٥,٤

وسيبدو أن نحو سبعة أثمان الوطن والشعب العربى (٨٥٪) قد سقطت ضحية للاستعمار ، وبالأخص للاستعمار البريطانى والفرنسى ـ الاستعمار الكبير ـ فكانا معا

يسيطران على ثلثي مساحة العالم العربي (٦٧,٨٪) وأكثر من ثلاثة أرباع الأمة العربية (٨٢٪) . وكانت بريطانيا بالذات هي القوة الاستعمارية السائدة : نصف السكان وخمسا المساحة . وبذلك تعادل الاستعمار اللاتيني جميعا من حيث المساحة تقريبا ولكن تفوقه بكثير من حيث السكان .

أما الاستعمار الصغير ففيه يتقارب الإسباني والإيطالي سكانا ، ولكن يختلفان جدا في المساحة . فالأول شريط كثيف نسبيا . أما الثاني فبه أعلى نسبة من المساحة إلى السكان . وفيما عدا هذا فيلاحظ أن الاستعمار كان يملك في العالم العربي مساحة تزيد على مساحة أوروبا بأسرها ، وفيما عدا إسبانيا فقد كانت كل قوة استعمارية تملك مساحة تبلغ أضعاف مساحتها هي نفسها عدة مرات !

الاستعمار الصهيوني

هذه صورة عامة للاستعمار الغربي في الوطن العربي كما مارسته القوى الأوربية . ولكنها بطبيعة الحال لا تكتمل إلا بالحديث عن حالة خاصة وأخيرة من الاستعمار مكنت له وخلقته فقط تلك القوى ، أما الذي مارسته فطائفة عالمية معينة ، ونعني بذلك الاستعمار الصهيوني في فلسطين المحتلة باسم إسرائيل . وليس ها هنا من مجال إلا لتحديد الهيكل الأساسي لطبيعة إسرائيل وموقعها بين أنماط الاستعمار . ففي إيجاز شديد ، ماذا تعني إسرائيل ـ علميا وموضوعيا ـ بالنسبة إلى طالب الجغرافيا السياسية ؟

المراحل الاستعمارية

تتعاصر بدايات الحركة الصهيونية مع آخر موجة كبرى من موجات الاستعمار الأوربي الحديث وهي الموجة المدارية وخاصة منها التكالب على أفريقيا ، ولكن تحققها يتعاصر مع نهايات عصر الاستعمار بوجه عام . فلقد تعلقت الصهيونية بأذيال الموجة المدارية لتركبها ولتستثمر المناخ السياسي الاستعماري العام وصولا إلى تحقيق أهدافها الخاصة في إنشاء « الدولة اليهودية » . والصهيونية من بدايتها حركة سياسية في الحقيقة (الصهيونية السياسية) ، ولكنها تقنعت منذ اللحظة الأولى بالدين (الصهيونية العاطفية) ، لتخلق من « رؤيا العودة إلى أرض الميعاد » إيديولوجية تاريخية ودينية تجمع يهود الشتات حولها ، وكذلك قناعا وشعارا تخفي به حقيقة أهدافها عن العالم الخارجي . ولهذا رفضت عدة اقتراحات لوطن قومي في غير فلسطين .

ولقد كان من المستحيل منذ البداية أن يتحقق الحلم إلا بالمساعدة الكاملة من قوى السيادة العالمية ، ومن هنا التقت الإمبريالية العالمية مع الصهيونية لقاء تاريخيا على طريق واحد هو طريق المصلحة الاستعمارية المتبادلة : فيكون الوطن اليهودى قاعدة تابعة وحليفا مضمونا أبدا يخدم مصالح الاستعمار ، وذلك ثمنا لخلقه إياه وضمانه لبقائه . وعلى طريق هذه المصلحة الاستعمارية المشتركة تحرك ارتباط الصهيونية بالإمبريالية بحسب تحرك مركز الثقل فى زعامة الإمبريالية ، فكانت بريطانيا هى التى خلقت الوطن القومى منذ الحرب العالمية الأولى ، بينما خلقت الولايات المتحدة الدولة اليهودية منذ الحرب الثانية .

وقد مر تكوين إسرائيل بمرحلتين : التغلغل ثم الغزو . فبعد عدة موجات من التسلل والتسرب المبعثر حتى ما قبل الحرب الأولى ، فتح الانتداب الباب للهجرة إلى الوطن القومى ليبدأ تغلغل حقيقى خلق جسما خطيرا من أقلية يهودية كبيرة وانتزع موطئ قدم بسياسة شراء الأراضى المخططة من قبل . وبهذا وذاك تكونت نواة « الييشوف » أى المجتمع اليهودى فى فلسطين ، ونجح فى خلق دولة داخل الدولة . وقد اتسمت هذه المرحلة بالدموية فى شكل حرب عصابات يهودية شجعها الانتداب بالسلاح ، فى وجه مقاومة عربية ثورية قاومها الانتداب بالقوة .

أما مرحلة الغزو فتم فيها الاغتصاب الشامل بعد انسحاب الانتداب ـ متواطئا ـ فى ١٩٤٨ ، وعن طريق حرب ضد العرب يسميها اليهود بحرب الاستقلال (عن الاستعمار البريطانى) أو حرب التحرير (من « الاستعمار العربى » ، كذا !) . وفى هذه الحرب ، التى حدد مصيرها سياسة التسليح ومناورات السياسة من جانب الدول الاستعمارية ، طرد نحو مليون من العرب الأصليين خارج الأرض المحتلة ، بينما تدفقت الهجرة الكبرى لتجمع فى النهاية نحو المليونين أو الثلاثة من الصهيونيين يمثلون حوالى ١٣٪ من اليهودية العالمية .

وقد اعتبرت إسرائيل نفسها منذ ذلك الوقت « إسرائيل الصغرى » فقط ، على أساس أن هدفها المعلن هو « إسرائيل الكبرى » من النيل إلى الفرات . وفى سبيل تحقيق هذه الخطة ، قامت بحربين عدوانيتين أخريين أو ثلاث ضد الدول العربية فى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، عملت فيها جميعا بالتواطؤ مع دول الاستعمار الغربى ، ولكنها فشلت فى التوسع فى الأولى ، ونجحت فى الثانية غير أنها رغم الثالثة تجد المواجهة قائمة ما تزال ، ذلك دون أن نضيف آخر جرائمها سنة ١٩٨٢ فى لبنان .

تلك هى الحقائق الأولية البحتة فى قيام ووجود إسرائيل ، منها يمكن للجغرافى السياسى أن يحدد فى إطار موضوعية العلم المطلقة التشخيصات والنتائج الآتية :

فأولا ، إسرائيل - كدولة - ظاهرة استعمارية صرف . فهى قد قامت على اغتصاب غزاة أجانب لأرض لا علاقة لهم بها دينيا أو تاريخيا أو جنسيا ، وإن زعموا عكس ذلك تماما ودواما . دينيا ، لأن رؤيا العودة الخرافية والوعد الأسطورى المزعوم لا أساس لها أو سند من الدين وإلا لجازت نفس العودة لبقية الأديان ، فضلا عن أنه ليس على أصحاب دين أى التزام بدعاوى أصحاب دين آخر . وتاريخيا ، لأن علاقة اليهود بفلسطين انقطعت تماما منذ نحو ٢٠ قرنا . وجنسيا ، لأن هناك « يهودين » فى التاريخ ، قدامى ومحدثين ، ليس بينهما أى صلة أنثروبولوجية مذكورة . ذلك أن يهود فلسطين التوراة بعد الخروج تعرضوا لظاهرتين أساسيتين طوال ٢٠ قرنا من الشتات فى المهجر : خروج أعداد ضخمة منهم بالتحول إلى غير اليهودية ، ودخول أفواج لا تقل ضخامة فى اليهودية من كل أجناس المهجر . واقترن هذا بتزاوج واختلاط دموى بعيد المدى ، انتهى بالجسم الأساسى من اليهود المحدثين إلى أن يكونوا شيئا مختلفا كلية عن اليهود القدامى ، ولم يعد اليهود اليوم من نسل بنى إسرائيل التوراة بأى نسبة ذات بال [1] .

وبهذا فإن عودة اليهود إلى فلسطين بالاغتصاب هو غزو وعدوان غرباء لا عودة أبناء قدامى ، أى استعمار لا شبهة فيه بالمعنى العلمى الصارم . وإسرائيل بالتالى تمثل جسما غريبا ودخيلا مفروضا على الوجود العربى ، أبدا غير قابل للامتصاص ، ولكنه حتى الآن غير ممكن اللفظ ، وبين هذا وذاك يبقى عنصر اضطراب وتهيج ومضاعفات سياسية . وبتعبير آخر يبقى بؤرة حرب كامنة ومفجر صدام استعمارى - تحريرى مسلح .

ثانيا ، إسرائيل استعمار طائفى بحت ، والدولة دولة دينية صرفة . فهى تقوم على تجميع اليهود ، واليهود فقط ، فى جيتو سياسى واحد ، ومن ثم فأساسها التعصب الدينى ابتداء . وإذا كان من الواضح أنها بذلك تمثل شذوذا رجعيا فى الفلسفة السياسية للقرن العشرين الذى لا يعرف أو يعترف بالدول الدينية ، فإنها فى الواقع تعيد إلى الحياة حفريات العصور الوسطى بل القديمة ، ومنطق العصور القبلية المتحجرة . وهى كذلك

(١) جمال حمدان ، اليهود أنثروبولوجيا ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ١١٥ وما بعدها .

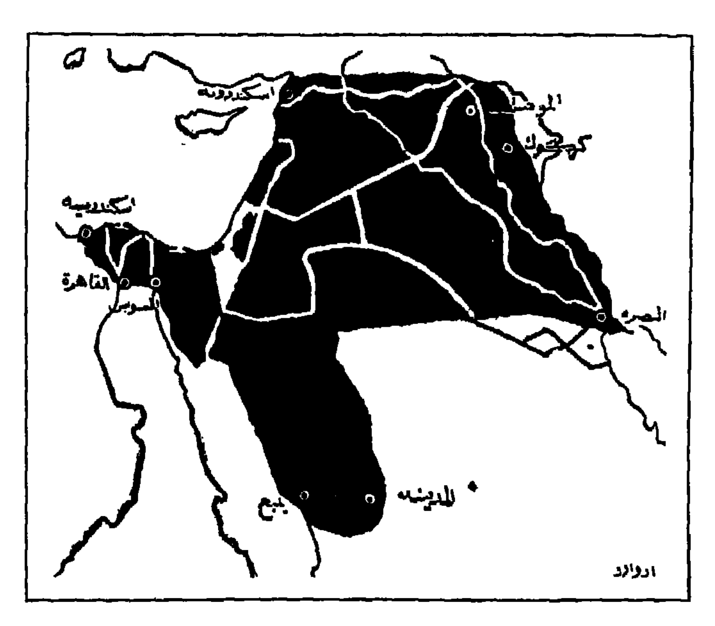
تفرض من طرف واحد حربا دينية ليس الطرف الآخر مسئولا عنها بل هو يرفضها ؛ وإسرائيل تبعث بذلك شبهة صليبيات جديدة فى منطقة لا تعرف إلا التسامح الدينى تقليديا . إن الحروب الصهيونية Zianades هى الحروب الصليبية الجديدة Neo-Crusa-des.

ثالثا ، إسرائيل استعمار عنصرى مطلق . فرغم أن اليهودية ليست ولا يمكن أن تكون قومية بأى مفهوم سياسى سليم كما يعرف كل عالم سياسى ، ورغم أن اليهود ليسوا عنصرا جنسيا فى أى معنى بل جماع ومتحف حى لكل أخلاط الأجناس فى العالم كما يدرك أى أنثروبولوجى ، فإن فرضهم لأنفسهم كأمة مزعومة مدعية فى دولة مصطنعة مقتطعة يجعل منهم ومن الصهيونية حركة عنصرية أساسا ، وذلك بكل معنى العنصرية من استعلاء وتعصب واضطهاد ودموية .

وتأخذ هذه العنصرية ــ كما تحب إسرائيل أن تراها ، سواء صح ذلك أم لم يصح ــ صورة مليونين أو ثلاثه من « البيض » وسط بحر من « الملونين » العرب . فهذه ــ مباشرة ــ عنصرية بيضاء . ولكنها أيضا عنصرية بيضاء نازية بالدقة ، فهى تعد نفسها « الشعب المختار » على غرار « ألمانيا فوق الجميع » أيام الهتلرية . وبالفعل ، وباعتراف الكثير من المحايدين ، يبدى وجود إسرائيل منذ نشأتها كل ملامح العنصرية النازية Zionazism. وهنا تتجسد سخرية المفارقات الاستعمارية : فقد تلقت إسرائيل اضطهاد العنصرية النازية فى أوربا بكل مرارة التجربة ، ولكنها إنما تعلمت الدرس لتنقله وتعكسه مضاعفا على العرب فى فلسطين ، وهنا تتضاعف المفارقة سخرية ، لأن العرب ــ وحدهم من بين كل المجتمعات ــ هم الذين لم يضطهدوا اليهود عبر التاريخ .

رابعا ، إسرائيل قطعة من الاستعمار الأوربى عبر البحار . فمع أن إسرائيل منصفة عدديا بين اليهود الغربيين الأشكناز واليهود الشرقيين السفارديم ، فإن القيادة والسيطرة المطلقة للنصف الأول ، وهى تعتبر نفسها دولة غربية لا شرقية . ولو حققت إسرائيل أهدافها فى تهجير يهود الشتات جميعا ، لأصبحت وجودا غربيا أساسا بحسب الجنس والحضارة وبحسب التطلعات والعلاقات . إنها جزيرة أوربية على ضلوع آسيا ، ومستعمرة غربية فى قلب الوطن العربى ، وذلك جنسيا وحضاريا على السواء . وككل دعاوى الاستعمار الأوربى عبر البحار ، وتبريرا لاغتصابها ، لم تتورع إسرائيل عن أن تدعى رسالة الحضارة والتطور ، فزعمت نفسها واحة التقدم فى صحراء الرجعية العربية وجزيرة الصناعة فى بحر التخلف الشرق .. الخ .

خامسا ، إسرائيل استعمار استيطانى فى الدرجة الأولى . فلئن كانت بداياتها قد واكبت موجة الاستعمار المدارى فى القرن التاسع عشر ، إلا أنها استهدفت وحققت كل مقومات استعمار المعتدلات الذى ساد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وسعى إلى التوطن الدائم فى بيئات معتدلة شبه أوربية المناخ . ولعل استعمار الجزائر كان أقرب سابقة لها تاريخيا ، ولكنها تظل تمثل آخر موجة من الاستعمار السكنى الاستيطانى فى العالم كله .



شكل (١٧) الخطر الصهيوني : حلم إسرائيل الكبرى : إمبراطورية صهيون : ملكوت إسرائيل الثالث

وإذا صح أن نميز فى الاستعمار السكنى للمعتدلات بين النمط اللاتينى الذى يضيف المستعمرين إلى الأهالى الأصليين بلا إبادة عامة كما فى أمريكا اللاتينية أو الجزائر ، وبين النمط السكسونى الذى يقوم على إحلال المستعمرين محل الأهالى الوطنيين بالابادة أو الطرد كما فى أستراليا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة ، فإن إسرائيل تقع بالتأكيد فى النمط السكسونى .

ومع ذلك فهى تتميز عنه بما يجعلها حالة فريدة شاذة لا مثيل لها بين كل نماذج الاستعمار الاستيطانى ، فهى تجمع بين أسوأ ما فى هذه النماذج ، ثم تضيف إليه الأسوأ منه . هى كأستراليا والولايات المتحدة انتظمت قدرا محققا من إبادة الجنس ، وهى كجنوب إفريقيا تعرف قدرا محققا من العزل الجنسى ، ولكنها تختلف عن الجميع من

حيث إنها طردت كل السكان الأصليين خارجها تماما ليتحولوا إلى لاجئين مقتلعين معلقين على حدودها . وإسرائيل بهذا كله أعلى ـ أم نقول أدنى ؟ ـ مراحل الاستعمار الاستيطانى .

سادسا ، إسرائيل رغم ذلك تجسيم للاستعمار المتعدد الأغراض ، فهى تمثل استعمارا مثلث الأبعاد . فعدا الجانب الاستيطانى ، فإنها تمثل أيضا استعمارا استراتيجيا واستعمارا اقتصاديا . فوجودها غير الشرعى رهن من البداية إلى النهاية بالقوة العسكرية وبكونها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة ، فما قامت ولن تبقى ـ وهذا تدركه جيدا ـ إلا بالدم والحديد والنار . ولهذا فهى دولة عسكرية فى صميم تنظيمها وحياتها ، و « أمن اسرائيل » هو مشكلتها المحورية ، أما حلها فقد تحدد فى أن أصبح جيشها هو سكانها وسكانها هم جيشها ، وهو ما يعبر عنه « بعسكرة » إسرائيل .

أما أنها استعمار اقتصادى ، فهذا أساسى فى كيانها منذ أن اغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات ، فالاستعمار الإسرائيلى عملية رهيبة من نزع الملكية على مقياس شعب ووطن بأسره . وهى من هذه الزاوية استعمار طفيلى ابتزازى ابتلاعى بحت بطبيعة الحال . ومن بين تلك الصفة العسكرية وهذه الجذور الطفيلية ، تخرج الصفة الفاشية الواضحة فى كيان إسرائيل كنتيجة منطقية للغاية .

سابعا ، إسرائيل استعمار توسعى أساسا . وأطماعها الاقليمية معلنة بلا مواربة ، وخريطة إسرائيل الكبرى محددة من قبل ومتداولة ، ومن « النيل إلى الفرات أرضك يا إسرائيل Erets Israel » هو شعار الإمبراطورية الصهيونية الموعودة . وهدف إسرائيل الكبرى أن تستوعب كل يهود العالم فى نهاية المطاف ، ومثله لا يمكن أن يتم إلا بتفريغ المنطقة من أصحابها ، إما بالطرد وإما بالابادة . وبطبيعة الحال ، فلا سبيل إلى هذا إلا بالحروب العدوانية الشاملة . ونحن بهذا إزاء أخطبوط سرطانى فى آن واحد ، إزاء عدوان آنى واقع وعدوان سيقع فى أى آن .

وهنا نجد أن الصهيونية تكرر فى الواقع قصة النازية بحذافيرها . فكما كانت ألمانيا تطالب « بمجال حيوى » ، تتكلم إسرائيل عن إسرائيل الكبرى . وكما كانت ألمانيا تدعى أنها « شعب بلا مجال » ، لا تخفى إسرائيل منذ وحسب هرتزل أنها ترى فى المنطقة العربية « مجالا بلا شعب » . وكما كانت ألمانيا تحث على زيادة النسل كمبرر لادعاءاتها الاقليمية ، تحث إسرائيل يهود العالم على الهجرة إليها . وتكتيك افتعال ضغط سكانى

متوره متفجر تبريرا للتوسع الاقليمى ، هو تكتيك الأمر الواقع Realpolitik كما سمى فى ألمانيا . fait accompli كما عرف عن إسرائيل . وفى النهاية وفى النتيجة ، فقد تعين فى حالة إسرائيل كما كانت حالة ألمانيا ، أن تصبح حدودها هى جيوشها ، وجيوشها هى حدودها . وإذا كان لهذا من معنى ـ أى معنى ـ فهو على الفور أن الشرق العربى لا يمكن أن يتسع للعرب ولإسرائيل معا ، فوجود أحدهما نفى لوجود الآخر ، ولكى يبقى أحدهما لابد أن يذهب الآخر . أما من يبقى ومن يذهب فأوضح ـ علميا ـ من أن يذكر .

ثامنا . وأخيرا . فإن إسرائيل من البداية إلى النهاية استعمار من الدرجة الأولى والثانية معا . استعمار بالأصالة والوكالة فى نفس الوقت . ونقصد بذلك أن إسرائيل قامت وأقيمت بفعل ولحساب نفسها والصهيونية العالمية ، وكذلك قامت وأقيمت بفعل ولحساب الاستعمار العالمى . فبالنسبة إلى الصهيونية العالمية ، فإن الدولة اليهودية ملجأ من الشتات وأخطاره المحتملة أو الموهومة ـ بوليصة تأمين كما وصفت ـ ووثيقة لاستثماراتها المالية الاحتكارية . ولكن تحقيقها فى البداية وبقاءها بعد ذلك لم يكن ممكنا بغير المشاركة الكاملة للاستعمار العالمى الذى تطابقت إلى حد التماثل خططه ومصالحه .

فهى بالنسبة إليه قاعدة متكاملة آمنة عسكريا ، ورأس جسر ثابت استراتيجيا ، ووكيل عام اقتصاديا . أو عميل خاص احتكاريا . وهى فى كل أولئك تمثل فاصلا أرضيا يمزق اتصال المنطقة العربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها ، واسفنجة غير قابلة للتشبع تمتص كل طاقاتها ، ونزيفا مزمنا فى مواردها ، وأداة جاهزة لضرب حركة التحرير . وإسرائيل بهذا المعنى دولة مرتزقة لا شك ، تعمل مأجورة فى خدمة الاستعمار العالمى ، بمثل ما هى صنعه وصنيعته وربيبته .

هذا الالتقاء والتداخل العميق بين مصالح الصهيونية والإمبريالية العالميتين هو مفتاح الوجود ـ والمصير ـ الإسرائيلى برمته . وهو الذى يفسر كثيرا من مظاهر الغرابة والتفرد فيه . فالاستعمار العالمى هو الذى خلق إسرائيل بالسياسة والحرب ، وهو الذى يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال ، ثم هو الذى يضمن بقاءها ويحميها علنا . ولذلك فإنها تكاد تكون الحالة الوحيدة فى العالم تقريبا التى تجسدت فيها آخر مراحل الاستعمار القديم وأولى طلائع الاستعمار الجديد . فهى كجسم استعمارى واقع تمثل استعمارا قديما ؛ ولكنها بدور الاستعمار العالمى فى كيانها وأمنها تمثل أداة وقاعدة للاستعمار الجديد . كذلك فإنها ـ إسرائيل ـ تكاد تكون الأرض المشتركة الوحيدة تاريخا ولقاء ،

مصالح ومصاير ، التى التقى عليها الاستعمار القديم والجديد بغير صراع أو تنافر . فقد كانت بريطانيا (الاستعمار القديم) هى التى خلقتها ، ولكنها سلمتها بعد ذلك طواعية لوصاية أمريكا (الاستعمار الجديد) . فكانت الأولى بمثابة الأب البيولوجى . والثانية بمثابة الأب الاجتماعى .

وإذا كانت إسرائيل ملتحمة كلية فى الوقت الحالى بالولايات المتحدة . فإنه ليس من الواضح تماما من الذى يستعمر من : فإسرائيل تكاد تبدو اليوم وكأنها أمريكا فى الشرق الأوسط . أو الولاية الحادية والخمسون من الولايات المتحدة كما قيل . أو على الأقل قاعدة أمريكية ــ أكبر قاعدة أمريكية ــ عبر البحار ، إلا أنها قاعدة بدرجة دولة وإلا أن كل طاقمها من اليهود . وفى نفس الوقت تمارس الصهيونية العالمية لحساب إسرائيل نفوذا وضغطا غير متناسب على الولايات المتحدة . وأيا ما كان ، فلا شك أن إسرائيل هى أخطر تحديات الاستعمار فى التاريخ العربى . ولعلها أعلى مراحله فى الوطن العربى ، بمثل ما أن الصهيونية العالمية هى أعلى مراحل الإمبريالية العالمية .

الفصل الثامن

صراع القوى
فى العصر الصناعى
بريطانيا

ودع القرن التاسع عشر فترة مراهقته ، وقد اجتمع انقلابان خطيران : أولهما انتقال السيادة العالمية نهائيا إلى بريطانيا بعد أن أزاحت فرنسا إلى الابد عن الصدارة ، وثانيهما بدء الانقلاب الصناعى فى بريطانيا الأمر الذى أكد زعامتها فى العالم بلا منافس حقيقى . ومنذ ذلك ولمدة قرن تقريبا ظلت القوة السياسية والمادية فى العالم احتكارا لبريطانيا ، وكان القرن التاسع عشر بحق قرن السيادة البريطانية ــ قرن بريطانيا .

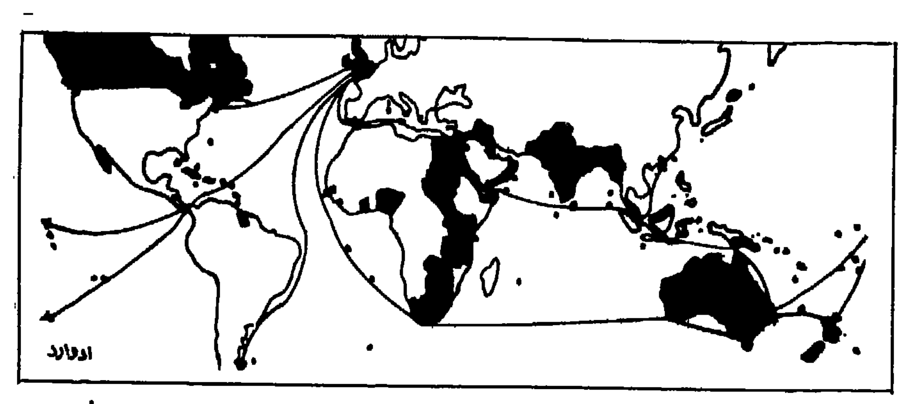
ورغم أن فرنسا ظلت تناوئها وتتصدى لها ، فلم يكن هذا إلا من موضع اليد السفلى ، إلى أن اضطرت بعد قرن كامل أن تعترف بالأمر الواقع لتسوى خلافاتها معها فى الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ ، ولتتحول فى النهاية إلى شريك ثان لها وحليف ، أو بالأحرى إلى صديق لدود ، لا سيما منذ بدأ منافس خطير يهدد الاثنين ، ولكن فرنسا بصفة مباشرة ، ونعنى به ألمانيا .

أعظم الإمبراطوريات

هنالك انطلقت بريطانيا تتفجر وتتواثب ، بل وتعربد ، حول العالم لتستكمل أضخم وأوسع إمبراطورية بحرية عرفها التاريخ . فنى قمة توسعها وصلت الإمبراطورية إلى أن تغطى ربع مساحة اليابس ، وأن تحكم ثلث سكانه ، أو نحو أكثر من ١٤ مليون ميل مربع ، ١٠٠٠ مليون نسمة على الترتيب . وأبرز حقيقة فى هذه الإمبراطورية الماموث ، هى بلا شك تبعثرها فى كل أركان العالم فى « جزر » سياسية منفصلة متقطعة تفصلها

آلاف الأميال من البحار والمحيطات ، ولا يكاد محيطها يقل ـ عمليا ـ عن محيط الكرة الأرضية .

ومن هنا فقد كانت إمبراطورية عالمية بكل معنى الكلمة : لها أعضاء تمثلها فى كل قارة بما فى ذلك أوربا نفسها ، وتكاد تترامى عبر كل خطوط الطول والعرض فى العالم (٣٢٠ درجة طولية × ١٣٠ درجة عرضية !)(١) ، وتمتد بلا استثناء فى كل المناطق المناخية والأنواع النباتية والبيئات الطبيعية والأقاليم والأنماط الجغرافية ، كما انتظمت تقريبا كل الأجناس الرئيسية والديانات وإلى حد ما اللغات(٢) . باختصار كانت متحفا منثورا لعينات من الكرة الأرضية والعائلة البشرية « لا تغيب عنه الشمس » .



شكل (١٨) الإمبراطورية البريطانية في أوجها . النموذج المثالي للاستعمار البحري : ربع مساحة العالم : ألف مليون نسمة : انتشار مطلق حول الكرة الأرضية : خمسة أحزمة بحرية تربط شتاته .

ومثل هذه الإمبراطورية الدائرية المترامية كانت بطبيعة الحال ـ ولم يكن لها بد من أن تكون ـ إمبراطورية قوة بحر فى الدرجة الأولى . بل الحقيقة أنها كانت بالضرورة نتج السفينة البخارية وإمبراطورية عصر البخار ، بغيرها ما كان يمكن أن تقوم ، وإذا قامت فبغيرها ما كان يمكن أن تستمر . ولهذا كانت خطوط الملاحة هى شرايين الإمبراطورية وخطوط الحياة بالنسبة لها . وكان الهيكل الذى يمسك بهذه المستعمرات المبثوثة يتألف من خمسة خطوط تسمى أحزمة الإمبراطورية Girders of Empire. أهمها بلا شك طريق

(١) Whittlesey, p. 111.

(٢) الجيوبولتيكا ، ج ٢ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

السويس البحرى الداخلى الذى يشق قلب الإمبراطورية الفعال ، ثم طريق الرأس الدائرى البديل . وإلى الغرب تنبعث الخطوط الثلاثة الأخرى ، وأولها خط كندا والولايات المتحدة ولم يكن يقل أهمية عن طريق السويس ، وهو اليوم أهم ما تبقى لبريطانيا . والطريق التالى هو طريق بنما ـ هاواى ـ أستراليا ونيوزيلند . أما الطريق الأخير فطريق جزر فوكلند بحذاء شرق أمريكا الجنوبية .

وعلى هذه الشبكة الأخطبوطية ترتكز الإمبراطورية على مجموعة من القواعد العسكرية البحرية التى تمثل نقط أو عقد القوة الاستراتيجية فيها ، والتى تعتمد أساسا على الضبط والاستعمار الساحلى marginal control . ومع مقدم عصر الطيران ازدوجت هذه الشبكة فى الواقع بشبكة جوية مركبة فوقها ، كما تكملها فى بعض حلقاتها شبكة طرق وسكك حديدية على القارات[1] .

السـلام البريطـانى

فى هذا الاطار اكتملت سيادة بريطانيا البحرية إلى درجة الاحتكار المطلق للقوة البحرية فى العالم ، وأصبحت عملية مراقبة البحار العليا والاشراف عليها وظيفة بريطانية بحتة ، وتحققت بهذا وحدة المحيط العالمى كأكمل وأقوى ما يكون ، ولا نقول أصبح المحيط العالمى بحيرة بريطانية ! ولقرن برمته لم تستطع قوة ما أن تتحداها . غير أن هذا كان فى الواقع دورا « بوليسيا » لا شك فيه[2] ، وفى هذا المعنى وحده ينبغى أن نفهم « السلام البريطانى Pax Britannica » الذى فرضته طوال ذلك القرن وظلت تفخر به طويلا ـ وتضليلا .

وفى ظل هذه الاستراتيجية البحرية المدرعة استطاعت بريطانيا أن تصبح تاجر العالم الأول مثلما جعلها الانقلاب الصناعى مصنعه الأكبر . ففى اقتصاديات آسيا وأفريقيا كان لها الدور الاحتكارى المطلق ، بينما كانت هى وحدها المسيطر الرئيسى على الاستثمارات والتمويل فى أمريكا الجنوبية . وفى النتيجة أصبحت بريطانيا تستمد من هذا الدور الجزء الأكبر من قوتها وثرائها المادى ، بدرجة تتضاءل بجانبها كثيرا مواردها وإمكانياتها الذاتية والبحتة .

---

(١) L.M. Alexander, World Political Patterns, Chicago, 1957.

(٢) الجيوبولتيكا ، ج ٢ .

ولم يكن غريبا لذلك أن تضاعف سكانها أربع مرات فى ذلك القرن رغم الملايين التى أرسلت إلى ما وراء البحار خاصة أمريكا[١] . وفى حمى هذه القوة العسكرية المطلقة والرخاء الاقتصادى النادر ، لم يكن غريبا ـ أليس كذلك ؟ ـ أن يصل الصلف والغرور الإنجليزى إلى منتهاه ، وأن يظن الاستعمار البريطانى أن الأرض قد دانت له ، وأن يتصور نفسه مركز الكون . بل لقد تساءل بعضهم أيامها بالفعل ـ كذا ـ عما إذا كان « الله بريطانيا ؟ Is God British » . لقد وصل غرور القوة وعبادة الذات ، ودعك من واجهة التهكم ، إلى حد الكفران !

بيد أن المهم أن بريطانيا إنما بنت دورها هذا على أساس نظريات ومدارس اقتصادية معينة تبنتها أو خلقتها هى حرية التجارة أولا وتخصص الانتاج ثانيا ـ ولو أن المبدأين جانبان فى الحقيقة لشىء واحد . على أن الذى لم يعد فيه شك الآن حتى عند عتاة الإمبرياليين البريطانيين هو أن تلك المبادئ أبعد شىء عن الحقيقة ، بل قلب صارخ هى للحقيقة . فحرية التجارة دعوة تتخفى وراء أعتى أنواع الاحتكار القائم على القوة العسكرية ، وهى كما قال بسمارك « سياسة الأقوى » . أما التخصص فكان وسيلة لحرمان المستعمرات من التطور وللابقاء على تخلفها إلى الأبد بحجة الجغرافيا الطبيعية .

والنتيجة أن اقتصاد « عصر بريطانيا » كان فى جوهره اقتصاد حرب واقتصاد قوة ، وبغير الأسطول ودبلوماسية الزوارق المسلحة كان مستحيلا أن تظهر « مدرسة مانشستر فى التجارة الحرة » ، وكان السلام البريطانى المزعوم سلام قوة ، يقوم على الظلم والقهر ويعتمد على التهديد بالحرب[٢] . ومن هذه الحقيقة بالذات ستنبعث جرثومة الحرب العالمية الأولى ، وهى النقطة التى تعين أوج القوة البريطانية على الأرجح والتى بعدها بدأ الانحدار التدريجى الذى استكمل فى الحرب الثانية فكان بداية نهاية بريطانيا كالقوة العظمى الأولى فى العالم .

دورة حيـاة الإمبراطوريـة

وما دمنا قد وصلنا إلى هذه النقطة ، فلعل من المفيد كما هو من الضرورى أن ننظر نظرة كلية شاملة إلى تاريخ وتطور القوة البريطانية كدورة حياة من النشأة إلى الصعود

---

(١) فوست ، ص ٤٢٧ .

(٢) Democratic ideals, p. 107.

فالانحدار . ولهذا الغرض ، فلعل تكنيك تطور مراحل الدولة الجيوبوليتيكى كما وضعه الجغرافى السياسى فان فالكنبرج هو أنسب منظور متاح . فكما يصنف هذا العالم ، تقع الدولة أو تمر فى مراحل تطور أربع لكل منها ملامح سلوكية قاطعة وخصائص سياسية محددة : الطفولة أو النشأة ، الشباب أو التوسع ، النضج أو الاستقرار ، وأخيرا الشيخوخة أو الانحدار . فأما مرحلة الطفولة أو النشأة ففيها تنفق الدولة الجديدة كل اهتمامها ونشاطها فى ترتيب البيت من الداخل ، أى فى لم شمل أقاليمها وتدعيم وحدتها الداخلية وتحديد وتأمين حدودها والدفاع عنها ، مع تحاشى الحروب الخارجية ما أمكن . أما مرحلة الشباب فهى مرحلة التوسع بالضرورة ، تنطلق فيها بعد أن اشتد عودها داخليا إلى توسيع رقعتها ونفوذها فى الخارج ، فتنتقل بذلك من الدفاع إلى الهجوم وقد تدخل عصر الإمبراطورية وتعرف تطلعات الاستعمار وطموحات الفتوحات . ومع تحقيق هذه الأهداف وتلك الرقعة تتسع مسئوليات الدولة وتزداد مشاكلها ، من تعقيدات الضبط والربط والتماسك والمواصلات إلى أقليات مضمومة وثورات تحررية إلى منافسات إمبراطورية مضادة ... الخ . فهنا تصبح الخاصية الأساسية للدولة هى محاولة المحافظة على الوضع الراهن Status-quo ومقاومة قوى التفكك وعوامل التحلل فى الإمبراطورية ، ولا تعود تجد لنفسها مصلحة فى الحروب الكثيرة إلا الدفاعية منها لتفرض بها « سلامها » . هذه الملامح تعنى أن الدولة قد بلغت مرحلة النضج أو الاستقرار التى كل هدفها السلامة والأمن والأمان . إلا أن مرحلة الشيخوخة أو الانحدار أو ربما حتى الانهيار تحل بالضرورة حين تعجز الدولة عن المحافظة على توسعاتها . فتأخذ المستعمرات تنسلخ عنها بالحرب واحدة بعد أخرى ، إلى أن تنتهى الدولة إلى الانعطاف على نفسها فى قوقعتها الوطنية الأولى من حيث بدأت ، فتتم بذلك دورة جيوبوليتيكية كاملة فى تاريخ حياتها[1] .

المنحنى البريطانى

الآن ، فإن هذه الدورة لا تكاد تنطبق كما تنطبق على تاريخ حياة الإمبراطورية البريطانية ، بل إنها لتعد النموذج الكلاسيكى لها والبرهان المثالى عليها . فكجزيرة إزاء

(١) S. Van Valkenburg, Elements of political geography, N. Y., 1939, p. 14 et seq.

القارة ، منها وليست فيها ، نجحت بريطانيا فى ظل عزلتها وراء المانش فى تكوين وحدتها الداخلية مبكرا حوالى القرنين ١٤ ، ١٥ ، أى معاصرة تقريبا لوحدة فرنسا وسابقة زهاء أربعة قرون لوحدة ألمانيا أو إيطاليا (دور النشأة) .

وبفضل جزريتها وبيئتها الملاحية انطلقت عبر البحار لتكون إمبراطوريتها العالمية وخاضت حروبها الاستعمارية وصراعات القوى حتى وصلت إلى نقطة السمت عقب الحروب النابليونية حين انفردت باحتكار القوة العالمية وبدأ « قرن بريطانيا » (دور الشباب والتوسع) . ومنذ حوالى منتصف القرن ١٩ دخلت مرحلة النضج ، حيث نشرت « السلام البريطانى » بديبلوماسية البوارج المسلحة ، وكان كل همها المحافظة على الوضع الراهن وتجميده لأنه يعطيها كل شيء دون أن تخسر أى شيء .

وهنا بالدقة برزت استراتيجيتها السياسية التقليدية والأثيرة ، سياسة توازن القوى ، لتحل محل سياسة القوة والمجابهة . فلا تنغمس ما استطاعت فى حروب القوى الصاعدة على القارة ، وإنما تضاربها ببعضها البعض لتظل جميعا ضعيفة دائما لا تهدد مكانتها ، ولا تتدخل هى إلا مضطرة حين يهدد أحد هذه المكانة ، كما فعلت من قبل ضد فرنسا أكثر من مرة وفيما بعد ضد ألمانيا مرتين . وتلك كانت السياسة الانتهازية التى أكسبتها مرارة وتشكك القارة .

وفى تلك الاستراتيجية كان للصراع الأوربى نمط جغرافى محدد تحتل فيه بريطانيا موقعا محددا كذلك . فلقد كان هذا الصراع يستقطب أساسا فى ثلاثة مراكز تؤلف « مثلث القوة » الشهير فى أوربا : بريطانيا ــ فرنسا ــ ألمانيا . وفى هذا المثلث كانت بريطانيا هى الرأس والقوة السائدة ، بينما داخل رؤوسه كانت الدول الصغرى مثل بلجيكا وهولندا تمثل منطقة الخمود أو التحييد التى تتقابل حتى تتحايد أو تتصادم عندها الضغوط . من هنا كانت سياسة بريطانيا التقليدية من ضمان حياد بلجيكا ، التى شبهتها شكلا وموضوعا بمسدس مصوب إليها . ومن هنا أيضا كانت بلجيكا وهولندا هى « أرض المعركة فى أوربا battlefield of Europe » فى كل مجابهات الأقطاب الثلاثة ، وهى المجابهات التى نجحت بريطانيا فى الانتصار فيها على القطبين المنافسين واحدا بعد الآخر .

على أن الحروب العديدة العنيفة التى خاضتها بريطانيا على القارة وفى المستعمرات عبر البحار كانت تستنزف طاقتها بانتظام وتمتص حيويتها بالتدريج ، وبخاصة الحربان

العالميتان اللتان خرجت منهما مضعضعة رغم النصر ، لتفقد فى النهاية معظم الإمبراطورية ثم كلها ، وليكتمل تقلص حجمها ووزنها النسبى وكذلك ظلها ونفوذها الدولى ، لتنزلق وشيكا إلى « برتغال كبرى » أو « أمريكا صغرى » أو إلى « رجل أوربا المريض » الجديد . وتلك بكل أعراضها وأمراضها هى مرحلة الشيخوخة والانحدار لا جدال ، وهى المرحلة التى تفسر عودتها صاغرة إلى القارة الأم فى وحدة السوق المشتركة والوحدة الأوربية لتقف فى الصف مع القاريين بعد طول ابتعاد واستعلاء[1] .

الولايـات المتحـدة

يبدأ تاريخ الولايات المتحدة كدولة منذ حرب الاستقلال فى عام ١٧٨٣ أى فى أواخر القرن الثامن عشر ، وقبيل الثورة الفرنسية . فقد خرجت من هذه الثورة على الاستعمار البريطانى برقعة محدودة بالولايات الثلاث عشرة ومحددة بجبال ألليجنى ثم فى مرحلة تالية بالمسيسبى ، وبقوة بشرية لا تزيد على الأربعة ملايين نسمة ، فكانت تلك هى النواة النووية التى لم تلبث أن انفجرت فى نمو عارم لتصل فى النهاية إلى أن تصبح أعظم قوة فى العالم . وفى هذا النمو والتاريخ تشبه الولايات المتحدة بعض خطوط عريضة من توسع الروسيا من ناحية ومن تاريخ بريطانيا من ناحية أخرى .

فكما بدأت الروسيا من النواة الأوربية غرب الأورال ثم انطلقت شرقا على حساب العناصر المغولية حتى الهادى ، انطلقت الولايات المتحدة من نواتها شرق ألليجنى والأبلاش والتى ظلت قابعة فيها اكثر من قرنين ، انطلقت بسرعة مماثلة ولكن فى اتجاه عكسى كصورة المرآة enantiomorph صوب الغرب حتى الهادى ، وعلى حساب السكان الأصليين من الهنود الحمر Amerinds . ولهذا فلو عد أحدهما « استعمارا » لوجب أن يعد الآخر كذلك . وكلاهما إذن حقق أبعادا قارية هائلة وتوسع توسعا قاريا بكل وضوح ، إلا أن الروسيا بعد هذا لم تتعد قاريتها ، بينما قفزت الولايات المتحدة إلى البحار والمحيطات المجاورة .

أما مع بريطانيا ، فتاريخ الولايات المتحدة القصير يشبه فى مراحل توجيهه الجغرافى تاريخ بريطانيا الأكثر طولا . فقد مرت الولايات المتحدة ـ كبريطانيا ـ أولا بالمرحلة

(١) جمال حمدان ، بين أوربا وآسيا ، دراسة فى النظائر الجغرافية ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص٢١٥ - ٢٦٦ .

الاستعمارية حتى حرب الاستقلال ، ثم بالمرحلة القارية فى أيام لنكولن ، وأخيرا بالمرحلة الجزرية حين توحدت تماما وأدركت وضعها بالنسبة للعالم القديم[1] .

مراحـل التوسـع

مرحـلة القـارة

ويمكن أن نتعرف فى توسع الولايات المتحدة[2] إلى حدودها الحالية على ثلاث مراحل واضحة : مرحلة القارة ، مرحلة الهادى ، مرحلة الكاريبى . فالمرحلة القارية ١٧٨٣ ــ ١٨٥٠ ، حوالى النصف الأول من القرن التاسع عشر تقريبا ، بدأت بشراء لويزيانا ١٨٠٣ من فرنسا نابليون ، ثم بالاستيلاء على فلوريدا من إسبانيا فى ١٨١٩ ، ثم بضم تكساس (جمهورية النجم الأوحد) فى ١٨٤٥ من المكسيك (إسبانيا سابقا) . وبهذا وبذاك وصلت الجمهورية المتمددة من المسسبى إلى الروكى ومن البحيرات إلى خليج المكسيك . وبعد ذلك مباشرة سوت حدودها مع كندا البريطانية بعد صراع طويل حول أوريجون ١٨٤٦ ، ثم بنفس السرعة انتزعت كاليفورنيا من المكسيك فى ١٨٤٨ ، واستكملت آخر حدودها مع المكسيك بشراء رقعة صغيرة هى جيب جاسدن فى ١٨٥٣ .

ومعنى هذا أن الولايات المتحدة ظلت متقوقعة تتشرنق على نفسها فى حدود نواتها الأطلسية الضئيلة زهاء قرنين ، بينما اكتسحت بقية القارة فى نصف قرن فقط ، بل بالأحرى فى عقد واحد مفعم منذ ضم تكساس فى ١٨٤٥ ! كأنما كانت سرعة الانقضاض وظيفة لطول مدة الكمون والاختمار . ومعناه أيضا أن الولايات المتحدة فى حدودها الحالية على القارة لايزيد عمرها اليوم عن قرن لا أكثر.

والمهم أنها بذلك وصلت إلى الهادى لتصبح دولة محيطين شاسعة الامتداد والرقعة ــ دولة قارة تقريبا . وكان أغلب هذا التوسع أشبه مايكون فى فراغ ، وكانت طلائع التعمير الفعلى والهجرة (« اذهب غربا أيها الشاب ، اذهب غربا ! Go west, young man, go west ») غالبا ما تسبق الضم السياسى الرسمى . كذلك سيلاحظ أن أكبر صراع

(١) المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٢) جوبليه ، ص ٤٤ ـ ٥٢ . الجيوبولتيكا ج ١ ، ص ٢٠٢ ــ ٢٠٥ ، ٢٢٥ ـ ٢٢٧ .

فى هذا التوسع كان مع المكسيك التى تضاءلت وانكمشت رقعتها كثيرا بالتالى ، ولهذا ستظل علاقتها مع الولايات متوترة حتى العقود الأولى من القرن العشرين .

ولاشك أن تحقيق الوحدة أو الدولة الواحدة على مثل هذا المقياس الضخم لهو طفرة كبرى فى تاريخ التوسعات السياسية . فقد كان من الممكن أن تنتهى إلى أن تتقاسمها أكثر من دولة واحدة كما حدث فى أمريكا الجنوبية . بل لقد بدأت الدولة اتحادا كونفدراليا قبل أن تتحول إلى اتحاد فيدرالى . ومن قبل ذلك شك الكثيرون فى إمكان قيام دولة واحدة على هذا المقياس المديد بل المريد . ولكن بساطة التركيب الجغرافى نسبيا ، وانفساح الوحدات الطبيعية كثيرا بالمقارنة بأمريكا الجنوبية ، مع اتفاق فترة التكوين السياسى مع عصر القطار ، هى من العوامل التى تفسر هذه الوحدة القارية النادرة .

وفى هذا المعنى ، يصح أن نقرر أن الولايات المتحدة هى من صنع القطار ، وبنت عصر البخار . وليس من الصدفة أن الخطوط الحديدية عبر القارية بدأت تظهر ثم تتضاعف فى الولايات خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ولو قد سبق تكوين وتبلور الولايات سياسيا عصر السكة الحديدية كما حدث فى دول أمريكا الجنوبية ، أو لو قد تأخر هذا العصر عما حدث بالفعل ، فلربما كانت الولايات المتحدة اليوم عدة دول لادولة واحدة . ولكن الواقع أن مساحة الولايات التى بدت أكثر مما ينبغى فى البداية ، يتضح اليوم أنها جاءت من المقياس الأمثل بالنسبة لنظم النقل والمواصلات الحديثة[1] .

مرحـلة الهـادى

هذا عن مرحلة القارة . أما عن مرحلة الهادى ، فقد اقتيدت الولايات المتحدة تلقائيا إلى أضخم محيط بعد أن أصبحت أضخم دولة تطل عليه . وتحتل المرحلة النصف الثانى من القرن التاسع عشر . فبعد الحرب الأهلية بدأت الولايات بشراء ألاسكا وجزر ألوشيان من الروسيا فى صفقة بخسة عدت فى ذلك الحين حماقة سميت ــ باسم مهندسها ــ « حماقة سيوارد Seward Folly » ، وذلك على أساس أنها ليست إلا « صندوقا من الجليد » . وسنرى فيما بعد مفارقة مثيرة حين يتحول هذا الصندوق من الجليد إلى صندوق من الذهب حقيقة ومجازا ، معدنيا واستراتيجيا !

---

(١) هويتلزى ، ص١١- ١٢ .

ثم بدأت الولايات تتوسع على طول الجزر الباسيفيكية على طريق الشرق الأقصى ، وذلك على حساب إسبانيا غالبا . فمن قبل استولت على جزر هاولاند وبيكر فى ١٨٥٧ ، ثم على ميدواى فى ٥٩ ـ ١٨٦٧ ، ثم على جوام وويك وبعض جزر من مجموعة فينكس فى التسعينات . وفى نهاية القرن ضمت هاواى ملتقى طرق الهادى ثم جزر ساموا . إلى أن وصلت فى خاتمة القرن والمطاف إلى الفلبين فانتزعتها بعد حربها مع إسبانيا وضمتها فى عام ١٨٩٩ ، لتنقلها فجأة من العصور الوسطى إلى القرن العشرين[1] . وستظل الولايات تستعمر الفلبين حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حين منحتها ـ بمحض إرادتها وكمثال على « فروسية » السياسة الأمريكية كما تلح دائما ـ استقلالها فى ١٩٤٦ .

مرحلة الكاريبى

أما المرحلة الثالثة مرحلة الكاريبى فتبدأ مع القرن العشرين لتمتد فى عقوده الأولى . ففى نهاية حربها مع إسبانيا ، استولت الولايات على كل من بورتوريكو وكوبا فى ١٨٩٨ ، ولكنها منحت كوبا استقلالها مباشرة بعد أن احتفظت لنفسها فيها بقاعدة بحرية فى جوانتانامو فى ١٩٠٣ . أما بورتوريكو فقد ظلت تابعة لها منذ ذلك كمستعمرة محمية إلى أن أصبحت كومونولث فى ١٩٥٢[2] . ثم حصلت الولايات على منطقة القنال فى بنما ١٩٠٣ لتشق فيها بعد ذلك القنال الذى أصبح من أخطر النقط الاستراتيجية فى تركيبها كقوة عالمية . وقد استدعت القناة تأمين ضلوعها الشرقية فى جزر الكاريبى ، فكان شراء جزر فرجين « جبل طارق أمريكا »[3] من الدنمرك ، ومن بقايا الاستعمار البحرى الصغير القديم ، فى ١٩١٧ . هذا عدا ضم بعض جزر صغيرة فى الأرخبيل واستئجار البعض الآخر من نيكاراجوا .

قوة بر وبحر

وسنرى من هذا التوسع البحرى الشاسع أن الولايات قد خرجت من الدور القارى إلى الدور البحرى المحيطى بصورة حاسمة ، ولم تعد قوة بر بل وقوة بحر أيضا حتى كاد

---

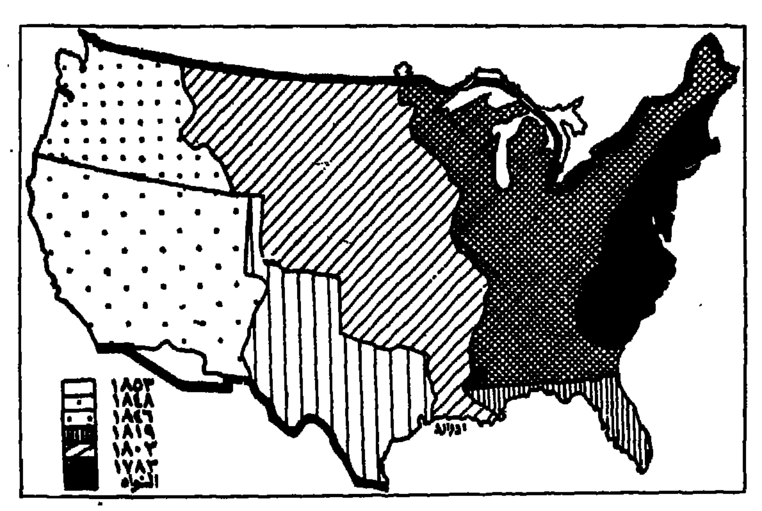
(١) جوبليه ، ص ٥١ .

(٢) كول ، ص٢٥٩ .

(٣) بيكلز ، ص ٢٤٦ .

الهادى ـ الشرقى على الأقل ـ أن يكون بحيرة أمريكية ، بينما تقاسمت السيطرة على الأطلسى مع بريطانيا . وستصبح منطقة الدفاع الغربى عن الولايات تتألف من مثلث رؤوسه هاواى ـ ألاسكا ـ بنما ، بينما سيصبح الكاريبى برمته خط الدفاع الأمامى عن بنما نفسها .

كذلك سنلاحظ أن هذا التوسع البحرى هو استعمار لاشك فيه ، واستعمار استراتيجى بالتحديد فى الهادى ، واستراتيجى اقتصادى فى الكاريبى ، هدفه أن يضمن نقطا وقواعد بحرية لتكون خطوط الدفاع الأمامية عن الدولة . هذا وتبلغ مساحة ممتلكات الولايات المتحدة خارج كتلتها القارية نحو ربع مساحتها الكلية .



شكل (١٩) نمو الولايات المتحدة على القارة . الموجة المدية ، في نصف قرن فقط ، حملت الدولة الجديدة من المسيسبي إلى الهادي ، بعد أن أنفقت قرنين في نواتها النووية

ولاشك أن هذا التوسع البحرى ـ الهائل بأبعاده وإن لم يكن بمساحته ـ هو نتج عصر السفينة البخارية . ولو أن نشأة الولايات المتحدة السياسية قد سبقت بقرون ، فليس من المحتم أنها كانت بمستطيعة أن تتوسع مثل هذا التوسع ـ تماما كما رأينا بالنسبة لرقعتها القارية ذاتها . والمغزى الجغرافى والاستراتيجى لهذا التوسع وذاك هو أن أمريكا جزيرة عظمى معزولة بين أعظم محيطين على الكرة الأرضية ، مجموع اتساعهما نحو ٨٠٠٠ ميل أى أقل قليلا من ثلث محيط الأرض ... وأى تهديد لها إنما يأتى من البحر سواء شرقا أو غربا ، ولهذا فالدفاع عنها لايكون إلا بالقوة البحرية .

وفى نفس الوقت فإن مثل هذا الاطار المحيطى السحيق ما كان يمكن لأى قوة أن تسيطر عليه إلا أن تكون قوة كبرى ذات قاعدة أرضية هائلة حتى تستطيع أن تجد من الموارد والفائض الحربى ما يمكنها من ذلك .ولو أن أمريكا كانت جزيرة صغيرة المساحة لما زاد دورها كثيرا عن دور هاواى أو غيرها من جزر الهادى الضائعة فى خضمه الشاسع . وتلك جيوبولتيكيا آفة الجزر الصغيرة فى وسط محيطات ضخمة[1] . وإنه لمنطقى جدا أن يكون عرض الدولة التى تولد فى رحم بحرى عرضه ٨٠٠٠ ميل ، فى حدود لا تقل عن ٣٠٠٠ ميل .

وفى النتيجة فإن الولايات المتحدة تخرج بكيان سياسى أدنى إلى أن يكون وسطا بين طبيعة الاستعمار البحرى البريطانى والتوسع القارى الروسى ، أو قل هو يجمع بين طبيعتيهما معا . فبكتلتها القارية المندمجة المتماسكة وبما تمتاز به من دفاع بالعمق ، تشبه الولايات المتحدة الروسيا من حيث إنها تستطيع أن تنسحب بأى عدو غاز إلى نواتها الداخلية غرب الأبلاش أو شرق الروكى حتى تشترى الزمان بالمكان . هذا بينما تجعلها مستعمراتها البحرية الجزرية المترامية قريبة من تركيب الإمبراطورية البريطانية المفتتة المشتتة عبر البحار .

كذلك لابد أن يسترعى انتباهنا فى توسع الولايات المتحدة سواء فى بيتها القارى أو فى مستعمراتها البحرية ظاهرة فريدة قل أن نجد لها مثيلا فى الدول والقوى الأخرى . تلك أعنى ظاهرة « الشراء والاستئجار » الاقليمى . فجزء كبير جدا من رقعة الولايات المتحدة اكتسب بالشراء أو بالاستئجار- شراء ألاسكا وألوشيان ، لويزيانا ، جاسدن ، جزر فيرجين ، واستئجار جوانتانامو ، وجزر نيكاراجوا فى الكاريبى ، وحديثا استئجار قواعد عديدة فى الأطلسى . ولعل هذه الظاهرة الغريبة مرتبطة بطبيعة العالم الجديد كجبهة ريادة سياسية ضخمة وكإقليم جيوبولتيكى جديد يعمر ويستقر دوليا لأول مرة .

النمو المادى

إذا كانت هذه هى السرعة المذهلة التى تم بها توسع الولايات المتحدة الكاسح أرضيا واقليميا ، فإن نموها المادى والاقتصادى لم يأت بأقل سرعة أو اندفاعا . فقد

---

(١) جون موجى ، ص ١٢٤ .

بدأت باقتصاد زراعي واسع ، وبمجتمع ريفي بحت مخلخل . وظلت طوال القرن التاسع عشر دولة زراعية أساسا تصدر الخامات وتستورد المصنوعات من العالم القديم ، حقل أوربا باختصار . وتمثل حضارة ريفية غير مدنية . ولكن فى النصف الثانى من القرن كانت الصناعة والمدنية تثور التركيب الاقتصادى والحضارى[١] .

حتى إذا ماكان القرن العشرون نجدنا بإزاء أعظم وأغنى دولة صناعية وأضخم قوة حضارية حديثة . وهى فى الوقت الحالى تقود العالم بسهولة فى كل مجالات الانتاج وتحتكر الأولوية والصدارة فى أغلب قطاعاته . كما تجاوزت أخيرا علامة المائتى مليون فى السكان . وبذلك تكون قد تضاعفت ، فى ١٧٠ سنة منذ ثمانينات القرن الثامن عشر ، أكثر من ٥٠ مرة[٢] .

والولايات بحكم رقعتها وامتداداتها تمتاز بالتنوع الثرى والغنى فى أقاليمها الجغرافية الطبيعية ومن ثم الاقتصادية الانتاجية ، فتكاد تبلغ حد الكفاية الذاتية فى أغلب جوانب الانتاج إلا أقلها ــ المدارى فى الزراعة ، والبترول فى المعادن . ومع ذلك فالكاريبى يعوضها فى الناحيتين إلى حد أو آخر . وكنتيجة لهذه الكفاية الذاتية كثيرا مانجدها فى عديد من خطوط الانتاج أعظم منتج ؛ ولكنها أيضا أعظم مستهلك ، ومن ثم فنسبة تجارتها الخارجية محدودة بالقياس إلى إنتاجها . ومن المدهش أن نعلم أن حجم تجارتها الداخلية يعادل حجم مجموع التجارة الخارجية للعالم أجمع ثلاث مرات ونصف المرة ![٣] ومع ذلك فتلك النسبة من التجارة الخارجية كفيلة وحدها بأن تجعلها مع كثير من الدول أعظم مصدر عالمى أو مستورد !

والضوابط الكامنة خلف هذه الانقلابات الجذرية فى قوة الولايات المتحدة واضحة بما فيه الكفاية . فهى ، أولا ، قد بدأت حضاريا من حيث انتهت أوربا ، أى أنها أخذت عنها نقاط قوتها وتخلصت من مواطن ضعفها . وفى بيئة بكر ، كان هذا جديرا بأن يغل قمة الحضارة الحديثة .

وثانيا ، ولدت الولايات الحديثة فى ظل الانقلاب الصناعى ، فهى لم تعرف عصرا إقطاعيا بمعوقاته وأثقاله الاجتماعية والاقتصادية ووقر التقاليد وعدم المرونة الطبقية ، بل

---

(١) A.P. Brigham. The United States of America, L.U.P., 1927.

(٢) كول ، ص ٢٦٠ .

(٣) E.G. Bowen, "The Geog. of Nations". Geog., Jan. 1963, p. 10.

تحررت من ثقل الماضى كله واستبدلت بالاقطاع والعبودية الريادة « والفردية العازمة rugged individualism » والليبرالية . باختصار ، « ولدت وفى فمها ملعقة بورجوازية » كما عبر البعض .

ثالثا ، وأخيرا ، ليست الولايات دولة بالمعنى الأوربى ، بل هى دولة قارة تفوق أوربا مساحة وموارد وإن لم يكن سكانا . ومحصلة هذا جميعا أن أمريكا بدأت ابنة أوربا ، بدأت وهى « أوربا الصغرى Little Europe » ، فإذا بها تنتهى اليوم إلى أن تتفوق على أمها قامة وقوة وتطورا ، وأن تتحول فى الواقع إلى « أوربا الكبرى Greater Europe » .

مجـالات النفـوذ

وفى ضوء هذا الكيان العملاق كان لابد أن تتحول الولايات إلى قطب غلاب من الاشعاع السياسى والنفوذ الاقتصادى ، يرسم حوله دائرة كهربية عظمى تدور فى فلكها كثير من الدول وتقع فى مجالها المغنطيسى جيوبولتيكيا واقتصاديا . وفى إطار التركيب « الجيوديزى » للقارات ، لم يكن مفر من أن يكون العالم الجديد هو ذلك المجال . فمنذ وقت مبكر تجد الولايات نفسها كتلة عملاقة وسط مجموعة من الدول الأقزام ـ كجليفر فى بلاد الأقزام سياسيا ، أو كسمكة القرش وسط السردين كما قيل . فهى تمثل خير تمثيل تطرف « الانحدار الجيوبوليتيكى geopolitical gradient » فى العالم الجديد .

خذ مثلا جارتيها الشمالية والجنوبية : إما دولة صغيرة أو متخلفة . لاتزيد أى منهما فى حقيقتها عن أن تكون دولة حدية حاجزة أو خطوط دفاع أمامية يمكن أن تكون بمثابة ماصة للصدمات shock-absorber وعمقا استراتيجيا فى الحروب ومجالات نفوذ فى السلم . ولذا فإن الحدود معهما حدود غير محفورة « Our unguarded frontier » ـ مثل نادر ! ـ والحواجز الجمركية عبرها أقل ما يمكن .

وليست كندا إلا امتدادا شماليا شريحيا بحتا للولايات سواء جغرافيا أو بشريا . وهى إذا كانت تعانى من الصراع بين القصور التاريخى والجاذبية الجغرافية ، فيشدها التاريخ إلى بريطانيا وتشدها الجغرافيا إلى الولايات ، فإن المستقبل للجغرافيا . وكندا تنزلق بالتدريج إلى فلك الولايات . وأما المكسيك فبعد علاقات متوترة فى القرن التاسع عشر أصبحت اليوم ـ اقتصاديا ـ كوكبا يدور بهدوء واستكانة فى فلك الشمس الأمريكية .

تبقى أمريكا اللاتينية التى فتتت ذريا فى أمريكا الوسطى ومزقتها الجغرافية المعقدة والتاريخ الإسبانى ـ البرتغالى المزدوج فى أمريكا الجنوبية على محور طولى بعكس أمريكا الشمالية التى قسمت عرضيا . هنا ـ سياسيا ـ الإمبراطورية الأمريكية بحق وإن يكن دون الاسم ، وهنا ـ اقتصاديا ـ المجال الحيوى للولايات ولو رفض التشبيه !

فمنذ أوائل القرن التاسع عشر حين أعلن مبدأ مونرو فى ١٨٢٣ ليستبعد دول أوربا أو العالم القديم من التدخل فى شئون العالم الجديد ، كان هذا بمثابة إعلان بأن هذا الأخير هو منطقة نفوذ الولايات المتحدة . وحين قامت دول أمريكا اللاتينية بالثورة وحرب الاستقلال ـ على غرار النمط والمثل الذى قدمته الولايات نفسها من قبل ـ وأرادت القوى الأوربية الاستعمارية أن تجتمع فى « حلف مقدس » لتعيدها إلى حظيرتها ، أصدرت الولايات المبدأ وأعلنت أنها ستمنع المحاولة بالقوة .

ومنذ ذلك الحين انفصلت اللاتينية سياسيا عن الدائرة الكهربية للعالم القديم لتكون مع الولايات دائرة أخرى جديدة ، أو بالأحرى لتقع فى دائرة الولايات . استبدال لوصاية الأم بوصاية الأخت الكبرى يعنى ! ومنذ ذلك الحين تراوح مبدأ مونرو ـ تطبيقا ـ بين سياسة « العصا الغليظة ، وحسن الجوار » . ولطالما تدخلت الولايات عسكريا فى كل هذه الوحدات بصورة لاتختلف عما تفعل الدول الاستعمارية التقليدية فى مستعمراتها . ولم تكد تفلت وحدة فى أمريكا اللاتينية من هذا التدخل سواء ديبلوماسيا أو عسكريا عدة مرات على الأقل .

ولقد شددت الولايات قبضتها على اللاتينية منذ وبفضل قناة بنما . وأصبحت الاستثمارات والاحتكارات الأمريكية فى دولها هى ـ دون أرقام ـ أساس اقتصادياتها المتخلفة ، وابتلعتها منطقة الدولار ، وانتزعتها بذلك من احتكارات الرأسمالية البريطانية التى كانت تلعب الدور الاقتصادى الرئيسى فيها خلال القرن التاسع عشر . ومنذ ذلك الوقت ودور اللاتينية دور مزرعة أو منجم للولايات بمثل ماأن الولايات مصنع لها ، نفس العلاقة ـ يعنى ـ بين أوربا مثلا وبين أفريقيا .

وفى الوقت الحالى لاتزيد اللاتينية ـ موضوعيا ـ عن أن تكون تذييلا أو ذنبا اقتصاديا للولايات[1] ، تتألف من مجموعة من « جمهوريات الموز والانقلابات » ـ كما

(١) هويتلزى ، ص ٨٣ .

ينعتونها ، وتؤلف ما وصف جديا بإمبراطورية الدولار . وتهكما باستعمار الكوكاكولا Coca-Colonisation [1] ، وما تسميه أمريكا اللاتينية بإمبريالية اليانكي Yanqui imperialismo . أما الوضع السياسي فلعله ليس أفضل بكثير ، لاسيما في ظل منظمة اتحاد الدول الأمريكية Pan-American Association .

وفي كل الأحوال فإن الولايات تحب أن تنظر إلى أمريكا اللاتينية على أنها « حديقتها الخلفية » الخاصة أو « فناؤها الداخلي » المغلق back-yard . وإن من الكتاب والعلماء الأمريكيين أنفسهم من يعترف صراحة بأن دول أمريكا اللاتينية عامة ، والكاريبي خاصة ، مستعمرات اقتصادية أمريكية وإن كانت مستقلة سياسيا . بل هناك منهم من يذهب إلى أن تبعية دول الكاريبي بالذات ، والقائمة بصفة فعلية وإن لم يكن بصفة اسمية ، إنما هي حتم جغرافي لامفر منه ، بحسبانها أقزاما تعتمد اعتمادا مطلقا على العملاق المتاخم ، وأن الاستقلال لا يمكن أن يزيد يوما عن خرافة قانونية بحتة [2] !

لهذا فلعلنا لانبالغ أو نتطرف إذا شخصنا علاقة التبعية الاقتصادية والارتباط السياسي بين أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة بأنها نوع مبكر وخاص من « الاستعمار الاقتصادي » أو « الاستعمار الجديد » بمعناه الحديث . ومن هنا فالاستعمار الجديد ليس جديدا تماما كما قد نتصوره ، فالنسخة الأمريكية منه قد لاتقل اليوم عن القرن سنا . وإذا كانت الولايات لا تعترف ولا تسمح دستوريا بامتلاك « مستعمرات » ، فقد نكون أقرب إلى الحقيقة إذا قلنا إنها في اللاتينية تمارس الإمبريالية دون الاستعمار .

تلك في خطوطها العريضة صورة الولايات المتحدة كقوة عالمية حين خرجت من عزلتها لتظهر على مسرح العالم القديم في العقود الأولى من القرن العشرين ، لتبدأ في الحقيقة مايمكن أن يعد في تاريخها مرحلة توسع رابعة ، وإن تكن سياسيا لا إقليميا ، وإمبرياليا وليس كاستعمار بالمعنى الفني .

وفي هذه العلاقة يبرز للولايات دائما وبصفة خاصة بعدان محوريان يتعامدان في زاوية قائمة كبرى تمثل هي رأسها . فهناك المحور العرضي ويمتد نحو الشرق عبر الأطلنطي في أوربا بعامة وأوربا الغربية بخاصة . ثم هناك المحور الطولي ويترامى نحو الجنوب عبر

---

(١) L. Dudley Stamp. Applied Geog., Pelican, 1960, p. 188.

(٢) هويتلزي ، ص ٤٧٩ - ٥٨٤ .

الكاريبى فى أمريكا اللاتينية . والأول محور معتدل بارد ، والثانى أغلبه مدارى حار . الأول هو محور التاريخ ، والثانى محور الجغرافيا . الأول الجذور ، والثانى الفروع . الأول هو العرق الأبيض النقى الأب ، والثانى العرق الأبيض المخلط ولكن مع بقاء القرابة العائلية العامة . والملاحظ بالفعل أن الزاوية بضلعيها تكاد تشمل معظم كتلة العالم الأبيض باستثناء النويات المحدودة المتطوحة . كذلك فإذا كانت أطراف المثلث الثلاثة قد تبادلت السيطرة والتبعية أو الوصاية والقوامة عبر قرونها القليلة ولكن المفعمة ، فقد آلت الوصاية أو الزعامة تقريبا على الطرفين الآخرين إلى الولايات وإن كانت بدرجات متفاوتة للغاية بالطبع .

والطريف ، بعد ، هو أن المحورين قد يشدان أحيانا أو مؤقتا كل فى اتجاه مختلف ، دلالة على وجود بعض التعارض الكامن بينهما . فأثناء حروب الاستقلال فى الأمريكتين على حد سواء والصراع من أجل استقلال العالم الجديد عن القديم ، كانت الولايات تغلب المحور الرأسى أى مصالح أمريكا اللاتينية على المحور العرضى أو مصالح أوربا . أما الآن فى ظل حلف الأطلنطى مثلا وفى الصراع الكتلى من أجل القوة العالمية ، فإن الغلبة والأولوية هى لامفر للمحور العرضى ، مثلما اتضح فى أزمة جزر فوكلند حيث لم تستطع أن تظل طويلا على الحياد بين بريطانيا والأرجنتين فأخذت صف الأولى دون أو ضد الأخيرة .

اليابان (1)

بريطانيا الشرق الأقصى

« بريطانيا الشرق الأقصى » هى ، وفى أكثر من معنى ذلك . فهى مثلها أكبر أرخبيل جزرى على رصيف قارة لايفصله عنها إلا مضيق ضيق ، وهى مثلها لاتزيد كثيرا عن المائة ألف ميل مربع (١٤٣ ألفا) . وإذا كانت اليابان تترامى عبر قطاع أكثر امتدادا من بريطانيا وأكثر قربا من المدار ، فإنهما تشتركان جزئيا فى بعض خطوط العرض . وكل منهما بيئة جزرية بحرية مثالية كاملة ، يفتحها تيار دافئ ، وتحيط بها الأسماك من كل الجهات . ولأن القاعدة الأرضية الزراعية فى اليابان أشد ضآلة منها فى

---

(١) الجيوبولتيكا ، ج٢ . ص٩ - ٨٠ ، كريسى ، ص ١٦٦ - ١٧٩ .

بريطانيا ، بينما أن المد السكانى فيها أشد علوا ، فهى تلفظ أبناءها إلى البحر بدرجة ملحوظة .

كذلك فإن كلا منهما تلقى تعميره وحضارته أصلا من القارة ، ثم عرف فترة من السيطرة على أجزاء من القارة . فقد غزت اليابان كوريا فى القرن السادس عشر ، بمثل ماملك الإنجليز غرب فرنسا فى العصور الوسطى . ثم دخلت كل منهما فترة عزلة ، ففى مقابل « العزلة الرائعة » التى عرفتها بريطانيا حينا ، فرض الاقطاع اليابانى الحاكم على اليابان « فترة العزلة Seclusion Period » الشهيرة التى ـ حماية لنفسه ـ حرم فيها على اليابانيين الاتصال بالعالم الخارجى لنحو قرنين تسبق بداية عصرها الحديث .

أكثر من هذا ، كان الذى كسر هذه العزلة وتلك عامل لايخلو من تشابه : غزو الأرمادا هناك ، واقتحام الكومودور بيرى هنا . بل أكثر من هذا أيضا ، إذا كانت كشوف إسبانيا للعالم الجديد هى التى أعطت بريطانيا موقعها الجغرافى البؤرى الجديد ، فإن ظهور أمريكا على الجانب الآخر من الهادى هو الذى أعطى اليابان موقعها الحاسم الجديد بعد أن كانت مثلها من قبل فى نهاية العالم وعلى هامش المعمورة . وفضلا عن هذا فقد وفر الموقع الجزرى الحماية الطبيعية لكل منهما . فكما لم يستطع أحد أن يغزو بريطانيا منذ الغزو النورماندى ، لم يطأ أحد أرض اليابان منذ محاولة المغول الفاشلة بقيادة كوبلاى خان فى القرن الثالث عشر إلا فى الحرب العالمية الأخيرة .

لا ، ولا ينتهى التناظر عند هذا الحد . فكما كانت بريطانيا أسبق دول أوربا إلى التصنيع وأولاها تمدينا ، فكذلك كانت اليابان أولى دول آسيا إلى الأخذ الكامل بالحضارة الحديثة والصناعة المتطورة وبالتالى أدوات القوة الجديدة . وبدأ هذا بعد أن فتح بيرى موانيها للغرب فى ١٨٥٣ ، وسرعان مادخلت عصر الانقلاب الصناعى ، ربما قبل بعض دول من أوربا نفسها . وفى هذا المعنى صح أن يقال إن اليابان هى أكثر آسيا أوربية بمثل ما أن الروسيا أكثر أوربا أسيوية .

كذلك تشترك اليابان مع بريطانيا فى أن كلا منهما بصورة عامة أكثف أو من أكثف وحدات قارته سكانا ، إلا أن اليابان الآن ضعف بريطانيا سكانا . وليس غريبا بعد ذلك أن كلا منهما يعتمد فى اقتصاده الجديد اعتمادا كليا على الاستيراد والتصدير ، استيراد الخام الزراعى والمعدنى على السواء ، وتصدير الصناعات بكل مراحلها وأنواعها . ومن ثم فكل منهما أبعد مايكون عن الكفاية الذاتية ، ويتوقف مصيره على

التجارة عبر البحار . بل إن هذا لأوضح فى اليابان منه فى بريطانيا ، لأن الأولى أفقر كثيرا فى مواردها الزراعية وكثيرا جدا فى مواردها المعدنية خاصة الفحم والحديد .

ومن الطبيعى بعد ذلك جميعا أن تخرج اليابان كقوة بحرية مثالية كاملة إلى الاستعمار ، وأن تتطلع فى وقت ما إلى السيادة العالمية أو شبه العالمية . وفى هذا تقف اليابان كالقوة الأسيوية الوحيدة التى ـ دعك من أن تخضع للاستعمار الأوربى ـ مارست الاستعمار على قدم المساواة معه . بل وستهزمه أكثر من مرة لحين أو لآخر ، وبهذا كانت أول قوة غير أوربية تهزم قوى أوربية فى التاريخ الحديث هزيمة حقيقية .

ولكن اليابان تختلف بعد هذا عن نظيرتها فى نواح عدة . فاليابان ، لأمر ما ، لم تعرف الهجرة بالجملة إلى ما وراء البحار . ولذلك سيظل كل استعمارها محصورا فى دائرة ـ على سعتها الهائلة ـ محلية أساسا لاتخرج عن حوض الهادى الغربى ، بعكس الاستعمار البريطانى الذى لف الكرة الأرضية لفا . وربما كان جزءا من السبب فى هذا أن اليابان خرجت إلى الاستعمار بعد أن كانت أوسع أبوابه قد أغلقت ولم يبق إلا فتات المائدة .

التوسع القارى والمحيطى

وأخيرا فإن التوسع الاستعمارى اليابانى ظل منذ بدايته موزعا بين هدفين أساسيين يتجاذبانه فيما بينهما من وقت لآخر ولكنه جمع بينهما فى النهاية : الأول هو التوسع على القارة ، أى توسع برى ، والثانى هو التوسع فى المحيط ، أى توسع بحرى . وهذا على عكس بريطانيا التى كان جوهر استراتيجيتها السياسية العزلة عن القارة وعدم التدخل أو التورط فى صراعاتها . وقد كان على اليابان أن تصطدم فى توسعها هذا المزدوج مع عدد من القوى برا وبحرا .

فعلى البر كان الصدام لا مفر منه مع الصين والروسيا ، ولهذا لم يكن غريبا أن تعرف منطقة الالتحام بينها وبينها فى كوريا الشمالية ومنشوريا بحلبة صراع العالم Cockpit of the World ، أو أن توصف بأنها مهد الصراع Cradle of Conflict[1] ، فى حين تعدها اليابان بمثابة بلجيكا وهولندا بالنسبة لبريطانيا ، أى بمثابة مسدس مصوب إليها . وسنذكر هنا ـ بين قوسين ـ أن هذا هو نفس تشبيه بريطانيا للأراضى المنخفضة .

(١) H. Weigert.. V. Stefansson, R. Harrison, New Compass of the World. N.Y., 1949.

وكما عملت هذه على ضمان حيادها وتجميدها ، ستعمل اليابان على تحييد أو تجميد كوريا ومنشوريا أولا ثم ابتلاعهما بعد ذلك .

أما فى البحر فقد كان الصدام أساسا وبالضرورة مع بريطانيا والولايات المتحدة . فالحوض الجنوبى الشرقى من الهادى منطقة نفوذ بريطانية تضم مستعمراتها فى الأوقيانوسية وأستراليشيا والبحار الجنوبية وجنوب شرق آسيا ، ومفتاحها الاستراتيجى فى سنغافوره . أما شرق الهادى فهو نطاق الأمان للولايات المتحدة وقد جعلت منه بفضل مثلثها الاستراتيجى بنما ـ ألاسكا ـ هواى بحيرة أمريكية إلى حد بعيد ، كما كانت الفلبين وبعض جزر الأوقيانوسية بمثابة مواقع أمريكية متقدمة تهدد اليابان البحرية كما تهددها هذه . وبالفعل سيكون مسرح الصراع اليابانى فى الحرب العالمية الثانية هو هذه الجبهة الشاسعة ابتداء من كوريا حتى الأوقيانوسية ، وستكون المعركة برية فى الشمال وبحرية بصورة مطلقة فى الجنوب .

أسرع الإمبراطوريات قياما وسقوطا

السؤال الآن : كيف توسعت اليابان ؟ إذا اعتبرنا أن اليابان الأصلية هى الجزر الأربع ، فإن التوسع لم يبدأ إلا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر بعد أن بدأ تحول اليابان إلى دولة صناعية حديثة ، ولو أن قليلا من التوسع المحلى المحدود على أطراف هذا الوطن الأب حدث قبل ذلك . ويمكن أن نميز ثلاث مراحل للتوسع : المرحلة القوسية فى القرن التاسع عشر ، والمرحلة القارية ـ الجزرية مع بداية القرن العشرين حتى الحرب الثانية ، والمرحلة شبه الجزرية ـ المحيطية فى أثناء الحرب الثانية . ويمكن بصفة عامة أن نعد المرحلتين الأوليين من استعمار المعتدلات ، والثالثة من الاستعمار المدارى ، وبذلك تتكرر هنا الثنائية الأساسية التى رأيناها فى زحف الاستعمار البحرى الأوربى أو الروسى القيصرى .

مرحلة الجزر المحلية

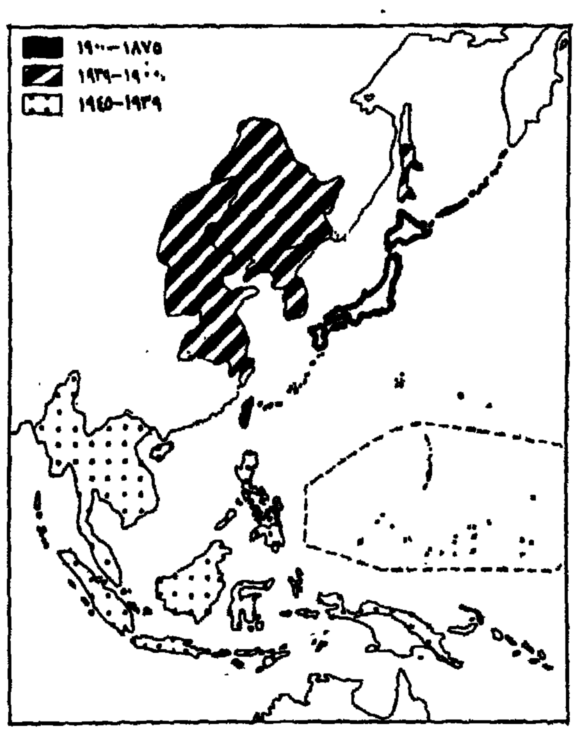
فالمرحلة الأولى ، ١٨٧٥ ـ ١٩٠٠ ، ارتبطت بقوس الجزر « الفستونية » الممتد مابين كمتشكا وفورموزا . فقد بدأت اليابان بضم جزر كوريل (تشيشما) بالاتفاق مع الروسيا فى ١٨٧٥ . وبعدها مباشرة استكملوا ضم جزر ريوكيو ، وهو الذى كانوا قد بدأوه فى مطلع القرن السابع عشر . وفى العقد الأخير من القرن التاسع عشر دخلت اليابان مع الصين فى حرب ١٨٩٥ التى انتهت بأن انتزعت لنفسها فورموزا وجزر

بسكادور ؛ وكادت أن تنتزع لياو تونج لولا تدخل القوى الغربية فى صف الصين ، كما فرضت عليها استقلال كوريا تمهيدا لضمها لنفسها فيما بعد .

المرحلة القارية والجزرية

أما المرحلة الثانية ١٩٠٠ ـ ١٩٣٩ ، فقد كان مسرحها أرض القارة بصفة أساسية والجزر بصفة ثانوية . فقد بدأت بالحرب اليابانية الروسية ١٩٠٥ ، وهى التى نشبت منعا لتوغل الروسيا فى منشوريا ونحو الهادى حيث كانت قد توغلت فى لياو تونج ، ذلك المجال الذى كانت تطمع اليابان فيه من قبل فى أثناء حربها مع الصين . بمعنى آخر نشبت الحرب تطويقا لسياسة الروسيا من الوصول إلى البحار فى هذا الجانب ، وكانت بذلك صراعا مباشرا بين قوة بحر وقوة بر .

وفى هذه الحرب ، التى كانت أول مرة تهزم فيها قوة أوربية أمام قوة غير أوربية فى



شكل (٢٠) توسع الإمبراطورية اليابانية

القرون الأربعة الأخيرة ، استولت اليابان على النصف الجنوبي من سخالين (كارافوتو) وبعض موانى ومصالح فى لياوتونج ، وفرضت على الروسيا تحييد منشوريا . أيضا تمهيدا لضمها فيما بعد . وفى ١٩١٠ لم تلبث اليابان أن ضمت كوريا إلى إمبراطوريتها .

حتى إذا كانت الحرب الأولى ووقفت اليابان إلى جانب الحلفاء ، انتهزت فرصة سقوط الروسيا وقيام الثورة الشيوعية فيها لتعود إلى تطويقها وعزلها عن البحر ، فشاركت بالقسط الأكبر فى حملة سيبيريا حتى بيكال واحتلت شمال سخالين ، إلا أنها عادت فأجبرت على الانسحاب هنا وهناك . على أنها فى الصلح نالت من ألمانيا كياتشاو ميناءها فى لياوتونج ، وأوشكت أن ترث نفوذها فى شانتونج لولا ضغط الحلفاء . ولكن كانت جزر الهادى الألمانية هى الجائزة الحقيقية التى فازت بها اليابان ـ كانتداب ـ فى هذه الحرب : مجموعات ماريانا ، كارولين ، مارشال ، وهى تترامى شرقا بغرب على مدى ٢٥٠٠ ميل وعلى نصف ذلك شمالا بجنوب ، وتمثل استراتيجيا مواقع بحرية أمامية للقفز والسيطرة المحيطية .

وفى الفترة مابين الحربين كانت بؤرة الأطماع اليابانية مركزة على القارة ابتداء من منشوريا حتى شمال الصين . وقد حاولت التوغل بنفوذها فيهما ، حتى إذا كانت « حادثة موكدن » غزت منشوريا وأقامت فيها حكومة منشوكو الصنيعة التابعة . وكانت منشوريا بذلك أكبر توسع برى لليابان حتى ذلك الوقت ، وقدمت مجالا للاستعمار الاقتصادى ولكن ليس للاستعمار السكنى الاستيطانى . ومن منشوريا بدأ الاحتكاك مع الصين وبدأت حرب ممطوطة متقطعة ستستمر حتى بداية الحرب الثانية .

هذه هى الحرب التى تمثل « الحرب الجالسة Sitzkrieg » خير تمثيل ، والتى كانت همزة الوصل بين المرحلتين التوسعيتين الثانية والثالثة . وحتى بداية الحرب الثانية كانت اليابان قد استولت فيها على نحو الثلث الشمالى من الصين جميعا بما فى ذلك الجزء الأكبر من ساحلها . ولعلنا نذكر أنه منذ القرن الماضى وسياسة الباب المفتوح ، والدول الغربية تقف فى وجه أطماع اليابان الخاصة فى الصين وتقف إلى جانب هذه منعا لتغلغل اليابان . ويمكن أن يشبه هذا الوضع بوقوف دول الغرب البحرية إلى جانب تركيا العثمانية فى وجه أخطار التوسع الروسى من قبل . واستمرارا لنفس السياسة وقفت القوى الغربية مع الصين ضد الزحف اليابانى فى الثلاثينات وساعدت حكومة الصين الحرة فى الجنوب لتكون نواة المقاومة حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

المرحلة شبه الجزرية والمحيطية

مع هذه الحرب تبدأ المرحلة الثالثة والأخيرة فى توسع اليابان ، وهى المرحلة شبه الجزرية والمحيطية . وفيها خرجت بلاد الشمس المشرقة فى محاولة عظمى لتجد لنفسها مكانا تحت الشمس . وقبل هذه الحرب كانت جيوبولتيكية اليابان تدور حول طرد الاستعمار الأوربى من آسيا تحت شعار « آسيا للأسيويين » ، ولكن ذلك كان أساسا لكى ترثه هى فيها . فدعت لهذا إلى مبدأ « مونرو لليابان » لايستبعد النفوذ الأجنبى فى شرق آسيا إلا لتنفرد هى بها . وأصبحت تتطلع إلى شرق آسيا كمجال النفوذ والمجال الحيوى الطبيعى . وتبلورت هذه الجيوبولتيكية فى الصيغة المشهورة « نطاق شرق آسيا الأكبر للرخاء المشترك Greater East Asia Co-Prosperity Sphere » .

غير أن أبعاد هذا النطاق كانت غامضة مطاطة . يمكن أن تتمدد حتى تصل حدودها إلى الهند وأستراليا وكل جزر غرب الهادى . وأن تستوعب كل ماداخلها . والمهم على وجه التحقيق أن اليابان كانت تتطلع إلى إمبراطورية مدارية مترامية تكمل اقتصادياتها شبه المعتدلة ، شأنها فى ذلك شأن الاستعمار الأوربى المدارى . وقد أصبح هذا التوسع جزءا من سياسة أوسع هى سياسة تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ كبرى بالاشتراك مع المحور .

وقد دخلت هذه الاستراتيجية مجال التطبيق حين دخلت اليابان الحرب مع المحور ضد الحلفاء . وبحكم موقعها الجزرى كانت فى وضع يسمح لها بأن تضرب فى كل اتجاه . ولكن السهم المحورى انطلق جنوبا . فبدأت باكتساح شبه جزيرة الهند الصينية . بما فيها بورما والملايو . اكتساحا خاطفا يقدر فى بعض وحداتها بالساعات (تايلاند ٥ ساعات !) . وبهذا أصبحت الهند مهددة مباشرة ، بينما تحولت حكومة الصين الجنوبية على ضخامة نطاقها إلى إسفين محصور فى بحر السيطرة اليابانية .

كذلك لم تصمد هولندا فى جزر الهند الشرقية إلا خمسة أيام بعدها انهار الاستعمار الصغير العتيق ! ثم قفزت اليابان إلى جزر الفلبين فالجزر المحيطية فى البحار الجنوبية جميعا حتى مشارف أستراليا . وبذلك أصبح غرب الهادى برمته بحيرة يابانية فى أقل من شهور . ومن الواضح أن الصراع بين اليابان والحلفاء فى هذه الحرب كان صراع قوى بحر مطلقة . أى صراع أشباه بحرية أساسا .

وفى أوجه فى ١٩٤٢ . امتد التوسع اليابانى نحو ٥٠٠٠ ميل طولا وعرضا ، ابتداء

من جزر ألوشيان إلى جزر سولمون ومن جزر ويك إلى بورما ، وغطى نحو ٣,٢٥٠,٠٠٠ من الأميال المربعة تضم حوالى ٣٠٠ مليون نسمة . ولم يحدث قط أن توسعت قوة أخرى فى مثل هذه الرقعة ، فى مثل هذه السرعة ، فى مثل هذه السهولة ، كما يقول كريسى .

فلقد كان الزمن مؤقتا فى صف اليابان ، وأضاف إليها التوسع عنصر الدفاع بالعمق على القارة وفى المحيط . أما اقتصاديا فقد منحتها الإمبراطورية ثروة ضخمة من الموارد الاستراتيجية الحيوية ، وفى وقت ما كانت اليابان تقريبا أدنى إلى الكفاية الذاتية من الولايات المتحدة .

أسـرع سـقوط

ولكن بنفس السرعة التى قامت بها الإمبراطورية ، سقطت وانهارت . ولم تكن المقاومة من جانب الأهالى الوطنيين الذين ، باستثناء تايلاند التى أفقدها الغزو اليابانى استقلالها لأول مرة فى التاريخ ، كانوا جميعا يخضعون للاستعمار الأوربى أو الأمريكى . بل إن الاستعمار اليابانى « منح » كل هذه الوحدات استقلالها ، ولعب بهذا إن عفوا أو عمدا دورا خطيرا فى حركة التحرير فيما بعد .

وإنما جاءت المقاومة من القوى الاستعمارية القديمة ، وفى عكس اتجاه التوسع ، أى من الجنوب والجنوب الشرقى محيطيا والجنوب الغربى قاريا . وفى هذه المرة لم يعد الوقت فى صف اليابان ، ولم تستطع أن تبيع المكان لتشترى الزمان . فبدأ التراجع باطراد شمالا إلى اليابان الأصلية حتى سقطت بدورها بعد أن عجلت القنبلة الذرية بالنهاية ، وبذلك انهارت الإمبراطورية فى بضع سنين .

وإذا كانت الإمبراطورية اليابانية هى أسرع الإمبراطوريات قياما وسقوطا ، فإنها تمثل النقيض للإمبراطورية البريطانية التى ربما كانت أبطأها نشأة وانهيارا . أو كما عبر البعض ، كان الاستعمار اليابانى مرضا حادا حيث كان الاستعمار البريطانى مرضا مزمنا . واليوم وقد فقدت اليابان جميع مستعمراتها وفتوحاتها ولم يعد لها إلا جزرها الأربع الأم ، فإنها تعود إلى النقطة التى بدأت منها منذ نحو قرن تقريبا فى ١٨٧٠ !

لقد عادت سفينة « الداى نيبون » على أعقابها بعد رحلة دموية عاصفة طولها قرن وعرضها قارة إلى مينائها الذى بدأت منه . وأسوأ منه ، عادت لتجد نفسها محتلة وتابعة لغريمتها فى الهادى الولايات المتحدة ، وقد ضاع أملها إلى الأبد فى السيادة العالمية ، بل حتى فى الصدارة الأسيوية ذاتها مع ظهور الصين .

ولقد بدأنا فقلنا إن اليابان هى بريطانيا الشرق الأقصى جغرافيا ، ولكن يمكننا الآن أن نختتم بأنها لعبت فى آسيا دور ألمانيا فى أوربا استراتيجيا . فهى مثلها دخلت التصنيع وخرجت إلى العالم فى السبعينات الماضية . وهى مثلها انحرفت فى اتجاهات عسكرية فاشستية أو شبه فاشستية ولم تخل من أوهام العنصرية وتفوق الجنس . وكل منهما وضع لقارته « نظاما جديدا » أداته اليونكرز هنا والساموراى هناك . وليس صدفة تحالفهما معا بعد ذلك . ولكنها أساسا توسعت مثلها توسعا كاسحا رهيبا ، وبقدر ما كان تألقها كان خبوها ، هذه كتلك .

الفصل التاسع

امتداد صراع القوى
ألمانيا

الأساس الطبيعي والتاريخي

لم تحقق ألمانيا وحدتها القومية إلا فى مرحلة متأخرة للغاية هى السبعينات الماضية ، ولهذا كانت آخر القوى العظمى التى ظهرت على المسرح الأوربى والعالمى . ولقد تأخرت تلك الوحدة لأسباب تاريخية معقدة غذتها من خلف أسباب جغرافية لاتقل تعقيدا . فبحكم موقعها المتوسط فى وسط أوربا تلقت تأثيرات عديدة وأحيانا متعارضة ، أو على الأقل شكلت أجزاءها المختلفة بطوابع وتوجيهات مختلفة . وأكد اللاندسكيب الطبيعى ، الذى تقطعه الجبال والهضاب والغابات والمستنقعات إلى وحدات وأحواض وجيوب منفصلة لاتخلو من عزلة ، أكد تلك الطوابع المحلية المختلفة .

ولعل أبسط مظاهر هذه الفروق أن الشمال السهلى ارتبط بالبروتستانتية ، بينما ظل الجنوب الهضبى كاثوليكيا ، مما عمق الصراعات الدينية .. والسهل الشمالى نفسه كجزء من « الممر القارى الأوربى العظيم Durchgangsland» أصبح دهليزا تكتسحه الموجات البشرية من هجرات وغزوات جيئة وذهابا ، ذات اليمين وذات الشمال . ومرة أخرى لعل أبسط مظاهر هذه الحركة البندولية ذلك المد والجزر التاريخى بين السلاف فى الشرق والتيوتون فى الغرب ، والذى وصل بالسلاف حتى منطقة برلين وبالتيوتون حتى ضفاف الفولجا . وقد كانت النتيجة تداخلا شنيعا فى التوزيعات الإثنولوجية ، ظهر فى شكل أقليات عديدة فى التخوم والأطراف تنتشر كالجزر فى كل شرق أوربا ، ووضع أساس الصراع التاريخى الرهيب بين عالم السلاف وعالم الجرمان ، وهو الصراع الذى سيلعب دورا خطيرا فى استراتيجية ألمانيا بعد الوحدة الحديثة[1] .

---

(١) فيرجريف ، ص٢٠٠ ـ ٢٢٤ .

وكنتيجة لهذا جميعا فقد ظلت ألمانيا بلا قلب وبلا حدود : بلا قلب ، لأنها لم تعرف عاصمة بؤرية غلابة ، بل هاجرت فيها العواصم عبر التاريخ على طول الحدود عامة من الغرب إلى الشرق . وبلا حدود ، لأن الانسياح والتميع البشرى جعل تخومها مختلطة السكان غير واضحة المعالم . ومثل هذا إنما هو نمط مضاد للوحدة . والواقع أن ألمانيا فى هذا الصدد كانت فى وضع أسوأ من إيطاليا التى وصفت بأنها لم تكن إلا تعبيرا جغرافيا . فإذا كانت إيطاليا بلا قلب سياسى واضح ، فقد كان لها على الأقل حدود جغرافية حاسمة . أما ألمانيا فلم تكن تعبيرا سياسيا ولا جغرافيا .

فى هذا الاطار ورثت ألمانيا الإمبراطورية الرومانية المقدسة الصورية منذ أنشأها شارلمان حتى حطمها نابليون . وقد قلنا صورية لأنها لم تكن أكثر من تجمع متميع شكلى مفكك من مئات من الوحدات السياسية المنفصلة التى تتراوح بين وحدات ميكروسكوبية ووحدات اقليمية ضخمة : دول مدن قزمية ، مقاطعات اقطاعية ، أحلاف تجارية ، أسقفيات كنسية ، ممالك أسرية .. الخ . وقد ثبتت الصراعات والوراثات الأسرية بوجه خاص هذا النمط الفسيفسائى الحفرى . وحتى نهاية القرن الثامن عشر كان عدد الوحدات السياسية الألمانية يزيد على الثلاثمئة . وإذا كان هذا النسيج المهلهل قد اختزل فى أوائل القرن التاسع عشر إلى نحو العشر (٣٩ وحدة) ، فقد ظل أبعد شىء عن الوحدة .

غير أنه حدث أن استطاعت بروسيا ، من نواة أولية فى براندنبرج وبعد تاريخ خطر من التمدد والانكماش ، أن تتوسع منذ القرن السابع عشر حتى أصبحت أقوى وأضخم وحدة فى ألمانيا ، وهذا رغم أنها تعد أصلا من أراضى التخوم الشرقية الفقيرة جغرافيا Marks والتى لم تدخل المحيط الألمانى وفلك الحضارة إلا متأخرة تاريخيا . فبدأت تجمع ألمانيا فى اتحاد جمركى ــ الزولفرين الشهير Zollverein ــ يزيل الحوائط « الصينية » والحواجز الاقتصادية غير المعقولة التى تفتتها . وكان الزولفرين بهذا خطوة حقيقية نحو الوحدة السياسية ، التى ستأتى ضد رغبة وفى وجه مقاومة ومناورات كل الدول الأوربية الكبرى القائمة [1]

(١) جوردون إيست ، ص ٢٦١ وما بعدها ، ٤٢٧ .

فمن البداية ، كانت طفرة بروسيا بسمارك نحو الزعامة تحديا للنمسا ذات التاريخ العريق ، فكان صدام الأقدار بينهما الذى انتهى بهزيمة النمسا . ومن ثم انفتح الطريق إلى الوحدة الألمانية ، التى بدأت باتحاد فيدرالى للشمال اتسع بعدها ليشمل الجنوب ولكن بغير النمسا . كذلك ظلت كتل ووحدات ألمانية كثيرة خارج دولة الوحدة ، لأنها تبلورت من قبل على تنظيم سياسى منفصل بحكم ظروفها الجغرافية أو التاريخية مثل أجزاء من سويسرا والأراضى المنخفضة . وسيكون لهذه « الأقليات » وغيرها خارج الرايخ دورها الخطير فى تحديد دور ألمانيا الاستراتيجى فيما بعد .

وقد اتفق نمو الوحدة الألمانية مع عدة تطورات تكنولوجية ساعدت على ميلادها من ناحية وعلى تدعيمها بعده من ناحية أخرى . أولها دخول السكك الحديدية التى جمعت ما قد فرقت الجغرافيا والتاريخ . والحقيقة أنه كان على وحدة ألمانيا أن تنتظر قدوم السكك الحديدية ، وهى لذلك وإلى حد بعيد نتج لها . وبفضلها ولدت ألمانيا من مقياس ضخم نسبيا ، فضلا عن أنها هى التى أعطتها قلبا جغرافيا وعقدية اصطناعية مكتسبة . أما العامل الثانى فهو الانقلاب الصناعى الذى وصلها وقد بلغ حدا كبيرا من التطور ، ولذلك ولدت ألمانيا من البداية وهى « دولة تكنولوجية » بكل معنى الكلمة ـ دولة الكولتور Kultur . وسيصبح هذا ملمحا أساسيا فى كيانها ومن أخطر مواطن القوة فى تركيبها[1] .

والمحصلة العامة أن ألمانيا ولدت عملاقا يتمتع بقاعدة أرضية ضخمة ، لاتقل كثيرا عن فرنسا وتكاد تعادل ضعف بريطانيا ، بينما تزيد عن أكثرهما سكانا . قاعدة تجمع بين الانتاج الزراعى الكثيف والانتاج الصناعى الثقيل الذى يعتمد على ثروة معدنية منوعة ضخمة على أى مقياس ، وتكاد تكون أقرب بالقوة وإذا لزم الأمر إلى الكفاية الذاتية Autarky من فرنسا وأقرب بالتأكيد من بريطانيا . قاعدة تحتل موقعا يتوسط قلب القارة ويتاخم عددا كبيرا من دولها ، وفى نفس الوقت يملك جبهة ساحلية كافية على البحر . ومعنى ذلك أنها بموقعها وطبيعتها دولة أمفيبية تجمع بين قوة البر وقوة البحر ، وبمواردها ومقوماتها يمكن أن تتطلع إلى الصدارة فى القارة .

---

(١) فتزجرالد ، ص ٩٥ ـ ١٠٩ .

الصـراع القـارى

لم يكن مفر لهذا من أن تصطدم الدولة الجديدة بالقوى الكبرى القائمة . فمنذ اللحظة الأولى كان عليها أن تواجة فرنسا المتاخمة ، إلا أن هذه كانت بريطانيا قد حطمت قوتها من قبل فى صراعها من أجل السيادة العالمية ، وما ظهرت ألمانيا كقوة إلا انتهازا لهذه الفرصة التى لولاها لما سمحت فرنسا لها بذلك بالتأكيد . ولهذا لم يكن من الصعب على ألمانيا أن تجهز نهائيا على فرنسا فى الحرب السبعينية لتزيحها من صراع القمة .

وكما كان على فرنسا فى أثناء صراعها مع بريطانيا أن تواجه أيضا قوة برية على القارة فى الشرق هى النمسا ، فكذلك كان على ألمانيا أن تواجه أيضا قوة برية أضخم بكثير هى الروسيا . ورغم أن الروسيا كانت مركز الثقل السياسى فى شرق أوربا حينئذ ، وأضخم دول القارة مساحة وسكانا ، وتمثل زعيمة السلاف ، فقد كانت متخلفة حضاريا وماديا ، وتشكل بذلك تحديا أقل من التحدى الفرنسى . ولهذا لم يلبث مركز الثقل فى شرق القارة أن انتقل من الروسيا إلى ألمانيا ، من سان بطرسبرج إلى برلين . بل إن من المثير أن ألمانيا بديناميتها وحضارتها واندفاعتها الشابة استطاعت أن تتغلغل بنفوذها فى الروسيا القيصرية دولة وشعبا . ولعل فى الشكل الألمانى لاسم العاصمة الروسية وحده ــ سان بطرسبورج ــ رمزا بليغا لهذا النفوذ[1] .

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أن افتتاح الزحف الألمانى من أجل القوة العالمية بالصدام مع أكبر دولتين على القارة بالذات ، وهما فرنسا والروسيا اللتان تحصران ألمانيا من شمال ويمين ، إنما يرجع إلى حق مؤكد أن ، مجال حركة ألمانيا كان مرتبطا دائما وأساسا بصلب القارة أكثر منه بما وراء البحار . ومما له مغزاه فى هذا الصدد أنه أصبح من سياسة ألمانيا

التقليدية أن تشجع هاتين الدولتين على المغامرات الاستعمارية خارج القارة لتبعد أنظارهما ولتبعدهما عن القارة نفسها بقدر الامكان لتخلو لها هذه ، مجالها الطبيعى الوحيد . فعلى سبيل المثال ، كانت هى سياسة بسمارك الواعية العامدة التى وجهت فرنسا إلى تونس بعد حربهما السبعينية ، وكانت هى ألمانيا التى حثت الروسيا وشجعتها على حربها اليابانية فى بداية هذا القرن .

---

(١) Mackinder, Democratic Ideals, p. 105.

هذا على القارة . غير أنه كان على ألمانيا من الناحية الأخرى أن تواجه بريطانيا مباشرة ليبدأ صراع جبابرة يكرر نفس القصة التى رأيناها مرارا من قبل فى غرب أوربا منذ البرتغال حتى بريطانيا : قوة أكثر بحرية (بريطانيا) تحطم قوة أكثر قارية (فرنسا) ، فترثها قوة أكثر وأكثر قارية (ألمانيا) . ليبدأ الصراع بين الأولى والأخيرة ... وهكذا سنجد أن الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين هو عصر الصراع بين بريطانيا وألمانيا .

وكما كان كل صراع من الصراعات السابقة ينقلنا باستمرار إلى أبعاد ومستويات أضخم وأخطر . فسنجدنا الآن على أبواب صراع عالمى يلخصه ببلاغة تسميتنا للحرب الكبرى الأولى والثانية بالحرب العالمية . فقد كان هذا أول صراع للقوى العالمية فى ظل العصر الصناعى بكل فنونه التكنولوجية والعسكرية ، وأول صراع بين قوى رأسمالية مكتملة وسافرة .

وقد خرجت ألمانيا من وحدتها لتجد نفسها حبيسة بحر الشمال الذى تغلقه بريطانيا تماما بموقعها وبقوتها البحرية ، وسجينة وسط أوربا بما يطوقها من دول من كل ناحية . إنها ـ فى معنى ـ كالروسيا : رهين المحبسين . فأخذت لذلك تنمى ـ تحت عسكرية اليونكرز ـ قوة برية ضخمة ، جنبا إلى جنب مع أسطول بحرى خطر . كانت الغواصة فيه بالذات رمزا لمحاولة الافلات من انغلاقها البحرى ، ونكاد نقول نتيجة جغرافية لموقعها وبيئتها . ولو أن ألمانيا ولدت وقد ضمت المناطق الجرمانية الساحلية فى الأراضى المنخفضة فى دلتا الراين سواء فى هولندا أو بلجيكا : لجاء خطرها البحرى ودورها الاستراتيجى مختلفا جدا بالتأكيد .

ولهذا فقد كانت بريطانيا ـ مقتبسة نابليون ـ تعد هذه الأراضى المنخفضة ـ شكلا وموضوعا ـ بمثابة مسدس موجه إليها . بل لقد ذهبت أحيانا إلى حد اعتبار الراين « حدودها » الاستراتيجية[1] ! وكان رد فعلها المباشر هو التحالف الدائم مع هولندا وبلجيكا وضمان حيادهما دوليا ووحدة أراضيهما الاقليمية فى وجه هذا الخطر . والواقع أن موقع هاتين الدولتين ـ الصغيرتين ـ داخل مثلث القوى الكبرى بريطانيا وفرنسا وألمانيا هو الذى حيدهما ووضعها فى نقطة الخمود السياسى والعسكرى فى أوربا .

---

(١) Reader Bullard, Britain & the Middle East, p. 169.

ومع ذلك فقد استطاعت ألمانيا أن تخرج إلى المحيط بأسطول حربى وتجارى انتشر حول العالم بحثا عن أسواق التجارة وعن ميادين الاستعمار . غير أنها مالبثت أن وجدت الأسواق ـ كل الأسواق ـ احتكارات بريطانية باسم حرية التجارة والأفضليات الإمبراطورية ، ومن ثم رفعت سلاح التعريفة الجمركية ومبدأ الحماية لتبدأ الحرب الاقتصادية .

وبالمثل وجدت ميدان الاستعمار وقد أغلق أو كاد ولم يبق على مائدته إلا الفتات . وبالكاد ، وبصراع استعمارى حاد ، استطاعت أن تنتزع بعض المستعمرات فى أفريقيا وبعض جزر الهادى : فنالت فى « التكالب » مستعمرات أربعا ، وفى الهادى حصلت على أرخبيلها الجزرى بالحرب والشراء ، وتمكنت من أن تجد لنفسها موطئ قدم على ساحل منشوريا فى كياتشاو . وتلك فى مجموعها إمبراطورية استعمارية من درجة متواضعة للغاية .

من هنا بحثت ألمانيا عن التعويض فى التوسع البرى على القارة ، وذلك بالتوغل الاقتصادى والنفوذ السياسى فى دول شرق أوربا المتخلفة المفككة والتى تتناثر فى تضاعيفها غالبا أقليات ألمانية هامة ، ولكن هدفها الأساسى كان إمبراطورية النمسا ـ المجر وأكثر منها الإمبراطورية العثمانية العجوز . ورسمت بذلك محورا يندفع من قلب القارة ليصل إلى الشرق الأوسط . ذلك كان مشروع الاتجاه نحو الشرق الشهير Drang nach Osten ، الذى اتخذ بخاصة من مشاريع السكك الحديدية عمودا فقريا يرتكز إليه . ولعل مشروع خط برلين ـ بغداد (أو همبورج ـ الكويت) هو أهم تلك المشاريع .

وفى رأى البعض أن الهدف الأخير للاتجاه نحو الشرق هو أن تصل ألمانيا بين نفوذها فى الشرق الأوسط وبين وجودها فى الشرق الأقصى حتى كياتشاو . ولكن كان معنى المشروع أن تعود مرة أخرى فتصطدم ببريطانيا ـ ومعها فرنسا ـ التى كان لها النفوذ الأكبر فى العثمانية . أخطر من ذلك ، كان معناه أن تصل ألمانيا إلى الخليج العربى لتضرب بريطانيا فى العراق على طريق الهند مثلما حاولت فرنسا من قبل فى مصر. ولقد تعاظم النفوذ الألمانى الاقتصادى والسياسى بالفعل فى الدولة العثمانية وانتزعت من الامتيازات والمصالح ماعمق أبعاد الصراع بين القوتين الأوربيتين بل وحتم الصدام بينهما .

وإذا نحن نظرنا إلى الصراع الاستعمارى بينهما عبر البحار جنبا إلى جنب مع الصراع الاقتصادى فى الشرق ، فيمكن ـ مع ماكيندر ـ أن نلخص الموقف جميعا فى أن « البريطانيين والألمان أخذوا مقاعد فى قطارات سريعة على نفس الخط ، ولكن فى اتجاهين مضادين . ولعله لم يكن مفر من التصادم منذ حوالى ١٩٠٨ . وقد يمكن أن نحدد الفارق بين المسئولية البريطانية والألمانية كالآتى : السائق البريطانى بدأ أولا ، وسار بلا اكتراث ، مهملا الاشارات ، بينما أن السائق الألمانى قوى عن عمد قطاره وحصنه حتى يتحمل الصدمة ، ثم وضعه على الخط الخطأ ، وفى آخر لحظة فتح صمامات بخاره »[1] . لقد أصل بسمارك سياسة الدم والحديد داخل حدود ألمانيا من أجل الوحدة ، ولكن القيصر بعده نقلها إلى خارج الحدود من أجل التوسع .

وفى هذا الصدام الرهيب لعبت حقيقة جغرافية معينة دورا استراتيجيا حاسما وفاصلا . إن ألمانيا ، التى يقع جزء منها فى شرق أوربا وجزء فى غربها ، والتى تضع قدما على البر وقدما على البحر ، هى أساسا منطقة بينية تنحصر بين قوى البر الكبرى فى شرق القارة وقوى البحر الكبرى فى غربها . إنها اليوم « التمساح » الأكبر بين فيل الشرق وحيتان الغرب ! ومن هذه الحقيقة نبعت كل المواقف والتجمعات والتشكيلات السياسية والاستراتيجية فى الحرب العظمى الأولى .

فمنذ ماقبل الحرب الأولى كانت فرنسا قد تحالفت مع الروسيا ، وفى الحرب نفسها لم تجد بريطانيا صعوبة فى حشد كل دول غرب أوربا البحرية ابتداء من إيطاليا حتى هولندا ضد ألمانيا ، ثم فى استكمال الكماشة من الشرق بجذب الروسيا إلى المعركة . وتفسير ذلك أن دول غرب أوربا البحرية قد شعرت بسرعة بوحدة مصالحها الكامنة ، حتى ـ على سبيل المثال ـ لقد أدركت بريطانيا بالندم والأسف خطأها حين تركت فرنسا بلا مساعدة ضد ألمانيا فى الحرب السبعينية . وبالمثل أدركت الروسيا والغرب وحدة مصالحها المباشرة أو المؤقتة ضد القوة البينية ، فما قامت الحرب مباشرة إلا لثورة السلاف على قهر الجرمان فى إمبراطورية النمسا ـ المجر .

---

(١) Democratic Ideals, p. 110-1.

أما فى الجانب الآخر ، فقد كانت استراتيجية ألمانيا هى ـ كما لو بالغريزة ـ تجميع قوى المنطقة البينية فى شرق أوربا ووسطها : النمسا ـ المجر ، بعض دول البلقان ، ثم الدولة العثمانية . وكلمة « دول الوسط Central Powers » التى أطلقت عليها هى تعبير جغرافى واستراتيجى دقيق بالفعل فى هذا الصدد . ومن ثم يبدو النمط الجغرافى للصراع واضحا كل الوضوح وبسيطا إلى حد مثير : لقد اجتمعت قوى البر الضخمة فى الشرق مع قوى البحر السائدة فى الغرب لتهصر ، بين شقى رحى ، المنطقة البينية المحصورة بينهما .

بهذا حاربت ألمانيا فى جبهتين ، وحققت فى البداية انتصارات داوية فيهما ، إلى أن انهارت القوة الشرقية الروسيا وخرجت من المعركة وقد خسرت فى برست ليتوفسك كل مكاسبها الاقليمية فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر وهى دويلات البلطيق وفنلندا وشرق بولندا . فأصبح الصراع حينئذ بين القوى البينية والقوى البحرية ، حيث سادت لفترة طويلة حرب الخنادق أى الحرب الجالسة . ولكن دخول الولايات المتحدة بثقلها فى صف القوى البحرية قلب كل توازن وجعل النتيجة حتمية أو هو عجل بها . والواقع أن دخول الولايات المتحدة البحرية هو وحده الذى حدد مصير الصراع .

ومع الهزيمة فقدت ألمانيا كل مستعمراتها عبر البحار ، وقلمت رقعتها على القارة بلا هوادة . فانخفض سكانها فى فرساى من نحو ٦٨ إلى ٦٠ مليونا ، ومساحتها من ٢٠٨ آلاف ميل مربع إلى ١٨١ ألفا . أما إمبراطورية النمسا ـ المجر فصفيت إلى كوكبة كالموزايكو من دول مستقلة ملأت وجه شرق القارة كصف أوسط من القوى الصغرى يفصل بين الروسيا وألمانيا . هذا بينما تضاءلت تركيا إلى قوقعة الأناضول ، وورث الحلفاء الإمبراطورية العثمانية فى الشرق الأوسط والعالم العربى كاستعمار بالانتداب . وبهذا ختم نهائيا على مصير دولة الرجل المريض التى عاشت أطول مما ينبغى ومما كان يمكن لها وحدها لولا مضاربات القوى العظمى .

ولكن برغم كل قيود فرساى (أم بسببها ؟) ، قفزت ألمانيا مرة أخرى فى غضون ربع قرن من الهدنة المسلحة فى محاولة أعتى وأشد هولا من أجل السيادة العالمية لاأقل . وكان هذا الهدف أشد تحديدا وقطعا منه فى المحاولة الأولى بحكم طغيان الإيديولوجية العنصرية الآرية على النازية الحاكمة . ولاشك أن النازية كنظام فاشستى كانت ـ جزئيا ـ نتجا للتقليم وذلك الحرمان من المستعمرات الذى نال ألمانيا . فبعكس الحال

فى الحرب الأولى ، دخلت ألمانيا الحرب الثانية بلا مستعمرات البتة . وبينما كان فى وسع الدول الغربية أن تتباهى « بديمقراطيتها » فى الداخل ، وهى التى بنتها على أساس ديكتاتوريتها فى المستعمرات ، لم يكن أمام ألمانيا سوى الديكتاتورية العسكرية السافرة .

مهما يكن ، فلقد مرت مطالب ألمانيا فى عدة مراحل . فأولا طالبت بوحدة كل الألمان ـ الألمانية Deutschtum ـ فى دولة الرايخ ، وذلك بضم العناصر والأقليات الألمانية خارج ألمانيا ، وهم مايسمون بالألمان خارج الوو Auslandesdeutsche ، وعددهم كان يناهز العشرة ملايين. وقد نجح هتلر بالفعل فى أن يضم أغلب هذه الأقليات قبيل الحرب ، فوصل بعدد سكان ألمانيا إلى ٨٨ مليونا وبمساحتها إلى ٢٥٩ ألف ميل مربع .

وكانت المرحلة الثانية هى المطالبة « بمجال حيوى Lebensraum» للألمان[١] ، على زعم أنهم « شعب بلا مجال Volk ohne Raum» . وكان هذا المجال فكرة مطاطة لاتحددها فى الواقع ، وبلغة النازية ، إلا « إرادة القوة Will zur Macht» ، فتتسع أحيانا من وسط أوربا حيث طالبوا « بمبدأ مونرو ألمانى » إلى وسط أوربا وشرقها حتى أوكرانيا والقوقاز والبلقان ! ومن أجل هذا ظهر مشروع جديد « للاتجاه نحو الشرق » ، ولكن هدفه هذه المرة كييف لا بغداد .

الحرب الثانية

ولقد قامت الحرب فى النهاية منعا لألمانيا من اطراد التوسع والانطلاق نحو السيادة العالمية ، وتحول الصراع الاستعمارى إلى لون من الصَّرَع السياسى ... وكانت تجمعات القوى فيها تختلف فى بعض جزئياتها عنها فى الحرب الكبرى الأولى ، ولكنها لا تخرج أساسا عن جوهر الصراع فيها . والتغيير الهامنكلا من إيطاليا واليابان ، بأنظمتها الفاشستية العسكرية ، وقفت مع ألمانيا رغم أنهما قوى بحر . وكان هدف المحور السيطرة على العالم على أساس تقسيمه إلى مناطق نفوذ عظمى ـ سياسة Grossraumwirtschaft .

ولكن الحقيقة أن المعركة الأوربية كانت معركة ألمانيا ، لأن اليابان كانت تعمل فى مجال جغرافى منفصل تماما . أما إيطاليا فلم تكن أكثر من ذنب لألمانيا ، ودخلت الحرب

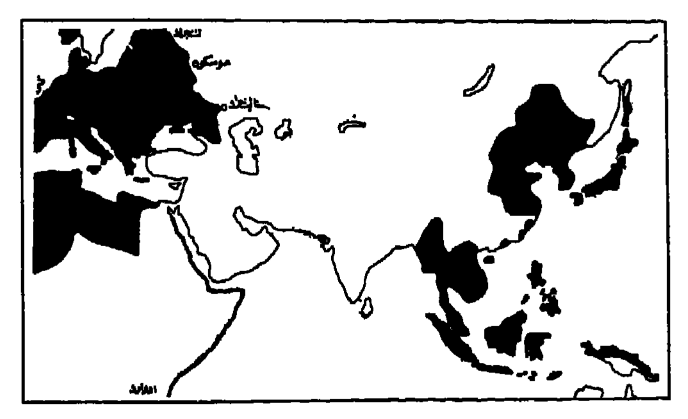
---

(١) S.V. Valkenburg. Rise & Decline of German Lebensraum, in New Compass of the World. op. cit., p. 209-14.

متأخرة فى انتهازية واضحة . وخرجت منها بالانهيار الداخلى كما حدث للروسيا القيصرية فى الحرب الأولى . ورغم كل ادعاءاتها الجوفاء ومظاهرات القوة . لم تكن إيطاليا الفاشستية قوة عظمى إطلاقا . ولم يكن حلم « حبيسة البحر المتوسط » بإعادة الإمبراطورية الرومانية و « بحرنا » إلا محاولة لوضع عقارب الساعة إلى الوراء وضد الجغرافيا تتجاهل أن إيطاليا فى العالم الرومانى المحلى المحدود شيء يختلف تماما عن إيطاليا فى عالم القرن العشرين بأبعاده الكوكبية[1] . وقد جاءت الحرب لتثبت خواءها وتفاهتها بصورة ساخرة .

هذا عن جانب المحور . أما على الجانب الآخر فقد اجتمعت كل الدول البحرية فى غرب أوربا ابتداء من النرويج حتى فرنسا ، إلى أن انضمت إليهم الولايات المتحدة كالعادة ، ومتأخرة كالعادة أيضا . ثم إلى أن انضمت إلى الجميع قوة الاتحاد السوفييتى فى الشرق . وهكذا عدنا إلى النمط التقليدى لاستراتيجية الحرب الأولى ، وهى اجتماع قوتى البحر والبر فى أوربا فى مواجهة القوة البينية الأمفيبية . أو الحوت والفيل فى مواجهة التمساح .

وإذا كان ثمة فارق ، فهو أن هناك بعضا من تداخل بين تلك القوى يعقد الصورة نوعا . فقد اجتمعت إيطاليا البحرية مع ألمانيا البينية ، بينما فى الشرق أصبحت اليابان البحرية تتصارع مع الولايات المتحدة البحرية . وفيما عدا هذا إذن يمكن أن نقول إن الحرب الثانية استمرار أو تكرار للحرب الأولى من الناحية الجيوستراتيجية بوجه عام .



شكل (٢١) زحف المحور في أوجه في الحرب الثانية . كانت خطة « النظام الجديد» أن تتصل الجبهة الأوربية بالأسيوية في النهاية !

---

(١) W.G. East, Mediterramean Problems, Discussion Books.

وإذا كانت الحرب الأولى تتميز بالحرب الجالسة ـ فإن هذه الحرب[1] امتازت بالحرب الخاطفة الكاسحة Blitzkrieg واستراتيجية الرعب . فكانت الدول الصغرى تسقط فى أيام ، والكبرى فى شهور ، والكل فى أقل من سنتين ! ففى هذا المدى كانت كل أوربا ابتداء من النرويج حتى اليونان ، ومن فرنسا حتى قلب الاتحاد السوفييتى الأوربى ، قد سقطت لألمانيا إما بالغزو أو بالضم أو بالانقلاب . وفى هذا التوسع الكاسح أوشكت حدود ألمانيا من الناحية العملية أن تكون هى جيوشها .

وسيلاحظ أن حركة الغزو ترسم دائرة عكس عقارب الساعة ـ فبدأت بالنمسا ثم تقدمت إلى تشيكوسلوفاكيا إلى بولندا إلى النرويج إلى هولندا وبلجيكا إلى فرنسا إلى البلقان . وواضح كذلك أن هذا التوسع الصاعق يتخطى بكثير إمبراطورية نابليون امتدادا وسرعة ولم تعرف أوربا له من قبل مثيلا . ولعل هذا هو الفارق العسكرى والاستراتيجى بين آخر حرب فى عصر ما قبل الصناعة وآخر حرب فى عصر الصناعة . كذلك فإن الحرب العالمية الثانية أقرب فى بعض النواحى إلى الحروب النابليونية منها إلى الحرب العالمية الأولى .

كيف إذن انهارت « قلعة أوربا » الألمانية هذه وقد سيطرت على كل موارد القارة ؟ لا ، بل السؤال أولا : كيف استطاعت ألمانيا ومحورها أن يقفوا فى صف ، وبقية العالم بأسره تقريبا فى الصف الآخر ؟ لاشك أن ذلك فى ذاته مقياس لقوة ألمانيا الذاتية الكامنة فى الموارد والطاقة البشرية والاستراتيجية التى لاسبيل إلى التقليل منها . ولكن من المحقق أن سيطرتها على كل موارد القارة بعد ذلك هى وحدها التى مكنتها من أن تواجه العالم .

على أن النهاية جاءت لعدة أسباب . فرغم سيطرتها الجوية الحاسمة ، فقد عجزت ألمانيا كقوة أمفيبية عن أن تعبر البحر إلى جزيرة بريطانيا ، مثلما عجز نابليون من قبل رغم سيطرته على القارة برمتها تقريبا . ومن خلف بريطانيا كانت موارد وقوى الكومونولث والإمبراطورية . ولكن أهم من ذلك ، بيقين ودون جدال ـ دور الاتحاد السوفييتى البرى والولايات المتحدة البحرية . فلقد كانت معركة الاتحاد ـ كحملة نابليون ـ هى بداية النهاية : استنفدت طاقة ألمانيا وامتصت قواها بأبعادها القارية الضخمة ، إلى أن تحول الجزر الدفاعى إلى مد هجومى اكتسح قلب ألمانيا . ويكفى لكى ندرك دور الاتحاد فى

(١) الجيوبولتيكا ، ج ١ ، ص ١٢١ - ١٩٩ .

مصير الصراع ارفد تسعة من كل عشرة ألمانيين قتلوا فى الحرب الثانية جميعا قتلوا على أرضه .

وقد غطى التوغل الألمانى فى الاتحاد فى أقصاه نحو ٧٠٠ ألف ميل مربع ، وصلت إلى خط يمتد من لننجراد إلى موسكو إلى ستالينجراد (فولجوجراد حاليا) إلى القوقاز ، أى من البلطيق حتى البحر الأسود ، أو على جبهة لا تقل عن ٢٠٠٠ ميل طولا ، ولعلها كانت أوسع جبهة حربية فى التاريخ . ولكن هذا بالذات يحدد استراتيجية الاتحاد . فعدا « الشتاء والوحل » ــ أصدقاؤه التقليديون ــ كانت استراتيجية الاتحاد هى الدفاع بالعمق وشراء الزمان بالمكان . فكان ينسحب بعدوه فى « أرض محروقة » ريثما ينقل صناعاته وموارده عبر الأورال فى قلب آسيا ، وحتى يستنفد قوى العدو ويطيل خطوط مواصلاته وتموينه .

أما الولايات المتحدة فقد نشرت قواتها المحاربة فى كل أركان الكرة الأرضية وصبت مواردها وقواها فى آخر معاقل القوى البحرية فى أوربا بريطانيا وأنقذتها من السقوط ، فكانت رأس الحربة أو الجسر الذى بدأ منه أو قريبا منه غزو القلعة . فأطبقت قوى الغرب البحرية على القارة من فرنسا غربا وشمال أفريقيا جنوبا ، إلى أن التقى فكا الكماشة السوفييتى والغربى فى برلين .

وبهذا أثبتت الحرب أن موقع ألمانيا فى وسط القارة سلاح ذو حدين . فهى بحكم هذا الموقع تشترك مع عديد من الدول فى الحدود ، وبالتالى تستطيع من موضع القوة أن تضرب فى كل اتجاه ، وهكذا بالتقريب كان . ولكنها لنفس السبب يمكن ــ فى موضع الضعف ــ أن تضرب من كل اتجاه ، وهكذا أيضا بالفعل كان .

النهاية : ألمانيتان

هكذا فشلت المحاولة الثانية العظمى والأخيرة لألمانيا من أجل انتزاع السيادة العالمية من بريطانيا . بل خرجت منها وهى محتلة مقلمة الحدود مبتورة الأطراف ، برقعة أقل مما خرجت بها من فرساى ، وأسوأ منها مقسمة ممزقة بين ألمانيا شرقية وغربية . لكنها ــ تلك المحاولة ــ كانت فى نفس الوقت نهاية السيادة العالمية البريطانية ، فقد امتصت الحربان العالميتان حيوية بريطانيا ومواردها حتى النخاع . لقد حطم كل من بريطانيا وألمانيا الآخر ، فاهتبلت القوى الجديدة الصاعدة الفرصة لتقوم على أشلائهما . وإذا بالصراع

من أجل السيطرة العالمية ينتقل إلى القوى الضخمة هذه ـ القوى الماموث ـ الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى .

وبهذا أيضا أو أصلا مضى إلى الابد عصر القوى الكبيرة التى تدور أحجامها حول الخمسين والسبعين بل حتى التسعين مليونا من السكان ، وانتهت تماما كل فرصها فى التطلع إلى الصدارة أو السيادة العالمية . وقصارى تطلعاتها اليوم لا يمكن أن تتعدى دول المرتبة الثانية أو الثالثة . ولئن هى كانت لاتزال تستطيع أن تشعل حربا عالمية ، فإنها لم تعد بقادرة على أن تطفئها . ذلك يصدق على ألمانيا كما يصدق على كل من بريطانيا واليابان سواء بسواء .

وهنا لن يتعذر علينا أن نرى أن انتقال مراكز الثقل إلى القوى الجديدة ليس إلا استمرارا أمينا لمنطق وحركة وميكانيزم الصراع الذى عرفته قوى غرب أوربا طوال العصور الحديثة . فهذا الصراع الذى بدأ بالبرتغال وإسبانيا فى القرن الخامس عشر ، ثم انتقل بالتدريج شمالا وفى انفراج مطرد حتى انتهى إلى بريطانيا وألمانيا فى القرن العشرين ، قد تمم الآن مساره فزحف شمالا وازداد انفراجا حتى استقر فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى .

واذا أخذنا فى الاعتبار أن الولايات المتحدة كانت بسلاحها الذرى أقوى حربيا من الاتحاد السوفييتى فى السنوات التى تلت الحرب مباشرة وحتى منتصف القرن ، فيمكن أن نرى أن القوة البحرية كانت الأسبق زمنيا إلى وراثة الصدارة العالمية ، ولو أن المنافس البرى لحق بها بسرعة غير عادية . وبهذا يكون نفس الترتيب التقليدى فى حركة مراكز الصراع عبر التاريخ الحديث قد تكرر فى المرحلة المعاصرة .

والمهم فى هذه الانتقالة الأخيرة أن مركز الصراع غادر غرب أوربا نهائيا ولم يعد صراعا بين قوى بحر صرفة ، بل بعد أن أصبح صراعا بين قوى بحرية وقوة أمفيبية لفترة ما فى القرن العشرين ، انتهى إلى أن يكون صراعا بين قوى برية وبحرية مطلقة . وبهذا التدريج الوئيد استكملت خطوط الصراعات التاريخية نسيجها لتصل فى النهاية إلى قمة التناقض الجغرافى والاستراتيجى ـ والإيديولوجى كذلك .

فلأول مرة فى التاريخ الحديث لا يخرج صراع القوة عن نطاق غرب أوربا فحسب ، وإنما ـ وقد يكون هذا أشد خطرا وأعمق مغزى ـ يخرج عن دائرة الصراع بين قوى رأسمالية على الجانبين ليتحول إلى صراع بين قوى رأسمالية فى جانب وقوى

اشتراكية أو شيوعية فى جانب آخر . لقد أصبح صراع الأضداد كاملا فى كل معنى ومنحى . وهو ما ينقلنا إلى دراسة هذه القوى الماموث المتنافرة والمتناحرة .

القوى الماموث
الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتى
أوجه التشابه

ويسميها البعض تهكما بالقوى الدينوصورية ! ورغم تلك التناقضات الجذرية فى الموقع والاستراتيجية والإيديولوجية ، فإن بين الولايات والاتحاد مشابهات عديدة . فكلاهما دولة حديثة النشأة وقوة عظمى أشد حداثة . فقد نما كل منهما بصورة غير ملحوظة بل تكاد تكون فى غفلة من العالم ، ثم ظهر فجأة فى مواضع الصدارة ، وعرف العالم بوجودهما وعظمتهما فى وقت واحد تقريبا .

وإذا كان مفكر مثل دى توكفيل[1] قد استطاع فيما يشبه نبوءة عراف ثاقبة أن يتكهن فى القرن الماضى بارتقائهما معا إلى الصدارة العالمية ، فإن هذا الارتقاء جدير بأن يستثير الدهشة مع ذلك . فلقد كانت الولايات مخلوقا سياسيا ـ بل بشريا ـ صغير السن للغاية ، وظل حتى نهايات القرن التاسع عشر قوة زراعية ،أما الاتحاد فمخلوق أغرب .

الروسيا وثورة البيئة

ففى أغلب تاريخها الحديث كانت الروسيا تعيش عصورها الوسطى إلى حد بعيد ، وكانت فى عزلة راكدة كاملة عن كل تخمرات أوربا التاريخية من نهضة إلى إصلاح ، بل كان أثر حملة نابليون عليها حضاريا بمثابة احتكاك الصليبيات مع العرب على أوربا . وحتى عشية الثورة الشيوعية ، كانت الروسيا لم تزل تعيش فى رق وإقطاع وبيروقراطية كلها على مستوى بدائى أسيوى أكثر منه أوربيا ، حتى شبهت بعملاق متهدل متهالك ينزوى فى استحياء على الطرف القصى من المائدة الأوربية ، وإنما بحكم ضخامتها وحدها كانت أوسع من أن يهزمها الأوربيون ولكنها أعجز وأكثر تخلفا من أن يأخذوها بجدية .

---

(١) Alexis de Tocqeville, Democracy in America, 1835.

فكيف حدثت هذه التحولات المريدة ؟ فأما الولايات فقد ورثت حضارة وتكنولوجيا أوربا الأم بخير ما فيها دون شر ما فيها . ثم إنها وجدت فى قارتها البكر الهائلة بيئات طبيعية ومناخية تذكر ، عموما ، ببيئات أوربا إن لم تكررها أحيانا ، وهى على أية حال من أصلح البيئات للنشاط البشرى الكامل . أما الاتحاد فإذا كان قد ورث بيئة حضارية واجتماعية فى أقصى درجات التخلف ، فإن بيئته الطبيعية ببرودتها المتجمدة القارسة البالغة القسوة لا يمكن إلا أن تكون طاردة ووائدة للنشاط البشرى ، أو على الأقل فلم يكن من المتصور قط ـ بقوانين الحتم الجغرافى ، أوحتى برغمها ـ أن تقدم فى يوم قاعدة لإحدى أضخم قوتين عالميتين فى التاريخ .

والحقيقة أن الذى يستثير الدهشة فى طفرة الاتحاد ليس فقط تثوير النظام الاجتماعى بالثورة الشيوعية ، وإنما كذلك ثورة البيئة ـ البيئة الطبيعية بالتحديد ـ التى أحدثتها تلك الثورة الإيديولوجية . فالجغرافى لا يملك إلا أن يرى أن الثورة الشيوعية تحولت أساسا وفى التحليل والترجمة الأخيرين إلى ثورة بيئات خلقت بيئة جديدة ـ وبالذات مناخا جديدا ـ ألغت كل معوقات البيئة الطبيعية الغفل . ونحن نشير هنا إلى الكهرباء بالدقة ، فليس مما لا مغزى له أن كل الثورة الانتاجية والصناعية والحضارية والاقتصادية الهائلة التى خلقها الاتحاد وخلقته إنما يكمن مفتاحها فى كهربة الاتحاد . وهل من الصدفة البحتة أن تكون هذه قيمة الكهرباء فى بيئة مناخية متجمدة بالذات ؟ لقد غيرت بالفعل المناخ الذى تجرى فيه الحياة اليومية للمواطن ، وهى بما أضافته من طاقة اصطناعية بديلا عن طاقة الشمس كانت بمثابة تغيير بالقوة فى خطوط عرض الاقليم ذاته كما قد نقول . وما نظن فى هذا كثيرا من المبالغة ، ولا نعنى به بالتأكيد أن نقلل من وزن الإيديولوجيا لحساب التكنولوجيا ، ولكن حسبنا أنه هو لينين نفسه الذى قال منذ البداية إن « الشيوعية هى كهربة الاتحاد » .

والواقع أن تأخر وصول الاتحاد إلى الصدارة العالمية حتى آخر مرحلة من التاريخ الحديث ، فى حين أن الروسيا دولة قديمة نسبيا من الناحية البشرية ، إنما يعنى أنها كان لابد أن تنتظر وصول التكنولوجيا ووسائل قهر المناخ البارد إلى ذروتها القصوى . والأمر كله يؤكد ما رأيناه من قبل من تحرك مركز ثقل الحضارة والقوة عبر التاريخ من البلاد الدافئة إلى الباردة باطراد متصل بدرجة أو بأخرى .

تلك بعض من جوانب التشابه فى بداية وصعود كل من الاتحاد والولايات كقوى

عظمى . وعدا هذا ، وبعد هذا ، فهما وحدهما اللذان يشتركان فى ثلاث خصائص هى الأساس الشرطى لمقومات القوة فى العصر الحديث : المساحة الضخمة المتصلة ، حجم السكان الكبير ، الموارد الطبيعية الهائلة [1] .

المساحة والموارد

فأما المساحة الضخمة ، فكلاهما أشباه قارات جبارة على أى تقدير . الاتحاد خرج من الثورة وهو أكبر دولة داخلية عرفها التاريخ على الأرجح ، وانتهى وهو يحتل سدس مساحة اليابس ويربو على ضعف مساحة أى دولة أخرى أو على أى دولتين أخريين فى العالم . والولايات وإن كانت أقل كثيرا من نصف الاتحاد مساحة ، فإنها تظل الخامسة بين العالم فى هذا الصدد .

أما سكانا ، فكلاهما يتجاوز الآن علامة المائتى مليون أو بالأحرى علامة ربع البليون ــ الاتحاد يتعداها بوضوح (٢٦٥) والولايات تقع اليوم عليها بالتقريب (٢٣٠) . ثم إن لكل منهما نواة عمرانية وحضارية واضحة تعد مركز الثقل والقوة الحقيقية فيه ، هى الربع الشمالى الشرقى فى الولايات ، والقطاع الجنوبى مما غرب الأورال فى الاتحاد . ولقد تكون نواة الاتحاد أكبر قليلا من نواه الولايات ، كما أنها أكثر تجانسا فى كثافتها وأقل تركيزا .

ولكل منهما بعد هذا درقة ضخمة كالشرنقة السميكة من الأراضى خفيفة الاستثمار والتعمير تغلف النواة وتمنحها عمقا استراتيجيا ودرعا دفاعيا فى الشمال وعلى أحد الجانبين . ولعل الخلفية القطبية ودون القطبية التى تدعم نواة الولايات والتى تشمل كندا أعمق وأوسع قليلا منها فى حالة الاتحاد . والواقع أنه قد يكون من الأصح أن نقارن الاتحاد مساحة وتركيبا وربما سكانا لا بالولايات المتحدة وحدها وإنما بها وبكندا معا [2] .

والقوتان بعد هذا تتشابهان فى أن ترامى رقعتيهما عبر خطوط العرض والطول منح كلا منهما غنى وتنوعا فى الأقاليم الطبيعية والنباتية ، وثراء وتعددا فى الانتاج الزراعى

---

(١) Bowen, op. cit., p. 9.

(٢) Fawcett, Geog. & Emipre, pp. 429-30.

والمعدنى ، اقترب بهما من الكفاية الذاتية والاستقلال الاقتصادى إلى حد بعيد ، وبالتالى جعل تجارتهما الخارجية تمثل نسبة ضئيلة من مجموع إنتاجهما الضخم .

السكان

كذلك فإن السكان فى كل منهما عصبة أمم كاملة : الولايات بوتقة اختلطت فيها كل أجناس العالم ولكن أساسا كل قوميات أوربا بعد أن تخلت جميعا عن أصولها طواعية وطمعا ، والاتحاد مجتمع متعدد العناصر متعدد القوميات ولكنه يؤلف بينها فى تماسك نادر وبنجاح ملحوظ بفضل سياسته الثورية فى تنمية القوميات والحضارات المحلية والمحافظة عليها بدلا من كبتها أو تنميطها ، وذلك فى إطار الاستقلال الذاتى والحكم المحلى . على أن هناك عنصرا معينا يسيطر عدديا وحضاريا فى الحالين : الإنجليز فى الولايات ، والروس فى الاتحاد . وكل منهما لهذا وذاك دولة اتحادية لا وحدوية ، وإن كان حق الخروج من الاتحاد ممنوعا فى الولايات المتحدة ، وغير واضح تماما فى الاتحاد السوفييتى[1] .

العـــزلة

وعدا هذا فإن القوتين تتشابهان فى أنهما كانتا فى عزلة طويلة اختيارية أو جبرية ، ثم خرجتا فجأة إلى العالم الخارجى . فالولايات فى ظل مبدأ مونرو نأت بنفسها عن عمد وبمحض إرادتها عن التورط فى مشاكل العالم القديم ، ولم تشارك فيها إلا راغمة حين بدت أخطاره تهددها فى الحرب الأولى . وبعدها عادت على أعقابها لتنعطف على نفسها فى عزلتها الأثيرة ، إلى أن فرضت عليها الحرب الثانية أن تخرج منها . ومهما يكن ، فإنها فى الحالين لم تدخل الحرب إلا متأخرة سنة أو سنتين نتيجة لترددها وتأرجحها بين العزلة والخروج .

أما الاتحاد فلطالما ضربت أوربا حوله « نطاقا صحيا cordon sanitaire » أيام القيصرية ، فعاشت الدولة فى شبه عزلة . حتى إذا كانت الثورة ، وجدت نفسها مطوقة بل مغزية بجيوش أوربا واليابان فى « حرب التدخل » : جيوش رانجل فى القرم ، جيش كولشاك فى سيبريا ، جيش بولندا فى أوكرانيا ، جيش رومانيا ، جيش بريطانيا

---

(١) East, New Europe, p. 180-1; Cole. p. 235 ff.

فى أركانجل ، وجيش اليابان فى شرق سيبريا ، بل لقد وصلت الأخيرة إلى بحيرة بيكال ! [1] كل أولئك لوأد الثورة فى مهدها ، وكل أولئك دون جدوى . إلا أن الاتحاد بعد ذلك فرضت عليه العزلة المطلقة ، وتجنبه العالم الخارجى كما يتجنب المجذوم ! وكان « الستار الحديدى » حقيقة واقعة لا منذ الحرب حين صك الاسم ولكن منذ ثورة أكتوبر .

التـاريخ الاستعمـــارى

وأخيرا ، فإن كلا منهما بلا تاريخ استعمارى قوى أو محدد شكليا على الأقل ، أو هو بحكم التوسع الأرضى المتصل قد لا يعد استعمارا إلا فى معنى خاص ومن نوع خاص . وعلى أية حال ، فكل منهما ادعى المثالية السياسية فى البداية وتبنى مثلا عليا ضد استعمارية ولم يسع إلى الاستعمار السياسى السافر ، بل ولا يعترف أو يسمح لنفسه به نظريا . وربما كان ذلك لأنهما خرجتا إلى العالم الخارجى وقد أغلق باب الاستعمار عبر البحار تقريبا .

ومع ذلك فإن كلا منهما يتهم الآخر بممارسة الاستعمار بطريقة أو بأخرى . فالاتحاد السوفييتى بعد الثورة ورث إمبراطورية القياصرة كما هى ولم يتخل عن الأقاليم التى عدت استعمارا كوسط آسيا ، بل أكثر من هذا ضم فيما بعد مزيدا من الأراضى . أما الولايات فقد ضمت عديدا من الجزر فى الهادى والكاريبى بالغزو حينا والشراء حينا آخر . وإذا كان الاتحاد يتهم الولايات فى هذا بالاستعمارالاستراتيجى كما يدمغها بالاستعمار الاقتصادى فى العالم الخارجى كبديل عن الاستعمار السياسى المباشر ، فإن الولايات ترد له الاتهام « بالاستعمار المذهبى » أو الأيديولوجى الذى يختفى من السطح ليعمل تحتيا هدما وتخريبا .

وقد خرجت الولايات والاتحاد من الحرب الأخيرة وهما أقوى قوتين على ظهر الأرض ، لا ثالثة لهما . فحتى الإمبراطورية البريطانية فى مجموعها لم تكن لتقارن فى قوتها بأى منهما ، فضلا عن تباعد وانتشار أعضائها أولا ثم تفككها واستقلال أغلبها بعد ذلك ثانيا . فكان هذا التكافؤ أو التقارب فى القوة مما أذكى الصراع وحدة التناقض بينهما كفرسى رهان .

---

(١) إيست ، ص١٦٤ .

التناقض الإيديولوجى والاستراتيجى

وفى مقابل هذه المشابهات ، بقيت الفروق والاختلافات الأيديولوجية والاستراتيجية محورا عميقا للصراع والتناقض . فقد أتى الاتحاد بفلسفة شيوعية شمولية ، ضد رأسمالية ، ضد طبقية ، ضد قومية ، وضد عنصرية ، مبشرا بها كدين جديد بدلا من الأديان المعروفة ، يريد أن ينشره فى العالم أو يفرضه عليه « بالثورة العالمية » التى أصبح تصديرها هو « عبء الرجل الأحمر red man's burden » . ومحور هذه الفلسفة أولا وأخيرا هو ديكتاتورية البروليتاريا . وإذا كان البعض يرجع بجذور هذه الديكتاتورية الجديدة إلى التقليد الاستبدادى الداخلى الذى رأيناه للروسيا القديمة ، فإن البعض الآخر لا يرى فى الإيديولوجية الشيوعية كلها إلا شعارا أو ستارا جديدا « لقوة استبدادية عدوانية توسعية » لا تقل قدما وتغلغلا فى الكيان الروسى الأصيل نفسه[1] .

وعلى النقيض من هذا وقفت الولايات المتحدة كأعلى وأعتى رمز للرأسمالية الجامحة ، هرمية الطبقات ، تتعصب للقومية الذاتية مثلما تمارس التفرقة العنصرية ضد الأجناس الأخرى فيها . وفى مقابل الإيديولوجية التى تقدم بها الاتحاد السوفييتى إلى العالم كنقطة قوته ودعوة حياته ، شرعت الولايات المتحدة التكنولوجيا كنقطة تفوق نظامها ، وقدمت فلسفة مضادة ترى تطور التاريخ والمجتمع فى مراحل التكنولوجيا لا فى مراحل الصراع الطبقى ، وتكاد تعتقد على أية حال أن هذا العصر هو فى النهاية عصر الصراع بين الإيديولوجية والتكنولوجيا ، بين الثورة الاجتماعية والثورة التكنولوجية . أقطاب متنافرة ، وتناقض حياة أو موت ، ومن ثم أقدار متصادمة ... وهكذا بالفعل كان . اعتبرت الولايات ومعها أسلافها وحلفاؤها دول الغرب الصراع ضد الشيوعية حربا صليبية وكفاحا مقدسا ، وخرجت لمحاصرته ومبارزته .

قوى بر وبحر

وأخذ هذا التناقض صورة جغرافية محددة حين أصبح الصراع الاستراتيجى هو بين قوى بر مطلقة وقوى بحر مطلقة ، يكفى لنرمز للفروق بينهما أن نذكر أن الروسيا أو الاتحاد كانت تاريخيا أرض معركة لحروب الكر والفر ، والانسحاب والانقضاض ، بينما أن الولايات المتحدة لم تطأها أقدام الغزاة ولا حتى طائراتهم منذ بداية القرن التاسع عشر

(١) Z. Brzezinski, Ideology and power in Soviet policy, N.Y., 1973.

(١٨١٢) . وتبلور هذا التضاد الاستراتيجى بعد الحرب حين احتفظ كل منهما بمواقعه ومكاسبه الاقليمية .

فالاتحاد من ناحيته ضم منافذ البلطيق وحول دويلاته إلى سوفييتات لا تتجزأ منه ، بالاضافة إلى قطاع ضخم من شرق بولندا وشريحة من رومانيا . وخارج هذه الحدود الجديدة أصبحت دول شرق أوربا حتى ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا والمجر ، مضافا إليها كل البلقان عدا اليونان ، أصبحت جميعا دولا شيوعية ملتحمة بالاتحاد أشد الالتحام ، مصيريا وبقائيا ، اقتصاديا وحربيا . أصبحت كتوابع أو أقمار تدور فى فلك شمس الاتحاد . ويلخص هذه الكتله سياسيا حلف وارسو ، واقتصاديا منظمة الكوميكون .

ولقد كان معنى هذا أن قوة البر العظمى المرتكزة على أوسع قاعدة فى أوراسيا قد تضخمت حتى ابتلعت لأول مرة المنطقة البينية أو الأمفيبية التقليدية التى تقع فى شرق أوربا حتى وسطها ، ووصلت بذلك إلى البحار المفتوحة فى البلطيق وبحر الشمال والبحر الأسود ومشارف البحر المتوسط ، ولم تعد بذلك حبيسة قاريتها . لقد اتحد الفيل والتمساح فى حظيرة واحدة .

وبالاضافة إلى هذا فلم تلبث كتلة الصين الضخمة . وقد استيقظت من بياتها الشتوى التاريخى وتجدد شبابها بالثورة ، أن انضمت إلى المعسكر الشيوعى ، لتؤكد فيه أكثر وأكثر صفة القارية والامتداد المتصل بلا انقطاع ابتداء من بحر الشمال حتى المحيط الهادى الجنوبى ، ومن القطبيات حتى المداريات . وكنتيجة لهذه التوسعات المطردة ارتفعت نسبة الكتلة الشيوعية باطراد : فقبل الحرب كانت تضم نحو ١٠٪ من سكان العالم ، وفى ١٩٥٥ بلغت ٢٦٪ من مساحة العالم ، ٣٦٪ من سكانه ، وتسيطر على ٣٠٪ من انتاجه الصناعى . أى كانت بوجه عام تزيد عن الألف مليون نسمة[1] .

ماذا عن الجانب المقابل ؟ هنالك التأمت كل أوربا الغربية تحت زعامة ـ ولا نقول وصاية أوحماية ـ الولايات فى كتلة مضادة تمتد من أشباه جزر البحر المتوسط حتى أشباه جزر سكندنافيا ، بعمق فى الداخل يصل إلى ألمانيا الغربية ويستوعبها . ومعنى ذلك أن

---

(١) Keith Buchanan, "West Wind, East Wind", Geog., Nov. 1962 p. 334; J.P. Cole, p. 245.

قوى البحر فى أوربا جميعا ، ومن ورائها موارد مستعمراتها عبر البحار ، ومن خلف الجميع قوة البحر الكبرى أمريكا ، قد تجمعت فى حلف مقدس ضد الاتحاد وكتلته .

الاستقطاب الثنائى

وعلى الفور تبدو المحصلة الاستراتيجية العامة للموقف وقد استقطب العالمان المتنافران « استقطابا ثنائيا bi-polarisation » فى كتلتين رهيبتين تتقاسمان العالم كمعسكرين مسلحين كالترسانة ، وتقفان وجها لوجه بغير حاجز أرضى أو فاصل اقليمى بينهما : الكتلة الشرقية الشيوعية ، والكتلة الغربية الرأسمالية . والنقطة الحيوية أنه باختزال المنطقة البينية الفاصلة ، قد تأكد لأول مرة النمط الجيوستراتيجى الجديد للعالم : لقد أصبح العالم سياسيا « نصفى كرة » ، بعد أن ظل قرونا وهو يمثل نظاما واحدا مغلقا يبتلع الكرة الأرضية بأسرها . غير أننا لن ننسى فى هذا الانقلاب أن « نصف الكرة » الماركسى ماظهر ولا فرض نفسه إلى جوار النصف الرأسمالى إلا بفضل استفادته إلى أقصى حد من الصراعات الداخلية والتناقضات الغائرة بين قوى هذا الغرب . وفى النتيجة زال إلى الأبد احتكار القوة فى يد الغرب الأوربى ، وانتقل العالم لأول مرة فى التاريخ الحديث إلى مرحلة ثنائية القوة . وذلك هو المغزى العميق ، والمفعم بالنتائج ، لآخر تطورات الصراع العالمى .

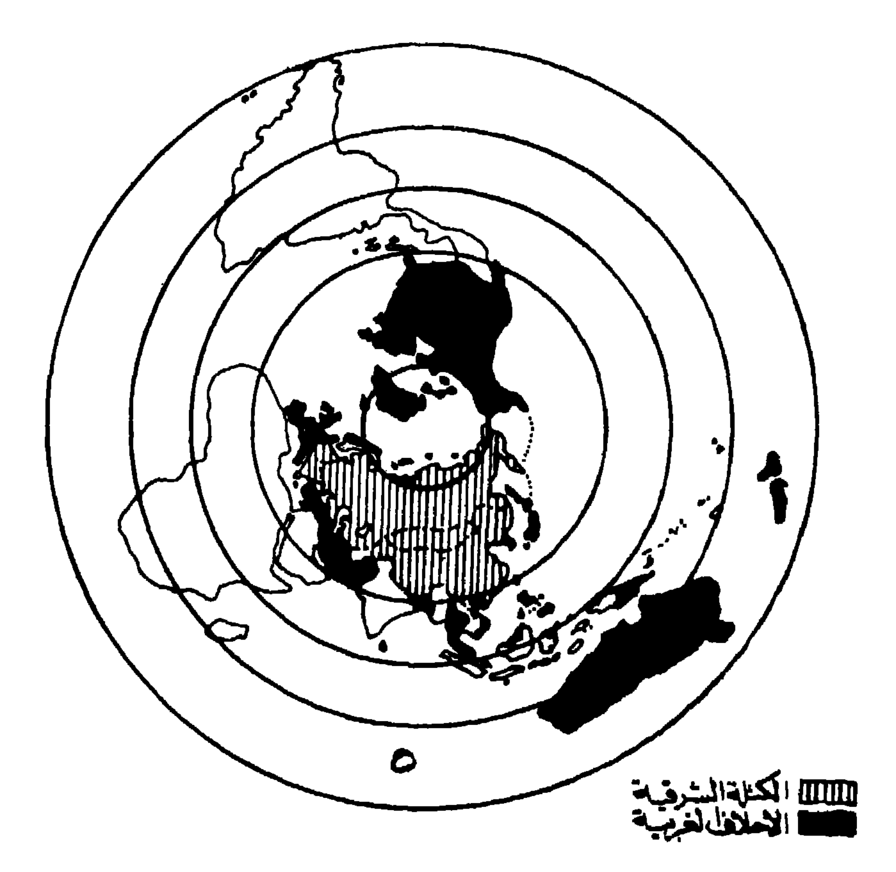
وسيلاحظ فى هذا النمط الثنائى البتار ظاهرة لها مغزاها . فعلى طول جبهة الالتحام بين المعسكرين تنتثر الدول والوحدات الممزقة التى أخضعها الاستقطاب الثنائى لقسمته السليمانية ـ فى الشرق على محور عرضى وفى الغرب على محور طولى . فثمة فى الشرق كوريا الشمالية والجنوبية ، والصين الشعبية والوطنية ، ثم حتى قريب فيتنام الشمالية والجنوبية . وفى الغرب يبدأ الانشطار من مستوى الدولة حتى يصل إلى مستوى المدينة ، على الترتيب أوربا الشرقية زالغربية ، ألمانيا الشرقية والغربية ، وبرلين الشرقية والغربية !

الاحـتواء

وعند هذا الحد سيلاحظ أن الكتلة الغربية بفضل مستعمراتها المترامية حول العالم ، كانت عشية الحرب أكبر مساحة وسكانا من الكتلة الشرقية ، وأخطر من ذلك أنها كانت تطوقها من الغرب والجنوب والشرق ، بل ومن الشمال كذلك حيث تقترب أمريكا الشمالية اقترابا شديدا من شمال أوراسيا عبر المحيط المتجمد . وبمعنى آخر فقد

كانت الكتلة الشرقية تمثل جزيرة ـ ضخمة حقا ولكن جزيرة فى النهاية ـ فى وسط بحر الكتلة الغربية . ومن هذه الحقيقة الجغرافية نبعت كل استراتيجية الغرب بعد الحرب .

الاحتواء containment أو الإحاطة encirclement هى جوهر تلك الاستراتيجية ، ومعمارها سلسلة متصلة الحلقات من الأحلاف العسكرية السياسية ، الدفاعية الهجومية ، تتحلق حول الاتحاد وتنقطها نحو ١٠٠ من القواعد الحربية والبحرية والجوية . أما مهندسها فهو الولايات المتحدة التى تختزن نصف مجموع قواتها المسلحة تقريبا فى تلك القواعد . فهناك من الشمال الغربى حلف الأطلنطى Nato ـ وما هو باسم على مسمى تماما ـ رأس السلسلة والركيزة الأساسية التى تترامى من النرويج حتى تركيا بلا انقطاع حول أوربا .



شكل (٢٢) الاستقطاب الثنائي ، واستراتيجية الإحاطة والاحتواء .

ثم يلى حلف بغداد سابقا والحلف المركزى Cento بعد ذلك فى الشرق الأوسط . هذا عدا حلقة أخرى ـ مفقودة ـ هى منظمة حلف دفاع الشرق الأوسط Medo حاول الغرب عبثا أن يفرضها على العالم العربى . ثم يأتى فى النهاية حلف جنوب شرق آسيا Seato وبعده تتكفل قوة الولايات المتحدة نفسها بالضلوع الشرقية للمعسكر الشرقى ، لا سيما بفضل وجودها فى اليابان المحتلة وكوريا الجنوبية وصين فورموزا .

لقد ضرب الغرب فى مقابل « الستار الحديدى » الشيوعى نطاقا ناريا أو حلقة حديدية رأسمالية ! وبين هذا وذاك استعرت « الحرب الباردة » واشتعل السلم المسلح ! (والتعبيران التاريخيان صكهما تشرتشل فى خطابه الشهير بفلتون بأمريكا Fulton speech غداة الحرب والنصر مباشرة . وبهذا اعتبر الخطاب بمثابة إعلان للحرب المقدسة أو الجهاد ضد الاتحاد ، وعد تشرتشل مهندس الحرب الباردة مثلما كان مهندس الحرب الساخنة من قبل) . ولن يخفى أن الكتلة الشرقية فى هذا كانت عشية الحرب أقرب إلى موقف الدفاع ، بينما أن الكتلة الغربية كانت أقرب إلى الروح الهجومية .

أرض المعركة

على أنه قد كان من الواضح فى ظل الاستراتيجية التقليدية أى السابقة للذرة أن الغريمين الجبارين إذا أرادا أن يشتبكا فى معركة ، فإن أرضها لا يمكن إلا إن تكون فى غرب أوربا . لماذا ؟ ـ لأن هناك ثلاثة ميادين واتجاهات فيها يواجه كل منهما الآخر مباشرة : الاتجاه القطبى فى الشمال ، ودائرة الهادى على أحد الجانبين ، ونطاق غرب أوربا على الجانب الآخر[1] .

فأما الطريق القطبى فصحيح أنه لم يعد بحرا جليديا مغلقا تماما بفضل التطورات البحرية الحديثة وخاصة جهود الروس فيها ، وأهم من ذلك أن الطيران قلب قيمته الاستراتيجية كلية فجعله أقصر طريق بين الاتحاد والولايات بل جعله فى رأى البعض « البحر المتوسط » القطبى الجديد . ولكنه مع ذلك يظل غير صالح إلا للغارات الجوية المداهمة وعمليات التدمير الفجائية stunt flights وليس لحركة الجيوش .

أما جبهة الهادى إزاء سيبيريا وألاسكا ، حيث يكاد يتماس العملاقان ، فطريق برى

(١) فوست ، ص٤٣٠ .

طويل جدا ومتطوح عن القاعدة البشرية والعمرانية الكبرى فى كل من الاتحاد والولايات على حد سواء . ولهذا لا يبقى إلا جبهة غرب أوربا التى أصبحت بذلك أرض تخوم بكل معنى الكلمة بين الاتحاد والولايات وخط الدفاع الأول عن الأخيرة ، حتى لقد عدها البعض حينذاك أهم منطقة استراتيجية فى العالم . من هنا تأتى أهمية حلف الأطلنطى الحيوية والحرجة معا .

فروق جيوستراتيجية

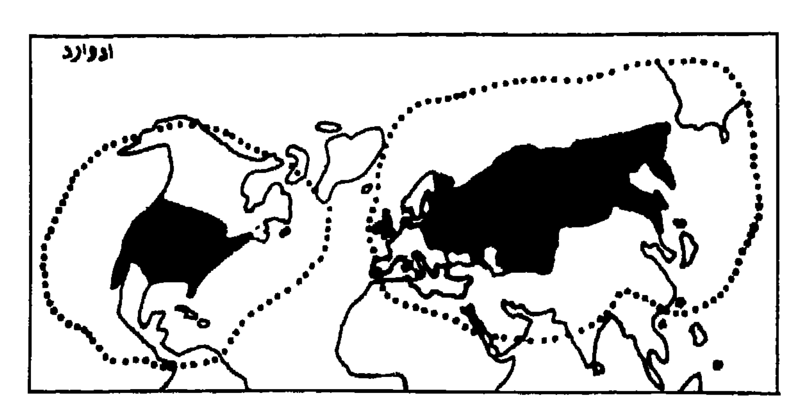
وهناك بعد هذا بعض فروق جغرافية بين المعسكرين والقطبين تؤثر فى استراتيجية كل منهما . فبين المعسكرين نجد أن المعسكر الشرقى كتلة أرضية واحدة متصلة بلا انقطاع ، بينما يتألف المعسكر الغربى من جزيرتين كبيرتين هما غرب أوربا وأمريكا الشمالية ، يفصل بينهما كالأخدود المحيط الأطلسى . ومع ذلك فلا ينبغى أن ننسى أن المعسكر الشرقى رغم اتصاله الأرضى شكلا ، فهو أيضا ينقسم (أوكان) إلى جزيرتين بشريتين عظيمتين هما شرق أوربا والاتحاد فى الغرب ، وكتلة الصين وزوائدها كوريا وفيتنام فى الشرق ، ويفصل بينهما « خط الاستواء الصحراوى » الهائل فى العالم القديم ممثلا فى صحارى ومرتفعات وسط آسيا وسيبريا .

ثم يأتى فارق جغرافى آخر بين القطبين . فبحكم الموقع ، يستقر الاتحاد فى نصف الكرة « اليابس » ، بحيث يتصل مع ، أو يقترب من ، رقعة كبيرة من مسطح الأرض وعدد وفير من الدول ونسبة هامة من البشرية . وهو لهذا يستطيع أن يضرب وأن يتمدد بسهولة وفاعلية فى مدى نطاق ضخم بمجهود أقل . أما الولايات المتحدة فمعزولة فى نصف الكرة « المائى » عن كتلة اليابس وجمهرة الدول وأغلبية سكان العالم ، وعليها لكى تصل إليها أن تنفق مجهودا وتتكلف باهظا للانتقال إلى مسرح الصراع . ويتضح هذا إذا نحن رسمنا خطوط أبعاد متساوية isostades حول حدود كل منهما وموازيه لها . فمثلا خط أبعاد ١٥٠٠ ميل يضع الاتحاد فى احتكاك أو اتصال بمساحة ضخمة من الأرض والناس ، ولكنه لا يكاد يضيف إلى الولايات شيئا من ذلك[١] .

تلك إذن ، فى خطوطها ومحاورها العريضة وهيكلها الأساسى ، هى استراتيجية الصراع الجديد كما تشكل عشية الحرب الأخيرة ، وكيف تطورت بالتدريج الوئيد عن

---

(١) جون كول . ص ٢٧١ - ٢٧٢ .



شكل (٢٣) خط أبعاد ١٥٠٠ ميل حول الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة

وضعيات وأنماط الصراعات التاريخية السابقة . ولكن فترة ما بعد الحرب ستحمل فى أحشائها بذور تغييرات انقلابية بالغة الخطورة . ولهذا يجدر بنا قبل أن ننتقل إليها أن نتوقف قليلا لننظر إلى الخلف ، إلى الخلفية التاريخية بكامل طولها كشريط سينمائى أو كتيار متصل ، لنرى أى درس فلسفى تعلم ، وإذا ما كان فى الامكان أن نركز هذا الدرس فى معادلة استراتيجية اختزالية مكثفة .

الفصل العاشر

النظرية العامة فى الاستراتيجية العالمية

بمعنى آخر . إنها نظرية عامة فى الاستراتيجية العالمية تلك التى آن لنا أن ننشدها بعد أن تتبعنا ، فى موضوعية تقريرية بقدر الامكان ، مراحل التاريخ وأدوار الصراع . ولسوف تكون مثل هذه النظرية بطبيعتها ، وبالضرورة ، محاولة شخصية تقديرية أكثر منها موضوعية تقريرية . يجوز أن تكون موضع خلاف أو محل تعديل ، ولكن هذا لن يقلل من خطرها . لأنها ـ بالاسقاط المستقبلى ـ يمكن دائما أن تخضع للتحقيق والاختبار . فإذا ما نجحت فيمكن أن تكون بوصلة للمستقبل ومؤشرا للتنبؤ الاستراتيجى . وهى بهذا جديرة بأن تكتسب قيمة كبرى فى التطبيق العملى عند الاستراتيجيين والساسة ، إلى جانب قيمتها الأكاديمية للجغرافى والمؤرخ وطالب العلوم السياسية .

ونبدأ على الفور فنقول إن الذى قدم مثل هذه النظرية العلوية الطموح هو الجغرافى السياسى الكبير هالفورد ماكيندر ، الذى طالما اعتمدنا فى بحثنا هذا على كثير من الحقائق والتفاصيل التاريخية التى أوردها فى عرض نظريته . وما نعرف محاولة لوضع مثلها قبله إلا اقتصرت على جزئيات ضيقة غير مكتملة ، ولا بعده إلا وكانت تعديلا له أو تعليقا عليه . فقبله تكلم الجغرافى الألمانى الكبير راتزل فى ١٩٠٠ كثيرا عن قوة البر إزاء قوة البحر ، وسبق ماكيندر إلى التنبؤ بأن النصر النهائى سيذهب إلى قوة البر بفضل تفوق مواردها [1] .

وقبله كذلك تكلم الأميرال ميهان عن قوة البحر ودورها فى التاريخ فى كتابه Influence of Sea Power on History . وهو ـ وقد كان يكتب فى عصر سيادة بريطانيا

---

(١) Bowen, "Geog. of Nations", p. 4.

المطلقة على البحار ـ يرى أن الغلبة فى الصراع من أجل السيادة العالمية مقدرة للقوة البحرية بفضل مرونتها وحريتها فى الحركة وإمكان اعتمادها على موارد ما وراء البحار. وعلى هذا الأساس دعا بلده الولايات المتحدة إلى بناء قوة بحرية ضخمة تتكافأ مع قاعدتها الأرضية العظيمة من ناحية، ومحيطيها الهائلين من ناحية أخرى، وطالب بحفر قناة بنما لتتحول بها من دولة ساحلين إلى دولة ساحل واحد، وحدد مجال نفوذ الولايات البحرى بغرب الأطلسى وشرق الهادى، واعتبر أن الدفاع عن الولايات المتحدة لا يبدأ عند سواحلها بل عند حدود هذا المجال البحرى، ورأى أن بريطانيا هى الحليف البحرى الطبيعى للولايات، وتنبأ بعد هذا بأهمية جزر الهادى هاواى والفلبين كقواعد أمامية متقدمة للدفاع، كما تنبأ بخطورة جزر الكاريبى بالنسبة لبرزخ بنما، وأوصى بضرورة السيطرة على هذه وتلك، أى دعا إلى الاستعمار البحرى بصراحة[1].

ومن الواضح أن جميع آراء وتوصيات ميهان قد نفذت بالفعل حوالى دورة القرن فى إدارة تيودور روزفلت. وواضح كذلك أن دعوته متفائلة بالنسبة للقوى البحرية، إذ يبشرها بالانتصار. على أن الأوضح أنها لا تقدم نظرية استراتيجية كاملة بمعنى الكلمة وإن فسرت جانبا من الحقيقة. بالاختصار، لقد قدم آراءه فى إطار ومجال أمريكى أولا، وفى ظل عصر السيادة البحرية القائمة ثانيا.

أما بعد ماكيندر فليس ثمة إلا تعديلات وتحفظات على النظرية، تملأ ثغراتها أو توضح معالمها دون أن تهز أركانها على الأرجح. ولعل أهم هذه التعليقات ماجاء من أقلام الجغرافيين البريطانيين أيضا، فوست وفيرجريف وإيست، ثم العالم السياسى الأمريكى سبيكمان. فكان فوست أكثر حذرا فى تفسير الحقائق الطبيعية والبشرية، الأمر الذى دعم النظرية أكثر مما قوضها. أما فيرجريف فقد كتب كتابا كاملا عن «الجغرافيا والقوة العالمية» تبدو فيه بلا جدال إفادته الكبيرة من ماكيندر، مثلما يبدو فى نهايته تحديد أدق وأوضح لخطوط النظرية أثراها بالتأكيد. بل سنرى أن كتابه هذا سيقرن فى الترجمات الأجنبية فى الخارج بكتابات ماكيندر. أما سبيكمان فقد أدخل تعديلات جوهرية على صلب النظرية قد تصل إلى حد الانتقاض عليها. وسنعرض نحن أولا لنظرية ماكيندر ثم نردفها بتعديلاتها وتفريعاتها المختلفة هذه.

---

(١) الجيوبولتيكا، ج١، ص٢٠٧ ـ ٢٠٩.

ماكيندر والهارتلاند

نشر ماكيندر أساسيات نظريته فى ١٩٠٥ فى مقال قصير وسعه إلى كتاب فى ١٩١٩ ، ثم عاد فى مقال أخير فى أثناء الحرب الثانية ليعدل بعضا من آرائه لتتفق مع تطورات السياسة العالمية[١] . وقد بدأ بالنظر إلى العالم ككل ، فوجده يتوسع بالتدريج عبر التاريخ نحو وحدة كوكبية . فمع تطور الحضارة ، ولاسيما منها وسائل النقل والمواصلات ، اتسع نفس الحركة البشرية ومدى الترابطات الانسانية ، إلى أن كان القرن التاسع عشر فوحدت القاطرة القارات والباخرة المحيطات ، وفى القرن العشرين أحكمت الطيارة نسج الجميع فى وحدة كوكبية شاملة حتى لم يعد هناك « إقليم كامل متكامل أقل أو أكثر من سطح الأرض جميعا » .

وعلى هذا نظر ماكيندر إلى العالم القديم كقارة واحدة ضخمة ذات ثلاثة فصوص ملتحمة ، يتوسطها اسما وفعلا البحر المتوسط ، وتضم ثلثى مساحة اليابس ، ودعاها « الجزيرة العالمية World Island » . وتضم الجزيرة العالمية وحدها سبعة أثمان سكان العالم ، بل ١٥ على ١٦ إذا أضفنا الجزر التى تحف بسواحلها . أما القارات الأخرى . الأمريكتان وأستراليا ، فلا تزيد مساحة عن ثلث اليابس ، وسكانا عن ١ على ١٦ من البشرية . فهى إذن لاتزيد عن أن تكون أقمارا صغيرة مبثوثة حول الجزيرة العالمية وتدور فى فلكها . والكل يقع فى محيط واحد وإن تعددت أسماؤه هو « المحيط العالمى World Ocean » .

الأقاليم الثلاثة

ثم نظر ماكيندر إلى هذه الجزيرة العالمية فوجد لها قلبا يمثل محور ارتكازها ونواة العالم القديم ، دعاه أولا منطقة الارتكاز Pivot Area ثم عدله إلى قلب الأرض Heartland . وقلب الأرض فكرة طبيعية مركبة ، هى محصلة عناصر ثلاثة : سهولة التضاريس ، الصرف الداخلى ، وسيادة الحشائش . وعلى هذا الأساس الثلاثى يمتد الهارتلاند من حوض الفولجا غربا حتى سيبيريا شرقا وقلب إيران جنوبا . وهو بهذا يضم مساحة ضخمة

---

(١) Geographical Pivot of History; Democratic Ideals & Reality; "The Round World & the Winning of Peace", Foreign Affairs, 1943, p. 595-605.

متصلة بلا انقطاع من أوراسيا تبلغ ٢١ مليون ميل ، وتبتلع كل الاستبس الأسيوى ، فيبدو كما لو كان قارة داخل قارة الجزيرة العالمية .

الهـارتـلانـد

ولأن الهارتلاند سهلى فى مجموعه ، عشبى فى غطائه ، فهو منطقة الرعاة بالضرورة وإقليم حركة الخيالة والفرسان بامتياز . ولأن الهارتلاند منطقة صرف داخلى تضيع أنهارها فى قلب القارة فى بحار داخلية أو تنتهى مشلولة إلى المحيط المتجمد فى الشمال ، فهى منطقة لايمكن للأساطيل البحرية الساحلية أن تصعد فيها ، وبالتالى لايمكن أن تلجها . إنها المنطقة الوحيدة على سطح الأرض التى تترامى مساحتها بما فيه الكفاية لكى تبتعد ابتعادا سحيقا عن البحار والسواحل ، وبالتالى تمتاز بحصانة طبيعية تامة ضد الغزو البحرى .

ومن ثم فهى يمكن أن ترسل تباعا بموجات الفرسان والرعاة على الأقاليم المجاورة ، ولكن يستحيل على تلك الأقاليم أن تتبعها داخل الهارتلاند لترد عليها . وبالفعل فإن التاريخ يسجل عشرات الموجات والغزوات التاريخية ، ابتداء من الهون والآفار حتى المغول والأتراك والتتار ، خرجت من الهارتلاند تضرب فى كل اتجاه دون رادع حقيق يتعقبها فى عقر دارها . ومعنى هذا أن الهارتلاند يمكن أن يهاجم لكنه لايهاجم : إنه قلعة دفاعية طبيعية ــ أعظم قلعة دفاعية ــ على الأرض ، وأضخم معقل لقوة البر ، وأمثل نموذج للدفاع بالعمق .

ولقد ظلت قوة الهارتلاند محدودة مابقيت كل قاعدة اقتصادها الرعى وكل قوتها البشرية الرعاة . ولكن الأمر اختلف تماما حين تحول إلى اقتصاديات الزراعة والصناعة الحديثة ، واستقرت جذور السكان فى الأرض وتضخمت قوتهم البشرية عدديا . وقد حدثت هذه الثورة الحقيقية حين وحد من مسكوفى ، وورثت الروسيا إمبراطورية المغول ، وحلت حركة القطار محل حركة الخيل . ولعل أثر القطار كان أخطر فى الهارتلاند منه فى أى منطقة أخرى فى العالم ، فقد أصبح أداة توحيده سياسيا واستراتيجيا .

وما الضغوط التى مارستها الروسيا والاتحاد السوفيتى فى تاريخها الحديث على دويلات البلطيق وبولندا وشرق أوربا وتركيا والشرق الأوسط وإيران والهند والصين إلا الترجمة الحديثة للضغوط التى سبق أن مارسها رعاة الاستبس على جميع حواف

الهارتلاند . والآن ـ ولأول مرة فى التاريخ ـ تحتل قلعة الهارتلاند حامية كافية فى عدد وكفء فى العدة .

الهـلال الخـارجى والداخـلى

وعلى الطرف النقيض من الهارتلاند تعرف ماكيندر على نطاق ساحلى محيطى بحت ضخم يغلف الجزيرة العالمية على شكل هلال متصل بدرجة أو بأخرى . ذلك هو « الهلال الخارجى أو الجزرى Outer or Insular Crescent » الذى يضم بريطانيا وكندا والولايات المتحدة وجنوب أفريقيا وأستراليا واليابان . وهذا النطاق هو مهد القوى البحرية ويتمتع ، منذ الكشوف الجغرافية ، بحركة وحرية الملاحة على أوسع نطاق فى المحيط العالمى . . هو الذى وضع بالفعل هيكل الاستعمار البحرى كنظام كامل فى العصر الحديث .

وأخيرا ، وبين الهارتلاند البرى البحت والهلال الخارجى الجزرى البحت ، يضع ماكيندر نطاقا ثالثا يسميه « الهلال الداخلى Inner Crescent » يضم ألمانيا ، النمسا ، تركيا ، الهند ، والصين . والنطاق بطبيعته برى جزئيا ، محيطى جزئيا . ومن الواضح أن هذا يقابل ماوصفناه من قبل بالمنطقة الأمفيبية أو البينية . ولكن لعل خير تسمية له هى ماقدم فيرجريف ، إذ دعاه « بمنطقة الارتطام أو الالتحام Crush Zone[1] » . وهى تسمية موفقة للغاية لأنها تعبر عن طبيعته كضحية للتصادم وكأرض للمعركة بين الهارتلاند والسواحل .

درس التـاريـخ

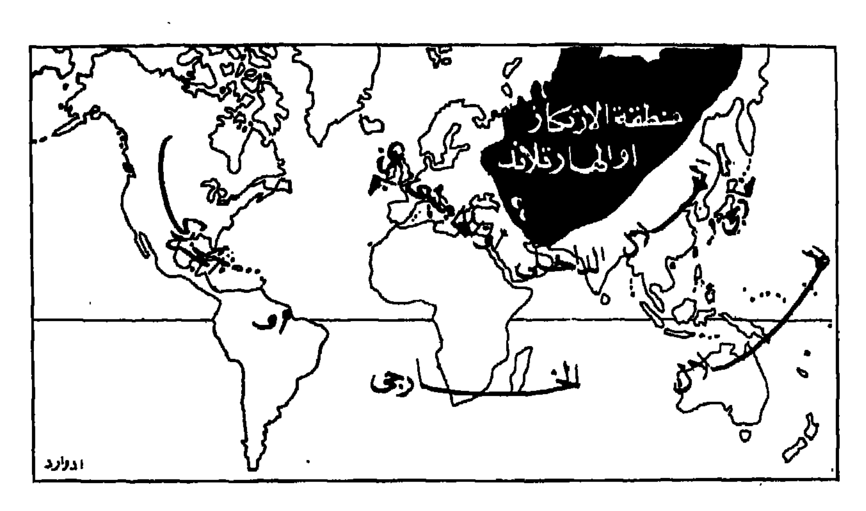
وقد تعمق ماكيندر التجربة التاريخية للسواحل الهامشية فى صراعها مع القوى القارية ، فوجد أنه رغم سيادة القوى البحرية المطلقة ممثلة فى بريطانيا على البحار ، ورغم مايبدو فى القرن التاسع عشر وفى الحربين العالميتين من أن كفة القوى البحرية هى الراجحة ونجمها هو الصاعد ، إلا أن هذه نظرة جزئية وللتاريخ فى مجموعه درس آخر . فهو نذير دائم للقوى الساحلية ، البحرية ، وتحذير لها من أن تطمئن تماما إلى تفوقها وسيادتها .

---

(١) Geography & World Power. p. 334.

حقا إن الوحدات الساحلية البحرية تمتاز بنمو مبكر precocious بفضل ماتتمتع به من حماية طبيعية ، ولها بحكم حركتها الطلقة واتصالاتها وانفتاحها على العالم فضل المبادرة إلى التحضر والثروة سواء بالتجارة أو بالاستعمار ، وبالتالى فلها ميزة السبق إلى القوة . ولكنها فى النهاية تعانى من صغر القاعدة الأرضية ، إن لم تكن ضالتها أحيانا . وفى المدى الطويل ، لا تلبث الوحدات القارية الضخمة أن تلحق بركب التطور والحضارة ، فتنطلق من قاعدة أرضية فسيحة غنية منوعة نحو السواحل والبحار ، وعندها تسقط لها الوحدات البحرية كالثمرة الناضجة كما لو بحكم القدر .

وما أكثر الأمثلة فى درس التاريخ : ما إن وحدت إيطاليا تحت روما حتى أصبحت صقلية تابعا لشبه الجزيرة . ما أن نضجت اليونان سياسيا وماديا حتى فقدت كريت لها استقلالها وقوتها ، وكانت من قبل مركز الحضارة والسيادة . ما إن ظهرت قوة مقدونيا الأكثر قارية حتى سقطت لها اليونان الأكثر بحرية . وما أن ظهرت قوة روما حتى سقطت لها اليونان[1] .



شكل (٢٤) نظرية ماكيندر في الهارتلاند . لاحظ التركيب الحلقي حول منطقة الارتكاز

هكذا قد تبدأ الغلبة والسيطرة للجزر على أشباه الجزر ، ولأشباه الجزر على الوحدات القارية ، ولكنها تعود فى النهاية لتستقر فى أيدى الوحدات القارية الضخمة .

---

(١) Democratic Ideals, p. 50 et seq.

من هنا يرفع ماكيندر صيحة التحذير للقوى البحرية ، ويقرع نواقيس الخطر بالنسبة للمستقبل ، ويرفض أن يخدعه تفوقها الحالى أو القريب ، ولا يجد مبررا لأن يفترض أن المستقبل يمكن أن يختلف عن الماضى .

وفى هذا السياق يعود ماكيندر إلى الحاضر ، فيجد أن « رجحان كفة القوة فى صف دولة الهارتلاند جدير بأن يؤدى بها إلى توسعها على حساب الأراضى الهامشية فى أوراسيا وبالتالى يمكنها من أن تجند مواردها القارية الضخمة لبناء الأساطيل البحرية ، ومن ثم تكون الإمبراطورية العالمية على مرأى النظر . ومن الممكن أن يحدث هذا لو أن ألمانيا تحالفت مع الروسيا » (الاتحاد السوفيتى) ، أى إذا اتحد الهارتلاند بصورة أو بأخرى مع الهلال الداخلى ، سواء كانت السيطرة فى هذا الاتحاد للروسيا أو لألمانيا ، وسواء تم هذا الاتحاد بالغزو أو بالاتفاق .

المعادلة والتطبيق

وعند هذا الحد يتضح بجلاء أن شرق أوربا هو مفتاح الهارتلاند . وبالتالى يصل ماكيندر إلى معادلته الثلاثية الشهيرة التى تلخص كل نظريته التى جاءت أحداث الحربين العالميتين مصداقا لكل فروضها :

- من يحكم شرق أوربا يسيطر على الهارتلاند .
- من يحكم الهارتلاند يسيطر على الجزيرة العالمية .
- من يحكم الجزيرة العالمية يسيطر على العالم .

وفى هذا الضوء يرى ماكيندر أن الحرب العالمية الأولى ، وأكثر منها الثانية ، هى حرب مباشرة بين القاريين والساحليين ، بين قوى البر والبحر بلا أدنى جدال . وفى كلتا الحربين حاولت ألمانيا أن تخضع الروسيا أو الاتحاد السوفيتى لتسيطر على الهارتلاند . وإذا كان قد حدث العكس بالفعل ، وانتهت الحرب الأخيرة بسيطرة الاتحاد السوفيتى على كل شرق أوربا بما فيه شرق ألمانيا ، فإن هذا لا يغير من النتيجة فى شىء ، وإنما يستبدل بألمانيا الاتحاد السوفيتى كالقوة التى تسيطر على الهارتلاند ومفتاحه شرق أوربا ، ومن ثم التى يمكن أن تسيطر بعدها على الجزيرة العالمية ، فالعالم فى التحليل الأخير.

وهو بعد يرى أن الاتحاد السوفيتى قد خرج من الحرب وهو أعظم قوة برية على وجه

الأرض ، وأكثر من ذلك ، وهو فى أقوى وضع دفاعى استراتيجيا ، بينما يجد أن الجزر البريطانية فى المحيط المتوسط (الأطلسى) أصبحت فى عالم المردة الجديد أشبه شىء بمالطه فى البحر المتوسط ، وليس هناك مايمنع لذلك من أن تقع فى يد قوة قارية بالغزو ، أو على الأقل أن تزداد التحاما بالقارة فى سياستها ومصيرها . وهذا الوضع برمته يعيد إلى الأذهان بقوة درس التاريخ مابين القوى البحرية الصغيرة (ولكن السابقة) والقوى البرية اللاحقة (ولكن الضخمة) .

وعلى هذا فمستقبل العالم يتوقف فى هذا المنطق على حفظ التوازن فى القوى بين الأقاليم الساحلية وبين القوى الداخلية المتوسعة . وفى سبيل هذا التوازن نصح ماكيندر بخلق نطاق من الدول الصغيرة المتماسكة فى شرق أوربا ـ الصف الأوسط Middle Tier كما دعاه ـ حتى يفصل بين الهارتلاند والقوى الساحلية ويعزله عنها . وقد تحقق هذا بالفعل منذ فرساى ، إلا أن هذا الصف الأوسط نفسه أصبح جزءا من الكتلة الشرقية ، أى ارتبط الهلال الداخلى بالهارتلاند أوثق الارتباط . ولهذا فإن التوازن المطلوب لابد أن يأتى الآن من جانب الولايات المتحدة ، أكبر وآخر معاقل القوة البحرية .

ومع ذلك فينبغى ، عابرين ، أن نلاحظ أن الولايات المتحدة بدورها يمكن نظريا أن تتحول بمنطق ماكيندر إلى شىء أشبه ببريطانيا فى المحيط الأطلسى . فلو أن هارتلاند الاتحاد السوفيتى الذى يحكم شرق أوربا توصل يوما ما إلى السيطرة على الجزيرة العالمية ، فإن العالم الجديد سيصبح محاصرا من الشرق ومن الغرب كجزيرة أقل وزنا وقوة بين ذراعى الجزيرة العالمية . وحينئذ يكون هذا قلبا كاملا للوضع الذى كان سائدا قبل الحرب الأخيرة حين بدا الهارتلاند كجزيرة محاصرة داخل بحر القوى البحرية ومستعمراتها . وحينئذ تكون الإمبراطورية العالمية على مرمى حجر أو على مرأى النظر .

وأخيرا ، فإن ماكيندر يرى أن الصراع بين القوى البرية والبحرية ، الذى يعبر عن حركة القطار ضد حركة السفينة ، لم يتأثر بمقدم الطيارة ، بل إنها لتؤكده بمثل ماتدعم نظريته . ففى رأيه أن الملاحة الجوية والقوة الجوية هى فى الدرجة الأولى سلاح لقوة البر ، إنها بمثابة سلاح فرسان أمفيبى جديد ، فى صف قوة البر أكثر مما هو فى صف قوة البحر ، لأن الموقع المركزى المتوسط كهذا الذى يمتلكه الهارتلاند ميزة كبرى فى الحرب الجوية . كذلك تنبأ بأن استخدام القوى البحرية لطريق كالبحر المتوسط فى الملاحة لن يكون إلا بموافقة أو تحت رحمة قوى البر ، لأن هذه تستطيع من قواعدها البرية أن

تغلق هذا الطريق بالحرب الجوية . وبالمثل حدد وظيفة بريطانيا منذ القوة الجوية فى أنها مجرد « مطار فى خندق » ، أو حاملة طائرات كما قد نقول ، أو على الجملة « مالطه كبرى » .

الخلاصة

ذلك فى أساسياته هو هيكل نظرية ماكيندر فى الاستراتيجية العالمية . ويمكن الآن أن نحدد فضله هو وقيمتها هى فى ثلاث . فأولا ، استطاع أن ينظر إلى العالم ككل فى ضوء وحدة الأرض ، وعلى أساس أن العالم قد صار عالما واحدا ، ومن ثم نظاما سياسيا واحدا ـ « نظاما مغلقا » يعنى . وبهذا كان « أول من أمدنا بفكرة كوكبية عن العالم » ، وهو فى هذا قد « جند الجغرافيا فى خدمة السياسة والاستراتيجية » كما عبر السفير وينانت[1] . ولقد كان هدف ماكيندر الأساسى كما قال هو أن يضع « معادلة جغرافية تستطيع أن تركب فيها أى توازن سياسى » . وبفضل نظرته الكوكبية الشاملة استطاع أن يرى جوهر هذه المعادلة فى الصراع بين قوى البر والبحر .

ثانيا ، إلى جانب النظرة الكوكبية لم يغفل النظرة الاقليمية ، ومن هنا استطاع أن يخرج بثلاثيته الأساسية : الهارتلاند ، الهلال الداخلى ، الهلال الخارجى الجزرى . وهذه لاشك هى الأقاليم السياسية الطبيعية الكبرى ، والأكثر خلودا فى العالم ، وقد نجح فى أن يتعرف على ملامح وتوجيهات كل منها . ومن الواضح أن الأقاليم الثلاثة هى فى الحقيقة بناء حلقى concentric ، فثمة فى القلب حول القطب الشمالى يقوم الهارتلاند ، ثم حوله كحلقة وسطى الهلال الداخلى ، وفى النهاية حلقة أوسع وأكبر محيطا هى الهلال الخارجى . ثم لن يخفى أن الأساس الدفين الذى يحدد هذه الأقاليم إنما هو فى النهاية الموقع ـ الموقع الجغرافى ـ الموقع النسبى ـ الموقع ، أعنى ، قربا أو بعدا من قلب اليابس أو ساحل البحر .

ثالثا ، وأخيرا ، لم يكتف ماكيندر بالتشخيص ولكن توصل إلى التنبؤ وإن أعلن أنه ليس هدفه . فقد استطاع من البعد التاريخى أن يضع يده على احتمالات ومصاير الصراع بين قوى البر والبحر . فلم تخدعه شهادة تجربة مرحلية ، ورأى نذر الخطر على الأفق بالنسبة للقوى البحرية ، وذلك رغم أنه ـ بل لأنه ـ شخصيا كان « استعماريا

---

(١) Geogr. Journal, 1944, p. 131.

عتيدا» ، يهمه جدا كيان الإمبراطورية البريطانية . وقد جاءت نبوءته ، بعكس ميهان ، تحذيرية متشائمة بدرجة أو بأخرى بالنسبة لمستقبل القوى البحرية . وبينما نظر ميهان إلى الماضى ليركز على الحاضر ، نظر ماكيندر إلى الماضى والحاضر ليركز على المستقبل .

والشىء الذى ينبغى أن نلاحظه أنه إذا كان ماكيندر قد صنف أقاليم الصراع الاستراتيجى على أساس « الموقع » ، فقد نظر فى الحقيقة إلى مصايرها على أساس « الموضع » أى مدى قوة القاعدة الأرضية (بمواردها الطبيعية وقوتها البشرية ودرجتها الحضارية والتكنولوجية ... الخ) . فوجد أن المستقبل بعامة ليس للمواقع الممتازة ولكن للمواضع الأغنى .

نقد النظرية

السؤال الآن : كيف قوبلت نظرية ماكيندر ؟ من المفارقات التاريخية أن هذه النظرية الخطيرة أهملت فى وطنها ، بينما نالت شهرة داوية وعناية فائقة خارجه فى ألمانيا ، وألمانيا النازية بالذات ... فلقد تلقفتها مدرسة « الجيوبوليتيك » الألمانية ممثلة فى معهد الجيوبوليتيك فى ميونخ برياسة الجنرال كارل هاوسهوفر ، وترجمتها هى وكتاب فيرجريف ووجدت فيها وثيقة استراتيجية خطيرة ، وأصبحت النظرية أساسا فى فلسفتها . وكثيرا ما اعتمد هاوسهوفر فى كتاباته على كتابات ماكيندر ، واعترف بدينه له رغم أنه « عدو بغيض » ، بل لقد عد مقاله عن « المحور الجغرافى للتاريخ » « أعظم النظريات الجغرافية العالمية جميعا » ، وأكد أنه « لم ير قط شيئا أعظم من هذه الصفحات القليلة كرائعة جيوبولتيكية »[1] . وقد تلقف هاوسهوفر خشية ماكيندر من أن تتحالف ألمانيا والروسيا ليقلبها إلى دعوة إلى مثل هذا التحالف . والمقول أن هذا بالفعل كان المحرك خلف تحالف هتلر وستالين فى بداية الحرب . فقد ألهم هاوسهوفر رودلف هس بالكثير من أفكاره ، وألهم هذا هتلر بدوره بالكثير منها فى «كفاحى » .

على أن الاتجاه الآن هو إلى أن تأثير هاوسهوفر على الحكم النازى قد بولغ فيه كثيرا . وبالتالى يكون قد بولغ فى تأثير ماكيندر على السياسة الألمانية[2] . وأيا ماكان فقد كانت

---

(١) Zeitschrift für Geopolitik, 1925.

(٢) G.R. Crone, "A German View of Geopolitics", Geog. Journal, 1948, p. 108.

النتيجة لهذا كله أن اتهم ماكيندر بأنه ساعد على وضع أساس العسكرية النازية ، وهو ما نفاه هو بشدة وغضب ـ وعلى حق ـ لأنه إنما وضع أسس نظريته قبل قيام النازى بثلاثين عاما .

على أن الحرب الثانية أدت إلى « إعادة اكتشاف » ماكيندر فى الغرب وإعادة تقييمه . فاشتد الاهتمام به وبآرائه لا فى مدارس الجغرافيا وحدها ، ولكن فى الأكاديميات العسكرية والمعاهد السياسية كذلك . بل لقد أصبح ماكيندر بفضلها ـ سواء لحسن الحظ أو لسوئه ، كما عبر أحد الجغرافيين ـ أشهر الجغرافيين جميعا خارج الدوائر الجغرافية والمهنة ، كما عد كتابه واحدا من أخطر الكتب التى ظهرت فى القرن ، فيه من البصيرة والنبوة أكثر مما فيه من السرد والوصف . غير أن البعض يحس أن آراء ماكيندر ربما قد قبلت بروح نقدية أقل مما ينبغى .

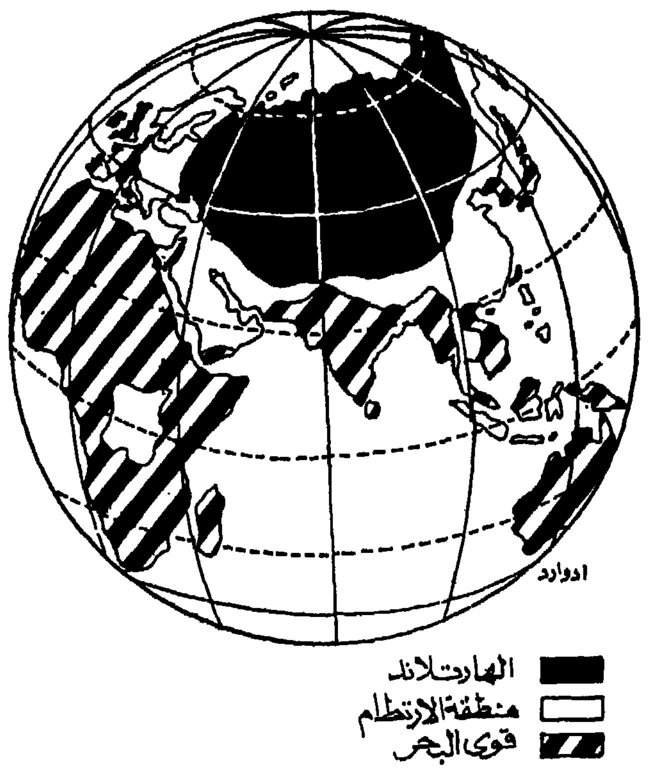
أسس التحديد

ويمكننا هنا أن نحصر النقد الذى وجه إلى نظرية ماكيندر فى الشكل والموضوع . فمن حيث الشكل ، أخذ عليه أنه عدل كثيرا فى حدود الهارتلاند بصورة مربكة ، ولكنه احتج بأن تلك هى طبيعته المركبه التى تقوم على أساس ثلاثى من السطح والنبات والصرف مما لايسمح بالتحديد الصارم . كما أن تعديله للنظرية فى أثناء الحرب العالمية الثانية يعده البعض طفيفا ، ولكن لا يكاد يتعرف فيه البعض على النظرية الأصلية ! [1]

وأخطر من هذا تحديده للهلالين الداخلى والخارجى . فلقد ترك ماكيندر منطقة بلا تحديد بين الهلالين تشمل الأراضى المنخفضة وفرنسا وأيبريا وإيطاليا ، ولم يضمن الهلال الخارجى فى أوربا إلا بريطانيا باعتبارها جزرية محيطية بحتة . ولكن هذه الدول الساحلية قوى بحرية بلا شك رغم أنها أقل بحرية من بريطانيا . بل إن ماكيندر عالج كثيرا من هذه الوحدات فيما بعد فى كتابه على أنها قوى بحر . ولهذا ينبغى أن نأخذ مفهوم قوة البحر أو البر كمسألة نسبية بالتأكيد . من هنا عدل فيرجريف نطاق القوى البحرية ليشمل تلك الدول ، كما ضم إليها مستعمراتها البحرية على سواحل أفريقيا وآسيا .

---

(١) Bowen, p. 6.



شكل (٢٥) استراتيجية القوة وأقاليم الصراع السياسي في العالم القديم حسب فيرجريف

وبالمثل فإن ماكيندر لايرسم الهلال الداخلى كاملا ، بل يترك ثغرات هى لاشك فى صميمه كوحدات الدانوب والبلقان ، كما أنه يغفل الشرق الأوسط . ومرة أخرى يعدل فيرجريف هذا فيمد « منطقة ارتطامه » من البلطيق حتى الشرق الأوسط فالأقصى بلا انقطاع .

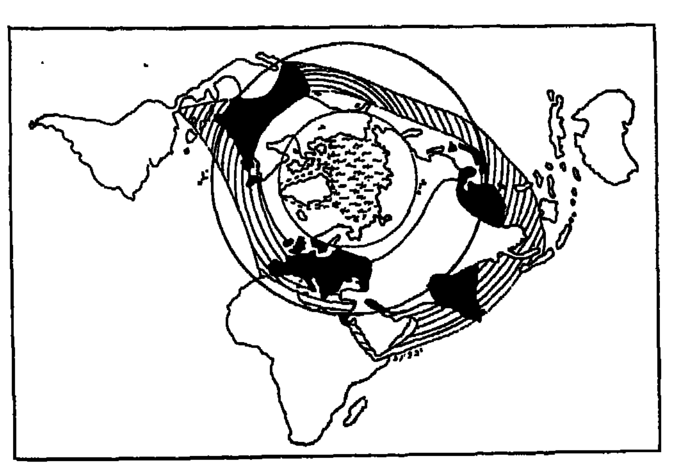
القـوة البشريـة

أما عن الموضوع ، فقد تساءل البعض عن مدى القوة الحقيقية ـ موارد وسكانا وإنتاجا ـ لكل من الهارتلاند والسواحل . وتكفل فوست وإيست خاصة بالإجابة [١] . فتوزيع السكان فى العالم القديم يرسم نمطا واضحا جدا فى أساسياته . فهناك قاطع

(١) C.B. Fawcett, "Marginal & Interior Lands of the Old World", Geog., 1947 p. 1-12; Hans Weigert, Heartland Revisited, in: New Compass of the World, 1949, p. 80-90; W.G. East, "How Strong Is the Heartland?", Foreign Affairs, 1950, p. 78-93.

محورى كثيف يمتد من غرب أوربا شاملا وسطها وجنوبها ، ليستمر بدرجة أو بأخرى فى الشرق الأوسط ، حتى يستعيد كثافته فى آسيا الموسمية . هذا هو العمود الفقرى فى ديموغرافية العالم كله ساحلى أو شبه ساحلى ، ويشمل الجزء الأكبر إطلاقا من البشرية . وعلى هذا النطاق يتعامد قاطع آخر من اللامعمور أو شبه اللامعمور ، يبدأ من سيبريا وينتهى بالصحراء الكبرى ، متداخلا مع نطاق المعمور فى منطقة الشرق الأوسط .

ومن ثم فالهارتلاند يقع أغلبه فى اللامعمور ، وأقله متوسط الكثافة . وإذا كان الهارتلاند يستمد وزنه الديموغرافى فى قطاعه الأوربى غرب الأورال ، فإنه فى آسيا شرق الأورال إما قليل الوزن كما فى التركستان أو فاقده كما فى سيبريا . هذا بينما أن السواحل تضم نحو ألفى مليون نسمة على الأقل . وبصورة عامة تتبع الموارد والانتاج نفس النسبة . فالمحصلة النهائية إذن أن الهارتلاند قد يكون قلب اليابس طبيعيا ، ولكنه قلب ضعيف ــ ولا نقول قلبا ميتا ــ بشريا ، أما السواحل فقد تكون هامشية ، ولكنها متخمة بالحياة والحيوية .



شكل (٢٦) نطاق أو حزام العمران والحركة حول نصف الكرة الشمالي . هذا هو العمود الفقري في هيكل البشرية

ومن هنا بالدقة يلتقط العالم السياسى الأمريكى نيكولاس سبيكمان الخيط . فهو يناقش معادلة القوة عند ماكيندر ، ولايرى أن كفة الهارتلاند ترجح فى القوة البشرية أو الموارد المادية ، وينتهى إلى أن « من يحكم المناطق الساحلية يسيطر على الجزيرة العالمية » . ومعنى هذا أن سبيكمان يتعارض بصورة مباشرة مع اتجاهات ماكيندر ، ويضع المستقبل فى صف القوى البحرية وضد البرية .

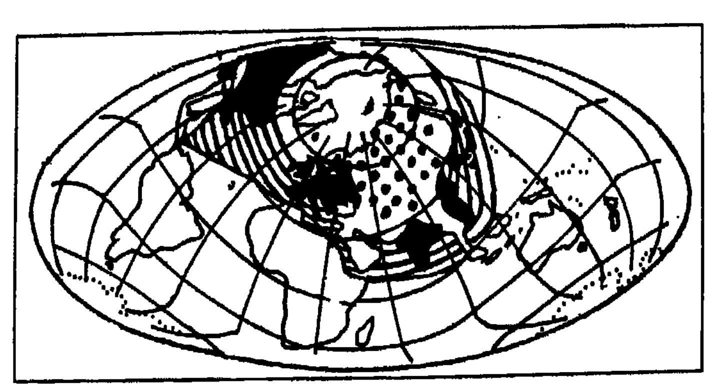
الدور الأمريكى

ثمة بعد هذا نقد هام وجه إلى النظرية : لقد أغفل ماكيندر ـ أو بالدقة قلل ـ وزن الولايات المتحدة ودورها كثقل ضخم فى كفة القوى البحرية . وحين كتب ماكيندر لأول مرة ، فلا شك أن قوة الولايات لم تكن قد اكتملت ودورها الطاغى فى سياسة القوة العالمية لم يكن قد بدأ إلا بالكاد . أما بعد هذا فقد أمدت الولايات المتحدة العالم الجديد بهارتلاند منافس لهارتلاند العالم القديم ، وحددت مصير الحربين العظميين ، إلى أن انتقل قطب القوة العالمية إليها نهائيا وبصورة حاسمة ، بينما تحولت القوى التقليدية فى غرب أوربا إلى شبه تابع لها .

الحرب الجوية

وأخيرا ، فإن كثرة من النقاد ابتداء من لورد إمرى إلى الميجور سفرسكى ترى أن الحرب الجوية تقوض دعائم نظرية ماكيندر . وقد رد ماكيندر على هذا ـ إن صوابا وإن خطأ كما يلاحظ جلبرت ـ بأن الحرب الجوية تدعم قوة الهارتلاند وصحة نظريته . والاتهام يقوم على أساس أن الطيران قد كشف الهارتلاند للغزو وسلبه مناعته الطبيعية وعمقة الاستراتيجى ، أو أنه على الأقل قد حيد الموقف بين قوى البر والبحر .

ولقد كان إمرى فى تعقيبه على ماكيندر سنه ١٩٠٤ سباقا فى بصيرة ثاقبة إلى أن يرى أثر الحرب الجوية على النظرية . فأعلن أنه مع مقدم حركة الطيران إلى جانب حركة



شكل (٢٧) الهارتلاند « بالنقط » قلب العالم القديم ولكنه سكانياً قلب ضعيف . وكتلة السكان في العالم « بالأسود » ونطاق الحركة والمواصلات حول الأرض « بالخطوط » تقع على سواحل القارات .

القطار والبحر ، فإن كثيرا من تلك التوزيعات الجغرافية التى رسمها ماكيندر سيفقد أهميته ، وستكون القوى الناجحة هى تلك التى تملك أعظم أساس صناعى وأضخم قاعدة تكنولوجية . وانتهى إلى أنه لن يهم أن تكون فى وسط قارة أو على جزيرة ، وإنما أولئك الذين يملكون القوة الصناعية وقوة الاختراع والعلم سيمكنهم أن يهزموا كل من عداهم .

أما سفرسكى ـ من جيل الحرب الثانية ـ فهو أكبر دعاه القوة الجوية بحسبانها السلاح الفيصل فى الحرب الحديثة[1] . ويلخص بوين الموقف فى أن القوة الجوية بمراحلها المختلفة « جعلت من نمط ماكيندر العالمى هراء ، ولكن قط هراء من إدراكه أن القوة فى المستقبل تمكن مع الإمبراطوريات القارية بفضل تفوق مواردها »[2] . ومعنى هذا النقد جميعا فى الحقيقة أن الطيران قد أفقد عامل « الموقع » الجغرافى قيمته الحيوية ، ونقل الأهمية كل الأهمية إلى عامل « الموضع » الجغرافى .

وعلى هذا يمكن أن نلخص الموقف النهائى من النظرية فى أنه تضارب واختلاف : البعض يعدلها بما ينقضها أو يقلبها على رأسها قلبا كما فعل سبيكمان . والبعض يقبلها معدلة أو غير معدلة كما فعل الميجور جورج فيلدنج إليوت الذى أعلن فى أثناء الحرب الثانية : « أنه لامجال للهروب من منطق ماكيندر »[3] . كما أن هناك من لازال يعتقد أنها قد تكون سليمة حتى اليوم ، هذا بينما يتوسط البعض فيرى أنها إن صحت فى الماضى فهى لاتصح فى عصر الحرب الجوية وبخاصة الحرب الصاروخية الذرية .

تعديلات جزئيـة

والذى نراه هنا هو أن النظرية إذا عدلت فى بعض جزئياتها فيمكن أن تقدم بكل تأكيد مفتاحا عاما passepartout ومعادلة جغرافية سليمة تلخص كل التاريخ السياسى والاستراتيجى وتستوعب كل تفاصيلة وتتفق معها حتى ـ وهذا هو المهم ـ نهاية الحرب الأخيرة ، أما بعدها فقد حدثت انقلابات هائلة من أخطر ما عرف التاريخ الحديث لابد من تحليلها قبل أن نرى انعكاساتها على النظرية . وعلى هذا الأساس ، وكخلاصة

---

(١) الجيوبولتيكا ، ج١ ، ص١٥ .

(٢) بوين ، ص٥ .

(٣) الجيوبولتيكا ، ج١ ، ص٣٤ .

نهائية لدراستنا التاريخية السابقة ، نطرح الآن صورة معدلة للنظرية يمكن أن نركب فى معادلتها كل تفاصيل تلك الدراسة وجزئياتها وتقابل فى نفس الوقت النقد الذى وجه إلى النظرية .

ونقترح لذلك أن تظل الثلاثية الاستراتيجية تتألف من الهارتلاند والسواحل ومنطقة الارتطام ، لكن مع تعديل حدودها . إلا أن التعديل الأساسى الذى نقترحه هو أن نحصر هذه الثلاثية فى دائرة العالم القديم وحده أكثر منها العالم ككل . أولا لأنه فى هذا الإطار يمكن للنظرية أن تفسر معظم تاريخ الاستراتيجية السياسية فى العالم وأن تتفق مع أغلب تفاصيله وجزئياته . وثانيا لأن القارات الجديدة بما فى ذلك الولايات المتحدة لم تظهر على مسرح السياسة العالمية إلا حديثا ، وأكثر منها لم تظهر كقوة حاسمة فيصل إلا حديثا جدا .

الهـارتـلانـد

فى هذا الضوء نجد أن الهارتلاند ـ بحدود ماكيندر ـ وحدة استراتيجية حقيقية فى التاريخ ، وحدة توسعية بطبيعتها السهلية التى تسهل الحركة وتدعو إلى الإمبراطورية . وقد وحد الهارتلاند ـ بعد صراعات داخلية من نوع صراع الأشباه ـ أكثر من مرة فى التاريخ ومن أكثر من نواة : مرة من ألتاى ، ومرة من طوران ، ومرة أخيرة وحاسمة من الروسيا[1] . وكلها ـ يلاحظ ـ مراكز هامشية على أطراف الهارتلاند . ولهذا مغزاه الكبير ، وهو أن قلب الهارتلاند نفسه هو أضعف مافيه بشريا وحضاريا .

ومن المهم جدا أن نلاحظ أن سهولة توحيد الهارتلاند فى قوة قارية الأبعاد جعلته غالبا وحدة سياسية واحدة لا تعرف التجزئة ، وهو الآن برمته يقع فى دولة واحدة أو يؤلف دولة واحدة . وفى هذا فإنه يتناقض تماما مع السواحل الهامشية التى تتمزق فى عدد ضخم من الدول المنفصلة ، فهناك قوة بر واحدة بالمفرد ولكن قوى البحر تأتى بصيغة منتهى الجموع ! من هذه النقطة يستمد الهارتلاند قوة سياسية واستراتيجية هائلة .

غير أنها فى نفس الوقت تجعل منه دولة خلاسية متعددة القوميات والأجناس مما يمكن أن يمثل خطرا داخليا ، ويعرضه ـ إن خطأ أو صوابا ـ للاتهام من جانب الغرب

---

(١) فيرجزيف ، ص٣٢٨ .

بالاستعمار الداخلى . بل لقد كانت النازية تنظر إلى الاتحاد السوفييتى كإمبراطورية أقليات ، وكان من أهدافها أن تمزقها إلى وحداتها القومية الطبيعية فى شكل مجموعة دول مستقلة تماما !

ولقد كانت ضغوط الهارتلاند المركزية الطاردة تسعى قديما إلى الوصول إلى الزراع ، وحديثا إلى الوصول إلى البحر . وبعد أن كان الصراع بين الهارتلاند وبين المناطق الهامشية يمثل صراعا بين الاستبس والغابة ، أصبح صراعا بين قوة البر وقوة البحر . وفى هذا الصراع لاشك أن الهارتلاند قلعة دفاعية مثالية وغير منفذ لجيوش الزراع قديما وغير مفتوح لأساطيل البحارة حديثا . ولكن مناعته الدفاعية هذه لاتعنى بالضرورة وبالحتم أنه القوة الهجومية المثالية .

فرغم ضخامة قوته وعظمة موارده التى لا جدال فيها ، فإن به نسبه كبيرة من الأراضى غير الصالحة للتعمير والانتاج إلا من رصيد معدنى ورصيد عمق استراتيجى . ولاشك أن من نقاط القوة فى الهارتلاند اليوم أن السلاف فى أوربا تنمو بمعدل تزايد سكانى أعلى وأسرع بكثير من بقية أجناس أوربا من التيوتون أو اللاتين ، مما عده الغرب خطرا شديدا على المستقبل ودعاه بالخطر السلافى[1] . ومع ذلك فإن عدد سكان الهارتلاند ــ قديما أيام الرعى وحديثا بعد تحوله الحضارى ــ يظل دائما لايقارن بمجموع سكان المناطق الساحلية الهامشية .

الهوامش البحرية

أما السواحل الهامشية ــ موطن قوة البحر بامتياز ــ فنحن نرى أن من الضرورى أن تشمل سكنديناڤيا والدنمرك وهولندا وبلجيكا وفرنسا ، عدا الجزر البريطانية ، وأشباه جزر البحر المتوسط الثلاث ابتداء من أيبريا حتى اليونان . وكل من هذه لعب دورا بحريا قياديا فى وقت أو آخر ، وكل تاريخ القوة البحرية يدور فى محيطها . وينبغى كذلك ــ مع فيرجريف ــ أن نضيف إلى مفهوم القوى البحرية فى غرب أوربا الساحلية ما كان مستعمراتها عبر البحار فى أفريقيا وآسيا ، فقد أصبحت سواحل هذه وتلك امتدادات لقوى البحر .

---

(١) F. W. Notestein et al., The Future Population of Europe & the Soviet Union. Geneva, 1944, p. 18 ff.

ونقاط القوة فى هذه الوحدة الاستراتيجية واضحة . فهى إذ تقع فى الهوامش المطيرة والخصيبة من القارة ، كانت شديدة الكثافة سكانا وطاقتها الانتاجية والبشرية عالية ، وهى فى هذا ترجح الهارتلاند على أساس وحدة المساحة بكل تأكيد . ثم هناك الموقع ، الموقع البحرى الحر الذى يوفر الحركة الطلقة خلال المحيط العالمى . وقد رأينا كيف كان هذا الموقع البحرى مرادفا فى النهاية للاستعمار البحرى .

فلقد انتهى هذا الموقع بالقوى البحرية إلى الاستعمار ، وانتهى بها الاستعمار إلى السيطرة على موارد قارات بأسرها صبت فيها موارد ومكاسب خيالية لم يعرفها سكان الهارتلاند . ويمكن أن نلخص الاستعمار البحرى جميعا فى أنه كان محاولة من القوى البحرية الموجبة فى غرب أوربا للسيطرة على السواحل البحرية السالبة فى أفريقيا وآسيا ، وهو بهذا فى النهاية صورة على نطاق شاسع من صراع الأشباه . وبهذا تضاعف الفارق فى الثروة والموارد بين القوى البحرية والبرية . وبفضل هذا الموقع وهذه الموارد قد يمكن أن نفترض أن القوى البحرية الساحلية فى موضع هجومى قوى إلى حد بعيد .

ومع ذلك فللقوى الساحلية مواطن ضعف واضحة . فأولا تمثل هذه القوى قمة التفتت والتجزئة والتعدد السياسى . فهنا عشر وبضع عشر من الدول المستقلة . لماذا ؟ ــ لنفس الأسباب الجغرافية الطبيعية التى جعلتها دولا بحرية مثالية . فنطاق القوى البحرية هذا لم يصبح بحريا ملاحيا من الدرجة الأولى إلا لأن البحر قد قطعه بالخلجان العميقة والبحار الداخلية إلى وحدات طبيعية منفصلة ــ تذكر تعبير شبه جزيرة من أشباه الجزر .

ولكن نفس هذه الحقيقة انتهت به إلى قوميات ووحدات سياسية منفصلة كثيرة العدد صغيرة المساحة . وهذا يفسر أولا تلك الصراعات التاريخية الرهيبة بين هذه الوحدات بعضها البعض ، فكل التاريخ الدموى الحديث فى العالم تركز فيها ، وكان الصراع الداخلى بينها صراع أشباه ، القصد منه تصفية القوى البحرية إلى قوة سائدة بينها . وقد أخذ هذا الصراع مسارا محددا هو الذى يؤلف هجرة الحضارة والقوة من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى فى داخل النطاق . وقد كان هذا من عوامل ضعف القوة البحرية الكامنة ككل وباستمرار .

هذا التفكك السياسى وهذه الضآلة المساحية فى القوى البحرية تتناقض تماما مع الوحدة السياسية الطاغية للهارتلاند وضخامته البالغة . وهذه الصراعات الداخلية بين أعضاء القوى البحرية لم يعرفها الهارتلاند فيما بين أجزائه . وحينما كان مستوى الهارتلاند

الحضارى وقوته العسكرية متواضعة ونفس الحركة البشرية محدودا ، لم يكن هذا التناقض يشكل تهديدا خطيرا للقوى البحرية ، فكان يكفى فى القرن الثامن عشر مثلا أن تتصدى للهارتلاند دولة بحرية واحدة كفرنسا أو بريطانيا ، وفى القرن التاسع عشر كان يكفى دولتان بحريتان كفرنسا وبريطانيا معا .

ولكن حين وصل الهارتلاند إلى قمة القوة ، كما هو الحال الآن ، أصبح مجموع القوى البحرية يمثل شقة مساحية ضئيلة بالنسبة لمساحة الهارتلاند ، تفتقد ميزة الدفاع بالعمق ، وتعانى من التعدد السياسى . وهى إذا كانت بفضل موقعها البحرى فى موقف هجومى حر ، فإنها فى موقف دفاعى ضعيف . يضاعف من هذا أن غرب أوربا كدول بحرية لا تملك جيوشا برية كبيرة ، بينما الاتحاد السوفييتى كقوة بر يملك أضخم جيش برى فى العالم .

هنا تحتم على الدول البحرية أن تتحد جميعا فى وجه الهارتلاند ، بل أن تلجأ إلى سند أقوى على الجانب الآخر من المحيط هو الولايات المتحدة ، التى هى أصلا امتداد بشرى لغرب أوربا مثلما هى تكملة جغرافية للقوة البحرية . ومن هنا نجد أن حلفا كالأطلنطى ليس فى الحقيقة إلا جماع القوى البحرية فى غرب أوربا بالاضافة إلى الولايات المتحدة . وما الحديث الملتهب اليوم عن « وحدة أوربا » اقتصاديا ، أو سياسيا ، أو اقتصاديا وسياسيا ، إلا رد فعل مباشر لهذا التناقض المزمن بين وحدة قوة البر فى جانب وتفتت القوة البحرية فى جانب آخر .

وعدا هذا ، فإن الاستعمار إذا كان من أسباب قوة وتفوق الدول البحرية حينا فهو نقطة ضعف كامنة فيه فى النهاية . فكاسب المستعمرات المغتصبة موقوته بالضرورة ، ورهن ببقاء هذا الاستعمار . وإذا ما توقف تدفقها أو ضاعت فإن القوى البحرية ستجد الأرض وقد سحبت من تحت أقدامها وانكمشت قاعدتها الجغرافية والمادية الاقتصادية . ويكون عليها أن تنكفىء على مواردها الذاتية المباشرة التى لا تقارن بموارد الهارتلاند . وهذا ما حدث الآن بالفعل بعد ذوبان الاستعمار . فلم تعد غرب أوربا فى مجموعها بند للاتحاد السوفييتى ، ولولا قوة الولايات المتحدة من ورائها لما صمدت فى الصراع الجديد .

المنطقــة البينيــة

هذا فيما يختص بالهارتلاند والسواحل البحرية ، الفيل والحوت ، وتبقى أخيرا منطقة الارتطام أو التـمساح ... هذه هى ما دعونا فيما مضى بالمنطقة البينية ، وهى جغرافيا

بينية بموقعها بين قوى البر شرقا والبحر غربا ، وتمثل بطبيعتها وبيئتها منطقة انتقال بينهما تجمع بين الصفة البحرية والبرية بدرجات متفاوتة . وهى استراتيجيا منطقة ارتطام وجبهة تصادم بين تلك القوى القطبية ومن ثم أرض المعركة الحتمية بينهما ، فلا يستطيع أى منهما أن يصل إلى الآخر ويضربه إلا بالمرور على هذا الجسر الأمفيبى .

ونحن نحدد هذه الوحدة الاستراتيجية بنطاق يشمل ألمانيا وشرق أوربا والبلقان فيما عدا اليونان ، ثم الشرق الأوسط بما فيه تركيا وإيران والمشرق العربى ، كما نجد له امتدادات فى الشرق الأقصى بين السواحل والداخل . فهى إذن أشبه بقوس أو هلال يحيط بالهارتلاند وتحيط به القوى البحرية ، أى أنها تتوسطهما . ولعل مما له مغزاه أن تكون إحدى الحلقات الهامة فى هذا النطاق « الأوسط » هى الشرق « الأوسط » . بل لعل هناك أكثر من صدفة فى أن ماكيندر يطلق على شرق أوربا والبلقان وما فى تخومه من منطقة الارتطام فى أوربا اسم « الشرق الأوسط الأوربى »[1] ، تأكيدا لفكرة الارتطام المتأصلة فى الموقع المتوسط .

وفى هذا الموقع المتوسط تكمن شدة خطورة المنطقة ـ منطقة الارتطام ـ ودور الجسر بالنسبة لكل من قوى البر والبحر واهتمامها بها أو بالسيطرة عليها . وفى الواقع أن كل تاريخ الصراع بين البر والبحر هو محاولة التحكم فى هذه المنطقة بالذات ، فهى تمسك زمام الموقف بين القوى القطبية ويمكن أن ترجح كفة على الأخرى ، وبالتالى فإن مصيرها فى النهاية هو الذى يحدد مصير الصراع بين الهارتلاند والسواحل .

ولا شك أن هناك قطاعات معينة من هذا النطاق تمتاز بموقعها وبطبيعتها بقيمة استراتيجية حرجة ، ولعل أهمها هو شرق أوربا فى الشمال والشرق الأوسط فى الجنوب . وليس صدفة بالتأكيد أن معظم من حاولوا البحث عن أخطر المواقع الاستراتيجية فى العالم ـ أيا كانت صحة آرائهم ـ وضعوها فى هذا النطاق أولا ، وفى هذه القطاعات منه بالذات ثانيا .

مثلا كان تاليران يرى أن أخطر نقطة استراتيجية فى العالم هى مصب الدانوب[2] (؟) ، وكان بسمارك يضعها فى بوهيميا ، من سيطر عليها سيطر على وسط أوربا ثم على

---

(١) Democratic Ideals, p. 122.

(٢) East, Historical Geog. of Europe, p. 368.

أوربا [1] ، بينما حددها نابليون بمصر ، وبعده ومثله قال أندريه زيجفريد : « قل لى من يسيطر على قناة السويس ، أقل لك من يسيطر على العالم » [2] . لا ، وليس صدفة كذلك أن المعارك الفاصلة المصيرية فى الحربين العالميتين الأخيرتين حدثت فى شرق أوربا وفى الشرق الأوسط ابتداء من « الجبهة الشرقية » إلى « الحملة التركية » ، ومن ستالينجراد إلى العلمين .

والمنطقة بعد هذا وفى مجموعها أقل مساحة وسكانا وقوة ، وأكثر تمزقا وتفتتا سياسيا ، من أى من القوى القطبية . وهى من ثم فى موقف هجومى أو دفاعى ضعيف ، محصورة بين فكى كماشة أو بين شقى رحى . وقد يبدو من هذا لأول وهلة أن التبعية والعجز قدرها الجغرافى والتاريخى ، وأنها ضحية موقعها المتوسط ، وأن دورها الاستراتيجى لا يمكن أن يزيد عن دور الدول الحاجزة التصادمية التقليدى .

لكن الحقيقة أن نفس هذه الخصائص وذلك الموقع يمكن أن تكون عامل قوة لهذه المنطقة إذا ما جمعت قواها فى تكتلات أو قطاعات اقليمية كبيرة ، فحينئذ يمكن لها أن تلعب دورا مختلفا تماما . ويمكن من هذه الزاوية أن نقسم دور هذه المنطقة عبر التاريخ إلى ثلاثة : إما خط خمود سياسى ، وإما منطقة رهو سياسى ، وإما خط استواء سياسى .

خط خمود ، حين تسقط لإحدى القوتين البرية أو البحرية . وفى الأغلب الأعم كان شرق أوربا بحكم الموقع وطبيعته السهلية من نصيب القوى البرية ، بينما كان الشرق الأوسط من نصيب القوى البحرية . فمنذ فجر التاريخ وشرق أوربا تكتسحه موجات الرعاة المتواترة أبدا ، ومنذ ظهرت الروسيا وكل تاريخ دويلات البلطيق وبولندا وبروسيا وإلى حد ما الدانوب والبلقان لا ينفصل عنها إما بالخضوع الفعلى أو التهديد الشكلى . وكل مأساة بولندا فى التاريخ من تقسيم متكرر ، بل وزوال أحيانا ، لا يخرج تفسيرها عن هذا . وشرق أوربا اليوم ملتحم التحاما عميقا مع الهارتلاند .

أما الشرق العربى فقد كان مستعمرة واحدة كبرى للاستعمار البحرى منذ القرن التاسع عشر . وكان هذا يشدد قبضته عليه بشراسة وضراوة ، خاصة بحكم حيوية وخطورة موقعه كالطريق الحقيقى الوحيد إلى مستعمراته الساحلية فى الشرق الأقصى .

---

(١) الجيوبولتيكا ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

(٢) Siegfried, Mediterranean.

أما حين تعجز القوتان القطبيتان عن ابتلاع المنطقة تماما ، فقد تكتفيان باقتسامها وتنازعها : القطاعات الأكثر برية للقوة البرية ، والقطاعات الأكثر بحرية للقوى البحرية . هنا تصبح منطقة الارتطام والتصادم منطقة رهو سياسى ، منطقة شد وجذب ومد وجزر بين الطرفين . هكذا كان الشرق الأوسط القديم بين فارس وورثتها ، وبين أثينا وروما ، حين تقاسم الطرفان المنطقة فى توازن حرج متوتر .

كذلك ففى هذه الحالة كثيرا ما يفرض التفتيت السياسى على المنطقة ـ سياسة البلقنة ـ حتى تكون سلسلة من الدويلات الحاجزة . وهذا ما فعله الحلفاء بعد الحرب الكبرى بشرق أوربا والبلقان والشرق الأوسط . وعادة ما تلجأ دول النطاق إلى لعبة خطرة هى استراتيجية مضاربة الطرفين ببعضها وذلك بأمل أن تضمن بقاءها ، كما فعلت إيران طوال تاريخها الحديث . كذلك انتهت الحرب الأخيرة بتقسيم ألمانيا إلى شطرين يخضع كل منهما لأحد الطرفين .

وقد يتفق الطرفان المتصارعان على تحييد جبرى يفرض على دول المنطقة حيث يتوازن نفوذهما ويتعادل ، وبذلك تصبح نوعا من الأرض الحرام أو أرضا بلا مالك no man's land. وخير ما يتمثل هذا فى أفغانستان وتايلاند ، فهما تدينان باستقلالهما القلق الباهت لا إلى قوتهما الذاتية ولكن إلى تعادل قوى الشد والجذب حولهما .

وأحيانا أخرى قد يؤدى الصراع ـ بمنطق عكسى ـ إلى الحفاظ على كيان بعض دول المنطقة ، والمثل الكلاسيكى النادر هو تركيا . ففى وجه الخطر البرى ـ الروسيا ـ الذى هدد أكثر من مرة كيان الإمبراطورية العثمانية فى صميمها ، تقدمت القوى البحرية ـ فرنسا وبريطانيا ـ بسرعة إلى دعمها ومساندتها حتى عاشت بالفعل أطول مما ينبغى .

ويبقى فى النهاية دور خط الاستواء السياسى ، وبه نقصد أن ترتفع قوة المنطقة إلى مستوى خطورة موقعها لتؤكد وجودها وتفرض نفسها على التوازن العالمى بين قوى البر والبحر وترغمهما معا على التزام حدودهما ، وتمنع الالتحام بينهما بل وقد تخضع إحداهما أو كليهما لسيطرتها هى . ومن المهم أن هذا دور أقل حدوثا فى التاريخ حتى ليوشك أن يكون شذوذا عابرا .

ولكن الأهم أن ذلك الدور لم يتحقق إلا بعد نوع ما من الوحدة بين أجزاء من المنطقة سواء منبثقة من الداخل أو مفروضة من الخارج . وهناك حالات ثلاث ارتفعت

فيها منطقة الارتطام إلى هذا الدور ، وهى تتراتب تاريخيا كما تتراتب جغرافيا من الجنوب إلى الشمال .

ففى الشرق العربى قامت الدولة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى لتضع مركز القوة العالمية فى قلب منطقة الارتطام على حساب كل من القوى البرية والبحرية ، كما استطاعت أن تفسد عليهما خططهما فى التحالف ضدها . ولكن كما أنها بفضل الوحدة قامت ، فبفعل التفكك والانفصال زالت وسقطت لقوى برية المصدر .

ثم يأتى بعد هذا تاريخيا وإلى الشمال جغرافيا ، المثل التركى حيث احتلت الإمبراطورية العثمانية رقعة ارتطامية بحتة ابتداء من العالم العربى حتى البلقان ، ومع ذلك استطاعت أن تكون إلى حين قطبا من أقطاب القوة فى عالم العصور الوسطى وطلائع العصور الحديثة .وأخيرا يتحرك القطب شمالا مع ظهور ألمانيا الموحدة التى رنت إلى السيطرة العالمية ــ لا أقل ــ وكادت تحققها فى حربين عالميتين . ولكن ، وكما حدث فى حالة الدولة العربية الإسلامية ، سقطت ألمانيا الارتطامية حين اجتمع عليها الهارتلاند والسواحل البحرية معا .

وفى الوقت الحالى يقع أغلب القطاع الشمالى من منطقة الارتطام بأوربا فى يد الهارتلاند ، وجزء محدود فى يد السواحل البحرية ، بينما فى الشرق الأوسط والأقصى زال الاستعمار البحرى وأصبحت المنطقة مستقلة لأول مرة منذ وقت طويل . وهاهنا نجد مثلا حيا على استمرارية الخطوط العريضة فى استراتيجية المنطقة . فهى لم تعد خط خمود سياسى ولا هى منطقة رهو ، ولكنها ليست بعد خط استواء سياسى غلاب . غير أنها وهى تدرك موقعها الحاسم تحاول أولا أن تحفظ كيانها بين القوى الماموث البرية والبحرية ، فكان عدم الانحياز ، وتحاول ثانيا أن تحول دون اصطدام تلك القوى فى حرب جديدة . ولكن هذا كله أدخل فى استراتيجية العالم المعاصر ، وهو ما ينبغى أن نتقدم الآن إلى دراسته .

البَـابُ الثَّـالِث

عالمنا المعـاصر

حين يكتب مؤرخو المستقبل تاريخ هذا القرن ، فأغلب الظن أنهم لن يملكوا إلا أن يعتبروا نهاية الحرب العالمية الثانية ـ قل بالتقريب منتصف هذا القرن ـ خط تقسيم جوهريا وجبهة افتراق عميقة فى التاريخ الحديث جميعا ، لا تقل خطرا ولا مغزى عن فترة الكشوف الجغرافية أو الانقلاب الصناعى . ففى تلك الفترة المضغوطة زمنيا ، المفعمة تاريخيا ، اجتمع ـ كأنما على ميعاد ـ انقلابان حافلان مذهلان : ثورة التحرير ، والانقلاب النووى . الأول ثوّر المناخ السياسى فى العالم برمته ، والثانى قلب قوانين الاستراتيجية الكوكبية رأسا على عقب . ونحن فى معنى حقيقى جدا نعيش اليوم فى عالم جديد ـ كدت أقول فى كوكب جديد ! ـ خرج من رحم عالم الصناعة والاستعمار ، ولكنه بنفس الدرجة خرج عليه .

وفى الجيولوجيا والبيولوجيا ، كما فى التاريخ ، أن مسار التطور يظل عادة رتيبا تقليديا كالخط المستقيم أو كالمنحنى الانسيابى ، ثم إذا به يتفجر فجأة فى ثوران بركانى قصير ولكنه عنيف يغير تضاريس الوجود ومعالم الزمان ويضع ملامح العصر وتوازناته ويحددها لأمد بعيد ، ومعها يعود إيقاع الحياة رتيبا تقليديا مستقرا ، حتى تبدأ الدورة الانفجارية من جديد ، وهكذا . تلك هى النظرية النكبائية catastrophism فى العلم الطبيعى[1] ، والنظرية الثورية فى العلم الاجتماعى . وما نحن بحاجة فيما نحسب إلى سيسموجراف تاريخى أو بارومتر سياسى لندرك أننا نركب اليوم قمة موجة عاتية من موجات التاريخ الانفجارية ، زلزلت تضاريس السياسة العالمية ، وخلقت طبوغرافية جديدة للاستراتيجية الكوكبية . ومن هنا نبدأ ...

(١) F. Zeuner. Dating the Past, Land. 1950; Wooldridge & East, Spirit & Purpose of Geog., Lond., 1950.

الفصل الحادي عشر

ثورة التحرير

إنها لمفارقة من الجغرافيا مثيرة أن يستطيع مليونان ومائتا ألف ميل مربع هى كل مساحة غرب أوربا أن تنشر نفوذها وظلها وأن تفرض استعمارها على أكثر من سبعة وخمسين مليون ميل مربع هى مساحة العالم المعمور وغير المعمور ، وذلك فى أقل من خمسمائة عام[1] ! ولا تقل غرابة عن ذلك جزئيات الصورة : فغداة الحرب الأخيرة كانت بريطانيا تملك قدر مساحتها ١٤٢ مرة ، وفرنسا ٢٢ مرة ، أما هولندا فنحو ٥٧ مرة ، وبلجيكا ٥٠ مرة ، وإيطاليا ١٩ مرة .

ويمكن على أساس الموقع من منحنى التطور الاستعمارى أن نصنف القوى الاستعمارية فى ذلك التاريخ إلى أربع طبقات أو فئات[2] . فثمة أولا « القوى العتيقة » ، بدأت الاستعمار فى أوائل عصر الكشوف ، ولكنها بقدر ما تعاظمت فى البداية تضاءلت فى النهاية وأزاغتها القوى الأحدث ، فأصبحت إمبراطوريتها حفرية fossil empire ونوعا من الاستعمار المتخلف residual المفتت . ومن المتفق عليه أنها كانت قد أصبحت أعجز فى حقيقتها من أن تملك إمبراطوريات ، وأن كياناتها الإمبريالية ليست إلا سخريات سياسية ، بل لقد عد بعضها رجل أوربا المريض الجديد . هنا تأتى البرتغال وإسبانيا وإلى حد ما هولندا .

يلى ذلك « القوى العتيدة » ، وهى أحدث من العتيقة دخولا إلى الاستعمار ، ولكنها أقدم وأخطر دول أوربا توحيدا وتصنيعا وقوة . ولذا كانت أكبر قوى استعمارية ظهرت فى التاريخ الحديث وتمثل الاستعمار الكلاسيكى أو الراديكالى بكل ما أصبح

---

(١) هويتلزى ، ص٨٦ .

(٢) جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير فى العالم العربى ، ٣٢ .

يعنى من استغلال ورجعية واحتكارات . والواقع أن تاريخ الاستعمار القريب يتحلل أساسا ونهائيا إلى تاريخ الصراع بين هذه القوى بعضها البعض ، وبينها وبين من سبقها ومن لحقها من القوى . وتشمل هذه المجموعة دولتين فقط هما بريطانيا وفرنسا .

ثم هناك « القوى الوليدة » التى لم تصبح دولا موحدة إلا بالأمس القريب فقط ، والتى تأخر فيها بدء الانقلاب الصناعى نسبيا ، وبالتالى تأخر خروجها إلى ميدان الاستعمار فلم تجد إلا الفتات . وحتى هذا لم تنعم به طويلا فى أغلب الحالات ، فقد تجمعت ضدها القوى العتيدة لتجردها منه فى أثناء الحربين العالميتين . تحت هذه العائلة تندرج ألمانيا وإيطاليا ، وإلى حد ما بلجيكا ، وفى معنى خاص اليابان .

وأخيرا تأتى « القوى الجديدة » ، وهى تلك التى ظهرت متأخرة على مسرح الصراع السياسى الاستعمارى دون أن تكون دولا جديدة فى ذاتها كالقوى الوليدة أو أن يكون لهانفوذ سابق كالقوى العتيدة . ولهذا فهى لم تمارس الاستعمار بشكله التقليدى بل تنكر صلتها بالاستعمار وتستنكره . ومع ذلك فهى متهمة من غيرها بأشكال خاصة من الاستعمار إما الاقتصادى وإما الايديولوجى . وتتألف هذه المجموعة من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى .

هذا فى خطوط عريضة تصنيف طبقات الاستعمار غداة الحرب الثانية . أما عشيتها فكان الاستعمار المباشر يغطى حوالى ٣٥٪ من مساحة العالم ، وكانت أوربا ترى فيه بلسما ودواء كاملا panacea لكل أمراض الحرب وجراحها . كانت تحسب تلك العلامة القياسية قمة الاستعمار ، بل وكانت تخطط للبقاء فى مستعمراتها قرونا عديدة[١] ! وما كان يدور بخلدها أنها النهاية .

أجل ، فإنها لمفارقة من التاريخ أشد إثارة مما سبق ، إن ما بناه الاستعمار فى خمسة قرون هدمه التحرير فى عقدين اثنين . فبين ١٩٤٥ ، ١٩٦٥ هوت رقعة الاستعمار من ٣٥٪ من مساحة العالم إلى ٤٪ ، أى أن معدل سرعة المد التحريرى يعادل عشرات أضعاف معدل الزحف الاستعمارى ، حتى قيل إن الاستعمار إذا كان قد أتم مشرقه فى ساعات فقد عبر خط الزوال وشهد شفقه وغسقه ثم غروبه فى دقائق معدودات . وبينما أتى الاستعمار فى موجتين كبريين لكل منهما بدوره ذبذباته الثانوية ، جاء التحرير فى

---

(١) Karl Pelzer, op. cit., p. 314-5.

موجة واحدة طاغية كاسحة . وإذا كان البعض قد تحدث فى هذا الصدد ــ تقليلا فى الحقيقة ــ عن « رياح التغيير » ، فأولى بنا أن نقول إعصارا أو هاريكين !

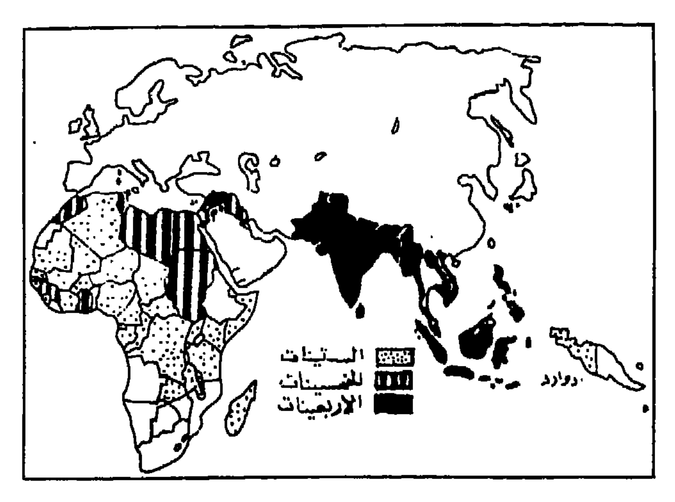
إنها بلا ريب ثورة التحرير ، وإنه عصر ذوبان الاستعمار de-colonisation ما فى ذلك شك ، ونهاية الإمبراطورية وأوربة العالم dis-Europeanisation . وإذا كان القرن التاسع عشر قرن الاستعمار ، فإن القرن العشرين بحق قرن التحرير . ولئن كان الأول وباء القرن الماضى ، فإن التحرير اليوم ظاهرة « معدية » كما قيل ، ولكنها عدوى صحية حين تبدأ لا تتوقف وإنما تتداعى فى سلسلة من الأفعال وردود الأفعال حتى تشكل موجة مدية غلابة . إن الاستعمار الذى ولد ولادة غير طبيعية وغير شرعية يموت الآن ميتة طبيعية ، بل لعلنا نكون أقرب إلى الصواب إذا قلنا بالسكتة القلبية . ومعها ــ هذه الميتة ــ ينتقل الاستعمار من الجغرافيا السياسية إلى الجغرافيا التاريخية ، ويصبح من حفريات التاريخ السياسى . لقد تمت دورة كاملة من قيام وسقوط أوربا[1] .

غير أنه يقابل هذا التيار العام العالمى اتجاه محلى عكسى يمثل انتكاسة إلى الوراء . ففى الوقت الذى كان الاستعمار الكبير والصغير ينحسر ويتصدع عالميا ، كان استعمار جديد ــ ودنىء ــ قد بدأ فى فلسطين هو الاستعمار الصهيونى حيث كرر قرصنة القرن التاسع عشر ، وجمع بين أسوأ وأسود ما فى دموية النازية وعنصرية جنوب أفريقيا . غير أنه إذا كان هذا الاتجاه التعس يدل على شىء فإنما يدل على أن الاستعمار الصهيونى القمىء يأتى ضد كل تيار التاريخ ــ حتى التاريخ الرجعى ، حتى تاريخ الاستعمار نفسه ــ وأنه من ثم محكوم عليه قبلا وبحتمية التاريخ بأنه قد ولد ليموت .

جغرافية التحرير

ولنتتبع الآن جغرافية التحرير فى خطوطها العريضة قبل أن نعرض لدوافعها وضوابطها . ومن الصعب أحيانا أن نحدد تاريخ ومسار التحرير الحقيقى ، تمييزا له عن الاستقلال الشكلى . ولكن أول تحرير حقيقى بدأ فى أثناء الحرب فى لبنان (١٩٤١) وسوريا (١٩٤٣) ، وذلك كنتيجة لتصادم بريطانيا وفرنسا معا فى اللفانت . فقد حاولت فرنسا الحرة أن تعود ، فى وجه الثورة الوطنية ، إلى السيطرة فى الشام ، ولكن بريطانيا تذرعت بظروف الحرب لتطرد فرنسا من المنطقة ــ منطقتها التقليدية ــ وترثها

(١) جون كول ، ص ٢٩٧ ــ ٢٩٩ .



شكل (٢٨) زحف موجة التحرير : في عقود ثلاثة ، هدم التحرير ما بناه الاستعمار في خمسة قرون . لاحظ الموجات الثلاثة : الأسيوية في الأربعينات ، العربية في الخمسينات ، والأفريقية في الستينات .

فيها ، فأرغمتها على التسليم للنضال الوطنى بالاستقلال . ولكن الشام بداية منعزلة وإرهاصة محدودة ، أشبه بنذير النفير . أما العاصفة الحقيقية فلم تجمع قواها إلا بعد الحرب ، ومن بعدها يمكن أن نميز بين ثلاث موجات زمنية ـ إقليمية واضحة بما فيه الكفاية .

الموجـة الأسيويـة

الأولى هى الموجة الأسيوية فى الأربعينات المتأخرة ، ومركزها الشرق الأقصى . فنى ١٩٤٦ « منحت » الولايات المتحدة الفلبين استقلالها ـ طواعية كما تلح هى دائما وتؤكد . وفى ١٩٤٧ استقلت مع التقسيم كل من الهند والباكستان وبورما ، وذلك بعد نضال وطنى طويل بدأ سلميا بالمقاومة السلبية المشهورة (الساتيا جراها Sätia Graha) وانتهى عنيفا فى أثناء الحرب . وفى ١٩٤٨ جاء دور سيلون فى الاستقلال .

ثم كانت ١٩٤٩ سنة جنوب شرق آسيا حيث خرجت فرنسا مهزومة بعد حرب عصابات تحريرية مريرة ترمز لها وتلخصها ببلاغة بل تخلدها دين بين فو ، فنالت كل من فيتنام ولاوس وكمبوديا (كمبوتشيا) استقلالها . وبالمثل خرجت هولندا من إندونيسيا بعد هزيمة قاسية فى حرب عصابات وأدغال مماثلة فى نفس التاريخ ، ولو أن تحرير إيريان الغربية تأخر إلى أوائل الستينات (١٩٦٢) . وبهذا لم تبق إلا الملايو بغير استقلال

فى هذه الموجة ، حتى انتزعته بعد حرب عصابات مطولة فى أواخر الستينات . وكانت آخر القائمة هى جزر ملديف السديمية على أطراف الهند .

ولا ينبغى أن نتكلم عن التحرير فى آسيا دون أن نذكر دورا ما غير مباشر وغير مقصود لليابان . فقد اكتسح الغزو اليابانى جنوب شرق آسيا فى أثناء الحرب الأخيرة اكتساحا خاطفا ، حطم نهائيا قداسة القوة الاستعمارية الغربية ، وكان له تأثير صاعق على أسطورة سيادة الرجل الأبيض الذى رآه كل الأسيويين مهزوما مدحورا على أيدى أسيويين مثلهم[1] . وأيا كانت أهداف الدعاية اليابانية من شعار « آسيا للأسيويين » ، وأيا كانت قيمة الاستقلال الوطنى الذى منحته لشعوب تلك المستعمرات إبان الغزو ، فقد أفسد هذا مرة واحدة وإلى الأبد التربة والنفسية القديمة الصالحة للاستعمار .

كذلك لجأ اليابانيون حين اضطروا إلى التسليم إلى إعطاء الأسلحة للوطنيين ، كما أن الحلفاء الاستعماريين من جانبهم سلحوا الوطنيين بقصد مقاومة اليابانيين . ولهذا حين عاد الاستعمار بعد الحرب وجد الوطنيين مسلحين ضده قوميا وعسكريا . ومن هنا بدأ التحرير . وبعده ، فى المعركة نفسها ، جاء عاملان آخران ليحاربا فى صف الوطنيين ضد الاستعمار العائد .

فأما الأول فهو البيئة الطبيعية ، فإن بيئة آسيا الموسمية كانت حليفا طبيعيا لأبنائها : أدغال وأحراش وغابات كثيفة ، ثم أنهار ومستنقعات وجبال تمثل ــ لاسيما فى الفصل المطير ــ مجالا مثاليا لحرب العصابات ، يدوخ الجيوش النظامية ميكانيكية وجوية على السواء . وعلى سبيل المثال فلقد كانت الهند الصينية فى الحقيقة مصيدة طبيعية ضخمة لقوات الاستعمار ومقبرة سياسية لكل قواه ، ابتداء من بريطانيا فى الملايو وانتهاء بأمريكا فى فيتنام مرورا بفرنسا واليابان فى كل مكان . أما العامل الثانى فهو أن الاستعمار هنا كان استعمارا استغلاليا لا استيطانيا ولا استراتيجيا ، ولهذا كان على ضراوته أضعف جذورا وأسهل استئصالا .

وإلى جانب هذا وذاك جميعا بقى عامل خارجى على جانب كبير من الأهمية ، ونعنى به الموقع الجغرافى والسياسى . فمن ناحية كانت آسيا الموسمية أبعد قطاعات الاستعمار عن أوربا ، ومن ثم أصعبها منالا وارتباطا . ومن ناحية أخرى فقد كانت تقع على خط

---

(١) Ritchie Calder, Dawn over Asis, News Chroniche Publication, 1952, p. 18. 20.

الاستواء السياسى بين الكتلتين الشرقية والغربية وتكاد تستقر على ضلوع المعسكر الشيوعى وتحارب وظهرها يستند إلى أعماق الصين. بمعنى آخر كانت أبعد شىء عن فلك الغرب الجغرافى وأدخل شىء فى فلك الشرق ، ومن هنا تدفقت عليها المساعدات بالأسلحة والتأييد ضد الاستعمار.

الموجـة العربيـة
قافـلة الحريـة

أما الموجة الثانية من موجات التحرير فهى موجة العالم العربى فى الخمسينات ، ولو أن طلائعها ظهرت فى لبنان وسوريا فى الأربعينات وأواخرها تأخرت فى الكويت والجزائر إلى الستينات الباكرة وفى الجنوب اليمنى إلى الستينات المتأخرة. ففى ١٩٥١ نالت ليبيا استقلالها بفضل المناورات الاستعمارية من أجل الوصاية على إرث الاستعمار الإيطالى. فقد حاولت كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا أن تتولى الوصاية على ولاياتها برقة وفزان وطرابلس على الترتيب. ولكن اعتراض الاتحاد السوفييتى على عودة إيطاليا ومحاولته أن يحل محلها كان وحده كافيا لأن يدفع بالاستعمار إلى أن يقرر الاستقلال ، لا حبا فى ليبيا ولكن كرها فى الاتحاد السوفييتى وهلعا من أن « يتسلل » إلى الشرق الأوسط[1].

وفى ١٩٥٣ تحررت مصر نهائيا بعد حرب عصابات ومقاومات مسلحة فى منطقة القنال ، سبقتها سلسلة من التوترات والتحديات الشعبية من قبل ، إلى أن توجت فى النهاية بحرب حقيقية كاملة وحاسمة فى ١٩٥٦. وهذه الحرب ستكون نقطة تحول عظمى فى التحرير لا فى العالم العربى ولكن فى أفريقيا وخارجها كذلك. والواقع منذ البداية أن مصر بحكم موقعها ووزنها كانت سباقة إلى النضال التحريرى وكانت دائما مركز الوعى ومنبع الوحى فى الكفاح ضد الاستعمار ، فكانت نموذجا للمغرب العربى ومثالا للمشرق ، وحجر الزاوية والقوة الركن موقعا ودورا. باختصار ، كانت مصر واحة العرب سياسيا. فمنذ « ثورة » يوليو الأم ، رصع العالم العربى بنسل دافق من الثورات التحريرية ، تبدو كالأقمار حول الشمس أو كالنويات حول النواة ، وكان لكل منها بدورها صداها العميق الفاعل ، ابتداء من الجزائر وانتهاء باليمن.

---

(١) P. Birot & J. Dresch, La Méditerranée et le Moyen-Orient, Paris, 1951.

ومرة أخرى كانت ١٩٥٦ عاما حاسما بالنسبة للعالم العربى الأفريقى ، إذ استقلت فيه ثلاث وحدات هى تونس والمغرب والسودان ، وبعدها بقليل استكمل العراق استقلاله الحقيقى . ففى السودان استطاعت مصر « الثورة » المستقلة أن توفر له الفرصة لتصفية الحكم الثنائى ليمكنه من طرد الاستعمار البريطانى . وفى المغرب وتونس حدثت مصادمات عنيفة مع الاستعمار الفرنسى حتى اضطر إلى الخروج ، ولو أنه بقيت بعد ذلك فى تونس بعض جيوب استعمارية متخلفة فى بنزرت طهرت فيما بعد فى ١٩٦٣ ، وفى المغرب فى الأسافين الإسبانية إفنى التى استعيدت بعد قليل ثم سبتة ومليلة وهى ما تزال حتى الآن .

وبعد ١٩٥٦ ، كانت ١٩٦٠ سنة حاسمة أخرى فى تاريخ التحرير العربى الأفريقى ، حيث تم استقلال موريتانيا فى أقصى غرب أفريقيا العربية والصومال فى أقصى جنوب شرقها . وكلتاهما - يلاحظ - لم تكن معروفة تقليديا كجزء من العالم العربى وإنما تعد من تخومه (حيث الصومالية على الأقل لغة غير عربية) ، وكلتاهما لم تدخل الجامعة العربية إلا متأخرة بعد ذلك كثيرا . فأما موريتانيا فقد نالت استقلالها فى ١٩٦٠ فى موجة تحرير المستعمرات الفرنسية السابقة فى وحدات أفريقيا الغربية الفرنسية .

أما فى الصومال ، على النقيض تماما ، وعلى نحو يذكر كثيرا بقصة ليبيا من قبل ، فقد جاءت القصة معقدة مفعمة للغاية . فلقد حاولت بريطانيا ، التى كانت قد احتلت الصومالين البريطانى والإيطالى أثناء الحرب الثانية ، أن تضع يدها عليه سياسيا بعد الحرب ، وذلك تحت قناع فكرة « الصومال الكبير » التى هى أمل الصوماليين الأكبر . ولكن معارضة القوى الكبرى والصغرى ، المعادية والحليفة ، الغريبة والقريبة ، على السواء ، والتى تراوحت بين اقتراح فرنسى بعودة الحكم الإيطالى إلى الصومال الإيطالى وبين اقتراح أمريكى بتدويل الوصاية عليه جميعا ، انتهت بالأمم المتحدة فى ١٩٥٠ إلى إقرار وصاية إيطالية لمدة ١٠ سنوات تختتم بالاستقلال الكامل فى ١٩٦٠ . وهكذا بالفعل ، وبدور مصرى مشهود ، كان ، وتم تحرير الصومال . غير أن هذا ترك ولا يزال أجزاء سليبة من الصومال هى مثلث الصومال الإثيوبى فى الحوض وأوجادن ونطاق الصومال الكينى فى أقصى الجنوب .

مهما يكن ، فبهذا كله يكون العالم العربى الأفريقى قد تحرر فى معظمه حتى سنة ١٩٦٠ ، فيما عدا الجزائر التى أتى دورها فى ١٩٦٢ بعد حرب تحريرية سبعية كاملة - حرب السنوات السبع العربية - كلفت الجزائر مليونا ونصف مليون من الشهداء ، ولعبت فيها المساعدة الحربية والسياسية المصرية دورا خطيرا . ومما له مغزاه أن ثورة

التحرير الجزائرية لم تشتعل إلا بعد عام من الثورة المصرية . وفضلا عن هذا فإن فرنسا لم تشترك فى حرب السويس إلا « لتخضع الجزائر عن طريق القاهرة » .

هذا ، وقبل الجزائر وفى ١٩٦١ كانت الكويت قد تحررت على الخليج ، منتزعة استقلالها من بين براثن الاستعمار البترولى فى صميمه . أما بعد الجزائر ــ وعلى نحو يكررها على تصغير شديد ــ فقد سجل الجنوب العربى آخر موجات المد القومى ، حيث أرغم الاستعمار البريطانى على الخروج فى أواخر ١٩٦٧ من « عدن والمحميات » أو « اتحاد الجنوب العربى » كما سماها الاستعمار على التعاقب ، وحيث قامت جمهورية جديدة باسم جنوب اليمن بعد حرب تحريرية حقيقية بدأت منذ ١٩٦٤ ، تحت إيحاء الثورة اليمنية الملاصقة وفى ظل المساعدة المصرية ــ تماما كما بدأت الثورة الجزائرية .

وسيلاحظ عند هذا الحد أنه بالعالم العربى قد بدأت أول عملية تحرير فى أفريقيا على طول ضلعى ساحل البحر الأحمر والمتوسط . أما فى آسيا العربية فمن السهل أن نرى سهم الحركة يبدأ من الشمال عموما سواء فى الشام أو العراق ثم يرسم قوسا عريضا عكس عقارب الساعة ليصل إلى الجنوب اليمنى . وكان من الواضح أنه سيمضى فى نفس الاتجاه على طول بقية سواحل الجنوب العربى ثم إلى الخليج العربى فى النهاية ، أى على نفس المحور الذى تمدد عليه الاستعمار فى البداية . وبالفعل ، فلقد أرغمت بريطانيا تحت ضغط المد العربى على الانسحاب من الخليج العربى نهائيا قبل ١٩٧١ .

أخيرا ، وفى السبعينات الباكرة أيضا ، تم تصفية بعض الجيوب المتخلفة هنا وهناك على الجانب الآخر من البحر الأحمر . فعلى هامش أو جنب موريتانيا جاء دور منطقة الصحراء الإسبانية بشقيها وادى الذهب (ريو دى أورو) والساقية الحمراء فى أوائل العقد . فهذا الجيب الإسبانى المزروع بين موريتانيا والمغرب تم اقتحامه سلميا « بمسيرة خضراء » من جانب المغرب ودون مقاومة من جانب إسبانيا عمليا . وبذلك تم تحريره ثم اقتسامه بين الجارتين العربيتين : الساقية فى الشمال للمغرب والوادى فى الجنوب لموريتانيا . بالمثل على الجانب الصومالى وفى نفس التاريخ تقريبا ، لحق الصومال الفرنسى بقافلة التحرير وأصبح دولة مستقلة باسم جيبوتى .

تلك إذن هى موجة التحرير العربية بجزئياتها وتفاصيلها من البداية إلى النهاية . غير أن لنا قبل أن ننظر إليها نظرة كلية جامعة أن نذكر على هوامشها أو بين تضاعيفها بعض حالات متفرقة من التحرير هنا وهناك ، لا تتركب أو تدخل طبعا فيها ولكن قد لاتبتعد أو تنفصل تماما عنها . فعلى ضلوع العالم العربى الشمالية وعلى حواشى الموجة العربية ، ثمة

كان تحرير قبرص فى ١٩٦٠ ثم مالطه فى السبعينات وذلك من استعمار بريطانى استراتيجى مقيم منذ أواخر القرن ١٩ فى الأولى وأوائله فى الثانية ، أو قل بالتحديد منذ الاحتلال البريطانى لمصر والحملة الفرنسية عليها على الترتيب . وقد تحقق استقلال قبرص بالذات بعد حرب عصابات مضنية قاسية ، ومن المحقق أن المثل العربى عامة والمصرى خاصة لعب دورا ما فى هذه الملحمة .

خلاصة المسيرة

لا يبقى لنا الآن ، إذا انتقلنا فى الختام من التفصيل إلى التعميم ، إلا أن نلاحظ من ناحية المسار الجغرافى للمسيرة أن أفريقيا العربية وآسيا العربية كانتا تتبادلان خلالها التسابق وتتناوبان الأولوية فى سباق التحرير بصورة معبرة ، فمرة تسبق هذه وتلك تتخلف ، ثم العكس ، وهكذا . لكن الغريب أن بقايا الاستعمار فى أفريقيا العربية الآن إنما هى ، باستثناء الجيبين الإسبانيين فى المغرب ، مما يمكن أن نسميه للأسف « بالاستعمار الأفريقى » ، حيث تحتل إثيوبيا كلا من إرتريا فى الشمال والصومال الإثيوبى فى الجنوب ، وذلك فى وجه حرب عصابات تحريرية لم تنقطع فى الأولى وفى وجه حروب عسكرية عديدة ومجابهات مسلحة متقطعة فى الثانى ، هذا بالاضافة إلى الصومال الكينى الذى تحتله كينيا . ومعنى هذا أن بعض أفريقيا اليوم هو ، للغرابة والصدمة ، الذى يحتل بعض العالم العربى ، لا العكس ولا الأوربيين . . .

أما فى آسيا العربية ، التى كانت معقل القطاع الوحيد الذى نجا من الاستعمار أولا وموطن بدء عملية التحرير ثانيا ، فإن اللافت هنا أنها قد أصبحت المعقل الأخير لأخطر أنواع الاستعمار المتخلفة فى العالم أجمع وهو الاستعمار الصهيونى الإسرائيلى فى فلسطين المحتلة . وبهذا وذاك يكون العالم العربى بالدقة هو ، للدهشة والأسف ، من أكثر وحدات العالم تخلفا فى التحرير وامتلاء ببقايا الاستعمار المتخلفة (سبتة ومليلة فى المغرب ، إرتريا والصومالان الإثيوبى والكينى فى القرن الأفريقى ، فلسطين العربية) .

ومن ناحية المدى الزمنى لكل من المد الاستعمارى والمد التحريرى ، فالظاهرة اللافتة بوضوح هى شدة تضاغط الثانى بالقياس إلى الأول ، فما بناه الاستعمار فى ٩٠ سنة — باستثناء فلسطين المحتلة — هدمه التحرير أو هدم معظمه فى أقل من ٢٥ سنة . أما من حيث الترتيب التاريخى وتوقيت التحرير ، فسنلاحظ نوعا عريضا وعاما — دون أن يكون مطردا مع ذلك بأى معنى — من العلاقة العكسية بين أولوية الاستعمار وأولوية

التحرير . فبصورة تقريبية كانت آخر الوحدات العربية التى سقطت للاستعمار (كسوريا ولبنان وليبيا من ضحايا الموجة الثالثة) هى من أبكرها استقلالا ، بينما كانت آخرها استقلالا هى أولى ضحايا الاستعمار (الجزائر والجنوب اليمنى من ضحايا الموجة الأولى) . وباستثناء الشذوذ البحت فى فلسطين المحتلة مرة أخرى ، فكل بقايا الاستعمار حتى السبعينات هى أيضا من ضحايا الموجة الأولى . ويترتب على هذا كله أن أولى الضحايا كانت سيئة الحظ مرتين ، وكان عمر الاستعمار فيها أطول مرتين .

من ضوابط التحرير

وإذا نحن توقفنا لنتمعن ضوابط التحرير فى العالم العربى ، فلن نخطئ أثر الموقع الجغرافى ونوع الاستعمار بالاضافة إلى البيئة الطبيعية . فمن بين كل مناطق الاستعمار فى العالم القديم ، يقع العالم العربى أقرب ما يقع إلى أوربا ، بل هو أدخل فى فلكها الجغرافى . وبالتالى فقد كان من السهل على الاستعمار أن يشدد قبضته هنا دون أن يقابل مواجهة مباشرة من توازن قوى مع معسكر مضاد أو كتلة أخرى .

كذلك فقد كانت جذور الاستعمار هنا متغلغلة عميقة لأن نوعه السائد كان إما من الاستعمار الاستراتيجى كما فى مصر بوجه خاص وإما من الاستعمار الاستيطانى كما فى الجزائر بوجه خاص . كما جاء البترول فى سواحل المشرق العربى ليدعم الجانب الاستراتيجى ويضيف الجانب الاستغلالى فى طبيعة الاستعمار . ولهذا استمات الاستعمار بشراسة وقابل المقاومة الوطنية بمزيد من القوة الضارية . ففى مصر يرمز الكفاح المسلح وحرب القنال إلى مدى صعوبة استئصال الاستعمار الاستراتيجى . ولو أن الهند قد استقلت فى وقت مبكر ، فلربما كان الراجح أن تنتزع مصر استقلالها منذ ذلك التاريخ .

أما فى الجزائر حيث وصل الاستعمار الاستيطانى إلى أبشع درجاته وأشدها ضراوة حتى اعتبرها جزءا لا يتجزأ من وطنه ، فقد أثبتت التجربة أن مشكلة التحرير مع الاستعمار الاستيطانى مشكلة مزدوجة ، فهو لا يكافح القوة المتروبوليتانية فقط بل والمستوطنين أيضا . فكلما أشرف على انتزاع تنازلات من الجانب الأول ، تحول الثانى إلى عصابة إرهابية داخلية « تأخذ القانون فى يدها » وتفرض نوعا خاصا من حكم الملاك Landocracy هو حكم ملاك الاستعمار Plantocracy . وتعلن العصيان والتمرد على الحكومة « الأم » مهددة « بحرب استقلال » (!) للانسلاخ عنها والانفراد بالمستعمرة .

ثم حاول إرهاب المتوطنين أن يفرض ، دون جدوى ، التقسيم إلى دولتين

مستقلتين ، أوربية على الساحل المعمور ووطنية فى الداخل الصحراوى ، إلى أن قذف به التحرير فى البحر تماما . وفى جبهة المعركة أخذت الطبيعة ، كقلعة جبلية غابية وعرة ، صف الوطنيين ، تهيئ لهم حرب العصابات فى الوقت الذى تضاد جيوش المستعمر الميكانيكية والجوية ، حتى أصبحت القبائل وأوراس رمزا وطنيا وموطنا للتحدى والنضال القومى .

ورغم أن الاستعمار فى الجنوب اليمنى لم يكن سكنيا استيطانيا ، فقد استمات فى تشبثه بالبقاء ، وذلك بسبب طبيعته الاستراتيجية ـ وبفضلها أيضا . فمنذ ضياع السويس أصبحت عدن أضخم قاعدة بريطانية بحرية شرق السويس ، وذلك أساسا فى منطقة مخلخلة السكان نسبيا . ولكن الأرض هنا ـ كما هى القاعدة دائما ـ حاربت مع أبنائها ، وتكررت تجربة الجزائر على مقياس مصغر . فلعبت جبال ردفان ـ كأوراس ـ دور المشعل والمعقل فى حرب العصابات ، بينما لعبت عدن بأحيائها الشعبية المكتظة دور مدن الساحل الجزائرى بقصباتها الوطنية الشهيرة . وكما ناور الاستعمار فى الجزائر بخدعة التقسيم ، ناور فى الجنوب العربى ـ دون جدوى أيضا ـ بمحاولة فصل الجزر الساحلية عن الأرض الأم ليتخذ منها قواعد أوحاملات طائرات لا تغرق تدخل فى فلك استراتيجيته الجديدة العامة ، استراتيجية الجزر المحيطية فى المحيط الهندى .

الموجة الأفريقية

تبقى الآن الموجة الثالثة والأخيرة للتحرير وهى الأفريقية ـ بمعنى أفريقيا المدارية ـ فى الستينات [1] . ولقد سبقتها فى الواقع بعض حالات معزولة فى أخريات الخمسينات تضم غانا فى سنة ١٩٥٧ وغينيا فى سنة ١٩٥٨ حيث كانتا أولى الدول الأفريقية المدارية استقلالا . وكذلك كان هناك من قبل دولتان أفريقيتان مستقلتان منذ القدم هما إثيوبيا وليبيريا ـ إثيوبيا لظروفها الطبيعية كقلعة جبلية منيعة لم تسقط للاستعمار إلا فى الفترة الإيطالية ، وليبيريا لظروف إنشائها لتحرير الرقيق الأمريكى العائد . فكلاهما « استقلال سلبى » إن صح التعبير .

وإنما ننتقل إلى قلب أو قمة الموجة التحريرية الأفريقية فى سنة ١٩٦٠ ، فهى علامة كبرى فى تاريخ القارة وسنة القدر والقدر بالنسبة لها . فإلى ما قبل هذا التاريخ كان

---

(١) حمدان . إفريقيا الجديدة .

بالقارةكلها عشر دول مستقلة فقط لا تزيد مساحتها عن ٣,٤٧٠,٠٠٠ ميل مربع أو ٣٠٪ من مساحة القارة ، ولا يزيد سكانها عن ١٠٢,٣٤٠,٠٠٠ نسمة أو ٤١,٧٪ من سكان القارة . فإذا بسنة ١٩٦٠ ــ سنة أفريقيا كما وصفت ــ تضيف إلى قائمة التحرير ١٧ دولة جديدة بمجموع مساحة قدره ٤,٥٧٠,٠٠٠ ميل مربع أو ٤١٪ من القارة ، وبمجموع سكان قدره ٨١,٩٤٥,٠٠٠ نسمة أو ٢٣,٥٪ من القارة .

ومعنى هذا المعدل المذهل استقلال أكثر من دولة كل شهر من ذلك العام . وتشمل هذه المجموعة كل وحدات أفريقيا الاستوائية الفرنسية وأفريقيا الغربية الفرنسية السابقتين ، مضافا إليهما نيجيريا والكونجو (كينشاسا ، زائير فيما بعد) وملاجاش . وبهذه الموجة تم تحرير غرب أفريقيا كله تقريبا ، كما عبر التحرير خط الاستواء لأول مرة .

ومنذ سنة ١٩٦٠ حتى الوقت الحالى لم يتوقف زحف الحرية . ففى السنوات الخمس الأولى استكملت الثغرات المتخلفة فى غرب إفريقيا استقلالها وذلك فى سيراليونى ثم فى جامبيا ، ولكن مركز ثقل التحرير انتقل أساسا إلى شرق القارة ، فهنا نالت ٨ وحدات استقلالها ابتداء من أوغندا وكينيا حتى نياسالاند (ملاوى) وروديسيا الشمالية (زامبيا) بلا انقطاع ، مرورا بتنجانيقا وزنزبار (تانزانيا) ورواندا وبوروندى . وبذلك تم تحرير كل حوض النيل من ناحية ، ووصلت طلائع الحرية إلى حوالى خط عرض ١٨ درجة جنوبا من ناحية أخرى حيث أرسلت سهما فى صميم كتلة الاستعمار المتخلفة فى أفريقيا الجنوبية .

وعدا هذا فمنذ سنة ١٩٦٥ حتى نهاية سنة ١٩٦٧ تم استقلال بتشوانالند (بوتسوانا) وباسوتولند (ليسوتو) ، كما استقلت جزيرة موريشس فى العام التالى . وبهذا وصلت طلائع التحرير إلى خط عرض ٢٨° أو ٣٠° جنوبا ، أى أن التحرير قفز ٣٠ درجة عرضية فى ٧ سنين فى النصف الجنوبى من القارة وحده .

وعلى هذا كانت المحصلة العامة حتى ١٩٦٨ هى أن عدد الوحدات المستقلة فى القارة الأفريقية قد وصل إلى ٣٩ وحدة ، مجموع مساحتها نحو ١٠,٣ ملايين ميل مربع أو نحو ٨٨,١٪ من مساحة القارة ، ومحتواها السكانى لا يقل عن ٢٣٤ مليون نسمة أو حوالى ٩٣,٥٪ من أبناء القارة . وبهذا لم يتبق أمام أفريقيا سوى بضع خطوات أو قفزات قصيرة لتستكمل تحريرها . وهذا ما تم فعلا خلال السبعينات ، ولذا يأتى هذا العقد كملحق لعقد أفريقيا الستينات أو كالفصل الأخير فى دراما التحرير .

فى هذا العقد اقتلع مد التحرير بعض الوحدات الضخمة خاصة فى مثلث الجنوب ، كما اكتسح عديدا من الوحدات الضئيلة خاصة فى مستطيل الشمال ، بالاضافة إلى معظم جزر القارة سواء فى المحيط الأطلسى أو الهندى . فأما الأولى فتشمل ثلاثية أنجولا وموزمبيق البرتغاليتين بينهما روديسيا (الجنوبية) البريطانية سابقا والمستقلة لاحقا (وزيمبابوى بعد التحرير) . ففى الأوليين قامت حرب عصابات حقيقية بين الوطنيين والحكم البرتغالى ، بينما قامت فى الأخيرة بين الوطنيين والأقلية البيضاء الحاكمة . وفى الجميع استمرت الحروب بضع سنين ولعبت دورا خطيرا فى السياسة الدولية بمساوماتها وصفقاتها ، إلى أن فرض التحرير نفسه فى النهاية بقوة السلاح .

أما عن الوحدات الضئيلة ، فلقد عرضنا من قبل للصومال الفرنسى فى أقصى القرن الأفريقى وللصحراء الإسبانية فى المغرب الأقصى . وفيما عدا هذا فقد تركزت البؤرة على دائرتين صغيرتين تقعان على أقصى طرفى غرب أفريقيا أو خليج غينيا ، تتألف كلتاهما من جيب ساحلى أو أكثر على اليابس وجزيرة أو أكثر تواجهه فى المحيط ، وكلتاهما أيضا تتعلق بإسبانيا أو البرتغال .

ففى الدائرة الغربية عند نهايات الانبعاج الأفريقى الكبير تم تخليص غينيا البرتغالية (غينيا بيساو) على اليابس وجزر الرأس الأخضر (كيب فيرد) إزاءها بعد حرب عصابات محلية طويلة . وفى الدائرة الشرقية عند كوع أو زاوية أفريقيا فى خليج غينيا أو بيافرا تم تصفية الوجود الإسبانى من جيب ريو مونى المحصور بين الكمرون والجابون ومن مجموعة جزر فرناندو بو وأنوبون لتقوم عليها دولة غينيا الاستوائية . وبالمثل طرد الاستعمار البرتغالى من جيب كابندا المندس بين الكونجو برازافيل والكونجو كينشاسا (زائير) وأنجولا ثم من مجموعة جزر برنسيب وساو تومى فى الخليج .

هذا على جانب الأطلسى ، أما على جانب الهندى فقد تركزت الدائرة حول جزيرة مدغشقر . فكان الدور على جزر القمر (كومورو) ورينيون الفرنسية ، ثم جزر سيشل وموريشس البريطانية .

بهذا كله وبانتهاء السبعينات كانت أفريقيا جميعا قد تحررت تقريبا فيما عدا جمهورية جنوب أفريقيا (بما فى ذلك ناميبيا أو جنوب غرب أفريقيا) ثم الجيوب القزمية المتخلفة بالاضافة إلى حالات « الاستعمار الأفريقى » الشاذة . وبهذا أيضا تكون أكبر حركة تحريرية فى العصر الحديث قد تحققت فى أفريقيا ، وذلك من حيث المساحة وإن لم يكن من حيث السكان . فكيف تبدو هذه الحركة فى مجموعها ككل ؟

إذا نظرنا إلى أفريقيا ككل فسنرى أن التحرير بوجه عام بدأ أولا بساحلى البحر المتوسط والأحمر . ثم يلى زمنيا غرب أفريقيا بعامة ، يتبعه مباشرة تقريبا نطاق الصحراء الكبرى وحوض الكنغو . بعد ذلك عبرت قافلة الحرية خط الاستواء ، وزحفت من شرق أفريقيا إلى وسطها على طول العمود الفقرى لخط المرتفعات والهضاب الشرقية ، تماما على عكس مسار الاستعمار الأبيض هنا فى القرن الماضى . فسهم التحرير فى القارة بعامة يرسم إذن اتجاها محددا واضحا من الشمال إلى الجنوب .

وفى التحرير الأفريقى لا يمكن أن نغفل أثر نوع الاستعمار ودور الطبيعة . ففيما عدا جزرا جغرافية معينة من الاستعمار السكنى الاستيطانى ، كان الاستعمار الاستغلالى هو الذى يسود القارة المدارية . ففى ظل هذا الأخير لم يجد التحرير عقبات مستحيلة . فالجاليات الأوربية رشاش أو رذاذ بالغ الضآلة عددا وقوة بفضل المناخ الطارد ، ولا تملك المقاومة الجدية ، ويسهل على المد التحريرى اقتلاعها . ولقد قيل على سبيل المثال فى غرب أفريقيا « إن بعوضة الملاريا هى المنقذ الحقيقى » .

أما فى جزر الاستعمار السكنى الاستيطانى حيث يتضخم عدد وقوة الدخيل ، فكان لا بد من التحام دموى . ومن حسن الحظ أن الطبيعة الجبلية العالية التى كانت فى البدء مغنطيس الاستعمار السكنى الاستيطانى ، كانت بعينها فى النهاية عامل طرده ، وأن الطبوغرافيا التى كانت عونا له أصبحت عوانا عليه ، وذلك بحسبانها ميدانا مواتيا لحرب العصابات الوطنية . تلك تجربة متواترة عرفتها إثيوبيا ضد الإيطاليين ، وخاضتها الكيكويو فى كينيا ، وكررتها بعدها مرتفعات أنجولا . بل قبل هذا جميعا عرفتها قبائل الزولو والمتابيلى (ندبيلى) فى مرتفعات جنوب أفريقيا حيث استمر الكفاح قرنا بأكمله على فترات متقطعة فى « حرب الكافير » حتى سميت بجدارة حرب المائة عام الأفريقية [1] .

وإذا نحن الآن نظرنا نظرة مقارنة إلى حركة التحرير فى كل من آسيا الموسمية والعالم العربى وأفريقيا المدارية ، فقد يمكن أن نقول إن الصراع فى الأولى كان أقرب إلى الشكل العسكرى وانتظم حروبا حقيقية عنيفة ومريرة ، منظمة أو بالعصابات . أما فى

---

(١) Macmillan, Africa Emergent, Pelican, 1949.

العالم العربى فإن الحروب المسلحة تتقاسم الصراع مع الكفاح الشعبى بنسب متقاربة ، غير أن حركة النضال به كانت أطول مدى وزمنا منها فى آسيا . وأما التحرير فى أفريقيا المدارية فهو وإن لم يخل من العنصر الحربى فقد كان أقرب إلى الكفاح السياسى الشعبى بعامة . وتحقق بسرعة وسهولة نسبية لا تقارن بأى من المنطقتين الأخريين ، ولا شك أن هذا يرجع جزئيا إلى أنها قد أفادت من ثمار نضالها العنيف أو الطويل .

موجة محيطية رابعة ؟

تلك إذن هى موجات التحرير الثلاث فى العالم القديم . ولكن قبل أن نتقدم بعدها ينبغى أن نتذكر أن حركة التحرير لم تقتصر على العالم القديم ولا انحصرت فى اليابس وحده ، وإن كان هذا وذاك هما المسرح الرئيسى لها بطبيعة الحال . ذلك أن الاستعمار كان كلما طورد وطرد من القارات تقهقر بانتظام ولكن بعناد إلى المحيطات بجزرها الساحلية والعميقة ليتمترس فيها كخط الدفاع الأخير أو ليتخندق بها كالملجأ الأخير . ولكن بلا جدوى ، إذ سرعان ما كان المد التحريرى يلاحقه إلى تلك الجزر حيث يقتلعه منها بدورها ، فيزداد هو بدوره إمعانا فى التراجع إلى الأعماق وإلى أقصى أطراف المعمور والمعمورة ، وهكذا . أوكما صور بعض المراقبين ، كان الاستعمار المنحسر أشبه بالغريق الذى يتشبث بآخر قشة ، وكانت الجزر المحيطية هى القشة الأخيرة تلك . ولكن أيضا إلى حين ، حين يدفن نهائيا فى البحر . أوكما علق مراقب آخر ، إذا كان الاستعمار الحديث قد ولد فى الأعم الأغلب بحريا وعمد وراء البحار ، فإنه لمنطق جدا ــ أليس كذلك ؟ ــ أن يدفن الآن فى البحار .

من هنا ، على أية حال ، تبدو ظاهرة استقلال الجزر البحرية والمحيطية كخلفية مستمرة لحركة التحرير الرئيسية بمراحلها الثلاث عموما ، تبدأ خفيفة ولكنها غير خافية ثم تمضى وثيدة ولكنها متصاعدة متسارعة ، حيث بزغت فى الأربعينات ولكنها لم تشتد إلا منذ الستينات خصوصا وفى السبعينات أساسا . ولهذا فلعلنا أن نعدها بمثابة موجة أو شبه موجة رابعة أو تكميلية فى حركة التحرير التاريخية ، لا تتركز فى فترة زمنية بالضرورة ولا تنحصر فى منطقة اقليمية بعينها ، ولكن تغطى الكرة الأرضية عموما بنصفيها الشمالى والجنوبى والغربى والشرقى ، وإن تبلورت أكثر فى النصف الجنوبى والشرقى بالطبع .

ولنفصل . فى ١٩٤٤ انفصلت أيسلند عن الدنمرك كدولة مستقلة . وفى ١٩٦٠ استقلت قبرص ، بينما كانت جميكا وتوباجو أول ما نالت استقلالها فى جزر الأنتيل

الصغرى بالكاريبى فى ١٩٦٢ . وعلى ساحل أمريكا الجنوبية المقابل تم استقلال جيانا البريطانية (جويانا) منذ ١٩٦٦ . ثم لم تلبث الحركة أن انطلقت فى السبعينات متقافزة مابين الجزر الساحلية والجيوب الساحلية وما بين الجزر المحيطية والأعماق .

فمن مالطه فى المتوسط ، إلى الجزر الإفريقية فى الأطلسى كالرأس الأخضر ، ولكن خاصة فى الهندى كالقمر ورينيون وسيشل وموريشس ودييجو جارسيا ، ثم إلى بقية الجزر الفستونية أو القوسية بالأنتيل الصغرى والكبرى فى الكاريبى مثل بهاما وترينداد وبربادوس وأنتيجوا ووينداوارد وجواديلوب والمارتينيك ، فضلا عن سورينام (جيانا الهولندية) وبليز (هندوراس البريطانية) على الساحل المواجه ، ثم أخيرا إلى الجزر الأرخبيلية السديمية التى تفوق الحصر فى ميلانيزيا وبولينيزيا وميكرونيزيا فى الهادى مثل فيجى وتونجا وفانوتو وبابوا وجزر سولومون وكيريبانى وتوخالو ... الخ .

فطوال السبعينات كان كثير من هذه الجزر هنا وهناك يحصل على استقلاله ليؤلف دولا بذاتها وإن كانت بالغة الضآلة mini-states إلى حد أن أحدا لا يكاد يحس بها سوى سجلات وأروقة الأمم المتحدة ولا يسمع عنها سوى الجغرافيين والساسة . وسنرى بعد قليل دور هذه الجزر وأشباه الجزر فى تضخيم عدد الوحدات السياسية بالعالم مع سيادة الأحجام الضئيلة والقزمية عليها .

مغـزى الزحـف

تتـابـع وتعـاصر

السؤال الآن : هذا الزحف التحريرى بنمطه التاريخى الواضح ، ماذا يقول للجغرافى ؟ حقيقتين بارزتين : أولاهما أن هناك فارقا زمنيا طفيفا ولكنه دال بما فيه الكفاية بين قطاعات العالم القديم فى توقيت التحرير . فمسار الحركة يرسم قوسا عكس عقارب الساعة يدور مع سواحل المحيط الهندى أو موازيا له ، بادئا فى آسيا الموسمية ومارا بالعالم العربى ثم منتهيا بأفريقيا المدارية . ومعنى هذا بوجه عام أن التحرير العربى بدأ زمنيا حيث انتهى التحرير الأسيوى ، بينما حيث انتهى هو بدأ التحرير الأفريقى .

الحقيقة الثانية : هى أن هذه الفروق الزمنية لا تنفى أن زحف التحرير جميعا موجة واحدة متعاصرة ملتحمة أساسا وإن تعددت شعبا وتتابعت خطوات . ولا ينبغى أن يخدعنا التفاوت الزمنى الدقيق عن ذلك . فالحركة كلها مركزة فى نحو عشرين عاما لا

تزيد ، وهى ـ إذا وسعنا البؤرة قليلا ـ مجرد لحظة فى مقياس التاريخ السياسى وحياة الأمم . فأى معنى إذن لهاتين الظاهرتين ، وهل لهما مغزى نضالى خاص ؟

كثيرا ما تفسر المتتابعة الأولى على أن التحرير العربى رد فعل تابع وظيفيا تال تاريخيا للمد الأسيوى . ولكن هذا الترتيب إنما هو ترتيب تواريخ الاستقلال الرسمى . والتحرير العربى يمكن أن نقول إنه بدأ منذ بدأ الاستعمار . فكل الثورات والانتفاضات فى الجزائر والمغرب الكبير وفى مصر والشام والعراق والتى ترصع كل عقود القرن الماضى والحاضر دليل واضح . هل نريد دليلا أوضح ؟

من المحقق تاريخيا أن ثورة سنة ١٩١٩ فى مصر كان لها صدى هائل فى الهند خاصة وآسيا عامة ، وكانت وحيا لحركات تحريرية متلاحقة هناك . ومن ناحية أخرى فإنه إذا أخذنا الناحية الشكلية ، فإن مصر تعد دولة مستقلة ذات سيادة منذ سنة ١٩٢٢ ، وإلا فمنذ سنة ١٩٣٦ . والعراق منذ سنة ١٩٣٤ . هذا عدا أن سوريا ولبنان قد تحررتا فعلا قبل أى وحدة فى آسيا الموسمية . ومعنى هذا أن التحرير وإن تأخر ظاهريا فى مجموعه فى العالم العربى عنه فى آسيا الموسمية ، فهو أسبق واقعيا .

وهذا هو الترتيب المنطقى للأشياء ، لأن العالم العربى ليس أقرب إلى أوربا فى الموقع الجغرافى فقط ولكن فى الموقع الحضارى كذلك . وكما أن القوة الحضارية النسبية للعالم العربى هى التى أخرت دخول الاستعمار الغربى إليه طويلا عنه فى آسيا الموسمية ، فإنها هى نفسها التى تفسر سبق التحرير الفعلى العربى عن الأسيوى . أما لماذا تأخر النجاح القانونى للتحرير العربى رغم هذا السبق الحضارى والنضالى ، فيرجع أساسا إلى الموقع الاستراتيجى للعالم العربى كشريان المواصلات الاستعمارية مما جعل الاستعمار أكثر ما يكون تشبثا به وضراوة فيه . لاسيما أن قرب هذا الموقع الشديد من أوربا قد شدد من قبضتها عليه وكبتها له . فموقفه التحريرى إذن أدق وأصعب . قارن مثلا نضال الهند الصينية بنضال الجزائر إزاء فرنسا ، ونضال الهند بنضال مصر إزاء بريطانيا .

أما بالنسبة إلى أفريقيا المدارية فلا شك أن الحقيقة المقررة ، والمعترف بها من الجميع ، هى أن المثل العربى كان مباشرا وحاسما فى تفجير وتحريك الثورة التحررية على تخومه الجنوبية ، بل تعدى التأثير إلى النطاق العملى بالمساعدة الإيجابية حتى كان العالم العربى فى مجموعه بحق « واحة أفريقيا » سياسيا . ومن المحقق على وجه التحديد أن حرب السويس الفاصلة فى سنة ١٩٥٦ كانت علامة تاريخية وإشارة بدء لأفريقيا المدارية بالانطلاق نحو التحرير .

والحقيقة أننا يمكن أن نؤرخ لبدء حركة التحرير الفعالة جنوب الصحراء بهذه المعركة ـ أرماجدون أفريقيا الجديدة . وليس من الصدفة أن أول نجاح تحققه فى غانا وغينيا كان فى سنة ١٩٥٨ ، أى بعد عامين من تلك المعركة . والواقع أن أثر معركة السويس فى تحرير أفريقيا يشبه ـ إلى حد ما ومع الفارق ـ أثر اليابان غير المقصود فى تحرير آسيا . ففيها شهدت أفريقيا مع العالم هزيمة الرجل الأبيض والجيوش الأوربية ، ومعها تحطمت أسطورة التفوق التقليدية ، وبها اقتنعت أفريقيا بأنها قادرة على أن تتحدى الاستعمار وتطارده .

وعلى هذا فالخلاصة أنه سواء بالنسبة للجناح الأسيوى أو الأفريقى من العالم المدارى ، يقف العالم العربى موقفا رياديا كنواة للتحرير ، وكان دائما كأقرب أجزاء العالم الثالث إلى أوربا موقعا وقامة يمتاز بدينامية جيوبولتيكية فياضة بالإشعاع السياسى فيما حولها . ولعل هذا هو التفسير الصحيح لتتابع مراحل التحرير الحقيقى داخل قطاعات العالم القديم زمنيا .

ويبقى الآن التعاصر الأسى والقاعدى بينها رغم ذلك . وهذا التعاصر هو الذى يفسر تفاوت عمر الاستعمار بشدة بين تلك القطاعات . إذ أن هناك بدايات مختلفة جدا تاريخيا ، ولكن تاريخ النهاية واحد عموما . فى آسيا الموسمية وصل الاستعمار إلى أرذل العمر بالتأكيد ، حيث عمر الاستعمار الهولندى وحده فى إندونيسيا ٣٥٠ سنة ، وحيث خضرم الاستعمار فى الهند قرنين ، وفى الهند الصينية نحو قرن . على النقيض من هذا أفريقيا المدارية حيث ـ باستثناء السواحل ـ لا يزيد عمر الاستعمار عن ٧٠ سنة فى المتوسط . أما فى العالم العربى فالحد الأقصى يزيد قليلا عن المتوسط الأفريقى ، ولا يزيد كثيرا عن الحد الأدنى الأسيوى ، أما الحد الأدنى فيقل كثيرا جدا عن أى منهما .

روح العصر والميكانيزم

ثم يعود السؤال : لماذا تعاصرت ظاهرة التحرير فى العالم عموما ؟ والرد يكمن ـ فى كلمة واحدة ـ فى روح العصر Zeitgeist . لقد أصبح التحرير هو إيديولوجية الشعوب التى طال كبتها وروح العصر السارية السائدة . وإنه هو المناخ السياسى الذى جعل الثورة على الاستعمار ظاهرة كوكبية فى العالم كله لا علاقة لتوقيتها بعمر الاستعمار هنا أو هناك ـ دون أن يقلل هذا البتة من دور الكفاح الوطنى نفسه ، وإنما هو كان فرصة مواتية استفاد منها هذا الكفاح إفادة ذكية شجاعة .

ولكن لاشك أن وراء روح العصر هذه عوامل مادية وسياسية صلبة علينا أن نبحث عنها . وفى هذا يمكن أن نتعرف على عاملين رئيسيين . فهناك أولا ميكانيكية نمو المستعمرات . فالاستعمار سلاح ذو حدين . فحتى يستغل مستعمرته لمصلحته ، فإنه يضطر راغما إلى إدخال الوسائل الحضارية والتكنولوجية التى تساعده على ذلك . أى أنه يعجل بعملية الاحتكاك الحضارى والتحضير التى تنعكس على الوطنيين نموا فى القوة البشرية وفى الكفاءة الفنية ، فيشتد ساعدهم وقدرتهم المادية على النضال السياسى .

وليس أقل أهمية من الناحية المادية النواحى النفسية . فالاحتكاك الحضارى مع بداية الاستعمار يصيب الوطنيين بانبهار حضارى وانبهار نفسى يسهل الانتصار للاستعمار . ولكن مع تشربهم وتمرسهم بالحضارة الجديدة ــ والإلف يورث الاحتقار ــ يدركون أسرارها بل ويدركون فضلهم التاريخى فيها ، مما يرفع روحهم المعنوية إزاء المستعمر ويحل مركب النقص الحضارى . وبمعنى آخر فإن كلا من ميكانيزم وسيكولوجية الاحتكاك الحضارى لا يلبث أن يقوى ساعد التحرير ماديا ومعنويا حتى ينجح فى طرد الاستعمار .

والخلاصة أن الاحتكاك الحضارى الذى يصاحب الاستعمار لايلبث أن يضيق الهوة الحضارية ــ التى هى أساس التفوق العسكرى للاستعمار ــ بين القوة الدخيلة والداخلية . وهكذا يؤدى منطق الاستعمار من صميم نفسه وبطريقة ديالكتيكية إلى نقيضه تماما . تلك متناقضة ساخرة فى فلسفة الاستعمار ، وهى وحدها تجعل نهايته محتومة بطبيعته ، فهو يهزم أغراضه ويستهلك نفسه بنفسه ويحمل فى كيانه جرثومة فنائه . هذا أول .

أما العامل الثانى فى تصفية الاستعمار وإذابته فهو انتهاء احتكار القوة العالمية فى يد قوى أوربا الاستعمارية . فرغم أن الاستعمار كان يمثل نظاما واحدا فى النهاية ، فقد كان يطفح بالصراعات الداخلية والتوترات الكامنة التى لم تزل تصدعه وتمزقه . وبين هذا وذاك استطاعت بعض المستعمرات أن تنتزع استقلالها . وعلى التتابع التاريخى يمكن أن نقول إن كلا من فرنسا وبريطانيا كانت تطارد كلا من إيطاليا وألمانيا وراء البحار ، وكانت بريطانيا تطارد الجميع ، إلى أن جاءت الولايات المتحدة محاولة أن ترث الكل فى صورة جديدة . وتتمثل هذه المناورات والمطاردات ، كعامل فعال أو مساعد فى تحرير المستعمرات ، ابتداء من سوريا ولبنان، إلى ليبيا والجزائر وفيتنام .. ألخ .

ولكن لايقل خطرا عن ذلك أن تضعضع الاستعمار بالصراع الداخلى والحروب

المتواترة قد ساعد على إعطاء الفرصة لظهور قوى جديدة ضخمة معادية للاستعمار من حيث المبدأ . والإشارة هنا إلى الدول الاشتراكية الماركسية عامة والاتحاد السوفيتي خاصة . ومن هنا لم تعد المستعمرات تعيش فى سوق سياسية احتكارية تماما تحت رحمة الاستعمار المطلقة ، وإنما فى سوق حرة نوعا مما أعطاها على الأقل حرية الحركة والمناورة والمضاربة بينها ، حتى تمكنت من انتزاع حريتها .

نتائج التحرير

متغيرات التحرير

الخروج الأبيض

ولايتم تحليلنا لثورة التحرير إلا بإشارة إلى ظاهرتين عامتين صاحبتاها ولكل منهما مغزاها وخطرها . هاتان هما الخروج الأبيض والتفتيت السياسى . ولربما جاز لنا أن نضيف إليهما ، ولكن على مستوى ثانوى أو أدنى ، ظاهرة أو معركة تغيير أسماء الأماكن السياسية . فالخروج الأبيض ظاهرة عالمية واكبت التحرير وأخذت صورة عنيفة فى بعض الحالات ، إذ أخذت الجاليات والمستعمرات الأوربية تغادر المستعمرات بعد إقامة طالت وأزمنت بدرجة أو بأخرى . وفى الغالب كانت بوادر الخروج تسبق تمام التحرير ، وفى الأعم الأغلب كانت موجة الخروج تتحول إلى عملية هروب عاجل ، تصفى به الجالية أو المستعمرة نفسها بنفسها فى غضون شهور من استكمال التحرير . فمثلا انتظم تيار الخروج من الجزائر وحدها نصف مليون فى شهر واحد .

ولقد كانت المشكلة الخطيرة حقا هى مصير الاستعمار الاستيطانى السكنى الكثيف ، لأن الخروج يأخذ هنا أبعادا مختلفة جدا كما فى الجزائر وإلى حد ما كينيا . وعادة ما كان الموقف الوطنى معتدلا واقعيا بلا تطرف . فكثيرا ما أعلن التحرير أنه لاينبغى طرد الجاليات والمستعمرات الأجنبية إذا ما قبلت مواطنة عادية مخلصة بلا امتيازات ، أو إن شاءت فلها أن تبقى كأجانب عاديين . ورغم هذا الموقف السمح ، فقد كان المرجح أن تصفى المستعمرات والجاليات نفسها بنفسها بعد فرض المساواة ومنع الاستغلال ، وهكذا بالفعل كان .

وهذا لاشك أبلغ دليل على أن الوجود الاقتصادى للاستعمار كان رهنا بوجوده

السياسى ، وبغيرة كان لانجاح له ولامحل . وفى هذه الحالة كثيرا ما كانت العملية تأخذ طابعا انتقاميا تخريبيا بقصد شل جهاز الدولة الجديدة وتعجيزها تشويها للاستقلال والتحرير . وفى الوقت الحالى أصبحت الجاليات الأوربية فى الدول الأسيوية والأفريقية الجديدة لاوزن لها عدديا أو اقتصاديا بعد أن كانت عنصرا أساسيا فى مركب الاستعمار .

ومعنى هذا كله إن مصير الجزر الأوربية فى المحيط الاستعمارى القديم هو كمصير أى جسم غريب يدخل الكائن العضوى : لايستطيع أن يمتصه ويتمثله فيلفظه فى النهاية . وهكذا يسجل التاريخ النهاية العجيبة لمغامرة من أكبر المغامرات الملتهبة المحمومة ولرحلة من أطول الرحلات العاتية بين القارات ، مما يوحى بأن الاستعمار بكل أنماطه هو مجرد جملة اعتراضية فى تاريخ البشرية وظاهرة فى الجغرافيا السياسية عابرة مهما طالت ، وهى عابرة لأنها غير طبيعية فى النهاية .

هل يترك الخروج الأبيض « فراغا » حضاريا أو اقتصاديا خطيرا فى المستعمرات المتحررة ؟ أيترك كذلك فراغا سياسيا يهدد التوازن الدولى ؟ قضيتان متشابهتان أثارهما الاستعمار دائما وحاول أن يلقى بهما فى طريق تيار التحرير لعله يتقاعس . بل لقد تنبأ البعض بأن الاقتصاد الزراعى ، خاصة المشروعات الكبرى ، والاقتصاد التعدينى والتصنيع النامى ، قد تضرب لسنوات بعد الخروج . وصحيح أن بعض الدول الجديدة لم ترحب كثيرا بهذه الهجرة الفجائية التى قد ترج الاقتصاد القومى بما تسحبه معها من رأس المال والخبرة الفنية . على أن هذه المشكلة مؤقتة جدا بطبيعتها ، بل لم تكد تتحقق فى أغلب الحالات ـ على الأقل بالاستعانة بخبراء أجانب غير استعماريين . أما أن يخشى البعض على المستوى الحضارى والاقتصادى للدول الجديدة أن ينتكس بعد الخروج فأمر تكذبه الثورة الاقتصادية والطفرة الحضارية التى واكبت التحرير فى كل مكان لاسيما فى القواعد الطليعية كمصر والعالم العربى والهند .. ألخ .

التفتيت السياسى

هذا عن ظاهرة الخروج الأبيض . أما الظاهرة الثانية التى صاحبت التحرير فهى ظاهرة عكسية ومؤسفة . فقد لجأ الاستعمار عامدا متعمدا قبل خروجه إلى تفتيت مناطقه السابقة تفتيتا ميكروسكوبيا ، وفى أفريقيا بالذات تفتيتا* ذريا ، حتى يضمن وراءه نسيجا سياسيا متهالكا أقرب إلى الأمثولة والأعجوبة منه إلى الكيان الجيوبولتيكى

الصحى السليم . وكم من مسخ سياسى برز فى هذه التقسيمات الجديدة ، وكم من قنبلة موقوتة تكمن فى حدوده العشوائية الشاذة .

والشيء الغريب والمخجل معا أن الاستعمار الذى كان مهندس هذه السياسة المكيافيلية هو نفسه الذى كان يتحايل إبان وجوده بكل الطرق ليفرض اتحادات مصطنعة وتجمعات إقليمية مفتعلة ضد إرادة الوطنيين . ويكفى أن نذكر أو نتذكر اتحاد وسط أفريقيا الدموى الفاشل ومشروع الهلال الخصيب الآثم ومشاريع اتحادات شرق أفريقيا وغرب أفريقيا .. ألخ . ويرى البعض فى هذه البلقنة المخططة ـ وهم فى ذلك على حق ـ أول مظهر من مظاهر « الاستعمار الجديد » . ويلاحظ أنه لم ينج من هذه البلقنة السافرة لاأسيا ولا العرب ولا أفريقيا ، لا الوحدات الضخمة ولا الوحدات الصغيرة .

الهند الصينية الفرنسية ـ مثلا ـ خلفت وراءها ثلاث دول جديدة ، وكل جنوب شرق آسيا أصبح الآن « بلقان الشرق الأقصى »[1] ، بينما أن الهند التى ظلت تحت الاستعمار وحدة واحدة تركت أربع دول ثم صارت خمسا أو أكثر . والعالم العربى ، هذا الذى كان كلا واحدا حتى فى ظل الاستعمار التركى ، أصبح متحفا سياسيا مرصعا بعديد من الدول التى يزيد عددها على العشرين ولكن لايزيد بعضها عن دول جيب أو أسافين ، كما يبدو أنها تريد المزيد من التكاثر والازدياد بالانفصال والانشطار (تذكر فقط حركة البوليساريو ومحاولة جمهورية الصحراء الغربية فى المغرب الأقصى على سبيل المثال) .

على أن أفريقيا هى بلا شك المثل بل الأمثولة الساخرة فى باب البلقنة . فبها الآن نحو ٥٠ وحدة سياسية ، أى نحو ضعف عدد وحدات أوربا أكثر قارات العالم تجزئة فيما مضى ، أو أقل قليلا من نصف دول العالم أجمع حتى قريب ونحو ثلثها حاليا . أو بصيغة أخرى لاتقل دلالة إن لم تزد سخرية ، قل إن قارة أفريقيا تعادل فى عدد دولها عدد ولايات دول قارة تقل مساحة هى الولايات المتحدة الأمريكية . ولا جدال أن هذا التفتيت يرقى أصلا إلى صنع الاستعمار المغادر . ولعل المثل الصارخ هو الاستعمار الفرنسى

(١) C.A. Fisher, "Southeast Asia: The Balkans of the Orient?", Geog., Nov. 1962, p. 374.

فى أفريقيا الاستوائية والغربية حيث أعطت وحدتان اثنتان فقط نسلا سياسيا بلغ ١٦ وحدة .

فإذا أضفنا إلى هذا كله فيض أو دفق دول الجزر وأشباه الجزر المحيطية والساحلية الجديدة بالعشرات mini – states ، والتى لا حيلة للجغرافيا أو للسياسة فيها ، لبدت خريطة العالم السياسية الحالية أشبه بثوب أو نسيج يتألف من عديد الرقع المختلة فى مساحتها المتنافرة فى ألوانها . والواقع أن خريطة العالم السياسية ، خريطة الدول المستقلة أعنى والتى هى أعضاء فى الأمم المتحدة اليوم ، قد تغيرت فى العقود الأخيرة بقوة التحرير تغيرا جذريا .

فبعد أن كانت تدور تقليديا فى حدود + ٥٠ دولة حوالى مابعد الحرب الثانية مباشرة ، تضاعفت إلى نحو + ١٠٠ دولة فى السبعينات الباكرة أو أواسط السبعينات ، وهى اليوم تتجاوز ١٥٠ دولة (نحو ١٥٥ دولة ، قابلة للزيادة ما تزال وإن كانت بإضافات محدودة الآن بالضرورة) . وفى مقابل أقلية معدودة من الأحجام أو الأحجار الضخمة العملاقة ، فبديهى أن الأغلبية الساحقة تتألف لامفر من ذرات مسحوقة أو حصى وفتات . وهكذا ازداد الهيكل السياسى للعالم اختلالا واضطرابا عنه فى أى وقت مضى .

ذلك أن السواد الأعظم من هذه الدويلات المستحدثة وحدات هزيلة معتلة ومفتعلة قد لاتزيد عن المليون أو المليونين سكانا . فبحسب تقديرات منتصف ١٩٨٠ ، حين بلغ عدد دول العالم ١٥٥ دولة ، كانت ٢٧ دولة منها من فئة ـ مليون نسمة ، ١٣ دولة من فئة مليون إلى مليونين ، ٧ دول من فئة ٢ ـ ٣ ملايين ، ١٣ دولة من فئة ٣ ـ ٤ ملايين ، ٧ دول من فئة ٤ ـ ٥ ملايين ـ أى أن ٦٧ دولة بالعالم تقع دون علامة الخمسة الملايين ، بنسبة ٤٣٪ تقريبا من المجموع .

وإذا كان لهذه الكثرة العددية ـ وبغاث الطير أكثرها فراخا ـ قيمة شكلية ما فى المحافل والمنظمات الدولية ، فهى تترك أصحابها بلا وزن حقيقى فى مجال القوة السياسية . وإذا لم يكن لدول الجزر المحيطية النائية حيلة ولا جريرة فى انفرادها أو ضآلتها ، فإن من أسف أن أغلب الدول الجديدة قبلت الحدود ـ الأقفاص الحديدية بالأحرى ـ التى فرضها الاستعمار ، وتمسكت بها كما لو كانت إرثا مقدسا ، الأمر الذى أعطى الأعداء

الفرصة لاتهام الوطنية فيها بأنها ليست أكثر من مجرد رد فعل للاستعمار لا انبثاقا طبيعيا حتميا[1] .

معـركـة الأسمـاء

على هامش متغيرات التحرير تأتي ، أخيرا ، معركة الأسماء . أسماء الأماكن ، أو بالدقة معركة تغيير الأسماء . وقد لا تكون هذه القضية أكثر من شكلية رمزية . غير أنها تواترت بإلحاح كملمح حتى غدت قضية وطنية حقا . بحيث لا يجوز للباحث المراقب أن يتجاهلها ، مثلما هي أمر يومي لامفر منه على أية حال حتى لقارئ الصحيفة العادية .

فمن ناحية ، كان الاستعمار في سعية العنيد لفرض بصمته ووصايته على ممتلكاته قد حرّف أو شوه كثيرا من أسماء مواقعها الجغرافية ، أو استبدل بالأسماء الوطنية الأصيلة أسماء دخيلة من عنده ، بل وأحيانا ابتدع هذه الأسماء لأول مرة في المناطق الخالية غير المأهولة أو المتخلفة حضاريا . ولئن كانت هذه الظاهرة محدودة ضئيلة في مناطق الحضارات التاريخية العريقة كالعالم العربي بالذات ، فإنها لم تنج منها تماما في حالات الاستعمار الاستيطاني بالتحديد . ولعل الجزائر هي المثل الأكبر ، حيث فرض المستعمر أسماء فرنسية على مئات من المواقع والأماكن ابتداء من أكبر المدن الرئيسية حتى أصغر القرى والنجوع النائية . وإلى حد ما لم يخل المغرب (مراكش) وليبيا(خاصة طرابلس) من هذه العدوى أو هذا العدوان . غير أن ظاهرة أسماء الأماكن الاستعمارية أو الأجنبية ألصق عادة بالمناطق الأقل عراقة في التاريخ والمقاومة الحضارية . فنجدها تستشرى في آسيا الموسمية أو في المناطق البكر والمجاهل الجديدة مثل أمريكا الوسطى واللاتينية . غير أنها إنما تصل إلى ذروتها ومنتهى كثافتها في أفريقيا السوداء ، قاع العالم حضاريا وبشريا كما كانت تعد تقليديا وإلى وقت قريب .

هذا من ناحية الاستعمار . ومن جانبه ، فلقد كان خليقا بالتحرير أن يعد هذه البصمة بمثابة وصمة حقيقية في جبين الوطنية البازغة ، ولذا كان طبيعيا أن ينقض عليها يمحوها ويطمس معالمها وينقش فوقها أسماءه الوطنية الأصيلة . ومن هنا توشك معركة تغيير أسماء الأماكن هذه أن تواكب ظاهرة أو مظاهرة الأعلام والأناشيد الوطنية في الدول الجديدة المتحررة ، وكادت مثلها أن تكون جزءا لا يتجزأ من معركة التحرير

(١) R. Calder, p. 3.

ذاتها . لقد جاءت معركة التحرير عملية ميلاد سياسى وتعميد أو إعادة تعميد للدول معا ، قديمها وجديدها على السواء .

وكما أن التغيير لم يقتصر على تصحيح الأسماء المحرفة أو المصحفة دون الأسماء الدخيلة المفروضة ، فإنه كذلك يتجاوز أسماء الدول إلى أسماء العواصم السياسية نفسها بل والمدن والمواضع العادية بعدها أحيانا . وعلى الجملة فإن العملية كلها تندرج تحت شعار واحد وفى إطار واحد وإن اختلفت المسميات : هنا التعريب أو التهنيد ، وهنا الأسْيَوَةُ أو الأفرقة ، وذلك بعد الأوربة والأمركة ، ولا نقول « الفبركة » ، فى الجميع .

فإذا بدأنا من الأقل إلى الأكثر ، فإن العالم العربى يكاد يقع خارج حدود الظاهرة ، إلا المغرب عامة والجزائر خاصة حيث جاء التعريب أحيانا جزءا من التحرير وشمل التعريب ضمنا أسماء الأماكن . هكذا ، كمجرد أمثلة وعينات من الجزائر ، عادت بونه عنابه ، فيليبفيل سكيكيده ، أورليانفيل الأصنام ، جريفيل البيض ، نيمور الغزوات ، بينما صححت بوجى إلى بجاية والجوليا إلى القليعة ... ألخ . وفى المغرب عادت موجادور الصويرة ، مزغان الجديدة ، لوى جنتى كشكاط ، بتى جان سيدى قاسم ، بينما تم تصحيح لاراش إلى العرايش والأغوات إلى الأغواط ، فضلا عن ترجمة كازابلانكا إلى الدار البيضاء . وبالمثل فى تونس صارت فيريفيل منزل بورقبية ، بينما تحررت بيزرت من التصحيف فارتدت بنزرت ، وإنفيدافيل فعادت النفيضة ، ولا سخيرا التى عادت الصخيرة ... الخ[1] .

أما فى العالم الجديد ، إذا انتقلنا من النقيض إلى النقيض ، ففقط لأن معظم أسماء الأماكن جديدة من وضع الاستعمار أو التعمير الأوربى أصلا وأساسا ، فقليلة هى الأسماء التى تغيرت بعد التحرير مؤخرا فى منطقة مثل الكاريبى أو شمال أمريكا الجنوبية . ولعل أبرز هذه القلة هى جويانا التى حلت محل جيانا البريطانية ، وسورينام بدل جيانا الهولندية ، ثم بليز بدل هوندوراس البريطانية .

على أن معركة تغيير الأسماء إنما بدأت وبرزت فى آسيا الموسمية أو جنوب شرق آسيا بالتحديد حيث تمت العملية فى الأربعينات فى معظمها . ولقد كان ميدانها الأكبر إندونيسيا ، التى حلت هى نفسها كتسمية (وإن لم تكن أكثر أصالة ووطنية كما يتفق)

(١) جمال حمدان ، المدينة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٥٤ ، ١٠٦ وما بعدها .

محل تسمية الهند الشرقية الهولندية سابقا . فكما ورثت جاكرتا بتافيا (وهى اسم أو سمّى هولندى أصلا) ، عادت بورنيو كاليمنتان ، ونيوجينى إيريان ، بينما صححت سلبيس إلى سولاويزى . وعلى الأجناب ، فكما عادت فورموزا من قبل (وهى تسمية برتغالية أصلا منذ أيام ماجلان بمعنى الجميلة)فصارت تايوان ، تغيرت سايجون عاصمة فيتنام من بعد إلى هوتشى منه ، مثلما تغيرت سيلون إلى سرى لانكا وتعدلت كمبوديا إلى كمبوتشيا ... الخ .

ولكنها أفريقيا يقينا ، القارة المظلمة أو المظلومة ، التى عرفت أكبر قدر من الابتزاز أو التشوية فى التسميات مثلما عرفت فى الوجود والحياة . وبالتالى كانت قطب الرحى فى معركة التعديل والتصحيح . فمن ساحل الذهب إلى غانا ، ومن داهومى إلى بنين ، ومن الكونجو إلى زائير ، ومن نياسالند إلى ملاوى ، ومن روديسيا الشمالية إلى زامبيا والجنوبية إلى زيمبابوى ، ومن بتشوانالند إلى بوتسوانا ، ومن باسوتولند إلى ليسوتو ، ومن جنوب غرب أفريقيا إلى ناميبيا ، ثم أخيرا من مدغشقر إلى ملاجاش .

هذا على مستوى أسماء الدول نفسها . ولكن هناك أيضا العواصم السياسية : فمن ليوبولدفيل إلى كينشاسا فى زائير ، ومن فور لامى إلى نجامينا فى تشاد ، ومن باثورست إلى بانجول فى جامبيا ، ومن لورنسو ماركيز إلى مابوتو فى موزمبيق ، وأخيرا جدا من سولسبرى إلى هريرى (هرارى) فى زيمبابوى . حتى المدن العادية والأقاليم الادارية بل والمعالم الطبيعية البحتة أعيد تعميدها مثلما حدث فى زائير خاصة ، حيث صارت مدينة الشرق الكبيرة ستانلى فيل كيسينجانى ، وإقليم كاتنجا النحاسى الشهير شابا ، وبحيرات الأخدود وهضبة البحيرات بحيرة سيسى كو موبوتو وغير ذلك ...الخ . أو خذ ملاجاش ، حيث عادت قاعدة دييجو سواريز البحرية الشهيرة أنتسيران ...الخ .

بقايا الاستعمار

يبقى لنا أخيرا ، حتى نستكمل مسح التحرير ، أن نحصر مخلفات الاستعمار وبقاياه وأن نقيم وزنها ونرصد مصيرها . وهنا نجد من المفيد أن نسجل لقطتين متتابعتين فى شريط انحسار الاستعمار لتكون كل منهما بمثابة وقفة موحية فى توقيت ذى مغزى ، فواحدة تمثل ماقبل النهاية والأخرى تصور النهاية أو الصورة النهائية . ولعل سنة ١٩٧٠تقريبا أى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات أن تكون خير توقيت للقطة الأولى ، مقابل ١٩٨٠ للوقفة الأخيرة أى الصورة الراهنة اليوم بالتقريب .

١٩٧٠

فإذا مابدأنا بصورة ١٩٧٠ ، رأينا فلول الاستعمار قد أخذت تنزوى على استحياء ـ أم بلا خجل ؟ ـ فى أقصى أطراف الأرض وأركانه المتطوحة ، إما على هوامش القارات كجيوب وأسافين قزمية متناثرة أو كأرخبيلات وجزر سديمية فى البحار القارية ، وفى الأقل ككتل متخلفة relict فى سبيلها إلى التمزق والزوال ، والكل لايزيد عن ٤٪ من مساحة العالم . ومعنى هذا أيضا أن السواحل التى كانت أول مواطئ أقدام الاستعمار البحرى هى اليوم آخر معاقله ، وهى من ثم أطول ماعانى من الاستعمار وخضع له زمنيا .

ويرسم النمط الجغرافى العام لفلول الاستعمار فى ذلك اليوم صورة قلب وجناحين : جناح أيمن فى الشرق الأقصى ، وأيسر فى الكاريبى ، أما القلب ففى أفريقيا والعالم العربى . فمن الشرق نجد هونج كونج البريطانية ومكاو البرتغالية وكل منهما جزرى أو شبه جزرى يبدو كالبثور على أطراف القارة ، وهى تحت رحمة القوة القارية ـ الصين ـ تماما ، وبقاؤها للآن ليس إلا جزءا من سياسة اقتصادية خاصة لتلك القوة ، ولو شاءت لاستردتها فى ساعات (« بالتليفون » كما يقال أحيانا) . ثم هناك أرخبيل الأوقيانوسية بما فى ذلك نيوجينى أو إيريان الشرقية إلى الشرق والشمال الشرقى من أستراليا حيث لازال الاستعمار البريطانى والفرنسى يتقاسم هذه الجزر الشتيتة القزمية .

وفى أقصى الغرب فى الكاريبى تتناظر صوره مماثلة . فلا زالت كثير من جزر الأنتيل الصغرى موزعة بين الاستعمارين البريطانى والفرنسى ، بينما على ساحل القارة المقابل اثنتان من الجيانات الثلاث ، الفرنسية والهولندية . وبين الطرفين يتقوقع الاستعمار فى عدة جزر محيطية غائرة سحيقة العمق فى المحيطات كبعض جزر المحيط الهندى مثل سيشل وأرخبيل تشيجوس وكيكوس ثم جزر كومورو وموريشس وروينيون ، وبعض جزر المحيط الأطلسى (اسنشن ، سانت هيلانه) ، وإن كان قد تقرر أخيرا استقلال موريشس . ولكن يلاحظ فى نفس الوقت أن الاستعمار بدأ يتحصن فى هذه الجزر النائية ويسحب إليها قواعده من أواسط القارات وأطرافها كما حدث فى بعض جزر ملديف وكومورو .

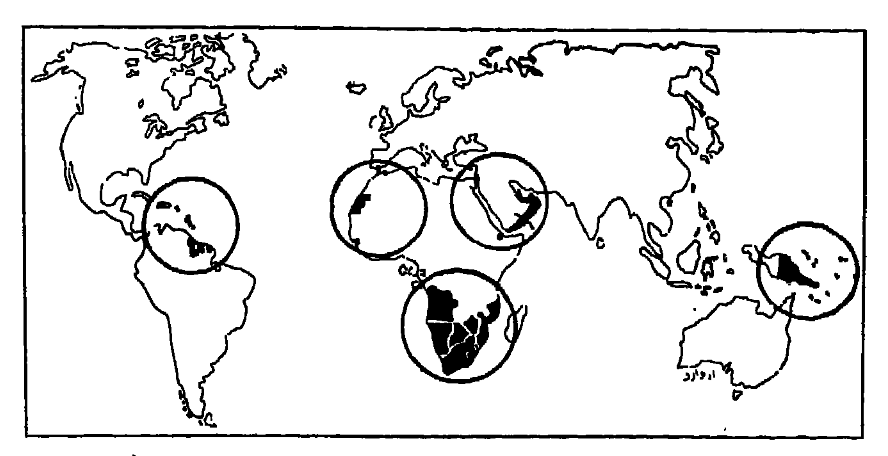
ولكن دائرة العالم العربى وأفريقيا هى بلا شك أكبر معاقل الاستعمار المتخلفة . فهناك مجموعتان من الأشكال الاستعمارية : أسافين وجيوب محلية ، وكتل جذعية

ضخمة . فمن الأولى الاستعمار الصهيونى الآثم فى فلسطين المحتلة ، وجيوب سبتة ومليلة وإفنى وريودى أورو حيث يعشش الاستعمار الإسبانى ، ثم هناك فى أفريقيا المدارية غينيا البرتغالية وريوموني وساوتومى الإسبانية وكابندا وكلها فى دائرة غرب أفريقيا . وأخيرا الصومال الفرنسى على الساحل الشرقى . أما الكتل الرئيسية المتخلفة فهى أولا الجنوب العربى ابتداء من البحرين حتى ظفار حيث ظل يتشبث الاستعمار البريطانى فى استماتة يائسة يفسرها البترول بكل سهولة ، إلى أن أرغمه تقلصه وتدهوره الاقتصادى على إعلان عزمه على الانسحاب منه قبل ١٩٧١ .

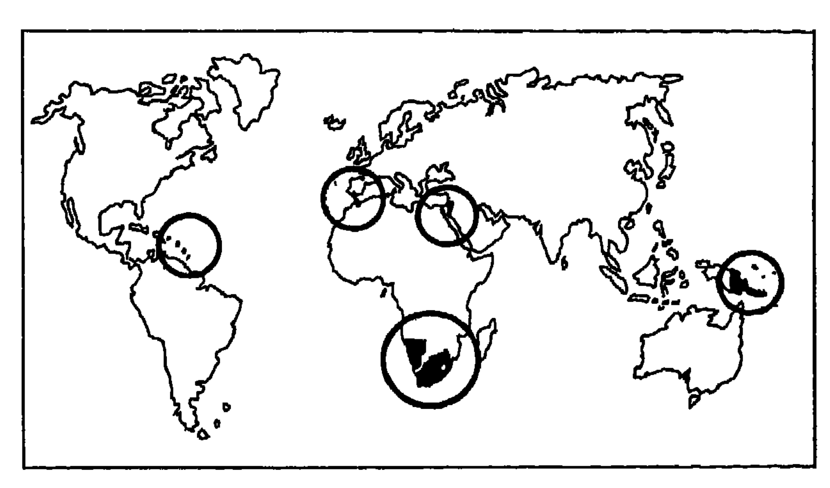
ثمة ثانيا كتلة أفريقيا الجنوبية التى تجمع بين أنجولا وموزمبيق البرتغالية وبين روديسيا وسوازيلاند ، بالاضافة إلى جنوب أفريقيا البيضاء ومعها جنوب غرب أفريقيا التى اغتصبتها (ناميبيا) . والكتلة فى مجموعها ترسم رقم ٧ ، حيث يرسل التحرير فى قلبها سهمه مفتتا وممزقا . وواضح أن هذه ليست أكبر معقل متخلف متبق للاستعمار ، وإنما هى أيضا أضخم كتلة متصلة تبقى له فى أى جزء من العالم .

ولم يكن شك فى أن مصير الجزر وأشباه الجزر والأسافين الساحلية مقدور . فهى — بحكم الجغرافيا على الأقل — إلى زوال وأيامها معدودة ، ولن تستطيع أى مقاومة إزاء المد التحريرى ، فإن بحر الاستقلال يطوقها تماما ولا يمكن أن تنجو من قوة تعريته . وإنما المشكلة فى الكتل الجذعية بخاصة ، فهناك يتراص الاستعمار ويتماسك ويبدى « وحدة » جديدة فى وجه التحرير . ومع ذلك فمصيرها أيضا محتوم ، وإن طال الأمد نوعا . وعلى التحرير أن يضغط بمزيد من القوة والعنف ، وقد لا ينقضى عقد وبعض عقد حتى يقتلعها ويكتسحها تماما . ولعل السبعينات أو الثمانينات على أكثر تقدير تشهد عملية دفن آخر فلول للاستعمار فى الأرض أو فى البحر . وسنرى إلى أى حد يتحقق هذا فى اللقطة الأخيرة ١٩٨٠ ، بعد أن نختتم لقطة ١٩٧٠ .

فإذا نحن أردنا أن نضع قوى الاستعمار حوالى ١٩٧٠ فى حساب الخسائر والأرباح ، فسنجد نتائج بل نقائض مثيرة بل غير منطقية ، لعل أغربها أن « أكبر » قوة استعمارية فى عالم ذلك اليوم هى البرتغال القزمية الحفرية ! أجل البرتغال ، فإن مستعمراتها يومئذ فى أفريقيا أكبر مساحة وسكانا من مستعمرات أى قوة أخرى فى العالم . ويليها فى الوزن الاستعمار البريطانى ، بينما قد يزيد الاستعمار الإسبانى بدوره — وهو إمبراطورية جيوب وأسافين بحت — عن الاستعمار الفرنسى . فالإمبراطورية الفرنسية هى بلا شك التى من بين الاستعمار الكبير قد بادت تماما فى عصر التحرير ، وبقاياها فى ١٩٧٠ رمزية تذكارية



شكل (٢٩ أ) بقايا الاستعمار ، ١٩٦٨ : نحو ٣,٥ ./من العالم ، ممزقة في جزر متباعدة في أركان الأرض وهوامش القارات في جناحين وقلب . المعقل الرئيسي للاستعمار يتركز في أفريقيا الجنوبية ...



شكل (٢٩ ب) بقايا الاستعمار الأخيرة ١٩٨٢ : لا زال المعقل الرئيسي يتركز على ركني افريقيا في أقصى الشمال الشرقي والجنوب .

صرفة لاتزيد على الصومال فى أفريقيا وجيانا فى أمريكا الجنوبية وبعض جزر قليلة من الأوقيانوسية . ويشبهها فى هذا هولندا ، بينما فقدت بلجيكا مستعمرتها الوحيدة .

وتقودنا هذه التطورات الانقلابية فى مصائر الاستعمار إلى ظاهرة طريفة فى ترتيب عملية تصفية القوى الاستعمارية . فبوجه عام يمكن أن نقول إن أقدم الإمبراطوريات (القوى العتيقة) هى آخرها زوالا اليوم ، وآخر من دخل ميدان الاستعمار (القوى الوليدة) هو أول من خرج منه . أى أن العلاقة ــ للغرابة ــ عكسية . فلقد كانت ألمانيا آخر من خرج إلى الاستعمار فى السبعينات بعد وحدتها ، وكانت كذلك أول من خرج منه فى الحرب الكبرى الأولى . وفى السبعينات أيضا دخلت إيطاليا دائرة الاستعمار ، ومع الحرب الكبرى الثانية كان خروجها . وعلى الطرف النقيض كانت البرتغال وإسبانيا أول من افتتح العمل الاستعمارى ، وهما حتى ذلك اليوم أقل من خسر نسبيا . وبين الطرفين كانت تأتى فرنسا وهولندا وبريطانيا بدرجات متفاوتة أو مطردة .

١٩٨٠

إذا انتقلنا الآن إلى ١٩٨٠ ، فما أبعد المدى بين الصورتين . إن الاستعمار المحتضر قد لفظ أنفاسه أوكاد ، أو قل هو فى النزع الأخير . معظم الجيوب والأسافين الساحلية السابقة ، إذا بدأنا بالأدنى ، بالاضافة أيضا إلى معظم الجزر الساحلية والبحرية والمحيطية ، قد تحررت . وعلى سبيل المثال ، فلم يعد يتبقى من الإمبراطورية البريطانية القديمة ، التى بلغت فى أوجها نحو ١٣٠٠ مليون نسمة ، سوى حفنة من الجزر وأشباه الجزر المبعثرة مجموع سكانها ٦ ملايين نسمة ، ٥ ملايين منهم فى هونج كونج وحدها !

وبعامة فإن البقايا الاستعمارية المتخلفة لاتعدو بالكاد شرق نيوجينى أو إيريان الشرقية فى أستراليشيا شرقا ، مع بعض آخر معاقل القواعد البحرية المجددة والمكثفة فى أعمق جزر الهندى مثل أرخبيل تشيجوس فى القلب وكيكوس على الجنب . ثم هناك فى أقصى الغرب عدد كبير نسبيا من الحالات فى الأطلسى شمالا وجنوبا ولكن فى الكاريبى خصوصا . فثمة ماتزال جزر برمودا ، ثم فى الكاريبى توركوس ، كايكوس ، جراند كايمان ، فرجين ، ليوارد ، بيتكيرن ، ثم فى جنوب الأطلسى سانت هيلينا ، أسنشن ، وتريستان دا كونها ، فضلا عن جزر فوكلند (إيسلاس مالبيناس Islas Malvinas) فى أقصى الجنوب حيث قام أخيرا صراع مسلح بين بريطانيا المستعمرة السابقة والأرجنتين المطالبة الحالية . وأخيرا ، وفيما بين الهندى والأطلسى ، ثمة فى

الوسط جبل طارق بإسبانيا وسبتة ومليلة فى المغرب . ولعل هذه الدائرة الأخيرة هى من أطرف متناقضات الاستعمار فى نزعه الأخير ، ولذا تستحق نظرة جانبية خاصة .

فمن المفارقات الساخرة لاشك أنه فى الوقت الذى يتشبث الاستعمار الإسبانى بآخر جيوبه فى أفريقيا وفى كل الدنيا وهو سبتة ومليلة ، يتشبث الاستعمار البريطانى بآخر جيوبه ربما فى كل الدنيا أيضا أو على أية حال فى أوربا نفسها وإسبانيا بالذات وهو جبل طارق : هذا آخر استعمار أوربى فى أفريقيا ، وهذا آخر استعمار أوربى فى أوربا . والطريف أن الجيبين القزميين المدنيين يتواجهان عبر المضيق على أقصى نهايتى أو طرفى القارتين . وكلاهما ، بعد ، أو بالأحرى من قبل ، من أقدم حالات الاستعمار فى قارته : هذا سابق للاسترداد الإسبانى نفسه فى القرن ١٥ ، وهذا سابق لأوترخت فى القرن ١٨ . الفارق الأساسى فقط أن هذا استعمار استيطانى وهذا استراتيجى .

لكن أخطر من الجيوب المتخلفة ، الكتل الاستعمارية المتبقية ، أخطر بكثير وخارج كل حدود ، بل لعلها أخطر ما فى تاريخ الاستعمار جميعا سواء فى أوجه أو حضيضه . فرغم أن مابقى منها الآن حالتان فقط ، فإن فيهما تكمن وتتركز كل ضراوة وشراسة ودموية الاستعمار الوحشى الكاسر المكسور . والحالتان هما بالطبع إسرائيل وجنوب أفريقيا . والاثنتان نظائر جيوبوليتيكية واستعمارية إلى أقصى حد : فجغرافيا ، هذه على أقصى ضلوع أفريقيا الشمالية وهذه على أقصى طرفها الجنوبى . وسياسيا ، كلتاهما استعمار استيطانى عنصرى دموى إبادى إحلالى كثيف ، يبدأ باغتصاب الوطن ويؤمن بالتفوق العنصرى ويمارس العزل الجنسى وينتهى بالتصفية الجسدية والاحلال الإثنى . وليس صدفة ولا اعتباطا بعد هذا أن يتحالف الاستعماران تحالفا غير مقدس ضد كل من العرب وأفريقيا على السواء .

ولئن كانت اليد العليا تبدو لها الآن على ضحاياهما ، وكان من الصعب أن يتنبأ أحد حاليا بمصيرهما على المدى القريب ، فإن من المسلم به علميا أن المصير محتوم ومختوم ومحكوم عليه تاريخيا وفى المدى البعيد . أما الوضع القانونى مهما كان فزائل أو زائف ، والاعتراف ــ أى اعتراف ــ ليس نهاية المطاف . والوضع القانونى على أية حال ليس إلا تقنينا لا تقييدا للقوة وللأمر الواقع ، لايمنع من إمكانية تغييره متى استطاعت القوة وفرض الأمر الواقع الجديد نفسه .

ماذا تعنى ثورة التحرير بالنسبة للعالم ؟ الشيء الكثير بالتأكيد ، ولكنه باختصار إعادة توزيع الأثقال والقوى السياسية فوق هذا الكوكب . فبالنسبه للدول المتحررة تعنى ظهور قوة جديدة على مسرح السياسة العالمية هى العالم الثالث ومجموعة عدم الانحياز . ولكن لهذه حديثها فيا بعد . وإنما يعنينا هنا خسائر الجانب الاستعمارى . وهذه تنقسم إلى قسمين : تغيير الوزن والقوة النسبية لغرب أوربا ، ثم تغيير الأوزان والقوى النسبية بين الدول داخل غرب أوربا .

فعن الأولى ، لاشك أن عصر أوربا الغربية قد انتهى تماما ، وقد خرجت زعامة العالم منها إلى الأبد ، وتضاءل وزنها النسبي فى العالم ككل ، وبدأت تأخذ حجمها الطبيعى بلا مبالغة أو تورم مصطنع فى العالم . ولعلها ــ برمتها ــ لاترقى إلى مستوى الصف الأول من القوى العالمية ، وبالتأكيد لاتطاول أيا من القوتين الماموث ، ولا تزيد بوضعها الراهن ، وقد جردت من مستعمراتها ، عن أن تكون منطقة حاجزية تصادمية بينهما ، بل هى الآن بالفعل ذيل للولايات المتحدة أو بمثابة برتغال كبرى جديدة بالنسبة إلى بريطانيا عظمى جديدة هى الولايات المتحدة ، بينما أصبحت بريطانيا القديمة نفسها رجل أوربا المريض الجديد ![1]

كذلك فإن تقلصها إلى قوقعتها الأصلية سلخ عنها موارد ومكاسب عبر البحار وألقى بها على مواردها المحلية الضيقة وحدها . من هنا أزماتها المادية والاقتصادية الخانقة التى تتردى فيها تباعا كل دولة من دولها بلا استثناء منذ مابعد التحرير ، وبقدر ماكانت نسبة المكاسب الاستعمارية فى الدخل القومى بقدر ماكانت النكسة . ولاشك أن مكاسب الاستعمار التراكمية لازالت تخفى أو تخفف من حدة الأزمة ، كما أن التجارة العالمية لاتزال شبه استعمارية فى هيكلها ، هذا عدا علاقات كومنولث واتحاد فرنسى ..الخ . ولكن إن آجلا أو عاجلا ستواجه هذه الدول المزيد من الصعوبات ، وقد يتجمد مستوى المعيشة فيها أو ينحدر ، أو تصدر الفائض من سكانها إلى المهاجر الأوربية . والمشاهد أن بعض هذه الدول لم تفق بعد من آثار خمرة الاستعمار ولم تدرك تماما مواقعها المتواضعة الجديدة ، ومن ثم تبدو فى ميدان السياسة العالمية أدنى إلى أقزام تتصرف

(١) Hans. G. Morgenthau, Politics Among Nations, The Struggle for Power & Peace, 1954.

كعمالقة ، مما أصبح بلا مواربة إما موضع سخرية أو ضيق حتى أصدقائها من القوى الماموث !

هذا التضاؤل النسبى فى الوزن السياسى والموارد الاقتصادية هو وحده وأساسا الذى يفسر الحملات المحمومة لوحدة أوروبا حتى تستعيد بعض المكانة فى عالم متغير. والواقع أنه دفاع عن النفس بقدر ماهو رد على حركة التحرير وتكتل ضدها بالذات ، أكثر مما هو رد على القوتين الماموث . وإذا كان الأوربيون المتحمسون للوحدة يرونها ضرورة بقائية ، فلا ينبغى من جانبنا أن ننسى أن وراءها مسحة لونية عنصرية ، فما هى فى النهاية إلا وحدة الجنس الأبيض . ولمشروع الوحدة كما يتصوره دعاته مراحل ثلاث : جمركية ، فاقتصادية ، ثم سياسية . ولكن التطبيق يتعثر حاليا بين كتل وتجمعات متضاربة داخل النطاق .

بيد أن المهم فى المدى البعيد أن أوربا اليوم أبعد عن الوحدة مما كانت منذ قرون ، وبالتحديد منذ ماقبل عصر الكشوف والاستعمار البحرى[1] . ذلك أن الاهتمامات الاستعمارية عبر البحار لم تترك أوربا فى حركة طاردة لا جاذبة مركزية فحسب ، بل فى صراعات عميقة وسعارات شرسة باعدت بينها أكثر من أى وقت مضى . وليس من الصدفة بالتأكيد أنها لم تبدأ تتقارب فيما بينها إلا بعد أن فقدت تلك الأسلاب أسباب الصراع . وعلى كل ، فإذا كانت وحدة منطقة كالولايات المتحدة مثلا قد نجحت لأنها عمدا تناست كل التاريخ وأهملت كل الجغرافيا ، فإن وحدة أوربا تتعثر لأنها ـ كما قيل ـ تتذكر التاريخ أكثر مما ينبغى وتتذكر الجغرافيا أقل مما ينبغى .

أما عن تغيير الأوزان والقوى النسبية للدول داخل أوربا الغربية ، فلا شك أنها لاتتضح اليوم تماما بفعل القصور الذاتى والاندفاع التاريخى ، ولكنها جديرة بأن تطفو على السطح إن آجلا أو عاجلا ، ولو أن بعض إرهاصاتها قد بدأت بالفعل . فمع عودة كل دولة إلى قاعدتها الأرضية الوطنية وتصفية واستهلاك الآثار التراكمية لمكاسب الاستعمار القديمة بالتدريج ، قد تقترب نوعا أوزانها ومواردها وقواها النسبية من نمط ماقبل الانقلاب الصناعى ، بمعنى أن يصبح لحجم الموضع المحلى وثرائه دور أكبر فى تحديد القوة العامة .

---

(١) East, An historical geog., p.444-5.

وإذا صح هذا فألمانيا هى وريثة الصدارة الحتمية فى أوربا الغربية بدلا من بريطانيا ، كما أنه ليس من المستبعد أن تقترب فرنسا من بريطانيا جدا . ولعل الدور الذى تمارسه فرنسا ، ديجول خاصة ، فى تخضيد شوكة بريطانيا فى القارة هو نذير أو دليل على هذا التطور التدريجى المحتمل . وسيكون على بريطانيا فى النهاية أن تقف صاغرة فى الصف الأوربى كلما تقلص الكومونولث . فدول الكومونولث غير البيضاء ستغادره على الأرجح بالتدريج ، بينما أن دوله البيضاء نفسها خاصة المتطوحة الموقع كأستراليا ونيوزيلند وكندا ليس من المستحيل أن تنفصل يوما ما[1] . فهى لم تنفصل فى الماضى — مثلما فعلت الولايات المتحدة قديما — إلا لضعفها وضآلتها وشدة اعتمادها الاقتصادى والدفاعى على بريطانيا . ولكنها قد تجد من نفسها القوة على الخروج يوما فى المستقبل البعيد ، وإلا فإنها على الأقل ستكون أقل التصاقا بها وارتباطا .

---

(١) Cole, p. 315-6.

الفصل الثاني عشر

الانقلاب النووى

العصر النووى

هو ثانى انقلابين تعاصرا منذ نهاية الحرب الثانية ، وربما كان أولهما فى خطورته ورهبته . وقد أعلنت عن ميلاده مأساة هيروشيما ونجازاكى ، وكانت هذه البداية كافية لتضع نهاية لتلك الحرب . غير أن قنبلة هيروشيما على بشاعتها لم تكن إلا طفولة العصر النووى ، قنبلة « بدائية قزمية » كما توصف الآن ، « قنبلة صنعت للأطفال ، وربما صنعها الأطفال الآن » كما تهكم أحدهم أخيرا فى سخرية لا تخلو من جد ومبالغة لا ينقصها شىء من حق (إشارة إلى توصل بعض تلاميذ المدارس فى أمريكا إلى تركيب هيكلها مؤخرا) .

ذلك أن السلاح النووى قد تطور منذ ذلك الوقت تطورا رهيبا ، فانتقل من القنبلة الذرية إلى الهيدروجينية إلى قنبلة النيوترون التى تقتل البشر دون العمران ، وربما انتقلنا بعد ذلك إلى الكوبالتية . وفى الوقت نفسه تحولت وسيلة نقل هذا السلاح من الطائرة القاذفة إلى الصواريخ الموجهة والصواريخ عابرة القارات ثم أخيرا إلى الغواصات النووية ، أى تحولت قاعدة انطلاقه من الجو إلى الأرض إلى البحر على الترتيب . أضف إلى هذا ما يقال عنه من صواريخ مدارية قادمة على الطريق ، فضلا عن الأقمار الصناعية التى تعددت طرزها وتعاقبت أجيالها وأصبحت « تعمر » الغلاف الغازى والفضاء بكثافة متزايدة وبصفة مستمرة .

أما من حيث الانتشار ، فلقد كانت الولايات المتحدة هى الأسبق إلى تدشين العصر النووى وذلك فى نهاية الحرب الثانية (أواسط ١٩٤٥) ، بينما تخلف الاتحاد السوفيتى قليلا حتى لحق بها ـ بعد فترة دقيقة وحرجة ـ فى أول الخمسينات (أواخر ١٩٤٩) . وبعد ذلك دخلت بريطانيا المجال ثم فرنسا ، الأولى بمساعدة أمريكية جزئية ربما ، إلا أنهما على السواء ظلتا من مرتبة متواضعة نسبيا .

ثم أخيرا فى الستينات اقتحمت الصين « النادى الذرى » لتكون خامسة الدول النووية وأولى الدول غير الأوربية . وكان قد قدر أنها ستظل طويلا فى المرحلة البدائية التى كانت عليها الولايات المتحدة منذ عشرين عاما ، إلا أنها طفرت بسرعة خارقة حتى سبقت فرنسا هيدروجينيا . ثم أخيرا جدا ولكن ليس آخرا جاءت الهند ، والمقول أيضا إسرائيل ، وربما معها جنوب إفريقيا . والمقدر أن هناك أكثر من عشر دول أخرى ستلحق بالنادى فى غضون السنوات القليلة القادمة ، منها إسبانيا والبرازيل وباكستان وكندا والأرجنتين ... الخ .

ومعنى هذا أن السلاح النووى ــ ما لم يتفق على منعه جديا ــ قد ينتشر فى يوم ما انتشار الحضارة الصناعية والتكنولوجيا الحديثة ذاتها . أما حاليا ، فإن هذا النادى يعد استراتيجيا أرستقراطية العالم الجديدة بلا نزاع ، هو وحده عالم القوة المعاصر حقا وصدقا . وليس صدفة ولا هو من قبيل محض الأخلاقيات السياسية المنزهة أن يحرم النادى دخوله على غير الأعضاء ، حيث فرض مؤخرا اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية non-proliferation وهذا المنع ، الذى يكاد يقنن دوليا « نظام الكاست » فى عالم القوة ، يعد فى نظر « المنبوذين نوويا » مرادفا للاحتكار النووى ، أى محاولة لاحتكار القوة ، أى لاحتكار المستقبل .

ولهذا رفضته كثير من الدول الصغرى والكبرى وعلى رأسها الصين ، التى دعت العالم وخاصة العالم الثالث وعدم الانحياز إلى الكفاح من أجل نزع السلاح النووى برمته فى العالم أجمع بدءا بالعملاقين ذاتهما ثم تحريمه إلى الأبد مع تصفية كل القواعد العسكرية فى العالم أيضا . أما سياسة المناطق المحيّدة أو المنزوعة السلاح نوويا ، كالمتوسط والهندى واللاتينية ، فهى ببساطة المرادف النووى لنظرية الفراغ العتيقة فى رأى البعض . وأما محادثات الحد من الأسلحة الاستراتيجية بين العملاقين فهى باعتراف أمريكا محاولة لصياغة قانون جديد فقط لسباق التسلح النووى بينهما ، وبالتالى « سجل لسباق الأسلحة الاستراتيجية مائة فى المائة » كما تتهمه الصين بحق ، بينما أن الاتفاقية نفسها « لا تمس ذرة واحدة فى ترساناتها النووية » كما تكشف الصين أيضا .[1]

---

(١) خيرى عزيز ، « التحرك الديبلوماسى والانفتاح الصينى الأخير » ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٨ ، ص ١٣٠ .

الاحتكار النووى

هذه الصورة ، مهما يكن الأمر ، لا تنفى من الوجهة العملية أن هناك حتى الآن احتكارا ثنائيا فعليا وحقيقيا للقوة النووية تتقاسمه الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى اللتان تستأثران وحدهما بنحو ٩٠٪ من التجارب والتفجيرات النووية . وهذا الاحتكار ، أكثر من أى شيء آخر ، يجعل مصير العالم رهنا بهاتين القوتين المتصارعتين اللتين وصل الأمر إلى حد تشبيه كل منهما بإله بشرى : قادر على أن يبقى للعالم على حياته أو أن يحرمه كله إياها فى لحظات : إنهما قمة آلهة قمة الأوليمب الجديدة ، قل مثل زيوس وفولكان أو غيرهما فى أساطير الاغريق .

وبلغة السياسة الدولية الجديدة ، إنهما وحدهما القوتان الأعظم super-powers . وتلك وحدها هى حالة أو صفة القوة الأعظم super-powerdom . حيث سائر النوويين من القوى الكبيرة أو القوى فقط great powers . ومعنى هذا أن أبسط وأوضح نتيجة للعصر النووى أنه زاد من عنف تركيز القوة واحتكارها فى حدود الاستقطاب الثنائى الراهن ، وزاد بذلك من اختلال ميزان القوة فى العالم ككل ، وضاعف من رهبة التصادم بين القطبين العملاقين .

فلقد تستطيع القوى النووية الصغرى أن تبدأ حربا نووية أو عالمية ، ولكنها تعجز عن أن تنهيها ، هذا إن تجاسرت على أن تبدأها أصلا ، وهى لن تفعل ، من فرط رهبة القوتين الأعظم لن تفعل ، كما تؤكد حرب السويس ١٩٥٦ وانسحاب العدوان الثلاثى فى وجه الانذار الصاروخى السوفيتى والضغط الأمريكى . أما القوتان الأعظم فهما وحدهما اللتان تملكان أن تبدآ حربا نووية وأن تنهياها ـ ولكن فقط بعد أن تنهى نفسها والآخرين والعالم أجمع .

من هنا فإذا كانت علاقة القوة بين القوتين الأعظم وبين النوويين من القوى الكبيرة هى هكذا علاقة « صد ورد checkmate » (كش ملك) ، باترة محسومة ولا مفر فيها من الانصياع والصدوع بالأمر والتراجع أو الانسحاب ، فإنها بينهما هما نفسيهما علاقة شد وجذب stalemate (مضاربة) معقدة متناطحة متكافئة ، لا مفر فيها من المناورة والمداورة ، والمقايضة والمساومة ، والمد والجزر ، مع أقصى درجات ضبط النفس والتعقل رغم ضراوتها وهولها .

ومن الواضح بعد هذا على التو أن العصر النووى يمثل طفرة فى تاريخ الاستراتيجية بل البشرية لم تخطر على قلب بشر ، تضع كل مراحل الاستراتيجية الماضية وكل أنواع الأسلحة « التقليدية » فى متحف التاريخ ، ويمكن ببساطة أن تضع البشرية نفسها والنوع الانسانى برمته فى ذمة التاريخ كذلك ! فعلى سبيل المثال ، قدر أن عشر قنابل ذرية من أكبر ما كان معروفا فى ١٩٥٤ تعادل فى قوتها التدميرية كل ما ألقى جميع المتحاربين فى الحرب العالمية الثانية من قنابل وألغام ومتفجرات.[١] وفى منتصف الستينات فقط أعلن الاتحاد السوفيتى أن رأسا ذرية واحدا مما يستطيع أن يقذف يعادل نفس القوة برمتها ، بل قوة كل ما استخدم من متفجرات فى جميع حروب البشرية ! أما بعد ذلك بسنتين فقط فقد كان المقول أن الولايات المتحدة تملك من الرصيد النووى ما يكفى لتدمير العالم بأسره ثلاث مرات أو أربعا (!) ، بينما كان الاتحاد السوفيتى — أكثر تقشفا أو تفاؤلا ! — يكتفى باحتياطى يكفى لتدميره مرة واحدة فقط[٢] .

أما الآن فإن غواصة نووية واحدة تحمل من القوة التدميرية ما يعادل القوة التدميرية لجميع الأسلحة التى أطلقت خلال الحرب العالمية الثانية بأسرها . وآخر ما يقال فى هذا المجال أن بالعالم مخزونا من الأسلحة النووية يكفى لتدمير الأرض جميعا عشرات المرات .

وبالتحديد فإن المقدر حاليا (١٩٨٢) أن مجموع الترسانة النووية للقطبين الأعظم معا يعادل ٨ مليارات طن من مادة ت . ن . ت الشديدة الانفجار ، بينما أن ما تمتلكه الدول النووية الآن فى العالم تعادل قوته قوة مليون قنبلة من نوع هيروشيما .

ومن العبث بعد هذا أن نمضى فى حصر الاحصاءات والتقديرات اللاحقة أو المماثلة . غير أن النقطة المؤكدة هى أن العصر النووى ، لأول مرة فى تاريخ الصراع البشرى ، يضع العالم وجها لوجه مع الانتحار أو انقراض النوع . اختيار رهيب ، واختبار أشد رهبة . ومن الصعب ، حتى على الاستراتيجيين ، تصور شكل الحرب الذرية الشاملة ، وإن كان من المؤكد أنها إن وقعت الواقعة ستكون قصيرة الأمد إلى أبعد حد ، أشبه بومضة فجائية أو بصعقة كهربائية يعقبها احتراق بشع ثم رماد الموت .

---

(١) مورجنتاو ، المرجع المذكور .

(٢) M.H. Heikal, Sphinx and Commissar, Land., 1978, p. 12 q.

إنها بكل بساطة وعلى أحسن الفروض « القيامة النووية nuclear doomsday » كما وصفها البعض .

الانتخـاب النـووى

وفيما عدا هذا ، فنحن نتقدم خطوة أخرى فى سبيل تحديد نتائج الصدام النووى إذا عرفنا على من ستنصب تلك النتائج أساسا . وليس من الممكن بطبيعة الحال التكهن بمدى حدود الصدام جغرافيا وسياسيا وما إذا كان قد يبتلع العالم كله أو جله فى أتونه ، ولكن المحقق أنه إذا اقتصر على المعسكرين المتصارعين فإن الانتحار المتبادل الذى أشرنا إليه سيكون على وجه التحديد انتحارا للجنس الأبيض بالذات والانسان الأوربى أساسا : السلاف فى الشرق ، التيوتون واللاتين فى الوسط ، والأنجلو ـ ساكسون فى الغرب . فأوربا بعامة ، وأوربا الغربية بخاصة ، وألمانيا بشطريها بالأخص ، هى المرشح الرئيسى للحرب النووية فى كل التقديرات السياسية والعسكرية .

وبحسب آخر تقديرات الثمانينات التى توصل إليها علماء الذرة والطبيعة ، فإن أى حرب نووية محدودة تنشب داخل أوربا ستبلغ قائمة ضحاياها كالآتى : نحو ١٠٠ مليون نسمة قتلى على الفور ، ٦٨ مليونا يموتون بعدهم بتأثير الاشعاع النووى ، بمجموع قدره نحو ١٦٨ مليونا ، يضاف إليهم ١٥٠ مليون مصاب إصابات خطيرة ، وبهذا يبلغ إجمالى مجموع ضحايا الحرب بشكل أو آخر نحو ٣١٨ مليون نسمة أو نحو نصف سكان القارة (مقابل ١٣٩ مليونا أو ثلثى السكان فى حالة الولايات المتحدة) . أضف إلى هذا أن الغلاف الجوى الأوربى سوف يتشبع بالغازات والدخان إلى حد يحيل النهار ليلا بحيث يقضى على الزراعة وكل الكائنات الحية . ولهذا فإن من أفلت من الموت لن يفلت بعده من المجاعة أو الجوع والوباء أو المرض .

هذه صورة ، أما الصورة الثانية فتتسع لتشمل نصف الكرة الشمالى . فالمقدر أن اندلاع حرب نووية بين العملاقين سيعنى على الفور انطلاق أو تبادل قذف نحو ١٥ ألف قنبلة نووية (١٤٧٤٦ بالتحديد !) ، سوف تنصب أساسا على نحو ١٤٥ مدينة أوربية فئة + ٢٠٠ ألف نسمة . والمقدر بعد هذا أن عدد ضحايا هذه الحرب فى الأربع والعشرين ساعة الأولى سوف يبلغ نحو ٧٥٠ مليون نسمة من القتلى ونحو ٣٥٠ مليونا من الاصابات الخطيرة ، أى بمجموع نحو ١١٠٠ مليون نسمة أى نحو ربع البشرية ...

والمعنى المباشر لهذه التقديرات وأمثالها هو ببساطة أنه إذا اتخذت الحرب النووية

أبعادا عالمية ، فلن تترك على ظهر الأرض من بقايا البشرية إلا « قليلا من الأفريقيين وكثيرا من الصينيين » كما عبر مرة خروتشوف . وحتى إن لم ينقرض الجنس الأوربى وأفلتت من الواقعة بذور له أو « خميرة » ، فلن يكون بعدها إلا أقلية مسحوقة عدديا وماديا فى عالم ما بعد الحرب النووية ، بينما ستضيع سيطرته العالمية سياسيا إلى الأبد ، ويرث الأرض من بعده من كانوا « عباده المستضعفين » من « ملونين » ومستعمرات سابقة ... الخ . حتى القوتان الأعظم نفسهما لو دخلتا حربا نووية محدودة أو شاملة فإن المقدر أنهما ستخرجان منها وقد انزلقتا على أفضل الأحوال إلى دول محطمة مخربة من الدرجة الثانية أو الثالثة ، فاقدتين بذلك ليس فقط صدارتهما فى العالم لدول ثانوية أصغر بل وربما كذلك مستقبلهما ذاته .

بهذا وبذاك تبدأ للعالم جغرافيا جنسية وسياسة جديدة تماما ومختلفة جذريا عما ألف الأوربى : عالم قد تتبع فيه المعتدلات المداريات وتخضع فيه العروض العليا للعروض السفلى ، وقد يصبح فيه سادة الأمس توابع الغد وعبيد الأمس سادة الغد ، ويكون الجنس الأبيض هو الجنس المغلوب على أمره فى العائلة البشرية ! ومعنى هذا كله أن التصادم النووى لا يأخذ مظهرا استراتيجيا فحسب ، ولكنه يكتسب قبله مغزى جنسيا أنثروبولوجيا مباشرا ويبدو لأطرافه انتحار الرجل الأبيض أكثر منه ، وقبل أن يكون ، انتحار الجنس البشرى ، بحيث يجعلها تعيد النظر فى الجانب الاستراتيجى كله .

تلك إذن هى احتمالات المستقبل : صورة رهيبة للبشرية عامة وحلم مفزع كالكابوس الجاثم للأوربى خاصة . ومن هنا جاء رد الفعل العنيف . فلقد جعلت الاستراتيجية النووية الحرب مستحيلة ، وجعلت من « التعايش السلمى » ضرورة بقائية ، وهذا وذاك على الأقل بحكم « ميزان الرعب النووى » . ومن هنا أصبحت الترسانة النووية العالمية طاقة مشلولة أو رادعا ذاتيا كالبوميرانج الذى يرتد إلى صدر صاحبه .

وهذا الموقف ، كما يقول مورجنتاو ، يحمل فى طواياه إما الشر المستطير الذى لم يسبق له مثيل ، وإما الخير الذى لا يكاد يصدق . وفى الأثناء ، فإن الخلافات الأيديولوجية والصراعية الأسية تظل قابعة فى أخاديد غائرة تنفى السلام العالمى مثلما نفيت الحرب العالمية مَن قبل . وفى ظل هذا المناخ السياسى ، الذى يشبه الرهو الثقيل الممض ، لم يكن غريبا أن أخذت تتجرثم عدة خطوط جديدة فى السياسة العالمية أو

تتجوهر . غير أن تحليل هذه الخطوط يستدعى منا أولا أن نحدد مراحل التوازن النووى المتعاقبة فى تطورها واحدة بعد الأخرى ، نقطتنا التالية .

مراحل التوازن النووى

منذ بدأ العصر النووى فى نهاية الحرب الثانية إلى اليوم فى أوائل الثمانينات ، نستطيع أن نتعرف على أربع مراحل أو توازنات نووية تمثل فى مجموعها اتجاها تدريجيا من الاحتكار المطلق للقوة النووية لأحد الطرفين إلى تكافؤ مطلق بينهما ، رغم الذبذبات الثانوية المؤقتة والسبق المرحلى العابر لهذا الطرف أو ذاك . ولهذا كان لكل مرحلة مغزاها واستراتيجيتها ـ ورعبها أيضا . فالمرحلة الأولى تبدأ من منتصف الأربعينات حتى نهايتها ، فهى فى معنى نصف مرحلة تقريبا ، بينما تغطى كل مرحلة من المراحل الثلاث التالية عقدا بأكمله تقريبا . فالمرحلة الثانية هى الخمسينات ، والثالثة الستينات ، والرابعة السبعينات . ولما كانت كل مرحلة تمثل فى جوهرها توازنا نوويا معينا ، فإنها بالتالى تحكم وترسم الأحداث السياسية داخلها بحيث يمكننا منهجيا أن نركّب هذه الأحداث وندرسها فى إطارها وظلها مرحلة بعد مرحلة تباعا وعلى التتابع كشريط جيوستراتيجى ـ جيوبوليتيكى مركب ولكنه موحد .

الأربعينات : الاحتكار والاحتواء

فالمرحلة الأولى هى التى أعقبت الحرب الثانية حتى نهاية الأربعينات (٤٥ ـ ١٩٤٩) ، حين كانت الولايات المتحدة تنفرد وحدها بالسلاح الذرى ولا يملك الاتحاد السوفيتى إلا جهازا ضخما من الأسلحة التقليدية . تفوق نووى ـ يعنى ـ مع تخلف فى الأسلحة التقليدية فى الغرب ، وتخلف نووى مع تفوق فى الأسلحة التقليدية فى الشرق . ولا جدال أنها كانت مرحلة حرجة للغاية بالنسبة للكتلة الشيوعية ، فى وقت كانت الحرب الباردة والصراع المذهبى على أشدهما . وهى بالتالى المرحلة التى كان إغراء الهجوم على أشده كذلك بالنسبة للغرب ، حيث لم يكن ثمة رادع نووى مضاد .

ولقد كان فى ظل هذا التوازن الكتلى المختل بالدقة أن وضعت سياسة الاحتواء أو التطويق الأمريكية على يد مهندسها الأول جورج كينان تحت إدارة ترومان .[1] فهذه

---

(١) George Kennan, "The sovrce of Soviet conduct", Foreign affairs, July 1947, p. 12-27.

الاستراتيجية تقوم أساسا على مبدأ تدمير الاتحاد السوفيتي بالقاذفات النووية تدميرا تاما إذا هو بدأ بالهجوم المباشر على الولايات نفسها أو أوربا الغربية ، وإن كانت الاستراتيجية نفسها تفترض أن الاتحاد لن يجرؤ على هذه المبادأة لعجزه أو ضعفه النووى المحقق . أما عن الهدف من هذه الاستراتيجية فهو تجميد توسع الكتلة الشرقية وعدم توغلها خارج الستار الحديدى كحد أدنى ، وربما محاصرتها « وتحريرها » فى النهاية كحد أقصى .

فأما تجميد التوسع فيرجع إلى أن أوربا الغربية بعامة كانت بعد دمار الحرب وانهيار الحياة المادية فيها حقلا خصبا للتيارات والتسللات والأحزاب الشيوعية التى برز دورها بشدة فى فترة ما بعد الحرب وانتخاباتها العديدة ، كما حدث فى فرنسا وإيطاليا خاصة وإلى حد ما فى اليونان التى كاد الانقلاب الشيوعى ينتزعها من الغرب كسائر البلقان لولا التدخل الأمريكى بفضل الموقع البحرى المفتوح . وأما هدف « تحرير » شرق أوربا فلأن روح الصراع الإيديولوجى والعقائدى كان فى أوجه ، خاصة فى وهج الحرب الثانية وذكريات القتال ، حتى بلغ أحيانا حد الهوس أو الهيستيريا ، هيستيريا « الحرب الصليبية المقدسة على الشيوعية » .

ونحن نستطيع أن نكون فكرة عن المناخ السياسى والاستراتيجى فى تلك المرحلة من دعوة مفكر مثل برتراند رسل ، وهو رجل سلام وداعية تقدمية أصلا ومن حيث المبدأ ، إلى شن الحرب الصليبية على الشيوعية بلا إبطاء على أساس أنها هى « إما الآن أو مطلقا ! now or never » .[1] وتلك كانت فى الحقيقة استراتيجية الحرب الوقائية المبكرة وضربة الاجهاض المسبقة أو الضربة الأولى والأخيرة معا . وهناك حتى الآن من يأسى فى الغرب على أن هذه فرصة ذهبية ضاعت إلى الأبد ولن تعود أو تتكرر .

أما من حيث المعار فلقد قامت استراتيجية الاحتواء أساسا على إقامة وفرض الأحلاف الاقليمية ، الدفاعية اسما الهجومية فعلا ، فى كل مكان حول الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية . والواقع أن المرحلة شهدت أكبر حملة أمريكية محمومة فى هذا السبيل ، حتى سميت الظاهرة « بهيستيريا أو جنون الأحلاف pactomania » . وطوق سلسلة هذه الأحلاف نصف الدائرى حول الكتلة الشرقية غنى عن الذكر فضلا عن التكرار ، وكل ما يمكن إضافته هنا هو أنه وليس أى شىء آخر هو الستار الحديدى

---

(١) Cole, p. 252.

الحقيقى فى نظر البعض ، بمعنى أن فكرة الستار الحديدى وإن ابتدعها الغرب وألصقها مغالطة بالاتحاد من جهته فإن هى ـ فى الواقع وكأمر واقع ـ إلا من صنعه هو وفرضه .

الحرب الكورية

كانت الحرب الكورية ٥١ ـ ١٩٥٣ هى قمة استراتيجية الاحتواء ـ ونهايتها أيضا . فقد بدأت الحرب محلية محدودة نتيجة لتوغل الشيوعيين من شمال كوريا إلى جنوبها الموالى للغرب . ورغم أن الحرب الكورية تمت تحت علم الأمم المتحدة ، فقد كانت حربا أمريكية فى الدرجة الأولى ، كما يمكن أن نضيف بين قوسين أنها كانت حرب ماك آرثر فى الدرجة الثانية (بطل معركة اليابان والهادى أثناء الحرب الثانية) . كذلك فرغم أن الهدف الأساسى من الحرب كان تحرير الجنوب ، فقد كان توحيد الجنوب والشمال هدفا رئيسيا آخر ، أى ضمنا « تحرير » الشمال أيضا .

وقد كانت حسابات الولايات أنه لا الاتحاد ولا الصين سيتدخل جديا بسبب التفوق النووى الأمريكى المطلق والرادع . غير أن الحرب تحولت على الجانب الشيوعى إلى شركة مساهمة سوفيتية صينية : الأسلحة الحديثة والطيران من السوفيت ، والقوات البرية من الصين بجحافلها البشرية المعهودة (نصف مليون متطوع) .

وفى وجه الهزيمة العسكرية المحققة ، كان الخيار أمام الولايات هو إما ضرب الصين و/ أو الاتحاد بحرب شاملة وإما استعمال القنبلة الذرية . لكن غزو الصين قد يدخل حليفها الأكبر الاتحاد فى المعركة بكامل ثقله ، أو قد يستنزف بفضل حجمها واحتياطيها البشرى المخيف كل طاقة الولايات . وفى الحالين فإن هذا قد يترك جبهة أوربا الغربية مكشوفة ومعرضة لهجوم سوفيتى شامل دون مقاومة مكافئة . وفى كل الأحوال فإن خطر التحول إلى حرب عالمية وارد .

أما استخدام القنبلة الذرية ، رغم إغراءته الشديدة لأول وهلة خاصة فى ضوء تجربة اليابان ، فقد اتضح أنه يمكن أن يتحول إلى فخ أو مصيدة لاستنزاف رصيد الولايات منها ، المحدود حتى ذلك الوقت المبكر ، وبذلك تتحول الحرب إلى خدعة سوفيتية لكسر الاحتكار أو التفوق النووى الأمريكى . وفى جميع الأحوال فإن هذا يعنى بالنسبة للولايات « الحرب الخطأ ، فى المكان الخطأ ، فى الوقت الخطأ ، ضد العدو

الخطأ » كما لخصها حينذاك فى عبارة جامعة مانعة الجنرال الأمريكى برادلى.[1]

من هنا جميعا عادت الأهداف الأمريكية لتتقلص إلى مجرد العودة بالموقف إلى ما كان عليه قبل الحرب status qua ante bellum ، لتنشطر كوريا على حد سيف خط العرض الشهير ٣٨ درجة ، ولتنتهى الحرب من حيث بدأت . وبدلا من أن تأتى الحرب الكورية معركة يابان ثانية ، جاءت بالعكس معركة يابان مقلوبة ـ بلا نصر وبلا هيروشيما .

وهكذا فى النتيجة أثبتت الملحمة الكورية بطريقة عملية ولكنها مأساوية خطأ سياسة الاحتواء وفشلها ، وبالتالى عقم الاحتكار النووى أو التهديد النووى . ذلك أن قصاراها المحافظة على الوضع الراهن بلا تغيير ولا تحرير ، وهى من ثم استراتيجية سلبية إلى حد بعيد . أما إذا أريد لها أن تكون إيجابية بإصرار ، فانها تتحول إلى مأزق حقيقى من الحروب المحدودة التى لا نهاية لها[2] ، بحيث ترتد فى النهاية إلى صدر صاحبها . ومن هنا بدأ البحث عن بديل ، لا سيما مع تغير التوازن النووى جذريا ، وهو أيضا ما ينقلنا إلى المرحلة الثانية من العصر النووى .

الخمسينات : استراتيجية الردع الشامل

هذه المرحلة تغطى الخمسينات بالتقريب منذ توصل السوفيت إلى القنبلة ١٩٤٩ حتى أزمة كوبا ١٩٦١ . ففيها أساسا توصل الاتحاد السوفيتى إلى السلاح النووى ووسائل نقله من قاذفات وصواريخ . ورغم تقدم السوفيت السريع فى هذا المجال ، فقد كانت أمريكا بسبقها وتفوقها تطفر طفرا . ولذا ظلت الفجوة النووية قائمة ، وإن زال الاحتكار النووى . والمهم على أية حال أن قد أصبح هناك توازن ذرى رهيب بين القطبين وأن الردع صار متبادلا عن طريق الصواريخ الموجهة .

غير أن هذا لم يكن يعنى شل احتمالات الحرب أو تجميدها . فلقد كان المفهوم أن الهجوم المفاجئ هو الاستراتيجية الوحيدة التى تبقت لأى من الطرفين . فلو عجل أحدهما بمباغتة الآخر ـ غيلة فى الظهر يعنى ـ فقد دمره إلى الأبد فى ساعات أو ربما دقائق ،

---

(١) Harry S. Truman, Memoirs, N.Y., 1956, vol. 2, p. 321 ff.

(٢) اسماعيل صبرى مقلد ، « الاستراتيجية الأمريكية فى العصر النووى » ، السياسة الدولية ، يناير ١٩٦٦ ، ص ٥٦ ـ ٦٢ .

وتحدد بذلك مصير العالم نهائيا . وبتعبير آخر فقد كان شعار هذه المرحلة هى أن أتغدى بك قبل أن تتعشى بى .[1] إنها ببساطة استراتيجية الغدر وأسلوب بيرل هاربر ولكن نوويا . والهجوم ، لا الدفاع ، هو بالتالى مفتاح المرحلة .

من هنا ندرك التوتر والترقب الرهيب الذى كان يرين على المعسكرين . فالموقف الاستراتيجى العام أقرب الآن إلى التعادل النسبى ، ومن ثم كانت تلك قمة الرعب النووى . ولذلك كان الطرفان يعيشان فى حالة طوارئ دائمة تقريبا . فإلى جانب كل وسائل وطائرات التجسس وشبكة التصنت والمخابرات ... الخ ، كانت الطائرات الأمريكية مثلا تحلق فى الجو ٢٤ ساعة فى اليوم بلا انقطاع قط .

فى ظل هذا التوازن الحرج بالتحديد ظهرت على الجانب الأمريكى استراتيجية « الردع الشامل massive retaliation» كبديل عن استراتيجية الاحتواء الفاشلة من جهة وكرد على القدرة النووية الجديدة للسوفيت من الجهة الأخرى . وقد كان دلز هو صاحب ومهندس هذه الاستراتيجية الجديدة ، التى تعنى أن أى استفزاز من الجانب الآخر يقابل فورا بحرب نووية شاملة . وعنده أن معرفة العدو مسبقا بأنه سيدمر تدميرا كاملا عند أدنى عدوان كفيلة بأن تردعه عن أى عدوان أصلا . وكانت القمة المنطقية لهذه الاستراتيجية هى سياسة « حافة الحرب brink-of-war » التى مارستها أمريكا دلز طوال الخمسينات تقريبا بكثير من التهور وقليل من الخوف ولكن بقدر لا بأس به من الفشل ، وذلك ابتداء من فيتنام إلى الشرق الأوسط بما فيه السويس ربما .

بين الشرق الأقصى والأوسط

ذلك أن حرب التحرير فى فيتنام ، التى لم تنقطع منذ نهاية الحرب الثانية ضد فرنسا وعلى أيدى الشيوعيين من الفيتمينه ، تحولت من مستنقع مزمن إلى كارثة حقيقية لفرنسا منذ انتهت الحرب الكورية سنة ١٩٥٣ . إذ نقلت الصين بعدها كل ثقلها البشرى الضاغط من حدودها الشمالية إلى الجنوبية ، مما انعكس مباشرة فى هزيمة ديين بيين فو الساحقة سنة ١٩٥٤ . ورغم أن الحرب الفرنسية فى الهند الصينية كانت من قبل حربا أمريكية إلى حد بعيد ، بمعنى أن المساعدات الأمريكية كانت هى الأساس فيها ، فقد أدى إخراج فرنسا من الصراع إلى أن ورثت أمريكا الحرب بكاملها ـ والفشل معها .

---

(١) مورجنتاو .

فرغم حرص أمريكا على ألا تتورط فى حرب كالحرب الكورية مرة أخرى ، فقد تكررت تجربة كوريا المريرة من حيث فشل الطيران إزاء البيئة الغابية والأدغال الكثيفة ، واستحالة استخدام الجيوش البرية الضخمة إزاء المحيط الصينى الكثيف ، ثم أخيرا استحالة استخدام السلاح النووى خشية التصعيد الشامل . وهكذا تحطمت استراتيجية الردع الشامل على صخرة فيتنام ، بينما تورطت أمريكا إلى ما لا نهاية فى مستنقعها .

وتختلف تجربة السويس بطبيعة الحال فى وضعها ، ونوعيتها ، وملابساتها ، ولكنها لا تخرج فى النهاية عن إطار العصر النووى وتوازن المرحلة الجديد . فلقد كان فى هذا الاطار بالدقة أن تطورت وجرت أحداث حرب السويس ١٩٥٦ . ففيها لأول مرة اتخذت القوتان الأعظم ، على تضادهما النووى ، موقفا واحدا تقريبا من الناحية العملية ضد القوتين النوويتين الكبيرتين رغم أنهما حليفتان لإحداهما ، فكان انسحابهما أمرا مقضيا ، وفشل العدوان الثلاثى فى ظل وبفضل التعادل النووى الأعظم .

وثمة رأى ، لا يخلو من وجاهة ، يذهب إلى أن الولايات تعمدت أن تدع حليفتيها تتورطان إلى النهاية فى الأزمة حتى ينتهى الأمر بهما إلى الفشل فترثهما هى فى المنطقة تلقائيا ونهائيا . كذلك فسواء كان هذا الفشل قد تحقق بفضل الانذار الروسى أو الضغط الأمريكى ، والأخير الأرجح[1] ، فلقد كان معنى هذا ، ونتيجته أيضا ، أن قد تم إلى الأبد اختزال القوى العظمى فى العالم إلى اثنتين لا ثالث لهما ، كما قد تم نهائيا وراثة الاستعمار القديم ، وهذا وذاك أساسا فى ظل وبفضل العصر النووى .

التجربة والخطأ

هكذا أثبتت تجربة الخمسينات أن استراتيجية الردع الشامل ، بعيدا عن أن تكون مصححا لاستراتيجية الاحتواء بحروبها المحدودة ، هى أقل مرونة وأكثر جمودا وبالتالى أشد فشلا وخطأ . فهى إنما تترك الخيار بين اثنتين : إما حرب نووية شاملة وإما لا حرب على الاطلاق ، ومن ثم فلا مجال فيها للحرب المحدودة . ولما كان من المستحيل واقعيا الالتجاء إلى الحرب النووية الشاملة عند أصغر نزاع محلى ، فقد كان الشلل أو العجز هو النتيجة الحتمية الوحيدة على الجانب الأمريكى ، فضلا عن الذعر المتواتر بين الحلفاء أنفسهم .

(١) Heikal, op. cit., p. 72.

والواقع أن استراتيجية الردع الشامل سلاح نفسى وحرب أعصاب أكثر منها أى شيء آخر ، تعتمد أساسا على ابتلاع العدو للطعم . ولأن أحدا فى المعسكر الشرقى لم يكن على استعداد لأن يقبل بأن الولايات على استعداد حقا لإقامة القيامة النووية من أجل أدنى أو أتفه نزاع هامشى ، فإن هذه الاستراتيجية فقدت مصداقيتها وفاعليتها وعدت نوعا من التهويش الاستراتيجى bluff أو الابتزاز النووى blackmail . ولعل من هنا جاء شعار الصين المشهور فى تلك المرحلة عن أمريكا «كنمر من ورق» حتى ولو كان ذا أنياب نووية .

والحقيقة أن الردع الشامل كان على أقل تقدير يمثل الاستراتيجية الخطأ فى الوقت الخطأ ، بمعنى أنه إنما يمت إلى الماضى وينتمى إلى منطق وعصر الاحتكار النووى ، أى كان أصلح لمرحلة الأربعينات من الاحتواء ولكنه كان أسوأ منه لمرحلة الخمسينات . ومن هنا شهدت الخمسينات على امتدادها جدلا مستمرا فى الفكر الاستراتيجى حول الحرب المحدودة والعودة إليها بصورة معدلة تتلاءم مع العصر النووى وذلك كبديل عن الردع الشامل وكمخرج من مأزقه وشلله التام .

وقد شارك فى هذا الجدل كثيرون أمثال هنرى كيسينجر ، بول نيتزه ، روبرت أوسجود ، رالف لاب ، برنارد برودى ، ادوارد تيللر ، ولیم كاوفمان ، روجر هيلزمان ، هانز بولدوين ... الخ .[1] وبعضهم مثل كيسينجر عدل عن آرائه أو عدلها مرة أو أكثر من مرة .[2] والمهم فى هذا الجدل على أية حال أن الحرب النووية التكتيكية كانت هى الشكل الجديد المقترح والمفضل ، بمعنى استخدام الأسلحة النووية التكتيكية الصغيرة أو الميدانية كتعويض تكنولوجى عن تفوق الكتلة الشرقية التقليدى فى الأسلحة والقوات التقليدية . غير أن البعض أصر على استبعاد السلاح النووى كلية من الحرب المحدودة ، وعلى أن الحرب المحدودة لا تكون حربا محدودة إلا إذا كانت حربا تقليدية .

على أن مشكلة الحرب المحدودة ، التى لم تقبلها أمريكا قط بأكثر من نصف قلب ورفضها السوفيت تماما من حيث المبدأ باعتبارها مجرد تبرير للحروب الاستعمارية ومقاومة حروب التحرير الوطنية ، كانت دائما هى خطر التصعيد الكامن أبدا . فليس هناك ضمان على أى من الجانبين ، سواء فى حالة النصر أو الهزيمة ، سواء كانت الحرب

---

(١) إسماعيل صبرى مقلد . ص ٦٠ - ٦٩ .

(٢) Henry Kissinger, Nuclear weapons and foreign policy, N.Y., 1957.

المحدودة نووية أو تقليدية ، أن تظل الحرب محدودة وألا تتصاعد إلى حرب شاملة تقليدية أولا ثم نووية بعد ذلك . فالمشكلة هى صعوبة وربما استحالة تجميد وحصر الحرب المحدودة متى بدأت . ومن هنا كانت النظرية السوفيتية ، التى شارك فيها كثير من الاستراتيجيين فى الغرب ، من أنه ليس ثمة شىء كحرب محدودة . فكل حرب محدودة إنما هى مقدمة لحرب شاملة ، والحرب الشاملة فى ظل التوازن النووى الجديد إنما تعنى الانتحار المتبادل ـ أو نزع السلاح الشامل .

الستينـات : استراتيجيـة الرد المـرن

شهد هذا العقد تطورات وطفرات نووية جسيمة على كلا الجانبين أبرزها الغواصات النووية والصواريخ المضادة للصواريخ ، كما أصبح السباق بينهما سجالا تناوبا فيه التفوق أكثر من مرة وإن كانت اليد العليا غالبا أو فى النهاية للولايات ، مما منحها دينامية نشطة إن لم نقل عدوانية عاتية جعلت العقد فى مجمله عقدها بالتأكيد لا عقد الاتحاد فى مجال السياسة العالمية .

على أن التوازن النووى بين القطبين ازداد فى مجمله رهافة وخطورة وازداد الرهان رهبة وجسامة ، حتى اشتدت مخاطر الصدام فى أكثر من أزمة دولية أهمها أزمة كوبا فى بداية الستينات وحرب يونيو قرب منتصفها ثم حرب فيتنام فى أواخرها . غير أن هذا من الناحية الأخرى حتم تغييرات جذرية وأدخل تطورات جديدة فى الاستراتيجيات السياسية والعسكرية ، تتلخص على الجانب الأمريكى فى استراتيجية الرد المرن بدل الردع الشامل ، وذلك فى ظل فلسفة التعايش السلمى بدل الحرب الباردة على الجانب السوفيتى .

وقد كانت الولايات هى السباقة إلى إستراتيجية الرد المرن . ففى وجه الشلل أو الجمود النووى السابق nuclear stalemate وعقم استراتيجية الردع الشامل ، مع تعاظم حدة التوازن النووى بين الجانبين ، أخذ الفكر الأمريكى يرتاد استراتيجيات بديلة تسمح بمرونة وحرية الحركة فى أزمات الصراع دون الوقوع فى مأزق الحرب النووية المستحيلة . وفى مطلع الستينات كانت هذه الاستراتيجية قد تبلورت بصفة خاصة على يد الجنرال ماكسويل تيلور تحت اسم الرد المرن flexible response [1] ، وعلى يد هيرمان

---

(١) Maxwell Taylor, The uncertain trumpet, N.Y., 1959, p. 30 ff.

كان تحت اسم الردع المتعدد multideterrence .[1] وفى الوقت نفسه تبنتها الادارة الأمريكية (كيندى ـ ماكنمارا) واعتمدتها رسميا تحت اسم القوة المضادة الموجهة controlled counter-force .

مؤدى هذه الاستراتيجية أن الخيار المطروح أمام الولايات ليس كسابق الظن بين الانتحار المتبادل ونزع السلاح من جانب واحد ، أى بين الانتحار المتبادل والانتحار الذاتى تقريبا. ، وإنما هناك بين النقيضين خيارات وبدائل عديدة ، تجمع بين مرونة الحرب المحدودة وحسم الحرب النووية فى توازن دقيق محسوب ، وتتناسب فيها القوة الضاربة ـ على عكس الردع الشامل الغاشم الأصم ـ مع حجم الصراع أو الأزمة ، وذلك أيضا مع التصعيد escalation أو التهبيط de-escalation بحسب تطورات الموقف .

وعلى هذا فإن محور استراتيجية الرد المرن ينبغى أن يكون الجمع بين الحد الأقصى من القدرة النووية الكامنة الآمنة وبين الحد الأقصى من الأسلحة التقليدية القادرة سريعة الحركة والانتقال . وإنما ينبغى أن يكون السلاح النووى الحل الأخير لا الحل الأول ولا الأوحد . وبذلك يمكن التصدى بكل حرية ومرونة لأى صراع محلى أو دولى يطرأ وذلك بالقوة التقليدية ومحاولة حسمه بها وحدها دون التصعيد من حرب تقليدية محدودة إلى حرب نووية عالمية . فإذا ما استحال الحسم بالأسلحة التقليدية أو تجميد الحرب المحدودة ، فلا مفر عندئذ من التصعيد النووى .

وبطبيعة الحال فإن هذه الاستراتيجية تستدعى استعدادات عسكرية خاصة تقليديا ونوويا . فتقليديا ، ينبغى أن تتوفر القوات الكافية القادرة على الانتقال الفورى إلى ميادين القتال والانتشار السريع فيها ، بكل ما يعنى هذا من قوة الطيران والبحرية ومشاة الأسطول ... الخ . أما نوويا فإن الأساس الشرطى والشرط الجوهرى هو امتلاك زمام المبادأة ، أى ضمان القدرة على « الضربة الأولى pre-emptive war» ، وإلا فضمان القدرة على الرد بعدها « بالضربة الثانية » . وكان هذا بداية المناظرة التاريخية الشهيرة فى أدب الاستراتيجية بين الضربة الأولى والثانية .

ذلك أن الصواريخ عابرة القارات قد خفضت الوقت اللازم لنقل الرؤوس النووية إلى دقائق معدودات ، بحيث أصبحت الضربة الأولى رغم كل وسائل الانذار المبكر

---

(١) Hermann Kahn, On thermonuclear war, Princeton, 1960, p. 22-37.

تمثل مفاجأة أو مباغتة تعطى للبادئ ميزة تدميرية هائلة قد تحسم المعركة وتنهى الصراع إلى الأبد . ولهذا أصبحت الضربة الأولى بمثابة الحرب الوقائية preventive war ، وسميت كذلك أحيانا بالفعل . وهى على هذا الأساس تعد نوعا من الدفاع فى شكل الهجوم ، دفاعا مسبقا فى شكل هجوم مسبق .

فإذا ما ضاعت فرصة الضربة الأولى على الولايات ، فلابد لها عندئذ أن تكون قادرة على امتصاصها ثم الرد عليها بالضربة الثانية . ولتحقيق هذا لابد لها من تأمين مخزونها النووى بعيدا عن أى خطر على السطح ، وذلك بحفظه فى صوامع غائرة تحت الأرض تكون أيضا مشتتة التوزيع ، أو فى الغواصات النووية الدائبة الحركة تحت الأعماق ، أو فى الطائرات المحلقة أبدا فوق السحاب . ففى الضربة الثانية إذن يكمن ليس فقط تفادى الهزيمة النهائية ولكن أيضا ردع العدو عن الضربة الأولى نفسها أصلا لعلمه بأنه لن يفلت من العقاب المدمر مهما كان وفى كل الأحوال . إنها هجوم متأخر وإن أتت كدفاع لاحق .

وبهذا أيضا – لابد أن نلاحظ – تلاشى الفاصل الزمنى بين الهجوم والدفاع وشحب الفارق الاستراتيجى بينهما كثيرا حتى تداخلا وصارا جانبين لشىء واحد تقريبا ، لا قيمة لأحدهما دون الآخر ، واجتماعهما معا ضرورة بقائية شرطية فى العصر النووى ، ولم يعد أهم من الدفاع سوى الهجوم ولا أهم من الهجوم سوى الدفاع .

فإذا ما انتقلنا الآن من النظرية إلى التطبيق ، فإن أول تطور هام كان دخول الغواصة إلى مسرح الصراع فى الستينات الباكرة . وقد كانت الولايات هى السباقة فى هذا المجال ، حيث دشنت الغواصة نوتيلس الشهيرة Nautilus العصر الجديد . وأصبحت الغواصات النووية التى تجوب أعماق البحار والمحيطات بلا انقطاع بمثابة « يابس » أو قارات ميكروسكوبية عائمة أو غاطسة لها مثل قوة التدمير والردع النووية التى للقاعدة الأرضية على اليابس الحقيقى تماما ، بمعنى أنها تستطيع أن تباغت العدو بالضربة الأولى الاجهاضية من حيث لا يحتسب ولا يستطيع أن يرد ، أو أن تعاجله بالضربة الثانية الانتقامية إذا ما سبق هو بالأولى ، بحيث لا يفلت من العقاب وربما الفناء قاتلا كان أو مقتولا ، مهاجما أو مدافعا ، بادئا أو مسبوقا .

وبهذا التوازن الجديد استردت أمريكا زمام التفوق الاستراتيجى المحقق ، واشتدت من جديد ميولها ونشاطاتها الصراعية . ومع ذلك فقد فرض التعايش السلمى نفسه

فرضا . وقد تبدى هذا فى أوْجه وأوضح صوره فى أزمة كوبا فى أوائل الستينات حيث انسحب الجانب السوفيتى من المجابهة النووية ونذر الحرب العالمية محتفظا بالحد الأدنى من ماء الوجه والحد الأقصى من السلامة .

كوبا : مطرقة التعايش

فمنذ تحولت كوبا الثورة إلى اليسار ، أصبحت فى نظر الولايات المتحدة بمثابة خلية شيوعية فى قلب جسم العالم الجديد وفى صميم نسيجه . فهى بموقعها وسط الكاريبى ــ البحر المتوسط الأمريكى ــ تكاد تلامس جنوب الولايات على مرمى حجر ، وتكاد ترى أمريكا الوسطى على مرأى النظر . وهى من ثم فى نظر الولايات بؤرة خطرة لنشر « الوباء » الوافد من العالم القديم ولتصدير الثورة إلى العالم الجديد ... الخ . إنها « حصان طرواده » الشيوعى فى عقر دار الرأسمالية . ولذا بات هم الولايات الأكبر هو محاصرة وعزل هذه البؤرة ، إن استحال استئصالها أو اجتثاثها ، حتى لا تتحول أمريكا اللاتينية على المدى البعيد ، أو الوسطى على الأقل ، إلى كوبا كبرى .

ولكن حين تحول هذا المركز أو أوشك إلى قلعة للصواريخ السوفيتية يمكن أن تضرب رأسا ومباشرة فى قلب الولايات نفسها ، لم يكن بد من المواجهة المباشرة مع السوفيت . والحقيقة أن هذه المواجهة لم تكن فى حساب الجيوستراتيجية الواقعية سوى نسخة نووية من مبدأ مونرو ، أى أول تطبيق للمبدأ القارى القديم فى العصر النووى .[1] وعلى هذا الأساس ينبغى أن ننظر إليها جيوبوليتيكيا .

على أن كوبا ، من الناحية الاستراتيجية ، جاءت وهى « السويس معكوسة أو بالمقلوب » كما شخص هيكل ببراعة وحصافة .[2] أما تاريخيا فبينما كانت الأخيرة نموذجا رائعا لسياسة الصد والرد checkmate بين كبار النوويين وصغارهم ، كانت الأولى نموذجا مروعا لسياسة الشد والجذب stalemate بين كبار النوويين أنفسهم . وفى كل الأحوال ، ففى أزمة كوبا وضعت بذرة التعايش السلمى ، وبها بدأ عقده عقد الستينات تقريبا .

غير أن الاتحاد السوفيتى لم ينس الدرس ولا أساء فهم معادلة التعايش الجديدة . فقد أخذ التحدى النووى جديا ، حتى انتزع قصب السبق أو التفوق النووى نوعا أو

---

(١) Cf. "The East-West struggle", Economist, Dec. 26, 1981, p. 59.

(٢) Sphinx etc., p. 154.

نوعيا ، آنيا أو مرحليا . فمن ناحية سرعان ما توصل الروس إلى الغواصة النووية ، وبذلك بات هناك لكلا الجانبين مجازا يابس خارج اليابس وقارات تحت القارات أو المحيطات ، وصارت لهما على السواء القدرة على كلتا الضربتين الأولى والثانية ، بحيث إذا ما باغت أحد الجانبين الجانب الآخر بهجوم نووى كاسح على أرضه فهو قد محاه حقا من الوجود ، ولكنه لن يفلت من العقاب فورا بهجوم ماحق مماثل من أسطول غواصاته النووية المنبث المتربص فى أغوار المحيطات .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فلقد توصل الاتحاد إلى سلاح جديد نسخ به الصواريخ النووية الأمريكية المتفردة ونسخ معه تفوقه الاستراتيجى . وذلك السلاح هو الصواريخ المضادة للصواريخ anti-ballistic missiles, anti-missile missiles ، وبها يمكن تدمير الصواريخ العدوة سواء فى صوامعها على الأرض قبل أن تنطلق ، أو فى رحلتها فى الجو إذا كانت قد انطلقت . وهكذا ، كما قيل ، لا يفل الصواريخ إلا الصواريخ . وقد نشر الاتحاد السوفيتى بالفعل خلال المرحلة شبكة كثيفة فعالة من الدفاع الصاروخى حول مدنه الكبرى خاصة موسكو ولننجراد ، عممت بعد ذلك وعمقت حتى شملت الاتحاد كله بالتدريج .

وبهذه التطورات جميعا كان الاتحاد هو الذى تفوق استراتيجيا فى هذه المرة أو المرحلة ، وبذلك عوض – تاريخيا – عن فترة تخلفه الذرى عقب الحرب الثانية مباشرة . ولعل هذا كان من حسن حظ العالم ، إذ لم يكن للاتحاد مثل الميول العدوانية أو التهور الاندفاعى الاستفزازى الذى كان للولايات فى تلك المرحلة . وليس من المستبعد فى رأى البعض أنه لو كان هذا التفوق الجديد من قدر الولايات فربما اندفعت فى طريق التحرش والصدام .

إعادة اكتشاف الحرب المحدودة

ذلك أن الولايات المتحدة ، فى وجه هذا السباق النووى المفعم المتقلب ، جنبا إلى جنب مع الشلل النووى الشامل المقيم ، أدركت استحالة الحرب النووية ، وبالتالى خطأ سياسة الردع النووى الشامل كما رأينا . فالقضية لم تعد بالضبط قضية الضربة الأولى أو الثانية على التحديد ، وإنما القضية الآن أنه لا ضربة أولى ولا ثانية أصلا على الاطلاق ، إذ ليس هناك سوى معادلة وحيدة ومستحيلة وهى القيامة النووية ذاتها . ومن هنا كانت الولايات أسبق من الاتحاد إلى اكتشاف حل المعادلة الصعبة هذه وإلى

« اختراق الحاجز النووى » ، يدفعها إلى ذلك طبيعة الاستعمار الجديد العدوانية ، ويشجعها عليه استهتارها بأخطار التصعيد فى الصراع ، وفى الوقت نفسه تمكن لها امتيازاتها العسكرية الجاهزة من قبل والتى تتمثل فى قواعدها المنتشرة حول العالم .

فمنذ أوائل الستينات حين تبنت الرد المرن والحرب المحدودة باعتبارها استراتيجية الاستعمار الجديد بالضرورة والامتياز فى العصر النووى ، أخذت الولايات تبنى وتنمّى كل أسلحتها الطبيعية التى تعتمد أساسا على أقصى تكنولوجيات الكفاءة ولوجستيات السرعة ، والتى تتمثل فى القوات الأمفيبية (مشاة الأسطول) وقوات المظليين (فرسان الجو) إلى جانب القواعد الثابتة (حاملات الطائرات التى لا تغرق) والقواعد العائمة (حاملات الطائرات والغواصات) .

وحين أعلن زعماء الاتحاد السوفيتى ـ خروتشوف أيضا ـ من بضع سنين خلت أنه لم يعد للطائرات والأساطيل البحرية ، فى عصر الصواريخ النووية ، من مكان إلا المتاحف الحربية ، فإننا نستطيع الآن أن نرى أنه كان يتكلم من منطق الردع الشامل ، دون أن يتنبأ بإمكانية الرد المرن . لقد ظن ، كما ظننا جميعا لبعض الوقت ، أن الاستراتيجية النووية قد نسخت إلى الأبد الاستراتيجية التقليدية ، فإذا بتوازن الرعب النووى يضع الأولى فى التجميد العميق كما قيل ، وإذا بالثانية تعود ولو مؤقتا لتحتل الصدارة فى العمل العسكرى الجارى .

وبالفعل ، فلقد سجلت السنوات الأخيرة من الستينات زيادة هائلة فى قوات الولايات المتحدة من تلك الطرز التقليدية المتخصصة ، فى الوقت الذى كان الاتحاد السوفيتى لا يزال يعتمد أساسا ـ إلى جانب الترسانة النووية بالطبع ـ على أسلحة الحرب البرية التقليدية التى تلائم استراتيجيته الكلاسيكية الدفاعية الخاضعة كما نعرف لجغرافيته القارية الأوراسية المتصلة والحبيسة . وبهذا كانت تنقصه أساسا الأسلحة التقليدية غير النووية الصالحة لاستراتيجية حروب ما وراء البحار . وهذا وإن اتفق كثيرا مع ما يتصوره طبيعته غير ـ الاستعمارية ، فإنه لم يعد يتفق على أية حال مع صراعاته ضد ـ الاستعمارية . وتلك بالدقة كانت الفجوة التى استغلتها الولايات المتحدة لتضرب بحرية فى العالم الثالث وتقتنذ ولتحقق مد الاستعمار الجديد الذى بلغ أوجه فى معركة الشرق الأوسط بالتحديد[1] .

---

(١) Heikal, ibid.

فلقد كان فى ظل هذه المعادلة الجديدة بالدقة أن تمت حرب يونيو بنكستها المعروفة التى بدا فيها الاتحاد السوفيتى عاجزا بوضوح عن مساندة أصدقائه العرب فى مصر وسوريا إزاء العدوان الأمريكى السافر والمفضوح رغم القناع الإسرائيلى المباشر. ولم يقتصر هذا العجز على ميدان المعركة نفسه وحده ، ولكنه استمر بعده على المستوى السياسى إلى حد وأمد بعيدين . وهنا كانت المفارقة الصادمة : فرغم تفوق السوفيت نوويا فى تلك المرحلة ، تفوقت أمريكا تقليديا ، ورغم التعايش السلمى فإنها انتزعت نصرا ساحقا فى حرب محلية محدودة ، بينما افتقد أصدقاء الاتحاد السوفيتى فاعليته ولن يلبث هو أن يفقدهم بفضل هذا التعايش ذاته .

على النقيض من هذا تماما ــ للغرابة والدهشة ــ جاءت المواجهة فى فيتنام . ففى نفس الاطار النووى والمناخ السياسى ، عجزت الولايات عن أن تسجل أى نصر بعد حرب عقدية وحشية ضارية ، بل وسجلت أول هزيمة لها منذ قرون ، معترفة لآخر مرة باستحالة تحقيقها هى أو غيرها من القوى الخارجية لنصر عسكرى على اليابس الأسيوى . ولقد كان التنافس الحاد بين الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية فى مساعدة فيتنام الشيوعية ، الملاصقة لها أيضا ، من عوامل الترجيح الحاسمة ، لكن المقاومة الوطنية المصرّة والفدائية كانت الفيصل .

وعلى أية حال ، فهكذا انتهت « أقذر حرب » فى القرن العشرين فى الشرق الأقصى بهزيمة العدوان ، فيما انتهت « أتعس حرب » فى القرن العشرين فى الشرق الأوسط بالهزيمة الوطنية . وبهذا كانت حرب فيتنام هى حرب يونيو بالمعكوس ، بمثل ما كانت حرب السويس من قبل هى معركة كوبا بالمعكوس .

الغريب ، مع ذلك ، أن المواجهة فى كلتا الحربين المحليتين المحدودتين تمت فى إطار التعايش السلمى الحرج . والأغرب أن العقد كله ، عقد الستينات ، عد كما بدأ عقد الولايات من حيث الدينامية والسيطرة والهيمنة العالمية رغم هزيمة فيتنام فى نهايته . غير أن هذه الضربة المهينة القاسية لأكبر قوة فى التاريخ على يد دولة صغيرة متخلفة كانت نقطة تحول جذرية فى كيان الولايات المتحدة . فقد كانت تلك « عقدة فيتنام » التى أدت مباشرة إلى « الانفراج » الشهير « بالوفاق » . وبهذا انتقلنا من عقد التعايش السلمى فى الستينات إلى عقد الوفاق فى السبعينات .

ولكن بينما كانت الستينات عقد أمريكا بالتفضيل ، ستكون السبعينات عقد الروسيا بامتياز . إذ يمكن القول إن العقد بدأ فى نصفه الأول أقرب إلى التعادل السياسى والاستراتيجى بين القوتين الأعظم ، ولكنه تحول فى نصفه الثانى إلى تفوق روسى معلن ومعترف به من قبل أمريكا نفسها .

السبعينات : الوفاق النووى

ذلك أن الطرفين خرجا من الستينات ودخلا السبعينات بحساب مسوّى تقريبا على الجانب السياسى . ففى الصراعات المحلية أو الاقليمية سجلت أمريكا نقطة حاسمة فى حرب يونيو ، فسجلت الروسيا نقطة التعادل فى فيتنام : دقة بدقة ، أو ضربة بضربة ، هذه مقابل تلك . ولقد كان من صميم منطق هذه الحسبة أن خرجت صفقة الوفاق ــ وصفقة هى بالتأكيد .

فمن تجربة الأولى المريرة فى فيتنام ، ومن تجربة الثانية الكسيرة فى الشرق الأوسط ، مع استحالة الحسم النووى إلا انتحارا ، اتفق الغريمان اللدودان على إحلال « الوفاق الثنائى » محل « الاستقطاب الثنائى » كصيغة جديدة لا تنفى الصراع ولكن تحكمه وذلك بمعادلة تجمع بين متناقضتى التعايش والتنافس ولا تمنع الحروب المحلية ولكن تحكمها وتخضعها لضوابط الوفاق وحدوده .

ومن المفهوم بداهة أن كلا الطرفين كان يضمر أو يقدر أن يستغل الصفقة لحسابه الخاص وأن يكسب منها أكثر مما يخسر أو على أية حال أكثر من الطرف الآخر . وهكذا كان بالفعل ، غير أن الذى استغل الوفاق أكثر على الجانب الاستراتيجى كان هو الاتحاد السوفيتى بينما كسبت الولايات المتحدة أكثر على الجانب السياسى .

ذلك أن الاتحاد ، على الجانب الاستراتيجى ، كان قد تعلم درس نكسته فى الشرق الأوسط وصحح خطأه سريعا . فلقد اكتشف من التجربة المريرة فى ١٩٦٧ المصل المضاد لاستراتيجية الرد المرن : فلا يفل الحرب المحدودة إلا الحب المحدودة . ومن هنا اتجه بوضوح تام ومرونة وسرعة نادرتين إلى الاستعداد للحروب الصغيرة عبر البحار ، بإعداد قوة بحرية للتدخل السريع فى العمليات الخارجية ، تشكل قواعد عائمة عبر البحار كبديل عن القواعد الثابتة التى تميز الاستعمار .

وقد بدأت أولى إرهاصات الخروج البحرى فى الحقيقة منذ نهاية الحرب الثانية حين

أخذ الاتحاد السوفييتى ينمّى لنفسه قوة بحرية قياسية لم يعرفها من قبل ، حتى وصل اليوم إلى المرتبة الأولى فى الأسطول التجارى ، والثانية فى الأسطول الحربى ، وفى هذا الأخير وصل بأسطول الغواصات بالذات ـ ولهذا مغزاه الجغرافى الكبير ـ إلى ضعف قوة الولايات المتحدة أو مايربو على كل قوة حلف الأطلنطى مجتمعة . وهكذا من قوة خفر سواحل صغيرة وأسطول غواصات متوسطة الحجم فى الستينات ، نما الاتحاد إلى ثانى أكبر وأقوى أسطول بحرى فى العالم ، بحيث أصبح يحتل الدور الذى كان الأسطول البريطانى يحتله فى الماضى والذى انتزعه الأسطول الأمريكى بعد ذلك .

وقد ظهرت أولى علامات التحول الاستراتيجى الدال الجديد فى أواخر الستينات وذلك ببناء حاملات الطائرات لأول مرة ، ثم فى تشكيل مشاة البحرية لأول مرة كذلك ، ثم فى تنمية فرسان الجو على أوسع نطاق ، مع كل ما يعنى هذا من تكنولوجية ولوجستية . ورغم أن معظم قوة الاتحاد النووية لا تزال تتركز فى صواريخها الأرضية القواعد ، فإن غواصات الأعماق الجديدة من طراز تيفون تعد طلائع قوة صواريخ بحرية القواعد . على أن أعظم نمو فى الأسطول السوفيتى تم فى الوحدات السطحية ، ويعد تحديا مباشرا للأسطول الأمريكى . فالطرادات الحربية الجديدة من طراز كيروف مصممة خصيصا كقاتلات لحاملات الطائرات . هذا بالطبع فضلا عن القوة الأمفيبية ممثلة فى حاملات الطائرات وحاملات الهليكوبتر وسفن الانزال والتموين فى عرض البحر ... الخ .

وعلى الجملة فقد أصبح الأسطول السوفيتى قادرا على العمل بعيدا جدا عن الوطن . وأساطيله الرئيسية تنتشر الآن فى كل من الأطلسى والهادى ، كما امتدت إلى البحر المتوسط حيث أصبحت له نواة متنامية فى حوضه الشرقى تتعامد على ، وتقطع فى صميم ، نطاق أحلاف الغرب ، وتوازن الأسطول الأمريكى السادس وتلغى احتكاره وتنفى عنه صفة « البحيرة الأمريكية » . كذلك بدأ السوفيت ينمون لأنفسهم شبكة من القواعد البحرية فى الهندى والبحار الجنوبية ابتداء من عدن فى اليمن الجنوبية إلى دانانج وكام رانه فى فيتنام ... الخ . وذلك كله بلا ريب أبعد ما يكون عن صورة الروسيا القديمة القارية حبيسة أصقاع الشمال الباردة المتجمدة .

وأخيرا ، فإن الشىء الجدير بالملاحظة فى هذا الانقلاب أن هذه الاستراتيجية الجديدة تتجه بالاتحاد ـ كما تنبأ مكيندر من قبل ـ إلى أن يكون قوة برمائية أكثر من أى

وقت مضى . كذلك فإن هذا الاتجاه يتفق تماما مع ما وجدناه من أن العودة إلى الحرب المحلية المحدودة فى ظل الشلل النووى ، يعود بالاستراتيجية العالمية بصورة ما إلى نمط ومنطق ماكيندر القديم والمتنحى أساسا .

معركة أكتوبر

المهم على أية حال أن هذه الاستراتيجية البحرية الجديدة ، جنبا إلى جنب مع سياسة الوفاق الوليدة ، وضعت موضع الاختبار والتنفيذ وبرزت بكامل هيئتها وثقلها فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى الشرق الأوسط . فمن ناحية كان الوفاق ، كضابط أخير يحكم الصراعات المحلية والاقليمية ، ينص حرفيا على « الاسترخاء الاستراتيجى » فى الشرق الأوسط . وكان هذا يعنى ضمنا وعمليا استمرار حالة « اللا حرب واللا سلم » السائدة فى المنطقة منذ نكسة يونيو ، أى استمرار تفوق وتثبيت العدوان والاغتصاب من جهة واستمرار ضياع الحق على صاحبه المعتدى عليه من الجهة الأخرى .

من هنا كان على الجانب العربى ، فى وجه هذا القرار الظالم المنحاز إلى المعتدى والذى يرقى إلى حد التواطؤ السافر ، أن ينتزع حقه من بين أسنان الوفاق ومن بين براثن « الأصدقاء » السوفيت أنفسهم كما من بين براثن الأعداء الأمريكيين سواء بسواء . ومن هنا كانت حرب أكتوبر تحديا مباشرا ، أول تحد ، للوفاق وللقوتين الأعظم بصورة أو بأخرى .

من الناحية الأخرى ، أما وقد فرض التحدى كأمر واقع واندلعت الحرب وفشل الطرفان الأعظم فى منعها أو إيقافها ، فإنهما سرعان ما عادا كأمر طبيعى إلى مواقعهما الانحيازية الأصلية كل فى صف أصدقائه وإن بدرجات متفاوتة . وهنا ولأول مرة يستطيع الاتحاد السوفيتى أن يقيم جسرا جويا وبحريا لمساعدة أصدقائه العرب فى وجه الجسر الأكبر الذى أقامته الولايات لمساعدة وحماية حليفها الصهيونى . ورغم فداحة الفارق فى ثقل وكثافة وحجم الجسرين المتعامدين ، فقد كانا أشبه بمبارزة حادة بالسيف عبر البحر المتوسط لم يسبق لها مثيل فى جولات الصراع العسكرى السابقة فى المنطقة . وكان هذا يرجع أساسا إلى تطور القوة البحرية السوفيتية الطارئ وتبنى منطق الرد المرن ومغامرة الحرب المحدودة(١) .

---

(١) جمال حمدان ، ٦ أكتوبر فى الاستراتيجية العالمية ، ١٩٧٤ ، ص ٢٩ ومابعدها .

ورغم أن الولايات المتحدة ، حين وصلتها رسالة استغاثة إسرائيل S.O.S الشهيرة بعد أن واجهت خطر الهزيمة الكاملة لأول مرة ، افتعلت تأزيم الموقف الدولى بإعلان حالة الاستعداد والتأهب النووى فى قواعدها حول العالم ، فإن الوفاق وضع حدا للأزمة بسرعة غريبة . ورغم أن الاتحاد عرض على الولايات فرض تسوية شاملة على الصراع المحلى فى المنطقة بقوتيهما المشتركة وإلا فبقوته المنفردة داخل الوفاق ، فقد كان هذا وحده كفيلا برفض الولايات على الفور وانفرادها بفرض التسوية الديبلوماسية وحدها ولحسابها وبشروطها .

وهكذا ، فى ظل الوفاق ، تم إخراج السوفيت من التسوية مثلما تم إخراجهم من قبل من المنطقة . وهكذا أيضا ، فى ظل الوفاق أو من وراء ظهره ، تم تمييع ، ولا نقول تضييع ، الموقف فى المنطقة ، فجاءت نتائج المعركة السياسية دون مقياسها العسكرى إلى أقصى حد ، فاترة فطيرة بقدر لهيب الميدان وهول المعركة ، بحيث اتسمت الحرب على الجملة بعدم الحسم فى دورها وأثرها التاريخى إن لم يكن بالسلب المطلق .

السبعينـات المتأخـرة : المـد السـوفيتى

قد تكون هذه ، أكثر من أى مرحلة سابقة ، هى مرحلة التفوق السوفيتى سياسيا وعسكريا خارج كل جدال بل وباعتراف الغريم الأمريكى علنا وبإلحاح . فلئن كان السوفيت قد خرجوا من المرحلة السابقة وقد فقدوا مواقعهم فى أهم مراكز العالم العربى والشرق الأوسط ولم يبق لهم موطئ قدم إلا فى أقلها عددا وقيمة ، بينما وضع الأمريكان أقدامهم فى حذائهم الواسع القديم وأصبح معظم المنطقة فى جيبهم ، فإن السوفيت عوضوا بنجاحات محققة ونشاطات مؤثرة فى المنطقة وما حولها ، إضافة أيضا إلى أفريقيا والشرق الأوسط بل وكذلك الكاريبى وأمريكا الوسطى .

فمن جهة بدأ الاتحاد بعملية تطويق للشرق الأوسط بنطاقات وأحزمة فى أفريقيا تمتد من البحر المتوسط (ليبيا) إلى القرن الأفريقى (إثيوبيا) وجنوب الجزيرة العربية (اليمن الجنوبية) ، مع ألسنة وامتدادات هنا وهناك فى أفريقيا الجنوبية (أنجولا وموزمبيق) ... الخ . ومن جهة أخرى وأخطر ، وفى الوقت الذى سقطت فيه إيران بكل ما تعنى من السلة الأمريكية تاركة « فراغا » خطرا فى منطقة الخليج البترولية ، سقطت أفغانستان فى قبضة الاتحاد حيث تمدد فيها تمددا أرضيا مباشرا يؤكد ويكرر قاعدة توسعه القارى التقليدى الملاصق contiguous . غير أنه هذه المرة يقترب بشدة من المياه الدافئة والهندى

والخليج الذى أصبح مهددا مباشرة لأول مرة أيضا . وهكذا ففى مجمل الحساب إذا كان السوفيت قد فقدوا غرب الشرق الأوسط للأمريكيين ، فقد فقد هؤلاء شرقه لهم . والحساب إذن مصفى مسوى على الأقل ، هذه مقابل تلك .

هذا على الجانب السياسى ، أما على الجانب العسكرى فلأول مرة فى العصر النووى تعلن أمريكا بفزع شديد يكاد يكون هيستيريا تفوق السوفيت لا فى التسليح التقليدى فقط ولكن أيضا فى التسليح النووى . فلا يكاد يمضى يوم على امتداد السنوات الأخيرة وحتى اليوم إلا وتحذّر القيادة الأمريكية أو المختصون من هذا الاختلال النووى الاستراتيجى الجسيم الذى يهدد الأمن القومى فى الصميم والأمن العالمى من بعده . وكان آخر ما أعلنه الرئيس الأمريكى بنفسه فى هذا الصدد (ريجان) هو أن السوفيت متفوقون على الولايات فى الصواريخ النووية ، بينما كان آخر ما أعلنه الكرملين أنه واثق من النصر فى أية حرب نووية تنشب مع أمريكا . وفيما عدا هذا فلا يمضى عام إلا وتزداد ميزانية الانفاق العسكرى الأمريكى زيادة رهيبة لإصلاح هذا الخلل وإعادته إلى التوازن أو لقلبه لإعادته من جديد لصالح أمريكا .

وتفسر أمريكا هذا الانقلاب الخطر فى الميزان النووى بأن الاتحاد نجح فى استغلال الوفاق واتفاقيات الحد من التسلح النووى فى توسيع الفجوة النووية لصالحه . ولهذا عادت أمريكا تنظر إلى الوفاق على أنه « سياسة فاشلة » و « صفقة خاسرة » و « لعبة قذرة » تمت على حسابها ولصالح الاتحاد السوفيتى الذى بات « يمثل أكبر خطر عليها طوال تاريخها » . هذا بينما يصر الأخير على أنه لا بديل عن التعايش السلمى والوفاق ، وألاّ مكان للحرب الباردة وسباق التسلح فى المستقبل ، حيث أنه لا غالب ولا منتصر فى الحرب النووية .

وفى الأثناء ، ماتزال المساومات الحادة المعقدة والمفاوضات المتصلة المتقطعة بين القطبين مستمرة بشأن نشر ، أو إعادة نشر ، أو تجميد نشر ، شبكات الصواريخ على كلا الجانبين ، أو للتخفض المتبادل للترسانات النووية وغير النووية كما وكيفا لكلا الطرفين فى أوربا الغربية والشرقية ، لكن دون جدوى فيما يبدو أو كمناورات دعائية أو خداعية على الأرجح . وما يزال السباق النووى مستمرا ، ولكن بصورة محمومة أكثر من أى وقت مضى .

فأما عن الترسانة النووية نفسها ، فإن الصورة معقدة تكنولوجيا واستراتيجيا أكثر من أى وقت مضى . فإلى جانب تصاعد وتطور وتحديث الترسانة القائمة والمتعاظمة باستمرار ، طرأ قادمون أو ضيوف جدد لا يقلون خطرا وأبعادا . فعدا القاذفات النووية الجبارة ، ظهرت الصواريخ متعددة الرؤوس النووية (ميرف) ، كما تعاقبت أجيال الصواريخ النووية متعددة الأبعاد ، ابتداء من الصواريخ التكتيكية الميدانية ، إلى الصواريخ متوسطة المدى التى تغطى داخل القارة الواحدة ، إلى الصواريخ عابرة القارات التى تعبر من قارة إلى قارة عبر المحيط الواحد ... الخ . وكما أن الغواصات النووية لا تكف عن التجول والحركة السرية السريعة بين مكامنها تحت البحار والمحيطات كإجراء أمن مستمر ضد خطر الضربة الأولى ، فكذلك أصبحت لقواعد الصواريخ الأرضية شبكات صوامع عديدة عميقة تحت الأرض تتنقل بينها سرا وباستمرار كنوع من الخداع والتمويه وإرباكا للعدو وكذلك إحباطا جزئيا على الأقل لمباغتته .

كذلك فإلى جانب القنبلة الذرية والهيدروجينية ، استجدت قنبلة النيوترون التى تبيد البشر ولكن لا تدمر المبانى ، وبذلك تصلح تكتيكيا لميدان المعركة بعامة واستراتيجيا لمعركة أوربا بخاصة باعتبار أن هذه الأخيرة هى المجال الأساسى الحتمى أو الافتتاحى على الأقل لأى حرب نووية بين العملاقين . وإذا كانت هذه القنبلة تأتى فى كشف الحساب فى خانة أمريكا ، فإن المقول إن السوفيت يملكونها أو على الأقل يملكون سرها هم الآخرون .

ثم هناك أخيرا وليس آخرا الأقمار الصناعية ، جواسيس الفضاء الجدد ، وربما أيضا قواعد الفضاء الدوارة أبدا . فمع أشعة الليزر ، تطور عن الأقمار الصناعية نقيضها الأقمار المضادة للأقمار الصناعية التى تقتلها فى الجو anti-satellite satellites (على غرار الصواريخ المضادة للصواريخ) . وهكذا انتقلت المعركة خطوة أخرى إلى أعلى : من الغلاف الجوى إلى الفضاء الخارجى ، من الغلاف الغازى الأتموسفير إلى الاستراتوسفير ، أو من atmostrategy إلى stratostrategy . لقد اكتملت بحق عناصر حرب الفضاء .

الميزانية النووية

أما إذا انتقلنا أخيرا من الكيف والنوع إلى الكم والحجم ، فإن لدينا من المعلومات

المتاحة المنشورة حديثا مايؤلف ميزانية نووية مقارنة للقوتين الأعظم كما تبدو سنة ١٩٨٢ ،[١] مع ملاحظة أنها تقديرية تقريبية أولا وغير قاطعة أو وثيقة لاعتبارات أمنية مفهومة ثانيا . والأحجى أن نعتبرها اجتهادية على الأفضل ، خداعية على الأرجح ، ولكن لعلها تظل مؤشرات ميسورة ودالة .

فالمقدر ابتداء أن الاتحاد يتفوق على الولايات فى عدد كل من الصواريخ عابرة القارات (١٤٠٠ مقابل ١٠٥٠) وعدد رؤوسها النووية المحمولة (٥٥٥٠ مقابل ٢١٥٠) أى بنسبة الضعف تقريبا . لكن الولايات ، بالمقابل ، تتفوق على الاتحاد فى عدد القاذفات النووية الاستراتيجية بنسبة الضعف ، وفى حمولتها من القنابل النووية بنسبة عشرة الأمثال . غير أنه يبقى أن نتذكر أن قدرة الصواريخ عابرة القارات على اختراق دفاعات العدو أكبر من قدرة القاذفات الاستراتيجية . هذا أول .

ثم إن هناك ، ثانيا ، فارقا جذريا فى الموقع أو التوزيع الجغرافى بين كل من الصواريخ والقاذفات الأمريكية والسوفيتية . فنحو ربع القوة النووية الأمريكية فقط هو الذى يوجد فى القواعد الصاروخية الأرضية ، أما الباقى أى ثلاثة الأرباع فموزع بين الغواصات النووية فى الأعماق والقاذفات الاستراتيجية المحلقة فى الجو . أما الاتحاد فإن الطابع الغالب عليه هو ، كالمعتاد ، الطابع الأرضى ، إذ أن ٧٠٪ من قوته النووية موجود فى قواعد أرضية ، والباقى فقط هو الموزع بين البحر والجو . وهذا الفارق يعطى الميزة والمرونة المحققة للجانب الأمريكى بطبيعة الحال .

لكن أخشى ما تخشاه الولايات بعد ذلك هو الضربة الأولى ، إذ لو انتزع السوفيت المبادأة بها فإنها ستدمر نحو ٩٥٪ من قواعد الصواريخ الأرضية الأمريكية ، وإن شكك البعض فى أن تصل دقة تصويب وإصابة الصواريخ النووية السوفيتية إلى هذا الحد فعلا . ولكن حتى لو صح ذلك التقدير ، فسيبقى للأمريكيين ثلاثة أرباع قوتهم النووية للرد بالضربة الثانية .

أما إذا أراد السوفيت توجيه الضربة الأولى إلى جميع عناصر ومكونات القوة النووية الأمريكية ، فإن عليهم أن يستخدموا غواصاتهم النووية فى ضرب القاذفات الاستراتيجية الأمريكية فى نفس الوقت . غير أن هذه القاذفات الأخيرة قادرة على

---

(١) Newsweek, 17 April 1982.

تفادى الصواريخ السوفيتية رغم ضعف قدرتها على اختراق دفاعات السوفيت الجوية ، وسيظل ما ينجو منها قادرا على الرد .

أما عن الغواصات الأمريكية ، التى هى أقل عددا من الغواصات السوفيتية ولكنها تحمل ضعف حمولة الأخيرة من الرؤوس النووية ، فإن كل صاروخ مركب عليها قادر على تدمير مدينة سوفيتية متوسطة الحجم ، إلا أنه غير قادر تقريبا على إصابة مواقع الصواريخ السوفيتية عابرة القارات . ولهذا فإن المشكلة هى أنها إذا اقتصرت على قصف المدن السوفيتية ، فإن المدن الأمريكية ستتعرض هى الأخرى لقصف مضاد مماثل . وهذا فى التحليل الأخير هو المأزق الذى يواجهه صانع القرار أو قرار الحرب الأمريكى .

فالمقدر أن ما قد ينجو ويتبقى لأمريكا من الضربة السوفيتية الأولى هو نحو ١٠٠ طائرة قاذفة تحمل نحو ٢٠٠٠ رأس نووية كافية لتدمير كل ما سيتبقى للسوفيت من صواريخ عابرة فى صوامعها على الأرض . غير أن هذه الطائرات تحتاج إلى ١٠ ساعات للوصول إلى أهدافها فى الاتحاد السوفيتى . وهذا يعطى فرصة كافية للسوفيت ، فى لحظة اليأس الأخيرة ، لإطلاق ما تبقى من صواريخ عابرة للقارات على المدن الأمريكية ، حيث سيكون قد تم تدمير معظم الأهداف العسكرية . وهكذا فإن خطر الاضطرار إلى ضرب المدن والأهداف المدنية لكلا الجانبين ، أى قدرة الطرفين على تدمير المراكز السكانية للطرف الآخر ، هى الضابط الأخير للخيار . وهذا فى الواقع ، كما نعلم ، هو وحده الذى حفظ التوازن أو الجمود النووى بينهما طوال العقد الأخير .

ولكن حتى هذا الضابط أصبح معرضا فيما يبدو للاهتزاز ولا نقول للانهيار . ذلك أن آخر ما توصل إليه الطرفان هو الدفاع المدنى ، وعليه التركيز كله الآن . فالمقدر أن خسائر أمريكا فى حرب نووية مفاجئة قد تبلغ ١٣٩ مليون نسمة (من ٢٣١ مليونا بنسبة ٦٠ ٪ تقريبا) ، تنخفض إلى ٤٩ مليونا فقط (بنسبة ٢١ ٪) إذا توفرت مسبقا خطط الدفاع المدنى الكامل بما فى ذلك التهجير من المدن إلى الأرياف . وعلى الجانب السوفيتى فإن المقول أنه يمتلك دفاعا مدنيا كاملا إلى حد يضمن معه النصر فى جميع الأحوال . وهكذا نرى أنه حتى الضابط الأخير الذى يكبح جماح الصدام النووى أصبح موضع شك وتساؤل .

وهذا يقودنا إلى ما يعد أخطر وأحرج مرحلة فى تاريخ الصراع والتوازن النووى ، وهى مرحلة الثمانينات . فمن الواضح ابتداء أن هناك فجوة ، كوة أو هوة ، نووية بين

العملاقين هي ما يسمى اصطلاحا « بنافذة الخطر window of vulnerability » نجمت
عن التفوق الاستراتيجي السوفيتي نتيجة لتوصله إلى دقة مذهلة في تصويب الصواريخ
العابرة . ومعنى هذه النافذة باختصار أن في إمكانية السوفيت حاليا تدمير جميع مواقع
الصواريخ النووية الأمريكية الأرضية في ضربة واحدة أولى ، وذلك باستعمال جزء
صغير فقط من ترسانتهم النووية . فإذا ما رد الأمريكيون من قاذفاتهم وغواصاتهم التي لا
تستطيع أن تنالها الصواريخ السوفيتية الأرضية ، فإنما يمكنهم ذلك ، فإن ذلك يعرض
المدن الأمريكية للانتقام مباشرة مما يرفع عدد الضحايا المحتملين من ٢٠ مليونا إلى نحو
١٥٠ مليونا . وفي النهاية فإنه لن يمنع السوفيت من ابتلاع أيما منطقة من العالم أرادوا أو
بقيت . وبديهي أن هذه النافذة المفتوحة التي تعطي ميزة الضربة الأولى والثانية معا
للسوفيت ، تمنحهم أيضا ثقة كاملة في المواجهة التقليدية ، وبالتالي في صراع الإرادات
عمومًا .

غير أنه يبقى علينا أن نضيف أن هذه النافذة المفتوحة ، نافذة الخطر ، سوف تغلق
نهائيا وبعنف حوالي ١٩٨٩ أي في نهاية الثمانينات ، وذلك حين تبدأ الولايات المتحدة
في نشر طرز جديدة فائقة التصويب والإصابة المطلقة من الصواريخ عابرة القارات سواء
في القواعد الأرضية أو الغواصات المحيطية . ذلك أن خطط التسليح الأمريكية لعقد
الثمانينات ستعيد التفوق الاستراتيجي للولايات في نهايته بحيث سينقلب الميزان تماما بين
عشية وضحاها ، إذ ستصبح جميع مواقع وصوامع الصواريخ السوفيتية الأرضية بلا
استثناء معرضة لضربة أمريكية أولى مدمرة تماما بالإضافة إلى ضربة انتقامية ثانية ماحقة
من غواصاتها المحيطية .

هذا ، والمقدر أن حجم الترسانة النووية لدى كلا الطرفين سوف يتضاعف في نهاية
الثمانينات (ما لم يتفق على تحديده) . ولكن مشكلة الولايات ستكون البحث عن قواعد
أرضية جديدة آمنة في أراضي حلفائها الذين بدأوا يرفضون ذلك بشدة . أما مشكلة
الاتحاد فسوف تكون الاتجاه إلى التركيز على الغواصات النووية والتوسع فيها أساسا ،
وهو ميدان يستدعي إنفاقات هائلة فضلا عن أن للولايات السبق والتفوق فيه من
البداية .

وها هنا فورا يثور السؤال الحرج بصدد رد فعل الاتحاد : أيؤدي إدراكه لإمكان
فقده عن قريب لتفوقه الاستراتيجي الراهن إلى المبادرة باستغلال هذا التفوق ؟ أيبادر ،
يعني ، إلى أن يتغدى بالولايات قبل أن تتعشى به ، أم ماذا ؟ ماذا ينتظر ؟ ...

الخ . [1] إن الاغراء واضح جدا ، والاحتمال وارد أيضا ، والوضع كله يذكر ، ولكن بالمقلوب ، بتلك المرحلة الحرجة فى أواخر الأربعينات حين كانت الولايات المتحدة تنفرد دون الاتحاد السوفيتى بالقنبلة الذرية بكل ما يعنى ذلك من اغراءات الهجوم الوقائى ، وذلك طبعا مع الفارق بل الفوارق الهائلة بين فجر العصر النووى وقمته ، فضلا عن تعاظم الرهان وتصاعده خارج كل مقارنة . ويزداد التشابه والخطر ، رغم انقلاب التوازنات الأساسية ، إذا تذكرنا أعراض العودة الأمريكية فى الثمانينات (ريجان) إلى سياسة التشدد والتحرش وحافة الحرب الباردة فى الخمسينات (دلز) .

التنبؤ طبعا مستحيل ، ولكن فى الأثناء فإن هذا الوضع بكل جوانبه واحتمالاته هو الذى يحدد موقف الغريمين فى محادثات الحد من الأسلحة النووية ، من « سولت » إلى « ستارت » . فالاقتراح الأمريكى التقليدى هو الخفض المتبادل لعدد الصواريخ العابرة الأرضية القواعد بمقدار الثلث لكلا الطرفين ، وبذلك يجرد الاتحاد من بعض تفوقه الأكثر خطورة ومباشرة . ولكن الاتحاد يرفض بالطبع ، على أساس أن هذا التفوق فى الصواريخ الأرضية الفائقة التصويب هو الرد الوحيد على التفوق الأمريكى فى القاذفات والغواصات ، والاقتراح الأمريكى يقلب ببساطة كفة التوازن لصالح الولايات . ولهذا كان الاقتراح السوفيتى المضاد هو تقليديا التجميد الفورى للترسانة النووية لكلا الطرفين والابقاء عليها كما هى « as is » دون إضافة أو نشر المزيد من الصواريخ أو القاذفات ... الخ .

من هذا كله يبدو جليا كم تعقدت طبيعة العملية ، مثلما تعددت آفاق وأدوات المعركة إلى أقصى حد ، حتى بات التنبؤ بصورتها وشكلها أمرا بالغ الصعوبة ، وحتى بات حتما أن يترك التخطيط العسكرى هامشا معلوما أو غير معلوم لحتمية الارتجال والاجتهاد أثناء القتال نفسه وتبعا لضروراته ومفاجآته . ولهذا فإن الآراء والأحكام والخطط ، والخطط البدائل ، والخطط المضادة ، والخطط المستقبلية ، أصبحت اليوم أكثر تعددا وتضاربا وكذلك اضطرابا وعدم تحديد منها فى المراحل السابقة .

ولكننا نستطيع بصفة عامة أن نقول إن التركيز كله ، بعد أن انتقل فى السابق من انتزاع واحتكار الضربة الأولى إلى ضمان وتأمين الضربة الثانية ، أصبح الآن على ضمان الضربتين معا . محور الاستراتيجية النووية اليوم وفى أعلى مراحلها هو ببساطة الجمع بين

---

(١) "East-West struggle", Economist, op. cit., p. 44-5.

الضربتين واستقطابهما فى آن واحد ، كل طرف من وجهة نظره وفى جانبه بالطبع ، إن لم نقل والضربة الثالثة من بعدهما أيضا . ذلك اليوم قمة الأمن النووى .

مغـزى التطـور النـووى

ولكن ، حسنا ، هل هناك حقا أمن نووى أصلا ؟ للإجابة ، لنعد قراءة مراحل التوازن السابقة قراءة مقارنة تركيبية عريضة وصولا إلى الانتهاءات العامة والأحكام الكلية . وثمة على الأقل أربع تعميات أو نتائج تتداعى منطقيا وتدعو إلى التفكير مليا ، ويمكن أن نحصرها ونعالجها تحت هذه العناوين : التوازن النووى ، التصاعد النووى ، الردع النووى ، السلام النووى .

التـوازن النـووى

فأولا ، مراحل التوازن النووى هى فى آن واحد مراحل قوة عسكرية استراتيجية ومراحل سياسة دولية . فرغم أنها تمثل أساسا توازنات القوة بين القطبين الأعظم والصراع بين الكتلتين السائدتين ، إلا أنها تغطى تلقائيا كل الصراعات المحلية والمشكلات الاقليمية . فما من حدث سياسى أو عسكرى ، سلمى أو حربى ، يقع اليوم فى أى منطقة من العالم بين أصغر الدول ، إلا ويقع داخل إطار الاستقطاب الثنائى إلى حد أو آخر ، يتأثر بدرجة ما بتوجيهه وضغوطه ، ويخضع كثيرا أو قليلا لأحكامه وحدوده وضوابطه ، ويكاد فى النهاية يتقولب بقالبه ويتحدد به مصيرًا ونتائج .

ونحن نستطيع ، كما فعلنا فى دراستنا السابقة فى الواقع ، أن « نركّبْ » كل صراعات ونزاعات وأحداث العالم فى منحنى التوازن النووى بمراحله المختلفة ، وأن نجد مفتاحها الأخير فى معادلته السائدة . وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على وحدة السياسة الدولية شبه التامة فى العصر النووى . لقد أصبحت السياسة والاستراتيجية فيه لا انفصال لها البتة ، وأصبح العالم كله وحدة صراعية واحدة أكثر مما كان فى أى وقت مضى ، تماما مثلما أصبح وحدة حضارية حياتية واحدة أو ما يسميه البعض بظاهرة « globalisation of the world »[١] .

---

(١) Anouar Abdel-Malek, Nation & revolution, Lond., 1981, p. 181-2.

ثانيا ، التصاعد والتصعيد المستمر هو النغمة الأساسية فى الخط البيانى لمراحل التوازن النووى . فمن مرحلة إلى أخرى ، ومع تطور الأسلحة النووية الفائق - يزداد حجم الصراع والتحدى والخطر . وسباق الأسلحة والتسلح مباراة رهيبة متسارعة تنمو ككرة الثلج ، إلا أنها كرة نووية جهنمية يتقاذفها الطرفان فيما بينهما فى لعبة خطرة هى من ثم كلعبة الموت . فكما فى كل التاريخ العسكرى ، وليس العصر النووى باستثناء ، لكل سلاح نقيضه ومصله المضاد . فما من سلاح نووى يتوصل إليه أحد الطرفين اليوم إلا ويلحق به الطرف الآخر إن عاجلا أو آجلا .

وهكذا هى من ثم ، فيما يبدو ، الدورة الاستراتيجية فى العصر النووى : سبق مؤقت هنا ينسخ التوازن ، لا يلبث أن يعقبه سبق هناك ينسخه بدوره ويعيد التوازن ولكن على مستوى أعلى وأشد خطرا ، أى كالحلقة المفرغة أو اللولب الزنبركى الصاعد أبدا spiral ، ثم تبدأ الدورة من جديد ... الخ . فكما رأينا ، بدأت المراحل الأربع باحتكار نووى مطلق لأحد الجانبين وانتهت بشبه تعادل أو تقارب بينهما أقل اختلالا ولكنه أشد هولا ، وفيما بين البداية والنهاية تناوب الجانبان التفوق أو التخلف والسبق أو التأخر بدرجة أو بأخرى .

وفى هذا التصاعد المتسارع المتعاظم أبدًا ، ثمة عامل أولى بسيط ولكنه مسيطر ، يضاعف العملية بمعدل الربح المركب فى الاتجاهين بل فى جميع الاتجاهات . هذا الضابط هو التعارض الأساسى الكامن فى كلا المعسكرين بين القوة البشرية التقليدية وبين القدرة التكنولوجية المتطورة ، أو بصيغة أخرى بين الكم والكيف : الكم للشرق ، والكيف للغرب . فإذا نحن رسمنا قطاعا عرضيا عبر أوراسيا برمتها من أقصى الغرب فى بريطانيا إلى أقصى الشرق فى الصين ، فسنجد بصفة عامة وكقاعدة عريضة أن حجم وكثافة الجيوش البرية والأسلحة التقليدية تزداد نسبيا و/ أو حقيقيا كلما اتجهنا من الغرب إلى الشرق . وعلى سبيل المثال ، فإن المقدر حاليا أن إنتاج الاتحاد السوفيتى من الأسلحة التقليدية يعادل مجموع إنتاجها فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية معا .

ويرجع هذا ، من بين ما يرجع إليه ، إلى عامل السكان والكثافة . ويكفى فى هذا أن تقارن على التوالى بين أوربا الغربية والشرقية ، ثم بين أوربا الشرقية والروسيا الأوربية ، ثم بين هذه الأخيرة والصين . وعلى العكس من هذا يزداد التركيز ويشتد على

قوة السلاح وتفوقه التكنولوجى ، بالضرورة وللتعويض الحتمى ، كلما اتجهنا من الشرق إلى الغرب . ويرتبط هذا بدوره جزئيا بتفوق الغرب العلمى والتكنولوجى وسبقه المعروف منذ الانقلاب الصناعى على الأقل .

وجماع هذا كله ومحصلته ينعكس بوضوح تام فى استراتيجية كل من حلف الأطلنطى وحلف وارسو . فدول أوربا الغربية أقل بكثير من دول شرق أوربا خاصة الاتحاد السوفيتى فى أعداد وأحجام جيوشها البرية ، وكذلك فى تسليحها التقليدى بالتالى بما فى ذلك المدرعات والدبابات والمدفعية ... الخ . ولئن بدا من الجدول المرفق أدناه أن حلف الأطلنطى يتفوق عدديا على حلف وارسو فى حجم القوات المسلحة ، فذلك لأنها تضم عنده قطاعا أكبر من القوات غير المحاربة ، كما أن حلف وارسو يتفوق فى الدبابات بنسبة ١,٥ : ١ تقريبا .

أضف إلى ذلك أن تفوق حلف وارسو التقليدى يصل إلى قمته على جبهة الألمانيتين بالتحديد حيث سيتحدد مصير العالم فى أية حرب شاملة قادمة . فهنا تتركز قوات حلف وارسو أكثر ، بحيث يصل تفوقه على حلف الأطلنطى فى أعداد القوات المسلحة إلى نسبة ١,٤ : ١ ، وفى أعداد الدبابات إلى نسبة ٢,٥ : ١ تقريبا . ورغم أن حلف وارسو لا يملك بالطبع التفوق العددى الذى يوفر النسبة المقررة لضمان النصر فى أى معركة هجومية وهى نسبة ٣ : ١ ، فإنه يمكنه بالتخطيط الذكى أن يحقق هذه النسبة بالتركيز عند نقطة الهجوم نفسها .

كذلك فلأن الاتحاد السوفيتى فى داخل أوربا جغرافيا ، فإن التعزيزات يمكن أن تتدفق على قوات حلف وارسو مباشرة ، فى حين يتعين على التعزيزات الأمريكية أن تعبر ٣٠٠٠ ميل عبر الأطلسى . ومحصلة هذا كله أن الاتحاد وحلفه قد يمكن أن يحقق الاختراق الكامل ويكسب الحرب فى بضعة أيام أو أسابيع ، وذلك كما يقدر ويعترف وينذر ويحذر قادة حلف الأطلنطى وجنرالاته أنفسهم بانتظام وإلحاح .

ورغم أن هذه النتيجة تتوقف كثيرا على السلاح الجوى ، فإن الموقف هنا معقد نوعا . فالشرق يتفوق فى عدد الطائرات الدفاعية والاعتراضية ، ولكن الغرب متفوق فى عدد الطائرات الهجومية . ومن الناحية الأخرى ، فإذا كان الشرق يتفوق فى عدد طائرات الجبهة ، فإن حلف وارسو ما زال يتداول أنواعا متخلفة عتيقة من الطائرات ، فى حين تتفوق طائرات الغرب الحديثة فى النوعية تفوقا جسيما[١] .

---

(١) "East-West struggle", op. cit., p. 45-6.

وهكذا على الجملة يبدو أن حلف الأطلنطى قد لا يصمد طويلا فى حرب تقليدية مع حلف وارسو . ورغم أن البعض فى الغرب نفسه يتحفظ أو يتشكك فى صحة هذه المقولة باعتبارها مبالغة غربية مقصودة دعائيا ، فإن المفهوم الشائع هو أن التفوق التكنولوجى المطلق هو شرط الصمود والبقاء بالنسبة إلى حلف الأطلنطى ، والبديل الوحيد وأداة التعويض والتعادل الحتمية عن ضآلة جيوشه وقواته التقليدية النسبية . ولما كانت الأسلحة النووية هى قمة التفوق التكنولوجى خارج كل حدود ، فقد أصبحت استراتيجية الغرب نووية بالدرجة الأولى وأصبح التفوق النووى هو هدفه بأى ثمن . إلا أن هذا يدفع المعسكر الشرقى بالضرورة إلى التفوق النووى المضاد خشية الضياع التام ، فيضاعف من ثم من تسليحه النووى بل والتقليدى على السواء . فلا يجد الجانب الغربى بدوره مفرا من المزايدة من جديد ، وهكذا تستمر المزايدة جيئة وذهابا إلى ما لا نهاية والتصاعد مطردا حتى السماء . إن الحجم ــ فى المجال النووى كما فى مجال الحياة ــ يولّد الحجم ، والخطر النووى يضاعف الخطر النووى . إنه قانون السلم الصاعد الدوار escalator.

تقديرات القوات التقليدية

عدد القوات المسلحة بالألف	الناتو	وارسو	الصين
سنة ١٩٧١	٥٥٨٥	٤٢٠٢	٢٨٨٠
سنة ١٩٨١	٤٩٩٤	٤٧٨٨	٤٧٥٠
عدد الطائرات الهجومية	٢٣٠٠	١٨٠٠	؟
عدد الطائرات الدفاعية والاعتراضية	٨٠٠	٢١٠٠	؟
عدد طائرات الجبهة	٦٠٠٠	٧٠٠٠	؟

تقديرات القدرات النووية

السلاح	الناتو	وارسو	الصين
عدد الرؤوس النووية	٧٢٢٤	٦٦٦٤	١١٩ ــ ١٣٩
القاذفات المقاتلة متوسطة المدى	١٠٥٠	٢٣٤٥	؟
عدد القاذفات بعيدة المدى	٣٧٦	١٥٠	٩٠

ثالثا ، الردع النووى هو أساس التوازن النووى ، والتوازن النووى هو وحده الرادع الحقيقى عن العدوان . أما متى وكيف يمكن لهذا التوازن المروع أن يختل بحيث يعطى أحد الطرفين ميزة الانقضاض بلا خوف من ردع ، فذلك فى حالة واحدة ، ليست هى زيادة فاعلية أو رصيد السلاح النووى ، فإن هذا قد وصل من قبل إلى درجة ما فوق التشبع من حيث قوة التدمير . وإنما حين يصل أحد الطرفين إلى سلاح دفاعى محقق ضد خطر الهجوم النووى ، هى تلك الحالة . فتفوق أحد الطرفين على الآخر فى الدفاعات النووية يهز التوازن الدقيق ويخلق إغراءات الهجوم أو إمكانيات الصدام .

أى أن التفوق اليوم ليس لمن يملك الهجوم وحده ، وإنما هو لمن يملك الهجوم والدفاع معا ، والاغراء بالهجوم لن يتحدد بمن يضمن هجوما أقوى بل بمن يضمن دفاعا أكمل . وتلك بالدقة كانت سيكولوجية وميكانيزم كثير من مراحل التطور السابقة بكل أخطارها ومحاذيرها الفادحة .

غير أنه فى وسط ذلك السباق التكنولوجى العرم المفعم وصل التصاعد إلى حد السقف والتوازن إلى حد التشبع . فبعد أن امتلك كلا الطرفين قدرة الضربة الأولى والثانية أصبح الموقف كله فى المرحلة الأخيرة والوقت الراهن أشبه بمبارزات الغدارات فى الماضى حين كانت الطلقتان تتزامنان بالصدفة فتردى الطرفين معا ، إلا أنه لا صدفة هنا اليوم وإنما هو حساب مكتوب وقدر محتوم .

وفى كلمة واحدة : إن التوازن النووى الراهن هو حكم إعدام مع إيقاف التنفيذ ، أما إذا نفذ فهو انتحار متبادل للجانبين . وإذا صح فى الماضى أن « الويل للمغلوب » ، فالصحيح الآن فى العصر النووى أنه ويل للغالب كالمغلوب ، بل الأصح أنه لا غالب ومغلوب ولا قاتل وقتيل وإنما قتيل ومقتول . وبعبارة أخرى ، إنه ليس ثمة شىء كنصر فى الحرب النووية الشاملة .

وفى هذا المعنى ، ومن موقع المسئولية كوزير للدفاع الأمريكى يوما ما ، صرح روبرت ماكنمارا بلا لبس أو مواربة قائلا « لست أعتقد أننا سنحرز النصر بما تعنيه هذه الكلمة حقا ، إذ ستحدث الحرب فى تقديرى دمارا مروعا للولايات المتحدة ولطريقة حياتها التى قد تتغير فى اتجاه غير مرغوب فيه بتاتا . وذلك ما لا يمكننى أن أسميه بالنصر . أما إذا لم نلتزم بما تعنيه كلمة نصر ، فأستطيع إذن أن أقول إننا سننتصر ، إذ أن الدمار

الذى سيصيبهم والتغير الذى سيطرأ على حياتهم سيكون أبشع نسبيا من خسائرنا . ولعل هذا ما قد تسمونه بالنصر» .

وقد أكد الجنرال ماكسويل تيلور المعنى نفسه قائلا إن الحديث عن النصر فى حرب نووية حديث غير مفهوم أصلا ، ذلك أن الخسائر الفادحة التى ستصيب كلا الطرفين على حد سواء ستضع نهاية لوجودهما كقوتين عالميتين وتهوى بهما إلى مصاف الدول ذات الأهمية الثانوية أو ذات النفوذ الاقليمى المحدود[1] .

السـلام النـووى

رابعا ، التوازن النووى هو أساس السلام العالمى . فالرعب النووى هو وحده أساس السلام العالمى الراهن ، والسلام العالمى بدوره هو حالة شلل نووى فى جوهره . فلقد أدى الوعى بخطر السلاح النووى الماحق إلى حتمية الحرص على عدم استخدامه على الاطلاق ، وبالتالى إلى شل فاعليته عمليا وإلغاء وجوده وظيفيا . والواقع المشاهد عبر مراحل العصر النووى المتعاقبة أن هناك تناسبا عكسيا بين تطور الأسلحة النووية وبين امكانية استخدامها ، بمعنى أنه كلما زادت قوة وخطورة هذه الأسلحة التدميرية كلما زادت استحالة استعمالها أو قلت امكانية استعمالها .

والآن بعد أن أصبح التوازن والتكافؤ النووى بين العملاقين أكثر حدة ودقة من حد السيف والفارق بينهما أوهى من خيط العنكبوت ، فإن الجمود النووى nuclear stalemate قد وصل إلى حد الشلل المطلق لا أقل . وبذلك أصبح السلاح النووى سلاحا سياسيا أساسا أكثر منه سلاحا عسكريا ، أصبحت قوته تكمن ــ يعنى ــ فى مجرد امتلاكه لا فى استخدامه .

غير أن مثل هذا السلام الذى ينبع من الرعب النووى ويقوم على لعبة التعايش السلمى والتنافس السلمى والمباراة السلمية ... الخ إنما هو « السلام المراوغ » بعينه . فواقع الأمر أن السلام النووى يتألف كالبركان النائم من فترات متقطعة ومتعاقبة من الخطر الخامد المكبوت ثم من الخطر المنذر الماثل . والعالم بهذا يعيش على ، أو يتعايش مع ، بركان نووى نائم .

---

(١) مقتبسة فى : إسماعيل صبرى مقلد ، ص ٧٤ .

وها هنا ينشعب الرأى إلى نظريتين متعارضتين تماما . فالنظرية الأولى تذهب إلى أن الحرب النووية مستحيلة ، أصبحت مستحيلة ، على أساس أنه لا دفاع حقيقى مطلق أو رادع تماما ضد الصواريخ النووية مهما تطورت مضاداتها على الجانبين ، وأن الخطر النووى سيظل هو الخطر النووى ، وأن الردع النووى سيبقى أقرب دائما إلى التوازن النسبى منه إلى الانقلاب الجذرى لمصلحة أحد الطرفين . فالردع الشامل إذن مستحيل ، والممكن الوحيد هو الرد المرن . وعلى هذا فلا متنفس للصراع سوى الحروب المحدودة والتقليدية . والواقع ، حتى الآن على الأقل ، يقف فى جانب هذه النظرية .

أما النظرية المضادة فلا تستبعد الحرب النووية الشاملة ، إن لم تكن كحل انتحارى أخير للصراع عندما يلوح شبح الهزيمة أمام أحد الخصمين أو يستبد به اليأس القاتل أو حتى الخوف من أن يفقد ماء الوجه ، فبطريق الخطأ فى الحسابات أو فى التصرف أو التنفيذ ... الخ ، وهو ما يعرف بالحرب بطريق الصدفة أو الخطأ accidental war . وعلى هذا فإن السلام النووى إن هو فى حقيقته إلا هدنة نووية ، هدنة مسلحة نووية ، مهما طال . وتجربة التاريخ حتى الآن هى أن «كل سلاح وجد ليستعمل» ، وليس السلاح النووى باستثناء بالضرورة . وإذا كان أحد لا يريد أن يقيم القيامة النووية ، فإن البعض ما زال يؤمن بمبدأ «علىّ وعلى أعدائى» ... الخ . ولا مجال بالطبع للحكم هنا على هذه النظرية المتشائمة أو النظرة السوداوية المهلكة ، وكل ما يمكن أن يقال إن أحدا لا يتمنى إلا أن تكون خاطئة اليوم وغدا وإلى الأبد .

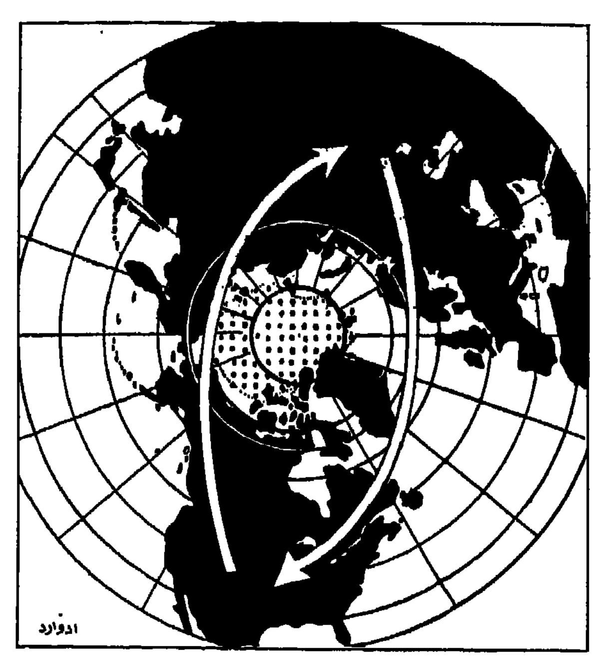
القوة فى العصر النووى

الآن فلئن اختلفت الآراء والتكهنات فى الحرب النووية وأشكالها واحتمالاتها ... الخ ، فإن ثمة شيئا واحدا مؤكد . فلا خلاف على أن العصر النووى قد قلب كل قوانين الاستراتيجية التقليدية وهزها حتى الصميم ، ولكن السؤال هو إلى أى حد ؟ هل هو ألغاها تماما ونهائيا أم نحاها جانبا ودفع بها من المقدمة إلى الخلفية ؟ لنعرض لضوابط ومقومات الاستراتيجية التقليدية من موقع وموضع لنرى انعكاسات الصراع النووى عليها ، وأى مغزى جديد يمكن أن تأخذ . ولنبدأ ذلك بالموقع .

الموقع الجغرافى

من المحقق أن الموقع الجغرافى هو أشد ما اهتز وارتج بالاستراتيجية النووية . وطالما

كانت قاذفات القنابل هى وسيلة توصيل القنبلة الذرية ، فربما صح أن الموقع لم يفقد كل قيمته ، فقد كان للمواقع المتقدمة والقريبة من العدو أو المحاصرة له ميزة واضحة . ولعل هذا يفسر قيمة القواعد العسكرية التى بثها الغرب حول الاتحاد السوفيتى على طول نطاق جبهة الارتطام ابتداء من اليابان حتى النرويج . كما أن هذا يفسر القيمة الاستراتيجية الضخمة التى كانت تعطيها الولايات المتحدة لألاسكا خاصة وكندا عامة باعتبارها ــ كجبهة قطبية ــ أقرب وأقصر طريق جوى إلى الاتحاد السوفيتى عبر المحيط المتجمد الشمالى الذى أصبح بجدارة البحر المتوسط القطبى . بل لقد ذهب أحد القادة الأمريكيين ــ الجنرال بيلى ميتشل ــ إلى حد القول بأن ألاسكا هى أهم منطقة استراتيجية فى عالم اليوم[1] . كما أن ذلك جميعا يفسر شبكات الرادار الكثيفة المتتالية كقرون



شكل (٣٠) الطريق القطبي لا الأطلسي هو طريق الحرب الصاروخية ، فهو أقصر طريق بين العملاقين ، حتى أصبح البحر المتوسط القطبي بحق . لاحظ خطورة موقع كندا كخط دفاع أمامي للولايات .

(١) الجيوبولتيكا ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

استشعار ذرية ، وخطوط محطات الصواريخ المتتابعة خطا بعد خط على امتداد تلك الجبهات من الجانبين . والمغزى العام هو أن مركز الثقل الاستراتيجى انتقل إلى حد أو آخر من المحيط الأطلسى إلى المحيط المتجمد الشمالى .

ولكن الموقف لاشك قد تغير بدرجة أو بأخرى منذ الصواريخ الذرية وتطورها المتصل . فبالتدريج اتسع مدى الصواريخ التى اخترقت سرعتها حاجز الصوت حتى بات من المفهوم اليوم أن ليس على سطح الكرة الأرضية مكان لا تصله الصواريخ عابرة القارات من أى من الاتحاد السوفيتى أو الولايات المتحدة . وبعد أن عدت بعض هوامش العالم النائية مثل أفريقيا الجنوبية أو أفريقيا جنوب الصحراء وأستراليا من المعاقل الأخيرة ذات المناعة ضد الصواريخ[1] ، زالت هذه الميزة وأصبح القرب والبعد الجغرافى سيان . وفى نفس الوقت فقدت القواعد العسكرية الغربية المطوقة للاتحاد السوفيتى أغلب قيمتها إن لم يكن كلها ، ونسخ الاتحاد بصواريخه الحلقة النارية المضروبة حوله ، وانكمشت أهميتها لتصبح مجرد قواعد لقمع وكبت الحركات الوطنية فى بلادها .

والمعنى واضح للغاية : فإذا كان عصر الطيران التقليدى قد اختزل المسافة وضمر العالم وجعله نظاما مغلقا واحدا إلى درجة أن أصبحت الكرة الأرضية كلها أصغر « مساحة زمنية » من ولايات أمريكا الثلاث عشرة[2] ، فإن الصواريخ قد ألغت المسافة تماما وتضاغطت الكرة الأرضية من الوجهة العملية إلى مجرد « نقطة » تقاس كل أبعادها بالدقائق ليس إلا .

أبعد من هذا ، وبعد أن أصبحت الغواصات الذرية قواعد صاروخية برمائية أو تحت مائية رحالة أو بمثابة يابس متحرك أنى شاء أو « قارات » ميكروسكوبية طافية تجوب المحيط العالمى ، نكاد نقول إن الفارق بين الماء واليابس ـ من الوجهة الاستراتيجية بطبيعة الحال ـ قد عتم وتحايد حتى درجة التلاشى تقريبا . كذلك فكما توطنت الغواصات النووية إلى الأبد فى الغلاف المائى ، توطنت الأقمار الصناعية إلى ما لانهاية فى الغلاف الجوى . فكلاهما إذن أصبح سلاحا يقع خارج حدود المكان والزمان الأرضى سياسيا وعسكريا ، أى خارج حدود الرقعة الاقليمية للدولة . ومعنى ذلك

---

(١) Liddell Hart, "Africa or Middle East?", World Review, July 1946; Church, op. cit., p. 143-5.

(٢) مورجنتاو .

جميعا أنه لم يكد يصبح هناك موقع متوسط وموقع متطرف ، ونوشك مجازيا أن نضيف : ولم يعد هناك يابس وماء .

استراتيجيـة لامكانيـة

ومحصلة هذا وذاك أننا اليوم بإزاء استراتيجية ثورية جديدة تنقل الصراع من البر والبحر إلى الجو ، من الاستراتيجية الأرضية geostrategy إلى الاستراتيجية الغازية atmostrategy ، بل إلى الاستراتيجية الفضائية space strategy . وبالتالى تنقله من المرحلة الكوكبية global . إلى المرحلة الكواكبية Planetary لقد وصلنا إلى استراتيجية « لامكانية » معلقة فى فراغ ، وحروب بلا « تراب » تمور عليه وتفور ، تماما مثلما وصلت الزراعة العلمية الحديثة ، أو أوشكت ، إلى زراعة هوائية بلا تربة .

وبديهى أن هذا كله يتخطى المواقع الجغرافية التقليدية ويتجاهل خطوط التضاريس واللاندسكيب ويسقط عامل المسافة من الحساب . باختصار ، إن الاستراتيجية الذرية تبتعد كثيرا عن الجغرافيا وتقترب من الفلك ، وبذلك تتحرك فى متصل فضا ـ زمنى time-space continuum بعد أن كان الوسط التقليدى هو المنقطع البرمائى . إنها كالنسبية فى الفيزياء تنقل الأهمية الاستراتيجية من المكان إلى الزمان أو على أقل تقدير تجعل من الزمان البعد الرابع للمكان الاستراتيجى .

ماذا يبقى إذن من فكرة الموقع الجغرافى ؟ القليل قطعا وفى حدود معلومة . فالدول غير الذرية ـ وقد تضاءل وزنها كثيرا فى عالم القوة ـ هى وحدها التى سيكون عليها أن تفكر فى صيغة الاستراتيجية التقليدية القديمة . كما أن الحروب المحلية والصغيرة التى قد تمارسها الدول الاستعمارية ستظل تدور فى فلكها .

ولعل هذا وحده هو الذى يفسر تمسك الغرب بسياسة الأحلاف الدفاعية وسلسلة القواعد العسكرية التطويقية ، كما يفسر ، حتى قريب ، استماتة استعمار كالبريطانى ببقايا قواعده البحرية « شرق السويس » رغم أنها أصبحت بالية تماما فى عصر الذرة . ولكن هذا وذاك من الاعتبارات سيكون عنصرا متنحيا مرحليا باطراد حتى قد يصل يوما ما إلى نقطة الانقراض .

غير أنه يبقى للموقع الاستراتيجى بعد هذا قيمته على المستوى السلمى خارج الحروب ، أى فى المواصلات العادية اليومية والتجارة العالمية ، ولهذا فنحن حين

نتحدث عن نسخ العصر النووى للموقع الجغرافى فينبغى أن يكون مفهوما أننا نقصر هذا بوضوح على جانب الحرب والمعركة العسكرية ـ وهو الشذوذ ، بينما تظل فكرة الموقع سليمة لاتهتز فى مجال السلم والتجارة والمواصلات العادية ـ وهو القاعدة .

الموضــع

إذا كان هذا نصيب الموقع ، فماذا فعلت الثورة النووية بالموضع بما يعنى من حجم ومساحة وقوة بشرية ؟ لقد رأينا عبر التاريخ الحديث أن الأهمية انتقلت مع الصناعة من الموقع البارز الممتاز إلى الموضع الغنى الضخم ، ولكن السلاح النووى يجىء اليوم بدوره لينسخ الكثير من قيمة الموضع وليجعل « العلم » هو وريثه الجديد . كيف ؟

بديهى أن محو مساحة محدودة كبريطانيا بالحروب النووية أيسر من مسح كتلة ضخمة كالصين مثلا[1] . ولا يعنى هذا أن الدول المترامية الرقعة ستظل تتمتع بالدفاع بالعمق ، فقد ضاعت ميزة العمق الاستراتيجى ربما إلى الأبد ، ولكنه يعنى الحاجة إلى رصيد أكبر من القوة الذرية لتدميرها .

القــوة البشريــة

ومثل هذا يقال عن القوة البشرية . فالحرب النووية حرب إبادية رهيبة تحصد الملايين بنفس السهولة التى تحصد بها الحرب التقليدية الآلاف . وفى وقت مبكر مثل أواخر الستينات ، كان المقدر رسميا أن حربا نووية شاملة بين العملاقين النوويين قد يمكن أن تلتهم نحوا من مائة مليون (كذا !) من كلا الجانبين فى الضربات الأولى وحدها . وفى النتيجة ، فإنه لم يعد للجيوش البرية أو الميكانيكية الضخمة قيمة فعالة أو كبير خطر فى الاستراتيجية الجديدة ، إذ يمكن أن تسحق فى مكانها قبل أن تتحرك ، وإن تحركت قبل أن تسحق فهى ليست بمستطيعة أن تدخل ميدانا تلوث بالاشعاع الذرى القاتل ، ولو أنه لابد فى النهاية بعد أن يتبدد الاشعاع من أن تتقدم القوات الأرضية لتضع يدها على الأرض الخراب كما فعلت أمريكا فى اليابان بعد قنبلة هيروشيما .

وترتيبا على ذلك ، فإن البعض يتكهن بأن الدول الماموث سكانيا كالصين هى وحدها التى قد يمكن أن تأمل فى أن يتبقى لها بعد الحرب النووية بقية معقولة من

---

(١) المرجع السابق

السكان .. ومع ذلك فلا ننسى أن بالعالم رصيدا من السلاح النووى يكفى كما يقال لمحو العالم جميعا عدة مرات ! أى أن مساحة الدولة وحجم السكان مهما كانت فلن تجدى فى النهاية .

ومعنى ذلك أن آلة الحرب الجديدة وعدتها لم تعد الجيوش المجيشة بجحافلها الجرارة الضخمة وترساناتها الثقيلة الهائلة ، وإنما هى جهاز صغير مكثف أشبه بالأزرار السحرية القتالة ، يحرك العالم دون أن يتحرك من موضعه وينقل الجيوش دون أن ينتقل مكانيا . وإنها لمفارقة من التكنولوجيا مذهلة أن تصبح العمليات الحربية موضعيه إلى أدنى حد حين أصبحت الاستراتيجية كوكبية إلى أقصى حد .. وإنها لمفارقة أكبر أن قد وصلت تكنولوجيا الحرب إلى مرحلة يمكن ألا تتلاقى فيها الجيوش وجها لوجه ومع ذلك تبيد المدنيين بالجملة بعد أن كان من الممكن للجيوش قديما أن تتلاقى وتتقاتل دون أن يتأثر بها المدنيون تقريبا !

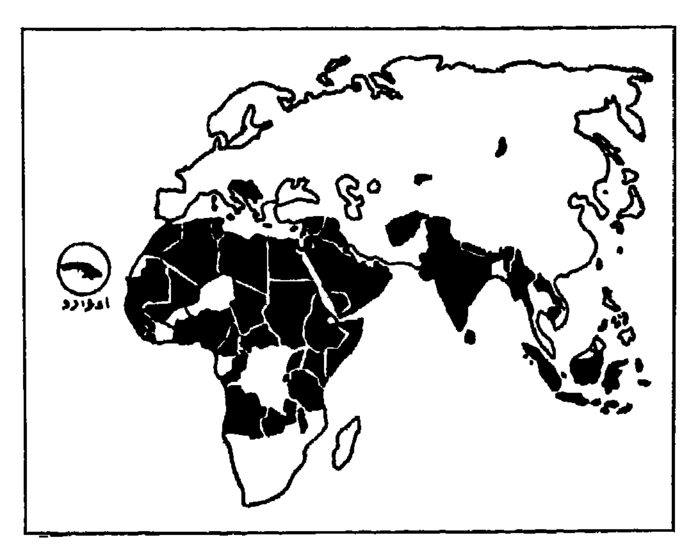
المـوارد الطبيعيـة

أما من حيث الموارد والطاقات ، فلقد أصابها العصر النووى هى الأخرى . فإن دولة صغيرة تملك القوة الذرية تعد اليوم أقوى من دولة ضخمة غنية لا تملكها . ومع ذلك ينبغى أن نستدرك فنقول إن الموارد الغنية شرط لازم لدخول العصر الذرى وتحقيق القدرة النووية ، ومن الملاحظ أن أغنى دولتين فى العالم هما أقدر دولتين ذريا ،كما أن أعضاء النادى الذرى حاليا هم من أغنى دول العالم بوجه عام . وهذا ما ينقلنا إلى الدرس الهام الذى تعلمه هذه التطوراتُ الثورية .

فمناط القوة الحديثة اليوم لم يعد يكمن فى الامتداد المساحى أو القوة العددية أو الموارد الاقتصادية الخام ، ولكن فى تحويل هذه العوامل جميعا إلى قمة العلم الحديث وأعنى بها تكنولوجيا الذرة والنواة . إن أركان الاستراتيجية الحديثة ومقوماتها لم تعد بعد الجغرافيا وحدها أو الاقتصاد من بعدها ، وإنما هى التكنولوجيا فى أعلى مراحلها . وبعبارة أخرى ، لقد انتقلنا من الاستراتيجية الجغرافية المألوفة أو الجيوستراتيجى إلى ما يمكن أن نسميه بالاستراتيجية التكنولوجية أو التكنوستراتيجى technostrategy .

فالعلم ــ والعلم القمى المطلق ــ هو الشكل الجديد للقوة . ومن يملك العلم النووى ــ أكثر من الأرض والسكان والموارد ــ يملك القوة الاستراتيجية ، وإن كانت الأرض والسكان والموارد هى بيقين من مقومات أو خامات ذلك العلم النووى الفيصل . فإذا

ماملكت دولتان قوة العلم النووية المتكافئة ، فقد يمكن حينئذ للفروق الطبيعية فى المساحة والسكان والموارد أن ترجح الميزان فى هذه الكفة أو تلك .



شكل (٣١) مجموعة دول عدم الانحياز ، ١٩٦٥ ، ٤٦ دولة اشتركت في مؤتمر القاهرة ١٩٦٤ ، عدا ١١ دولة مراقبة . كل المشتركين العاملين دول نامية أفرو أسيوية عدا يوغوسلافيا وكوبا

ماكينــدر والعصــر النــووى

وعند هذا الحد من المناقشة ، لابد أن يثور أو قد ثار فى الذهن سؤال : أين ماكيندر ونظرية الهارتلاند من كل هذا الانقلاب النووى الرهيب ؟أمن الممكن أن نركب الاستراتيجية الجديدة فى معادلته الثلاثية الخالدة قوة البر وقوة البحر ومنطقة الارتطام ؟ هل يجوز بعد اليوم أن نتنبأ مع ميهان وسبيكمان بأن النصر فى الصراع سيكون للقوى البحرية والسواحل ، أو مع راتزل وماكيندر بأنه سيكون للقوى البرية والقارية ؟ لا ، بل هل هناك اليوم قوى بر وبحر على الاطلاق تتباين تباين الأبيض والأسود ؟

من الصعب حقا أن نتفادى الانتهاء إلى أن الاستراتيجية النووية قد نسخت جوهر النظرية وقوضت أركانها . فقد « استقلت » الحرب أخيرا وفى النهاية عن سطح الأرض إلى حد بعيد ، « وارتقت » المعركة من مستوى الأرض لتحلق فى الفضاء ، ولم يعد

الصراع بين الحوت والفيل بينهما تمساح ، وإنما ــ لنقابل التشبيه بتشبيه مماثل ــ أصبح هو صراعا بين « النسر والصقر » ، بين جوارح مجنحة ليس بينها وسيط أو ضحية إلا أن يكون « حمامة » سلام .

فما دام لم يعد هناك يابس أو ماء نوويا ، فإنه لم يعد هناك قوة بر ولا بحر أو ارتطام . ثمة فقط قوة نووية أو تقليدية . لا ولم يعد الهارتلاند بالضرورة « أقوى قلعة دفاعية طبيعية » على الأرض ، فهو إذا كان لا يزال غير مفتوح من خلف أو قدام فقد أصبح مفتوحا من فوق . ومثله صارت الولايات المتحدة : لا عزلة ولا ابتعاد بعد أن استدار الخطر فترك طريقه عبر البحر ليأتى من السماء[1] . كذلك فلم يعد هناك محل للتكهن : لمن ستكون الغلبة والفوز فى الصراع ، قوى البر أم قوى البحر ؟ أولا لأن هذه التفرقة لم تعد سؤالا واردا بعد أن أصبح الجميع قوى فضاء ، ثانيا لأنه لن تكون هناك غلبة وتفوق بل اندحار متبادل إن لم يكن انتحارا للطرفين . وهكذا وهكذا .

وربما كان من الممكن لنظرية ماكيندر أن تتعايش ــ جزئيا فحسب ــ مع استراتيجية الطيران وقوة الجو ، ولكن مقدم الاستراتيجية الصاروخية وقوة الفضاء space power لم يترك لها شيئا . إن الصواريخ بكل أشكالها وأنواعها ومهما اختلفت قواعد إطلاقها ، حرب جوية أساسا ، وهى بهذا امتداد بشكل آخر ، امتداد قمى إلى أبعد حد ، للطائرات . فإذا كانت الطائرة قد سلبت النظرية الجزء الأكبر من محتواها ومغزاها ، فإن الصواريخ تنسخها كلية بلا جدال .

عود على بدء

وهى بذلك تتحول من الجغرافيا السياسية الحية لتستقر ــ مكرمة ــ فى متحف الجغرافيا التاريخية . ونقول مكرمة ، لأن هذا التحول لا يقلل من قيمتها الأكاديمية ، فحسبها أنها تفسر بدقة مثيرة أغلب كليات وجزئيات التاريخ ، ابتداء من القرن العشرين قبل الميلاد حتى القرن العشرين بعد الميلاد . وفوق هذا فإن العالم إذا اتفق على نزع السلاح النووى ومنع الحرب النووية ، فإنه يعود ببساطة وآليا إلى استراتيجية ماكيندر ما فى ذلك شك ، ويعود للموقع الجغرافى وزنه الأثير ودوره المأثور .

بل وبغير اتفاق أو منع ، وفعلا لا بالقوة ، وحالا لا مستقبلا ! ذلك أن العصر

---

(١) بوين ، ص ٥ .

النووى كما رأينا قد حمل معه جرثومة شلله ، فلقد حيد ميزان الرعب النووى بطريقة ديالكتيكية ولكنها منطقية جدا كل فاعليته ، ووضع الترسانة النووية العالمية برمتها « فى النفتالين » أو « فى التجميد العميق » كما قيل ، حتى تحولت إلى مجرد « بركان خامد » نائم أو خامل . من ثم عادت الاستراتيجية الكلاسيكية ، بعناصرها التقليدية القديمة من مواقع جغرافية وقواعد عسكرية وممرات مائية .. الخ ، عادت تحتل الصدارة الفعلية من جديد وكأمر واقع .

كذلك فإذا كان الردع النووى الشامل قد نحى جانبا ليحل الرد المرن والحرب المحدودة محله فى الواقع العملى ، فليس لهذا من معنى سوى أننا قد عدنا فعلا وفى صميم العصر النووى إلى منطق ماكيندر وعصر قوة البر والبحر . وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن الاستراتيجية المتنحية القديمة لم تزل تتعايش وتتعاصر مع الاستراتيجية الجديدة السائدة . ونحن على أقل تقدير نعيش حاليا ورغم كل شىء فى ظل استراتيجية مختلطة تجمع بين رواجع الماضى وطلائع المستقبل بدرجة أو بأخرى ، بين قطاع تقليدى وقطاع نووى ، أى ما بين ماكيندر وما بعد ماكيندر .

وكمجرد نقطة فى الموضوع أو حالة فى القضية ، خذ ما رأيناه من تطور الاتحاد السوفيتى استراتيجيا فى العقود الأخيرة . فأن تتجه هذه القوة القارية الداخلية الحبيسة تقليديا إلى الأساطيل البحرية ومشاة الأسطول وفرسان الجو والاستراتيجية الأمفيبية والخروج إلى البحار وما وراء البحار ... الخ ، لا يحقق نبوءة ماكيندر عن تحوله إلى قوة برمائية أكثر من أى وقت مضى فحسب ، ولكنه أيضا يتفق تماما مع ما وجدناه من أن العودة إلى الحرب المحلية المحدودة فى ظل الشلل النووى تعود بالاستراتيجية العالمية بصورة ما إلى نمط ومنطق ماكيندر القديم المتنحى أساسا .

وأخيرا ، وتأسيسا على ما سبق ،فإن الاقتراح الذى نود أن نطرحه إضافة وختاما للمناقشة هو أن هناك من الأدلة ما يشير ، فى هذه المرحلة الراهنة التى تتعايش وتتعاصر فيها الاستراتيجية التقليدية جنبا الى جنب مع الاستراتيجية النووية ، إلى أن أبعاد نظرية ماكيندر لم تنسخ بعد كلية ، ولكنها بدأت تأخذ شكلا ومغزى جديدا . إن جغرافيا مثل بوين بحث أخيرا عن نمط سياسى واضح للعالم ككل يحل محل نمط ماكيندر بعد أن تحررت المستعمرات ، ولكنه يعلن أنه عبثا لم يجد أى نمط ، فليس ثمة إلا حزمة من الدول المستقلة تغطى وجه القارات ولا تعطى نمطا إلا مجرد نمط وجودها هى كرقع

الشطرنج ، ومن العبث أن ندخل عليها نظرية شاملة فى توزيع القوة السياسية حاليا كتلك التى قدمها ماكيندر منذ نحو نصف قرن .

ولكن أحقا ليس هناك نمط عالمى للجغرافيا السياسية المعاصرة ؟ فى تقديرنا أنه ثمة نمط ، ونمط مستمد من تصور ماكيندر ، إلا أنه يتحول حثيثا من مفهوم جغرافى إلى مفهوم حضارى ، من فكرة عسكرية إلى فكرة مذهبية . كذلك فإذا كان بوين ينتهى إلى أن عصر الجو والفضاء قد « جعل من نمط ماكيندر العالمى هراء ، ولكن قط هراء من إدراكه أن القوة فى المستقبل تكمن مع الإمبراطوريات القارية بفضل تفوق مواردها »[1] ، فإننا نحسب أن كل الحقائق تجعل الصحيح هو العكس تماما : تفوق الإمبراطوريات القارية لم يعد قائما بالضرورة أما النمط العالمى فهو الذى مازال قائما ! أما كيف ، فهذا أدخل فى باب الاستراتيجية السياسية منه فى دائرة السياسة الاستراتيجية ، وهو ما نتقدم الآن إلى دراسته فى تتبعنا لرحلة العالم الحافلة من الحرب الباردة إلى الوفاق .

(١) المرجع السابق ، ص١٣ ، ٥ .

الفصل الثالث عشر

من الحرب الباردة إلى الوفاق

من بين ثورة التحرير والانقلاب النووى ، وكرد فعل ومواجهة لها ، أى بالترتيب كرد على الاستعمار والاستقطاب الثنائى ، انبثقت فى الخمسينات أول أحدث ظاهرة سياسية معاصرة وهى الحياد الإيجابى وعدم الانحياز . ومن بين الاستقطاب الثنائى وعدم الانحياز بدورهما ، أى بالترتيب كرد على هيمنة القوتين الأعظم وضياع المستعمرات السابقة وتصفية الإمبراطورية ، جاءت حركة الوحدة الأوربية ثم الانشقاق الصينى فى الستينات كتعبير عن تفتت الكتل نوعا والتحرر النسبى من سيطرة القوتين الأعظم . وأخيرا ، فمن بين عدم الانحياز وتفتت الكتل ، وردا على تحديهما معا فى آن واحد ، جاء الانفراج أو الوفاق بين القوتين الأعظم فى السبعينات .

عدم الانحياز ، الوحدة الأوربية ، الوفاق ـ إلى هذا إذن جاء تطور الاستراتيجية السياسية المعاصرة فى خطوطها العريضة ومحاورها الأساسية كثلاثية تكاد تناظر ثلاثية العالم الأول والثانى والثالث نفسها وربما ترمز إليها . وهى مثلها تمثل قوى متضادة وأقطابا متنافرة ومحاور متعامدة بدرجات متفاوتات . وتلك إذن سلسلة متداعية عضويا ووظيفيا من الأفعال وردود الأفعال المضادة ، تؤكد أن لكل فعل فى السياسة ـ كما فى الطبيعة ـ رد فعل مماثل له فى القوة ومضاد فى الاتجاه .

وبالفعل ، فعلى هذه المحاور الثلاثة الحاكمة تدور معظم الأحداث السياسية الجارية فى العقود الثلاثة الأخيرة حتى لتكاد تكون كالأضلاع التى تغلق مثلث السياسة العالمية اليوم وتحوى داخله كل صراعاتها وتفاعلاتها وجزئياتها . فكيف بالتحديد ؟

الخمسينات عقد الحرب الباردة ، الستينات عقد التعايش السلمى ، والسبعينات عقد الوفاق ـ تلك إلى حد بعيد أو بالتقريب هى الخطوط العريضة والأرضية العميقة

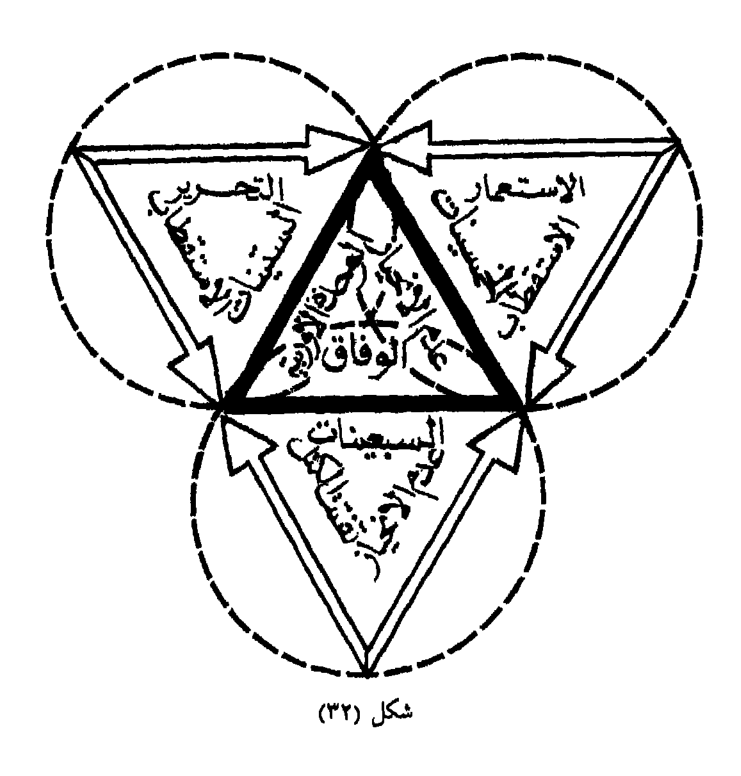
لفترة ما بعد الحرب الثانية وحتى اليوم ، وإلى هذا بالفعل أتى تطور مورفولوجية السياسة العالمية فى العصر النووى فى مجمله وتفاصيله . وقد لا تكون خطوط التقسيم بين المراحل أو العقود الثلاثة حادة وصارمة ، ولكنها بصفة عامة أو نسبية مقنعة بما فيه الكفاية .

وبديهى بعد هذا ، دعنا نكرر أو لا داعى لأن نكرر ، أن هذه الثلاثية العقدية التطورية تتواكب مع ، وتكاد تتركب فى ، ثلاثية المحاور السياسية الأساسية التى دارت حولها الاستراتيجية العالمية خلال المرحلة وهى ثلاثية عدم الانحياز فتفتت الكتل فالوفاق . بل إن هذا الترابط ليأتى كعلاقة سبب ونتيجة مباشرة . فالخمسينات عقد الحرب الباردة مثلما هى ، ولأنها هى ، عقد بداية الاستقطاب الثنائى الحاد والصراع بين رواجع الاستعمار وطوالع التحرير . والستينات هى عقد التعايش السلمى حيث ظهر عدم الانحياز من جهة وتفتت الكتل من جهة أخرى . وأخيرا فإن السبعينات ليست عقد الوفاق إلا لأنها الرد المباشر على تحديات التعايش السلمى بنفس عناصرها تلك من تفتت كتل وعدم انحياز .

وبهذا الشكل فلئن كانت هذه المتتالية المركبة بشقيها أو جانبيها تمثل سلسلة من الحلقات المتباينة ، فإنها تظل أساسا حلقات مترابطة ، لأنها جميعا تجمع بين مجموعة من الثوابت والمتغيرات فى آن واحد . بمعنى أن كل حلقة منها تشترك فى عناصر وخصائص معينة مع سابقتها وإن أضافت إليها أخرى جديدة ، بحيث تؤدى كل منها إلى تاليتها بصفة تلقائية و/أو انتقالية .

ولهذا السبب نفسه نستطيع أن نلخص فترة ما بعد الحرب الثانية إلى الآن فى مرحلتين متتابعتين : الأولى من الحرب الباردة إلى التعايش السلمى ، والثانية من التعايش السلمى إلى الوفاق . وفيهما يمكن فعلا أن نركب كل الأحداث السياسية الجارية والتطورات السارية والمشاكل المزمنة بكل جزئياتها وتفاصيلها . وعلى هذا الأساس بالفعل سنديرمناقشتنا فى هذا الفصل . والجدول الآتى يلخص بصورة اختزالية أهم ملامح وخصائص مراحل الفترة عقدا عقدا من حيث كلا جانبيها الاستراتيجى والسياسى مع الجانب العسكرى المباشر أيضا .

المرحلة	الاستراتيجية النووية		الاستراتيجية العسكرية	الاستراتيجية السياسية	
	الميزان الصافى	ميزانية البنود		الخط الأساسى	النقط الحرجة
الأربعينات	احتكار أمريكى مطلق	للقنبلة الذّرية وللضربة الأولى والأخيرة	الاحتواء	الحرب الباردة	حافة الحرب
الخمسينات	تفوق أمريكى محقق	فى القنبلة والصواريخ والغواصات والضربة الأولى	الردع الشامل	الحرب الباردة	حرب كوريا ، السويس
الستينات	تعادل نسبى	فى الرؤوس والصواريخ والمضادة والضربتين	الرد المرن	التعايش السلمى	كوبا ، يونيو
السبعينات	تفوق سوفيتى نسبى	فى الكل عدا القاذفات والغواصات	الوفاق	الوفاق	فيتنام ، أكتوبر



شكل (٣٢)

الخمسينات : عقد الحرب الباردة

من أتون الحرب الثانية مباشرة ، ولا نقول من رحمها ، خرجت الحرب الباردة لتشكل مناخ الخمسينات وتسيطر على جو المرحلة . ولذا فإنها تحمل بصمتها بكل غلظة وثقل وسفور . إذ أن أخص خصائص هذه المرحلة ليس مجرد ظهور أو ابتداء الاستقطاب الثنائى وإنما استحكامه واحتدامه إلى حد الاستقطاب المطلق المحكم . ذلك أن الفرقاء قد خرجوا من الحرب وكل منهم يمثل حجرا واحدا شديد التماسك والتجانس ومن ثم الضخامة من جهة ، والتنافر والتضاد الإيديولوجى من الجهة الأخرى فى مرحلة تعد بحق عصر الإيديولوجيا وعقد العقائديات والعصر الذهبى للمذهبية .

أو فى كلمتين على الترتيب ، كان الموقف يتلخص فى ضخامة الكتل كما ، والروح الصليبية كيفا . وفى النتيجة ، لم يكن بأى من المعسكرين سوى الحد الأدنى من التحديات أو الخلافات الداخلية أى عمليا لا تحديات ثانوية لأى من العملاقين داخل البيت ، بينما على العكس كان التحدى الأكبر أو الأوحد هو المعسكر المضاد ولا سواه .

لذا كانت المرحلة عصيبة بقدر ما كانت عصبيّة ، متهورة بقدر ما كانت هيستيرية ،

ومن ثم مفعمة باحتمالات التصادم بلا مصالحة ، وأقرب إلى الصرع منها إلى الصراع أو تكاد . ولما كانت الاستراتيجية السائدة فى المرحلة هى استراتيجية الردع الشامل ، فقد كان الرهان النووى الرهيب يعنى الحياة أو الموت لا أقل . ولعل أبرز إشارة ومؤشر إلى هذا الخطر كانت الحرب الكورية التى كادت كما رأينا تشعل نار الحرب العالمية الثالثة .

الولاءات الكتليـة

فأولا ، كان الولاء والتماسك الكتلى شبه تام أو مطلق ، بمعنى أن كلا المعسكرين كانت صفوفه تقف خلف قيادته فى اتباعية أو تبعية كاملة بلا تذمر أو تمرد (أو إمكانية أو قدرة عليهما على أية حال) ، إن لم نقل إن الصفوف الخلفية كانت أميل إلى المزايدة فى العداء والتحريض على الاستقطاب من القيادة . وإن كانت هذه تلقائيا أبعد شىء عن المناقصة على أحسن الفروض . باختصار ، كان كلا المعسكرين يقف كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، أو كالحجر الواحد الهائل monolith يريد أن ينقض على نقيضه ، هذا يمتد شرقا من وسط أوربا حتى الهادى بلا انقطاع ، وهذا يتمدد غربا من وسط أوربا عبر الأطلسى إلى أمريكا الشمالية حتى الهادى أيضا .

والحقيقة أن كلا المعسكرين كان يقع عمليا تحت الوصاية الكاملة لقيادته ، يعيش فى كنفها اقتصاديا وعلى معونته ماديا وتحت مظلته النووية عسكريا وأمنيا ، هذا فضلا بالطبع عن الانتماءات القومية والأصول العرقية فى الحالين . فكما أن أوربا الغربية هى أم الولايات المتحدة بيولوجيا وتاريخيا وحضاريا وثقافيا ، فإن الروسيا هى الأخت الكبرى لشرق أوربا السلافى وحاميته التقليدية تاريخيا ... الخ . وهكذا من كل ناحية كانت كلتا الكتلتين تكمن تحت جناح زعامتها فى استكانة وتدور فى فلكها فى هدوء .

أوربا الغربية

فأما أوربا الغربية فقد خرجت من الحرب حطاما وأنقاضا وركاما بالمعنى الحرفى ، وجسمها المخرب مستنزف تماما يعانى من فقر الدم الحاد . ولولا المساعدة الهائلة المكثفة التى حقنتها بها الولايات المتحدة فى شكل مشروع مارشال الشهير لما قامت على قدميها ثانية إلى أمد بعيد . كذلك فإلى جانب هذا الفقر والتآكل الداخلىّ ، أضف فقد الموارد الخارجية وانقطاعها . فلقد خرجت أوربا الغربية من الحرب وقد جردت أيضا من إمبراطوريتها أو أوشكت ، خاسرة بذلك كل مواردها ومكاسبها الهائلة .

ذلك أن ثورة التحرير كانت قد بدأت وبلغت مرحلة متقدمة للغاية ، وكادت عملية تصفية الاستعمار القديم أن تكتمل ، مثلما اكتملت الإدالة النهائية من الاستعمار القديم إلى الجديد أو من بريطانيا وفرنسا إلى الولايات المتحدة التى ورثت دورهما ولا نقول إمبراطوريتهما ووضعت قدمها فى حذائهما . وقد انعكست كل هذه الانقلابات والتبعية بصورة حادة ودرامية فى ملحمة العدوان الثلاثى على مصر حين أدركت بريطانيا وفرنسا مدى خضوعهما الحقيقى لأمريكا . وعلى الجملة ، وفى النتجة ، ففى هذه المرحلة من الخطر والعجز العسكرى البالغ أمام القوة السوفيتية الفائقة ، كانت أوربا الغربية أشد عداء للشيوعية واستعداء عليها وأطلب بالتالى للحماية الأمريكية من رغبة الولايات المتحدة نفسها ربما .

أوربا الشرقية

أما عن شرق أوربا فيكفى أنها كانت تدين بتحريرها من نير الاحتلال النازى لجيوش الاتحاد لكى يشدد هذا قبضته عليها إلى حد التسلط التام والكبت المطلق . والواقع أن اتفاقيات انتهاء الحرب من بوتسدام إلى يالتا إنما كانت عملية تقسيم ثنائى لأوربا إلى منطقتى نفوذ : أوربا الغربية للولايات ، والشرقية للاتحاد . وكلتاهما ، بعد ، منطقة نفوذ مغلقة غير مسموح للطرف الآخر بالتدخل فيها ، كأنما هما بغير الاسم « نصفا مبدأ مونرو » متقابلان ولكن مد هذا إلى أوربا ، أو كأنما قد مددت الولايات مبدأها الشهير عبر الأطلسى ليضم غرب أوربا ، بينما استحدث الاتحاد لنفسه ـ كأمر واقع ـ مبدأ مناظرا يطوى شرق أوربا .

غير أن الاتحاد ، بحكم الموقع الجغرافى الملاصق وفارق الحجم والقوة الرهيب إلى جانب العوامل الإثنية التاريخية وأخيرا الإيديولوجية الجديدة ، جاءت قبضته على منطقة نفوذه أشد من قبضة الولايات على منطقتها خارج كل حدود أو مقارنة بالطبع . فلا وجه هنا لأى شيء كندية أو تحالف لبق كما فى المعسكر الغربى ولا مفر من قدر من التبعية الفظة أو الغليظة بصورة أو بأخرى . ولهذا فإن شرق أوربا بالنسبة للاتحاد حاليا يكاد يكون كأمريكا اللاتينية بالنسبة للولايات تقليديا ، حديقة خاصة أو فناء خصوصيا ، إلا أن يكون هذا أو ذاك أماميا أو خلفيا بحكم الموقع الجغرافى فقط أو المحور العرضى هنا والطولى هناك .

وكما أعطت الولايات نفسها حق العصا الغليظة فى اللاتينية ، فرض الاتحاد لنفسه

مثله فى شرق أوربا كما تشير عملية سحق تمرد المجر بالحديد والنار فى منتصف المرحلة . أما سابقة يوجوسلافيا فليس لها أن تتكرر وإنما هى فقط الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ، ولا مكان « للتيتوية » بين الرفاق .[1] والواقع أن البعض وصف الكتلة الشرقية فى ضوء هذه التبعية و/أو التسلط بأنها « الكومونولث الاشتراكى » ،[2] بينما عبرت الكتلة نفسها عن تلك العلاقة فيما بعد ــ مبدأ برجنيف مؤخرا ــ بمبدأ « السيادة المحدودة المتبادلة للدول الاشتراكية » .

على الجانب الأسيوى

تلك جميعا صورة العلاقات الداخلية الكتلية على الجانب الأوربى ، غير أن هناك أيضا الجانب الأسيوى على ضلوع الكتلة الشرقية . فعدا معظم جنوب شرق آسيا فى الهند الصينية إلى جانب قطاعات أخرى فى شرق آسيا حتى كوريا الشمالية ، كانت الصين الشعبية بكل جرمها وثقلها إضافة هائلة إلى الكتلة . فبعد ثورتها التاريخية كانت الصين بالضرورة فى أحضان الاتحاد مثلما كانت أوربا الغربية تحت أحضان الولايات . ورغم أن الصين ، فى وهج الإيديولوجيا والحماس العقائدى المفرط ، كانت أميل إلى المزايدة على الاتحاد السوفيتى ، تدعو إلى صيغة منتهى الشيوعية وتطالب بفرض الثورة العالمية فورا وبسحق الرأسمالية حسب تعاليم الماركسية ــ اللينينية ، فقد كانت المرحلة هى شهر العسل السياسى بينهما بخاصة ، وسادها وفاق الرفاق بعامة .

من الحرب الباردة إلى التعايش

تلك فى عمومياتها وجزئياتها هى خريطة الخمسينات . والصورة بهذا لا تخرج فى جوهرها عن أن الحرب الباردة هى مجرد هدنة مسلحة بعد الحرب الثانية أو الساخنة ، هى نوع مبكر من حالة اللا حرب واللا سلم ، الذى يهدد بالتناطح بالرؤوس والضرب فى الرؤوس وذلك أيضا بالرؤوس النووية ! ــ ومن ثم ينطوى على نذر الكارثة التى لاتقل عن القيامة النووية . وفى ظل هذا الخطر الماحق كان لابد للجميع عند نقطة معينة من ضبط النفس والمراجعة والتراجع قليلا أو كثيرا . وقد كانت أزمة الصواريخ السوفيتية

(١) Zbigniew K. Brezezinski, The Soviet bloc, N.Y., 1961, p.81 ff.

(٢) Kazimierz Grzybowski, The socialist commonwealth of nations, New Haven, 1964, p. 21.

الذرية فى كوبا هى العامل الكشاف واختبار الأحماض الذى أثبت للعالم أنه يتزلق بسرعة مخيفة على طريق الهاوية ، فكان التعايش السلمى .

الستينات : عقد التعايش السلمى

من قلب هذه التوازنات الاستراتيجية الرهيفة ومن صميم معطياتها السياسة الرهيبة التى سادت عقد الحرب الباردة ، انبثقت إذن بذور التغيير واشتقت خميرة التطور . فبطريقة ديالكتيكية متناقضة تقريبا ولكنها مفهومة تماما ، أدت عناصر تلك المرحلة ومكوناتها إلى تفاعلات داخلية مؤثرة ، وتخمرات ذاتية بطيئة ، مهدت للمرحلة التالية ، بحيث تم الانتقال فى النهاية من عصر الحرب الباردة فى الخمسينات إلى عصر التعايش السلمى فى الستينات . وكما قلنا ، كانت أزمة كوبا - بكل محاذيرها ونذرها ، هى عامل الاختزال فى العملية ونقطة الانكسار فى المنحنى .

وللتوضيح ، يمكن أن نحلل عوامل التغيير ودوافعه الأساسية فى اثنين : بدء تفتت الكتل نسبيا ، وظهور عدم الانحياز تدريجيا . وكلا العاملين جاء بدوره رد فعل للضابطين الحاكمين السابقين وهما الاستقطاب الثنائى الضاغط وثورة التحرير المتعاظمة . فمن ناحية أدى ثقل الاستقطاب الثنائى الضاغط على كلتا الكتلتين إلى الرغبة فى التحرر تدريجيا من وطأته والتخفف من أخطار تصادمه . وقد اتخذ هذا فى حالة أوربا الغربية شكل الاتجاه إلى الوحدة الأوربية ، ردا على السيطرة الأمريكية الساحقة فى جانب ، وعلى فقدان الإمبراطورية وتصفية الاستعمار والمستعمرات وانتصار حركة التحرير فى العالم الثالث فى جانب آخر . أما فى المعسكر الشرقى فقد اتخذ هذا شكل الانشقاق الصينى الخطير ردا على « الهيمنة » السوفيتية إلى جانب اعتبارات أخرى عديدة ومعقدة . ومن ناحية أخرى ، ورداً على أخطار الاستقطاب الثنائى على السلام العالمى فى جانب ، وعلى تحدى الوحدة الأوربية فى الجانب الآخر ، بدأ ظهور ثم صعود عدم الانحياز بين دول العالم الثالث كقوة ثالثة .

تفتت الكتل

ولنبدأ ، للتفصيل ، بتفتت الكتل أو ما يعبر عنه بظاهرة تفكك التوابع الكتلية desatellisation . فعلى الجانبين كليهما أخذت أحجار كل من الكتلتين تتفكك وتتباعد قليلا أو كثيرا ، إما ثورة على تبعية الكتل وإما مغالاة فى رسالة الكتل ، أى إما

بالمناقصة وإما بالمزايدة . وكان السؤل الحرج والملح منذ البداية هو : إلى أى حد يمكن أن تذهب حركة التفكك هذه ، وهل يمكن حقا أن تصل إلى حد الإذابة أو الذوبان فى المدى البعيد أو إلى حد تحول الاستقطاب الثنائى السائد إلى استقطاب متعدد الأطراف ؟

أوربا الغربية

فأما فى أوربا الغربية ، حيث كانت بداية التململ فالتمرد ، فلم يكن الهدف قط هدم المعبد على الجميع ولا كان الخروج على المعسكر أو حتى على زعامته الأمريكية . وإنما كان الهدف هو إعادة ترتيب البيت من الداخل وتأمينه وتحصينه ضد أخطار العدو والصديق على السواء ، وذلك بإدخال قدر من التوازن المعقول بين القيادة والصفوف أى بين أمريكا وأوربا .

فمن ناحية كانت أوربا الغربية قد نهضت من وسط أنقاض الحرب والخراب وقطعت شوطا طيبا فى إعادة البناء والاقتصاد والتسلح وامتلاك القدرة النووية ، وبدأت تطلعاتها وطموحاتها تتجاوز مجرد استعادة الحياة إلى استعادة مكانتها فى الحياة . وهنا وجدت نفسها محاصرة بين أكثر من قوسين أو واقعة بين أكثر من مقعدين : الماضى والحاضر ، السيادة والصدارة العالمية سابقا وشبهة التبعية أو شبه الحماية الأمريكية حاليا ، الخطر الشيوعى والتحدى الأمريكى ، ضياع الإمبراطوريات وموارد وأمجاد الاستعمار وفى الوقت نفسه اتجاه حركة التحرير إلى وحدة عدم الانحياز .

فأما عن الخطر الشيوعى فى ظل الاستقطاب الثنائى وتحت المظلة النووية الأمريكية ، فإنه لا يعنى سوى أن أوربا الغربية هى ميدان أى معركة قادمة سواء كانت هذه هى الحرب العالمية الثالثة أو الحرب النووية الأولى ، أى سواء بالسلاح التقليدى أو النووى . وفى كل الأحوال فليس هناك أدنى ضمان بالدفاع الأمريكى الحتمى ، إذ أن من الوارد دائما أن تضطر أمريكا إلى التخلى عن الدفاع عنها أى عن أوربا الغربية حين تتعرض هى ذاتيا للخطر النووى . ولهذا بدأت أوربا تعمل على الحصول على القدرة النووية المستقلة الخاصة بها ، مثلما غدت الآن أقل من أمريكا صليبية وعدوانية واندفاعا ضد المعسكر الشرقى .

أما عن « التحدى الأمريكى » ـ وهذا هو التعبير الشهير الذى صكّه وقتئذ أو بعدئذ بقليل جان جاك سيرفان شرايبر ليجسد الهوة السحيقة والمخيفة والمتزايدة أبدا فى التقدم والتطور العلمى والانجاز التكنولوجى والثراء المادى والاقتصادى وضخامة الانتاج

ومستوى الدخل والاستهلاك والمعيشة ... الخ ـ هذا التحدى كان يؤذن ويهدد بأن يضع أوربا بالنسبة إلى أمريكا فى نفس موضع العالم الثالث بالنسبة إلى أوربا [١] . فبعد إنجازات الولايات التكنولوجية الخارقة أو الخرافية ، الفائقة أو المجنحة ، فى الأوتومية والإلكترونيات والكمبيوتر والليزر ... الخ ، أصبحت أوربا مهددة بالتخلف بكل المعنى الحضارى والتكنيكى والتاريخى المعهود .

ولكى تضيف الاهانة إلى الجرح كما يقولون ، جاءت ثالثة الأثافى وهى طفرة عدم الانحياز وبروزه على الساحة العالمية بعد أن أضحى التحرير الوطنى حقيقة واقعة وواقعا شبه تام . ففى الوقت الذى ارتدت أوربا على أعقابها إلى بيتها الصغير وانكفأت على مواردها الذاتية وحدها بعد فقدان كل سيل ودفق أرباح ومكاسب المستعمرات السابقة وأصبحت مهددة بالضمور التاريخى والجغرافى والمادى والأدبى وبالتالى بالمزيد من الانحدار السياسى والاقتصادى عالميا ، أخذت توابعها السابقة تكسب نسبيا مزيدا من الأرض والقامة والقيمة والقوة والحجم فى السياسة العالمية والنشاطات الدولية .

ورغم أن انحدار أوربا النسبى لم يكن جديدا ولا طارئا تماما أو ابن الحرب الثانية فقط ، وإنما بدأت أعراضه ونذره تلوح حتى عشية الحرب العالمية الأولى ذاتها وهى فى أوج السيادة العالمية كما شخص الجغرافى الفرنسى الكبير ديمانجون فى كتابه الشهير الذى يقرأ من عنوانه [٢] ، نقول رغم ذلك فإنها الآن فقط شعرت لأول مرة بفداحة الصدمة وضخامة التحدى ، ولأول مرة أيضا وجدت الرد الوحيد فى الاتجاه إلى التكتل والوحدة تأكيدا لوجودها بين العملاقين وتضييقا للفجوة بينها وبين الولايات ووضعا للقادمين الجدد فى مكانهم المناسب ... الخ .

فإلى جانب « السوق الأوربية المشتركة » كقاعدة صلبة للوحدة الاقتصادية وكخطوة أولية تمهيدية نحو الوحدة السياسية ، طالبت فرنسا ديجول بالذات بوحدة أوربا « من الأطلسى إلى الأورال » قاطعة بذلك عبر الاستقطاب الثنائى حتى يشحب نوعا ويغلف بالضباب نسبيا ، أى حتى تقل حدته وخطورته . ومن هذه المنطلقات بدأت أوربا الغربية تتخذ مواقف أكثر استقلالية أحيانا ، بل وأحيانا تختلف تكتيكيا مع الولايات . وعلى سبيل المثال فلقد انسحبت فرنسا من الجناح العسكرى لحلف الأطلنطى وإن ظلت

---

(١) J.-J. Servant Schreiber, Le défi américain, Paris, 1969.

(٢) Albert Demangeon, Le déclin de l'Europe, Paris, 1920.

به سياسيا ، كما اتخذت سياسة مخالفة غير منحازة كلية فى الصراع العربى الإسرائيلى ...الخ . ومن المسلم به أن الموقف الأوربى عموما ، بما فى ذلك الفرنسى بالتحديد ، لم يكن هدفه انتزاع زعامة المعسكر الغربى من الولايات بالتأكيد بقدر ماكان تأكيد اعتبار القومية فى الحلف ، وهذا على العكس ـ كما سنرى توا ـ من حالة الصين .

الانشقاق الصينى

ففى الكتلة الشرقية لم تعدم جبهة شرق أوربا بعض اتجاهات كظيمة مكبوتة أو فطيرة نحو قدر من الاستقلال الاقتصادى وغير الاقتصادى عن المعسكر الأب . ذلك أن سابقة يوجوسلافيا قبل الخمسينات ، ومن خلفها وإن على النقيض منها ألبانيا ، لم تكن كما قلنا لتتكرر . ولهذا فكما سحقت حركة المجر بعد منتصف الخمسينات ، وئدت حركة تشيكوسلوفاكيا فى أواخر الستينات . ومع ذلك فقد بدت أعراض القلاقل ودلائل التململ فى بولندا وألمانيا الشرقية ، بينما نجحت رومانيا نسبيا فى اتخاذ خط حذر شبه مستقل نوعا . غير أن هذا وذاك جميعا لم يعد انتفاضات أو انتقاضات ثانوية أو حتى أقل من تكتيكية تتم داخل الأسوار ولا تخترق الستار الحديدى بحال .

وإنما بعيدا هناك ، على الجبهة الشرقية القصوى للمعسكر فى أقصى شرق آسيا ، تم الانشقاق الذى شق الكتلة بالتنصيف تقريبا وأحالها من حجر واحد إلى حجرين . وسرعان ما تحول الأخدود الغائر والمتوسع بينهما أبدا إلى نوع سياسى أسطورى من « زحزحة القارات » ، تحول بدوره إلى نوع خرافى مخيف من صراع القارات . ورغم أن للصراع جذورا إيديولوجية غائرة بلا جدال ، فإن الجذور القومية واردة بنفس القوة ، وربما كذلك إرهاصات عامل القوى أو عامل الدولة الكبرى فى حد ذاتها .

وعلى هذا يبدو النزاع ثلاثى الأبعاد : إيديولوجى فى الفلسفة العقائدية ، وقومى حول ادعاءات ومطالب اقليمية واسعة المدى ، ثم صراع قوى عظمى بحت ومجرد . وبصيغة أخرى فإن التحدى الصينى للاتحاد السوفيتى جاء تحديا على زعامة العالم الشيوعى ، وعلى صداقة العالم الثالث ، وأخيرا فى الدور الأسيوى نفسه حيث تعد الصين الاتحاد السوفيتى دولة أوربية وتكاد تنكر عليه أسيويته .

فعن الأيديولوجيا ، كانت الصين قد صعدت دعوتها المتطرفة إلى صيغة منتهى الشيوعية والتقشف من أجل العقيدة (« better red than fed ») ، وباتت بإلحاح لا يخلو من استفزاز تحرض الاتحاد السوفيتى على المواجهة الشاملة والنهائية مع الرأسمالية

وتضغط عليه أدبيا ومعنويا وعقائديا ـ إلى حد الإحراج بين الرفاق ـ وذلك تحقيقا للالتزام بالمبادئ الماركسية ـ اللينينية فى حتمية الصراع الطبقى والأممية البرولتارية والحرب مع الرأسمالية ، وعلى أساس عدم الخوف من الحرب ونظرية أن القنبلة الذرية « نمر من ورق » ... الخ .

لكن الاتحاد ، لأنه وحدة أو أساسا أداة الحرب وميدانها وأتونها وضحيتها الرئيسية ، كان أقل اندفاعا وأكثر مسئولية بالضرورة ، بل واتجه على العكس إلى التعايش السلمى ، الأمر الذى عدته الصين مراجعة وتحريفية ونكوصا عن الماركسية ـ اللينينية ... الخ .

فالتعايش السلمى مع الغرب الرأسمالى طريق انتهازى بحت فى رأى الصين ، لأنه إنما يعنى التعايش السلمى بين الأنظمة الاجتماعية المتباينة والمتناقضة تناقض المستَغَل والمستَغِل . وحتى إن أمكن قبوله جوازا فى مجال العلاقات بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة ، فلا محل له بالتأكيد فى مجال العلاقات بين الشعوب المضطهدة ومضطهديها . ولهذا فإن التعايش السلمى لا يمكن ولا يجب أن يكون بديلا عن النضال والكفاح الثورى للشعوب . وفى الحالين ، تقول الصين ، فإن هذا التعايش يستبعد حتمية الحرب مع الرأسمالية وضرورة الثورة العالمية .

هذا كله ، تمضى الصين ، إن دل على شىء فإنما يدل على أن الاتحاد قد فقد ثوريته وحماسه الثورى وأصبح قوة محافظة خاملة . وفى هذا الصدد انتقدت الصين بشدة توجه الاتحاد الغالب فى علاقاته واهتماماته الخارجية نحو الدول الغربية الغنية المتقدمة أساسا على حساب الدول النامية الفقيرة ، التى لاتخلو علاقته معها هى الأخرى من انتهازية واضحة وبراجماتية صريحة ، وذلك على العكس من الصين نفسها التى تعتبر أنها هى زعيمة الثورة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بحق ، أى زعيمة العالم الثالث باختصار .

وكان الأسوأ من هذا نظرية الاتحاد السوفيتى الجديدة فى إمكانية الانتقال السلمى إلى الاشتراكية دون صراع طبقى أو ثورة دموية . بالمثل القبول بمبدأ تعدد طرق وأشكال الاشتراكية بحسب الظروف المحلية أو المرحلية الموضوعية . فكل هذا كان فى نظر الصين أكثر من مجرد انحراف نحو الانتهازية والبراجماتية والمحافظة والرجعية على حساب الأيديولوجية ، وإنما هو تحريف وتجديف مباشر ضد جوهر الشيوعية الماركسية ـ

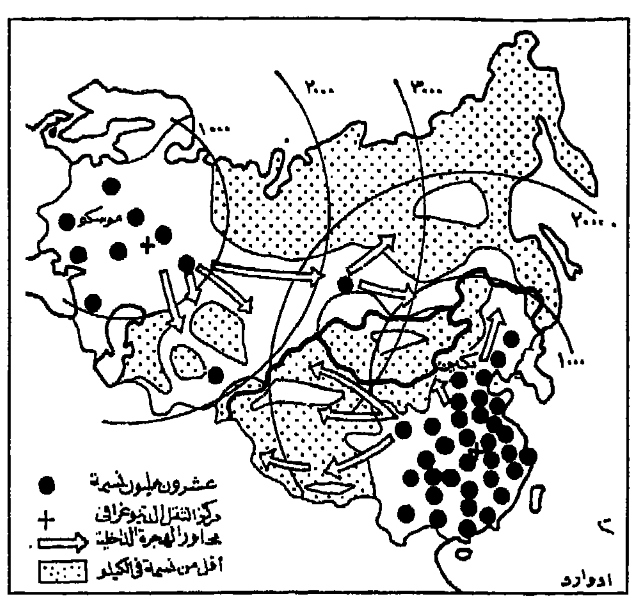
اللينينية . وبالمقابل فقد رأت الصين أنها اكتشفت على يد ماو نوعا جديدا من الشيوعية الأسيوية لا الأوربية التى تتفوق على الماركسية بقدر ما تستلهمها[1] .

وهكذا بين التطرف والمراجعة (والتراجع) وبين الراديكالية والتحريفية (والتحريفية الجديدة) ، تحول الشق إلى أخدود ، ثم لم يلبث الأخدود أن تحول إلى مشكلة أراض سليبة وحدود . فلقد طالبت الصين الاتحاد بإعادة مساحات شاسعة من رقعته على الأساس التاريخى والقومى ، بمقولة أن الروسيا القيصرية اغتصبتها منها أثناء توسعها الاستعمارى فى آسيا . وبعدها تعددت الصراعات المسلحة وحروب الحدود على امتدادها من سينكيانج والبامير حتى الأوسورى والآمور . كذلك تكدست القوات الكثيفة المتأهبة على جانبى الحدود . وبعد أن كان الانشقاق الصينى لايبدو محاولة معلنة لتأكيد القومية (وإن كانت مضمرة ضمنا) داخل المعسكر الذى لايعترف بالقومية ، بقدر مابدا محاولة غير معلنة لإحراج القيادة فيه وانتزاع الزعامة منها ، انشطر المعسكر برمته إلى معسكرين متضادين تماما ، الصراع والتناقض بينهم لا يقل بتاتا عما بين أيهما والمعسكر الغربى ، حيث رفعت الصين منذئذ شعار الكفاح ضد « الهيمنة » السوفيتية و « الإمبريالية الاشتراكية » أو الروسية ...الخ . لقد انتهى وفاق الرفاق بالطلاق ، الطلاق البائن بلا رجعة فى تقدير البعض ، بينما تحول الاستقطاب الثنائى تلقائيا إلى ثلاثى كأمر واقع وكتحصيل حاصل .

ومنذ ذلك الوقت لم يكف الصراع عن التصاعد ، وتبادل الطرفان الاتهامات بالرجعية والهيمنة والخيانة ، فضلا عن مطاردة بعضهما البعض بإلحاح وقسوة فى المحافل والمؤتمرات الدولية ...الخ . فالصين تتهم الاتحاد بأنه يريد طرد أمريكا من أوربا لينفرد هو بالهيمنة عليها ، بينما يتهم الاتحاد بدوره الصين بأنها تريد طرده من آسيا لتنفرد هى بالهيمنة عليها . كذلك فحيثما وجد الاتحاد فى دول العالم الثالث ، ابتداء من الشرق الأوسط وأفريقيا إلى آسيا والأوقيانوسية ، وجد الصين على أعقابه تناوئه وتطارده بإصرار وتصميم فى صورة مساعدات ومعونات ودعاية مضادة لتلك الدول ...الخ . وبالمثل داخل المعسكر الشيوعى نفسه حدثت تغيرات عديدة فى المواقع والمواقف والتكتلات الرفاقية . فمثلا بعد أن كانت الصين ويوجوسلافيا على طرفى نقيض ،

---

(١) محمد فتح الله الخطيب . « الحزب الشيوعى الصينى والسياسة الدولية » ، السياسة الدولية ، يناير ١٩٦٦ . ص ١٢٠ - ١٢٦ .



شكل (٣٣) الحجران الضخمان في الكتلة الشرقية رغم الحدود المشتركة يفصل بينهما خط الاستواء الصحراوي في العالم القديم . الاتحاد أكثر من ضعف الصين مساحة ، وأغنى في الموارد الطبيعية وأبعد تقدماً . ولكن الصين أكثر من ثلاثة أمثاله سكاناً .

وكذلك الحال مع رومانيا إلى حد أقل ، حدث تقارب مطرد على حساب الاتحاد ، وهكذا .

وعند هذا الحد ، يبدو ثمة فارق جغرافى هام بين تكوين أو كيان المعسكرين الأبوين ، أعني قبل الانفصال السوفيتي ـ الصينى . فالغرب ، رغم كل عظمة وتراث أوربا الغربية ، يكاد تتآلف عمليا أو نسبيا من حجر واحد ضخم طاغ ـ الولايات بالطبع ـ يتجاذب حوله عديد من الأحجار المتوسطة والصغيرة . فلا مجال حقيقى للتنافس على الزعامة فيه . أما الشرق فقوامه الأساسى حجران ضخمان ندان صنوان أو شبه صنوان تلتصق بهما وحولها بضعة من الأحجار الضئيلة ، ومن ثم فإن التطلعات التنافسية ممكنة أو واردة .

وليس من شك أن الحجر الأكبر مساحة وموارد طبيعية وإنتاجا اقتصاديا وثروة مادية وتقدما تكنولوجيا وقوة عسكرية هو الآن الاتحاد السوفيتى ، ومن الأرجح فى تقدير الجغرافيا أن يظل كذلك فى المستقبل على الدوام . ولكن الصين هى الأخرى أو من .

الناحية الأخرى تتطور ـ تطفر فى الواقع ـ بسرعة فائقة . وأهم من ذلك وأخطر أنها ، عدا حضارة أعرق وربما أمتن ، ترى فى عامل سكانها ـ وهى التى تعادل الاتحاد سكانا أكثر من أربعة الأمثال وتعدل ربع البشرية جميعا ـ ترى فى ذلك مبررا غلابا لكى تكون فيما يبدو مركز العالم أجمع لا المعسكر الشيوعى فحسب ! [١]

ولاننسى فى النهاية البعد النووى والعسكرى . فمنذ دخلت الصين النادى الذرى ، بدون مساعدة الاتحاد بل برغمه ، أصبحت خطرا استراتيجيا لايستهان به . فالاتحاد يحتفظ بنحو ربع قواته المسلحة ـ حوالى مليون جندى ـ وكذلك بربع قوته الجوية التكتيكية على طول الحدود الصينية . كذلك فإنه يحتفظ بنحو ١٨٠ صاروخا من صواريخه إس إس ـ ٢٠ فى مدى الصين : نصفها فى الشرق الأقصى السوفيتى ، ونصفها الآخر فى « منطقة القصف التبادلى swing launching area » الواقعة شمال القوقاز والتى يمكن منها القذف إما إلى أوربا أو إلى الصين . هذا بالاضافة إلى الصواريخ الأقصر مدى والصواريخ عابرة القارات الموجهة إلى الأهداف الصينية . أما عن القوة النووية الصينية فإنها يمكن ، إذا ما بادرت بالضربة الأولى ، أن تدمر موسكو ولننجراد تدميرا تاما بالاضافة إلى كل مدينة سوفيتية شرق الأورال فئة + ١٠٠,٠٠٠ نسمة . غير أن الاتحاد ، حتى بعد هذه الضربة ، قادر على تحطيم ما يتبقى من قدرة الصين النووية المحدودة بالاضافة إلى كل مدينة صينية فئة + ٥٠,٠٠٠ نسمة بلا استثناء [٢] .

هذا عن القدرات والتوازنات النووية . أما عن القوات التقليدية ، فرغم أن الحشود السوفيتية فى الشرق الأقصى أقل بكثير جدا بالطبع من القوات الصينية المواجهة ، إلا أنها أفضل تدريبا وإعدادا ، خاصة بتعزيز الطيران ، بحيث يصعب تصور انتصار الصينيين عليها فى حرب محدودة . ولعل صدامات نهر الأوسور فى نهاية الستينات مؤشر إلى التفوق السوفيتى ، حيث تلقت الصين خسائر فادحة . على أن العقيدة القتالية الصينية لاتكاد تبالى بالخسائر البشرية . ولهذا فإن مجمل الموقف أن السوفيت لايمكنهم أن يأملوا فى احتلال كل الصين أو معظمها فى أية حرب شاملة ، إلا أنهم يستطيعون على الأرجح كسب معركة حدود حاسمة تصد الخطر الصينى وتلجمه [٣] .

---

(١) Cole, p. 251, 309.

(٢) "East-West struggle", op. cit., p. 44,47.

(٣) Ibid., p. 47.

وعموما ، مهما يكن الأمر ، فليس من شك أنه إذا كان للعملاقين الحاليين الولايات والاتحاد من ثالث يلحق بهما فى المستقبل فهذا الثالث هو الصين وحدها ، فهى وحدها التى تملك من الموارد والمقومات والحجم والضخامة مايؤهلها لأن تكون قوة دينوصورية عظمى على مستوى العملاقين. ولعلها كانت نبؤة عراف حين تكهن فوست ، ذلك الجغرافى العظيم ، فى وقت مبكر مثل ١٩٥١ بإمكان حدوث صدع بين الاتحاد والصين واستقطاب العالم الشيوعى بدوره ثنائيا[١] .

عـدم الانحيـاز

لايبقى الآن من دوافع وحوافز التعايش السلمى بين العملاقين سوى عامل ظهور ثم صعود عدم الانحياز . وليس هذا موضع دراسة هذه الظاهرة السياسية الكبرى التى سنعود إليها بالتفصيل فى فصل مستقل ، وإنما نقتصر هنا على علاقتها بالتعايش السلمى كسبب ونتيجة . وفى هذه الحدود فلقد جاء الاتجاه إلى عدم الانحياز بين الدول المتحررة حديثة الاستقلال نتيجة طبيعية وتتويجا منطقيا لنجاح حركة التحرير الوطنى وانعتاق المستعمرات السابقة . ولكنه بالدرجة نفسها أتى ردا على اتجاه أساطين الاستعمار السابقين فى غرب أوربا نحو الوحدة الأوربية من أجل استعادة سطوتهم ومكانتهم فى العالم المتغير الجديد . فكأنّ عدم الانحياز ، فى هذه الحدود ، رد على رد كما قد نقول .

غير أنه كذلك انبثق كضرورة بقائية واستراتيجية إزاء الاستقطاب الثنائى وصراع العملاقين بكل مايعنى هذا من أخطار للعالم أجمع وللعالم النامى ، الوليد ، الضعيف ، الفقير ، بالأخص . فبهذه الاستراتيجية يستطيع عدم الانحياز أن يتخذ موقف الحياد بين القطبين والكتلتين وينأى عن الانغماس أو التورط فى صراعاتهما من ناحية ، ومن ناحية أخرى يؤمن نفسه ضد خطر ابتلاع أو اجتياح الكبار له سواء من القوتين الأعظم أو قدامى الكبار فى الغرب .

وبالتعريف حرفيا ، وكدعوة سلامية صرف ، يبدو عدم الانحياز منطقيا للغاية منسجما استراتيجيا مع دعوة التعايش « السلمى » دون أدنى تعارض . ومن ثم كان من المفروض أن يتواكبا ويتجاوبا على الصعيد الدولى كخطين متوازيين بل متقابلين فى النهاية . ولكن الغريب والمؤسف أن عدم الانحياز وجد أخطر تحد له فى التعايش السلمى

---

(١) Geography and empire, loc. cit., p. 431.

بالدقة ، مناخا وأطرافا وسياسات . فمن ناحية عدّه كل من الغرب والشرق تجديفا أو مروقا أو على الأقل نشوزا أو نشازا بدرجة أو بأخرى ، تماما على نحو ما يعد المستقلون أحيانا فى مجال السياسات الحزبية والبرلمانية ... الخ . ولعل البعض على الجانبين اعتبره أيضا بمثابة لقيط الأسرة الدولية ، شريدها ، طريدها ، أو على الأقل الابن العاق الضال . وعلى هذا الأساس انبرى ليقومة ويثقف اعوجاجة ويعيده إلى الصف السوى السليم وجادة الطريق المستقيم .

ومن ناحية أخرى ، وأخطر ، فمنذ أن تراجعت الحرب النووية الشاملة واكتشفت الولايات المتحدة قبل الاتحاد السوفيتى تكتيك الرد المرن كمخرج من المأزق النووى ، انفتح الباب على مصراعية للحروب الصغيرة والمحلية . وهنا نشطت الكتلة الغربية إلى ممارسة سياسة القوة معربدة هنا وهناك بلا رداع وهى على يقين من استحالة تحولها إلى الحرب الشاملة . وقد جاء هذا التطور على حساب الدول الناشئة وحديثة الاستقلال أساسا ، والتى أصبح عليها أن تدرك أن عليها من الآن فصاعد أن تعتمد على أنفسها فى الدفاع وحماية مكاسب التحرير . ومعنى هذا أن هدنة الرعب النووى لم تساعد قوى التحرير والدول النامية كما قد يظن أو يدعى البعض ، بل أتت على حسابها وتركتها وحدها تواجه قوى الاستعمار من جديد فى لقاء يعيد إلى الأذهان شيئا من مناخ القرن التاسع عشر .

حقيقـة التعايـش

وهذا بالدقة ماينقلنا إلى حقيقة وطبيعة التعايش السلمى فى النظرية والتطبيق . فالتعايش السلمى بين العملاقين إنما نشأ أصلا كرد على المتغيرات السياسية والاستراتيجية داخل معسكريهما وخارجهما على حد سواء . ففى وجه تلك التطورات الخطيرة والتحديات الجديدة لم يكن مفر أمام العملاقين من التقارب قليلا ، أو فلنقل التحفظ نوعا فى الصراع والاندفاع نحو الصدام ، إن لم يكن حفظا للذات وضمان الأمن والبقاء فحفاظا على سيطرتهما على كتلتيهما وللابقاء على مكانتهما المطلقة على قمة العالم . من هنا أخذت دعوة الثورة العالمية الشيوعية تخفت إلى حد ما ، مثلما تلطفت دعوة الحرب الصليبية المقدسة على الشيوعية . كذلك بدأت محاولات الاتفاق على نزع السلاح ، والسلاح النووى بالذات ، أو إيقاف سباق التسلح وتحويل المنافسة من النواحى العسكرية إلى النواحى السلمية البناءة . وواكب هذا كله تزايد التبادل التجارى بين العملاقين والكتلتين ... الخ .

بعبارة أخرى فلقد وضعت صيغة التعايش السلمى كبديل عن الحرب الباردة على أساس أن يكون التقدم الصناعى والتكنولوجى والتنافس السلمى فى الحضارة ومستوى المعيشة هو التعبير البليغ عن الأيديولوجية والصراع المذهبى ، وذلك فى عصر أصبحت التكنولوجيا ندا وتحديا حقيقيا للأيديولوجية . وبالاختصار ، فإن أساس التعايش أن تحل الحرب الصناعية محل الحرب النووية . ورغم أن الحصاد العام ظل قليلا وغير مشجع ووضع السلام غير مشرق ، فقد سلمت الحرب الباردة نفسها نهائيا إلى التعايش السلمى بالفعل .

غير أن هذا ــ دعنا نستدرك ــ لايعنى سيادة السلام والاستقرار العالمى . فالتعايش السلمى وسيلة لا غاية ، وهو باعتراف أقطابه لم يكن إلغاء للصراع ، وإنما تهذيب له وتقنيل وتلجيم ، أى تحويله إلى صراع محكوم منضبط غير مفلوت أو منفلت . أو إذا استأنفنا تشبيه الملاكمة السابق ، كان التعايش يستبعد « الضرب فى الرأس » ولكنه لايمنع « الضرب تحت الحزام » . أما إذا اقتبسنا معلقا ساخرا معاصرا ، فلعله لم يكن يعدو استبدال حالة جديدة من اللاحرب واللاسلم بحالة اللاسلم واللاحرب السابقة قبلا ! وعلى الجملة ، يمكن القول إن صراع القوة فى ظل التعايش السلمى كان أقرب إلى الجمود الخطر منه إلى التوازن الدقيق . إنه « سلام سلاح » ...

المد الاستعمارى

وليس من شك تاريخيا وموضوعيا بعد هذا أن الولايات المتحدة تحولت فى الستينات بالتحديد إلى قوة عدوانية سافرة ، عينت من نفسها رجل بوليس العالم ، وجعلت هدفها أن تفرض سلامها ، السلام الأمريكى ، على العالم حتى أصبحت السياسة الأمريكية عامل التوتر والاضطراب الجذرى فى ذلك العقد . وليس من شك كذلك أن الولايات خلال الستينات كانت على الهجوم بانتظام وإصرار بينما كان الاتحاد على الدفاع وربما فى تراجع . وفى المحصلة كان العقد عقد أمريكا بلا نزاع حيث كانت لها اليد العليا خارج كل مقارنة ، بل وإلى حد أثار الشكوك قليلا أو كثيرا فى صحة مقولة ثنائية القوة بين العملاقين من حيث المبدأ ذاته .

فلقد شهدت الستينات ، خاصة أواخرها ، مدا استعماريا متصلا وكاسحا على طول الجبهة الأفريقية والأسيوية وعرضها ابتداء من غانا وغينيا حتى فيتنام وإندونيسيا ، ومن مصر حتى الهند ، ترتب عليه جزر حقيقى فى حركة التحرير الوطنى لامفر من الاعتراف

به . ومن المسلم به أن انفجار العدوانية الأمريكية وقتئذ بهذا العنف والشراسة إنما يرجع أساسا إلى ما أحست به من تعاظم المد التحريرى والثورة العالمية فى العالم الثالث وانحسار نفوذها فيه انحسارا هدد بأن يكون كاملا . غير أن النتيجة تظل واحدة : فتحت مظلة التعايش السلمى المقول ، واستغلالا لتوازن الرعب النووى ، انطلقت الولايات المتحدة معربدة كالعاصفة ، هنا فى أضعف حلقات العالم ، لتصفى سياسة عدم الانحياز بسلاح الاستعمار الجديد .

وكما تراوحت إمبريالية اليانكى فى أمريكا اللاتينية بين سياسة العصا الغليظة وحسن الجوار ، تراوحت فى العالم الأسيوى الأفريقى بين سياسة ذهب اليانكى وسيفه ، أعنى بين سياسة المساعدات والقروض والمنح وبين مؤامرات المخابرات والانقلابات والغزو من الداخل . وقد نجحت سياسة الاغراء والمعونات بالفعل فى اقتطاع بعض دول القارتين المتخلفتين الهشتين من فلك عدم الانحياز ، ولكن هذه الدول لم تكن منتمية حقيقة وبإخلاص إلى الخط التحررى الاستقلالى إلا كشعار انتهازى ميسور .

على أن الضربة الحقيقية التى نالت عدم الانحياز إنما جاءت عن طريق العمل التخريبى والسرى تحت الأرض ، حتى باتت الانقلابات الرجعية ، وبالتحديد العسكرية ، أبرز ملامح الفترة ، وكانت أفريقيا خاصة هى موطنها الأساسى حيث شهدت سنة ١٩٦٦ وحدها مثلا ١٢ انقلابا ، معظمها يتركز فى غرب القارة ويقل فى وسطها ثم يزداد قلة فى شرقها . حتى ليصح فى معنى أن يقال إن ١٩٦٦ هى سنة نكسة أفريقيا ، حيث كانت ١٩٦٠ هى « سنة أفريقيا » . الأولى ، بلغة الفلك ، كانت فصل الانقلاب ، حيث كانت الثانية فصل الاعتدال . المهم بذلك أن الولايات المتحدة نجحت فى أن تصدر الثورة المضادة بالجملة ، وأن تجعل من أفريقيا فى هذا الصدد أمريكا اللاتينية الأخرى تقريبا .

أما حيث لم تجد سياسة المعونات أو الإنقلابات ، فقد التجأت الولايات إلى أسلحة الضغط الاقتصادى والتجويع أو الحرب النفسية والحملات الدعائية دائما ، وإلى العدوان المسلح المقنع أحيانا . وكان تحديد استعمال هذه الأسلحة يتناسب تناسبا طرديا مع ضراوة الكراهية الأمريكية والمقاومة الوطنية . فقد وقفت عند حد الضغط الاقتصادى فى حالة الهند مثلا ، بينما وصلت إلى حد العدوان العسكرى فى الشرق العربى حيث تخفت النجمة الخماسية (الولايات) وراء النجمة السداسية (إسرائيل) كما قيل .

وهنا نلاحظ أن من يتتبع خطط الولايات المتحدة للسيطرة على العالم الأسيوى الأفريقى آنئذ يكاد لايملك إلا أن يرى مبدأ مونرو يتوسع ويزحف ليشمل العالم غير الشيوعى جميعا . فلقد بدأت الولايات مبدأ مونرو محليا ثم أخذت توسعه تدريجيا حتى طوق العالم الجديد ، وحين بدأت تتغلغل فى العالم القديم وتطوق الشيوعية لم تكن خطواتها أكثر من توسيع مستتر لنفس المبدأ . فلم يكن حلف الأطلنطى أو مشروع منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط أو سلسلة أحلاف آسيا ، ولم يكن مبدأ ترومان ومن بعده مبدأ أيزنهاور وأخيرا خطة جونسون الأسيوية ، لم تكن هذه جميعا ـ نكاد نقول ـ إلا حلقات مكشوفة فى سلسلة خفية هى عالمية مبدأ مونرو فى الواقع .

أو على الأقل فإنه يكاد يلوح أن الولايات تعتبر كل العالم خارج المعسكر الشرقى « فراغا » ضخما بالفعل والقوة ، وأن « عبء الرجل الأمريكى » هو ملء هذا الفراغ . ومهما يكن الرأى ، فالأمر المؤكد أن الولايات باتت خلال المرحلة نقمة العالم الثالث ، وأن المواجهة بينهما صارت مبارزة مباشرة بين الاستعمار الجديد وعدم الانحياز على وجه التحديد ، وهى مواجهة أبعد ما تكون عن التكافؤ أو العدالة .

وحين وصل المد الاستعمارى إلى ذروته بضرب طليعة عدم الانحياز فى مصر والوطن العربى ، بلغت صدمة العالم المتحرر أقصى مداها ، مما وضع على الفور كل فلسفة عدم الانحياز فى أزمة مصير بل وطرح للمناقشة والتساؤل كل أساسيات ومسلمات التوازن العالمى السائدة . فمغزى ما حدث كان أكبر بكثير من مجرد سلسلة من الانتكاسات أصابت حركة التحرير الوطنى . فجوهر الموقف أن الولايات المتحدة كانت قد استغلت التوزان النووى لصالحها إلى أبعد حد ، إذ بينما كف الاتحاد السوفيتى يده ، لا ندرى تعقلا وانضباطا أو خوفا وعجزا ، أطلقت الولايات المتحدة يدها بلا رادع أو خوف ، لكى تبتز الجنس البشرى نوويا ولكى تحول السلام الذرى إلى السلام الأمريكى .

وواقع الأمر خلال الستينات بعامة أن الإمبريالية الأمريكية كانت تزحف بالتدريج ولكن بالتأكيد على العالم الثالث ، وكان هناك من يرى أنها بحروبها الاقليمية المحدودة هنا وهناك إنما كانت تمارس فى الحقيقة حربا عالمية « بالقطاعى » ، بل كان هناك من يخشى أن تكون الحرب الثالثة قد بدأت دون أن نشعر (؟) ، وأن الصراعات والغزوات الاستعمارية الجارية لم تكن إلا مدخلها ، مثلما كانت الحرب الإسبانية مدخلا إلى الحرب الثانية .

ولئن كان من الواضح حينئذ أن العالم الثالث هو الهدف المباشر لضربات العالم

الأول ، فإنما كان مجرد جسر ومرحلة على الطريق إلى الهدف الأكبر والأخير وهو العالم الثانى . وهنا نجد من يعود إلى التشبيه بمقدمات الحرب الثانية ، حيث كان يخشى أن الإمبريالية الأمريكية إنما كانت تستغل التعايش السلمى مع الاتحاد السوفيتى كهدنة مسلحة وكخدعة سياسية مثلما نظرت ألمانيا النازية إلى ميثاق عدم الاعتداء معه هو نفسه من قبل . بل كان هناك من يتمنى ، أبعد من ذلك ، ألا تكون قصة المواجهة ابتداء من كوبا إلى فيتنام إلى الشرق الأوسط تذكرة بمأساة ميونيخ من قريب أو بعيد .

مغـزى المـد

وأيا ما كان فلقد كان لهذا كله عدة معان ومدلولات مباشرة وبالغة الخطورة ، أولها أن العالم الثالث أصبح يواجه عدوانية الإمبريالية الأمريكية المسلحة وحيدا شبه أعزل ، وذلك رغم مساعدة ومساندة الدول الاشتراكية سياسيا واقتصاديا ، أيا كان مداها وإخلاصها . وبهذا عدنا أو كدنا بدرجة أو بأخرى إلى منطق وواقع القرن التاسع عشر واستراتيجية عصر الاستعمار التقليدى القديم . وفى هذه المواجهة بدأت علامات تحول هام ، وإن لم تكن ملحوظة بما فيه الكفاية ، وهى أن الاستعمار الجديد بدأ يأخذ بعض ملامح الاستعمار القديم رغم أنه ما قام أصلا إلا ليدور حولها ، ونعنى بذلك استخدام القوة والاحتلال والجيوش والحروب السافرة كما فى فيتنام والشرق الأوسط .

وهذا يؤدى بنا إلى نتيجة أخرى مثيرة وخطيرة ، وهى أن أكبر المنتفعين بالاستعمار الجديد ذلك اليوم كانت هى بقايا الاستعمار القديم المتخلفة ، والتى كان أغلبها يقع فى حلقة الاستعمار العنصرى ، ابتداء من جنوب أفريقيا إلى المستعمرات البرتغالية إلى إسرائيل . بل لقد كانت إسرائيل بخاصة وبالذات هى أكبر منتفع فى العالم بتلك المواجهة بين الاستعمار الجديد والعالم الثالث . لقد أصبحت تلك البقايا المتخلفة من الاستعمار القديم بمثابة النويّات الصلبة أو العقد البارزة فى النسيج الغامر الخفيف للاستعمار الجديد وقتئذ .

معنى آخر وأخير أن مدّ الستينات الاستعمارى كان يمكن أن ينطلق إلى مالانهاية إلى أن يبتلع العالم الثالث كله دون أن يصطدم بما يوقفه عند حد . وبهذا كان العالم الثالث هو أول ضحايا العصر النووى . وهذا يقينا أبعد شيء عن الفكرة المبسطة التى توهمت ــ هكذا على الاطلاق ودون تحفظ ــ أنه كسب من عصر الصراع الكتلى استقلاله وكيانه .

وعلى أية حال ، فلم يكن هناك شك فى أن من سوء حظ العالم الثالث أن العصر

النووى لم يتأخر بضعة عقود عما حدث بالفعل ريثما يكون قد استكمل قواه الذاتية قبل أن يحاصر بين شقى رحى الشلل النووى من ناحية والابتزاز النووى من الناحية الأخرى . فمن المؤسف بالتأكيد أن عصر التحرير الوطنى لم يكد يبدأ بعد انتهاء عصر احتكار القوة فى العالم حتى كان العصر النووى ـ بمصادفة تاريخية بحتة ـ قد بدأ ، فما لبث أن ألقى بظلاله وأخطاره على حركة التحرير الوطنى فأصابها بالجمود والاضطراب ولا نقول الشلل .

بين التعايش وعدم الانحياز

وعند هذا الحد من السياق يثور سؤال مبدئى وحاسم عن العلاقة بين التعايش السلمى وعدم الانحياز . فالتعايش السلمى نشأ كصيغة حياة modus vivendi بين نظامين أيديولوجيين متناقضين فى معسكرين سياسيين جبارين ، وذلك منعا للتصادم القاتل بينهما . أما عدم الانحياز فنشأ كصيغة عمل modus operandi لتنسيق التعامل معهما من جانب طرف ثالث صغير يعتبر نفسه محايدا بينهما حيادا إيجابيا لا انتهائيا .

ومن حيث التوزيع الجغرافى فلقد يمكن أن نميز بينهما ـ تبسيطا ـ فنقول إن التعايش السلمى يتوطن العروض المعتدلة ويكاد يتقاسمها مناصفة ، أما عدم الانحياز فظاهرة مدارية أساسا ويكاد يغطى المداريات عموما . أما تاريخيا فقد نشأ عدم الانحياز فى ، وبفضل ، مناخ اشتدت فيه الحرب الباردة . وفى هذا المناخ وبفضله أيضا استطاع أن يلعب دورا هاما فى مخاض التعايش السلمى ودفعه وتنميته . هذا هو الأصل فى كل من التعايش السلمى وعدم الانحياز تاريخيا ومبدئيا .

ولكن الذى حدث فى الستينات أننا وصلنا فيما يرى البعض إلى صورة معكوسة كثيرا أو قليلا ، ظاهريا أو مؤقتا . فبدلا من التناقض بين طرفى التعايش السلمى ، بدا التناقض كما لو كان بين التعايش السلمى وعدم الانحياز ، حتى ظن أن التعايش إنما كان يعيش على حساب عدم الانحياز أو أن التضحية بعدم الانحياز كانت الثمن الوحيد لبقاء التعايش السلمى . وبدلا من العكس ، عوقب عدم الانحياز من جانب التعايش السلمى على دفعه له ، وأصبح وسيط السلام هو جبهة الصدام وضحية العدوان . وبدل أن يوجه نطاق الأحلاف العسكرية الغربية المضروب حول المعسكر الشرق إلى هدفه المفروض ، أصبح باستثناء وحيد فى جنوب شرق آسيا (فيتنام) يوجه إلى ضرب دول عدم الانحياز (الشرق الأوسط خاصة) .

أكثر من هذا ، وبعد أن كان العالم الثالث يأخذ موقف عدم الانحياز بين طرفى

التعايش السلمى ، بدا كما لو كان أحد هذين الطرفين يأخذ ـ من وجهة النتائج العملية على الأقل ـ موقف عدم الانحياز بينه وبين الطرف الآخر ، بمثل ما أن الطرف الآخر قد نقل بالفعل حربه الباردة بل الساخنة من نظيره المقابل إلى العالم الثالث وعدم الانحياز . وبهذا وذاك بدا كما لو أن تعايش الكبار إنما يتم على حساب الصغار . بل ذهب البعض إلى حد القول بأنه لولا عدم التكافؤ المطلق فى الحجم والوزن ، ولولا أن العالم الثالث جسم غير متجانس متفكك ومبعثر ، لجاز اعتبار الاستقطاب الثنائى السائد وقتئذ استقطابا بين الإمبريالية أو بالدقة الإمبريالية الأمريكية وبين عدم الانحياز ، بين « العالم الحر » وبين العالم الثالث .

ولقد يؤول هذا على أنه لم يكن للعالم الثالث أمل فى مساندة الكتلة الشرقية له مساندة كاملة فى وجه الأخطار التصادمية إلا بإلقاء نفسه فى أحضانها ، وبذلك يتخلى عن عدم انحيازه أصلا وأساسًا . وهذا المنطق كله وإن اعترف ابتداء بعدوانية الغرب وصداقة الشرق ، يصور الموقف فى الحقيقة على أن الخيار أمام عالم عدم الانحياز كان إما بين عدو قادر وصديق عاجز فى الحالة الأولى ، وإما بين عدو قادر وصديق طامع فى الحالة الثانية .

مهما كان الأمر ، فلقد كان الشىء البديهى أن التعايش السلمى لا يمكن أن يكون من طرف واحد ، كما أنه إذا كان مفهوما بين الاشتراكية والرأسمالية فإنه لا يمكن أن يكون بين الاشتراكية والاستعمار . وأهم من ذلك لا ريب أن التعايش السلمى كان لا يمكن ولا يجب أن يتحول إلى تعايش استسلامى . على أن الأمر الواقع لم يلبث كالمعتاد أن حسم الجدل النظرى بطريقته الحادة القاطعة ، فنقل الصراع كله بغتة من مستوى إلى مستوى جديد ومن أفق إلى آخر : من التعايش إلى الوفاق .

السبعينات : عقد الوفاق

قد يكون الوفاق نقيض التعايش فى معنى أو شبيهه فى معنى آخر ، تصحيحا لمساره من وجهة نظر أو تحريفا من وجهة مضادة ، ارتدادا عنه فى نواح أو امتدادا له فى أخرى ، تصعيدا فى جوانب أو استمرارا فى غيرها ، إلا أنه ـ فى كل الأحوال ـ استمرار للصراع ولكن بطريقة أخرى . فلقد يكون الوفاق ـ بالتعريف ـ انتقالا « من المواجهة إلى المفاوضة from confrontation to negotiation » ، وبالتالى نقلة فى النغمة أو الطبقة أو النبرة الأساسية modulation من أصابع البيانو السوداء إلى البيضاء أو من الديوان الكبير

إلى الديوان الصغير minor كما قد نقول ، أو قد يعد تغييرا فى التكتيك أو فى major الاستراتيجية ، ولا نقول اتجاها من الحل العسكرى إلى الحل السياسى ، غير أنه يبقى فى النهاية عملية تقنين للصراع لا إلغاء ، وتقنيل لا إنهاء .

وعلى الجملة ، ففيما كان التعايش السلمى صورة مقنعة من الصراع ، جاء الوفاق صورة مقننة من التعايش . وما الوفاق فى جوهرة إلا « جراحة تجميل » للتعايش كما وضعها أحدهم ، أو « إخراج تليفزيونى » له كما عبر آخر . وكلاهما على أية حال لا ينفى الصراع ولكن يحكمه ويضبطه بطريقته الخاصة على أساس مبدأ « التنافس مع التعايش » . ولئن كان الجانبان قد اتفقا على المفاوضة بدل المواجهة ، فإن كليهما إنما يريد « المفاوضة من مركز القوة » . ولهذا مضى سباق التسلح على أشده ربما أكثر من أى وقت مضى ، ولكن فى أقصى حدود السرية والتمويه ولا نقول الخداع المتبادل .

دور فيتنـــام

ولنفصّل . كما ولد التعايش على مطرقة أزمة كوبا فى أوائل الستينات ، ولد الوفاق على صخرة كارثة فيتنام فى أوائل السبعينات . أى أن كليهما ولد فى أتون الحرب الباردة ، فى ظل مواجهة عسكرية أو شبه عسكرية رهيبة ، مباشرة أو غير مباشرة ، ناجزة أو مطولة ، بين العملاقين أساسا ولكن خلال طرف تابع لأحدهما من دول العالم الثالث المدارية الصغيرة .

والغريب اللافت بالصدفة أو بالمناسبة هو التناظر المثير فى الموقع الجغرافى والاستراتيجى والسياسى بين كوبا وفيتنام . فكلتاهما تكاد تقع تحت مدار السرطان حوالى الطرف الجنوبى الشرقى الأقصى من قارته قرب « بطن » الكتلة أو العملاق المرابط ولكن المضاد لا القائد ، وبالتالى تبدو كجسم جزرى غريب دخيل ومعاكس وسط المحيط السياسى والأمنى السائد ، أو كمندوب ووكيل تابع Surrogate أو كشظية متطوحة أو متطايرة من الكتلة المعادية ضلت طريقها إلى أن غرست كشوكة فى جنب العملاق المضاد .

ولكن ما أشد الاختلاف بين المواجهتين الدمويتين بعد ذلك . فبينما كانت كوبا هزيمة استراتيجية سافرة للاتحاد السوفيتى ونصرا تاريخيا محققا للولايات المتحدة ، كانت فيتنام النقيض المطلق : هزيمة تاريخية قاصمة للولايات ونصرا استراتيجيا رنانا للاتحاد . كانت كوبا فى الحقيقة أول نسخة نووية من مبدأ مونرو كما أسلفنا ، أى أول تطبيق للمبدأ

القارى القديم فى العصر النووى ، أما فيتنام فكانت بالمقابل آخر تطبيق أو طبعة من القانون الجيوستراتيجى القارى القديم القائل بأنه لا بقاء لقوة أجنبية غازية على اليابس الأسيوى .

وكما تمخضت مصادمة كوبا عن التعايش السلمى ، فإن كارثة فيتنام جاءت مخاض الوفاق وقابلته . وأخيرا وليس آخرا فكما جاء التعايش تعبيرا عن انزلاق الاتحاد فى الصراع وتفوق الولايات وتسيدها المطلق طوال عقد التعايش ، فكذلك جاء الوفاق تعبيرا عن تراجع الولايات وانتقال التفوق النسبى فيه على الأقل إلى الاتحاد ، الذى كسب بذلك أول جولة له فى الصراع ، سواء عد ذلك الكسب بالنقط أو بالضربة القاضية ، بحيث جاء العقد لصالحه تماما أو غالبا على المسرح العالمى . إن السبعينات ـ إن شئت فقل ـ هى عقد الاتحاد السوفيتى بالتقريب إن لم يكن بالتأكيد .

من الكارثة إلى العقدة

وليس من شك بعد هذا أن فيتنام كانت كارثة حقيقية وهزيمة ساحقة ومخزية لأمريكا debâcle ، رجت كل فكرها الاستراتيجى ووجودها وكيانها رجا ، وهزت مكانتها السياسية العالمية حتى النخاع ، وذلك فضلا عن حياتها الداخلية التى أصيبت بتقلصات حادة إلى حد التشنجات فرضت عليها أن تعيد النظر فى كل كيانها وذاتها ومعطياتها ، ومن ثم مسارها ومسيرتها ومصيرها .

فالدولة النووية العظمى الأولى فى العالم والتاريخ ، التى خرجت عاتية عادية لتدخل دولة صغيرة متخلفة ولكنها مناضلة تحت سيطرتها ، بل و « لتعيدها إلى العصر الحجرى » (كذا !) بجبروتها التكنولوجى الفائق ، عادت هى مهزومة عاجزة منسحبة بعد حرب شبه عقدية استنزافية خاسرة مثلما هى ظالمة ، لتخرج بعدها من المنطقة إلى الأبد ولتدخل التاريخ بأول هزيمة لها فى تاريخها وكذلك بأول هزيمة تقليدية لقوة نووية فى التاريخ .

وكجولياث وداود ، أدركت الولايات لأول مرة ربما أن للقوة حدودا ، حتى القوة النووية ، وأن حدود القوة تفرض عليها التراجع عن دور شرطى العالم وعن مغامرة الصدام النووى بين القطبين . وتعبيرا عن هذا تحولت سياسة أمريكا إلى أن تتولى الدول الصديقة والحليفة حروبها وصراعاتها المحلية بنفسها بدل أن تنوب هى عنهم فيها ، بحيث لا تتورط أو تقدم إلا التأييد المعنوى وبعض المادى لا أكثر . فالحروب الأسيوية يقوم بها الأسيويون ، والحروب المحلية تترك لأصحابها ، وهكذا ـ « مبدأ نيكسون » . وبمجمل

القول فإن سياسة الوفاق جاءت ، كما عبر جيمز ريستون بدقة ، ملازمة للانحسار الأمريكى وإخراجا لبقا للتقوقع الأمريكى نتيجة عقدة فيتنام .

دور المتغيرات الدولية

وإذا كان الوفاق بهذا الشكل هو النتيجة المباشرة لمعطيات الاستقطاب النووى من مخاطر ومحاذير ، فإنه يعد بدرجة مقاربة النتج الجانبى للمتغيرات الدولية المواكبة وغير المواتية . فتماما كما وجد كبار أوربا فى الستينات أنهم ، حتى بعد أن خلعوا عن عرش العالم ذاته ، قد أصبحوا محاصرين استراتيجيا بين العمالقة من أعلى (القوتين الأعظم) والأقزام من أسفل (الدول النامية المتحررة) ، وجد العملاقان بدورهما فى السبعينات أنهما رغم احتكار القمة المطلقة محاصران تكتيكيا بين الكبار من ناحية والصغار من الناحية الأخرى . فمن الكبار ، هناك على الجانب الغربى استقلالية الوحدة الأوربية المتزايدة وثورتها البادية على الوصاية الأمريكية ، وهناك على الجانب الشرق الانشقاق الصينى القاصم . ومن الصغار ، هناك قوة عدم الانحياز والحياد الإيجابى الطالعة التى تعمل على تحييد القوتين الأعظم نوعا والحد نسبيا من سيطرتهما المطلقة .

من هنا جاء الوفاق بلا جدال ردا مشتركا من القطبين على تفتت أو تخلخل الكتل وعلى عدم الانحياز فى آن واحد . ذلك أنه لم يعد خافيا على العملاقين أن كل خسائر يحققانها فى صراعهما إنما تتحول بالتوازن وبصورة ما إلى مكاسب لتلك الأطراف الأخرى ، بينما أن كل مكاسب تحققها هذه الأخيرة إنما تأتى مخصومة منهما ومحسوبة عليهما . من هنا أيضا ، وليس من هناك ، طرأت مظاهر كثيرة جديدة ومثيرة على العلاقات بين القطبين فى مجال التعامل والتعاون السلمى ، خاصة التجارة الخارجية والتبادل التكنولوجى .

من أبرز الأمثلة صفقات القمح والحبوب المليارية الضخمة من الولايات المتحدة إلى الاتحاد ، حيث مازالت الزراعة السوفيتية مشكلة عويصة تعانى من التقلب والعجز كل بضعة أعوام نتيجة المناخ وربما نظم الانتاج . وبالمثل فى الاتجاه نفسه صادرات التكنولوجيا الفائقة التقدم ولكن غير الاستراتيجية ، فضلا عن القروض الضخمة . وبالمقابل ، تأتى صادرات الغاز الطبيعى والذهب لتمويل تلك الصفقات ... الخ . وعلى الجانب السياسى كثرت الزيارات المتبادلة والوفود والمؤتمرات المستمرة ، ابتداء من مؤتمر هلسنكى لحقوق الانسان إلى مؤتمرات جنيف للحد من السلاح ... الخ .

ومن الطريف هنا أن العملاقين فيما يبدو يحرمان تقريبا على حلفائهما وأتباعهما ما يحللانه لنفسيهما فى معظم تلك المجالات . فالعلاقات والاتصالات السياسية والاقتصادية المسموح بها من قبل العملاقين تتم بحذر وبقدر . ومع ذلك فقد حقق بعضها مستويات عالية نسبيا ، بما فى ذلك القروض والعقود من دول أوربا الغربية الغنية لبعض دول أوربا الشرقية التى تحاول أن تنتزع هامشا من الاستقلالية وحرية الحركة خارج التبعية مثل رومانيا خاصة ... الخ .

ثم أخيرًا وليس آخرا جاء مشروع أنبوب الغاز الطبيعى السيبيرى الهائل من أعماق الاتحاد عبر شرق أوربا إلى غربها ، حيث يرسم خطا محوريا عرضيا أساسيا متعدد الفروع والنهايات ، يقطع عبر الكتلتين ويتعامد على الستار الحديدى ، ويكاد يتحدى الاستقطاب الثنائى أو يجعل منه سخرية سياسية استراتيجية بمعنى ما إلى حد أو آخر . ويكفى دليلا أو مؤشرا فى هذا المعنى أن أمريكا تعارض المشروع بشدة على أساس أنه يضع إمدادات الطاقة الأوربية تحت رحمة التهديد السوفيتى لعشرات السنين فى المستقبل ، بينما أصرت دول أوربا الغربية على أنه لا يهدد أمنها وإنما يؤمن مصالحها ، ثم مضت فى تنفيذ المشروع فى وجه المقاومة الأمريكية أو غير عابئة بها .

الوفاق فى الميزان

وعند هذا الحد تتكشف لنا طبيعة الوفاق على حقيقته ، كما نفهم رد فعل كل الأطراف الأخرى إزاءه . فالوفاق ، الذى هو ـ بالمناسبة ـ ليس وفاقا entente بالمعنى الدبلوماسى الفنى الصارم بل مجرد انفراج détente ، الوفاق لا يعنى التقارب rapprochement بين القطبين المتضادين بقدر ما يعنى التفاهم understanding بينهما على ألا يدعا للصراع أن يؤدى إلى الصدام بينهما . ويعنى هذا أساسا وبالتحديد ألا يدعا لصراعات الآخرين وللعلاقات بين الصغار أو الكبار أن تحكم وتوجه صراعهما الذاتى أو العلاقات المباشرة بينهما ، وإنما على العكس أن يحكم صراعهما وعلاقاتهما الخاصة تلك الصراعات والعلاقات وتوجهها . وبذلك تظل القبضة لها على مقدرات العالم دون أن تنفلت فى وجه أو فك أى منهما .

أما من الناحية السياسية أو الدبلوماسية فإن الوفاق بشكله هذا ينتقل بالصراع عمليا من مبدأ « تناطح القوى » إلى مبدأ « توازن القوى » ، ذلك الذى ساد فى القرن ١٩ على يد بريطانيا أساسا كدولة وعلى يد مترنيخ بالذات كسياسى . أو أخيرا ، إذا استكملنا تشبيه

الملاكمة السالف الذكر ، فإن الوفاق يستبعد الآن « الضرب تحت الحزام » مثلما استبعد التعايش من قبل « الضرب فى الرأس » . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الصراع قد اقترب بالعملاقين من حالة من الاعياء والجمود والمضاربة . إلا أن الوفاق لا يوقف الصراع ، وإنما فقط يضع حدا للمغالاة فى إرهاق المتصارعين لحساب ولصالح المتفرجين .

ولم يكن غريبا لذلك أن يأتى رد فعل الآخرين سواء داخل الكتل أو خارجها مضادا للوفاق رغم اختلاف مواقعهم الأساسية . فالكل تقريبا رأى فيه قطعة من « انتهازية الأقوياء » وصيغة ملفقة لإخضاع علاقات وصراعات الصغار لضبط علاقات وصراعات الكبار ، بينما تحدث بعض الساخرين الساجعين عن « نفاق الوفاق » و « انبعاج الانفراج » . وفى العالم الثالث ، خاصة فى الصين ، ذهب كثيرون إلى اعتباره « تواطؤا collusion » سافرا بين القطبين « ويالتا ثانية » ، « يالتا الحرب الباردة »[1] تستهدف تقسيم العالم الثالث إلى مناطق نفوذ جديدة مثلما استهدفت يالتا الأولى بعد الحرب الساخنة اقتسام أوربا .

الموقف الصينى

وعن موقف الصين بالذات ، فإنها ترى أن القوتين الأعظم ، على عكسها هى كقوة ثورية ديناميكية ، أقرب الآن فى طبيعتها إلى أن تكونا قوتين محافظتين على حد سواء ، لأن هدفها ليس تغيير الوضع الراهن فى العالم وإنما الابقاء عليه ، وذلك لصالحها أساسا . وهذا هو جوهر الوفاق . كل ما هناك أن إحدى القوتين تريد التوسع ، والأخرى تريد حماية مصالحها المكتسبة . واستمرار هذا التنافس سوف يؤدى بهما إلى الحرب يوما ما . ومن هنا فإنهما تمارسان « تكتيكا مزدوجا » بصدد التسلح ، إذ بينما تدعوان إلى الحد من التسلح تمارسان التوسع فيه على أوسع نطاق . وحتى دعوتهما إلى الحد من التسلح تنصب فقط على الكم دون الكيف ، وهذا إنما يعنى « التوازن نحو الأعلى » باستمرار ،[2] مما يضاعف خطر الصدام . ولهذا كله فإن الوفاق محكوم عليه سلفا .

---

(١) Heikal, Sphinx, p. 169, 181.

(٢) خيرى عزيز ، « التحرك الديبلوماسى والانفتاح الصينى الأخير » ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٨ ، ص ١٣٠ .

ليس هذا فحسب . فلقد توصلت الصين إلى نظرية جديدة فى تقسيم ، أو بالأصح إعاده تقسيم ، العالم إلى عوامله أو عوالمه الثلاثة المكونة ، إن اتسقت فى الاطار العام لفلسفتها الإيديولوجية والصراعية ، فإن الوفاق يأتى موضوعيا ليبرهن على صحة تلك النظرية كما تصر هى وتلح . فبدلا من التقسيم الكلاسيكى أو التقليدى للعالم المعاصر إلى أول هو الغرب الرأسمالى المتقدم ، وثان هو الشرق الاشتراكى التقدمى ، وثالث هو الدول النامية أو المتخلفة المتحررة ، قدمت الصين تصنيفا ثوريا ومختلفا تماما . فالعالم الأول إنما يضم القوتين الأعظم وحدهما ، الولايات والاتحاد ، وذلك بحسبانهما قوتين محافظتين من حيث الثورية ومتواطئتين فى الوفاق . أما العالم الثانى فهو الدول الصناعية المتقدمة وعلى رأسها أوربا الغربية . وأخيرا فإن العالم الثالث هو الدول النامية الفقيرة ولكن التقدمية ، ومنها أو على رأسها الصين نفسها[1] . وفى الخلاصة تنتهى الصين إلى حث العالمين الثانى والثالث على التضامن لمواجهة العالم الأول وإحباط وفاقه الانتهازى ... الخ .

الموقف الأوربى

أما فى الغرب فإن الحلفاء الأوربيين ازدادت شكوكهم فى النوايا الأمريكية وتوجسهم من تخليها عن الدفاع عنهم نوويا أو حتى تقليديا . وكما حاولت الصين أن تستثمر الوفاق لتحذير العالم الثالث من الاتحاد السوفيتى وإبعاده عنه ، فإن الاتحاد بدوره حاول أن يستغل مخاوف الأوربيين ليدس إسفينا بين الحلفاء الغربيين وداخل حلف الأطلنطى . ولعل الطريف هنا حقا أن الأوربيين ، الذين كانوا فى المراحل والعقود السابقة أميل إلى المزايدة على أمريكا فى معاداه الشيوعية والسوفيت واستعدائها عليهم ، قد تذبذبت مواقفهم من الوفاق أكثر من مرة وفى أكثر من اتجاه وذلك بحسب تذبذب مساره وبوصلته .

فغداة الوفاق عادوا إلى المزايدة أكثر من أى وقت مضى مطالبين أمريكا بالعودة إلى المواجهة والروح العسكرية الصلبه أو الصليبية ...الخ . ولكن فى السنوات الأخيرة ، أى فى الثمانينات بخاصة ، حين اتجهت أمريكا ريجان من جديد إلى روح المواجهة مع السوفيت بعد أن قدرت أنهم قد حولوا الوفاق لصالحهم عالميا ، عاد الأوربيون يطالبونها بضبط النفس والتعقل وتخفيف نغمة التهديد ...الخ .

---

(١) عادل حسين ، الاقتصاد المصرى من الاستقلال إلى التبعية ، بيروت ، ١٩٨١ ، ج ١ ص ٣٠٠ .

بل لقد أخذت الحركات السلامية ، شعبية وحكومية ، تتسع فى أوربا الغربية منذ بداية الثمانينات بالتقريب ، وأصبحت المظاهر والمظاهرات العدائية للولايات أمرا مألوفا عاديا فى دولها ، كما اشتد تيار المطالبة بالحد من التسليح عامة والنووى منه خاصة بل وبتجريد أوربا الغربية (والشرقية بالمثل والموازاة) من الأسلحة النووية ، وإلا فبتجميد أو عدم تحديث أو تعظيم الترسانة النووية الأمريكية المنشورة على أراضيها .. الخ .

أضف إلى هذا اشتداد بل استشراء النزعة الأوربية إلى اتخاذ مواقف مستقلة إلى حد أو آخر فى المشاكل والقضايا الدولية الكبرى مثل الشرق الأوسط وأمن البحر المتوسط . وقد لا تكون هذه المواقف وتلك الخلافات أكثر من تكتيكية إن لم نقل أحيانا انتهازية ، إلا أنها مؤثرة نسبيا مع ذلك . ففى حالة أزمة الشرق الأوسط ، على سبيل المثال ، يمكن القول بمنتهى الاختصار ـ والصراحة أيضا ـ إن الفارق هو أن أوربا تريد أن تمسك العصا من الوسط ، فيما تريد أمريكا أن تمسكها من الطرفين .

كذلك فلقد نشأت فى السنوات الأخيرة بضعة محاور أو أشباه محاور استقطاب ثانوية متقاطعة أو متعامدة داخل المعسكر الغربى ككل ، تعبر بوضوح عن قدر من اختلاف المصالح الذاتية الخاصة والسياسات التكتيكية الاقليمية . ويلاحظ أن فرنسا غالبا طرف فى هذه المحاور الصغرى ، فى حين أن الولايات المتحدة هى الطرف الثابت الآخر . فداخل أوربا الغربية نفسها ثمة شبه محور الولايات المتحدة ـ بريطانيا التقليدى الخاص ، فى مقابل شبه محور فرنسا ـ ألمانيا الناشئ أو الواشى . وفى المغرب العربى نستطيع أن نميز مؤخرا شبه محور فرنسا ـ الجزائر/ليبيا (باعتبار أن الأولى اشتراكية الحكم حاليا وذات ميول تقدمية) ، وذلك فى مقابل شبه محور الولايات المتحدة ـ المغرب/تونس (باعتبار أن الأخيرتين نظم تقليدية محافظة) . وفى عقر أمريكا اللاتنية نجد محور الولايات المتحدة ـ الدول المحافظة الأساسى ، فى مقابل شبه محور فرنسا ـ الدول « الثورية » . حتى فى آسيا نستطيع أن نلمح شبه محور فرنسى ـ هندى بازغ ، فى مقابل شبه المحور الأمريكى ـ الباكستانى الراجع . وهكذا وهكذا إلى آخره .

وعلى أية حال فقد أضحى من الواضح عموما أن هامشا ما من الاختلاف الحقيقى أو النسبى فى المصالح الاستراتيجية والسياسة والاقتصادية بين أوربا والولايات المتحدة قد بزغ فى ظل الوفاق . إلى حد أن ارتفعت هنا وهناك فى أوربا بعض صيحات الحياد ، كما عادت إلى السطح الدعوة القديمة إلى حل حلفى الأطلس ووارسو على السواء ، ودعك

من الدعوة الطوباوية المعاصرة إلى دمجها فى حلف واحد مشترك[1] . بل لقد وصل الأمر مؤخرا إلى حد أن تكهن بعض المراقبين السياسيين بأن عدم الانحياز نفسه قد يغزو أوربا يوما ما (كذا) .

بالمقابل ، ففى وجه هذه التهديدات أو التلميحات الأوربية الداعية إلى الانسحاب أو النكوص فى صراع العملاقين ، أيا كانت قيمتها الحقيقية ، برزت على الجانب الأمريكى نفسه بغضب نغمة العودة إلى العزلة والتهديد بالخروج من أوربا وتركها لشأنها ، يعنى تاركة « أوربا للأوربيين » مثلما تركت من قبل « آسيا للأسيويين » . وهذا كله مايهدد بأن تتحول الفجوة إلى جفوة ، والصُّدَاع إلى صدع .

سيناريو الوفاق
حرب أكتوبر ثانيةً

كان أول اختبار قوة فعال للوفاق الجديد أو الوليد هو حرب أكتوبر ، التى إن لم تعد صراعا مباشرا أو غير مباشر بين العملاقين أو الكتلتين فإنها كانت على الأقل محكومة ومضبوطة بحدود وفاقهما الوافد ، شأنها فى ذلك شأن كل الصراعات الاقليمية اللاحقة والتى ستنقط العقد كله وإلى اليوم (بما فى ذلك حتى أزمة جزر فوكلند النائية والواقعة فى عقر دار المعسكر الغربى نفسه) . هذا رغم أن أحد طرفى تلك الحرب كان قد تباعد بدرجة معلومة عن القوة العظمى الصديقة له تقليديا .

وابتداء ، فلقد كان من أول بنود الوفاق إحباط إمكانيات العودة إلى الحرب فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى ، وذلك عن طريق إعلانه الشهير عن « الاسترخاء العسكرى والاستراتيجى » فى الشرق الأوسط . ولأن هذا كان يعنى بكل بساطة ومباشرة وسفور تثبيت الأمر الواقع لصالح الطرف المحلى المنتصر من قبل وهو العدو الإسرائيلى ، فإن هذا التفاهم إن لم يعتبر « ميونيخ » سوفيتية للولايات المتحدة من جهة ، و « خيانة » سوفيتية للعرب من الجهة الأخرى ، فقد عده البعض على أقل تقدير « تواطؤا » سوفيتيا ـ أمريكيا .

وسواء كانت الحرب قد قامت « برغم » الوفاق كما يذهب البعض أو « بفضل »

---

(١) محمد عزيز شكرى ، « التكتلات والأحلاف الدولية فى عصر الوفاق » ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٤ ، ص ٨١ .

الوفاق كما يذهب البعض الآخر[1] ، فإنها كانت أساسا مبارزة بين السلاح الأمريكي فى جانب والسوفيتى فى الجانب الآخر. ولأن الولايات ، كما أعلنت ، لم تكن على استعداد لأن ترى السلاح الأمريكي يضرب ويهزم بالسلاح السوفيتى ، فقد حدثت التدخلات والمداخلات الوفاقية فى الميدان وخارجه ، بحيث أتت المعركة على جسامتها أقرب إلى الجمود المتوازن stalemate ونتيجتها أقرب إلى التعادل أو التحييد بلا نصر استراتيجى حاسم وإنما مجرد نصر تكتيكى متواضع على الأكثر ، فى حين أتت نتائجها ومعقباتها السياسية فى النهاية أقرب وأقرب إلى التميع وأشد شحوبا وضياعا على الأقل ، إن لم تكن حقا قد انتهت إلى قلب جذرى تام وغير مسبوق للموقف العربى الأساسى برمته . لقد دمغ الوفاق المعركة بخاتمه الباهت وطابعه المتميع بقوة ، بينما دمغ الصراع كله بقوة وعنف أكثر مما ينبغى .

ليس هذا فحسب ، وإنما جاءت نتائج الحرب عكسية و/أو معاكسة أو انقلابية انعكاسية للعملاقين مثلما جاءت للطرفين المحليين . فلقد ترتب عليها مباشرة إخراج الاتحاد السوفيتى نهائيا من قلب المنطقة وقلب الصراع واستبعد من الحل السياسى كلية ، بينما وضعت الولايات قدمها فى حذائه وورثت دورة كاملا بل مضاعفا . وفى النتيجة عادت منطقة الشرق الأوسط والعالم العربى أقرب فى معظمها إلى الارتباط الأمريكى بعد أن كانت منصفة بالتقريب بينه وبين الارتباط السوفيتى .

وفى المحصلة النهائية ، وهاهنا المفارقة المذهلة ، فإن عقدة فيتنام التى قادت إلى الوفاق والجزر الأمريكى السياسى عالميا لم يكن لها من استثناء سوى العالم العربى وحده والشرق الأوسط فقط . فبينما أطلقت عقدة فيتنام ثم صفقة الوفاق يد الروسيا عمليا فى العالم كله تقريبا إلا العالم العربى وحده بالدقة والتحديد (فلسطين ـ إسرائيل) ، كفت يد أمريكا تقريبا فى العالم كله إلا العالم العربى وحده للتعاسة والسخرية !

على امتداد الساحة الاقليمية

فإذا نحن انتقلنا إلى سائر الصراعات الاقليمية الأخرى التى تورط أو شارك فيها العملاقان خلال العقد وإلى اليوم ، لوجدنا أن الاتحاد هو الذى يحرز زمام المبادأة ويسجل نقطة الفوز دائما أو غالبا . يصدق هذا ابتداء من حرب الهند ـ الباكستان فى

---

(١) Heikal, op. cit. p. 191.

بداية السبعينات وانتصرت فيها الهند ، إلى ظلال حرب فيتنام فى كمبوتشيا ولاؤس فى آسيا ، ومن أنجولا إلى موزمبيق فى أفريقيا الجنوبية . وفى القرن الأفريقى فإن الاتحاد وإن خسر الصومال للولايات بعد ارتباط طويل ، فإنه انتزع منها بعد ارتباط أطول إثيوبيا التى تفوق الصومال وزنا وأهمية بكثير.

غير أنه هو الشرق الأوسط بالذات الذى سجل فيه الاتحاد أخطر نقطة . فعدا الوجود السوفيتى السابق فى بعض دوله العربية كتحالفات أو علاقات صداقة وثيقة أو قواعد بحرية ، خاصة فى ليبيا وعدن وسوريا والعراق ، فإنه وصل فى عملية أفغانستان إلى حد الغزو الكامل ، وذلك أيضا فى الوقت نفسه الذى أخرجت الولايات من إيران المجاورة .

وفى المحصلة ، بالمناسبة ، حدث نوع من تبادل المواقع أو الأدوار بين العملاقين فى هذا الجزء الكبير والخطير من العالم . فقبل حرب أكتوبر كان السوفيت فى العالم العربى أساسا ، والغرب فى أفريقيا خصوصا . ولكن بعد الحرب حدث العكس : خرج السوفيت من العالم العربى كثيرا ، ودخلوا أفريقيا أكثر . ولا يعنى هذا بالطبع استقطاب أفريقيا بين شمال غربى (أعنى أمريكى) وجنوب شرق (أى سوفيتى) ، ولكنه قد يوحى بانطباع جزئى طفيف وربما بمؤشرات مستقبلية محدودة فى ذلك الاتجاه .

سـر الانقـلاب

ذلك فى خطوطة العريضة هو سجل الصراع وحصاد الوفاق . والسؤال الكبير هو : كيف ولماذا حدث هذا الانقلاب الاستراتيجى الجسيم بين العملاقين ، وما مداه ومغزاه ؟ حسنا ، فى الوقت نفسه الذى نشأت فيه للولايات المتحدة عقدة فيتنام وتضخمت حتى شلت حركتها كثيرا ، تحرر الاتحاد السوفيتى من عقدة الحرب المحدودة التى شلت حركته من قبل فى ظل التعايش السلمى ، وذلك حين تبنى استراتيجية الرد المرن والحرب التقليدية بعد أن استكمل استعداده لها استراتيجيا بالأساطيل البحرية وفرسان الجو...الخ . وتلك فى ذاتها مصادفة تاريخية خارقة ، ولكنها بحد ذاتها أحد أخطر ضوابط الوفاق ومحددات مساره .

فلأول مرة منذ ربع قرن ينحسر المد الأمريكى حول العالم ويتحول إلى جزر حقيقى خشية التورط فى فيتنام أخرى ، فى حين يعلو المد السوفيتى هنا وهناك خاصة فى أفريقيا وآسيا والكاريبى ...الخ . ولأول مرة اختل توازن القوى العالمية عسكريا وسياسيا لصالح

السوفيت منذ انتهاء الحرب الثانية . ولأول مرة وباعتراف الجميع أصبح الاتحاد على جانب الهجوم على امتداد الساحة الدولية سياسيا وغير سياسى ، والولايات على الدفاع .

ولأول مرة منذ ظهور الثنائية القطبية لم تعد صحيحة بالضرورة نظرية « من مع أمريكا يكسب » أو « من معه أمريكا يكسب » ولا النظرية المقابلة « من مع السوفيت يخسر » أو « من معه السوفيت يخسر » . ولأول مرة ، وبالأخص منذ الثمانينات ، تصبح « أزمة القوة الأمريكية » قضية شبه يومية مطروحة فى الصحافة ووسائل الاعلام والمعاهد العلمية والاستراتيجية الأمريكية ، بينما تعترف الادارة نفسها على كل مستوياتها وتردد بلا انقطاع ولا مواربة تراجع القوة الأمريكية النووية والتقليدية وتفوق القوة السوفيتية المحقق .

ولأول مرة ، أخيرا وليس آخرا ، يصبح كل هم الاستراتيجية العظمى لأمريكا هو استعادة التوازن الاستراتيجى والتصدى للتفوق والخطر والزحف السوفيتى أو الشيوعى عالميا واقليميا ومحليا ، حتى باتت تخضع كل اهتماماتها وموقفها فى الصراعات الاقليمية لهذا الضابط الحاكم وحده ، بصورة تنذر بالعودة بالعالم إلى سياسة المواجهة والمجابهة والتطويق والتصادم وتكاد تذكر بالستينات أو السبعينات ، بل وذلك إلى الحد الذى عاد معه حلفاؤها الأوربيون كما رأينا يشدون فى الاتجاه المضاد وينشدون السلام ويضغطون عليها بقوة من أجله ـ ولكن بلا جدوى فيما يبدو .

وهنا ، عند هذه النقطة ، لايمكن لأحد التنبؤ علميا بما سيكون عليه شكل أو مسار الثمانينات الاستراتيجى : أيكون امتدادا للسبعينات أى للوفاق ، أم انقلابا عليه وارتدادا إلى الستينات ، أم صيغة أخرى فى ضمير الاستراتيجية لم تزل . لنرجئ القضية ريثما نطل إطلالة فاحصة على رحلة الصغار بعد أن تابعنا رحلة الكبار .

الفصل الرابع عشر

استراتيجية عدم الانحياز

كأول نبت للمناخ السياسى الجديد فى عالم مابعد التحرير والذرة ، كان لعدم الانحياز بالضرورة والامتياز فعل الزناد أو الشرارة بما أطلق بعده من انعكاسات تتابعت من الوحدة الأوروبية إلى الوفاق . غير أن عدم الانحياز منذ النشأه إلى اليوم مر فى مرحلتين مختلفتين جذريا من الصعود والارتقاء والارتفاع ثم من الانحدار والاتضاع وربما الضياع . ولهذا يرسم خطه البيانى منحنى قوسيا جرسيا bell-shaped ، له سفح صاعد وآخر هابط ، الفرق بينهما سياسيا كالفرق بين الشباب والشيخوخة تماما أو كالفرق بين عصر وعصر تقريبا . فالجانب الصاعد ، بما فى ذلك عصره الذهبى أو « العصر البطولى beroic age» ، يمتد نحو عقد من أواخر الخمسينات إلى أواخر الستينات ، بينما يمتد الجانب الآخر من التل من أواخر الستينات مغطيا السبعينات ثم واصلا حتى اليوم ، وفيه تلقى عدم الانحياز أقسى اختباراته وأشدها مرارة .

وبقدر ماطغت قوته المعنوية على الصورة النظرية فى المرحلة الأولى ، مما فتح الباب لكثير من الحماس المسرف المفرط والعاطفية غير الموضوعية ، بقدر ما انقلبت الصورة فى المرحلة الثانية حتى طغت عليها جوانب ضعفه من الناحية التطبيقية ، بل وإلى حد فتح الباب للاغراق والاستغراق فى الانهزامية اليائسة والمراجعة البائسة بل والتراجع المضطرب أحيانا . من ثم فنحن هنا ، أكثر من أى شىء آخر ، بحاجة إلى النظرة العلمية السوية التى تميز بين النظرية والتطبيق ، بين التحليل الأكاديمى المتفائل والتجربة الواقعية بعنفوانها .

مرحلة الصعود

فإذا بدأنا من البداية ، فلقد أعطت ثورة التحرير نسلا ضخما من الدول الجديدة

الصغيرة النامية التى تتفتح على خضم السياسة العالمية ودوامته كوحدات مستقلة لأول مرة منذ عقود وأحيانا منذ قرون . بل إن كثيرا منها لم يعرف شكل الدولة الوطنية الحديثة قبل الاستعمار إطلاقا ، وأكثرها لم يكن يعرف العالم الخارجى إلا عن طريق طاقة ضيقة احتكارية محكمة هى دولة المتروبول الاستعمارية . ولما كانت الدول الاستعمارية ترسم لهذه المستعمرات ــ كتوابع صماء ــ توجيهها الخارجى وتقننه فى تيارات بعينها ، فلقد كان هذا التوجيه السياسى يرسم فى النهاية نمطا طاردا مركزيا centrifugal تتباعد به المستعمرات ، وتعطى ظهرها لبعضها البعض فى الوقت الذى تقرب قسرا من المتروبول .

ولهذا فإن مرحلة ما بعد التحرير كانت بالضرورة مرحلة صناعة السياسة الخارجية الجديدة ، تحاول فيها أن تتلمس طريقها بحذر وأن تتحرك بأمان فى غاب السياسة العالمية وأدغالها ، معسكراتها وكتلها . ومنذ البداية وجدت الدول المتحررة نفسها تخضع لضغوط عنيفة فجة أحيانا أو انسيابية ولكنها خطيرة أحيانا أخرى تحاول أن تتجاذبها أو أن تأسرها فى فلكها . ولم تكن هذه الضغوط لتخرج فى جملتها وفى التحليل الأخير عن مناورات الحرب الباردة ومغناطيسية الاستقطاب الثنائى .

ومنذ البداية أيضا وجدت هذه الدول الصاعدة الرد فى « الحياد الإيجابى وعدم الانحياز » ، وأخذت تتجاذب وتستقطب فى طريقه حتى أصبح هذا نمطا جاذبا مركزيا centripetal يجمع بينها بعد أن كانت فى ظل الاستعمار شتيتا شعاعا ونمطا طاردا مركزيا ، وحتى أصبحت جبهة عدم الانحياز تمثل عالما قائما بذاته هو العالم الثالث .

ضغوط الغرب

وبديهى أن تأتى الضغوط الخطيرة حقا على الدول الوليدة النامية من جانب القوى الاستعمارية السابقة : أولا بحكم القصور الذاتى للاستعمار والتقليد الإمبريالى ، وثانيا لضمها أو ابتلاعها فى صفها فى الحرب الباردة وحرب الكتل المذهبية . فأما عن العامل الأول ، فإن القوى الاستعمارية القديمة إذا كانت قد أرغمت على الخروج فهى لم تغير بعد من عقليتها الاستغلالية وعقدة السيطرة والتحكم .

والواقع أنها لم تخرج أصلا إلا لتعود ، وإنما عودة المحتال الذكى لا اللص الغبى هذه المرة ، ولم تنحن لموجة التحرير إلا لتركبها ، وبذلك تدور حول روح العصر دون أن تصطدم به . والشعارات التكتيكية التى رفعها الاستعمار فى تلك المرحلة هى وحدها دليل يكشف كل استراتيجيتها : ارحل لتبقى Quit to stay ، الاستقلال داخل الترابط

Independence within interdependence ، حلب البقرة دون ملكيتها .. الخ .

وجماع هذا ومحصلته هو ما أصبح يعرف بجدارة « بالاستعمار الجديد » . ومحور ارتكازه أن يغير الشكل دون الموضوع ، والاطار لا الصورة . فهو أولا استعمار خبىء غير سافر ولا مباشر ، اقتصادى لا سياسى ، يعتمد على تفتيت الدول المتحررة لا تبعيتها ، وامتصاصها لا امتلاكها ، وأدواته الشركات والاحتكارات لا الجيوش والغزوات . وإذا كان الاستعمار القديم « يعطى الإنجيل ويأخذ الأرض » ، فإن هذا الجديد يعطى الاستقلال ويأخذ المحصول . وهو بذلك يستبدل بالاستعمار السياسى الاستعمار الاقتصادى ، ويتبنى النمط اليانكى فى أمريكا اللاتينية بدلا من النمط الإنجليزى فى أفريقيا .إنه باختصار أذكى ـ بعد أعلى ـ مراحل الإمبريالية .

أما عن مناورات الدول الاستعمارية لاستدراج الدول المتحررة إلى جانبها فى الحرب الباردة والصراع الكتلى ، فقد أخذت شكلا عنيفا مكشوفا . فلم يكن كسب العالم الثالث أوثلث العالم فى هذا الجانب أو ذاك بالأمر الذى يمكن التقليل من خطورته فى تحديد نتيجة الصراع العالمى[1] . ولهذا استماتت الكتلة الاستعمارية الغربية فى محاولة ضم العالم الثالث ، عالم الدول النامية الفقيرة حديثة الاستقلال ، إلى صفها وابتلاعه فى فلكها السياسى والمذهبى ، حتى وإن وصل الضغط والاكراه إلى حد العنف والقهر . وفى هذا السبيل استهدف الغرب هدفين : الاستراتيجية والأيديولوجية ، واتخذ أداتين : الأحلاف العسكرية والنموذج الرأسمالى .

الاستراتيجية والأحلاف

فأما الاستراتيجية والأحلاف فقد مرت منذ نهاية الحرب الثانية وفى الخمسينات بفترة محمومة ـ أكاد أقول مسعورة ـ حشد المعسكر الغربى فيها كل ضغوطه أولا على العالم العربى ، وثانيا على آسيا الموسمية ، ثم فى النهاية على أفريقيا المدارية ، لكى يربطها بسلسلة من الأحلاف التى يصفها « بالدفاعية » موجهة ضد المعسكر الشرقى وما نعته « بالخطر الشيوعى » على « العالم الحر » .

وكان منطق الغرب فى هذه الحملة هو أنه مع التحرير قد أصبحت هذه المناطق بلا قوة حربية تواجه ذلك الخطر ، أصبحت يعنى « فراغا » من وجهة نظره ، وادعى

---

(١) مورجنتاو .

أن ملأه من واجبه . تلك كانت ـ فى الشرق الأوسط مثلا ـ « نظرية أيزنهاور » نظرية الفراغ ، أما تطبيقها فكان مشروع حلف الشرق الأوسط (الميدو Medo) ثم حلف بغداد أو الحلف المركزى فيما بعد (السنتو Cento) فضلا عن الحلف الإسلامى الفضفاض ، وهكذا بقية السلسلة حتى الشرق الأقصى وحلف جنوب شرق آسيا (السيتو Ceato) . ولقد وصلت الضغوط من أجل هذه السياسة إلى أقصاها فى منطقة العالم العربى بالذات بحكم خطورة موقعها الاستراتيجى ومواردها البترولية بينما كانت أقلها نسبيا فى أفريقيا المدارية لتطرفها .

ومن نقطة الضغط الأقصى هذه ، وبالذات من نواتها النووية مصر ، تفجر رد الفعل البكر أصيلا وبتارا . فقد عدت المنطقة أحلاف الغرب « استعمارا جماعيا أو دوليا مقنعا » لجأ إليه كبديل للاستعمار الفردى القديم فى آخر مرحلة من مراحل شيخوخته وعجزه وانهياره ، وأعلنت رفضها للتبعية الجديدة التى تضعها فى مناطق النفوذ وتربطهابعجلة الاستعمار وبكتلة رجعية عدوانية . ورفضت المنطقة مبدأ الفراغ فإن قوتها الذاتية هى جديرة بأن تملأه . كما نبذت التلويح بالخطر الشيوعى البعيد الموهوم ، فى حين يجثم خطر الاستعمار ـ بما فى ذلك الإسرائيلى أساسا ـ على أنفاسها أو تطاردها أشباحه .

وفى وجه هذه المقاومة النضالية الثورية ، سقطت سياسة الأحلاف الغربية فى المنطقة وأصبح العالم العربى يمثل الحلقة المفقودة فى استراتيجية التطويق والاحتواء . لقد رسمت مؤشرات المستقبل وتحددت بوصلة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز .. وإن هى إلا سلسلة من الأفعال وردود الأفعال حتى كان هذا النموذج الحيادى ينتشر فى أرجاء العالم الثالث ويصبح دستور التوجيه السياسى للدول المتحررة حديثة الاستقلال . ومن هنا أتى الحياد الإيجابى وعدم الانحياز الابن الشرعى لثورة التحرير والعدو الطبيعى للاستعمار والإمبريالية .

الايديولوجيـة والنـموذج

ومثل هذا عن الايديولوجية والنظم الاجتماعية يقال . فقد انطلق المعسكر الغربى الرأسمالى ليعرض نموذجه المذهبى على العالم الثالث المتحرر الذى عاش عمره الاستعمارى فى ظل اقتصاد رأسمالى أو إقطاعى . وفى هذا السبيل حاول أن يستغل وجوده السابق ، وعلاقاته الاقتصادية الاحتكارية مع دوله الجديدة ، وكان منطقيا أن تفشل خطته

ودعايته ، لأن هذه الدول وجدت أن نكبتها الاستعمارية المزمنة إنما بدأت أصلا كجزء من النظام الرأسمالى ، وأن الرأسمالية الاستعمارية هى وحدها التى نزحت مواردها واستنزفت إنتاجها وثروتها .

ومن ناحية أخرى فلقد وجدت هذه الدول فى تخلفها الرهيب أن عليها أن تقطع شوطا شاقا لتعوض به الماضى ، وأن عشوائية وانتهازية الاقتصاد الحر وأناركية المذهب الليبرالى الفردى لا يمكن إلا أن تكون معوقا خطيرا فى هذا السبيل ، وبغير الاقتصاد الموجه والتخطيط الرشيد ستزداد تخلفا على تخلف . وفى نفس الوقت كان أمامها نموذج دول الكتلة الشرقية وخاصة الاتحاد والصين التى ثورت اقتصادها وكيانها بمعدل العاصفة وإلى مدى يكاد يتعدى حدود الخيال إذا قيس بمدة التجربة .

ثم هى كانت تتلفت حولها فتجد ، على سبيل المثال ، معدل نمو الاقتصاد فى الاتحاد السوفييتى ضعف معدل الولايات المتحدة ، وأن معدل نمو الانتاج الصناعى فى الكتلة الشيوعية ثلاثة أضعافه فى الكتلة الرأسمالية . كذلك كانت تنظر إلى الخلف قليلا فترى أن ظروفها تشبه بدرجة أو بأخرى ظروف روسيا ١٩١٧ أو الصين ١٩٤٩ أو كوبا ١٩٥٩ [١] . ومن هنا كانت حتمية الحل الاشتراكى بالنسبة للدول المتحررة النامية . وإذا كان بعض الاقتصاديين مثل هايلبرونر يرى أن أخطر حقيقة فى عصرنا هى اتجاه العالم المتزايد نحو جماعية الاقتصاد collectivization أو تشريكه socialisation ، فإن الدول المتحررة تؤكد هذا الاتجاه بكل قوة[٢] .

بيد أنها إذا كانت قد نبذت الطريق الرأسمالى أساسا ، فهى فى الأعم الأغلب لم تكن على استعداد لأن تحتذى النموذج الشرق فى صورته الشيوعية ، بل آثرت طريقا اشتراكيا وسطا معتدلا لا يجنح إلى أقصى اليسار . وفى رأى البعض أن هذا الطريق الوسط يتمثل فى الجمع بين قطاع عام قائد وسائد وقطاع خاص ثانوى ، وأن هذه الوصفة الاقتصادية هى بمعنى ما التعبير الاجتماعى عن عدم الانحياز كمبدأ وكفكرة . وأيا كانت صحة هذا التأويل ، فليس من الصدفة بالتأكيد أن السواد الأعظم من دول العالم الثالث تبنت الفلسفة الاشتراكية المتزنة ، ولا تكاد دولة جديدة تتحرر حتى تعلن الأخذ بهذه الأيديولوجية . وهكذا ازدوجت الثورة الوطنية بثورة اجتماعية ، وارتبط

---

(١) R. Heilbroner, The Future as History, N.Y., 1960, p. 88.

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٣ .

تحرير الوطن بتحرير المواطن ، وأصبحت الثورة الثنائية قانون البلاد المتحررة تقريبا .

خذ مثلا نمو الحركة وتوسعها على المستوى العددى والجغرافى كما تمثلت فى مؤتمراتها العديدة عبر العقود الأخيرة . ففى مؤتمرات باندونج وبلغراد حوالى منتصف الخمسينات بلغ عدد الدول المشتركة حوالى ٢٥ دولة . وحوالى مطالع السبعينات كان العدد قد تضاعف أو أكثر من تضاعف حيث تراوح حول ٥٠ - ٦٠ دولة . ولم تأت مطالع الثمانينات حتى كان العدد قد قفز إلى علامة ال ٧٥ دولة . أى أن عدد المشتركين قد تضاعف ثلاثة الأمثال فى نحو ربع قرن من ١٩٥٥ إلى ١٩٨٠ . وفى آخر المؤتمرات ارتفع عدد المشتركين إلى ٨٦ دولة . وهذا الرقم القياسى الأخير الذى سجلته الحركة يضم على الأقل نحو ١٠٠٠ - ١٥٠٠ مليون نسمة تمثل ثلث سكان العالم تقريبا وتغطى القارات الجنوبية الثلاث مع قطاع أوربى كالماس . لقد أصبح العالم الثالث ثلث العالم إلى نصفه ربما[1] .

هكذا فى الاستراتيجية السياسية وفى الأيديولوجية الاقتصادية ، تبلورت للدول المتحررة خطوط جديدة أصيلة ترفض أحلاف الغرب ونظمه مثلما ترفض حذافير نموذج الشرق ، وترسم لنفسها طريقا جديدة ـ الطريق الثالثة ـ لا غربية ولا شرقية ، وإنما تنبع من طبيعة ظروفها ومرحلة تطورها وتتواءم مع مفهومها ومثلها فى التحرر وعدم التبعية . وهكذا تحددت معالم الحياد الإيجابى وعدم الانحياز كخط يضمن للدول النامية استقلالها وسلامتها فى عالم الكتل ويؤمن تنميتها وتطورها خارج عالم التخلف .

ولسنا بحاجة أن نقرر أن مثل هذا الاختيار لم يكن بالأمر اليسير لا داخليا ولا خارجيا ، لا غربيا ولا شرقيا . فقد حاربه المعسكر الرأسمالى علنا وبكل عنف وضراوة ، فلسفيا واقتصاديا بل وعسكريا ، بينما لم يتقبله الشرق إلا بنصف قلب على الأكثر ، ثم فيما بعد حاول كلاهما أن يستدرجه ويستميله إلى صفه أو أن يستغله ويخترقه لحسابه .

فأما الموقف الأمريكى فغنى عن التذكير : « من ليس معنا فهو ضدنا » ، ومن ثم فإن عدم الانحياز ـ إيجاب أو لا إيجاب ـ « لا أخلاقى » كما وصمه دلز ، الذى خرج بكل جبروته وعتوه « ليقلص حجمه » . ولم يكن هذا الموقف ليخرج فى حقيقية عن

---

(١) عزيز شكرى ، ص ٨٩ .

نظرية أن عدم الانحياز إنما هو « حلف الضعفاء » إن لم يكن حقا « حلف الرقيق المحرر » (كذا !) .

أما اقتصاديا فقد استعمل كل أسلحته ، الحصار والخنق والضغط والتجويع ، حتى إذا ما استنفدت هذه أغراضها وصل بالفعل إلى مرحلة العدوان المسلح كما حدث فى مصر حيث بدأ التحدى الجديد ورفع النموذج الثورى ، فحاول الاستعمار الغربى أن يجهض الأم ويئد الوليد ويجعل من المثل أمثولة تردع بقية الدول الجديدة .

ولهذا فإن هذه المعركة نقطة تحول خطيرة جدا فى تاريخ العالم الثالث ، وهى فى تقديرنا تحدد ميلاد عدم الانحياز نهائيا وبنجاح ، وبعدها فتح الباب على مصراعيه ليصبح عدم الانحياز والعالم الثالث مرادفين أو شبه مرادفين . وفى المدى التدريجى ، فرض الخط الجديد نفسه فرضا على الغرب الذى لم يملك فى النهاية إلا أن يعترف به ويتعامل معه كحقيقة صلبة وأمر واقع ليس له من دافع .

موقف الشرق

أما من جانب المعسكر الشرقى فهو لا شك قد بدأ علاقته مع العالم الثالث برصيد لا بأس به من الحياد المبدئى أو على الأقل من انعدام الروح العدائية . فرغم كل ما فعلته دعاية الغرب ليجعل منه خطرا مخيفا فى أذهان الدول النامية والمتخلفة ، فمن الواضح أنه كان يرجح عندها الغرب فى نقطتين : أنه لا تاريخ استعمارى له معها ، وأنه بلا تجربة عنصرية ولا عقدة لونية بينها .

غير أن الاستعمار الغربى يعود فيحاول فى هذا الصدد أن يدس إسفينا بين الشرق والعالم الثالث ، فيرد على النقطة الأولى بأن الاتحاد السوفييتى مارس الاستعمار الأرضى المتصل وإن منعته جغرافيته من ممارسة الاستعمار المدارى عبر البحار . ويرد على النقطة الثانية بأنه يدعى مثل المساواة العنصرية ولا يمارس التفرقة العنصرية لا لشيىء سوى أن تجربته اقتصرت على الاحتكاك بالعناصر الصفراء وخلت من الاحتكاك بالجنس الأسود الذى هو المحك الحقيقى للتفرقة[1] . ولكن العالم الثالث لم يكن ليخدع ، وعرف كيف يختار مواقعه الطبيعية من حيث المبدأ من الأعداء وغير الأعداء .

---

(١) فتزجرالد ، ص ١٨٥ .

فى النظرية

وفى هذه العلاقة ينبغى أن نقرر موضوعيا أن موقف المعسكر الشرقى من طريق العالم الثالث تأرجح مرحليا بين اتجاهين تغلب أحدهما فى النهاية ليصبح هو السياسة الرسمية له . فمن الناحية النظرية كانت الشيوعية تفترض وتتوقع أن الثورة العالمية ستتم على أيدى بروليتارية الدول الاستعمارية فى غرب أوربا ، ولم تكن تنتظر للمستعمرات دورا مرموقا أو غير مرموق فيها . وبالمقابل ، فلقد تنبأ لينين باستقلال المستعمرات وتحولها إلى قوة عالمية فى مصائر العالم ، وأضاف أنها ستعتمد فى ذلك على الروس والشرق . أما ما حدث بالفعل فهو أن النبوءة الأخيرة هى ــ للغرابة أو الصدفة ــ التى تحققت ، بينما حدث العكس فى حالة النظرية الأولى . فلقد أصبح الغرب زقاقا شبه مسدود للاشتراكية ، بينما لم تسجل الاشتراكية أعظم وأخطر توسع كاسح لها فى النصف الثانى من القرن العشرين إلا فى المستعمرات السابقة ، المتحررة الآن .

وتلك لا شك كانت وثبة طافرة مطلوبة وطفرة ترحب بها الكتلة الشيوعية باعتبارها على أقل تقدير ابتعادة عن الطريق الرأسمالى الغربى وحرمانا حقيقيا للمعسكرالمضاد من أرض سابقة . ومن هذه الزاوية تقدم الشرق سريعا لمساندة قوى التحرر الجديدة فى وجه التربصات الاستعمارية الغربية ، وكانت قمة التعاون هى استجابته لكسر احتكار السلاح بصفقة الأسلحة المصرية الشهيرة التى لا جدال كانت المحك الفيصل فى اختبار القوة بين التحرر والحياد من جهة وبين الاستعمار والتبعية من جهة أخرى .

إلا أن هذا الانفجار الاشتراكى فى نفس الوقت لم يكن فى نظر الماركسية اللينينية هو كل الطريق ولا نهاية المطاف . بل لعله إلى حد بعيد يقطع الطريق على الشكل الراديكالى للشيوعية ويسلبه إمكانياته ويقطع عليه خط الثورة اليسارية المطلقة . غير أن الكتلة عادت ــ ليس قبل مساجلات حادة واختبارات قوة مع قيادة الخط الجديد ــ فاتخذت موقفا واقعيا واعترفت به بغير مزايدات أو مساومات . وعلى أية حال فإن الكتلة الشرقية حتى الآن لا تقبل تسمية نظم دول العالم الثالث الجديدة بالاشتراكية ، بل تسميها أحيانا بالطريق غير الرأسمالى ، أو تعتبرها على الأكثر مرحلة انتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، وتفضل دائما أن تشير إلى أصحابها كثورة التحرير الوطنى .

فى التطبيق

هكذا ، وعلى خلاف الموقف الراديكالى الغربى أو الصليبى الأمريكى ، تبنى الاتحاد

السوفيتى على الجانب المضاد موقفا متميعا على الجملة يتراوح بين الريبة والعداء وبين محاولة الصداقة والاحتواء مع توجيهه وفلسفته ماركسيا[١] . فمن جهة « من ليس ضدنا فهو معنا » ، ولكن فى الوقت نفسه فإن « من يقف وسط الطريق تدهمه العربات » ، وعدم الانحياز إن لم يكن « خرافة وهراء »[٢] فإنه «كالسير على حبل مشدود »[٣] ، ومن ثم « لا فقرى » . وفيما عدا هذا فإن من المعروف أن الصين تتهم الاتحاد باستمرار بأنه يعمل على تقويض عدم الانحياز « والهيمنة » عليه .

ولما كان عدم الانحياز فى الأصل والأساس حركة ضد استعمار الغرب القديم أو بعيدا عنه ، فقد قدم الشرق الذى لا تاريخ استعمارى له خارج حدوده نظرية سهلة براقة مؤداها أنه هو الأقرب تلقائيا إلى عدم الانحياز وأنه الحليف الطبيعى له . وبالمقابل ، رد الغرب بأن فى عدم الانحياز إذن « انحيازا » طبيعيا ومسبقا إلى الشرق وضد الغرب . بل واتهمه بعد ذلك بأنه « مخلب قط للشيوعية أو للشرق »[٤] . هذا فى حين لم يكف عدم الانحياز من جانبه عن تأكيد استقلاله إيديولوجيا عن المعسكرين كليهما والإصرار على أنه يقف على الحياد وسطا بينهما ، لا مع ولا ضد أى من الكتلتين على حدة أو كلتيهما معا[٥] . والحقيقة ، كما أثبتها الواقع ، هى أنه إذا كان لابد من المفاضلة والتمييز بين الكتلتين على أساس الصداقة والعداء ، فلعلنا من أسف أن نقول إن الشرق كان الصديق ــ العدو والغرب العدو ــ الصديق ...

وعلى الجملة ، فإذا نحن رمزنا إلى العالم الأول والثانى والثالث بالأرقام ١ ، ٢ ، ٣ على التوالى ، فإن عدم الانحياز يتمثل مثاليا فى المعادلة ١ ــ ٣ ــ ٢ ، بمعنى أن العالم الثالث يقع أو يقف على بعد متساو من كل من العالمين الأول والثانى . غير أنه فى الواقع كان متهما من قبل الغرب فى الستينات بأنه يتبع المعادلة $\frac{٢ + ٣}{١}$ ، بمعنى أن العالم الثالث كان منضما إلى الثانى ضد الأول . وبالمقابل فإن عدم الانحياز أصبح متهما من قبل الشرق فى السبعينات بأنه ارتد إلى المعادلة $\frac{١ + ٣}{٢}$ ، أى أنه انتقل إلى جوار العالم الأول ضد الثانى .

---

(١) أحمد صدقى الدجانى ، عبد الناصر والثورة العربية ، ١٩٧٣ ، ص ١٧٨ ، ١٩٧ .

(٢) Heikal, p. 81.

(٣) الدجانى ، ص ٢٠٢ .

(٤) Heikal, p. 69.

(٥) الدجانى ، ص ١٩٢ .

ومهما يكن الأمر ، فهكذا نجد فى الخلاصة أن رحلة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز لم تكن نزهة سياسية ، بل جاءت على جسر رهيف كالصراط من الصراع ، وبقدر ما لقيت من معوقات داخلية ، بقدر ما تعرضت للشد والجذب والوعد والوعيد خارجيا ، وكما عبرت ثورات داخلية متعددة خاضت معارك خارجية ضارية من اليمين واليسار على السواء ، ولم تشق طريقها إلا بعد أن فرضت نفسها فرضا على العالم ، عالم الكتل . ولكنها فى هذا أفادت إلى أقصى حد من مساعدة ومساندة المعسكر الشرقى أدبيا وماديا لتقف فى وجه أخطار المعسكر الغربى وتهديداته ، دون أن تقدم أى تنازلات أو مساومات للأول مع ذلك .

وبمعنى آخر فقد أفادت استراتيجية عدم الانحياز بالقطع من الحرب الباردة ، ولكنها نجحت فى ألا تصبح جزءا من تلك الحرب . بل لقد بدا للبعض فى حين ما أن مجموعة عدم الانحياز ، بقدرتها على الحركة الحرة الإيجابية وسط الشلل الذى فرضه التوازن الذرى على الكتلتين ، كانت هى ، بمفارقة عجيبة ولكنها مفهومة ، تكاد توجه سياسة العالم وتحركها أو تتحكم فيها إلى حد بعيد ، وذلك ــ كما يشبهون ــ على غرار ما يفعل حزب صغير مثلا كالأحرار فى بريطانيا (أو على مستوى محلى أصغر الماورى فى نيوزيلند !) حين تتعادل كفتا الحزبين الكبيرين العمال والمحافظين .

النمط الجديد

التطور التاريخى

آن لنا الآن أن نتساءل : ما مغزى ظهور عدم الانحياز فى عالمنا المعاصر ، وكيف يعدل من نمط القوى السياسية الكبرى ؟ وما هى خريطة الاستراتيجية العالمية اليوم فى نظرة كلية كوكبية ؟ لعل أعمق وأخطر معنى يبرزه عدم الانحياز هو أنه قد أضاف بعدا ثالثا إلى الكتلتين الكبيرتين المعروفتين ، وبذلك حول ويحول أبعاد العالم من ثنائية إلى ثلاثية واضحة المعالم ، وهذه حقيقة كبرى من حقائق العصر تتضح بجلاء إذا نحن حللنا أصول كل من هذه الأبعاد الثلاثة على الترتيب .

مرحلة احتكار القوة

فحتى نهاية القرن التاسع عشر كان الاستعمار الأوربى يسيطر ، كما رأينا ، على أغلب أجزاء العالم ويفرض عليه بالقهر نظاما سياسيا واحدا مغلقا من صنعه ، وكان ذلك إلى

أبعد مدى عصر « احتكار القوة » . ورغم الصراعات الدموية بين قوى الاستعمار من أجل هذه السيطرة والاحتكار ، كان الغرب المستعمر يستشعر فى النهاية نوعا من الوحدة فى مواجهة بقية العالم المستعمر ، وفى ظل هذه الدائرة المغلقة كان الاستعمار طليقا يعربد فى العالم دون رادع أو قوة مكافئة تعمل على توازن القوى فيه .

وإلى حد كبير ، كانت الثورة الفرنسية ترمز إلى ، وتحدد بداية ، هذا النظام الاستعمارى العالمى . فهى كثورة قومية ، لم تكن تستهدف « الحرية والإخاء والمساواة » إلا للوطن القومى أولا والوطن الأوربى ثانيا ، وذلك رغم أن أوربا الرجعية تكالبت عليها فى البداية لتئدها ، بيد أن المهم أنها لم تكن تقصد أن تصدر هذه المبادئ إلى خارج الدائرة الأوربية وإنما العكس هو الصحيح : ثورة بورجوازية تشرع الاستعمار فى الخارج وتسعى إليه . وعلى هذا فإن الغرب الأوربى الرأسمالى البورجوازى يستعمر فى الخارج باسم الثورة القومية فى الداخل ، وهو استعمار سياسى اقتصادى سافر ، وهو استعمار القراصنه بلا مواربة ، وهو مهندس الإمبراطوريات الإمبريالية ، والهدف فى النهاية أن يصل إلى احتكار القوة فى العالم ويجعل منه نظاما سياسيا كوكبيا واحدا .

مرحلة الاحتكار الثنائى

ومع الثورة الشيوعية فى الروسيا تبدأ المرحلة الثانية لتكسر احتكار القوة العالمى وتنصفه إلى احتكار ثنائى . وقد جاءت هذه ثورة على البورجوازية الرأسمالية أى ثورة على الثورة الفرنسية إن صح التعبير ، فهى ليست ثورة قومية ولكنها أساسا تنشد أن تكون عالمية وتعمل ما وسعها ، بعكس الثورة الفرنسية ، على تصديرها إلى الخارج . وهى بعكس الثورة الفرنسية لا ترى القومية ولكن الطبقة ، فتنكر القومية وتستنكر القوميات ولا تعترف بوحدة إلا وحدة الطبقة ، والطبقة العاملة البروليتارية .

وكما تعرضت الثورة الفرنسية مؤقتا لتألب أوربا الاقطاعية ، فقد تعرضت هذه الثورة لعداء الغرب الرأسمالى ولكن إلى أعتى حد وإلى آخر المدى لأنها تنقض وجوده وكيانه من صميمه . وسواء صح الاتهام أو لم يصح ، فإن الغرب يتهم الشرق بأنه باسم الثورة اللاقومية يستعمر : ليس كاستعماره السياسى السافر ولكن ــ هكذا يقول ــ استعمارا أيديولوجيا مقنعا ، ليس كاستعماره استعمار القراصنة ولكن « استعمار الرفاق » ، ولا يبنى الإمبراطوريات الإمبريالية ولكن « الإمبراطوريات الطبقية » أو « الإمبراطوريات البروليتارية » .

وأيا ما كان ، فليس يعنينا هنا هذا الاتهام ، ولكن الذى يهمنا هو أن هذه الثورة النقيضة قد خلقت لنفسها مجالا ضخما وكتلة عظمى . وهى قد استطاعت أن تظهر وتثبت ـ بجانب قوتها الذاتية المتعاظمة ـ بفضل الاستفادة المنظمة من المتناقضات العميقة بين دول الغرب ، سواء فى ذلك تناقضاتها الداخلية الطبقية فى كل دولة ، أو تناقضاتها الخارجية الاستعمارية فيما بينها أى توازن القوى داخل دائرة الغرب . وأبسط مظهر ودليل فى هذا الصدد أن الاتحاد السوفييتى تحالف مع الغرب ضد ألمانيا النازية حتى هزمت ، وحتى خرج الغرب نفسه مضعضعا وبرزت قوة الاتحاد إلى الصدارة .

وفى النتيجة خرجت الثورة الشيوعية من الحرب وقد أصبحت كتلة عظمى تناظر وتناطح كتلة الغرب الاستعمارى . وبهذا انكسر احتكار القوة فى العالم ككل لأول مرة وورثه الاحتكار الثنائى ، وأصبح العالم يتنازعه سياسيا قطبان متنافران ، أصبح العالم كما قد نقول « نصفى كرة » سياسيا بعد أن كان الكوكب كله كرة واحدة مضغوطة مكبوتة .

مرحلة القوة الثلاثية

ثم نصل إلى المرحلة الثالثة والأخيرة مع عدم الانحياز لنشهد الاستقطاب الثنائى يتحول بدوره إلى ثلاثية عريضة ، وليحل محل نصفى الكرة السياسيين مثلث ، لانقول متساوى الأضلاع ولكنه على أيه حال ذو أضلاع ثلاثة ورؤوس . وكما بدأت كل من القوتين السابقتين بثورة تاريخية ، فكذلك بدأت القوة الثالثة بثورة عارمة هى ثورة التحرير التى تفتتحها وترمز لها وتلخصها « ثورة » ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وكما كان للثورة الروسية نسل كبير من الثورات الأقل قدرا ، فكذلك كان للثورة المصرية سلسلة من ردود الأفعال والثورات فى العالم الثالث وعالم المستعمرات كأنها الموجات الحلقية المتدرجة حول حجر ألقيت به فى بركة آسنة .

وتماما كما تعرضت الثورتان الأوليان للمحاصرة والضرب من الخارج ، فقد تعرضت الثورة المصرية للانقضاض المسلح عليها من الغرب الاستعمارى الذى كانت هى انتقاضة مباشرة عليه وتحديا لوجودة وكيانه عبر البحار . ولذلك فإن حرب السويس كانت بمثابة حرب التدخل بالنسبة لروسيا السوفييتية ، ومعركة بور سعيد كموقعة فالمى بالنسبة لفرنسا الثورة . وكما خرجت الثورتان الأوليان مظفرتين ، خرجت الثورة المصرية بدورها مظفرة لترسم سابقة التحرير فى كل المستعمرات ولتضع علامة بدء عدم الانحياز ولتصك شهادة

ميلاد العالم الثالث كقوة جديدة تضاف إلى القوتين القطبيتين القائمتين وتثبت أن أبعاد العالم الجديد ثلاثة لا اثنين .

وتماما كما استفادت الثورة السوفييتية فى البداية ، والكتلة الشيوعية فى النهاية ، من التناقضات الداخلية والصراعات المزمنة داخل الكتلة الغربية الرأسمالية ، فكذلك – عدا تفجرها وقواها الذاتية – أفادت الثورة المصرية فى البداية ، وثورة التحرير فى العالم الثالث فى النهاية ، من التناقضات الجذرية بين قوتى الغرب والشرق ، سواء فى ذلك من مجرد توازن القوى الحرج وانهيار احتكار القوة العالمى القديم ، أو من المناخ المعادى للاستعمار الذى خلقه وجود الكتلة الشرقية ، أو بالمساعدة المباشرة عسكريا بالسلاح وسياسيا بالتأييد أو اقتصاديا بالمعونات والقروض .

غير أنه يبقى فى النهاية أن الثورة المصرية وثورة العالم الثالث تختلف عن أى من الثورة السوفييتية وثورة العالم الشيوعى ، والثورة الفرنسية وثورة العالم الرأسمالى . فالأخيرة – ثورة الغرب – ثورة قومية طبقية ، وثورة الشرق ثورة لاقومية لاطبقية ، وثورة العالم الثالث ثورة قومية لاطبقية . ولهذا فإذا كانت ثورة الغرب باسم القومية والطبقية تستعمر ، وكانت ثورة الشرق باسم اللاقومية واللاطبقية تتكتل ، فإن ثورة العالم الثالث بحكم القومية واللاطبقية لاتستعمر ولاتتكتل ولكن تتحرر . ومن هنا حرص العالم الثالث وعالم عدم الانحياز على أن يكون قوة – قوة ثالثة – دون أن يتحول إلى كتلة ثالثة لأنه بالتعريف لاينحاز ، وتكتله فى معسكر ينقض جوهر عدم الانحياز .

والناظر فى هذه المتتابعه التطورية لاشك يروعه تماثل ميكانيكيتها المتواترة . فثمة ثورات عالمية كبرى ثلاث هى معا نقط الارتفاع والانقطاع فى التاريخ السياسى الحديث كله ، وثمة كتل أو قوى ثلاث خلقتها فى النهايه تلك الثورات على التوالى . وكل ثورة وكل قوة منها لاتستقر ولا تتدعم إلا بعد تجربة نضالية مريرة مع القوى الخارجية . ولكن كلا من القوتين الأخيرتين الشرق والعالم الثالث لم تظهر إلا على حساب الأولى الغرب واقتطعت منها بالتدريج جزءا من مجالها ونفوذها ووزنها حتى انكمشت هذه كثيرا وكادت أن تكون اليوم مجرد إسفين فى جسم العالم[1] .

من ثم فإن القوتين الأخيرتين أقرب إلى بعضهما موقفا وذلك من حيث إنهما تقفان

---

(١) Keith Buchanan, op. cit. p. 335.

بالضرورة على حذر من أخطار الكتلة الأولى ، ومن حيث إن مصالحها هى مبادئها بينما أن مبادئ الغرب هى مصالحه . غير أنه بعد هذا تختلف مبادئ كل من الشرق والعالم الثالث ، ومن هذا الاختلاف يستمد الأخير أصالته . وأخيرا فيمكننا أن نرى أن الثورات الثلاث تمثل تاريخيا وأيديولوجيا متتالية هيجلية ديالكتيكية شديدة الوضوح : فإذا كانت الثورة الفرنسية هى « التقرير » اليمينى المتطرف ، فإن الثورة السوفييتية هى « النقيض » اليسارى المطلق ، بينما تأتى الثورة المصرية « كالتركيب » المعتدل الأوسط : thesis, antithesis, synthesis .

الصــورة الجغرافيــة

هذا عن الناحية التطورية ، أما من حيث الصورة النهائية الناتجة فلن يكون من الصعب على الناظر إلى نمط مورفولوجية القوة الراهنة فى العالم أن يرى فيها امتدادا ــ وإن يكن معدلا تعديلا جوهريا ــ لثلاثية ماكيندر الكلاسيكية . أما الذين لايرون نمطا على الاطلاق فى عالم اليوم فإنما هم الذين لايريدون أن يروا أو يعترفوا بعدم الانحياز وبالعالم الثالث . فهناك ــ لايزال ــ الكتلتان النوويتان الغربية والشرقية اللتان ورثتا قوة البحر والبر القديمة ، بينما منطقة الارتطام والالتحام البينية قد ورثتها اليوم قوة عدم الانحياز أو العالم الثالث . ويمكننا أن نقول إن هذا تطور من مفهوم جغرافى بحت للاستراتيجية العالمية إلى مفهوم فنى أو حضارى ، وهو تطور منطقى وطبيعى إذا ماتذكرنا أن التكنوستراتيجية قد حلت محل الجيوستراتيجية .

الهيئــة والشــكل

ولا شك أن قوة عدم الانحياز تعد بين الكتلتين قوة « بينية » بكل وضوح ، وذلك موقعا ودورا ووظيفة ، مثلما كان سلفها منطقة الارتطام . فأولا ، ليس من محض الصدفة بالتأكيد أن جرثومة الحياد الإيجابى ودعوة عدم الانحياز إنما تنشأ فى صميم منطقة الارتطام ومنها تنتشر. بل ليس من الصدفة مطلقا أن أقطاب عدم الانحياز هى ثلاثة من أكثر أجزاء منطقة الارتطام التاريخية حساسية وخطرا : يوغوسلافيا : مصر : الهند ! وكان من الطبيعى جدا أن تنبثق مثل هذه السياسة الأصيلة الجديدة من صميم منطق استراتيجيتها الكامنه بحسبانها قد عاشت مهصورة محصورة بين شقى رحى البر والبحر. لقد تحول الموقع الجغرافى إلى موقف سياسى .

ثم إن هذه القوة الثالثة الجديدة « بينية » فى فلسفتها ومثلها ومنظورها

الأيديولوجى ، حيث لاتتطرف يمينا أو يسارا ، وتعترف بالقومية وتحارب الاستعمار . كذلك هى إلى حد ما وفى معنى جديد « بينية » بموقعها الجغرافى بين الكتلتين . فرغم أن دول الحياد الإيجابى وعدم الانحياز تمتد على جبهة عريضة مترامية فى القارات الجنوبية منساحة فى نصف الكرة الجنوبى ، وتعدت بذلك كثيرا جدا الحدود الجغرافية لجبهة الارتطام الأمفيبية القديمة ، فإنها فى ظل استراتيجية الفضاء النووية تظل مفتوحة لكل من الكتلتين وفى متناول مداها . وإذا كان توزيعها الجغرافى اليوم قد انساح ولم يعد أمفيبيا ارتطاميا تماما بالمعنى الجيوستراتيجى ، فهى تظل بينية بالمعنى التكنوستراتيجى .

إلى هذا الحد ، لاشك أن قوة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز هى الترجمة الحديثة والتطوير المعدل فى عصر التحرير والفضاء لقوة الارتطام القديمة . فكما كانت منطقتها أصلا منطقة نفوذ الاستعمار ومستعمراته سابقا ، فإنها الآن الشكل الجغرافى الجديد والوريث الجيوبوليتيكى لمنطقة الارتطام القديمة بين قوى البر والبحر . ولكن هذا الاطار الجديد بعينه هو الذى يكسبها دورا جديدا فى العالم ويمنحها وظيفتها ورسالتها الأصلية التى تختلف جوهريا عما ألفت منطقة الارتطام . فكقطب موجب للقوة فى العالم متحرر ونام ، لم يعد هم هذه المنطقة مجرد أن تحافظ على كيانها واستقلالها من أخطار القوى الأخرى كما كان شأن منطقة الارتطام فى الماضى ، ولم يعد من شأنها أن تضاربها ببعضها البعض من موضع الضعف وفى قوقعة العزلة لتضمن بقاءها أو تحصل على مكاسب منها .

الدور والوظيفة

لقد كانت منطقة الارتطام خط خمود سياسى ومنطقة رهو ، ولكن قوة عدم الانحياز اليوم خط استواء سياسى ينشد ويمكن أن يكون غلابا يحل السلام القائم على العدل محل سلام الرعب الذرى . وبهذا فإن مجموعة عدم الانحياز أصبح دورها الإيجابى أن تكون « جيروسكوب » سياسيا يحفظ توازن سفينة العالم وتوازن القوى الكوكبية ويمنع مصير الكرة الأرضية من أن تتقاذفه وتعصف به الكتلتان الدينوصوريتان .

وينبغى أن يكون واضحا أن هذا الدور يختلف عن دور « المرجح » الذى كانت تلعبه بعض القوى الاستعمارية فى توازنات القوى العالمية قديما ، بمعنى أن تنحاز إلى أحد الجانبين المتصارعين[1] . فهذا بالتحديد ما يقوم عدم الانحياز ضده . وإذا كان ثمة من

(١) مورجنتاو .

انحياز وحيد متاح ومفتوح أمام عدم الانحياز ، فهو إلى عدم الانحياز وحده ! فإنما الأصل فيه سياسيا أنه تجمع لامعسكر ، وتجمع من أجل السلام لا معسكر من أجل الصراع . إنه ليس كتلة بل قوة ، ليس كتله ثالثة ولا يستطيع ولايقدر ؛ وإنما قوة ثالثة ، بالتحديد قوة سلام لا حرب .

بل إنه ليس قوة بقدر ماهو قدوة ، فإنما هو تحالف فقراء العالم وضعفائه ، أى تجمع « الأقارب الفقراء » الذى يمثل عقله لاعضله . إنه ، باختصار وكما عبر أقطابه ؛ « ضمير العالم » ، لسان حاله ، وصمام أمنه : طلق حر من قيود التحيز والتحزب ، غير مغرض وغير ملتزم إلا بالأخلاقيات السياسية ومبادئ التعايش السلمى . فيه تتعايش المصالح والمبادئ لأول مرة بلا تصادم ولا تعارض ، وبه تتحقق الصيغة الوحيدة للزواج الشرعى السعيد بينهما .

من هنا جميعا فإن وظيفة عدم الانحياز اليوم أن يكون همزة وصل لا حاجز فصل بين الكتلتين ، وأن يمد جسرا عبر الأخدود الغائر بينهما . ودوره إذن هو دور الممر لا دور الخندق ، أو بتشبيه جغرافى دور البرزخ لا دور المضيق . باختصار إن استراتيجية عدم الانحياز الجديد لا تتلخص فى منطقة « ارتطام والتحام » وإنما فى « منطقة التئام ووئام » بين الكتلتين تحيل الستار الحديدى إلى ستار حريرى .

مرحلة الانحدار

العوامل الخارجية

دور يونيو

إذا عدت حرب السويس سنة ١٩٥٦ مولد عدم الانحياز ، فإن حرب الأيام الستة ١٩٦٧ كانت الضربة القاصمة الأولى التى تلقاها ، بينما جاء الوفاق فى سنة ١٩٧١ بمثابة الضربة القاضية والأخيرة coup de grâce . بل إن البعض ليذهب إلى حد القول بأن نكسة يونيو لم تكن فقط نكسة لعدم الانحياز ككل ، وإنما كانت مقتله مثلما كانت مقتل ثورة يوليو نفسها . وعلى هذا ينتهون إلى أن عدم الانحياز كما ولد على يد أو فى حجر ثورة يوليو سنة ١٩٥٦ ، فإنه مات على يدها أو على جثتها فى يونيو ١٩٦٧ . وإذا صح هذا المنطق فرضا أو جدلا ، جزئيا أو كليا ، لكان معناه أن ارتفاع وانحدار عدم الانحياز إنما يتعاصر ويتواكب مع ارتفاع وانحدار مصر (والعرب معها) .

وأيا كانت التحفظات أو الاعتراضات الخاصة أو الجانبية ، التى لا تعنينا هنا فى كثير أو قليل ، فإن هذا المنطق يبدو موضوعيا إلى حد بعيد ، لأن مصر كانت من مهندسى عدم الانحياز المؤسسين وفى طليعة عمده وزعمائه . فسواء عدت القاهرة كما ذهب البعض أو الأمم المتحدة كما ذهب البعض الآخر « عاصمة العالم الثالث »[١] ، فلن ينكر منصف أن مصر خلال الستينات كانت من داخل عدم الانحياز تلعب دورا عالميا شبه قيادى شبه محورى ، أكبر من كل تصور تقليدى ، وأكبر على الأرجح من جرمها المحلى الذاتى ، وأكبر بالتأكيد من كثير من قوى أوربية هامة أبعد تحضرا وتطورا .

وعلى أية حال ، ودون مبالغة شوفينية فى دور مصر فى حركة عدم الانحياز ، فليس من سبيل إلى الشك فى أن نكسة عدم الانحياز بدأت بنكسة يونيو مباشرة وأساسا ، حيث كان لسقوط مصر وقع الصاعقة على العالم الثالث بأسره ، وحيث تطامن الدفع أو الزخم الثورى فى العالم وانحسر المد الوطنى إلى جزر لا محل لإنكاره عالميا .

والواقع أن عدم الانحياز ، والأصل فيه تاريخيا أنه ابن ونبت الاستقطاب الثنائى والحرب الباردة جزئيا ، الواقع أن قوته كانت دائما تتناسب تناسبا طرديا مع درجة حرارة الحرب الباردة أى مع حدة الصراع بين القطبين والكتلتين ، مثلما سنرى على الفور أنها تتناسب عكسيا مع درجة الوفاق أو زاوية الانفراج[٢] . فكما رأينا ، ففى غمرة الشلل النووى بين الأقوياء لم يجد عدم الانحياز فرصة الظهور فحسب ، بل وبرز إلى المقدمة ليلعب دورا عالميا أكبر بكثير مما يتناسب مع قوته الذاتية الداخلية ووزنه الطبيعى الحقيقى ، ونعنى بذلك دور الحكم أو المرجح بين الكتلتين وبين القطبين ، ومن ثم دور الند لهما تقريبا والقوة الثالثة بجانبهما نسبيا .

ولعل هذا كان مما أعطى عدم الانحياز نفسه شعورا وهميا نوعا بتضخم الذات والأهمية منذ البداية . ولقد تكشف هذا كله بصورة مأساوية مفجعة فى حرب يونيو ١٩٦٧ القاتلة ، التى لم تكن فى جوهرها كما رأينا إلا جزءا لا يتجزأ من مناخ الحرب الباردة ولعبة أو خدعة التعايش السلمى بين الكبار .

---

(١) Heikal, p. 122.

(٢) Ibid., p. 11, 193-4.

على أن الضربة الكبرى لعدم الانحياز إنما جاءت مع الوفاق أو الانفراج بين القطبين . فكما جاءت الوحدة الأوربية ردا جزئيا على حركة التحرير الوطنى فى الستينات ، لم يلبث الوفاق أن جاء ردا جزئيا على عدم الانحياز فى السبعينيات . إذ لما كانت قوة عدم الانحياز مستمدة إلى حد بعيد من حدة الاستقطاب الثنائى ، فقد جاء الوفاق الثنائى تلقائيا ليسحب الأرض أو البساط من تحت أقدامه إلى حد أو آخر . محاولا بذلك أن يسلبه قوته المكتسبة إن لم يكن مبرر وجوده ذاته . ولا غرابة بعد هذا أن بدا الوفاق للعالم الثالث كما رأينا نوعا من التواطؤ السافر بين القطبين ، وكاتفاقية يالتا ثانية تستهدف تقسيم العالم الثالث بالتحديد إلى مناطق نفوذ جديدة حيث استهدفت يالتا الأولى اقتسام أوربا وحدها فقط .

ومن الناحية العملية ، على أية حال ، فلقد جاء الوفاق الثنائى بين القوتين الأعظم فى أخريات القرن وعلى المستوى العالمى أشبه شىء بالوفاق الثنائى القديم بين قوتى الاستعمار القديم فى أوائل القرن على المستوى الاقليمى . فكما أطلق الأخير يد فرنسا فى المغرب مقابل إطلاق يد بريطانيا فى مصر ، أطلق الوفاق كأمر واقع يد الاتحاد السوفيتى فى أفريقيا والعالم الثالث مقابل إطلاق يد الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط والعالم العربى لاسيما بعد طرد الروس من الجزء الأكبر والأخطر منه[1] .

وهكذا من كلا الموقفين على تناقضهما لم يتورع القطبان عن سياسة استقطاب أو اختراق مجموعة عدم الانحياز ومحاولة تفتيتها إلى عناصرها الأولية أو وحداتها الاقليمية أو القومية ثم تخاطف أو اقتطاع أكبر قطعة أو قطاع منها لحسابه أو إلى صفوفه . والواقع أن كلا القطبين حاول استقطاب عدم الانحياز وجذبه إلى فلكه حتى يعود من جديد منطقة نفوذ ولكن بصورة جديدة وفى منافسة حرة مفتوحة . وفى هذه المعركة الشرسة لايتورع الجانبان عن الالتجاء إلى أى سلاح ، بما فى ذلك سلاح المتناقضات ومتناقضات السلاح .

فعن الأخير مثلا ، فإن الغرب يتهم الشرق عند عدم الانحياز بأنه مجرد « تاجر سلاح » ، مورد أسلحة لايملك أن يقدم إليه سوى السلاح ، بينما يقدم نفسه إليه على أنه

---

(١) جمال حمدان ، شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ج ٢ ، ص ٨٢٨ – ٧٣١ .

وحده الذى يمكن أن يعطيه السلام ، كما وضعها كيسينجر مرارا بصدد العالم العربى خاصة . غير أن الحقيقة الموضوعية تختلف . فالشرق لا يعطى عدم الانحياز السلاح إلا بشروط سياسية أولا ، ثم بمعدلات تتناسب تناسبا طرديا مع درجة حرارة الحرب الباردة أو زاوية الانفراج بين القطبين ، ثم أخيرا بكميات ونوعيات تكاد تضمن له الهزيمة عادة أو غالبا . والغرب من جانبه يفتح كل ترسانته الفتاكة لأعداء عدم الانحياز بلا حساب ، بل بكل تخطيط محسوب لفرض الهزيمة عليه . ولهذا كله فليس صحيحا بالضبط أن الشرق لايملك إلا أن يعطى السلاح بينما يملك الغرب أن يعطى السلام ، وإنما الصحيح أن الشرق لايملك إلا أن يقدم الهزيمة والغرب إنما يملك أن يقدم الاستسلام .

هذا عن متناقضات السلاح ، أما عن سلاح المتناقضات فلعل قصة القطبين مع العالم الإسلامى كجزء من العالم الثالث وعدم الانحياز بالغة الدلالة وأبلغ من كل مقالة . فكلاهما يحاول بالغواية والاغراء أو بالاحتيال والاحتواء أن يستدرج العالم الإسلامى إلى صفه فى صراعه غير المقدس مع الآخر . فبينما اعتبر الشرق والسوفيت من جانبهم أن العالم الثالث رصيد احتياطى وصديق طبيعى بحكم عدائه الموروث لمستعمره السابق وهو الغرب ، فإن الغرب والأمريكيين بدورهم اعتبروا العالم الإسلامى رديفا أو حليفا جاهزا ضد الروس والشرق والشيوعية الملحدة ، وذلك باعتباره من الأديان السماوية مثلهم . وعلى هذا الأساس حاولوا مرارا تجنيده ليكون قفازهم أو مخلب القط فى حرب « صليبية إسلامية » ! « لا ناقة لهم فيها ولا جمل » .

غير أن الغرب نسى فى هذا أن أكبر عدوان تعرض له العالم الإسلامى ماديا ومعنويا كان على يديه منذ القرن ١٩ وحتى مأساة فلسطين . ولم تكن موجات الحركات الإسلامية العديدة التى نقّطت القرن الأخير وحاربها هو أو وأدها سوى الرد الوحيد على التحدى الاستعمارى والقهر الإمبريالى ، بينما أن المد الإسلامى المعاصر ليس بدوره إلا جزءا من دينامية عدم الانحياز فى وجه الاستقطاب الثنائى ، وثورة على تبعية الغرب وهيمنة الشرق على حد سواء[1] .

وعلى أيه حال ، فلعل المفارقة المثيرة على مستوى الواقع العملى هى أن سياسة كل

(١) جمال حمدان ، العالم الإسلامى المعاصر ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ١٣١ ـ ١٣٨ .

من الغرب والشرق لاستقطاب العالم الثالث واستدراج العالم الإسلامى تكاد تحقق عكس أهدافها تقريبا فى الحالين . فبينما تحول عدم الانحياز فى كثير من دوله إلى انحياز مقنع لأمريكا والغرب مؤخرا ، انقلب العالم الإسلامى على أمريكا وأوربا فى كثير من دوله خاصة إيران وبعض وحدات العالم العربى .

معادلة القوة والمقاومة

تلك إذن هى العوامل الخارجية الرئيسية التى ساهمت فى تدهور عدم الانحياز وانحداره . والسؤال الآن هو كيف يمكن له أن يتصدى لها بفاعلية ونجاح ؟ والرد ببساطة أن القضية إنما هى فى النهاية قضية القوة والمقاومة ، الفعل ورد الفعل ، أو الصمود والتصدى . فالدفاع عن عدم الانحياز هو مسئولية دول العالم الثالث أساسا ، بالاشتراك مع حلفائها الطبيعيين حيثما وجدوا . وعليها هنا أن تعمل أساسا لكى لا تفلت قضاياها التحريرية من قبضتها وسيطرتها هى لتصبح موضع تسويات القوى الكبرى أو كجزء من كشف حساب الحرب الباردة عامة . وتقسيم العمل فى هذا النضال واضح بما فيه الكفاية : الحد الأقصى من السلاح الوطنى ، فى يد الحد الأقصى من القوات الوطنية .

فمن الواضح أن أخطر مناطق العدوانية الإمبريالية فى العالم الثالث هى فى الحقيقة أخطر مناطق التسليح الغربى كما أثبتت مثلا حروب الشرق الأوسط ، حيث ظهرت إسرائيل كترسانة أمريكية مسلحة حتى الأسنان . وفى هذا الصدد يمكن بغير مبالغة أن نضع معادلة عالمية تتألف من عدة متتاليات إقليمية تختزل أساسيات الصراع المستقبل :

- مصير الإمبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث .
- مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربى .
- مصير العالم العربى يتوقف على مصير فلسطين/إسرائيل .

وتفصيل هذا أو تفسيره أن العالم الثالث يمثل اليوم نقطة الارتكاز fulcrum بين ذراعى القوة والمقاومة فى الصراع العالمى بين الغرب والشرق ، فإذا أمكن صد المد الإمبريالى فى العالم الثالث وانحسر عنه إلى جزر نهائى ، فإن الميزان سيتأرجح وينقلب نهائيا ضده أو فى غير صالحه . ولكن العالم العربى هو الجبهة الأمامية والطليعة الحرجة فى العالم الثالث ، ونتائج الصراع فيه تنعكس عليه مباشرة إن سلبا أو إيجابا . وأخيرا فإن محور الصراع وبؤرة الحرب ومعقل الإمبريالية فى العالم العربى بدوره إنما هى القاعدة الاستعمارية الصهيونية . وقد كانت نكسة يونيو ١٩٦٧ وما بعدها هى بلا شك قمة

الزحف الاستعمارى فى العالم الثالث كله ، سعى إليها بالتدريج من أطرافه حتى وصل إلى قلبه . وانكسار هذه القاعدة الاستعمارية يمكن بالمقابل أن يكون نقطة الانكسار فى كل مسار الزحف الإمبريالى فى العالم الثالث . ونفس انكسار تلك القاعدة هو وحده الذى سيفتح الطريق إلى الوحدة العربية التى ـ وحدها أيضا ـ ستثبت قيادة العالم العربى فى العالم الثالث .

ولذلك كله فلا شك أن مصير إسرائيل الصهيونية سيحدد فى نهاية المطاف مصير الإمبريالية العالمية . فما دامت إسرائيل باقية فإن الإمبريالية ستظل مقيمة لا تريم فى العالم الثالث ، ولكن يوم تذهب إسرائيل فسوف تكون تلك بداية النهاية المطلقة للإمبريالية . وما نظن ذلك من المبالغة فى شىء ، بل لعله أن يفسر وحدة المصالح والمصير المطلقة بين إسرائيل والولايات المتحدة ، بل لعل شيئا لا يؤكده كما تؤكده تصريحات زعماء الولايات المتحدة نفسها من أن ضمان بقاء إسرائيل يمثل مصلحة بقائية للولايات نفسها ، وهو ما يؤكد كذلك ما قلناه من قبل من أن الصهيونية أعلى مراحل الإمبريالية والاستعمار ، وهو ما يتفق أخيرا مع الحقيقة المسلم بها وهى أن مشكلة فلسطين هى أعقد وأخطر مشكلات عصرنا جميعا .

ومن المنطقى بعد هذا كله أن نقول إنه لما كان مصير الصراع العربى ـ الإسرائيلى سيتوقف أساسا على قوة مصر خاصة من بين العرب ، بمثل ما أن مصير الإمبريالية العالمية سيتوقف على مصير إسرائيل ، فإن مصير عدم الانحياز والعالم الثالث سيتوقف فى التحليل الأخير على مصير مصر بالدقة . وليس فى هذا غرابة ولا جديد ، إذ من المسلم به أن مصر كانت منذ البداية القوة الركن فى هذا العالم والقطب الرائد فى ذلك الخط ـ دون أن يقلل هذا ، مع ذلك ، من الدور النضالى الذى يمكن ويجب أن تلعبه كل وحداته ومناطقه . ويوم تنجح مصر والعرب فى تصفية الاستعمار الإسرائيلى ، فسيكون ذلك شهادة ضمان نهائية للعالم الثالث وعدم الانحياز ، وفى نفس الوقت صك زعامتهم فيهما .

ويترتب على هذا أيضا أن القطبين النهائيين فى الصراع بين الإمبريالية والعالم الثالث هما على الترتيب الولايات المتحدة ومصر . ولا جديد أيضا ولا غرابة فى هذا ، فكل منهما يلخص زعامة مجموعته ، إلى جانب أنه يفسر ما شاهدناه من تركيز العدوانية الأمريكية على مصر بالذات . وهذا العداء الضارى ، إذ يقوم بين أقدم دولة هامة فى التاريخ وبين أحدث دولة هامة فى التاريخ ، كان من الممكن أن يعد مؤسفا وغير مفهوم مثلما هو غير متكافئ ، لولا أن قد فرضته الأخيرة فرضا غير مفهوم وغير عادل . ولكن

هذا التحدى ومثله يؤكد لنا ويعود بنا إلى ما سبق أن أشرنا إليه عن مسئولية العالم الثالث كله نحو نفسه ، وأن الضمان الحقيقى والأخير لاستقلاله وبقاء عدم الانحياز ، فى وجه أى خطر حقيقى أو مزعوم غربا كان أو شرقا ، هو القوة الذاتية القادرة بمستويات العصر ومقاييسه .

ثم سؤال هام يثور هنا : هل يؤدى هذا الصدام والعداء ، كما روج وتخوف الكثيرون منذ حرب الشرق الأوسط خاصة ، إلى قطيعة نهائية وعداء أبدى بين العالم الثالث والغرب أو بين العالم العربى والولايات المتحدة ، وإلى تكريس للحقد والانتقام الأمريكى بخاصة ، بما يعنى ذلك من احتمال فقدانهم مستقبلا كمصادر للمعونة فى عصر يحكمه العلم والتكنولوجيا كما لم يحدث من قبل ، ويحكمون هم ناصيته كما لم يحدث أيضا من قبل ؟ التساؤل فى ذاته وجيه بعيد النظر ، وجدير بكل اهتمام ، ولكن الاستغراق فى مثل هذا المنطق وتغليبه فى مرحلة مصيرية تحدد وتهدد الوجود ذاته يمكن أن يكون مدمرا ، كما أن مثل هذه المخاوف تجهل أو تتجاهل طبيعة العلاقات الدولية الحاكمة .

ولتوضيح هذا نقول إن الاستسلام للعدوان لا يزيد المعتدى إلا طغيانا وانتقاما ، بينما أن المواجهة الصلبة إلى أن تتكسر موجته ترغمه فى النهاية على التعقل وإعادة العلاقات على أساس الاحترام المتبادل والأخذ والعطاء ، لا سيما مع وجود منافسين ــ من الغرب نفسه ــ على استعداد دائما لملء الفراغ . وتطور علاقة الاستعمار البريطانى والفرنسى فى العالم مثلا بعد خروجها منه ورغم تاريخها المفعم فيه ، دليل قاطع فى هذا الصدد .

إن القلق من طغيان الولايات المتحدة ومن سياسة القوة التى تفرضها على العالم قد بدأ يمتد إلى حلفائها فى غرب أوربا أنفسهم ، وبدأت تستشعر باطراد نوعا ما من العزلة الباردة فى سياستها العالمية ، ولا يستبعد بعض المفكرين أن يكون رد فعل الولايات إذا تفاقمت موجة الكراهية والرفض ضدها أن تنسحب إلى قدر ما من العزلة ، ليست كعزلتها التاريخية بالتأكيد ، ولكن بما يتسق مع العصر النووى . والواقع أن العالم القديم لم يكن أحوج منه اليوم إلى مبدأ مونرو عكسى يبعد العالم الجديد عن التدخل فى شئونه !

والخلاصة باختصار أن احتمالات المستقبل فى العلاقات بين الولايات المتحدة والعالم الثالث ، وبينها بين العالم العربى خاصة ، لا يمكن التنبؤ بها بدقة وقطع فى المدى البعيد ، ولكنها فى جميع الحالات لا يمكن أن تؤرق الثورة على الإمبريالية اليوم ، ولا

ينبغى لها أن تدفع بها إلى أن تبيع واقع الثورة التحريرية من أجل وهم الثورة التكنولوجية . فمثل هذه المساومة أو الصفقة لن تعنى فى الظروف الراهنة سوى الاستسلام وبالتالى فقدان التحرر والتكنولوجيا معا وإلى الأبد ، بينما أن الصمود والمقاومة الآن جديرة بكسبهما معا وإلى الأبد .

فى السياسة كما فى الحياة ، وفى الحاضر كما فى الماضى ، الحق هو القوة والقوة هى الحق . فكل حق إنما بدأ قوة ، ثم أضيف إليها الأمر الواقع مضروبا فى عامل الزمن فأصبحت حقا مكتسبا ، بينما أصبح الحق مجرد تقنين للقوة . لكن ، بنفس المنطق ، فإن كل قوة قائمة تعد قابلة للنسخ بفعل قوة مضادة لها فى الاتجاه ومماثلة فى القوة . وما الحق لهذا إلا الاسم الرومانسى للقوة ، بينما أن القوة هى الاسم العلمى للحق ، تماما بمثل ما أن المبادئ هى الاسم الرومانسى للمصالح والمصالح هى الاسم العلمى للمبادئ . وفى ذلك فليتنافس الأحرار ، لا العبيد .

العوامل الداخليــة

حسبنا هذا إذن عن العوامل والعلامات الخارجية الموجهة ضد عدم الانحياز وعما ينبغى له من وسائل التصدى والمقاومة . غير أننا نخطئ خطأ جسيما إذا نحن رددنا انحدار عدم الانحياز إلى العوامل والقوى والضغوط الخارجية المضادة وحدها . وحتى إن فعلنا فإن هذا ليس مما يشرف عدم الانحياز أو يزكيه ذاتيا . وإنما الصحيح أن هناك ، بالاضافة ، مجموعة من العوامل الداخلية منبثقة من صميم عدم الانحياز نفسه وهو وحده المسئول عنها مسئولية كاملة .

فمن جانبه هو ذاته فإن مجموعة عدم الانحياز توسعت توسعا أفقيا خطيرا فى العقدين الأخيرين دون أن يصاحب ذلك توسع رأسى يمنحها عمقا كقوة عالمية ، بحيث كادت كثافته وقوته تتناسب باطراد تناسبا عكسيا مع مساحته ودعايته . لقد كان عدم الانحياز منذ البداية كمًّا أكثر منه كيفا ، ومساحة أكثر مما هو كثافة ، أى له مسطح أكثر مما له عمق . فلقد كانت رقعته السياسية تغطى دولا عديدة للغاية ، بينما كانت كثافته السياسية واهية هشة نسبيا ، فجاء وزنه الجيوبوليتيكى الكلى من ثم محدودا نوعا .

كذلك فإنه كان دائما أقل التجمعات السياسية الدولية تجانسا وأشدها تنافرا فى عناصر تركيبه وحتى فى تركيبته السياسية ذاتها ، مثلما كان أقلها تماسكا وأكثرها تخلخلا . ومع ذلك فإنه ما برح يتوسع وينساح أفقيا ، دون أن يتوسع أو يتعمق رأسيا ، إن لم

يزدد حقا ضحولة وسطحية . وفى النتيجة تحول عدم الانحياز نسبيا إلى وعاء هلامى وعباءة فضفاضة للغاية ، ربما تطوى من التناقضات الداخلية قدر ما تحوى من المبادئ الأساسية ، بل وقد تخفى من الانحياز مثل ما تبدى من عدم الانحياز[1] .

ولعلنا هنا نلاحظ أن العوامل أو الخصائص التى كانت فى البداية عوامل قوة وجذب فى عدم الانحياز قد تحولت فى النهاية إلى عوامل ضعف وتشتت . من ذلك مثلا ما يذكره كاتب محايد من « عمومية الفكرة ، وعدم تحديدها بوجه دقيق ... وعدم وجود التزامات محددة ترتبها . فلا عجب ، والحالة هذه ، أن نرى ضمن الكتلة دولا يصعب اعتبارها غير منحازة ، لو أخذنا عدم الانحياز بمعناه الحقيقى ، وهو عدم الارتباط بحال من الأحوال بأحد المعسكرات الدولية الكبرى المتصارعة » . وهذه « الهلهلة » ، كما يعبر نفس الكاتب موضوعيا ، تفسر لماذا « فى الوقت الذى لا يمكن أن نقول فيه إن كتلة عدم الانحياز كتلة عديمة الأثر فى العلاقات الدولية ، فإننا لا ينبغى أن نبالغ فى قيمتها الفعلية » .[2] هذا بينما يلخص باحث متخصص آخر الموقف كله فى حسم وحصافة بقوله إن من « بين ٨٧ دولة تشترك فى المجموعة (يعنى مجموعة عدم الانحياز) ما يقرب من ٦٠ دولة منحازة ، والباقى يتأرجح موشكا على السقوط »[3] .

أما على امتداد المسيرة ، فلقد كان من أبرز نقاط ضعف حركة عدم الانحياز المتزايدة تفاقم الخلافات والصراعات بل والمواجهات العسكرية الدامية بين كثير من أعضائها بسبب النزاعات الاقليمية ومشاكل الحدود خاصة فى أفريقيا ثم آسيا ، فضلا عن التلون السياسى والانتماءات المنحازة مع تغيير هذه الألوان والمواقع مرارا بحيث تعرض عدم الانحياز بانتظام لظاهرة فك الانتماء de-alignment ثم إعادة الانتماء re-alignment [4] ، إلى حد أن أصبحت الدول الأعضاء تتبادل الاتهامات علنا بالتذبذب والتأرجح بل ويطالب بعضها بطرد البعض الآخر من المجموعة بتهمة انحيازه أى خروجه ومروقه ... الخ .

---

(١) حمدان ، شخصية مصر ، ج٢ ، ص ٧٣٢ .

(٢) محمد عزيز شكرى ، « التكتلات والأحلاف الدولية فى عصر الوفاق » ، مجلة السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٤ ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٣) سامى منصور ، « عدم الانحياز على حافة الهاوية » ، الأهرام ، ١٤ أغسطس ١٩٧٩ .

(٤) D.V. Edwards, International political analysis, N.Y., 1964, p. 230.

ولا غرابة فى النهاية أن « وصلت الحركة إلى منعطف خطير للغاية » ، وبات كل همها كما عبر مراقب محايد « مجرد تحقيق استمرارية الوجود ... بعد أن تعرضت فى الفترة الأخيرة لاضمحلال واقعى » و « كادت تتفكك أواصرها تحت وطأة المنازعات الداخلية وصراعات القوى الكبرى » .[١] ومره أخرى يشخص لنا سامى منصور الموقف بطريقة جامعة نفاذة حين يرى عدم الانحياز « على حافة الهاوية » و « أن ساعة الصفر لتقرير مصير حركة عدم الانحياز قد اقتربت »[٢] .

وواقع الأمر الذى حدث بالفعل هو أن كثرة من دول عدم الانحياز اضطرت واقعيا إلى الانحياز تحت ضغط عاملين أساسيين : إما السلاح وإما الغذاء أو المعونات الاقتصادية . فأغلب هذه الدول يعانى من الفقر الشديد ، وبعضها لا يكفى نفسه بنفسه غذائيا ، وكلها بالطبع يستورد السلاح الذى يصبح مسألة حياة أو موت حين تكون الدولة فى صراع عسكرى مع دولة أخرى ، وهو الوضع الغالب للأسف بين كثير من دول العالم الثالث حاليا . ولما كان السلاح سلعة سياسية صرفة ، والمساعدات الاقتصادية هى الأخرى سلاحا سياسيا إلى حد معين يخضع للتوجيهات والضغوط السياسية ، فقد أصبح الثمن الحتمى فى الحالين سياسيا لا اقتصاديا ، وبالتالى على حساب عدم الانحياز بالتحديد . ومن هنا تحتم على معظم دول عدم الانحياز أن ترتبط بطريقة أو بأخرى بإحدى القوتين الأعظم القادرتين وحدهما على تقديم هذه الامدادات والمساعدات .

والمؤسف هنا أن التجربة قد أثبتت أن عدم الانحياز عملية مكلفة إن لم تكن خاسرة أحيانا ، إذ تحرم صاحبها من هذه المعونات . وفى الوقت نفسه فإنها أثبتت أن الانحياز هو الآخر عملية مكلفة وخاسرة أكثر ، إذ تكسبه عداء القوة العظمى الأخرى على الأقل . إنه لا قوة مع الفقر ، ولا حياد مع الضعف ، وتلك معضلة عدم الانحياز فى جوهرها .

التحـولات والتحـورات

ولنفصل قليلا . خذ مثلا تلك المجموعة العديدة من دول العالم الثالث (ومن بينها

---

(١) نازلى معوض أحمد ، «اللانحيازية فى مؤتمر بلجراد الوزارى» ، مجلة السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٨ ، ص ١٥١ ــ ١٥٤ .

(٢) المكان السابق .

بعض من كانوا من أوائل رواد عدم الانحياز ومن أبرز أقطابه) التى انتقلت فى السنوات الأخيرة خفية أو خلسة أو بغتة وفجأة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار أو العكس ، فى حركة « بندولية » أو « مكوكية » لاشك واسعة المدى للغاية تكاد ذبذبتها تغطى ١٨٠ درجة كاملة من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق أو العكس ، وتكاد بلا مواربة تذهب من أقصى النقيض إلى أقصى النقيض دون تحرج أو تحفظ .

وعلى سبيل المثال ، هناك تلك الدولة التى تزعمت العالم الثالث طويلا « وناطحت » الولايات المتحدة عقدا وبعض عقد وأقامت الدنيا وأقعدتها ضد عدوها الاقليمى الغاصب وربيب الولايات ، ثم فجأة وما بين عشية وضحاها أصبحت فى أو مع المعسكر الغربى بنسبة ١٠٠٪ بعد أن كانت فى أو مع المعسكر الشرقى بنسبة ٥٠٪ . ثم بغتة وعلى حين غرة (أو غفلة) كذلك قبلت عدوها الاقليمى اللدود « قبلة الموت » ، وبعدها أوشكت تنافسه على مركز الولاية الحادية والخمسين بين الولايات المتحدة الأمريكية . قليل من العجب ، بل لاعجب على الاطلاق ، أن قد هوت تلك الدولة فى نظر الكثيرين من قمة العالم الثالث إلى قاعه وسقطت من دائرة عدم الانحياز إلى مستنقع التبعية والنفوذ فضلا عن خطيئة الركوع .

ذلك مجرد مثال واحد ، وللى هذا فقس هذه الدولة أو تلك فى آسيا أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية ... الخ . والمهم أن هذا المد والجزر السياسى العنيف البعيد المدى ، سواء كان جزءا من استراتيجية المضاربة المفروضة على الصغار فى عالم الكبار أو كان ثمنا لها ، تم جميعا أو غالبا من موقع عدم الانحياز وباسم الحياد الإيجابى ، نعم ، عدم الانحياز والحياد الإيجابى . وهنا ـ موضوعيا ـ وجه الغرابة وموضع التساؤل[1] .

على أن الأدعى للدهشة أن من دول العالم الثالث من يعتقد بكل بساطة أن ارتباطه الحميم بإحدى الكتلتين أو بأحد القطبين ، سواء بالأحلاف أو القواعد أو التسهيلات العسكرية أو المساعدات الاقتصادية الغامرة ، أمر لا يمس عدم انحيازه فضلا عن أن يجبه من أساسه . إنه ليس من « نواقض الوضوء » السياسية فى ملته واعتقاده حتى كحد أدنى . وعلى سبيل المثال فإن أحد حكام العالم الثالث وأقطاب عدم الانحياز لم يتورع عن أن يعلن أنه « شخصيا لا يخشى الانضمام إلى حلف الأطلنطى »[2] ، بينما عرف آخر

---

(١) حمدان ، شخصية مصر ، ج٢ ، ص٧٣٤ .

(٢) مجلة أكتوبر ، ١٩٨١/٤/٢٦ ، الأهرام ، ٢٨/ ٤/ ١٩٨١ ، ص١ ، ٣ .

موقفه بأنه دولة من دول عدم الانحياز لها « علاقة خاصة » مع الولايات المتحدة .

وهكذا وهكذا إلى آخره . ولا غرابة بعد هذا أن بدأ العملاء والمبررون يقولون علنا وبلا مواربة ولكن بكل رياء إن طبيعة ووظيفة عدم الانحياز قد تغيرت بسبب المتغيرات الدولية بما يسمح الآن بالارتباط بالقوى الكبرى دون أن يتناقض هذا مع المبدأ نفسه .

التذبذب والاهتزاز

بمثل هذا وذاك ــ لابد لنا أن نعترف ــ فإن الموقف الأساسي أو الاستراتيجية العظمى لعدم الانحياز نفسه كمبدأ قد اهتزت اهتزازا مؤثرا فى الفترة الأخيرة ، وتعرضت لكثير من الذبذبات والضغوط ولا نقول الانحرافات والتحريفات . بل فى تقدير البعض أن معادلة « عدم الانحياز والحياد الإيجابي » أوشكت أن تنقلب فى أيدى بعض أصحابها جزئيا أو آنيا إلى نوع من « الانحياز الإيجابي وعدم الحياد » . فبدلا من الحياد الإيجابي بين المعسكرين وعدم الانحياز إلى أيهما ضد الآخر ، نجدنا أحيانا ــ ولا أوهام فى هذا ولا لجاج ــ إزاء مفهوم غريب وصيغة شاذة من الحياد السلبي بين العدو والشقيق مثلا والانحياز الإيجابي إلى العدو ــ الصديق ضد الصديق ــ العدو كما قد نقول .

ثمة اليوم مثلا من دول عدم الانحياز من يطارد السوفيت ووجودهم فى منطقته علنا ، وتماما مثلما كان يطارد الاستعمار القديم البريطانى أوغيره منها منذ عقد أو عقدين لا أكثر ، بل وبروح انتقامية أو صليبية أشد مرارة وضراوة وأقل تعقلا وانضباطا ، فى حين يرتمى فى أحضان الأمريكان ارتماء لا مكابرة أو مهاترة فيه وإن هو أنكر إصرارًا واستكبارًا أو غباء وإسفافا . أما واقع الأمر فلا يعدو بكل بساطة استبدال قوة عظمى بأخرى أو سيطرة بهيمنة أو نفوذا بتبعية ... الخ .

ثم هناك نقطة أخرى هامة . فإذا ما نحن افتراضنا استمرار مثل هذه السياسة البندولية أو المكوكية ، ولا نقول الحرباوية ، جيئة وذهابا ما بين الشرق والغرب ــ وليس هناك منطقيا ولا واقعيا ما يجب أو يستبعد هذا الفرض حتما ــ ثم أسقطناه على المستقبل ، أفليس لنا أن نتنبأ بالعكس ، بمعنى أنه ما الذى يمنع مبدئيا وعمليا أن نرتد يوما ما إلى الشرق مرة أخرى ، وهكذا دواليك بعدها إلى الغرب فالشرق ... الخ ؟ وهكذا تظل الدولة تتأرجح ما بين الغرب والشرق ، أو ما بين الانحراف والانحراف المضاد ، أو ما بين الانحياز وعدم الانحياز ، أو أخيرا وبالأحرى تمارس الانحياز باسم عدم الانحياز .

كلا ، .ما هكذا عدم الانحياز ، ولا هو بالحياد الإيجابى . وإنما المطلوب هو « تطبيع » العلاقات مع كلا المعسكرين أو القطبين عالميا والانحياز إلى الشقيق ضد العدو إقليميا . بذلك فقط ، وبه وحده ، يستقيم ميزان عدم الانحياز فى يد أصحابه ويستقر الحياد الإيجابى على تمام الزاوية القائمة . ذلك مؤشر للمستقبل مثلما هو مصحح للحاضر ، وهو على أية حال سوف يفرض نفسه على المستقبل إن عجز فى الحاضر أو عجز الحاضر .

عدم الانحياز فى الميزان

من الواضح الآن أن عدم الانحياز قد تعرض منذ بدايته للضغوط والهجمات الشرسة ، مثلما تعرض فى النهاية للتحلل والتآكل . وفيما بين البداية والنهاية كان هو نفسه قلقا حائرا أو هزيلا خائرا لا يعرف ماذا يريد بالضبط ولا هو قادر على تحقيقه أو حماية نفسه من قوى الانحياز المضادة . حتى قال من قال إنه استراتيجية حائرة مثلما هى محيرة ، عالقة كما هى معلقة . ولعلنا من جانبنا أن نضيف أن العالم الثالث بدوره يبدو وكأنه العالم الحائر بين « العالم الحر » و « العالم المر » ، ولا نقول كما يقول البعض إنه سياسيا « كالجنس الثالث » المقول بيولوجيا .

وعلى أية حال ، ورغم المحاولات التى تبذل حاليا لتنشيط عدم الانحياز وتجديد شبابه ، فإن العالم الثالث ، كما شخص شو إين لاى بنفاذية وعمق ، ضائع ما يزال بين القوتين الأعظم اللتين تحاولان اقتسامه كمناطق نفوذ . ثم ، كما تنبأ ببصيرة ثاقبة ، « فإننى أرى كثيرا من الانقلابات قادمة ، تحالفات قديمة تنهار وأخرى جديدة تحل محلها ... إننى أرى الفوضى فى كل مكان »[1] .

عن الواقع العملى

إذا كان ذلك كذلك ، فإن السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو منطقيا : ما المآخذ والانتقادات أو الأخطاء التى يأخذها النقاد على عدم الانحياز سواء فى النظرية أو التطبيق وسواء كانت موضوعية أو غير ذلك ؟ ثم ما مدى نصيبها من الصحة ؟ وماذا ينبغى عليه هو أن يفعل إزاءها ؟ تصنيفيا ، يمكن القول كقاعدة عامة إن الاتهامات المعادية التى ما

---

(١) M.H. Heikal, "Egyptian foreign policy", Foreign affairs, July 1978, p. 727.

فتثبت توجه إلى عدم الانحياز منذ بدايته إلى النهاية لا تشجبه كأمر واقع فحسب ولكن من حيث المبدأ ذاته أصلا .

استراتيجيـة أم تكتيـك ؟

فعلى مستوى الواقع أو على الجانب الاستراتيجى ، فإن أعداء عدم الانحياز وصموه باستخفاف بأنه تكتيك لا استراتيجية ، وإلا فبأنه « استراتيجية من لا استراتيجية له » . وآخرون كانوا أكثر تواضعا ولكن واقعية (أو خبثا ، لا ندرى) فاعتبروه أساسا استراتيجية مضاربة ليس إلا stalemate ، مضاربة الكتلتين والقطبين ببعضهما البعض والافادة من تناقضهما . بعبارة أخرى ، إن يكن الانحياز هو استراتيجية مضاربة الأقوياء (للضعفاء) ، فإن عدم الانحياز بالمقابل ليس إلا استراتيجية مضاربة الضعفاء (للأقوياء) . ولكن الرد ، كما ورد على لسان عبد الناصر فى حينه ، أن عدم الانحياز « ليس تجارة فى الصراع بين الكتلتين » « ولا تجارة حرب باردة » ، وتغير الأوضاع الدولية لا يؤثر فيه ولا يسلبه مبرر وجوده[1] .

مرحلى أم دائم ؟

كذلك فعلى المستوى العلمى يتساءل البعض ـ البعض الآخر يتهم ! ـ عما إذا كان عدم الانحياز قد استنفد أغراضه ووصل إلى طريق مسدود بانتهاء الحرب الباردة وحلول الوفاق ، وعما إذا كان هو بطبيعته مرحلة عابرة أو عبارة مرحلية وأن عليه أن يختار فى النهاية بين إحدى الكتلتين . وبينما أصر فريق على أن عدم الانحياز طريق مفتوح وأنه قادر دائما على التلاؤم مع تغير توازن القوى بين الكتلتين والقطبين ، اتخذ فريق آخر نظرة أقل تفاؤلا[2] .

على أنه أيا كان الرد أو الأمر ، فإن شيئا واحد على الأقل مؤكد . لولا عدم الانحياز فى الستينات ، أكان العالم اليوم ما هو اليوم أم شيئا مختلفا جدا وإن كنا بالطبع لا نستطيع تصوره تماما ؟ نريد أن نقول ، لولا دور عدم الانحياز كجيروسكوب سياسى منع العالم من أن تتقاذفه أمواج الصراع الكتلى إبان ذروة الحرب الباردة لساء مصير البشرية بالتأكيد . فكّر فقط كم كانت تتضاعف احتمالات وإغراءات الصدام بين المعسكرين فى مرحلة حبلى بالتوتر والعداوات وذلك لولاه كوسيط سلام وكوسط حياد .

---

(١) الدجانى ، ص ٢١٢ .

(٢) السابق ، ص ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٤ .

ولربما تكون الأجيال القادمة أقدر منا على أن تدرك أن مدرسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز قد أنقذت العالم من قبل من حربه العالمية الثالثة والنووية الأولى. ولو صح هذا لكفاه دورا فى التاريخ ووظيفة فى السياسة[1].

عن المبدأ الفلسفى

هذا فى نقد عدم الانحياز كواقع واستراتيجية. أما على مستوى المبدأ أو على الجانب الفلسفى، فإن عدم الانحياز بدا للبعض من نقاده قطعة من التصوف السياسى الغامض ولا نقول اللغو السياسى الأجوف. ولعل منهم من عده قمة فى المثالية السياسية التى يعوزها الكثير من الواقعية والجدية ولا ينقصها الكثير من المبالغة والادعاء الذى يكذبه واقع يتراوح إما بين التبعية والانحياز أو الانتهازية والابتزاز.

فمن ناحية أولى، اتهم عدم الانحياز بأنه قطعة من الانتهازية السياسية أو السياسة الانتهازية. ولكن الرد هو: أيهما حقا الانتهاز: الانحياز أم عدم الانحياز؟ بل لقد تجاوز الاتهام الانتهاز إلى حد الابتزاز، فقيل إن عدم الانحياز هو ابتزاز الضعفاء، إن عد الوفاق ابتزاز الأقوياء. كذلك فإن عد الأخير نفاق الكبار كما أشيع، لوجب أن يعد الأول نفاق الصغار. وآخرون، على أية حال، رأوا أن عدم الانحياز إنما هو سلبية الضعيف، بينما الانحياز إيجابيته. غير أن الرد مرة أخرى هو أن عدم الانحياز، على العكس، إنما هو إيجابية الضعيف، فيما الانحياز هو بحق سلبيته[2].

نظرية النسبية

وعلى أحسن الفروض وفى أفضل الأحوال يحتج النقاد بأن الانحياز أو عدم الانحياز مسألة نسبية بحتة ابتداء ومن حيث المبدأ. وإلا فهل كانت يوجوسلافيا مثلا، وهى من المؤسسين الأول، غير منحازة منذ بدأ عدم الانحياز؟ كيف بالدقة وهى شيوعية وفى معسكر الشرق رغم كل شيء؟ حتى الهند، المؤسسة الأخرى، تساءل البعض عما إذا كانت معاهدة الصداقة الهندية ــ السوفيتية لم تجعلها «تنحاز من غير إعلان»[3]. دع عنك كوبا بعد ذلك بالطبع، تلك التى وصفتها الصين تحديدا بأنها «حصان طرواده

---

(١) حمدان، شخصية مصر، ج٢، ص ٧٢٨.

(٢) الدجانى، ص ١٨٨.

(٣) محمد عزيز شكرى، ص ٩١.

سوفيتى » مدسوس فى صفوف عدم الانحياز [1] . وغيرها وغيرها . وعلى النقيض من هذا تماما ، ألا يضم عدم الانحياز اليوم دولا تكاد تقع فى فلك الغرب وتعيش فى كنفه أو تحت وصايته أو « على المعاش الأمريكى American pensioner » ... الخ ؟

إن عدم الانحياز بهذا وبمثله إن لم يكن تكتيكا باسم الاستراتيجية أو استراتيجية جوهرها التكتيك ، فإنه يكاد يجمع بين طرفى النقيض فى وحدة زائفة تمثل الحد الأدنى من التجانس والأقصى من التنافر . من ثم فالفكر نفسه ضبابى رمادى أو ملون كقوس قزح أو كلون الطيف ، والتجمع بدوره إن هو إلا جسم خلاسى مهجن إن لم نقل مع البعض هلامى خنثوى ، وذلك أيضا بقدر ما هو متضخم مترهل . ألا يؤكد هذا كثرة الخلافات والاختلافات الداخلية التى ظهرت فيه مؤخرا وسممت أعضاءه ؟ ... إلى آخره ، إلى آخره .

نظرية المستحيل

على أن أخطر من نظرية النسبية هذه وأكثر راديكالية ، نظرية تذهب إلى أن عدم الانحياز مستحيل ، مستحيل أصلا . ذلك أن عدم الانحياز المطلق ، كالحياد المطلق ، كالعزلة المطلقة – تقول النظرية – لا وجود له لا بالفعل ولا بالقوة . أما إضافة « الإيجابى » كصفة إلى « الحياد » كاسم فى مقولة الحياد الإيجابى ، فمجرد رخصة بعدم الحياد ، أى بالانحياز . وبالتالى فإن عدم الانحياز هو فى باطنه انحياز سلبى أو خبىء ، تقديرى لا تقريرى ، شخصى لا موضوعى ، وما هو من ثم فى النهاية والواقع إلا قناع تنكرى براق ولكنه زائف فى كرنفال السياسة الدولية .

والواقع – تمضى النظرية – يثبت أن كل خطوة من جانب عدم الانحياز نحو الشرق تبعده خطوة عن الغرب وخطوتين عن عدم الانحياز نفسه ، والعكس بالعكس . والنتيجة أنك إما أن تنحاز هنا أو هناك أو تنعزل كلية عن الاثنين . ومعنى هذا أن عدم الانحياز المطلق حقا إنما يرادف الانعزال والعزلة المطلقة حقا ، وهذا هو المستحيل المطلق فى القرن العشرين . وبعبارة أخرى فإن عدم الانحياز مستحيل فى عالم الاستقطاب الثنائى ، بينما أن الممكن الوحيد هو الانحياز تحت اسم وبدعوى وادعاء عدم الانحياز . وهذا – ينتهى أصحاب النظرية بحدة – ما يفعله بعض أعضاء عدم الانحياز بانتظام وبرود أعصاب يحسدون عليه .

---

(١) نازلى معوض ، ص ١٥٣ .

مستقبل عدم الانحياز

هذه الانتقادات والاتهامات بل والتخريجات والتجريحات التي قذف ويقذف بها الاستعماريون عدم الانحياز ، أيا كان نصيبها من الصحة والصدق أو الحقيقة والحق ، أما من درس يمكن أن يخرج هو به منها ويفيد؟ حسنا ، واضح ابتداء أن نقط ضعف عدم الانحياز إنما هي أساسا نقط ضعف العالم الثالث . ذلك أن هناك تداخلا بعيد المدى بين المفهومين أشبه بتداخل العضو والوظيفة ، لكن دون أن يصل التداخل إلى حد التطابق أو التلبيس . ولذا يحسن بنا كتمهيد أن نحدد المضمون العلمي لكلا المفهومين كما يسبق التشريح التشخيص والتشخيص العلاج .

عدم الانحياز والعالم الثالث

فأما عدم الانحياز فتعبير سياسي صك كتعريف لحالة الحياد الإيجابي بين الكتلتين أو القوتين الأعظم . أما العالم الثالث ففكرة مركبة وأشد تعقيدا . فهي فكرة حضارية تنطوي ضمنا على مدلول جنسي إلى جانب بعد جغرافي معين[1] . فالعالم الثالث ليس تعبيرا جغرافيا فقط أو بالضبط ، ولكنه بالدرجة نفسها تعبير حضاري ، وإلى درجة أقل تعبير عنصري . ومن هنا فلقد يكون عدم الانحياز أوسع نطاقا ورقعة من العالم الثالث في معنى ، حين يتجاوز هوامش الأخير إلى هوامش العالم الأول أو الثاني مثل أجزاء من أوربا . ولكن العالم الثالث يمكن أيضا أن يكون أوسع من عدم الانحياز في معنى آخر ، حيث أن بعض أجزاء منه لاتتبع سياسة عدم الانحياز بصرامة أو بصراحة .

وإذا كان التعبيران قد دخلا قاموس السياسة الدولية المعاصرة حديثا فقط وفي وقت واحد تقريبا ، فلعل عدم الانحياز أن يكون تعبيرا أكثر مباشرة عن مفهوم أو محمول الاستقلال والتحرر بعد التبعية والاستعمار ، بينما أن العالم الثالث أقرب إلى مفهوم وراثة الماضي القديم على المستويات الجغرافية والحضارية والجنسية جميعا .

المعادلة الجديدة

فالواقع أن العالم الثالث اليوم هو محصلة فكرة الشرق القديمة باستثناء اليابان وفكرة الجنوب الجديدة . غير أن من الضروري هنا أن نوضح أن فكرة الشرق هذه تختلف عن

---

(١) Anouar Abdel-Malek, Civilisations & social theories, Lond., 1981, p. 130-137.

فكرة الشرق بمعنى الكتلة الشرقية ، اختلافها أيضا عن الشرق بالمعنى الجغرافى البحت[1] . فإلى جانب الشرق (والغرب) الجغرافى الأبدى فلكيا ، والشرق (والغرب) السياسى الإيديولوجى الحالى كتليا ، هناك فكرة الشرق (والغرب) الحضارى تاريخيا بمعنى المواجهة أو المقابلة بين أوربا المسيحية فى جانب وأفريقيا شمال الصحراء مع آسيا فى الجانب الآخر . هذا ، ومع المواجهة المتصاعدة مع الغرب خلال القرن الأخير ، فإن فكرة الشرق تلك تطورت أيضا نحو الضيق من الشرق عامة إلى الشرق الإسلامى خاصة إلى الشرق العربى فقط .

على أن فكرة الشرق فى كل الأحوال لم تضم أفريقيا جنوب الصحراء قط ، أولا لأنها كسائر القارات الجنوبية والعالم الجديد كانت فى الماضى القديم وحتى العصور الحديثة خارج دائرة المعمورة المعروف ، وثانيا لأنها بعد ذلك صارت جزءا من مفهوم « الجنوب » بقاراته الجنوبية الثلاث . أما الآن فلأول مرة ينضم الجنوب الجديد إلى الشرق القديم (عدا اليابان) فى وحدة حضارية أو نضالية جامعة هى ما ندعوه اليوم العالم الثالث .

وعلى هذا فإذا كان العالم الأول هو الغرب ، والثانى هو الشرق ، وهذا وذاك بالمعنى السياسى الإيديولوجى الحديث ، فإن العالم الثالث هو مجموع الشرق بمعناه التاريخى القديم والجنوب بمعناه الجغرافى الحديث . وبهذا وبذاك جميعا انتقل أساس تقسيم العالم من المحور الطولى بين شرق وغرب إلى المحور العرضى بين شمال وجنوب ، كما أضيف العالم الجديد إلى القديم فى التقسيم لأول مرة . (وهو تقسيم ينكره ويكرهه الاتحاد السوفيتى بالذات ، على أساس أنه لا علاقة له بفقر الجنوب وتخلفه ، اللذين يسأل عنهما الاستعمار والإمبريالية الغربيين وحدهما) . وعلى أية حال ، يمكننا فى المحصلة النهائية أن نلخص خريطة التشكيلات السياسية الأساسية العريضة فى عالم اليوم فى المعادلات الموجزة الآتية :

العالم الثالث = (الشرق التاريخى – اليابان) + [(الجنوب الجغرافى) – (أستراليشيا + جنوب أفريقيا)]

$$\frac{\text{الشمال}}{\text{الجنوب}} = \frac{\text{العالم الأول + العالم الثانى}}{\text{العالم الثالث}}$$

---

(۱) إبراهيم صقر ، « مضمون الشرق والغرب » ، المحاضرات العامة ، الجمعية الجغرافية المصرية ، ۱۹٥۹ ، ص ۸۱ وما بعدها . Abdel-Malek, Nation & revolution, p. 89-94.

مشكلة القوة

حسنا إذن ، بهذا المعنى ما الذى ينقص العالم الثالث ؟ والرد على الفور هو القوة ، القوة بمعناها الشامل . فالعالم الثالث ليس الثالث فقط من حيث ترتيب الظهور الزمنى على مسرح السياسة الدولية بعد الأول (الغرب) فالثانى (الشرق) ، ولكن أيضا من حيث ترتيب المكانة الحضارية الشاملة فى العالم أجمع . فإنما هو حرفيا « العالم الترسو » أى عالم الدرجة الثالثة كما تحمل التسمية الإيطالية أو الفرنسية بلا مواربة ولا مجاملة : Le Tiers Monde, Il Mondo Terzo. وبهذه الصفة فإن العالم الثالث هو عالم التخلف ومهد الفقر . إنه « بروليتارية العالم » . وإذاكان الذوق الدولى ، لياقة أو لباقة ولا نقول منافقة ، قد استبدل كلمة الدول النامية developing بكلمة الدول المتخلفة underdeveloped ، فإن هذا لا يغير من الحقيقة المرة وهى أن العالم الثالث هو بلا تردد قاع العالم .

فمن البديهى أن العالم الثالث هو أضعف أركان المثلث الاستراتيجى المعاصر خارج كل حدود وكل مقارنة . يكفى أن نذكر أن توزيع الثروة فى العالم اليوم يعطى لنحو ٢٥٪ من سكان الأرض نحو ٧٥٪ من ثروتها ودخلها ، تاركا الربع الباقى لثلاثة أرباعهم ، ومنهم كل أبناء العالم الثالث . وعلى الجملة ، فإذاكان الشمال هو عالم القوة والغنى والتقدم والصناعة ، فإن الجنوب هو عالم الضعف والفقر والتخلف والزراعة ، أو كما قيل فى كلمة واحدة الشمال « مدينة » العالم والجنوب « ريفه » . لذا فلا مفر لهذا العالم من تثوير نفسه حتى النخاع كى يرقى إلى متطلبات دوره الحاسم فى عصر أصبح للقوة فيه أضلاع ثلاثة : السياسة ، والاقتصاد ، والعلم .

القوة السياسية

فأما من جهة القوة السياسية فإن أولى وسائلها استكمال تصفية الجيوب الاستعمارية المتخلفة فى العالم ، بما فى ذلك فصم علاقات الارتباط بالكومونولث وأمثاله . أما كتلتا الاستعمار الاستيطانى العنصرى العدوانى الغاصب على ضلعى أفريقيا فى أقصى الطرف الجنوبى وأقصى الطرف الشمالى الشرقى ، فلن تقوم للعالم الثالث قائمة حقا ولن يكون له وزن سياسى مذكور فى العالم ، إلا وإلى أن يتم اقتلاعهما كلية من جذورهما الشيطانية الشريرة وإلقائهما ، لا « فى » البحر كما يرجف خبثا وختلا محامو الشيطان ، ولكن « عبر » البحر : هذا إلى قارة خالية بيضاء مثل أستراليا إن استحالت عودته إلى أوربا

الأم ، وهذا إلى وطنه الأصلى أوربا الأم من حيث أتى أو إلى وطنه الأب الحامى الولايات المتحدة والعالم الجديد

هذه واحدة . أما ثانية هذه الوسائل فضرورة ترابط دول عدم الانحياز ترابطا وثيقا فى نسيج ضام غير منفذ لتسربات الاستعمار . والوحدة الأفريقية والتضامن الأسيوى الأفريقى وتفاعل القارات الثلاث ، مراحل على هذا الطريق . ولكن الخلافات الثنائية على الحدود والأقليات ــ ومعظمها من إرث الاستعمار ــ يجب أن تصفى بعد أن أصبحت خطرا حقيقيا على جبهة عدم الانحياز سواء فى آسيا أو فى أفريقيا . وإلا فهل يجوز مثاليا أن تخضع قوة عدم الانحياز لنفس ظاهرة التفكك والتفسخ التى أصابت الكتلتين المعسكرين ؟ لا يستقيم . كذلك فإن هناك عددا من دول الجبهة اسما ولكنها فعلا ترتبط وثيقا بالقوة الاستعمارية القديمة .

وعدا هذا فإن الوحدة الدستورية بين المجموعات الاقليمية المتجانسة ــ وفى أبعاد واقعية معقولة ــ كالعالم العربى أو شرق أفريقيا أو غربها .. الخ ، ضرورة ملحة لتصحيح الكيان السياسى للمجموعة . فالعالم الثالث اليوم هو بلقان العالم ، ويضم وحده السواد الأعظم من دوله ، بينما لا تزيد الكتلتان عن عدد محدود من مجموع الوحدات السياسية فيه . ومن هنا يتنافر نصفا الكرة الشمالى والجنوبى فى درجة التمزق أو التماسك السياسى كما يتنافران فى سائر مظاهر الحياة والنمو . هذا فى الوقت الذى لم يعد فيه مكان للدول الضئيلة والصغيرة ، وفى عصر يتجه إلى الدول ــ الكتل والاتحادات والتكتلات الاقليمية Grossräume .

أما وحدة الجميع مع الجميع فهى وحدة لا أحد مع لا أحد ، هى حد أدنى من الوحدة ، أما الحد الأقصى العملى فهو القومية الرشيدة . فمثلا وحدة عدم الانحياز أو القارات الثلاث Tricontinental أو الوحدة الأفريقية هى مجرد وحدة موقف سياسى وليست بديلا عن الوحدات السياسية الاقليمية الدستورية الحقيقية . بالمثل الوحدة الإسلامية ، حتى وإن اعتبر البعض الحلف أو التحالف الإسلامى نوعا من « الكومونولث الإسلامى » على غرار الكومونولث البريطانى مع الفارق[1] .

بشىء أكثر من التفصيل ، خذ مثلا منطقة كالعالم العربى . من المحقق أنها ــ ولها كل

---

(١) الأهرام ، ١٩٧٢/٢/١١ ، ص٧ .

مقومات الوحدة القومية ــ لن تقتحم حضارة العصر ، ولن تدخل القرن العشرين حقا ، ولن تعيش عصر العلم والتكنولوجيا ، إلا كوحدة واحدة أو كدولة موحدة. ولكن بالمقابل قارن ، على سبيل المثال ، أوربا الغربية التى تسعى اليوم بوعى وتخطيط كاملين إلى الوحدة رغم أنها ممزقة لغويا وقوميا وإن كانت موحدة جغرافيا ، ولو أن من الصحيح أيضا أن العالم العربى وإن كان موحدا لغويا وقوميا فإنه على العكس ممزق بالصحراء جغرافيا.

فما معنى هذا؟ معناه أن فى أوربا انقطاعاً لغويا ولكن اتصال عمرانى ، بينما أن فى العالم العربى انقطاعا عمرانيا ولكن اتصال لغوى. فالعامل المضاد أو المعرقل للوحدة فى الأخير هو الصحراء ، وفى الأولى اللغة. غير أن الفاصل الطبيعى هنا لا يعادل الفاصل اللغوى هناك بحال ، كما أنه لم يعد شيئا فى عصر الطيران. وهكذا يظل العالم العربى أغنى بمقومات القومية الأساسية من أوربا الغربية خارج كل مقارنة ، إلا أنه مع ذلك يظل للأسف أبعد منها عن الوحدة السياسية خارج كل حدود أيضا. لا يستقيم ، أليس كذلك؟

على أن نقطة الضعف القاتل فى النسيج السياسى للعالم الثالث إنما تكمن ، أخيرا وليس آخرًا بالتأكيد ، فى صميم كيانه الذاتى من الداخل ، ونعنى بذلك النظام السياسى أى نظام الحكم. ومن هذه الزاوية ، فلا مفر للأسف من الاعتراف بقدر كبير من الصحة على الأقل فى اتهام البعض للعالم الثالث كمجموعة من الدول بأنه مريض جيوبوليتيكيا ، كل دولة من دولة تقريبا مريضة جيوبوليتيكيا بدرجة أو بأخرى ولسبب أو لآخر.

فالعالم الثالث هو أكبر متحف عالمى للحفريات السياسية ومخلفات الطغيان والاستبداد الشرقى القديم والرجعيات البدوية البدائية العتيقة المتحجرة ، فضلا عن أنه غدا أبشع معقل للديكتاتوريات العسكرية[1] والفاشية اللاشرعية الاغتصابية الفاسدة نصف المتعلمة أو نصف الجاهلة. وكأنما قد حكم عليه بأن يستبدل بالاحتلال العسكرى الأجنبى القديم أيام الاستعمار ، الاحتلال العسكرى الداخلى الجديد تحت الاستقلال ، هذا استعمار خارجى وهذا « استعمار داخلى » ! والواقع موضوعيا أن العالم الثالث كما هو

(١) Abdel-Malek, Nation & revolution, p. 41 ff.

اليوم إنما ينتمى سياسيا إلى الماضى السحيق ، يعيش فى القرن ٢٠ الميلادى بالهيكل السياسى للقرن ٢٠ قبل الميلادى .

المؤسف ، بعد ، أن أغلب هذه الديكتاتوريات العسكرية أو الرجعية يتم أو يقع تحت ادعاء ولافتة الديموقراطية ، بل ويباهى بها أعرق الديموقراطيات الغربية بلا حياء ولا خجل . ولا عجب أن صك البعض لهذا كله تعبير « ديموقراطية العالم الثالث » ، « الديموكتاتورية » كنوع من السخرية السياسية . (١) وعلى الجملة ، فلا نقاش فى أن العالم الثالث هو أكبر سجن دولى ومعتقل مفتوح للمواطن النامى . ومن نافلة القول كذلك أنه لا أمل البتة فى تحرير هذا المواطن من التخلف السياسى والحضارى إلا بتحريره من هذه العبودية السياسية .

وكتفصيلة على الهامش ، فلقد أصبح العالم الثالث منذ تصفية الاستعمار مهد الحكم العسكرى الفاشى الباطش والانقلابات العسكرية الدورية . ولا يكاد يمضى شهر تقريبا إلا ويقع انقلاب عسكرى فى دولة ما من دوله ، كأنما قد سرى فى جسمه السياسى الميكروب اللاتينى والنمط اللاتينى حيث سجلت دول أمريكا الجنوبية وحدها أكثر من ٢٠٠ انقلاب عسكرى منذ الاستقلال فى أوائل القرن الماضى . أوكما عبر البعض ، لقد أصبح الحكم العسكرى وباء العالم الثالث ولعنة المدريات وجذام الجنوب ، وأصبح العالم الثالث دستوريا عالم الانقلابات العسكرية بالتفضيل والامتياز .

ومن المحزن أو المضحك أن كثيرا من أصحاب وصانعى هذه الانقلابات العسكرية الطفيلية أو الطفولية يصر إصرارا واستكبارا (أو غفلة واستهتارا ؟) على أن ينعتها بالثورة ، الثورة الشعبية وإلا فلا . كل انقلاب عند أصحابه هو ثورة ، إما وطنية أو اجتماعية أو ثورة تحرير ... الخ ، بينما هو عند الشعب من الغاصبين . وفى النتيجة ، وعلى هامش الهامش ، بل فى الصميم ، فإن معظم العالم الثالث لا يحكمه خيرة أبنائه ، إن لم يحكمه أحيانا شرهم حقا ، الأمر الذى يضاعف من أزمته العالمية ويزيده تخلفا على تخلف ووهنا على وهن .

القــوة الاقتصــادية

هذا عن القوة السياسية ، أما عن القوة الاقتصادية ، وهى الأساس المادى الصلب

(١) حمدان ، شخصية مصر ، ج١ ، ص ٤١ .

للقوة السياسية ، بينما أن هذه ليست إلا فيضها وفائضها والتعبير الخارجى عنها ، القوة الاقتصادية بالنسبة إلى العالم الثالث ليست فقط ضرورة قوة بل ضرورة بقاء بكل معنى الكلمة الخام ، لاسيما بعد النزيف الرهيب والنزح المقنن للموارد والثروات الذى تعرض له فى ظل الاستعمار قرونا وأجيالا . وحتى عند ذلك ، فالغريب والمؤسف أن قصارى ما يمكن أن يطمح إليه العالم الثالث فى مجال التطور والتقدم الحضارى ، بالقياس إلى مستويات وطفرات الدول المتقدمة المذهلة ، لا يعدو أن يكون تخفيفا للتخلف أو تحديثا للفقر ليس إلا .

وحتى لا يكون شك أو وهم ، فإن العالم الثالث هو ببساطة عالم الفقر والفقراء ، وسيظل كذلك إلى أمد غير قريب كما هو غير معروف . فمتوسط دخل المواطن العادى فى معظم دوله يسجل أدنى الأرقام فى السلم العالمى ، واقعا غالبا تحت خط الفقر الدولى ، أى فى حدود ٣٠٠ – ٥٠٠ دولار فى السنة ، مقابل عشرة الأمثال على الأقل للدول الغنية المتقدمة . أى أن دخل الفرد العادى فى الدول الأخيرة يعادل دخل ١٠ أفراد فى الأولى ، أى أكثر من دخل أسرة نامية كبيرة ، بكل ما يعنى هذا من مستوى معيشة ورفاهية واستهلاك وتطلعات وكذلك من إمكانيات وقدرات على المزيد من النمو والتقدم والتطور ... الخ . بل إن العالم الثالث لم يعد حتى الثالث مؤخرا . فلقد تدنى فى السنوات الأخيرة بعد طفرة دول البترول فانزلق برمته إلى مرتبة جديدة دنيا أفردها له الاقتصاديون حديثا فأصبح « العالم الرابع » .

وواقع الأمر أن متوسط الدخل الحقيقى ومستوى المعيشة الفعلى فى معظم دول العالم الثالث قد انخفض فى الفترة الأخيرة نتيجة التضخم العالمى الجسيم ، المرتبط جزئيا بثورة أسعار البترول . ولهذا فإن العالم الثالث ازداد فقرا على فقر مرتين ، واتسعت الهوة الاقتصادية بينه وبين العوالم الأخرى بدل أن تضيق . إن قانون النمو الاقتصادى السائد على أرض عوالمنا الثلاثة أو الأربعة هو قانون السمك فى البحر : الكبير منه يأكل الصغير ، وهو قانون التوراة القديم : « لمن عنده سوف يعطى » ، وهو قانون الربح المركب الألومترى الجديد allometric : الكبير يزداد كبرا والصغير يزداد صغرا .

من هنا جميعا فإن التحدى الجسيم الذى يواجه العالم الثالث هو بأخف تشبيه كيف لشخص غارق فى الطين أن يرفع نفسه بنفسه من رباط حذائه . وكلمة السر من ثم هى التنمية ، التنمية الذاتية ، والتنمية المكثفة السريعة . فلا بد من حشد وتجنيد كل الموارد

الطبيعية والطاقات البشرية للتحرر من التخلف وللانطلاق فى مدارج التقدم والرفاهية . ورأس الحربة فى هذا كله هو التصنيع .

وهنا نلاحظ أن العالم اليوم يكاد ينقسم إلى ثلاثة أنماط عريضة من الاقتصاد القومى : دول منتجة للمصنوعات ، ودول منتجة للخامات ، ودول منتجة للغذاء . وقد تجمع دولة بين أكثر من واحد من هذه الأنماط ، لكن المهم أن الدول المتحررة النامية يقع معظمها فى النمط الثانى وذلك بعد أن حرمها الاستعمار السابق من الصناعات فى الوقت الذى حرمها أيضا من الكفاية الغذائية بتوجيهها غير المتزن إلى الخامات . فأغلب الدول النامية تعيش بمقاييس العصر فى عصر ما قبل الصناعة pre-industrial ، وأفضلها حظا لا يعدو مرحلة شبه الصناعة semi-industrial . وهى من ثم تكاد عمليا تكون محاصرة اقتصاديا بين دول النمطين الآخرين ، ولا نقول بين قوسين من الجوع والفقر .

فالتجارة العالمية ـ ولا زالت بهيكلها الاستعمارى ـ تتحيز تحيزاً صارخا ومتزايدا للمصنوعات إزاء الخامات . وتعمل الدول النامية الآن على تصحيح هذا الميزان المختل ولكن دون جدوى فيما يبدو ، إذ تشير تقديرات الأمم المتحدة إلى أن نصيب الدول النامية من صادرات العالم فى تناقص مستمر نسبيا ، حيث هبطت النسبة من ٣٠٪ فى ١٩٥٠ إلى ٢٥,٣٪ فى ١٩٦٠ إلى ١٩,١٪ فى ١٩٦٦ .

ومن ناحية أخرى أصبح من الجلى تماما أن الغذاء قد صار سلاحا سياسيا تعسا للضغط وحرب التجويع . وبين هذا وذاك ، فقد تحتم على هذه الدول النامية أن تعيد تركيب إنتاجها بما يكفل استقلالها الاقتصادى ، إذ مما لاشك فيه أن اقتصاديات الدول النامية هى اقتصاديات تابعة économies dominées ، خاضعة أساسا لاقتصاديات الدول المتقدمة ، تماما مثلما كانت أيام الاستعمار ، بل ولأنها أصلا إرث الاستعمار . ومن هنا فإن عليها أن تتجه إلى مزيد من التفاعل والتبادل التجارى فيما بينها للحد من سيطرة الكتلة الاستعمارية على تجاراتها الخارجية .

أما حوار الشمال ـ الجنوب الزئبقى المزمن الممطوط فما عاد يجدى ، وإنما بات كما وصف حوار الصم ـ البكم : إنه حوار بلا « جدوى اقتصادية » ! والمعنى أن ليس للدول النامية عمليا وواقعيا أن تأمل الكثير من معونة الدول المتقدمة ، وأن عليها أن تعتمد على أنفسها فى الدرجة الأولى . أما القروض الأجنبية فقد تكون « رافعة » مساعدة

إلى نقطة معينة ، ولكنها أيضا يمكن بعدها أن تستحيل « رافعة خافضة » ، إذ تتراكم فوائدها بميكانيكية الربح المركب إلى الحد الذى يكاد ينسخ فاعليتها ويجعلها عقبة لاعتبة إلى التنمية .

وعلى وجه العموم ، فنحن هنا لانستطيع أن نغادر قضية القوة الاقتصادية فى العالم الثالث دون نبرة ختام حادة ولكنها مستحقة . فواقع الأمر المختل المخجل أن التجارة الدولية اليوم قد باتت هى الشكل الجديد للاستعمار ـ أو تكاد . ذلك أنه بعد تصفية الاستعمار القديم ، بمعنى الاحتلال والاستيطان ، أصبح الفارق الرهيب والانحدار العمودى العامد فى أسعار السلع بين الخامات والمصنوعات هو الأداة الجديدة التى اصطنعها وشرعها الغرب والدول الصناعية المتفوقة لاستبقاء التفرقة بينهم وبين العالم « الترسو » كسادة وتوابع وإنما فى نظام معيشى وتعايش نوعى جديدين .

وإذا كان البتروليون وحدهم هم الذين نجحوا مؤخرا فى اختراق حاجز الأسعار هذا ، فذلك بمحض صدفة سعيدة فقط (أو غير سعيدة تماما ، حيث جاءت قفزتهم على حساب ورقاب سائر الدول النامية ضمنا ، فضخمت من أزمتهم وتخلفهم بالتضخم المضاعف) . وفيما عدا هذا على أية حال ، فإن المرء يكاد ، كلما أمعن التفكير فى نظام الأسعار العالمى الراهن ، أن ينتهى إلى أن السرقة الاستعمارية اليوم لم تعد الملكية السياسية ، وإنما باتت هى التجارة الدولية بالدقة والتحديد ، أو فلنقل بالتقريب .

قوة العلم

أما قوة العلم ، أخيرا ، فهى اليوم بلا جدال المحور الأسى للقوة المادية والمعنوية . فلئن كانت القوة الاقتصادية هى نواة القوة السياسية ، فإن قوة العلم بدورها هى النواة النووية . وتخلف العالم الثالث تاريخيا لم يكن فى جوهره إلا تخلفا علميا ، والاستعمار نفسه لم يكن إلا تفوقا حضاريا . وإذا كان القرن التاسع عشر هو قرن الذين يملكون والذين لا يملكون ، فإن القرن العشرين ـ أكثر من أى وقت مضى ـ هو قرن الذين يعلمون والذين لا يعلمون . والعلم إذن هو حضارة المستقبل ، ومستقبل العالم الثالث رهن بتطوره العلمى . ومن هنا أضحى « نقل التكنولوجيا » ضرورة حيوية لا بديل لها ولا غنى عنها . والتكنولوجيا اليوم ملك لمن يملك ثمنها ، وليس بالضرورة لمن يملك سرها .

وفى هذا الاطار يمكن أن ندرك بعمق قيمة الدعوة التى أطلقها « الميثاق » المصرى

حينا ما للحاق بعصر الذرة والفضاء بعد أن فاتنا عصر الفحم والكهرباء . وليس ثمة ما يمنع من أن يصبح العالم الثالث من أقطاب الحضارة والقوة إذا خاض الثورة العلمية ، بل ربما أصبح القرن الحادى والعشرون قرن العالم الثالث كما يأمل البعض . ومع ذلك فلا ينبغى الاسراف فى التفاؤل بغير عمل شاق ورهيب ، لأن العقود الأخيرة شهدت اتساعا مخيفا فى الهوة التكنولوجية التى تفصل بين الدول المتقدمة والنامية .

ولقد رأينا فيما مضى كيف أن الحضارة والقوة قد هاجرت بانتظام واطراد من عروض دون مدارية إلى العروض الشمالية ، من الدفء إلى البرد ، ومن مدار السرطان صوب القطب ، وذلك مع قهر حضارة الانسان المتزايد للمناخ البارد . وهناك من يعتقدون ان هذه الحضارة قد وصلت الآن إلى حد القدرة على قهر المناخ الحار ، وأن ليس هناك بالتالى ما يمنع من أن يعود البندول فيتأرجح فى اتجاه عكسى من المناطق الباردة إلى المناطق الحارة ، ومن العروض الشمالية إلى العروض المدارية وصوب خط الاستواء . بل إن هناك من يعتقد أن التطورات السياسية والاقتصادية والثقافية التى لحقت بالمداريات إنما هى من إرهاصات هذه الحركة الجديدة ، كما أنه ثبت أن تكييف المناخ الحار أسهل وأرخص من تدفئة المناخ البارد[1] .

ومعنى كل هذا أن المستقبل للمداريات ــ للعالم الثالث ــ لقوى عدم الانحياز (أو كما وضعها فى حالة أفريقيا كاتب ساخر من أبنائها : إن « المستقبل أسود » !) . والحقيقة أن العالم الثالث إذا كان اليوم فقيرا ضعيفا متخلفا ، فإنما هو كذلك بالواقع لا بالامكانيات ، بالفعل لا بالقوة . فإمكانياته الطبيعية ضخمة ورصيده المادى شبه بكر ، وبينما اقترب العالم الشمالى من نقطة التشبع فى ميدان الاستغلال والتنمية ، لا يزال أمام العالم الثالث مجال فسيح . ويكفى أن نأخذ من إمكانيات التحميل بالسكان مؤشرا على ذلك .

يقدر ماكيندر مثلا أن أفريقيا المدارية وحدها يمكن أن تستوعب فى يوم ما ألف مليون نسمة ، ومثل هذا الرقم يعطيه لأمريكا الجنوبية [2] . فإذا أضفنا إلى ذلك آسيا الموسمية بكتلتها البشرية العارمة ، فقد يمكن أن تحمل المداريات أو العالم الثالث يوما ما مقدار ما يحمل هذا الكوكب اليوم من سكان (+ ٤,٦٠٠ مليون) . ومهما يكن من

---

(١) Stamp, Applied Geog., p. 149.

(٢) "The Round World & the Winning of Peace", p. 605.

أمر ، فلا شك أن الثقل النسبى للعالم الثالث ديموغرافيا سيرتفع بشدة فى المستقبل ، وسيكون هذا جزءا من ، وعلامة على ، عملية إعادة توزيع الأثقال والأوزان بين القوى العالمية التى بدأت من قبل .

فى الختام

وبعد ؟ والخلاصة ؟ حسنا ، قد يكون عدم الانحياز حدثا سياسيا بالغ الأهمية ، ولكن العالم الثالث مازال جيوبوليتيكيا حدثا صغير السن لم يبلغ سن الرشد إلا بالكاد ، ولا بلغ مرحلة النضج بعد بالتأكيد . غير أنه بحكم بزوغه ونزوعه التاريخى قد « وقع بين مقعدين » هما العالم الأول والثانى ، كل يشد فى اتجاه وكل يدفعه ضد الآخر على أساس المبدأ الأيديولوجى ، ولكنه يرفض على أساس قضية التكنولوجيا . وتلك بالدقة مشكلته الشائكة . فهو منذ البداية موزع بين التقدم والتقدمية ، أى بين التكنولوجيا والأيديولوجيا على الترتيب . فإذا كانت مشكلة الغرب فى نظر البعض أنه متقدم ولكنه غير تقدمى ، بينما يدعى الشرق أنه متقدم وتقدمى معا ، فإن مشكلة العالم الثالث باعتراف (أو ادعاء ؟) بعض قادته أنه تقدمى ولكنه غير متقدم .

من هنا فإنه يجد نفسه ممزقا بين ثورة الآمال والتطلعات والطموحات العالمية اللامحدودة وبين إمكانياته الفقيرة المحدودة ، بين حمى الاستهلاك المعدية وقفص التخلف الحديدى ، بين الغوايات والاغراءات الرأسمالية والضغوط والتحديات الاشتراكية . وبعبارة أخرى فإن تاريخه الحديث على قصره جاء كله صراعا بين الانفتاح ضد الانغلاق ، والسلاح ضد السلام ، والأمن ضد الطعام والتنمية ، والرأسمالية ضد الاشتراكية ، وأمريكا ضد الروسيا ، والغرب ضد الشرق ، والأصالة ضد المعاصرة — فكل هذه جوانب شتى لشيىء واحد ولا انفصال لها عن بعضها البعض .

أما فى التحليل الأخير فلعله بحاجة إلى قدر أقل من القوة المعنوية وأكثر من القوة المادية ، قدر أقل من الأيديولوجيا وأكثر من التكنولوجيا . لكنه أيضا بحاجة إلى قدر أكبر من الانتاج وأقل من الاستهلاك . وقبل هذا وذاك فإنه بحاجة إلى قدر أكبر من الاعتماد على الذات ، وأقل من الاعتماد على الغير . وفى جميع الأحوال فإنه بحاجة إلى قدر أكبر من الثقة بالنفس ، وأقل من مركب النقص . وبغير هذا فلا مستقبل له تقريبا ، ولكن المستقبل له يقينا به وبمثله . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

الفصل الخامس عشر

ما بعد الوفاق وعدم الانحياز

آفاق مستقبلية

من معطيات العصر التى لاتحتمل التزيد أو الاجترار وإن تحملته دائما ، أن على قمة هذا العالم تتربع منذ نهاية الحرب الثانية قوتان شبه متكافئتين ولكنهما شبه متنافرتين هما القوتان الأعظم . ورغم أن إحداهما قد تعد متفوقة على الأخرى دائما أو مرحليا ، بحيث قد يصح أن نميز فيهما كقاعدة أو أحيانا بين القوة الأولى والثانية ، فإنهما أدنى إلى التكافؤ والندية والتقارب عموما . ومن بديهيات العصر بعد ذلك ، وهذا هو الأهم ، أن العالم كله محكوم بصورة أو بأخرى بهذه الثنائية والاستقطاب والتوازن ، إلى حد قد يجوز معه تجاوزا أو مجازا أن نتحدث عن « حكم ثنائى condominium » عالمى بطريقة ما ، بكثافة ما ، وبدرجة ما .

ولقد يكون هذا الوضع أو النمط الثنائى التنافسى الاحتكارى جديدا من حيث المبدأ ، أو قد لايكون . فإلى ماقبل الحرب الثانية كان على قمة العالم بالمثل قوتان عظميان هما الإمبراطورية البريطانية والفرنسية ، متقاربتان إلى حد أو آخر فى القوة ، متنافستان على احتكارها ، وفيما بينهما تحكمان أو تتحكمان فى العالم أو الجزء الأكبر منه بدرجة أو بأخرى . كل ما فى الأمر ، وهذا فارق التطور والعصر والمقياس والإيقاع بين الاستعمار القديم والجديد ، أن قد حلت محل هاتين الإمبراطوريتين إمبراطوريتان جديدتان غير اقليميتين non-territorial ، عالميتان أو كوكبيتان أكثر ولكنهما مكانيتان أقل . بل أليست هذه الثنائية والصراع الثنائى هى كما رأينا جماع وخلاصة تجربة القوة السياسية طوال العصور الحديثة منذ الكشوف الجغرافية على الأقل ؟

أيا ماكان ، فإن علينا الآن فى نهاية رحلتنا الطويلة المفعمة حول العالم والعصر أن نتقدم لنقترب اقترابا مباشرا أكثر من هاتين القوتين الأعظم ، نتفحصهما من الداخل

أكثر ونحلل تركيبهما فى صميمه الهيكلى وفى تطوره الذاتى الذى هو وحده يمكنه أن يفسر كل سلوكهما السياسى بكل دقائقه وتفاصيله وبكل ذبذباته ومتغيراته طوال ربع أو ثلث القرن الأخير. بل إنه هو وحده الذى يمكن كذلك أن يحدد مصيرهما فى المستقبل القريب أو البعيد ، وبذلك يعطينا مفتاح التنبؤ المستقبلى : أتتم بينهما عملية اختزال من ثنائية تنافسية إلى أحادية احتكارية مطلقة ، أو تحل محلها ثنائية أخرى تماما ، أو على الأقل تلحق بهما قوى عظمى أخرى لتتحول الثنائية إلى ثلاثية أو رباعية أو خماسية أو أكثر... الخ ؟ ولكن لنبدأ بالحاضر أولا وتحليل الصورة الراهنة ، مرجئين التنبؤ إلى النهاية ، كذلك فلتكن الولايات المتحدة هى نقطة البدء .

الدورة والدور الأمريكى

ليس من العسير على طالب الجغرافيا السياسية أن يرى أهم مفتاح للتطورات العالمية الأخيرة يكمن ــ موضوعيا ــ فى تحركات ونشاطات ودينامية الولايات المتحدة بصفة أساسية ، وهى نشاطات وتحركات ودينامية عدوانية أحيانا بصفة قاطعة . وليس من العسير عليه أيضا أن يرى مفتاح الدينامية أو العدوانية الأمريكية هذه يكمن فى مرحلة تطورها الجيوبوليتيكى ، أى فى موقعها على منحنى تطور الدولة عبر التاريخ ككائن عضوى أو شبه عضوى .

وبالنسبة للولايات ، يمكن أن نميز من مراحل التطور الأربع الأساسية ثلاث مراحل حتى الآن هى : مرحلة الطفولة حتى أواخر القرن ١٩ ، ثم مرحلة الشباب حتى حرب فيتنام ، ثم أخيرا مرحلة النضج منذ الوفاق فى السبعينات الأخيرة فقط . وواضح أن المرحلة الأولى هى كأمر طبيعى أطولها ، إلا أن أهميتها تاريخية نوعا . أما الثانية فهى أخطرها خارج كل حدود ، لأنها التى تفسر كل عناصر الاضطراب والخطر والتوتر فى عالمنا المعاصر حتى قريب جدا ، ولهذا فإنها ستشغل الحيز الأكبر من دراستنا التفصيلية التالية . أما المرحلة الثالثة والأخيرة فطور طارئ حديث للغاية ، ولكنه مفتاح المستقبل جميعا .

دور النشــأة والطفـولـة

الذى يحلل تاريخ الولايات المتحدة سيجد القرن التاسع عشر فى أغلبه يمثل طفولتها كدولة ، فقد كانت تبدى كل ملامح وأعراض دور النشأة حيث ظلت منهمكة ــ بعد

حروب الاستقلال ـ فى صراعاتها الداخلية البحتة وحروبها الأهلية وعمليات الضم الاقليمية أو تعميق الاتحاد محليا ، باختصار كانت مستغرقة تماما فى عملية ترتيب البيت من الداخل . من هنا كانت « العزلة » بوصلتها وقبلتها السياسية التى يمكنها وحدها أن تتيح لها الحماية من أخطار الخارج ريثما تتكون لها درقة أو صدفة صلبة تغلف قوقعتها الهلامية الناشئة . وقد كان مبدأ مونرو هو أول صيغة للعزلة فى الواقع ، بل من الثابت أنه لم يبدأ إلا برعاية وموافقة بريطانيا ولم يتحقق إلا فى ظل أسطولها وسيادتها البحرية العالمية .

غير أن ظروف الولايات المتحدة الخاصة جدا ، من عزلة طبيعية جغرافية وضخامة فجائية غير مألوفة ، ساعدتها حتى منذ دور النشأة على الاتجاه نحو السيطرة الخارجية . وهذه وجدت مجالها شبه البكر فى أمريكا اللاتينية ، وذلك بطبيعة عزلة العالم الجديد جغرافيا وبذريعة مبدأ مونرو سياسيا . ومن المفارقات اللافتة الساخرة والتى سترسم سابقة دالة للمستقبل ، أن سيطرة الولايات المتحدة فى أمريكا اللاتينية إنما تمت على حساب النفوذ البريطانى بالذات ، وذلك بعد عملية صراع وإزاغة حلت بها الإمبريالية الأمريكية محل البريطانية .

والخلاصة من هذا كله أن الولايات فى عزلة مرحلة نشأتها لم تكن تمارس الصوفية أو المثالية السياسية ، وإنما كانت منغمسة منذ وقت مبكر فى تجربة جديدة فى فن الاستعمار اتخذت من أمريكا اللاتينية حقلا لها ومشتلا ومعملا . وهذا ماستخرج به إلى العالم حين تدخل دور الشباب ليكون « هدية » العالم الجديد إلى العالم القديم ...

دور الشباب

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر كانت الولايات قد عبرت مرحلة الانتقال من دور النشأة إلى دور الشباب واقتحمت دور الشباب والفتوة الذى تكون الدولة قد استكملت فيه بناء كيانها الداخلى وقوتها الذاتية ماديا ، وأمنت حدودها نهائيا ، وبدأت طاقتها تفيض عبر حدودها فتتطلع إلى الخارج فى حذر أولا ثم فى اندفاعة منقضة لا تلوى على شىء فى النهاية . إنه دور التوسع ، أى الاستعمار بالضرورة ، الدور الذى تمثل فيه الدولة مشكلة خطيرة للسلام العالمى وتحديا للقوى الأقدم والأحدث على السواء .

من الاستعمار القديم إلى الجديد

ويتمثل هذا فى حالة الولايات فى توسعاتها الاستعمارية بالمعنى المباشر ـ معنى

الاستعمار القديم – فى الكاريبى والهادى ، ثم فى انغماساتها فى حروب العالم القديم الإمبريالية التى كانت تتأرجح فيها بين تقليد عزلة دور النشأة وبين إغراءات توسع دور الشباب . فبعد أن شاركت إثر تردد طويل فى الحرب العظمى الأولى ، تذبذبت نحو العزلة نوعا فيما بين الحربين ، إلى أن تجاذبتها من جديد الحرب العظمى الثانية التى وضعتها تماما فى قلب دوامة السياسة العالمية بل وعلى رأس صراع القوى الكوكبية جميعا .

وإذا كانت الحرب الثانية قد قامت أصلا كصراع استعمارى بين دولة فتية فى دور الشباب (ألمانيا) تبغى التوسع على حساب دولة أقدم فى دور النضج (بريطانيا) لم تعد تنشد إلا الاستقرار وكل همها المحافظة على الوضع الراهن بما لها فيه من مكاسب استعمارية عظمى حققتها من قبل فى دور شبابها ، فإن الجائزة الكبرى قد سقطت فى النهاية فى يد الولايات المتحدة . فلقد خرجت بريطانيا ، وأكثر منها فرنسا ، بضعضعتين من الصراع ، مما مكن لثورة التحرير أن تنطلق فى المستعمرات ، وللولايات المتحدة أن تشارك فى مطاردتهما منها حتى تستطيع أن تحل محلهما ، إلى أن انتهت فترة ما بعد الحرب بانتقال بريطانيا وفرنسا كدول من دور النضج إلى دور الشيخوخة والانكماش .

وفى النتيجة ، فإن الإمبريالية الأمريكية الجديدة لم ترث الإمبريالية البريطانية والفرنسية القديمة فحسب كما هو شائع ، وإنما ورثت فى الحقيقة كل الرأسماليات المتنحية بريطانية وفرنسية وألمانية وإيطالية ويابانية ... الخ ، أى كل الرأسماليات الديمقراطية والدكتاتورية ، الليبرالية والفاشية ، وقوى دور النضج ودور الشباب على حد سواء .

أما بالنسبة إلى دول التحرير الوطنى التى قامت فى المستعمرات القديمة ، والتى تقف على درجات متفاوتة من دور النشأة والطفولة بكل معالمه ومشاكله التطورية العادية فضلا عن التخلف الحضارى والضعف الجذرى الخطير ، فقد ظهرت الولايات المتحدة أمامها فى ازدواجية خبيثة لم تلبث أن صارت سافرة . فقد خدعت بعض هذه الدول فى دورها السياسى تحت أوهام عزلتها القديمة ومثل مرحلة نشأتها المدعاة ، وكذلك تحت تأثير مطاردتها الظاهرية للاستعمار القديم حتى توهمت الأولى فيها أملا حقيقيا للتحرير والتعمير . فإذا الحقيقة تتكشف عن قوة جديدة تأتى من وراء البحار لتصدر تجربتها الخاصة والأصيلة فى الاستغلال بدل الاحتلال ، والسيطرة والنفوذ بدل الامتلاك والوجود ، أو بالتعبير الدقيق لتمارس الإمبريالية بدل الكولونيالية أى الاستعمار . وهذا هو « الاستعمار الجديد » فى مقابل « الاستعمار القديم » ، وتلك كانت بداية خيبة أمل العالم

الثالث فى الولايات ، ولكن الأسوأ منه كانت النهاية ، إذ أصبحت الولايات لعنة العالم الثالث بالتحديد كما رأينا ونرى أحيانا .

عناصر القوة

وعند هذا الحد يمكن تشخيص خطر الولايات فى أنها أول دولة فى التاريخ اجتمعت فيها ولها كل عناصر القوة ومقوماتها ، ولكن أيضا كل أعراضها وأمراضها ، وذلك على أكبر مقياس فى التاريخ كذلك ، فهى فى كل ذلك « أول أكبر » أو « أكبر أول » كما قيل . فهى كقارة أو شبه قارة تعد أول دولة تقف على قمة دور الشباب فى مثل هذا الحجم والضخامة والثراء . ويكفى فى هذا الصدد تفوقها العلمى والتكنولوجى المجنح الذى خلق بينها وبين أوربا الغربية نفسها هوة كالهوة التى بين أوربا الغربية والعالم الثالث ! وإذا كان أهم مايميز الدولة فى دور الشباب أن نضج قوتها المادية يسبق نضج خبرتها وحنكتها السياسية إلى درجة مقلقة ، فإن هذا يصدق على الولايات كما لا يصدق على دولة أخرى ، بل إلى الحد الذى يضع العضل فوق العقل تماما فى السياسة العالمية .

وهى بعد ذلك أول دولة رأسمالية تتعدى حدود الرأسمالية التقليدية وآفاق الرأسماليات القديمة إلى مرحلة يمكن أن توصف حقا بمرحلة مافوق الرأسمالية super-capitalism. فهى اليوم أكبر قلعة للاحتكارات والاستثمارات العالمية والشركات متعددة الجنسية . وهى كذلك ولذلك أول دولة تتبنى الديموقراطية وتمارسها شكلا وتعلن نفسها حامية « العالم الحر » والمدافعة عنه ، ولكنها مع ذلك التى أخذت تنمى لنفسها ملامح فاشية بقدر أو آخر ، أكثر من جنينى على أية حال ، وذلك بتضخم آلة الحرب تضخما رهيبا جعل الحكم فيها أدنى إلى شركة مساهمة بين الاحتكارية والعسكرية أو بين تجار الأسلحة وتجار الحروب . وهى بهذا ـ موضوعيا ـ أول دولة تعرف لونا جديدا من الفاشية هى الفاشية المقنعة ، تمييزا لها عن الفاشيات السافرة السابقة . ويكفينا شاهدا فى هذا المجال تصريحات بعض الساسة الأمريكيين أنفسهم . من أولها ماقاله الرئيس الأسبق أيزنهاور عن التلاحم الوثيق بين رجال الصناعة والعسكرية وتحذيره من « حصول هذا المركب الصناعى ـ العسكرى على نفوذ لامبرر له » . ومن آخرها ما أعلنه مرشح للرياسة الأمريكية من أن الولايات « لم تعد قلعة للديمقراطية ، وإنما أصبحت معقلا للديكتاتوريات » ، وأن « مايحدث فى أمريكا الآن ... يشبه إلى حد كبير ألمانيا الهتلرية عام ١٩٣٩ » .

والولايات بعد كل هذا وقبله وفوقه أول وأكبر قوة نووية فى التاريخ ، وهذا عنصر لايقبل المزيد من التعليق ، إلا أن نلاحظ فقط مغزاه فى ضوء اجتماع الخصائص السابقة ، وهو أن هاهنا أول حالة لدولة عظمى فى دور الشباب ، فوق رأسمالية ، شبه فاشية ، وفى نفس الوقت ذات قدرات ـ أو أنياب ـ نووية .

وإنه لمنطقى جدا بعد هذا ـ فيما يبدو للولايات ـ أن تتطلع إلى السيطرة العالمية المطلقة وألا تقنع بأقل من دور الوصاية الكاملة على هذا الكوكب . وهناك من يخشى أن تكون الولايات ساعية فى معنى حقيقى جدا إلى إنشاء أول إمبراطورية كوكبية فى التاريخ الإمبريالى وإن يكن فى شكل غير مباشر هو الاستعمار الجديد ، أو قل الإمبريالية العليا أو العظمى super-imperialism (١) . لقد كانت أعظم إمبراطوريات الاستعمار القديم مهما تعاظمت تغطى جزءا فقط من هذا الكوكب ، ولكن يبدو الآن أن الاستعمار الأمريكى الجديد يود أن يعوض عن الكثافة بالمساحة . وهناك من يرى ـ مثل توينبى ـ أن الولايات المتحدة هى روما العصر ، بينما يسجل أحد قادة الولايات نفسها « أننا أصبحنا نقوم بالدور الذى كانت تقوم به الإمبراطورية البريطانية القديمة » .

غـرور القـوة

والولايات تكاد تتصور هذا رسالة قدرها إن لم تتوهمه حقا إلهيا مقدسا . غير أنه بغض النظر عما قد تتخيله هى أو تدعيه عن مثالياته وفروسيات قوتها ، وبغض النظر كذلك عما إذا كانت تعتقد أن « الله أمريكى » أو أنها ظل الله على الأرض كما يسخر منها البعض مثلما سخروا من بريطانيا القرن الماضى ، فإن الواقع الموضوعى هو أن عناصر القوة قد تحولت أحيانا فى يد الولايات إلى أعلى مراحل غرور القوة ، إن لم يكن حقا إلى نوع من جنون القوة .

ففى رأى الكثيرين أنها إذ جعلت من نفسها رجل إطفاء العالم ، تحولت بالفعل إلى مفجر حرب العالم ، وأن تصورها لدورها كرجل بوليس عالمى انتهى بها إلى أن تصبح فى الواقع دولة بوليسية إرهابية عظمى وقرصانا أو قاطع طريق دولى خطير. كما أنها ، وقد جعلت من نفسها وريثة كل الاستعمار ، قد صارت تلقائيا قلعة الرجعية العالمية وزعيمة الثورة المضادة فى العالم أجمع . وهذا مادعا البعض فى وقت ما إلى أن ينتهى إلى

(١) A. Abdel-Malek, Nation & revolution, p. 121.

أن الولايات أصبحت نقمة وكارثة حقيقية على العالم ومأساة العصر الكبرى . بل هناك من شبهها « بسرطان العالم » من حيث أن السرطان ليس أكثر ولاأقل من نمو شاذ غير متوازن يظل يتضخم فى جسم عضوى حتى يدمر خلاياه . وإذا كان العالم قد تحدث فى مراحل متعاقبة عن الخطر الأصفر والخطر السلافى والخطر الشيوعى ... الخ ، فإن البعض يرى أننا اليوم نعيش فى عصر « الخطر الأمريكى » (إقرأ : السلام الأمريكى) .

وأيا كانت النظرة العلمية إلى هذه الآراء ، التى قد تكون عاطفية أكثر مما هى خاطئة ، فلا جدال على الأقل أن هناك كثيرا من الموضوعية فى نظرة ديجول فرنسا مثلا الذى أعلن كرجل دولة مسئول أن أخطر مايواجهه العالم فى القرن العشرين هو تضخم قوة أمريكا خارج كل حدود ... ومن الناحية العلمية البحته يمكن أن نلخص جوهر مشكلة الولايات فى العالم فى أنها بحكم ظروف خاصة جدا جغرافية وتاريخية وصلت إلى الصدارة العالمية قبل الأوان ، وقبل أن تكون مؤهلة لها بالتاريخ والتجربة والنضج . ولعل هذا هو السبب الذى حدا بمؤرخ مثل توينبى إلى أن يتوقع أمد حياة قصيرا للصدارة الأمريكية فى العالم ، فلا يتنبأ لها بأكثر من ٥٠ سنة على الأكثر من البداية إلى النهاية ، وهو مدى قصير للغاية إذا قورن بالصدارة البريطانية أو الفرنسية فى الماضى ... الخ .

أما من الناحية العملية ، فإن عناصر القوة الأمريكية لم تعد مفتاحا أساسيا من مفاتيح السياسة العالمية فقط ، بل وأخطر عناصر الصراع والصدام الدولى المحتمل . فهدف السيادة العالمية كان حريا منذ البداية بأن يصطدم مع الاتحاد السوفييتى ومن خلفه الكتلة الشرقية ، كما يستدعى ابتلاع العالم الثالث . ولقد رأينا من قبل كيف كاد العالم غير الشيوعى فى الستينات يبدو فراغا فى نظر أمريكا ، وكيف كاد ملؤه يبدو عبء الرجل الأمريكى .

ونضيف هنا أن الذى يساعد الولايات على ذلك وجودها العسكرى من قواعد وأساطيل منبثة حول العالم كله تقريبا ، حتى كادت بذلك تصبح جغرافيا وسياسيا « جارا » ـ غير مرغوب فيه ـ تشترك حدوده مع حدود كل دولة تقريبا ، مثلما قد صارت « شريكا » ـ طفيليا ـ لها فى وجودها وذلك بمخابراتها السرية وعملائها وتكنولوجيات التجسس والأقمار الصناعية ... الخ ، حتى قال البعض ـ يأسا أو سخرية ـ أينما تكونوا تدرككم الولايات المتحدة !

ومن البديهى بعد هذا كله أن تكون الولايات على جانب الهجوم دائما . فبينما لا يملك الاتحاد السوفيتى أن يغامر بالردع النووى الشامل ، وجدت الولايات فرصتها الذهبية وسلاحها الفعال فى استراتيجية الرد المرن والحروب المحدودة الصغيرة المحلية أو الاقليمية . وقد ساعد الولايات على ذلك وجودها العسكرى الذى ذكرنا توا منتشرا فى عشرات القواعد والتسهيلات بالاضافة إلى أساطيلها العديدة فى محيطات العالم ، تلك الجزر الأمريكية العائمة أو الثابتة التى وصفت بحق أنها « الأرمادا الأمريكية » أو انكشارية العصر الحديث .

احتكار القــوة

وأخيرا ، فلعل خير ختام لمرحلة الشباب العارمة هذه من حياة الولايات هو هذه المفارقة التى أوشكت أن توصل العالم إليها . ففى العصر الذى ظننا فيه أن استراتيجية السياسة العالمية أصبحت ثلاثية الأبعاد والأركان لأول مرة فى التاريخ بحيث زال احتكار القوة المطلق الذى عرفته كل المراحل السابقة على القرن الحالى ، فى هذا الوقت أصبح أحد هذه الأركان ، وبالتحديد قطبه الأمريكى ، يتمتع بسيادة عالمية أحادية شبه مطلقة ترجح كثيرا كل ما عرفته بريطانيا مثلا فى أوج عصر احتكار القوة ، فإذا به بالفعل أو بالقوة يحكم من العالم أقله ويتحكم تقريبا فى أغلبه .

ولابد للباحث الموضوعى أن يعترف ، مؤقتا أو ظاهريا على الأقل ، أننا بمنطق غريب بل معكوس نعيش أو نكاد نعيش منذ الحرب الثانية قرن الولايات المتحدة ، وأننا نكاد نشهد الآن عصر « أمركة » العالم ـ سياسيا كما هو حضاريا ـ بعد أن عشنا عصر « الأوربة » فى القرن الماضى . وإذا كان ٤٪ من مساحة العالم فى غرب أوربا قد نجحت حتى القرن الماضى فى السيطرة على ٩٦٪ من مساحة العالم ، فإن ٦٪ من سكان العالم هم سكان الولايات المتحدة يهدفون فى هذا القرن كما يبدو إلى السيطرة على ٩٤٪ من سكان هذا الكوكب .

ولقد كان الخطر الكامن فى هذه الاتجاهات الانزلاقية والنكوصية السائدة إذا هى استمرت أن يصبح عصر السيادة العالمية المطلقة للإمبريالية الأمريكية على مرأى النظر أو مرمى حجر كما أنذر البعض . غير أن هذا لحسن حظ العالم أو لسوء حظ الولايات لم يحدث ، إذ جاءت السبعينات لتضع نهاية لمرحلة شبابها وتفتتح مرحلة النضج .

دور النضـج والاستقـرار

من المؤكد أن عقدة فيتنام وصدمة الوفاق تمثل تغيرا كيفيا أكثر منه كميا فقط ، وبالتالى نقلة جذرية فى حياة أمريكا السياسية . ففى أتون فيتنام انصهر غرور القوة والغطرسة الأمريكية ، ثم أنضجتها نارها من أوهام الشباب والفتوة العاتية . وبالوفاق ، أفاقت الولايات على الحقيقة القاسية وهى أنها إزاء تحديات عالمية لم تعرفها من قبل ، وأنها كما عبر الرئيس الأمريكى بنفسه وقتها (نيكسون) لم تعد وحدها مع الاتحاد السوفيتى على قمة العالم ، وأن هناك قادمين جددا على الطريق ومنافسين أقوياء على الصدارة العالمية . وبصيغة مراحل التطور الجيوبوليتيكى ، فإن معنى هذا مباشرة وبيقين هو أن الولايات قد انتقلت أخيرا على صخرة فيتنام وعبر بوابة الوفاق من مرحلة الشباب إلى مرحلة النضج .

أزمـة القـوة

لقد أخذ ثقل أمريكا يتضاءل ــ نسبيا ــ فى ميزان القوة العالمية وذلك بعد أن وصل إلى الذروة ولم يعد يستطيع أن يتجاوز « سقف » القوة إلى أعلى . ولم يكن هذا لِتناقصٍ فى مواردها أو قدراتها ــ هذه لاتكف عن النمو بشدة ــ وإنما ببساطة لأن عالم القوى قد اتسع كثيرا عما كان عليه حتى قريب ، وذلك بظهور تعدد المراكز . إن أمريكا ، بعبارة أخرى ، تنمو أكثر من أى وقت مضى ، ولكن العالم من حولها بات ينمو بسرعة أكبر .

من هنا فقد أدركت راغمة أن هناك « انكماشا » نسبيا فى حجمها ، وبالتالى فلابد من تقليص نسبى لدورها . ومن هنا ، وليس من هناك ، اتجهت إلى المزيد من التعايش السلمى مع الاتحاد السوفيتى (الوفاق) والتقارب مع الصين (زيارة نيكسون) إلى آخر ذلك الانقلاب الكوكبى المثير الذى شهدته السبعينات الباكرة .

إن الولايات المتحدة ، كدولة ، تمر تحت ناظرينا وبصورة غير ملحوظة ولكنها درامية حقا من مرحلة الشباب أى التوسع إلى مرحلة النضج أى الاستقرار ، وهى المرحلة التى تكون الدولة فيها قد بلغت قمة القوة ولا تملك بعدها إلا أن تخسر ، ولذا تجد كل مصلحتها فى المحافظة على مواقعها المكتسبة ومكاسبها المتراكمة وعلى الوضع الراهن ، ساعية بذلك إلى الاحتفاظ « بسلامها » الذى سبق أن فرضته بالقوة ، وذلك دون الالتجاء ما استطاعت إلى المزيد من الحروب والصدامات . أى أن الدولة ، باختصار ، تقبل بالوضع الراهن Statis quo ، لتفرض منه الأمر الواقع

fait accompli ، وتستبدل بالعنف المباشر الخداع العنيف . وتلك هى حقيقة الحقائق فى كل الموقف الأمريكى الراهن ، مثلما هى الحقيقة المفتاح فى سياستها المقبلة .

فأما أن الولايات اليوم فى أزمة فنعم ، أما أن حلها هو العزلة فلا . وهنا بالتحديد تكمن ــ علميا ــ مشكلة الولايات الراهنه مباشرة . إنها أزمة الانتقال من مرحلة فى الدورة الجيوبوليتيكية إلى مرحلة أخرى فى عالم متغير حتى النخاع . والارتداد إلى العزلة فى وجه هذا التحدى ليس إلا من قبيل أوهام الماضى ، لأن العزلة كانت وظيفة طبيعية ملائمة لمرحلة بعينها ، ولكن لا مكان لها الآن ، لا فى مرحلة تطور الولايات المتحدة نفسها ولا فى عالم الصواريخ عابرة القارات وثورة المواصلات والنواة ...الخ التى هى بالدقة أكبر صانعيها أيضا .

من احتكار القوة إلى توازن القوى

وإنما الاستراتيجية التى فرضت وستفرض نفسها على الولايات ، والتى خططت لها بالفعل فى أوائل السبعينات على يد مهندسها كيسنجر ، هى العودة إلى النموذج البريطانى العتيد ، سياسة توازن القوى بدلا من سياسة مجابهة أو تناطح أو تناحر القوى ، وذلك لتلعب فيها دور « المرجح » الفيصل ــ كما يسمى تقليديا ــ بعد أن انتهى دور « المحتكر » المطلق . وهذا التحول يقترب ، إن لم ينتقل ، بنا إلى جوهر استراتيجية الصراع فى القرن ١٩ ، وإنما على نطاق جغرافى أوسع كثيرا وعلى مستوى تكنولوجى أعلى جدا ، حتى لكأن معادلة اليوم هى تكبير لمعادلة الأمس .

فمن الواضح منذ الوفاق فى أوائل السبعينات أن الولايات إنما اتجهت عمدا إلى التعايش السلمى والانفراج مع الاتحاد السوفيتى وإلى التقارب مع الصين لا لينتهى صراع القوى ولكن لكى تدق على المدى الطويل فيما تأمل إسفينا نهائيا بين القوتين الشيوعيتين . كذلك فإنها لا تعترف بالاستقطاب المتعدد أيا كان عدد أطرافه لكى يؤلف « صفا أفقيا » يتساوى فيه الجميع أو تتساوى فيه مع الجميع ، وإنما ليؤلف « طابورا رأسيا » تقف هى على قمته ، تضارب فيه من موقع المرجح ومن عزلتها بين المحيطين بين بقيتهم ، تمنع اجتماعهم ضدها أو استشراء قوة أو خطر أى منهم ، وتخلق فيهم المحاور الاستقطابية المتناقضة والمتحاربة التى قد يحيّد أو يحطم بعضها البعض ، دون أن تتدخل هى أو تخسر من مكانتها أو تحرق أصابعها بقدر الامكان ، وإنما تقف من بعيد تؤجج الصراع وتجمع الأرباح .

وفى ظل هذه الاستراتيجية سيكون علينا أن ننتظر من أمريكا الكثير من مفاجآت المناورات التكتيكية ، وتغير المواقف الخداعية اللامبدئية ، التى لاتعرف حتى الولاء للأيديولوجية ، ولا تعترف إلا بقوة المصلحة ومصلحة القوة . ولعل التقارب مع الصين هو أول هذه المفاجآت . ولسوف يكون على الدول الصغرى التى تتحدد مصائرها بصراع العمالقة أن تأخذ فى حسابها محاذير هذه السياسة اللا أخلاقية التى أكسبت النموذج البريطانى القديم من قبل صفة الغدر والغادر .

كذلك فعلى كل من تخامره أوهام عزلة أمريكية قادمة ، مهما لوّحت أو هددت هى بها ، أن يتخلوا عن هذا الوهم العريض بل المريض . وفى حالة الشرق الأوسط بالذات ، وحيث يعنى الأمر إسرائيل بالتحديد ، فلسوف يظل الخطر الأمريكى قائما ومقيما ، وإن يكن فى تركيبة جديدة . والمهم فى كل الأحوال أن صراع الأقطاب يحمل الكثير من المفاجآت والاحتمالات ، ويمكن أن يتبع أكثر من معادلة من معادلات القوة .

الولايات بريطانيا القرن ٢٠

وعند هذا الحد من السياق تقفز إلى الذهن ، لامفر ، دورة حياة الإمبراطورية البريطانية بالذات . فهى فى الحقيقة تمثل « مسودّة » مصغرة ، أسبق وعلى مستوى أقل ، من دورة الإمبراطورية الأمريكية . أما الفارق فهو فارق المقياس بين « جزيرة » بريطانيا « وشبه قارة » الولايات ، وفارق العصر بين الثورة الصناعية والثورة التكنولوجية ، أى بين العصر الآلى والعصر النووى ، وهو أخيرا فارق الشكل بين الاستعمار القديم والجديد ، الفارق باختصار بين القرنين التاسع عشر والعشرين . وفيما عدا هذا فإن الولايات تكاد تكرر هذه الدورة فى مجملها وإن لم يكن بحذافيرها بالطبع .

فهى جزيرة عظمى بإزاء كتلة العالم القديم ، منها وليست فيها ، تتمتع بالعزلة والحماية وراء المحيط بكل اتساعه . وهى كبريطانيا لم يطأها غاز ، ولم تدر على أرضها حرب لقرون . وكبريطانيا كذلك ، لم تكن تحرص على العزلة وتمارسها إلا ضمانا لحمايتها فى دور النشأه والتكوين ، فقط ريثما يشتد عودها لتنطلق ، لتطلقها بعد ذلك إلى الأبد . وهى إلى الأمس القريب جدا كانت فى أوج القوة وعلى قمة مرحلة الشباب ، غير أنها فى وجه تعدد المراكز الصاعدة وتصاعد المنافسة دلفت أخيرا جدا وبالتدريج الوئيد

إلى مرحلة النضج تنشد مضطرة الاستقرار والمحافظة على مكاسبها ومصالحها المكتسبة فى ظل الوضع الراهن .

وكما كانت الحرب العالمية الثانية بداية نهاية الإمبراطورية البريطانية ، وعبدان (مصدق) والملايو والسويس (ناصر) نهاية النهاية فى الخمسينات ، جاءت حرب فيتنام (هوتشى مينه) بداية نهاية السيادة العالمية الأمريكية وإيران (خومينى) نهاية النهاية فى أواخر السبعينات . الفارق الوحيد ، وهو أساسى للمستقبل ، أن الحرب الثانية كانت جيوبوليتيكيا نهاية مرحلة النضج والاستقرار وبداية مرحلة الشيخوخة والانحدار ، وبالتالى نهاية دورة القوة برمتها ، فى حالة بريطانيا ، أما فيتنام فنهاية مرحلة الشباب وبداية مرحلة النضج فى حالة الولايات . ولذا فإن أمامها ما تزال أشواط مديدة من دورة القوة تمارسها وتقطعها .

ماذا بعد أمريكا ؟

ولكن يبقى مع ذلك أن إقامة أمريكا ـ بكل جرمها وجبروتها غير المسبوق أو الملحوق ـ على قمة السيادة العالمية المطلقة جاءت أقصر فعلا من كل تصور وأن نهايتها أتت أسرع من كل تقدير (راجع رأى توينبى) . فمن كان يظن أن تاريخ حياة أمريكا على ذروة السيادة العالمية يمكن أن يكون قصيرا جدا إلى هذا الحد ، أقصر قطعا مما عمرت روما وبريطانيا ؟ ثم السؤال الأكثر غرابة وإثارة : ومن وماذا بعد أمريكا ؟ الروسيا ؟ حسنا ، إن حدث فلن يكون ذلك إلا مصداقا لميكانيزم قوة البحر تليها قوة البر فى السيادة العالمية ، وتكرارا لتاريخ القوة العالمية خلال العصور الحديثة على الأقل . ثم من بعد الروسيا ؟ الصين ؟ ... الخ ...الخ .

ومع ذلك فيكاد يكون من الصعب على المفكر السياسى المعاصر أن يتصور عالم الغد بلا أمريكا على القمة أو أن يتصور لها وريثا عليها فضلا عن غالب لها . وعلى ذكر الغالب ، مهما يكن الأمر ، فإن النبوءة الوحيدة التى قد يمكن الجزم أو التكهن بها ، إذا ماهزمت الولايات هزيمة استسلام شامل جدلا ، أنها قد لاتعود غالبا بنفس حدودها وحجمها وكيانها الجبار الراهن ، وإنما قد تمزق أوربيا أو تفتت لاتينيا على الأرجح ، على صعوبة التصورين الفرضيين أصلا ، هذا كذاك .

ثم ماذا ؟ حسنا ، لقد اتسع المسرح جدا وكبرت البانوراما للغاية عما كانا عليه فى القرن الماضى ، وتبادلت القوى أدوار الشخصيات المختلفة ، لكن الدراما واحدة ،

دون أن يعنى هذا بالضرورة أن التاريخ يعيد نفسه . وإنما صراع القوى بين الأقطاب المتعددة سيتم من الآن على أساس أنه لم يبق للولايات المتحدة كما تحتفظ بالسيادة العالمية إلا أن تمارس من جزيرتها الكبرى فى العالم الجديد لعبة توازن القوى بين منافسيها فى العالم القديم ودور المرجح بينهم ، تماما مثلما فعلت بريطانيا من جزيرتها الصغرى إزاء منافسيها على القارة فى الماضى .

دور الاتحـاد السـوفيتى

ميـزان القـوة

إن تكن الولايات المتحدة بطبيعتها قوة هجومية أساسا وبالضرورة ، فإن الاتحاد السوفيتى قوة دفاعية بالتفضيل والامتياز . ذلك ، بحكم كل شىء ، فارق استراتيجى محورى وجوهرى لاسبيل إلى تجاهله أو التقليل منه . فلا هو فقط بحكم الأيديولوجيا وعبادة القوة ، ولا هو بقوة الثراء وتقدم العلم والتكنولوجيا ، ولكن أيضا بحكم التاريخ والجغرافيا ذاتها . ففضلا عن طبيعة الرأسمالية التنافسية ونزعتها التسلطية ، إضافة إلى إمكانياتها الفائقة وتفوقها التكنولوجى الباهر ، فإن الولايات لم تذق طعم الحرب على أرضها منذ ١٨١٢ .ولذا فإن استراتيجيتها المفضلة كانت هى دائما أن تدافع بالهجوم ، وأن خير الدفاع الهجوم ، وأن الهجوم للأقوى ، وهو نصف النصر ، بينما على الأضعف الدفاع والأضعف على الدفاع .

أما الاتحاد السوفيتى فكاد يكون النقيض تماما . فلإيديولوجيته السلامية المعلنة ، ولتخلف مستواه الحضارى والمادى المعلن أيضا وانصرافه إلى رفعه وتحسينه ، ولكن أيضا وأساسا لأنه أكبر من خسر فى الحروب العالمية وكان أبشع مسارحها ، فإن استراتيجيته الموروثة والمكتسبة هى بالضرورة الدفاع ، حتى الهجوم هو بالدفاع ، أى يتم عن طريق الدفاع . حتى الأسلحة السائدة عند كلا الطرفين ، للدهشة ولكن لا غرابة ، يصدق عليها نفس المقابلة . فأخطر أسلحة أمريكا المفضلة هى الصواريخ متعددة المدى والرؤوس والطائرات القاذفة المقاتلة الجبارة ، بينما أن أشهر الأسلحة الروسية عنده وحتى عند أصدقائه هى الصواريخ الدفاعية أمثال سام وغيرها .

هذا عن الخلفية العسكرية أو العقيدة القتالية ، أما إذا نقلنا إلى ميزان القوة ، فليس من السهل أن نحدد بدقة قاطعة من القوة الأولى داخل القطبية الثنائية . من ناحية

لتذبذب كفتى الميزان من مرحلة إلى أخرى ، ومن ناحية ثانية لأنه ليس بالقوة العسكرية البحت وحدها يكون قياس القوة بمعناها الشامل . وعموما فلقد كانت كفة الولايات هى الراجحة غالبا فى القوة العسكرية معظم مراحل الفترة الحديثة من الصراع ، وإن جنحت مؤخرا لصالح الاتحاد كما يقال أو كما يقول الطرفان على حد سواء .

على أن الذى لاشك فيه أن الاتحاد كان دائما ولا يزال متخلفا عن الولايات بالمعنى الحضارى الشامل . ففضلا عن مستوى المعيشة قطعا ، فإنه يقصر دونها كثيرا فى معظم خطوط الانتاج القومى والاقتصادى والزراعى والصناعى ، خاصة منها التكنولوجيا الحديثة فائقة التطور ، إلى حد أنه يعتمد اعتمادا خطرا على القليل الذى تسمح به منها ، بل وحتى كذلك على دول أوربا الغربية الكبرى المتقدمة .

مثلا فى ١٩٦٨ بلغ حجم الانتاج القومى فى الاتحاد نحو ٣٥٠ بليون دولار ، مقابل ٧٤٣ بليونا للولايات . ورغم أن هدف الاتحاد المعلن لايعدو حتى الآن أن يلحق بمستويات الولايات فى القريب ، فإن معدلات نموه أسرع قليلا أو كثيرا من الولايات ، والفجوة الكلية بينما تضيق باستمرار ، وإن انعكس الوضع فى السنوات الأخيرة على مايبدو .

دولة فى مرحلة النضج

وإذا نحن أخذنا بما يقوله الاتحاد السوفيتى ، فإنه ملتزم بالسلام ويتبع سياسة سلامية أساسا ، ويعمل على إثبات تفوق نظامه عن طريق المنافسة فى الحياة لا فى الموت ، ويضع لنفسه هدفا محددا فى المستقبل القريب هو الوصول إلى مستوى معيشة وإنتاج الولايات ثم تخطيها . ومن الناحية الأخرى فهو لم يعد يتهم من أعدائه بتصدير الثورة إلى الخارج ، وهو يكتفى فيما يبدو بالمحيط الجغرافى الهائل الذى وصل إليه العالم الاشتراكى وبالمثل والنموذج القائم الفاعل فى صمت . وحتى فى أوربا الغربية يسود الاعتقاد بأن خطر الغزو الشيوعى العسكرى لم يعد مسلطا ، أو كما قال سياسى بريطانى فى أوج الستينات العاصفة « إننا مستسلمون لوهم الخطر الروسى إلى حد العجز عن ملاحظة الاتجاهات الأشد خطرا فى السياسة الأمريكية ... » .

وهناك أسباب عدة لهذا الموقف الجوهرى من جانب الاتحاد السوفييتى ، منها مبادئه الأساسية نفسها فالسلام مطلب اشتراكى أساسا ، ومنها بلا شك الانقسام الخطير الذى أصاب الكتلة الشرقية بالنزاع السوفييتى الصينى فأصابها بضعف دولى ملموس ، ومنها

كذلك أنه بعد ٦٥ سنة من الثورة والنضال الداخلى والخارجى المرير قد وصل إلى بناء مادى عمرانى ضخم يسعى للمحافظة عليه من خطر التدمير. وهنا نصل إلى نقطة قد تكون هامة فى تشخيص مرحلة النمو السياسى التى بلغها الاتحاد.

فمع التفرقة الواجبة بين طبيعة الدولة الرأسمالية والدولة الاشتراكية وبين أهدافها، فإن مراحل النمو السياسى والتطور الجيوبوليتيكى العام للدولة ككائن عضوى ليس ثمة ما يدعو إلى التفرقة فيها. ومن هذه الزاوية فإن الاتحاد السوفييتى كدولة يمكن أن يقال إنه تعدى مرحلة الشباب منذ حين ودخل مرحلة النضج. فرغم أن مرحلة الشباب فى الدولة الاشتراكية لا يمكن أصلا أن تستهدف أو تتميز بالتوسع الاستعمارى ـ وقد أنفقها الاتحاد بالفعل فى البناء الداخلى وضد العدوان الخارجى كما حدث حوالى الحرب الثانية ـ ورغم أن هذه الملامح لا زالت أهم معالم العمل السوفييتى، فإن الأرجح أن الاتحاد قد بلغ الآن مرحلة النضج.

ولعل ما أعلنه فى الستينات بمناسبة مرور نصف قرن على الثورة من أنه الآن بدأت مرحلة الانتقال من الدولة الاشتراكية إلى الدولة الشيوعية بالمعنى الدقيق، أن يشير إلى مرحلة النضج هذه، وهى المرحلة التى يحرص صاحبها ـ رأسمالى أو غير ذلك لا يهم ـ على المحافظة على مكاسبه وإنجازاته، ولذا يحرص على السلام بنفس الدرجة. بل لعل موقف الاتحاد من الصدع الذى وقع فى الكتلة الشيوعية بينه وبين الصين الشعبية، والذى يتسم بالحرص على عدم توسيعه مهما كانت الاستفزازات، أن يؤكد هذا التشخيص التطورى. وعلى أية حال، فإن دولة الاتحاد السوفييتى أسبق وأقرب بالتأكيد من دولة الولايات المتحدة إلى مرحلة النضج، سواء ذلك باعتبار تاريخه منذ الثورة أو قبلها.

وهنا يبدو على الفور فارق آخر، فارق مرحلى يضاف إلى الفارق الأسى، بين موقف الاتحاد والولايات من التعايش السلمى. ففضلا عن طبيعة النزعة المسلحة والإمبريالية الكامنة فى النظام الرأسمالى، فإن الولايات المتحدة حتى وقت قريب جدا كانت دولة فى مرحلة الشباب بكل ما يعنى هذا من غرائز توسعية ونوازع عدوانية .. الخ. ومن الواضح من كل ما تفعله وتقوله (وما لا تقوله) الولايات، أنها تنظر إلى التعايش السلمى كهدنة مسلحة مؤقتة تكسب بها وقتا أولا وأرضا ثانيا، دون أن تتخلى عن خطتها العليا للسيطرة والسيادة الكوكبية، بما فى ذلك أساسا وأخيرا السيطرة على الكتلة الاشتراكية المضادة.

ومن الصعب عند هذا الحد ألا تقفز إلى المقارنة صراعات وتوازنات ما قبل الحرب الثانية . فما يفرض نفسه على الباحث الجيوبولتيكى ، ذلك التشابه الكبير بين مواجهات ١٩٣٩ ومواجهات يومنا هذا ، رغم عناصر الاختلاف التى لاشبهة فيها كذلك . فمواجهة الحرب الثانية بدأت بصدام دولة فى مرحلة الشباب ، متحرشة مستفزة تريد التوسع وتمجد القوة (ألمانيا) ، ودولة فى مرحلة النضج حريصة أشد الحرص على مزاياها المكتسبة ولم تدخل الحرب إلا مترددة مرغمة فى النهاية وبعد وصمة استسلام ميونيخ الشهيرة (بريطانيا) .

فبغض النظر عن الفروق الجذرية فى النظم الاجتماعية مابين فاشية ألمانيا ورأسمالية بريطانيا ، وكل استعمار ، وما بين رأسمالية الولايات المتحدة الإمبريالية واشتراكية الاتحاد السوفييتى ضد الاستعمارية ، فان تحرش الولايات واستفزازها وعدوانيتها المسلحة أحيانا من ناحية ، وحرص الاتحاد بأقصى درجات ضبط النفس على عدم التورط فى الصدام من ناحية أخرى ، يكرر أساسيات الموقف القديم . ومن أبرز استفزازات الولايات فى صميم المعسكر الشرقى حرب فيتنام ، وحلم الحرب الخاطفة ـ على نحو ما فعلت إسرائيل فى الشرق الأوسط ـ على ألمانيا الشرقية كجزء من حلم « تحرير ما وراء الستار الحديدى » .

أبعد من هذا ، فإن محاولة ألمانيا النازية المساومة مع بريطانيا (أو العكس ربما) على حساب الاتحاد السوفييتى بمشروع هتلر بالانقضاض على الشيوعية ، هذه المحاولة تكرر فى معنى ما محاولة الولايات المتحدة فى أكثر من مناسبة فى الستينات الأخيرة التلويح للاتحاد السوفييتى بالمساومة على اقتسام العالم وتفادى الصدام بين العملاقين ، وذلك على حساب العالم الثالث ، كبش الفداء الأساسى فى حالة مثل هذه الصفقة .وسواء عد الوفاق فيما بعد أو لم يعد تحقيقا لمثل هذه الصفقة الاستعمارية المشبوهة ، فإن هذا لا يغير من عناصر المقارنة ، كما أن فشل العرض النازى لم يمنع من وقوع الصدام .

وإذا كانت النازية بعد ذلك قد عادت فعقدت ميثاق عدم اعتداء مع الاتحاد السوفييتى ، فلم يكن هذا إلا مناورة لكسب الوقت ريثما تنتهى من بريطانيا ، وبذا تتغذى ببريطانيا وبعدها تتعشى بالاتحاد . وهذا أو شىء من هذا يكاد على الأرجح أن يكون خط الولايات المتحدة فى وقت ما . فمع استحالة الصدام مع الاتحاد بكل ما

يحمل من أخطار نووية ، ومع استحالة التواطؤ معه على مصير العالم واقتسامه مناطق نفوذ ، تجمدت المواجهة بينهما فى إطار تكتيكى مؤقت ، وانعطفت هى لتتغذى أولا بالعالم الثالث ، وبعده يمكن للتوازن العالمى الكتلى أن ينقلب تمهيدا للعشاء الأخير والأكبر .

التحـدى الصينـى

ثمة تصور آخر مختلف فى الأسلوب وإن اشترك فى الهدف . فمنذ بدأ التفكك ثم التصدع بين العملاقين الشيوعيين فى الستينات ، والمعسكر الغربى وعلى رأسه الولايات يحاول بحذق لكن بحذر أن يعمق الهوة بين الحجرين ويجذب إليه الحجر الأكبر بالتدريج ، مستغلا فى ذلك الانتخاب الجنسى المعين للحرب النووية والذى يربط بينهما نهائيا فى المصير الذرى . وهم فى هذا يشيرون إلى أن مركز العداء والصراع السياسى فى أوربا تحرك دائما نحو الشرق تاركا عدو الأمس حليف اليوم : ففرنسا كانت عدوة بريطانيا ثم أصبحت حليفتها ، ثم صارت ألمانيا عدوة الاثنتين فأضحت حليفتهما ، وقد أصبح الاتحاد السوفيتى عدو الجميع اليوم ، فما الذى يمنع بهذا المنطق ـ هكذا يتساءلون ـ من أن يتحول إلى حليفهم ؟ وبهذا تعود نظرية المحور الشمالى الأبيض ضد المحور الجنوبى الملون فتطفو على السطح فى نهاية المطاف . وبهذا أيضا يتحول الصراع المذهبى بين الكتل البيضاء إلى نوع من الصراع العنصرى بين الأجناس البيضاء وغير البيضاء ، أى يحل صراع أضداد جديد محل القديم .

أيا كان الأمر ، فإن الغريب مع ذلك أن الولايات المتحدة رفضت ، كما جاء على لسان كيسنجر فى مذكراته مؤخرا ، اقتراحا قال إن الاتحاد السوفيتى عرضه عليها يقضى بأن يقوم بضربة إجهاض نووية للصين قبل أن تستكمل تطوير برنامجها ويستفحل خطرها النووى بحيث يهدد كلا منه ومن الولايات على حد سواء . وسواء صحت هذه الراوية أم لم تصح ، فإن المغزى هو بلا شك خطورة وفداحة اللعبة برمتها أصلا . على أن هذا لم يمنعها من الاستمرار فى التصعيد بلا وجل أو كلل .

فمنذ وصل الانشقاق الشيوعى إلى نقطة اللاعودة وأصبح العداء الصينى ـ السوفيتى أكبر من العداء الصينى ـ الأمريكى فى تقدير الكثيرين وفى تحديد الصينيين أنفسهم ، تسللت الولايات من ثغرة أو كوة الوفاق لتعميق الأخدود وتحويل التناقض إلى مجابهة نهائية ، وذلك عن طريق التقارب مع الصين بحيث تصبح مسافة الخلف بين الصين

والاتحاد السوفيتي أكبر من مسافة البعد بين الصين والولايات المتحدة . ورغم أن من المستبعد تماما أن تتحول العلاقة بين الأخيرتين إلى محور كمحور اليابان ـ الولايات المتحدة أو إلى امتداد له ، فإن هذا التقارب خطر حقيقي على الاتحاد السوفيتي ويمكن أن يفجر الموقف برمته فى النهاية .

ذلك أن أي تقارب أو تحالف بين أي قوتين فى الشرق والغرب من بين الأقطاب الكبار يضع الاتحاد السوفيتي فورا فى حصار برى كامل أو بحرى شبه كامل . وأى حصار للاتحاد يعده أكبر تهديد وتحد له ، لأنه يفرض عليه أن يحارب فى جبهتين فى وقت واحد . وقد كانت الاستراتيجية التاريخية للاتحاد السوفيتي (وللقيصرية من قبل) هي أن يتحاشى بكل وسيلة أن تفرض عليه الحرب فى أوربا وآسيا فى وقت واحد[1] .

على أن مثل هذه اللعبه الأمريكية تكتنفها العقبات بقدر ما تحف بها الأخطار . ولعل هذا أن يفسر الحذر الشديد من جانب الولايات فى ممارستها ، فضلا عن التناقضات الصارخة فى أصولها وقواعدها . فالولايات من ناحية قطعت شوطا بعيدا ، وإن فى حدود الأمن الاستراتيجى الغربي العام بالطبع ، فى تسليح الصين بالأسلحة الحديثة المتطورة . ولكنها من الناحية الأخرى تخشى أيضا صعود القوة الصينية الماردة و « الخطر الأصفر ـ الأحمر » المخيف على المدى البعيد ، بحيث قد تنقلب اللعبة عليها فى النهاية ويرتد السهم إلى صدرها هى . فمشكلة الولايات وحيرة الغرب هى ، كما وضعها البعض ، أن عليهم أن يختاروا بين « النار أو الجحيم » ، بين « الخطر الأحمر ـ الأبيض » و « الخطر الأحمر ـ الأصفر » . وصميم المشكلة هو أى الشرين أهون .

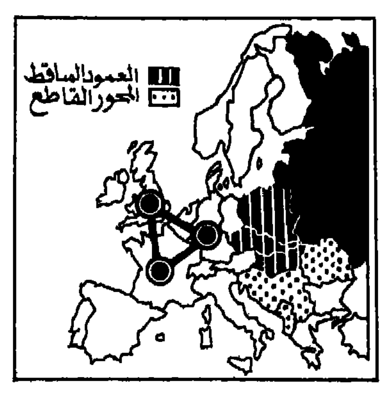
فلئن كانت أمريكا ، فرضا أو جدلا ، تستدرج الصين إلى معسكرها أو صفها ضد السوفيت حتى تتحالف معها فى حرب ماحقة لهم ، مثلما استدرجت أوربا فيما مضى أمريكا والروسيا إلى حرب ضد ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية ، فماذا بعد ؟ لئن انتصر الحلفاء على الروس ، فستكون الحرب العالمية الرابعة مع الصين على الأرجح ـ أليس كذلك ؟ مسألة وقت فقط ، وعدو الأمس صديق اليوم ـ والعكس بالعكس ، ومركز العداء كان يتنقل باستمرار نحو الشرق ـ أليس صحيحا ؟

---

(١) Fitzgerald, The new Europe, p. 195; Cressey, Asia's lands & peoples, p. 245.

حسنا إذن ، هل يمكن ـ كبديل ـ أن يتحلل الاتحاد السوفيتى أو يتآكل وينهار من الداخل فرضا أو جدلا ؟ تصور آخر وأخير ، إن استبعده الكثيرون فى الغرب فإنه مع ذلك يخامر عقول البعض فى الأعماق أو فى الوعى الباطن أو على الأقل من قبيل أحلام التمنى . فالكتلة الشرقية ـ يشير أصحاب هذا الرأى ـ موحدة فقط بالقوة والقهر وحدهما ، وهى تطفح بالتذمر والغليان والرفض المكبوت ، والانتفاضات أو الانتقاضات على « أخوّة » المعسكر تنقط مسيرته منذ بدايته ، بل وتكاد ترسم سلسلة متصلة الحلقات تقريبا على أقصى تخومه الغربية بالذات ، أى فى أبعد مدى عن قبضة الاتحاد السوفيتى ، ابتداء من يوجوسلافيا الأربعينات وألبانيا فى الظل خلفها إلى مجر الستينات وتشيكوسلوفاكيا السبعينات ثم أخيرا بولندا الثمانينات ، دون أن نذكر نزعة رومانيا الاستقلالية الرافضة على أجناب الاتحاد نفسه مباشرة ... الخ .

والواقع أن هذه المجموعة تقع جيوبوليتيكيا فى نطاقين شبه متعامدين واحد رأسى وآخر قاطع ، وكل منهما يضم ثلاث دول متصلة الحدود . فالأول يشمل المجر وتشيكوسلوفاكيا وبولندا ، وفيه قامت الثورة على المعسكر ولكنها سحقت حتى سقطت ، فهذا هو « العمود الساقط » كما قد نسميه . أما الثانى فيشمل ألبانيا ويوجوسلافيا ورومانيا ، وفيه المنشقون أو المرتدون أو الخوارج الذين أفلتوا من العقاب ولكن ظلوا « كقاطع الطريق » داخل المعسكر .



شكل (٣٤) خطوط الانتقاض أو الانتفاض في أوربا الشرقية ، ومثلث القوة في أوربا الغربية .

وعلى الجملة ، فإذا كان معظم هذه التقلصات والتشنجات قد سحق أو أحبط من الخارج أو من الداخل ، فإن هذا لاينفى خطورة مغزاها ، وسقوط حجر واحد منها جدير بأن يؤدى إلى تفكك الجدار كله وانفراط العقد جميعا ـ « نظرية الدومينو » . ولعل هذا هو أساس محاولات الغرب الدائمة والدائبة ، سرا وعلانية ، لاختراق الكتلة بالدعاية الأيديولوجية والنموذج الغربى والعمل التحتى ... الخ . غير أن الاتحاد السوفيتى ، على الجانب الآخر ، لم يدع مجالا للشك فى أن اختراق أو سقوط إمبراطوريته الرفاقية شرق أوربا إنما يعنى الحرب بل ويعد بمثابة إعلان للحرب النووية .

على أن الاتحاد نفسه ـ يمضى مع ذلك أصحاب الدعوة ـ ليس أكثر من شرق أوربا تجانسا أو تماسكا أو تمسكا بنظامه القهرى المفروض . فحتى بغض النظر عن الجدل الأيديولوجى ومبدأ الشيوعية والطبقة والبروليتارية ...الخ ، أى النظام نفسه كنظام ، فما الاتحاد فى رأيهم إلا عصبه أمم خلاسية متنافرة لا رابط بينها من جنس أو قومية أو لغة أو دين أو تاريخ مشترك : إنه متحف سياسى هائل ، مجمع موحد وقائم فقط بالضم والغزو وبقوة القهر والجيش الأحمر ...الخ . إنه بسهولة تامة « إمبراطورية النمسا ـ المجر » الجديدة فى القرن العشرين ، فقط إلى الشرق أكثر وعلى نطاق هائل أكبر وأكبر ، ولكن مصيره فى النهاية مصيرها . فمثل هذا الهيكل المختلط المخلط لا يبقى سياسيا إلا ما بقى قادرا على البقاء بالقوة فقط ، ولكنه ينهار حالما يفقدها .

وأيا كان الأمر والرأى ، فالذى لاشك فيه موضوعيا أن كثيرا من أقليات الاتحاد وأقاليمه على استعداد تام ، إن لم نقل تواقة ، لأن تغادره فورا وتخرج من الاتحاد إذا ماسمح لها بذلك ، كما ينص دستوره على هذا الحق نظريا وإن جبّه تماما من الناحية العملية . يصدق هذا يقينا على دويلات البلطيق السابقة فى الغرب ، ولكن أكثر منها على الدويلات والخانات الإسلامية القديمة فى آسيا الوسطى ، حيث يخشى الاتحاد بالذات من تأثير الدعوات والحركات أو الثورات الإسلامية على التخوم المباشرة ، كالثورة الإيرانية الإسلامية خاصة فى الفترة الأخيرة ، وحيث يجاهد الغرب بكل قواه الدعائية لحشد وتجنيد العالم الإسلامى كما رأينا فى حرب « صليبية إسلامية » ضد الشيوعية والالحاد وتمهيدا للانفصال عن الاتحاد أو الوقوف ضده ...الخ .

ماذا بعد الاتحاد

شىء واحد ، على أية حال ، مؤكد أو يكاد . لو هزم الاتحاد السوفيتى ـ فرضا ـ فى

حرب عالمية تقليدية أو نووية دون أن يدمر من الوجود ، فأغلب الظن أنه سيفقد بعدها كيانه الإمبراطورى وإمبراطوريته الراهنة . فإن لم يمزق تمزيقا مثل إمبراطورية النمسا ـ المجر أو الإمبراطورية العثمانية فى السابق ، فإنه على الأقل سيقسم كألمانيا حاليا . فإن كانت الأولى ، فدونك لاشك عدة دول مستقلة على البلطيق وربما فى أوكرانيا ، فضلا عن دولة إسلامية أو أكثر فى آسيا الوسطى والتركستان ، هذا عدا تنصيف سيبيريا إلى دولتين أو أكثر ربما ، إن لم يكن سلخها منه كلية أو اقتطاع شرائح ضخمة منها للصين وربما اليابان ، بحيث لايتبقى من الاتحاد سوى نواته النووية الروسيا الأوربية الأم .

المهم والمؤكد أن المنتصر لن يسمح له غالبا بأن يعود كما كان بكيانه العملاق الحالى . وليس هذا على هوله وخرافته بالشىء المستبعد تماما فى عالم السياسة والقوة ، فهو احتمال وارد وإن بدرجة أقل كما رأينا على الولايات المتحدة نفسها إن هى هزمت الهزيمة الكاملة . وفى كلتا الحالتين ، فيبدو أن عصر زوال الإمبراطوريات غير الاستعمارية أو شبه الاستعمارية أو الكتلية المندمجة (الاتحاد والولايات) يتواكب ويتناسب مع أبعاد العصر النووى ، مثلما تواكب وتناسب زوال الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة (بريطانيا وفرنسا) مع أبعاد العصر الصناعى .

خطورة مثل هذا التطور أو التصور ، مع ذلك ، أنه يترك الدول الوطنية الماموث بطبيعتها ، أى غير الإمبراطورية ، كالهند ولكن الصين خاصة ، يتركها فادحة الحجم شامخة وحدها على خريطة العالم السياسية مما يدخل عنصر اختلال جسيم وخطر على التوازن العالمى والدولى بأسره ، فضلا عن أنه يقحم على الصورة عنصرا جديدا تماما ليس كميا فحسب ولكن كيفى أو نوعى أيضا ، بل ربما أخطر وأدهى ، وهو عنصر العنصرية . فهذه العمالقة المتبقية والوارثة فرضا هى ، كما يتفق ، أسيوية من العناصر « الصفراء والملونة » بالتصانيف الأوربية السائدة تقليديا ، فضلا عن أنها مهد للتخلف ووعاء للفقر ... الخ .

فإن حدث هذا (جدلا ، نكرر) لكان معناه انتقال السيادة العالمية يوما ما من أوربا (أو امتدادها أمريكا) إلى آسيا ، عودة ـ يعنى ـ إلى نمط العصور القديمة الغابرة ... الخ . غير أن مثل هذه النتيجة بحد ذاتها جديرة بأن تكون داعيا لدى المنتصرين فى حرب العملاقين التى افترضناها نظريا إلى إعادة النظر فى مبدأ تحطيم أو تمزيق أو تصفية الدول شبه الإمبراطورية شبه الاستعمارية السابقة ، والاكتفاء بتقليمها تقليما مؤثرا فعالا .

على أن كل هذه النبوءات المستقبلية المتطوحة جدا وتلك النبوءات المضادة وغيرها ، دعنا لا ننس فى النهاية ، إنما هى فروض أكاديمية شرطية صرف وشروطها فاسخة بالفرض ، ويبقى لذلك أن ننتظر لنرى حتى سنه ٢٠٠٠ أو ٢١٠٠ ...الخ . على أن الذى يمكن أن نجزم به على الفور هو أن مركز ثقل الصراع العالمى ، تمييزا له عن مركز ثقل السيادة العالمية ، بات ينتقل وئيدا بل بجدة نحو الشرق إلى آسيا ، وهو ما ينقلنا بالفعل إلى موضوعنا التالى .

صـراع القـارات :

بيـن أوربـا وآسـيا

ما زلنا نميل إلى أن نفكر فى آسيا ، كعالم بشرى وكمحيط سياسى ، فى صيغة متخلفة نوعا ، صيغة من بقايا الماضى الاستعمارى أو ما بعد الاستعمارى القريب . فصورة آسيا فى أذهاننا لا تخرج فى مجموعها عن أن تكون كبرى قارات العالم الثالث (مثلما هى كبرى قارات الدنيا ابتداء) ، فهى إذن قارة التخلف ، وسيادة الزراعة ، وضغوط السكان الساحقة ، ومستويات الدخول والمعيشة الحدية أو دون الحدية ... الخ .

المتغـيرات الجـديـدة

ولا شك أن هناك قدرا كبيرا من الصحة فى هذا التصور ، لكن الأصح منه أن آسيا تطفر اليوم بمعدلات فريدة ، اقتصاديا وصناعيا وتكنولوجيا وعسكريا . وإذا كانت قطاعات محدودة منها ـ كاليابان ـ هى وحدها التى تقارن بالعالم الغربى ، إن لم تفقه ، فإنها فى مجموعها تعد على أقل تقدير أكثر قارات العالم الثالث تطورا وتقدما ، كما لا شك فى أنها ثالث قارات العالم كله بعد أمريكا الشمالية وأوربا من حيث الوزن والأهمية ومقاييس القدرة العصرية .

وتنعكس طفرة آسيا المادية والحضارية هذه فى المجالين السياسى والاستراتيجى بصورة درامية . فمنذ الحرب العالمية الثانية ، وآسيا طرف أساسى فى لعبة السياسة الدولية ، لا يمكن تجاهله ، ويشغل حيزا ضخما ومتزايدا من اهتمامات وهموم القوى العظمى . وعلى سبيل المثال ، فلقد كانت الولايات المتحدة منذ الحرب موزعة اهتماماتها ومصالحها بين أوربا وآسيا وبين الأطلسى والهادى . وكثيرا ما كانت أوربا الغربية تصاب بالقلق حين تستشعر أن حليفتها الكبرى تمنح آسيا قدرا أكبر مما ينبغى من الاهتمام . بل

بدا فى وقت ما ــ أيام تفاقم الموقف فى فيتنام ــ أن مركز ثقل اهتمام الولايات المتحدة يكاد يتذبذب من أوربا إلى آسيا . بل لقد وصل الأمر اليوم إلى حد أن كثافة وحجم ومعدلات التجارة الأمريكية عبر الهادى أصبحت تزيد على مثيلاتها عبر الأطلسى . مما يعكس مدى خطورة المصالح الأمريكية فى آسيا .

وفى كل الأحوال فإن دول أوربا الغربية لم ترض قط عن انغماس الولايات المتحدة وتورطها أكثر من اللازم فى الحروب والصراعات والمشاكل الأسيوية ابتداء من الحرب الكورية حتى الفيتنامية ، ولا قبلت أبدا أن تبدد طاقتها وتنفق جهدها فى آسيا . على الأقل حتى لا تترك الجبهة الأوربية الأساسية مكشوفة مفتوحة أمام الخطر السوفيتى . والواقع ، تماما كما كان الروس والسوفيت يجدون دائما تعارضا كامنا بين اهتماماتهم الأوربية والأسيوية المترامية الأنحاء ، وجدت الولايات منذ خروجها إلى قيادة العالم وربما قبله شيئا من التعارض بين اهتماماتها الأوربية والأسيوية وبين الأطلسى والهادى .

غير أن الأمريكى العادى ، الذى لا تزال تؤرق مخيلته أشباح دعايات الماضى عن « الخطر الأصفر » الزاحف ، أصبح الآن يهتم بأحداث أسيا ربما أكثر منه بأخبار القارة الأم أوربا . ويكفى أن نرى رئيس الولايات المتحدة « يحج » بالأمس القريب ساعيا إلى آسيا وقلبها الصين يطرق بابها ويعترف بها بعد تجاهل وإنكار واستنكار واستنفار طويل مرير . وليس معنى هذا كله أن أهمية أوربا أو أخطارها ومشاكلها قد تضاءلت . ولكن إلى جانبها أضيفت أهمية وأخطار قارة طافرة هى آسيا .

عودة آسيا

والآن ، ومنذ انطلاقة اليابان الصناعية والاقتصادية العارمة « وقفزة الصين الكبرى إلى الأمام » ثم صراعات القوة المتعددة الأطراف داخل القارة وآخرها مجابهة الهند ــ الباكستان ثم العراق ــ إيران ، فإن آسيا تلفت أنظار العالم بعنف ، ليس فقط إلى وجودها المؤثر وجرمها العظيم ولكن أيضا إلى دورها المستقبل ، لا كمجرد مجموعة قوى محلية أو اقليمية فعالة ، ولكن كقوى دولية عظمى دخلت بالفعل دائرة القوة العالمية التى كانت حكرا على أوربا وأمريكا ، تسهم بحق فى تشكيل مصير العالم ، وتعد طرفا موجبا فى معادلة القوة . وسواء عد القرن الحادى والعشرون قرن آسيا أو عدت آسيا قارة القرن الحادى والعشرين كما يتنبأ البعض ، فإنها من قبل تمثل ركنا جوهريا من أركانه ومركزا من مراكز الثقل الجيوبوليتيكى فيه .

والواقع أن آسيا ـ نصف البشرية تقليديا ـ مركز طبيعى من مراكز القوة العالمية (بلغ عدد سكان آسيا سنة ١٩٨٠ نحو ٢٦٠٥ ملايين من مجموع سكان العالم البالغ ٤٤٧١ مليونا ، أى بنسبة ٥٨,٣٪) . فعدا الكثافة السكانية الثرى ، هناك الوراء الحضارى العريق والتاريخ الطويل المفعم . ولنذكر أنه لفترة طويلة جدا فى العصور القديمة والوسطى ، كانت آسيا مركز القوة الأعظم فى الدنيا ، تسيطر على العالم القديم تقريبا ، وتتحكم بموجات رعاتها الكاسحة فى مصير أوربا وتكاد تتفوق عليها دائما . ويكفى أن ماكيندر أخضع كل تاريخ أوربا السياسى وغير السياسى ، القديم والوسيط ، لتاريخ آسيا ، وليس العكس[١] . ثم لا ننسى بعد ذلك دور اليابان الحديثة فى القرن العشرين وأثناء الحرب العالمية الثانية كقوة عظمى بكل المقاييس . وعلى هذا فإن « ظهور » آسيا البازغ أو البارز اليوم إنما هو عود على بدء فى الحقيقة ، والأحرى أن نقول « عودة » آسيا . ولكل هذا المغزى فإن آسيا المستقبل تستحق نظرة جادة وجديدة .

آسـيا الجديـدة :
أوربـا القـرن الجديـد ؟
التنـاظر الجيوبوليتيكـى

ومهما حاولنا ، فلن نستطيع المبالغة فى تقدير مغزى بروز آسيا على مسرح القوة العالمية . وفى هذا الصدد يكفى أن نسجل الحقائق الآتية . أولا ، آسيا هى التى افتتحت ثورة التحرير وتصفية الاستعمار وتبلور القوميات الناهضة فى العالم الثالث الذى أعطته بذلك المثل والدفعة .

ثانيا ، فجرت أعظم الثورات الشعبية الأيديولوجية (الصين) ، والتطورات السياسية والاقتصادية (الهند) منذ الحرب العالمية الثانية ، ثم أخيرا أخطر الثورات الإسلامية الحديثة رغم كل شىء (إيران) .

ثالثا ، شهدت أهم خطط التنمية والتطور الحضارى والأخذ المتصاعد بالتكنولوجيا العصرية بين الدول النامية ، ودعك من اليابان التى تنافس على صدارة العالم صناعيا واقتصاديا .

---

(١) On the scope & methods etc., p. 2,22.

رابعا ، كانت مسرح أكبر عدد من الحروب منذ الحرب العالمية الثانية ، سواء من حروب التحرير الوطنية ضد الغزو الإمبريالى أو صراعات القوميات الأسيوية محليا (الحرب الكورية ، حرب فيتنام والهند الصينية ولاوس وكمبوتشيا ، حرب الحدود بين الصين والهند ثم بين الصين والاتحاد السوفيتى ، حروب الهند ـ الباكستان الثلاثة ، ثم أخيرا حرب العراق ـ إيران) .

والواقع أن هذه النقطة الأخيرة تنقلنا إلى ملاحظة بالغة الأهمية . فمنذ انتهت الحرب العالمية الثانية لم تكف آسيا عن القتال وكانت دائما فى حرب مستمرة هنا أو هناك ، وذلك فى الوقت الذى وضعت أوربا السلاح رغم كل توترات الحرب الباردة وسباق التسلح وأخطار الصدام ومحاذيره . هذا فضلا عن الثورات الشعبية والانقلابات العسكرية التى تمور بها آسيا وتفور ، دون أوربا بالطبع . شديدة الاستقرار بالغة النضج والهدوء . لقد أصبحت آسيا ، وليس أوربا . هى مسرح الحرب الجديد وأرض المعركة وحلبة الصراع فى العالم . إنها بكل وضوح ترث دور أوربا التقليدى فى هذا المجال ، رغم الفارق الأساسى أو النسبى بين عدوانية حروب أوربا القديمة غالبا وتحريرية حروب آسيا المعاصرة عادة .

والملاحظ بالفعل أن أوربا ، بعد أن فقدت إمبراطوريتها الاستعمارية وراء البحار ، وبعد عودتها إلى القارة الأم ، تدخل الآن مرحلة من الاستقرار السياسى النادر ، وتتجه تحت ضغوط العالم المتغير وحماية للنفس إلى تصفية إرث الماضى ونتائج الحرب العالمية الثانية ثم إلى التكامل والوحدة الأوربية ، أى إلى مرحلة مابعد القومية أو ما فوق القومية supra-national (الفوقية كما صك البعض)[1] .

أما آسيا فتدخل الآن بعد يقظتها مرحلة الكيانات القومية الجديدة ، وتجتاحها كل آلام النمو والثورات والانقلابات الداخلية وتقلصات الصراعات الوطنية والضغوط الخارجية التى عرفتها أوربا خلال القرن التاسع عشر وما حواليه . وهنا أيضا تتكرر الدورة بدرجة أو بأخرى ، وتبدو آسيا وكأنها أوربا القرن الجديد ، وذلك بالطبع فيما عدا فارق العصر وعنصر النسبية وإيقاع الأوضاع العالمية .

أكثر من هذا ، يرى بعض المراقبين أن مركز ثقل الصراع العالمى يتحول بالتدريج إلى

---

(١) نور الدين حاطوم ، تاريخ عصرنا ، ١٩٧١ ، ص ٥ .

آسيا . والعلامات والمؤشرات كثيرة فى هذا الاتجاه فعلاً . فالمحيط الأطلسى ، كبحيرة حلف الاطلنطى الخاصة ، قد أصبح نسبيا « بحر السكون » ، بينما انتقل الخطر إلى المحيط الهادى ، « بحر العواصف » منذ الحروب الأمريكية العديدة فى الشرق الأقصى . ولعل من المنطق بعد هذا ، وقد عد البعض آسيا قارة القرن الحادى والعشرين ، أن يعدوا المحيط الهادى ، محيط آسيا أساسا ، محيط القرن الحادى والعشرين .

والبحر الأبيض المتوسط ، الذى كان خندقا عسكريا لأوربا ، فقد هو الآخر بعضا من أهميته الاستراتيجية القديمة ، وكثيرا من صراعاته البحرية التقليدية ، ولو أن المواجهة بين الأسطولين الأمريكى والسوفيتى أعادت إليه مؤخرا الكثير من خطورته . وبالمقابل ، فلقد بدأ المحيط الهندى يكتسب أهمية استراتيجية متزايدة ، وبدأت القوى البحرية العظمى عملية من « التكالب » على القواعد العسكرية فيه ، بينما أخذت دول جنوب آسيا حوله تشعر بخطر تحوله إلى بحيرة صراع عالمى وتدعو إلى تحييده . وتكاد الهند بالذات تشعر أنها حبيسة الهندى ، مثلما كانت إيطاليا تشكو من أنها حبيسة البحر المتوسط .

التناظر الجيوستراتيجى

إلى هذا المدى إذن يذهب التناظر التاريخى بين آسيا وأوربا . غير أن هذا بدوره يؤدى بنا إلى قدر مماثل على الأقل من التناظر الجغرافى العريض بين القارتين . والحقيقة أن التناظر الأول إنما هو انعكاس للثانى إلى حد بعيد ، لأن الواقع أن القارتين أشباه نظائر جغرافية فريدة geographical parallels ، إذ تكاد الواحدة تكون صورة مرآوية مقلوبة أو معكوسة ولكنها مصغرة أو مكبرة من الأخرى enantiomorph ، mirror-image .

فمن الواضح مثلا أن القارتين تنتهيان فى الجنوب كل بثلاثة أشباه جزر جبلية متقابلة ، بينما يتناظر البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندى فى الشكل العام والهيئة الطبيعية إلى حد بعيد . وعلى الجانبين تأتى اليابان وهى بحق « بريطانيا الشرق الأقصى » فى أكثر من معنى ، فى حين تتناظر الصين وفرنسا بسهولة . وفى الوسط على جبهة الالتحام بين القارتين تتناظر هضبتا إيران والأناضول المتقابلتان إلى مدى بعيد للغاية ، مثلما يفعل حوض سهول طوران أو التركستان فى آسيا الوسطى مع حوض سهل المجر فى وسط أوربا . ومن الممكن للباحث أن يمضى هكذا بعيدا فى استقصاء أوجه التناظر

والتشابه بين وحدات القارتين فى جغرافيتها الطبيعية والبشرية ، ولكن حسبنا هنا بالطبع الجانب السياسى وحده[1] .

وها هنا تبدو لنا شبه جزيرة الهند الصينية فى أقصى جنوب شرق آسيا كالنظير المباشر لشبه جزيرة البلقان فى جنوب شرق أوربا ، بل إنها لتسمى أحيانا « بلقان الشرق الأقصى » . فهنا وهناك بيئة جبلية غابية وعرة ، تختطها الأنهار محتوية أحواضا وأودية متقطعة تتعدد فيها الأقليات والجيوب والأسافين الجنسية والقومية والدينية ، وتتعقد الحدود السياسية ، وبالتالى تثور مشكلات الأقليات والحدود المزمنة ، فتتفاقم الحروب وتتعاقب بلا حصر. وكما كانت البلقان « برميل ديناميت أوربا barrel of dynamite of Europe » فى الحرب العالمية الأولى ، كانت الهند الصينية بؤرة الحرب فى آسيا منذ الحرب الثانية بلا انقطاع[2] .

أما شبه جزيرة الهند فتناظر توا شبه الجزيرة الإيطالية فى الموقع والشكل ، ولكل منهما كدول وزنه وحجمه الكبير ودوره التاريخى العريق فى قارته ، كما أن له مشاكله السياسية الحادة كحبيس بحره أو محيطه كما أشرنا منذ قليل . وعلى الجملة ، فكما تعد إيطاليا بصفة تقليدية الدولة الرابعة الكبرى فى أوربا حاليا بعد بريطانيا وفرنسا وألمانيا ، فإن الهند هى رابعة الدول الكبرى فى آسيا بعد اليابان والصين والاتحاد السوفيتى . وهكذا وهكذا إلى آخره .

ولاتقل أوجه التناظر بين آسيا وأوربا إذا نحن انتقلنا شمالا إلى مراكز القوة والثقل الحقيقية . فإذا كانت أقطاب القوة فى غرب أوربا تتركز كما رأينا فى « مثلث القوة » الشهير بريطانيا ـ فرنسا ـ ألمانيا ، فإنها فى شرق آسيا تتركز فى مثلث اليابان ـ الصين ـ الاتحاد السوفيتى (القطاع الأسيوى) . بل وكما كانت هولندا وبلجيكا داخل المثلث الأول تمثل أرض المعركة بين رؤوسه أو منطقة الخمود والتحييد بين أضلاعه ، فكذلك كانت كوريا ومنشوريا حتى وقت قريب داخل المثلث الثانى . بل وكما سميت المنطقة الأولى « حلبة صراع أوربا » ، سميت الثانية « مهد الصراع فى آسيا » .

كذلك فلو قدر لآسيا أو عليها أن تشهد صراعا على القوة فى المستقبل ، فلن يخرج هذا الصراع عن أطراف ذلك المثلث ، التى تدخل ثلاثتها بالفعل فى هيكل الاستقطاب

(١) جمال حمدان ، بين أوربا وآسيا ، دراسة فى النظائر الجغرافية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

(٢) C.A. Fisher, "South-east Asia: Balkans of the Orient?", Geography, 1964.

الخماسى الذى يتصوره البعض للنظام العالمى المستقبلى كما سنرى . والمهم هنا على أية حال أنه بينما بدأت أقطاب مثلث القوة الأوربى تتقارب وتتجه إلى الوحدة بعد صراعات دامية استمرت قرونا ، فإن أقطاب المثلث الأسيوى تتباعد كل يوم أيديولوجيا وقوميا وتتجه على مايبدو إلى صراع لاندرى طبيعتة ولامداه بعد .

استراتيجية الصراع ومحاور الاستقطاب

ما ندرى ، على أية حال ، هو أن نمط الصراع الراهن يؤكد مرة أخرى أن آسيا المعاصرة هى إلى أبعد حد معقول أوربا القرن العشرين ، وأن آسيا النصف الثانى من القرن العشرين تكاد تكرر أو ترث دور أوربا ودورتها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ليس ذلك فقط كأكبر مسرح للحروب المحلية والمحدودة فى العالم سواء أكانت حروبا وطنية أو معادية للإمبريالية ، ولكن أيضا كأكبر مجال للضغوط الخارجية ومواجهات القوى الأجنبية العظمى .

فعن الأولى ، تكاثرت محاور الاستقطاب والصراع الداخلية فى القارة حتى اكتسبت أنماطا محددة واضحة . وعن الثانية ، فكما تعرضت أوربا القارة فى القرن التاسع عشر لضغوط بريطانيا القوة العالمية السائدة ، فكذلك تتعرض آسيا اليوم لضغوط الولايات المتحدة القوة العالمية السائدة الجديدة . وبطبيعة الحال فلامفر من أن تتركز هذه المواجهة الرئيسية مع القوى الأسيوية الكبرى خاصة مثلث القوة التقليدى ، كما لا مفر كذلك من أن تتأثر الصراعات المحلية الداخلية وتتشكل بهذه الضغوط الخارجية الغالبة حتى لتكاد أحيانا ألا تعدو امتدادا أو صدى لها إلى حد أو آخر .

استراتيجية الصراع

فإذا مابدأنا بالضغوط والصراعات الكبرى ، فلعل اليابان هى أضعف رؤوس مثلث القوة الأسيوى حاليا ، وذلك باعتبارها قزما سياسيا وإن كانت عملاقا اقتصاديا . فهى بلا أنياب نووية حتى الآن ، تقع تحت المظلة النووية الأمريكية ، وتمثل عمليا قاعدة ارتكاز الولايات المتحدة على حافة القارة . والواقع أنها فى محور الاستقطاب الأمريكى ـ اليابانى تكاد الآن تكون مجرد رأس جسر لإسفين يمكن أن تدقه الولايات المتحدة بين ضلوع العالم الشيوعى . بل قد لا نبالغ إذا قلنا إن اليابان حاليا منطقة خمود أو شبه فراغ سياسى تملؤه أمريكا بين رؤوس مثلث القوة العالمى (الولايات ـ الاتحاد ـ الصين) أكثر منها رأسا من رؤوس مثلث القوة الأسيوى التقليدى (الاتحاد ـ الصين ـ اليابان) .

هكذا إذن يختزل صراع القوى العظمى الفعال على القارة إلى ثلاثية الولايات ـ الاتحاد ـ الصين . وبطبيعة الحال فلقد تعرضت استراتيجية هذا الصراع لانقلاب جذرى كامل منذ الانشقاق السوفيتى ـ الصينى ، فتغيرت المواقع وتبودلت الأدوار تماما بصورة درامية حقا . فابتداء ، بينما كانت أمريكا هى التى تحاول حصر الصين واحتواءها بحلف جنوب شرق آسيا (السيتو) ، أصبح الاتحاد بمشروع برجنيف للأمن الأسيوى هو الذى يحاول . وبعد أن كانت الولايات المتحدة هى العدو الأول للصين ، أصبح الاتحاد السوفيتى هو هذا العدو . ومن ثم فقبل الانشقاق كانت معادلة الصراع كالآتى : الاتحاد + الصين ضد أمريكا لإخراجها من القارة . أما بعد الانشقاق فقد أصبحت المعادلة كالآتى : أمريكا + الصين ضد الاتحاد لمنع توسعه فى القارة . فمن الحالة الأولى الحرب الكورية ثم حرب فيتنام ، ومن الحالة الثانية حرب كمبوتشيا ثم حرب أفغانستان .

وإذا كانت الاستراتيجية العظمى للولايات أصلا هى تطويق الاتحاد السوفيتى سواء فى أوربا أو آسيا ، فإنها قد خسرت باستمرار حروبها على اليابس الأسيوى حتى خرجت منه تقريبا واقتصر وجودها على هوامشه الجزرية أساسا كما فى اليابان وتايوان والفلبين . ولم يكن مبدأ نيكسون من ترك آسيا للأسيويين سوى اعتراف بالقانون الاستراتيجى القديم عن عجز قوى البحر الخارجية عن تحقيق نصر عسكرى أرضى أو الاحتفاظ بموطئ قدم على اليابس الأسيوى . وعلى العكس من هذا تقريبا ، تحقق للاتحاد السوفيتى توسع مطرد متصل على اليابس الأسيوى . ولم يكن هذا بدوره إلا مصداقا لنظرية ماكيندر عن خطر توسع الهارتلاند كقوة بر فى آسيا أرضيا نحو الخارج والهوامش البحرية . لقد خرجت أمريكا تقريبا من يابس القارة ، وخرج الاتحاد تقريبا من الحصار القارى .

محـاور الاستقطـاب

تلك هى الخلفية العريضة للخريطة الاستراتيجية لصراع الكبار على المسرح الأسيوى . ولايتبقى لنا الآن سوى أن « نركب » عليها محاور الصراع المحلى بين القوى الأصغر ، تلك التى ظهرت عليها بوادر وأعراض استقطاب محورى حاد وعنيف فى أكثر من حالة . وهى كما يلاحظ محاور تتقاطع غالبا ، وتقطع القارة من أقصاها إلى أقصاها أحيانا ، ولكن من أطرافها الاتحاد والصين دائما .

ولاشك أن أبرز وأخطر هذه المحاور الثانوية محور الاتحاد ـ الهند ضد محور الصين ـ

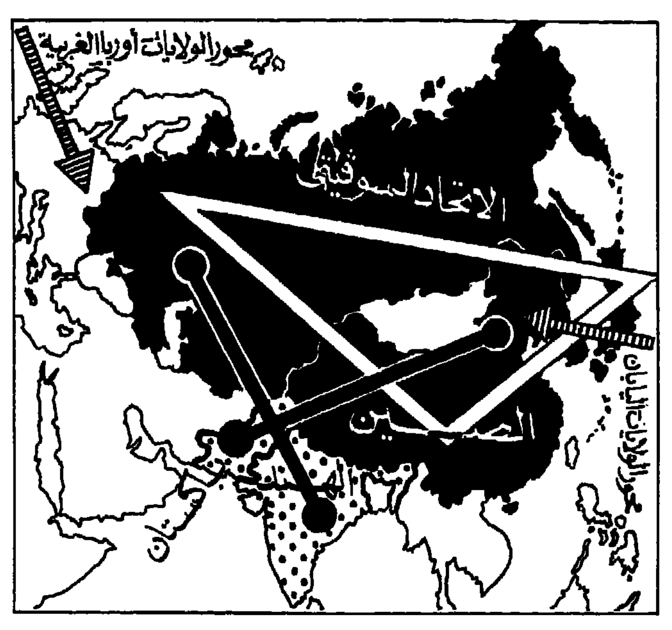
الباكستان . فلقد كشفت آخر حروب الهند ـ الباكستان فى مطلع السبعينات ، وبصورة درامية ناجزة ، عن انبثاق محورين متصارعين ، متقاطعين متعامدين كأنهما سيفان متبارزان عبر القارة : محور عمودى قطباه الاتحاد فى الشمال والهند فى الجنوب ، ومحور عرضى قطباه الصين فى الشرق والباكستان فى الغرب . وإذا كان هذا الاستقطاب المحورى الخطير ، الذى يكاد يتعامد بدوره على كل منطق الانتماءات والولاءات الأيديولوجية ، قد ختم إلى حد بعيد على مصير الباكستان ، فقد حسم أكثر من جولة فاصلة من الصراع بين العملاقين الاتحاد والولايات وكذلك بين الاتحاد والصين.

أخيراكذلك فلقد كشفت حرب فيتنام بعد انتهائها عن محورين ثانويين متقاطعين برزا نسبيا فى السنوات الأخيرة : محور الاتحاد ـ فيتنام ضد محور الصين ـ كمبوتشيا ، حيث شبه التدخل الفيتنامى فى كمبوتشيا بتدخل هتلر فى النمسا قبيل الحرب الثانية (Anschluss) [1] . ومازال الصراع سجالا حولها ، هذين المحورين ، على شكل حروب أهلية ومحلية محدودة ولكنها ممطوطة ومرهقة .

الطريف ، أخيرا ، أن هذه الصراعات والمحاور المحلية الثانوية لها أثرها الذى ينعكس على أطراف الصراعات الكبرى فى القارة ، خاصة الولايات المتحدة . فمعظم حلفاء الولايات اليوم فى آسيا ابتداء من جنوب كوريا إلى جنوب شرق آسيا يرون أن الولايات قد مالت إلى الصين أكثر مما ينبغى وضد الاتحاد السوفيتى أكثر مما ينبغى ، وهم لذلك يطالبونها بقدر من الانضباط والتوازن بين القطبين الأسيويين الشيوعيين خشية على أنفسهم من استفزاز أخطار أى منهما . فمثلا تريد دول جنوب شرق آسيا خروج فيتنام من كمبوتشيا ، ولكنها لاتريد أن يصل عداء الولايات لفيتنام إلى حد إرغامها على الاعتماد الكامل والارتباط المطلق بالاتحاد السوفيتى . وهذا بقدر ما يعبر عن تعقيد اللعبة ، يعبر عن مشكلة الولايات المتحدة فى دقة وصعوبة تحقيق التوازن بين الأعداء من ناحية ومع الأصدقاء من الناحية الأخرى ، وذلك مع الحلفاء الأسيويين هنا كما هى الحال مع الحلفاء الأوربيين فى غرب أوربا .

---

(١) "East-West Struggle", Economist, loc. cit., p. 43.



شكل (٣٥) صراع القوى ومحاور الاستقطاب في آسيا .

أنماط الصراعات الاقليمية المتغيرة

نستطيع الآن أن ننظر إلى التطورات أو الانقلابات التى طرأت على مواقع وأدوار القوى واستراتيجيات الصراع العالمى نظرة شاملة تنسج فى رقعة واحدة خيوط الجغرافيا والتاريخ بالسياسة والاستراتيجية ، وذلك أيضا داخل الاطار الاقليمى والعالمى فى آن واحد . والواقع أن مثل هذه النظرة يمكن أن تطرح نظرية جديدة كلية شاملة تقدم مفتاحا عاما للماضى والحاضر والمستقبل وتسمح بأن « نركّب » فيها كل الأحداث الجارية والتطورات السارية ابتداء من الثوابت والمتغيرات الكبرى إلى أصغر التفاصيل والجزئيات الدقيقة [١] .

ذبذبات مركز الثقل

وابتداء ، وكما أتيح لنا أن نرى مرارا ، فلقد كانت هناك دائما ذبذبات تاريخية

(١) حمدان ، شخصية مصر ،ج٢ ، ص٨١١– ٨٢٠ .

ملحوظة فى مركز ثقل السيادة العالمية أو الصراع العالمى ، أحيانا من الشرق إلى الغرب وأحيانا أخرى من الغرب إلى الشرق ، إما على مقياس العالم القديم وحده أو بإضافة العالم الجديد إليه . وفى القديم ، فى العصور القديمة وربما إلى العصور الوسطى ، كانت اليد العليا لآسيا على أوربا (راجع أطروحة ماكيندر) .

لكن مركز الثقل انتقل بكامل وزنه إلى أوربا فى العصور الحديثة ، وفى داخلها تنقل كذلك بالتدريج من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ومن البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى . وفى قفزة كبرى فى الاتجاه الأساسى نفسه تذبذب البندول ذبذبته الأخيرة من أوربا إلى أمريكا الولايات المتحدة ، وربما معها وأخيرا أو مؤخرا من الأطلسى إلى الهادى بل وحتى المحيط القطبى الشمالى فى عصرنا النووى فى رأى البعض .

والمعنى الجغرافى ـ التاريخى واضح تماما : لقد انتقل مركز الثقل فى القوة العالمية عبر التاريخ عموما من الشرق إلى الغرب باطراد وإصرار ، قل ـ لمجرد المقابلة وسواء بالصدفة أو بالاتفاق ـ مع حركة الهجرات البشرية حول الأرض أو مع حركة الشمس الظاهرية أو عكس دوران الأرض حول نفسها !

الآن ، على هذه الفرشة القاعدية الأساسية وداخل هذا الاطار المحكم الحاكم ، ولا نقول على عكسها وخارجه ، ظهر فى الفترة الأخيرة اتجاه عكسى راجع وانقلبت ذبذبة البندول من الغرب إلى الشرق ، على الأقل فى مركز ثقل الصراع العالمى تمييزا له عن مركز ثقل القوة والسيادة العالمية نفسها . ولهذا يجوز أن نعد هذه الذبذبة ثانوية بالقياس إلى الذبذبة الأولية المحورية ، لاتتعارض معها بالضرورة وإن عدلتها بقدر ما كملتها . فمن أوربا والأطلسى انتقلت الصراعات العالمية والاقليمية المعاصرة إلى آسيا والهادى على الترتيب ، ومن المتوسط وقناة السويس انتقل الخطر والخطورة إلى الهندى والخليج العربى . ومع هذا الاتجاه الطارئ أو الراجع تغيرت أنماط الصراعات والاستراتيجيات الاقليمية والمحلية قليلا أو كثيرا .

نحـو الغـرب

تلك هى النظرة أو النظرية العامة وصورة الخريطة فى خطوطها الرئيسية العريضة ، تتأكد معالمها وتبرز تضاريسها أكثر حين نزيدها تفصيلا وتحليلا . فإذا بدأنا من البداية ، فلقد كانت مصر والعراق كما نعلم مراكز القوة السياسية العالمية السائدة فى العصور القديمة ، وبينهما تذبذب مركز الثقل عدة مرات جيئة وذهاباً . وفى العصور

الوسطى كان العراق العباسى هو بلا ريب مركز الثقل الأساسى نتيجة للتطورات الجديدة والعديدة المحلية والاقليمية والقارية . ولكن لم يلبث المركز بعد الطوفان المغولى أن انتقل من العراق إلى مصر بصفة حاسمة ونهائية .

غير أن كشف طريق الرأس لم يلبث بدوره أن نقل المركز من مصر إلى البرتغال ، وانتهى بذلك عصر البحر المتوسط وبدأ عصر المحيط الأطلسى ، حيث ظل المركز يتنقل على طول ساحل غرب أوربا من الجنوب إلى الشمال متحركا على التعاقب من البرتغال إلى هولندا إلى فرنسا ثم أخيرا إلى بريطانيا حيث استقر بصفة نهائية طوال الفترة الحديثة . وسيلاحظ أن البندول طوال هذه المراحل المديدة كان يتذبذب بانتظام واستمرار من الشرق إلى الغرب .

ثم جاءت قناة السويس فى قمة المرحلة الأخيرة فأعادت الأهمية إلى البحر المتوسط ومصر وطريق السويس بصفة مؤكدة ، إلا أن المحيط الأطلسى ظل هو البحر المتوسط الجديد على المستوى العالمى كما ظل غرب أوربا مركز ثقل القوة فى العالم بلا منازع . ولقد كان هذا أيضا هو عصر الاستعمار العالمى والإمبراطوريات العظمى بالضرورة والامتياز وعلى رأسها الإمبراطورية الفرنسية ولكن البريطانية أساسا . وكان محور القوة والسيطرة العالمية هو الأراضى الهامشية الغنية فى العالم القديم وخاصة القاطع التقليدى الكثيف غرب أوربا ـ المتوسط ـ الموسميات .

وقد وصل هذا النمط الاستراتيجى إلى أوجه فى القرن ١٩ وعلى يد بريطانيا ـ « عصر بريطانيا » . وكان عصر بريطانيا هذا كمركب سياسى ـ تكنولوجى وبصيغة اختزالية جدا هو عصر الفحم ـ السكة الحديدية ـ الباخرة ـ قناة السويس ـ مصر ـ الاستعمار القديم وصراع الإمبراطوريات . وفى هذا المركب أو النمط لم يكن الخليج العربى ـ شأنه فى ذلك شأن عدن وباب المندب ـ سوى نقطة مرحلة وموطئ قدم على طريق السويس الشريانى بخط حياة الإمبراطورية وعنق الهند ... الخ . ويمكن اعتبار فترة الحرب العالمية الثانية إلى منتصف القرن قمة هذا النمط الاستراتيجى التقليدى ـ ونهايته أيضا .

ذلك أن فى هذه الفترة نفسها بدأ يبزغ نمط استراتيجى عكسى جديد يستند إلى مركب سياسى ـ تكنولوجى جديد أكثر تعقيدا من نظيره القديم ، وأخذ كلاهما يزيغ سابقه ويحل محله بالتدريج إلى حد أو آخر بل وأحيانا بصورة انقلابية فجائية وحادة .

فعلى جانب التكنولوجيا انتقل العالم بصورة حاسمة ونهائية من عصر الفحم إلى عصر البترول ، وبالتالى من السكة الحديدية والباخرة إلى السيارة والناقلات . وعلى الجانب السياسى انتقلت السيادة العالمية من بريطانيا جزيرة القارة إلى أمريكا القارة الجزيرة : لقد حل « عصر أمريكا » محل « عصر بريطانيا » . وقد اكتمل الانتقال بصورةمطلقة بعد ثورة التحرير الوطنية فى العالم الثالث وتصفية الإمبراطوريات ، وبذلك أيضا حل الاستعمار الجديد محل الاستعمار القديم . غير أن العصر النووى والاستقطاب الثنائى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى لم يلبث أن بدأ ، فحل صراع الكتلتين محل صراع الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة .

وأثناء ذلك كله ، وقبل وبعد ذلك كله ، فلقد ظهر البترول فى الشرق الأوسط وبخاصة فى حوض الخليج العربى الذى سرعان ما أصبح المستودع الأول لمخزونه فى العالم . وبذلك أصبح الخليج على الفور أهم منطقة استراتيجية لأهم مادة استراتيجية فى العالم المعاصر ، وبالتالى محور وبؤرة كل السياسات والاستراتيجيات والصراعات العالمية للغرب والشرق جميعا بلا تحفظ ولا استثناء .

نحـو الشـرق

من هنا فبعد أن كانت المعادلة أو المتتالية التكنولوجية ـ الاستراتيجية ـ الجيوبوليتيكية فى عصر بريطانيا هى الفحم ـ السكة الحديدية ـ الباخرة ـ قناة السويس ـ مصر ـ الاستعمار القديم وصراع الإمبراطوريات ، أصبحت تقرأ فى عصر أمريكا : البترول ـ السيارة ـ الناقلات ـ الخليج العربى ـ الاستعمار الجديد وصراع الكتلتين . لقد عاد البندول على عكس الماضى فتذبذب من الغرب إلى الشرق ، من قناة السويس إلى الخليج العربى . وهكذا بعد أن كان الخليج محطة على طريق السويس إلى الهند ، انزلقت ولا نقول انزوت القناة إلى ممر على طريق البترول إلى الخليج .

لقد تبادلت السويس والخليج المواقع والأدوار والأهميات النسبية . وبعد أن كانت السويس كبيرة والخليج صغيرا من الوجهة الاستراتيجية ، انقلبت الموازين واختلت خارج كل حدود ، سواء ذلك على النسبة أو الاطلاق ، فأصبح الخليج كبيرا جدا والسويس صغيرة نسبيا . وبهذا الشكل عاد من جديد نمط العصر العباسى فى العلاقة بين البرزخ والخليج ، حيث انتقل مركز الثقل الاستراتيجى فى العالم اليوم من القناة إلى الخليج ، وورث الخليج ومضيقه دور وموقع مصر وقناتها إلى حد بعيد جغرافيا واستراتيجيا .

لقد أفقد البترول مصر زعامتها الاستراتيجية فى المنطقة كموقع كما كاد يفقدها زعامتها السياسية بها كدولة بعض الشيء ، سلبها موقعها الجغرافى الجيوستراتيجي جزئيا بعد أن أوشك أن يهز أيضا موقعها القيادى الجيو بوليتيكى إلى حد أقل . بل إنه لا انفصال بين اهتزاز هاتين الزعامتين وهاتين القيادتين ، ولا بينهما جميعا وبين البترول رأسا ومباشرة . انقلاب جغرافى تاريخى ، سياسى اقتصادى ، واستراتيجي وعمرانى ، كامل وشبه مطلق .

الانقلاب الاستراتيجي

كيف ، بالدقة والتفصيل ، حدث هذا الانقلاب ولماذا ؟ ماهى العوامل الكامنة خلفه والضوابط المحركة له ؟ ثمة مجموعتان مترابطتان متداخلتان من الأسباب والمتغيرات ، واحدة جعلت الخليج كبيرا بعد أن كان صغيرا ، وواحدة جعلت السويس صغيرة بعد أن كانت كبيرة . وفى قلب وعلى رأس الأولى تأتى بالطبع ثورة البترول نفسه فى الخليج . ثم إلى جانب البترول تأتى انقلابات ومتغيرات السياسة والاستراتيجية العالمية سواء على مستوى الصراع بين الكتلتين والقوتين الأعظم أو على مستوى الصراع المحلى بين القوى الثانوية . وسواء أكانت هذه المتغيرات مترتبة على ثورة بترول الخليج نفسه أو منفصلة عنه ، فإنها تأتى مؤكدة لنتائجه ومضاعفاته من انتقال مركز الثقل الاستراتيجي العالمى إليه ، ومشيرة بذلك بدرجات متفاوته إلى تذبذب البندول من الغرب إلى الشرق بعامة . أما المجموعة الثانية من المتغيرات فتشمل الاستراتيجية النووية والخطر الإسرائيلى ثم خطر الناقلات العملاقة وطريق الرأس .

بترول الخليج

هذا بالتأكيد أكبر وأخطر ثورة فى بابها وفى نتائجها فى العالم المعاصر . فإذا كانت ثورة البترول عموما هى أكبر ثورة اقتصادية وتكنولوجية فى العالم ، فإن ثورته فى الخليج هى بدورها أكبر ثورة جغرافية وسياسية على المستوى الاقليمى . ففى غضون ربع قرن تقريبا تحول الشرق الأوسط وحوض الخليج العربى إلى أكبر مستودع للطاقة فى العالم ومكمن الجزء الأكبر من احتياطيه ومخزونه المستقبل حتى سنة ۲۰۰۰ على الأقل . وبصفة تقريبية يبلغ هذا الرصيد نحو ثلثى مجمل العالم غير الشيوعى ، بينا لا يقل الانتاج عن ثلث الانتاج العالمى جميعا ، فى حين يمثل الصادر السواد الأعظم من تجارته الدولية . ومن الاجترار وحده بعد هذا أن نقرر أن الخليج قد أضحى قلعة البترول فى العالم ، أو قل عاصمة العالم بتروليا .

وفى الوقت نفسه ساعدت التطورات الدولية ، خاصة ثورة التحرير الوطنى فى العالم الثالث ثم بالأخص حرب أكتوبر فى العالم العربى ، على أن يتحول الخليج وبأرقام فلكية خرافية تماما إلى أغنى منطقة فى العالم بالعائدات ورؤوس الأموال ، فصار معا وفى آن واحد أعظم بنك بترول ومال فى العالم . لقد بدأت «إمبراطورية البترول» فى الشرق الأوسط والعالم العربى . وبينما بدأ الخليج وهو تابع للإمبراطوريات الاستعمارية القديمة ، أصبح آخر وأحدث الإمبراطوريات فى التاريخ الحديث . وبعد أن ظل طويلا مجرد خطوة على طريق السويس إلى الهند ، أصبح فجأة بمثابة «إمبراطورية الهند الجديدة» إلا أنها أدخل فى ، وأقرب إلى ، الاستعمار الجديد منها إلى الاستعمار القديم مثلما كانت إمبرطورية الهند السابقة .

وبينما كانت الهند فى الماضى جوهرة التاج والإمبراطورية البريطانية ، فإن إمبراطورية الهند الجديدة ليست فقط جوهرة بل حرفيا حياة ، ليس فقط لإمبرطورية غربية ولكن للغرب بأسره . ذلك ــ وبغير إفراط فى الأرقام ــ أن الغرب كله ، كل غرب أوربا بما فيه بريطانيا بالاضافة إلى اليابان بل والولايات المتحدة الآن ، فضلا عن العالم الثالث ، يعتمد اعتمادا مطلقا أوشبه مطلق وإن بدرجات متفاوتة على بترول الخليج . فمن مضيق هرمز ، وبمعدل ناقلة كل ٨ دقائق ، كان يمر يوميا ١٩ مليون برميل ، تمثل أكثر من ثلثى إنتاج الخليج البالغ نحو ٢٨ مليون برميل يوميا ، وتشكل ٩٠٪ من حاجات اليابان وأكثر من نصف حاجات أوربا الغربية وربع واردات الولايات المتحدة .

من القناة إلى الخليج

قارن هذا الآن بقناة السويس . لقد كانت القناة على الأكثر خط حياة إمبراطورية فقط ، أما الخليج فخط حياة الغرب كله بل والعالم جله . أكثر من هذا ، فعلى أحسن الفروض والأحوال فإن القناة كما سبق طريق حيث الخليج حياة . أو بالمقابل وبعبارة أصح وأصرح وأفدح : الخليج «مقتل» حيث القناة مجرد «مخرج» . باختصار ، الأول لابديل له ، أما الثانى فله . لاعجب أن يصبح مضيق هرمز ، عنق الخليج وبوابته ، هو بمثابة قناة السويس الحقيقية الجديدة ، فإنما هو مباشرة المخرج والممر الحقيقى لبترول الخليج نفسه . وبصيغة أخرى فلقد أصبح الخليج ومضيقه ذاته ، أكثر من الخليج والسويس تقريبا ، هما مقر البترول وممره معا ، الحياة والطريق فى آن واحد .

والنتيجة ؟ النتيجة الحتمية بداهة وواقعا ، شئنا أو أبينا ، أن الخليج أصبح اليوم

عين إعصار السياسة الدولية وقطب الصراع فى الاستراتيجية العالمية وخاصة بين القطبين الأعظم والكتلتين الغربية والشرقية . كل التنافس حوله ، والأطماع فيه ، والأضواء عليه ، والحسابات له ، والاهتمام به ـ والأهمية أيضا . فالخليج بالنسبة للغرب ليس حياة فقط بل ومقتل أيضا بالقوة كما رأينا ، أى مسألة أو منطقة حياة أوموت ، بمعنى أن أى تهديد أو حرمان لإمداداته منه يعنى استسلامه بلا قتال فى أى حرب عالمية تقليدية . وبالمثل ، ولكن بالمعنى السالب ، فإن بترول الخليج كوسيلة حرمان هو نصف المعركة ونصف النصر بالنسبة للشرق .

ومعنى هذا أن الخليج هدف أول حتما فى أى مواجهة حربية بين القطبين فى المستقبل ، الأول لضمان حمايته وتأمينه والثانى لانتزاعه أو تدميره[1] . وبدون مواربة ، وبإعلان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى كليهما ، فإن الخليج أكثر من أى منطقة أخرى فى العالم هو مفجر الحرب الثالثة المحتمل ، وبوابته هرمز بوابتها . فكل برميل بترول يخرج من الخليج يساوى برميل بارود ، والخليج ككل أصبح بحق «برميل ديناميت العالم» الجديد ، مثلما كان البلقان فى الحرب الأولى والسويس والشرق الأوسط فى الحرب الثانية . ومن السهل أن نلاحظ كيف تقع مراكز الخطر الثلاثة على محور واحد قاطع ، وكيف تحرك مركز الثقل بينها تباعا وباطراد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، إشارة إلى تأرجح البندول الاستراتيجى العام من الغرب إلى الشرق .

من المتوسط إلى الهندى

ومن البحر المتوسط إلى المحيط الهندى أيضا وأساسا ! إذ لما كان الخليج يتوج رأس المحيط الهندى ، فقد انتقل مسرح الصراع المباشر أوتوماتيكيا إلى هذا الأخير الذى ورث بذلك دور البحر المتوسط سابقا بل وربما المحيط الأطلسى مؤخرا . وإذا كان البعض يعد المحيط القطبى الشمالى لا الأطلسى بحر العالم المتوسط الجديد فى العصر النووى والاستراتيجبة الذرية ، فإن المحيط الهندى هو بلا تردد بحر العالم المتوسط الجديد فى عصر البترول والاستراتيجية التقليدية . لقد أصبح المحيط الهندى ، الذى هو نصف محيط نسبيا والذى يشبه فى شكله وتركيبه العام البحر الأبيض المتوسط إلا أنه مفتوح على الجنوب بلا سواحل أو حدود ، أصبح هو البحر المتوسط الجديد فى السياسة الاستراتيجية ، مثلما أصبح مضيق هرمز قناة السويس الجديدة مجازا .

---

(١) Economist, op. cit., p. 43.

اعتبر فقط ، فى هذا الصدد ، احتشاد وتواجه الأساطيل الحربية الكثيفة لكلا القطبين لأول مرة فيه ، وتكالبهما على المحيطات والقواعد البحرية سواء على سواحله أو فى جزره . لاحظ كذلك كيف انساب أو تصرف دور البحر الأبيض المتوسط الاستراتيجى التقليدى جزئيا إلى الهندى عبر البحر الأحمر وعن طريقه حيث بدأ هذا الأخير يكتسب على الطريق قيمة ودورا جديدين ، كما ابتدأ جنوبه فى عدن وباب المندب واليمن الجنوبية وإثيوبيا ينافس نسبيا شماله العريق السويس ومصر كأهداف للتحالفات السياسية ومواطن للقواعد العسكرية ... الخ .

الأنماط الجديدة

نمط الصراع الاستراتيجى العالمى

على أن البحر الأبيض المتوسط لم يفقد من دوره للمحيط الهندى بسبب البترول أو الخليج وحده ، وإنما هناك بالاضافة عامل الاستراتيجية العالمية والسياسة الدولية بعامة . فلشد ما تغيرت أنماط ومحاور الصراع الاستراتيجى العالمى ، مثلما توسعت للغاية أبعاده وأقطاره وأخطاره اليوم بالقياس إلى الأمس . فحتى الحرب العالمية الثانية وصراع الإمبراطوريات الاستعمارية كان الصراع أساسا بين بريطانيا وألمانيا ، وبذلك كان البحر الأبيض المتوسط مركزيا ومحوريا فى النمط الاستراتيجى السائد ، مثلما كان دور قناة السويس شريانيا ومصيريا . أما الآن فإن الصراع بين الكتلتين والعملاقين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى قد نقل المسرح والخطر إلى الشرق أكثر ، إلى الشرق من القناة والمتوسط بل وأوربا نفسها أكثر وأكثر .

بل لقد نشأ فى الحقيقة نمط استراتيجى جديد فى نصف الكرة الشرقى يكاد يكون نقيض نمطه القديم فى العصر الاستعمارى وخاصة عصر بريطانيا . فبينما كانت الأراضى الهامشية فى العالم القديم هى مركز القوة فى السياسة العالمية ، وكان محور السيطرة العالمية هو قاطع غرب أوربا ـ المتوسط ـ الموسميات ، أصبح الهارتلاند الأسيوى أو الأوراسى هو محور الارتكاز والقوة pivot area بظهور الاتحاد السوفيتى كإحدى القوتين الأعظم فى العالم . وبرز من هذا المركز محور سيطرة وتوسع أو نفوذ وأطماع جديد يمتد على قاطع عكسى متقاطع يشمل الخليج العربى ـ الشرق الأوسط ـ المحيط الهندى ـ القرن الأفريقى ـ وسط أفريقيا . وبهذا انتقلت القوة الطامعة أو الأخطار الاستعمارية من الغرب وبريطانيا البحرية وذلك فى مصر والسويس خاصة ، إلى الشرق والاتحاد السوفيتى البرى وذلك فى الخليج والشرق الأوسط عامة .

فعن الخليج ، وبالاضافة إلى بتروله الحاكم كموضع ، فإنه كموقع وباعتباره أقرب منطقة إلى بطن الاتحاد السوفيتي كان يعد دائما ومنذ القيصرية الممر الجنوبي إلى المياه الدافئة ، أى كان يعتبر «قناة سويس الروسيا»[1] . مثلما كان المحيط الهندى هو تلقائيا بحرها المتوسط . وهنا لابد أن نلاحظ أنه ما من مسرح قتال محتمل على وجه الأرض أبعد عن الولايات المتحدة وأقرب إلى الاتحاد السوفيتي من الخليج ، لاسيما بعد تمركز السوفيت فى أفغانستان مؤخرا حيث أصبح الخليج فى مدى القاذفات المقاتلة من مطاراتها وعلى بعد ساعة طيران واحدة .

لهذا يستطيع الاتحاد فى وثبة واحدة عبر صحراء بلوخستان ، على قسوتها ، أن يحتل الخليج دون أن تتمكن الولايات من صده أو منعه ، إلا إذا أعدت القواعد والتسهيلات والأسلحة سابقة التشوين فى الموقع pre-positioned ، بالاضافة إلى إعداد القوات سريعة الانتشار R.D.F. التى كانت بالفعل وليدة غزو السوفيت لأفغانستان . ولعل بارقة الأمل الشاحبة الوحيدة ، من وجهة نظر الغرب طبعا ، أن هجوما سوفيتيا شاملا على الخليج يستدعى تجنيد بعض احتياطيه أو سحب بعض قواته من الجبهة الأوربية أو جبهة الشرق الأقصى ، والأولى تعرض خطة أو نية الغزو للكشف كما تمنح الغرب الوقت اللازم لنقل قواته من بعيد ، بينما أن الثانية تعرض الاتحاد نفسه للهجوم المضاد الوقائى[2] .

هذا عن الخليج نفسه . أما عن الشرق الأوسط فإن الوجود السوفيتي الذى ظهر فى كثير من دوله كتحالفات أو قواعد أو علاقات صداقة وثيقة قد أخذ فى النهاية شكل الغزو الكامل فى أفغانستان . وهذه العملية الأخيرة لا تعنى فقط أن الاتحاد السوفيتي يتوسع كالعادة والقاعدة قاريا إلى الخارج باطراد والتصاق contiguously نحو الهلال الخارجى والأراضى الهامشية من القارة ، ولكن أيضا كخطوة حتمية إلى المياه الدافئة والبحار الجنوبية وتطويقا للخليج العربى وبتروله جميعا وأساسا ، تمهيدا لليوم الذى قد يفرض فيه شروطه أو مساومته على الغرب والولايات المتحدة إما بالوجود به أو المشاركة أو المناصفة فيه ... الخ .

أما فى المحيط الهندى نفسه فلأول مرة يصبح للاتحاد السوفيتي ـ الذى تحول حديثا

---

(١) Reader Bullard, Britain & the Middle East, Lond., 1952, p. 170.

(٢) "East-West struggle", Economist, op. cit., p. 47.

فقط إلى قوة بحر لأول مرة فى تاريخه البرى القارى الطويل ـ أصبح له وجود دائم وحاسم فيه ، ممثلا فى أسطول حربى قوى نووى وسلسلة من القواعد البحرية فى بعض المواقع الاستراتيجية على سواحله خاصة فى منطقة القرن الأفريقى على رأسها عدن وإلى جانبها بربرة سابقا ومصوع حاليا .

وهذه القواعد نفسها كانت خشبة القفز التى وثب منها الاتحاد إلى القارة الإفريقية ذاتها ، حيث نجح بالاضافة إلى اليمن الجنوبية فى التغلغل والتواجد السياسى فى أكثر من دولة فى القرن الأفريقى ووسط أفريقيا ، ابتداء أولا من الصومال الذى استبدل به بعد أن فقده إثيوبيا كبديل أكبر وأخطر ، وانتهاء بأنجولا على الجانب الأطلسى من أفريقيا الجنوبية .

نمط الصراعات المحلية

بالاضافة إلى نمط صراع القوتين الأعظم وتمدده نحو الشرق تجاه آسيا ، هناك أيضا تحرك ملحوظ فى مراكز الصراع الثانوية والمحلية فى نفس الاتجاه . ورغم أن هذا النمط لا ينفصل إلى حد معين عن صراع العملاقين والكتلتين ، فإنه يرتبط بتطورات السياسة الدولية والأحداث الجارية عامة ، لا سيما بتصفية الاستعمار القديم وإمبراطوريات غرب أوربا فى جانب وبروز قوى جديدة صاعدة فى آسيا خاصة . فبينما تحولت أوربا الغربية فى العقود الأخيرة إلى منطقة استقرار نسبى ، انتقلت معظم المواجهات العسكرية والصدامات الاستراتيجية الساخنة شرقا إلى آسيا بالذات .

فعلى حين أصبحت أوربا الغربية ، منذ انتهاء الحرب الثانية ثم الباردة ثم ابتداء الانفراج خاصة ، أميل نسبيا إلى التعايش السلمى والوفاق وخفت قبضة أمريكا عليها نوعا ، أصبحت آسيا هى مسرح أكبر وأخطر الحروب المحلية والثورات الوطنية فى العالم تقريبا ابتداء من الحرب الكورية ثم حرب فيتنام وحرب الصين ـ الهند ثم سلسلة حروب الهند ـ الباكستان إلى انفصال بانجلاديش والثورة الإيرانية ثم الحرب الإيرانية ـ العراقية وأخيرا غزو أفغانستان ... الخ ، كل ذلك بالاضافة طبعا إلى الحروب العربية ـ الإسرائيلية فى غرب القارة ، فضلا عن الصراع السوفيتى ـ الصينى فى شرقها .

وفى هذا كله ، فعلى حين خرجت الولايات المتحدة تقريبا من آسيا ، ازداد النفوذ السوفيتى فيها توسعا وانتشارا . وصفوة القول أن مركز ثقل الصراع الساخن فى العالم انتقل

من أوربا تقليديا إلى آسيا تقريبا ، حيث أصبحت الأولى سياسيا أشبه ببركان نائم فيما تحولت الثانية بحق إلى بركان ثائر.

وكان منطقيا فقط بعد هذا أن يتحول الاهتمام والخطر مرة أخرى من البحر المتوسط إلى المحيط الهندى. بل إن البعض ليتنبأ بأن المحيط الهادى ـ بكل قوى الصين واليابان والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة حوله ـ سيصبح البحر المتوسط العالمى الجديد فى القرن ٢١ . فإذا صح هذا فسيكون بحر العالم المتوسط ، بعد أن غادر البحر الأبيض منذ مدة ، قد انتقل تباعا من المحيط الأطلسى فى أقصى الغرب إلى الهادى فى أقصى الشرق مرورا بالهندى. وهذا كله يذهب على أيه حال ليؤكد تحرك البندول المطرد فى الاستراتيجية العالمية عبر العصر الحديث من الغرب إلى الشرق بعد أن كانت حركته فى العصور السابقة هى على العكس من الشرق إلى الغرب.

مصر والسويس

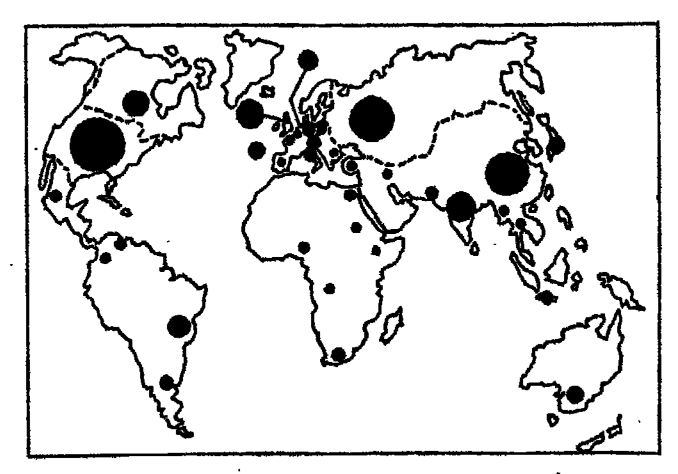
تلك جميعا هى مجموعة المتغيرات العالمية التى أضافت إلى القيمة والأهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج العربى وما شرقه على حساب منطقة السويس والقناة. ولكن على الجانب الأخير ، فإن هناك بالاضافة مجموعة أخرى من المتغيرات نالت بصورة مباشرة من قيمته ووزنه الحقيقى والنسبى مما ضاعف وإلى حد الخطر الاختلال الاستراتيجى بين كفتى الميزان. وكما رأينا فإن أهم هذه العوامل ثلاثة هى الاستراتيجية النووية والخطر الإسرائيلى ثم الناقلات العملاقة وطريق الرأس. فكل منها قد هدد أو أخذ بقدر أو آخر من قيمة الموقع الجغرافى ودور القناة الاحتكارى القديم. ولئن كان من الممكن ، وأمكن بالفعل ، مواجهة هذه الأخطار واستعادة قدر من أهمية القناه ، فلا سبيل إلى الشك فى أن وزنها قد خف فعليا ونسبيا فى الاستراتيجية والمواصلات العالمية سواء عما كان عليه فى الماضى تقليديا أو عما آل إلى الخليج العربى مؤخرا.

وفى النتيجة الصافية ومجمل القول انتقل مركز الثقل الجيوبوليتيكى والجاذبية الاستراتيجية والصراع السياسى من البحر المتوسط إلى المحيط الهندى ، ومن قناة السويس إلى الخليج العربى ، ومن مصر والشام إلى شرق الجزيرة العربية والمشرق العربى ، ومن شمال البحر الأحمر إلى جنوبه ، بالاختصار من وسط الشرق الأوسط إلى شرقه ، أو إن شئت فقل بالتقريب من الشرق الأدنى إلى الشرق الأوسط. ولعل من أبرز مظاهر وأعراض هذا الاختلال أو الانتقال شرقا تحول بؤرة الحروب المحلية فى المنطقة

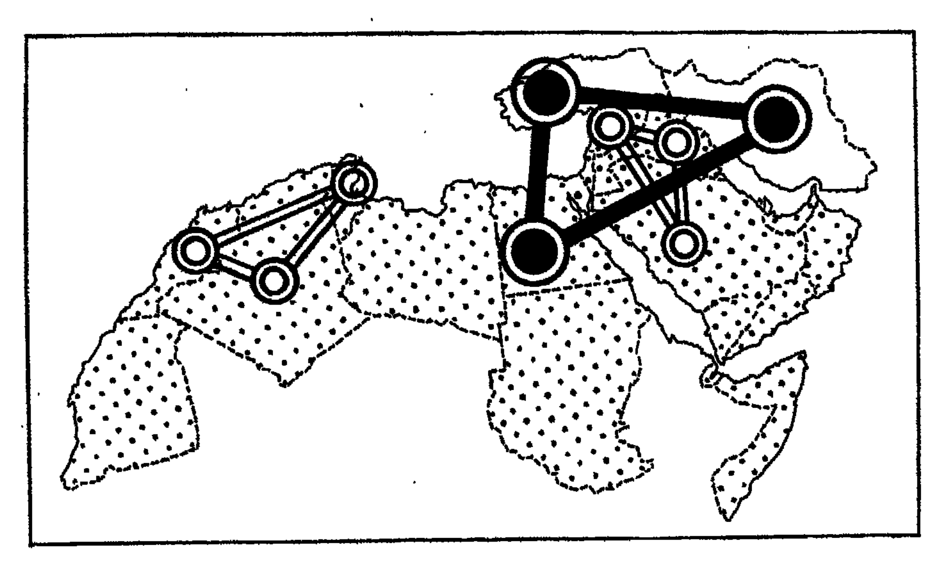
مؤخرا ، لاسيما بعد ذلك الصلح المصرائيلي ، من ركن مصر ـ إسرائيل ـ سوريا إلى ركن العراق ـ إيران ـ أفغانستان .

خذ مثلا حرب العراق ـ إيران . هذه الحرب لا مفر دليل جزئي على تحرك مركز الثقل الاستراتيجي والجيوبوليتيكي والاقليمي من السويس إلى الخليج ومن مصر إلى المشرق . أليست تضع الخليج الآن موضع قناة السويس فى القرن الماضي أو الأخير ، وتكاد تكرر إلى حد ما حرب السويس ؟ أوصدفة أنهم كانوا يتحدثون بقلق عن خطر إغلاق مضيق هرمز مثلما كانوا يتحدثون فى الماضي عن خطر إغلاق قناة السويس ؟ بل الطريف أو الغريب أنهم فى الغرب تحدثوا أثناء هذه الحرب عن « الفراغ » الذى سببه خروج بريطانيا ثم تخلى أمريكا عن الخليج مما فجر الحرب المحلية ، تماما مثلما تحدثوا عن « الفراغ » بعد خروج بريطانيا من مصر وقاعدة السويس . الأكثر إثارة أنهم تحدثوا عن قوة بحرية مشتركة من دول الغرب لضمان المرور فى هرمز وتدفق البترول ، تماما « كهيئة المنتفعين » بقناة السويس وشروطها ... الخ .

على الجانب الآخر ، وكمثل ودليل ثان ، فلئن كانت مصر اليوم قد منحت مايسمى « تسهيلات » أو قواعد مؤقتة لأمريكا فى قاعدة غرب القاهرة الجوية وقاعدة رأس بناس البحرية لتكون ممرا لقوات الانتشار السريع الأمريكية Rapid deployment force (R.D.F.) إلى الخليج ضمانا لحمايته وأمنه ضد مايعد أخطار الاتحاد السوفيتي ، ودونما تعليق على هذه المعطيات أو الفرضيات أو تعرض لها ، فإن هذا إنما يذهب ليؤكد أن مصر قد تحولت إلى مجرد طريق وخطوة هامشية إلى المركز المحورى الجديد وهو الخليج ، شأنها فى ذلك شأن عمان ومصيره أو الصومال أو حتى إسرائيل ، أو شأن قبرص بالنسبة إلى مصر نفسها فى السابق . المعنى باختصار أن مصر استراتيجيا قد تحولت كقناتها إلى موقع هامشي خادم على هامش الخليج الحيوى الحاكم المتحكم فى كل شيء ، لا يغير من ذلك إعلان مصر استعدادها لإرسال قواتها إلى الخليج للمساهمة فى حمايته .



شكل (٣٦) أوزان القوى السياسية في العالم حوالى ١٩٦٠ . مساحة الدائرة تتناسب مع الوزن ، وأساس تقدير الوزن هو مجموع نسب المساحة والسكان واستهلاك الطاقة من المجموع العالمي ، مع احتساب نصف الوزن لاستهلاك الطاقة وحده . [عن كول] .



شكل (٣٧) مراكز القوة الطبيعية في العالم العربي والشرق الأوسط . لاحظ مثلث القوة المحلي في كل من المشرق والمغرب العربي : العراق ـ سوريا ـ السعودية في المشرق ، المغرب ـ الجزائر ـ تونس في المغرب ، ثم بين الاثنين مصر كقطب القوة الاقليمي الأساسي في العالم العربي . لاحظ أيضاً كيف أن مصر بدورها تمثل أحد رؤوس مثلث القوة الاقليمي في الشرق الأوسط : مثلث مصر ـ تركيا ـ إيران .

آفــاق المستقبــل

مـن الاستقطاب الثنـائى إلى الخمـاسى ؟

باعتراف مهندسيه ، كان الوفاق الثنائى اعترافا تاريخيا باهتزاز الاستقطاب الثنائى أو القطبية الثنائية ، أى باهتزاز مكانة القطبين وقوتهما النسبية على قمة العالم ، وبالتالى كان إعلانا ببزوغ عالم قوة جديد يشاركهما فيه قرب القمة أو حواليها قادمون جدد وقوى صاعدة أو طالعة . ولا يكاد أحد يشك اليوم أن عالمنا السياسى يتغير وئيدا ولكن أكيدا عن نمط ما بعد الحرب الثانية مباشرة ، وأننا نعيش حاليا مرحلة انتقال حرجة ودقيقة ولكنها حاسمة من حقبة استراتيجية إلى حقبة أخرى بكل ما تنطوى علية الكلمة من توازنات وتوزيعات وأنماط وأدوار ... الخ .

ومنذ أبرم الوفاق تحول كثير من الجامعات ومعاهد العلوم السياسية ومراكز الدراسات الاستراتيجية فى العالم إلى مراصد حية للمتغيرات الدولية وخلايا مستقبلية عارمة بالنشاط التحليلى ومعامل مدججة بالحاسبات الإلكترونية للتنبؤ المستقبلى المنهّج المبرمج بهؤلاء القادمين الجدد ، وأين وكيف سيتم « تركيبهم » فى معادلة القوة الجديدة ، مع تحليل التوازنات الداخلية والتبادلية بين « الحرس القديم والجديد » ، ثم أثر النظام الجديد كله على العالم ككل ... الخ .

وفى هذا « الهوروسكوب السياسى horoscope » أو المنظار المستقبلى الفريد ، بدا للكثرة من الباحثين فى قراءة يد المستقبل ، وعلى رأسهم هيرمان كان ، أن هناك على الطريق ثلاثا كبارا مرشحين للحاق بالقوتين الأعظم المخضرمتين ليؤلف خمستهم الصف الأول أو الصدر الأعظم فى خريطة السياسة العالمية حوالى سنه ٢٠٠٠ . أولئك هم أوربا الغربية - اليابان - الصين .

ولعل من الطريف هنا أن نورد ، على سبيل المقارنة أو لمجرد السجل (ولا نقول الذكرى !) بعض التنبؤات الجيوبوليتيكية فى أخريات الحرب العالمية الثانية عن مصائر وأقدار القوى العظمى المتوقعة بعدها . فإلى جانب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بالطبع ، كان يأتى صف ثان من القوى العظمى يضم الإمبراطورية البريطانية « التى يتوقف مستقبل البريطانيين فيها على تعاونهم الوثيق مع الأمريكيين » ، ثم من الجائز بعدها فرنسا ولكن فقط إن هى استعادت إمبراطوريتها .

وكان للصين بعد هذا فرصة قوية فى مكانة بارزة كالزعيمة المحتملة فى الشرق

الأقصى ، ولو أن من المشكوك فيه أن تصل إلى مرتبة الدول العظمى . وبالمثل البرازيل فى أمريكا اللاتينية ، فهى الوحيدة هناك التى تذكر أكثر من غيرها كمرشح لمرتبة الدول الكبرى ، إلا أن ذلك من المشكوك فيه أيضا . أما ألمانيا وإيطاليا واليابان فقد كتب على ثلاثتها أن تفقد مكانتها كدول عظمى . تلك كانت النبوءة المطروحة فى مجملها ، ومن الواضح الآن أن اليابان والصين على الأقل قد خيبت بعض حساباتها . بينما يبدو مجرد ذكر البرازيل اليوم مثيرا للدهشة أكثر مما كان وقتئذ أو أى وقت مضى فى الحقيقة[1] .

ومهما يكن ، فإذا نحن عدنا إلى واقعنا الحاضر فإن الفرضيّة الأساسية السائدة أو الراجحة إذن هى تحول الاستقطاب الثنائى الضيق الراهن إلى استقطاب خماسى أعرض وأرحب ، ليس الآن فورا ولكن حوالى دورة القرن أو حتى بعدها بقليل أو كثير . ومعنى هذا أننا لاينبغى أن نفهم من حديثنا التالى عن الاستقطاب الخماسى كخاتمة الكتاب أننا نتعامل معه فعلا فى واقعنا المعاصر ، فليس ثمة حتى الآن سوى قوتين أعظم لا شريك لهما . ولسوف تظلان كذلك ربما لنحو نصف قرن آخر يضاف إلى النصف الماضى ، بحيث يمكن القول إنهما احتكرا وسوف يحتكران السيادة العالمية المشتركة زهاء القرن منذ منتصف القرن العشرين إلى حوالى منتصف القرن الحادى والعشرين .

الخريطة الجديدة

فإذا صحت هذه الصيغة المطروحة لجاز لنا أن نتوقع خريطة جديدة تماما للقوى العظمى ترسم على أساس التشكيلة البازغة نمطا اقليميا معقدا يختلف جذريا عن النمط الثنائى البسيط السائد حاليا و / أو المتنحى مستقبلا . ولعل أهم ملامح هذا التغيير ثلاثة .

فأولا ، كان الاستقطاب الثنائى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى يتلخص فى انقسام رأسى بين غرب وشرق ، بين معسكر رأسمالى وآخر اشتراكى ، وأخيرا بين العالم الجديد والعالم القديم . أما من الآن فإن نطاق الاستقطاب الجديد يتسع ليلف حول النصف الشمالى من الكرة الأرضية شاملا قلب أمريكا الشمالية وكل أوربا تقريبا والجزء الأكبر من شمال ووسط وشرق آسيا . ويلاحظ أن النطاق الأول كان يمثل كتلتين منفصلتين أرضيا ، أما الثانى فالجزء الأكبر منه أرض متصلة بلا انقطاع من الأطلسى حتى الهادى .

---

(١) فايفيلد وبيرسى ، الجيوبولتيكا ، ج٢ ، ص٢١٦ – ٢١٧ .

ثانيا ، نطاق الاستقطاب الخماسى يظل ، كالاستقطاب الثنائى ، مقصورا على النصف الشمالى من الكرة الأرضية ، مؤكدا بذلك الفارق الكامن بين القارات الشمالية والقارات الجنوبية والتناقض الجذرى بين الشمال القوى الغنى والجنوب الضعيف الفقير. ومع ذلك فإن هناك داخل النصف الشمالى تحركا حاسما فى مراكز القوة نحو الجنوب وتوسعا تجاه خط الاستواء وبالذات فى آسيا الموسمية حيث يصل الآن مع حدود الصين الجنوبية إلى مدار السرطان . فإذا ما تذكرنا أن الهند ، خاصة مع تعاظم قوتها بعد حربها المنتصرة على الباكستان ، تؤذن أو تشبه أن تكون قوة جديدة كبيرة أو نحو ذلك ، فإن زحف القوة نحو الجنوب يتأكد أكثر ويقترب من خط الاستواء نفسة أكثر وأكثر.

ثالثا ، على أن أبرز تطور على الخريطة ليس هو الزحف نحو الجنوب بقدر ما هو الزحف نحو الشرق ، وبالتحديد نحو آسيا . فلعل أخطر حقيقة انبثقت عن تعدد المراكز هى طفرة آسيا إلى حلبة الصراع ، ودخولها دائرة القوة العالمية . ففى مقابل مركز قوة واحد فى أمريكا الشمالية وآخر فى أوربا الغربية وثالث أوراسى موزع بين أوربا وآسيا (الاتحاد السوفييتى) ، هناك مركزان اثنان فى آسيا وحدها (الصين واليابان) . أى أن آسيا ، حسابيا ، نصف مجموع القوى العظمى المنتظرة بالعالم .

قواعد اللعبة الجديدة

وكما أسلفنا فلا مفر من أن يكون أساس التعايش والتفاعل والتعامل بين الخمسة الكبار هؤلاء هو لعبة توازن القوى ، أى عود بصورة ما ، مختلفة ومجددة بالطبع ، إلى نمط القرن التاسع عشر ، أو النمط البريطانى الأثير. ولن يكون معنى هذا أن يقف الجميع على قدم المساواة تماما أو أن يتعادلوا بالضبط فى ميزان القوة ، وإنما سيكون هناك دائما الأول بين أنداد أو أكفاء primus inter pares يلعب دور المرجح . وإلى أمد بعيد ، وربما إلى الأبد ، ستكون الولايات المتحدة صاحبة هذا الدور الحاسم والحرج . كذلك فلبعض الوقت سيظل القطبان الأعظم الحاليان هما المدار المحورى للعبة الجديدة .

وفى رأى البعض ، مثل ريكر ، أن عصر التوازن سيتحول وينتقل إلى عصر من المناورة . وعلى أية حال فقد يرى البعض الآخر أن التوازن بحد ذاته مرادف للمناورة ، وأن عصر التوازن هو بالضرورة وبالطبع عصر المناورة . فكل طرف فى اللعبة هو إلى حد أو آخر ضد الطرف الآخر ، وكل طرف يريد أن يستغل الطرف الآخر سياسيا

وسيكولوجيا لمصلحته ، والكل بهذا يضارب الكل بالكل ، غير أن أكثر من طرف ستجتمع مصالحه مرحليا أكثر ضد طرف آخر ، ولهذا ستتألف بينهم محاور متعددة مؤقتة أو متعاقبة أكثر أو أقل وضوحا وصلابة وبقاء يغيّر فيهاالجميع مواقعه بلا حرج ولا حذر ، بسرعة أو ببطء ، وذلك على أساس مساومات حادة دائمة ودائبة . أى أن المبدأ الحاكم لن يكون المبادئ الأيديولوجية بقدر ماسيكون المكاسب الواقعية والمصالح العملية والمواقف البرجماتية . واللعبة كلها أشبه بلعبة الكراسى الموسيقية ولا نقول كما يقول البعض « لعبة الثلاث ورقات » .

ويرى ريكر أنه فى وسط مثل هذه اللعبة سوف ترتفع القيمة الحدية للقادمين الجدد أو أصحاب المواقف المحايدة أو الهامشية ، إذ سيرتفع الثمن المطلوب لانحيازهم إلى هذا الجانب أو ذاك . وفى الوقت نفسه فإن كل تحرك لأحد الجانبين الأعظم سيؤثر آليا على مواقف ومواقع الآخرين بحدة وبدرجة مؤثرة على مستقبلهم . وهذا فى رأى الكاتب نفسه سيضاعف من خطر الحرب الشاملة ، كما أن القطبين الأعظم الحاليين سيكونان الخاسرين فى جميع الأحوال بعد أن يستنفد كل منهما كل إمكانيات تدعيم تحالفاته ومحاوره[١] .

غير أن البعض مثل بيرتون يذهب ، على العكس من ذلك تماما ، إلى أن التوازن سيفرض الاتجاه السلمى على أطراف اللعبة ويسقط المحاور كما أسقط الأحلاف بحيث يغزوها عدم الانحياز ، نعم عدم الانحياز ، فى النهاية[٢] . ولعل هذه أمنية أكثر منها نبوءة ، وربما عدها البعض أدخل فى باب الميتافيزيقا منها فى علم المستقبلية .

ومهما يكن الأمر ، فإذا عدنا إلى ميكانيزم اللعبة الجديدة ، فلنلاحظ أولا أنها ، أيديولوجيا ، مباراة أو مناورة بين ثلاثة أطراف رأسمالية وطرفين شيوعيين ، الصراع بين الأخيرين منهم لا يقل ضراوة وعداء حتى الآن على الأقل عما بينهما وبين الأطراف الثلاثة الأولى . وهذا مما يزيد اللعبة كلها تعقيدا والوجوه والأقنعة تعددا . فبين الجميع تناقضات عديدة مختلفة النوع والدرجة ، أى أنهم جميعا ضد بعضهم البعض ولكن بدرجات متفاوتة . غير أنهم جميعا فى الوقت نفسه ضد الاتحاد السوفيتى أساسا وفى الدرجة الأولى ، بينما يريد هذا بدوره إفساد اللعبة عليهم جميعا . وعلى هذه الأسس المعقدة

(١) Edwin Rieker, Theory of political coalitions, New Haven, 1962, p. 230-1.

(٢) A. Burton, International relations, 1967, p. 186.

المربكة تمت وستتم تنازلات ومساومات متبادلة بين الأطراف جميعا .

أما من حيث التوزيع الجغرافى ، فلأن أربعة من الأقطاب الجديدة تقع فى أوراسيا أو العالم القديم ، فإن الولايات المتحدة تأتى من العالم الجديد كالرافعة lever ومركز الثقل القصى . ولأن ثلاثة من تلك الأقطاب تقع كليا أو جزئيا فى آسيا ، فإن الولايات مرة أخرى تأتى كالبعد الرابع جنب مثلث الصراع . ولهذا فإن آسيا ، بعد أن فشلت الولايات فى إخضاعها أو احتوائها بالقوة وخرجت من يابسها القارى mainland . هى أكثر من أى قارة أو منطقة أخرى المرشحة لتكون ميدان اللعبة الجديدة ، وإليها بالفعل تتجه كل مؤشرات الصراع ، وفيها نجد أولى إرهاصاته ، بحيث قد تحل آسيا محل أوربا كميدان المعركة غير المباشر بين الأقطاب الخمسة المفترضين مثلما خلت محلها كميدان المعركة بين القطبين الأعظم الراهنين .

أطـراف اللعبـة

أمـريكا وأوربـا

لأن الولايات المتحدة وأوربا الغربية هما أقرب الجميع إلى بعضهما البعض بحسبانهما نواه الغرب الحقيقية والحلفاء التقليديين ، فلعل من المستحسن أن نبدأ بهما . ولا شك ابتداء أن أهدافهما واحدة أو موحدة إلى حد بعيد ، ومواقفهما من الآخرين متقاربة للغاية بالتالى ، لكن دون أن تكون متماثلة أو متطابقة بالطبع . فهناك فجوة ما أو هامش من اختلاف وأحيانا من خلاف فى الأهداف والمواقف يمليها اختلاف المصالح والعلاقات الخاصة . فاهتمامات أوربا فى المرحلة الحالية هى المصالح الاقتصادية أكثر منها السياسية ، بينما أن اهتمامات أمريكا سياسية واستراتيجية أكثر . الأولى أهدافها وحساباتها اقليمية أكثر ، والثانية عالمية أكثر . والسبب بالطبع أن الأخيرة قوة أعظم ، أما الأولى فليست كذلك بعد .

وبعامة يمكن القول إن هدف أمريكا فى اللعبة ، إذا سمح لنا بهذا التشبيه الموسيقى ، أن تكون هى « قائد الأوركسترا » وأوربا « ضابط الإيقاع » ، أو إذا كانت هى « عازف الكمان الأول » أن تكون أوربا « عازف الكمان الثانى » . ولذا فإن المطلوب هو نوع من « تطبيع » العلاقات بينهما من حين إلى آخر . وعلى الجملة فلعلنا أن نلخص أو بالأحرى نشخص العلاقة بين أوربا الغربية والولايات المتحدة فى المستقبل إذا قلنا إنها قد تتجه تدريجيا وعلى المدى البعيد إلى أن تستقر على شىء أشبه بالعلاقة بين إسبانيا أو البرتغال وبين أمريكا اللاتينية ، وإنما على مقياس أكبر ومستوى أعلى .

فكلاهما يريد مضاربة القوى الثلاث المضادة ببعضها البعض ، ليحتفظا هما بتوازن القوى لصالحهما وليحتفظا بالصدارة العالمية . وبطبيعة الحال سيظل الاتحاد السوفيتى هو الخطر الرئيسى ، وكل المناورة والتكتيك والمضاربة موجهة إليه ومركزة عليه أساسا ، وكل المحاولة هى لتحجيمه وعزله عن الآخرين وحصاره صراعيا ، دون أن يصل الأمر مع ذلك إلى حد الصدام معه تحت أية ظروف ، فتلك هى الفرضية أو الشرطية الأولى فى الوفاق كله أصلا . وبهذا ولهذا أيضا تهدف أمريكا وأوربا إلى دفع الاتحاد إلى الاعتدال أيديولوجيا أو الابتعاد عن التطرف فى طريق الشيوعية والمزيد من الاتجاهات البراجماتية العملية بدل الأيديولوجية البحتة .

غير أن أوربا بعد هذا تريد أن تستغل تعدد المراكز الجديدة فى الاستقلال نوعا عن السيطرة الأمريكية اقتصاديا وسياسيا واستراتيجيا . ومن جانبها فإن أمريكا لاتمانع فى أن تقوى أوربا وتتسلح لتكون حليفا أقوى إلى جانبها ، ولكن دون أن تستقل بإرادتها عنها تماما أو تهدد زعامتها . ثم تريد أوربا ، ثانيا ، تحجيم كل من العملاقين الأعظم بحيث تتضاءل نوعا الهوة الساحقة والسحيقة بينها وبينهما فى القوة . ثم ثالثا تريد أوربا منع الصدام بينهما وأن تعمل كعامل اتصال وتقارب بينهما ، وهو دور ترحب به أمريكا على ألا يكون هذا على حساب العلاقة الخاصة بينهما .

الاتحـاد السوفيتى

إذا كانت عقدة الروسيا الجغرافية ـ التاريخية الكبرى والتقليدية هى الشعور بالحصار المحكم الخانق بين محيطات متجمدة فى الشمال وجيران غير أصدقاء من سائر الجهات ، وكان حجم الرقعة الهائل وأبعاد الامتداد القارية هى الحماية المعوضة التى حلت تلك العقدة ، فإن العصر النووى قد جاء أخيرا وعلى النقيض ليعقدها من جديد بل ويضاعفها أضعافا . فبعد أن كانت الروسيا فيما مضى تملك الدفاع بالعمق وتستطيع أن تشترى الزمان بالمكان وتستدرج العدو الغازى إلى العمق وإلى مقتل محقق ، فإن عصر الصواريخ النووية قد حيد عامل الحجم والضخامة وسلب المكان عمقه دون أن يوفر بالمقابل عامل الأمن والأمان على امتداد الحدود المترامية .

ليس هذا فحسب . بل إن الاتحاد ليجد نفسه اليوم محاصرا نوويا من كل الجهات تقريبا : الصين شرقا وأوربا الغربية والولايات المتحدة غربا ، بما فى ذلك الأساطيل النووية على جانبيه فى الأطلسى والهادى والهندى ، هذا بالاضافة إلى تحالف أو تقارب هؤلاء جميعا ضده . وهكذا بات على الاتحاد أن يحقق التفوق والردع النووى ليس فقط

ضد الولايات وحدها ولكن أيضا ضد سائر الأطراف ، كما صار عليه ابتداء أن يكسر حلقة الحصار تلك بأى ثمن أو وسيلة . من هنا تتحدد أهداف الاتحاد فى لعبة توازن القوى الجديدة فى تفجير اللعبة عليهم جميعا فى الأساس وقلب المائدة على رؤوسهم بلا استثناء .

نقطة البداية الحتمية هى تحجيم العملاق الأعظم المضاد أمريكا بعزله ما أمكن عن سائر حلفائه أو بإبعاده عن التقارب مع سائر أعدائه . وفى هذا السبيل فليس أمام الاتحاد أولا سوى العمل على تحييد أوربا وإبعادها بقدر المستطاع عن أمريكا ، مستغلا فى ذلك خشية أوربا من أن تتحول إلى ميدان المعركة المباشر ورغبتها لذلك فى السلام ، بالاضافة إلى رغبتها فى التحرر من النفوذ الأمريكى المفرط والاستقلال كقوة عظمى .

ثم لايقل عن ذلك أهمية أن الاتحاد يريد ، ثانيا ، تحييد أمريكا (ومعها أوربا الغربية بصفة تكميلية) فى صراعها المرير مع الصين . والنقطة أو العقدة الأساسية فى ذلك عند الاتحاد هى كما رأينا ألا يواجه أى تحالف متزامن على جانبيه غربا وشرقا فى أوربا وآسيا أى بين أمريكا (وأوربا) والصين ـ هذا كما سبق رعبه الدائم وربما مقتله الكامن . ولذلك فإن كل خطوة تقارب بين أمريكا وأوربا تجاه الصين يقابلها الاتحاد الآن بخطوة أو خطوتين تجاهها . وهذا يفسر المرونة الملحوظة فى علاقات الاتحاد مؤخرا مع أمريكا وأوربا .

وأخيرا ولنفس السبب فإن الاتحاد يريد ، ثالثا ، عرقلة أى تقارب بين الصين واليابان . ورغم أنه ليس من المحتمل كثيرا اجتماع هذين الأخيرين فى حلف غير مقدس أو فى تكتل موحد نظرا للتناقضات العميقة التاريخية والمبدئية بينهما ، إلا أن خطر اتحادهما فى عمل أو موقف مشترك ضد الاتحاد على جبهتة الشرقية يبقى مع ذلك قائما ويثير دائما مخاوف « الخطر الأصفر » . ويحاول الاتحاد بطبيعة الحال أن يوسع مسافة الخلف بين العملاقين الأسيويين مستغلا فى ذلك التناقض الأسى بينهما . وفى هذا فليس أمامه سوى أن يسعى إلى التقارب مع اليابان بالطبع ، ملوحا لها بالاستثمارات والمشروعات المغرية التى لا حد لها فى سيبيريا الشرقية خاصة . وإذا كانت مشكلة جزر الكوريل الأربع التى احتلها الاتحاد بعد الحرب الثانية وتطالب اليابان باستعادتها ماتزال معلقة ومانعة لتطبيع العلاقات بينهما ، فلعل الاتحاد يحتفظ بها للمستقبل البعيد كورقة رابحة فى لعبة التوازن ، لاسيما أن أحد أسباب إصراره على عدم التنازل عنها خشيته فيما يبدو من أن يضع بذلك سابقة لمطالب اقليمية مماثلة من قبل الصين ورومانيا ... الخ .

على أن احتمالات الخطر والصدام التى قد يتعرض لها الاتحاد على الجبهة الأسيوية ليست بسيطة بل مركبة من مرحلتين على الأقل ، وخلفها بالاضافة والطبع تقف الولايات المتحدة دائما . فمن ناحية فإن الهدف الأمريكى من محور أمريكى ـ صينى إنما هو ـ كما يرى البعض ـ ضرب الاتحاد السوفيتى أولا ، ثم بعد ذلك ضرب الصين نفسها لتصفية المعسكر الشيوعى على مرحلتين . أى أن اللعبة الأمريكية هى أن تتحد الولايات والصين لتتغديا معا بالسوفيت ، ثم لتتعشى هى بعد ذلك بالصين . غير أن البعض الآخر يتجه إلى قلب المتتالية . فهناك فى أمريكا خاصة من يتصور ، ربما من قبيل أفكار التمنى أو الأفكار الثابتة ، التصادم أولا بين الصين واليابان على أساس أنهما أقطاب متنافرة أيديولوجيا ، متعادية تقليديا ، ومتنافسة على زعامة القارة تاريخيا .

ومثل هذا الصدام إن لم يكن مرحلة على الطريق إلى التصفية العظمى ، فهو بديل مؤقت عن الصدام بين القطبين الأعظم ، ولمصلحتهما على السواء أيضا : الولايات تتخلص من خطر اليابان « الصديق اللدود » الذى لايعد أمريكا إلا « عدوا ما من صداقته بد » ، والاتحاد يتخلص من خطر التحدى الصينى . وبهذا وذاك يصفى الأسيويون بعضهم بعضا ، بحيث تتحول سياسة أمريكا الجديدة « آسيا للاسيويين » لترادف فى الحقيقة « الأسيويين ضد الأسيويين » .

على أنه حتى إن صح هذا الفرض أو التصور ، فلسوف يأتى الدور بعده لكى يصفى الأوربيون الأوربيين . وفى كل الأحوال ، فإن معنى هذا أن على الاتحاد أن يتوقع على مدى المستقبل القريب أو البعيد سباق قوة أشبه على الأرجح بسباق الحواجز Steeple chase ، إلا أن ترتيب هذه الحواجز هو الذى لايمكن التنبؤ به .

الصيـن

لاشك أن أكبر مفاجآت لعبة التوازن ، مثلما هى أول افتتاح لها بعد الوفاق ، كان دخول الصين فيها بعد خروجها من عزلتها ، أو بالأحرى إدخال الصين فيها بعد إخراجها من عزلها . فلقد كانت زيارة الصين حين « طرق نيكسون بابها يستأذن فى الدخول » هى الحجر الذى ألقى فى بركة السياسة الدولية الرتيبة فرجّها وملأها بالموجات والدوامات العنيفة ، كما كانت إشارة البدء بتدافع حقيقى ولانقول بتكالب على الصين بين كل من أمريكا وأوربا واليابان ، كل لدوافعه وأسبابه وحساباته الخاصة . وبالمقابل ، لم تكن الصين من جانبها أقل رغبة إن لم نقل تلهفا ، رغم الحذر والتمنع ، فى الخروج إلى العالم

والانفتاح عليه ، إن لم يكن ردا لاعتبارها بعد ربع قرن من عدم الاعتراف بها ومعاداتها ، فلكى تلعب دورها الطبيعى والطليعى فى هذا العالم والخروج من العزلة .

ونستطيع أن نحدد أهداف أمريكا فى تقاربها مع الصين فى أربعة أساسية ، اثنين منها أهداف سياسية استراتيجية واثنين اقتصادية تجارية . فهناك أولا ضمان فصل الصين عن السوفيت إلى الأبد حتى تبقى نقطة اللاعودة نهائية وحتى يستحكم الصراع بينهما أكثر وأكثر . ويتم هذا بإشعار الصين أنها لاتقف وحدها وأن أمريكا تسند ظهرها فى وجه العملاق الأعظم الذى يفوقها قوة بلاشك ويهددها تهديدا حقيقيا ومباشرا ، خاصة نوويا . وبطبيعة الحال فإن الخطر السوفيتى كان أول دوافع الصين إلى الاستجابة إلى التقارب الأمريكى والغربى . ونحن نعلم من قبل كيف تغيرت أولوية الأعداء والعداوات فى حساب الصين حيث أصبح السوفيت على رأس القائمة بينما تأتى أمريكا بعد ذلك فقط . ولقد عبرت الصين نفسها عن ذلك مرارا بقولها إن العدوان المنتظر من الشمال أخطر من العدوان المتوقع من الجنوب[1] .

أما كيف يمكن لأمريكا أن تقف استراتيجيا بجانب الصين ضد السوفيت ، فذلك أساسا عن طريق مساعدتها تكنولوجيا بالتصنيع والتحديث والتسليح الذى فتح بابه أيضا فى دول أوربا الغربية الكبرى كفرنسا وبريطانيا خاصة . وبالتصنيع الحديث بالذات يمكن للغرب مضاربة كل من الصين والاتحاد السوفيتى ببعضهما البعض مضاربة فعالة ومؤثرة فى مجال الصناعة ذاته كما فى مجال السياسة عموما .

وقد ساعدت العروض والقروض الغربية هذه الصين على حسم جدلها الداخلى القديم حول الاعتماد على الذات والوسائل والطاقة البشرية أو على الغير والوسائل والتكنولوجيا الحديثة ، وذلك لصالح الاتجاه الأخير بالطبع أى الانفتاح . ولئن كانت الصين حريصة على ألايصل هذا الاعتماد إلى حد أن تقع تحت رحمة الغرب ، فإن هذا من جانبه لم يكن أقل حرصا على ألا يسمح للصين أن تتجاوز قوتها حدود الأمان والتوازن ، سواء اقتصاديا وسياسيا أواستراتيجيا وعسكريا .

وفى هذا المجال الأخير فإن الجانب النووى بالذات يعد الهدف الثانى من السياسة الأمريكية والغربية ومن أشد أهدافها حساسية وخطورة . ليس فقط كرادع وكدرع

---

(١) محيي الدين خطاب ، « الصين والمحور اليابانى الأمريكى » ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٤ ، ص ١١٣ .

صينى ضد القوة النووية السوفيتية الهائلة ، ولكن أيضا كمانع لانفجار الصين ذاتها نوويا على العالم أو على أمريكا فى المستقبل وذلك إذا ماظلت فى عزلتها أو ظلت هى تعمل على عزلها . ليس فقط كتحجيم مضاد للخطر النووى السوفيتى يعنى ، ولكن أيضا كتلجيم مباشر للقدرة النووية الصينية ذاتها .

ذلك أن أمريكا كانت تستشعر بشدة خطر نمو القدرة النووية الصينية ، بما فى ذلك إمكانيات نقلها بالصواريخ إلى القارة الأمريكية ، إلى حد أنها أقامت شبكة دفاعات مضادة للصواريخ الصينية خصيصا . وقد أعلن نيكسون بصراحة أن إخراج الصين من عزلتها هو إخراج للمارد من قمقمه سلميا قبل أن يخرج هو منه نوويا على شكل حرب نووية عالمية فى غضون ١٥ ــ ٢٠ سنة[١] . ومن هنا جميعا فإن الموقف الغربى من الصين فى مجال التوازن النووى بالذات يخضع لأدق الحسابات والاعتبارات القريبة والبعيدة المدى .

غير أن الهدفين السياسيين والاستراتيجيين السابقين ، على أهميتها الفائقة ، لا يزيدان إن لم يقلا أهمية فى نظر البعض عن الهدفين الخاصين بالمجال الاقتصادى المادى . فالمقول والمرجح بشدة أن الحافز المباشر والأساسى فى آن واحد لطرق الولايات المتحدة باب الصين إنما كان العامل الاقتصادى والتجارة الخارجية . فبالنسبة للولايات كرأسمالية عظمى ، كانت السوق الصينية الهائلة التى حرمت منها طويلا أكثر من مغرية ، كانت مسألة حياة أو موت تقريبا لتوسيع الاقتصاد الأمريكى المتأزم وإنقاذ الدولار ، وكذلك لانتزاعها من اليابان المنفردة بها تقريبا ووضع حد للمنافسة اليابانية الاقتصادية المخيفة للاقتصاد الأمريكى والغربى .

ومن المسلم به أن الرأسمالية الأمريكية كانت من أقوى قوى الضغط على الادارة والسياسة الأمريكية من أجل الانفتاح على الصين . ولم تكن هذه بدورها أقل رغبة فى الانفتاح على التكنولوجيا الحديثة من جهة وموازنة النفوذ اليابانى الفائق على سوقها واقتصادها من الجهة الأخرى[٢] . وهذا ما ينقلنا إلى الهدف الأمريكى الرابع والأخير وهو تحجيم اليابان .

فمنذ تحولت اليابان ، تحت مظلة الوصاية السياسية والحماية الاستراتيجية الأمريكية ،

---

(١) السابق ، ص ١٠٤ .

(٢) السابق ، ص ١٠٤-١٠٦ .

إلى عملاق اقتصادى وإلى القوة الثالثة بعد العملاقين فى هذا المجال ، فإنها أصبحت تهدد بمنافسة ضارية ومنافستها تهدد بالتفوق الساحق على أمريكا ذاتها ، بينما وصلت المنافسة التجارية فى عقر دار أمريكا نفسها إلى حد الغزو الحقيقى حيث بلغت نسبة ما يذهب إلى أمريكا من مجموع الصادرات اليابانية نحو ٣٠٪ حاليا . وعلى الجملة أصبحت العلاقات الأمريكية اليابانية أقرب إلى الحرب الاقتصادية غير المعلنة . ومن هنا كانت السوق الصينية هى المخرج والمنفذ الوحيد أمام أمريكا كعنصر توازن وبديل وأداة لتحجيم اليابان والخطر اليابانى ، وهو ماينقلنا أخيرا إلى موقف اليابان فى اللعبة الخماسية الجديدة برمتها .

اليابان

كانت اليابان بالتحديد أشد من تأثر ، بل وروع ، من التقارب الأمريكى ـ الصينى . وكانت زيارة الصين والاعتراف بها ، لاسيما أنها تمت من وراء ظهرها ، صدمة هائلة بالنسبة لليابان تجمع بين الجرح والاهانة ، واعتبرتها هى بالفعل نوعا من « الخيانة الأمريكية » أنهت شهر العسل العقدى الطويل بين الحليفتين اللدودتين ، بينما عدها البعض فى مغزاها الكلى بمثابة القنبلة الذرية الأمريكية الثالثة على اليابان ، وإن اكتفى البعض بأن شبهها بميثاق عدم الاعتداء الألمانى ـ السوفيتى بين هتلر وستالين قبيل الحرب العالمية الثانية . وفى كل الأحوال فقد اتفق الجميع على أن تلك الزيارة زلزلت وغيرت إلى الأبد كل البناء السياسى والعسكرى الذى وضعه دلز للعلاقات الأمريكية ـ اليابانية بعد الحرب الثانية ، أى تلك العلاقة الخاصة بينهما .

والواقع أن السياسة اليابانية فى آسيا وخارجها أصبحت منذ ذلك الحدث ولأول مرة تتحرك حركة مستقلة إلى حد أو آخر عن الحركة الأمريكية ، ولم تعد تمثل معها جبهة موحدة الإيقاع والخطى والخطة مثلما كانت فى السابق . وكان أول مظهر من مظاهر هذا الاستقلال أو الانفصال السياسى أن اليابان ردت على المصالحة والتقارب الأمريكى ـ الصينى بمصالحة وتقارب سياسى مضاد يابانى ـ صينى . فإلى جانب العلاقات الوثيقة اقتصاديا ، سارعت اليابان إلى الاعتراف سياسيا ودبلوماسيا بصين واحدة لاصينين ، ساحبة بذلك اعترافها بالصين الوطنية فى تايوان ، وهو الشرط الأساسى الأدنى لأى علاقة مع الصين (الشعبية الأم) .

وبطبيعة الحال فإن القرار الأمريكى لم يكن يستهدف بحال استبدال الصين باليابان

سياسيا أو استراتيجيا أو اقتصاديا ، أو حتى أن تعادل العلاقة بالصين العلاقة باليابان ، فضلا عن أن تتم على حسابها . إذ لاشك أن اليابان وليس الصين تظل وسوف تظل إلى أمد بعيد قاعدة الارتكاز الصلبة والركيزة الأساسية وقاعدة الأساس الأولى وعنصر التوازن الثابت فى كل الوجود الأمريكى فى آسيا والهادى . لاسيما أن العلاقات مع الصين ماتزال فى البداية ، محدودة ، مترددة ، وتنتمى إلى المستقبل أكثر مما تمت إلى الحاضر فعلا ، فى حين أن العلاقات مع اليابان واقع فعلى ، ماثل وهائل إلى أقصى حد[1] . ولكن لهذا السبب نفسه فإن مشكلة الولايات ستبقى دائما التوفيق بين العلاقتين وفض التناقض أو الاشتباك بين التقاربين ، أو هى كما وضعها البعض كيف تنجح فى ممارسة « تعدد الزوجات » مع الغريمتين اليابان والصين .

ولعل اليابان عادت ، مع ذلك ، فرحبت بالوضع والتوازن الجديد كوسيلة للاستقلال نوعا عن أمريكا والتحلل أو التخفف من رحمة التبعية الأمريكية الثقيلة الوطأة ، فتحل بذلك شيئا من متناقضة العملاق الاقتصادى والقزم السياسى التى تعانى منها وتوصم بها . وبالفعل فلقد استغلت اليابان الوضع الجديد ، حيث سحبت أمريكا قواتها من جزر أوكيناوا وأعادتها إلى اليابان بعد أن ظلت قاعدتها العسكرية والبحرية والنووية الرئيسية فى شرق آسيا .

كذلك فلعل الصين من جانبها رحبت باتجاه اليابان إلى التخفف من الارتباط السياسى العسكرى المفرط مع أمريكا ، لأنه فى النهاية إنما محور موجه إليها وتهديد لها ، وإن لم تكن على استعداد فى الوقت نفسه للقبول بفك ذلك الارتباط تماما ، حيث إن فيه على الأقل تقييدا ضمنيا لعودة العسكرية اليابانية التى تمثل خطرا تاريخيا وأبديا على الصين . ولهذا حاولت الصين استغلال رغبة اليابان العارمة فى سوقها للعمل بذكاء على استدراجها بعيدا عن الولايات بقدر الامكان وعلى وجه العموم .

أما أمريكا فلا بأس لديها من تقارب يابانى ـ صينى يجذب الصين أكثر وأكثر بعيدا عن الاتحاد السوفيتى ويزيد الهوة بينهما ، لكن أهم مايعنيها هو ألا يتم هذا التقارب على حسابها هى أو على حساب علاقاتها باليابان ، بحيث تصل إلى حد أن تستغنى الأخيرة عن حمايتها إذا ما أحست بزوال الخطر الصينى[2] . هذا أولا ، وثانيا ألا يصل التقارب

---

(١) Edwin Reischauer, Japan, past & present, N.Y., 1965, p. 117 ff.

(٢) Zbigniew Brzezinski, "Japan's global engagement", Foreign affairs, Jan. 1972, p. 270-6.

اليابانى ـ الصينى إلى حد التكتل أو المحور أو الجبهة الموحدة ضدها هى نفسها ، وإلا لكان هذا هو « الخطر الأصفر » بعينه . وفى الحالين فواضح تماما أن المضاربة بين الصين واليابان هى محور اللعبة الأمريكية جميعا .

على أن اليابان ، كعملاق اقتصادى وقزم سياسى يفصل عمدا بين السياسة والاقتصاد ، أى باختصار «كحيوان اقتصادى » أساسا فى المرحلة الراهنة ، إنما يعنيها فى الصين سوقها الماردة فى الدرجة الأولى ، ومن هنا يبرز الخطر الأمريكى القادم والمنافسة الأمريكية فى تلك السوق . فمثلا قبل الحرب العالمية الثانية كان ٤٠٪ من صادرات اليابان يذهب إلى السوق الصينية . وفى ١٩٧٠ كانت اليابان أيضا هى الدولة الأولى فى العالم فى تجارة الصين الخارجية . على أن المرجح أن خطر التنافس اليابانى الأمريكى على السوق الصينية مرجأ إلى المستقبل البعيد نسبيا ، حيث تكتفى الولايات المتحدة حاليا أو مرحليا بدور « عازف الكمان الثانى » تاركة لليابان دور العازف الأول كما وضعها البعض .

أما مع الاتحاد السوفيتى فلعل علاقة اليابان لاتقل تعقيدا وتضاربا ـ ومضاربة أيضا . فالتناقض الأيديولوجى معه لا يقل عنه مع الصين ، بينما يفوق الخطر السوفيتى الخطر الصينى أضعافا بحكم فارق القوة الهائلة ؛ مثلما تفوق الامكانيات السوفيتية الاقتصادية والمادية الامكانيات الصينية بمراحل بحكم فارق التقدم الشاسع . والخيار اليابانى ، إن كان ثمة خيار ، بين العملاقين الشيوعيين صعب شائك . على أن اليابان لعبت لعبة المضاربة بذكاء . فمن ناحية كان تقاربها مع الصين ضغطا ضمنيا على الاتحاد السوفيتى يواجه نفوذه ويحيده إلى حدما ، ولعله على المدى الطويل أن يدفعه إلى إعادة جزر الكوريل الأربع السليبة . ومن الناحية الأخرى ففى وجه التقارب الأمريكى ـ الصينى افتعلت اليابان تقاربا مع الاتحاد السوفيتى كثقل مضاد وكضغط على الصين من أجل التقارب معها . ونقول افتعلت ، لأن اليابان بعد أن تحقق لها هدف التقارب مع الصين عادت فتباعدت عن الاتحاد السوفيتى إلى مواقعها الأصلية تقريبا كما أثبت باحث موضوعى مجيد[1] .

على أن مشكلة اليابان الباقية سوف تظل دائما هى الجانب الاستراتيجى المتمثل فى وجود العملاقين الشيوعيين فى وجهها إلى جانب الوجود الأمريكى فى ظهرها . فبين

---

(١) محيى الدين خطاب ، ص ١١٨ ـ ١٢٠ .

مظلة الحماية النووية الأمريكية من جهة والخطر النووى السوفيتى والصينى المزدوج من الجهة الأخرى ، ليس أمام اليابان التى تكاد تكون حاليا شبه مجردة من السلاح نسبيا ، سوى أن تتجه إلى التسلح الكامل المطلق والتسلح النووى بالتحديد ، أو أن تتجه إلى الحياد المطلق .

ورغم أن الولايات المتحدة هى أصلا التى تحثها الآن حثا بل وتضغط عليها بشدة لترفع من نسبة إنفاقها على التسليح والاستعداد العسكرى ، ورغم أن اليابان تعارض الاندفاع نحو التسليح حيث حققت كل طفرتها الاقتصادية المذهلة بفضل استبعاد تكاليفه الباهظة غير المنتجة ، فإنها قد تجد نفسها فى المستقبل القريب أو البعيد مرغمة على التسلح الكامل دفاعا عن نفسها إزاء الخطر المزدوج على القارة والاحتمال أو التهديد الأمريكى بالانسحاب العسكرى من قواعدها يوما ما . وعندئذ ستجد نفسها مرة أخرى « واقعة بين مقعدين » .

ومن المؤكد أن اليابان ، القوة الوحيدة غير النووية بين كل الأقطاب ، قادرة تكنولوجيا على دخول النادى الذرى متى شاءت أو اتيح لها ذلك سياسيا ، كما أن من المحقق أنها بكل ثقلها الاقتصادى الغلاب ستأخذ مكانتها السياسية الكاملة إن آجلا أو عاجلا . ومع ذلك فسيكون هناك فارق زمنى كبير نسبيا بين اليابان وبقية أطراف السباق فى مجال القوة السياسية والعسكرية . ولهذا فلا ندية ، وبالتالى فلا منافسة ، حالا أو مستقبلا مع أى من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . ومن هنا ورغم التناقض الأيديولوجى الحاد وتلك الخلافات الاقليمية مع الاتحاد السوفيتى ، فإن احتمالات الصدام ضئيلة للغاية . كذلك فرغم التنافس الرأسمالى مع الولايات المتحدة ، خاصة على السوق الأسيوية حيث تهدد اليابان بوراثة الدور الأمريكى ، فإن صدام القوة غير وارد تماما حتى كمجرد احتمال أو فرضية .

أما الخطر الحقيقى فهو مع الصين . فهما العدوتان التقليديتان فى القارة والمتنافسان الأسيويان الحقيقيان على الزعامة فيها . ولهذا فإن التناقض بينهما الآن مثلث الأبعاد ، أيديولوجى وقومى وصراع قوى . ولا تخشى الصين اليوم كما تخشى انبعاث العسكرية اليابانية ، بمثل ما أن اليابان لاتخشى كما تخشى بروز الصين النووية وخروجها من العزلة إلى الصدارة العالمية .

وإذا كان البعض مثل هيرمان كان يتنبأ بأن القرن الحادى والعشرين سيكون قرن

اليابان ، فالغالب أن هذا قد يصح فقط اقتصاديا وإنتاجيا . أما ميزان القوة الاستراتيجية السياسية والعسكرية فالأرجح أنه معقود للصين فى نهاية المطاف ، لأن عوامل الطبيعة والجغرافيا والموارد والسكان فى صفها خارج كل مقارنة . نعم هى قد تلحق بالصين فى المدى القصير بفضل سبقها التكنولوجى والصناعى الخارق ، وربما تسبقها كذلك فى المدى المتوسط ، ولكنها ستتخلف غالبا فى المدى البعيد . على أنه فى تلك المراحل الأولى بالتحديد يكمن خطر الصدام ، الذى قد تغذيه مضاربات توازن القوى من الخارج .

حرب نووية أم سلام عالمى ؟

حسنا ، لقد انتهت رحلتنا المفعمة المتعبة بعد أن طالت عبر الزمان والمكان وطافت حول العالم أجمع ، مطوفة من أعماق الماضى السحيقة إلى أطياف المستقبل الشاحبة . ولقد آن لنا بحق أن نتساءل فى نهاية المطاف : ثم ماذا بعد ؟ مااحتمالات المستقبل ، وإلى أين يتجه العالم ، هذا الذى لايتعلم قط درس التاريخ فيما يبدو ؟ وأية نبوءة أو بصيرة يمكن أن تهديها إياه الجغرافيا ، أو أية توصية ولا نقول وصية يمكن أن يقدمها له الجغرافى ؟ أهى الحرب العالمية الثالثة أو النووية الأولى والأخيرة ، أم هو السلام العالمى أخيرا ؟ أهى نهاية العالم أم نهاية العداء ؟

متغيرات التكتل
والأيديولوجية

لعل أبرز وأخطر ماتشى به المتغيرات السياسية المعاصرة ظاهرتان رئيسيتان هما أصلا وثيقتا الارتباط عضويا ولاانفصال لهما عمليا ، وفيهما على السواء يبدو واضحا دور الرعب النووى وعنصر الدولة ـ القوة البحت الكامن وتأكيد عودة عامل القومية والقيم البراجماتية والضرورات الواقعية ... الخ . هاتان فى إيجاز هما تخلخل الكتل وتلطف الأيديولوجية .

فأما تخلخل الكتل ، ولعله تعبير وسط يجمع بين التفكك والتحلل أو التفتت والتآكل ، فظاهرة عالمية معدية وسارية لاتقتصر على الكتلتين المتناقضتين الغربية والشرقية فقط بل تتعداهما أيضا إلى تجمع عدم الانحياز فى العالم الثالث نفسه ، وإن اختلفت درجات التخلخل هنا وهناك كثيرا أو قليلا بطبيعة الحال . بل ليس تحول العالم المتوقع من استقطاب ثنائى إلى استقطاب خماسى فى المستقبل إلا تعبيرا مباشرا مثلما هو بليغ

عن ظاهرة تخلخل الكتل تلك ، فإنما ستتولد تلك الخماسية من رحم الكتلتين الحاليتين وعلى حسابهما .

وعلى المستوى التفصيلي ، فإن الانشطار الشيوعي « النووى » أغنى مايكون عن الذكر ولا يحتمل التأكيد أو التعليق ، كما أن من المستبعد كثيرا أن يعود إليه الالتئام كما يسعى أو يأمل البعض . غير أن التمزق التدريجي داخل الكتلة الغربية لايقل مغزى وإن قل أبعادا وأعماقا بالتأكيد . فالغرب سائر فيما يرى الكثيرون إلى تثنية نسبية أو انشطار خفيف على جانبي الأطلنطي ، دون تناقض جذرى بالطبع فضلا بالتأكيد عن أى صراع غير سلمى . أما العالم الثالث ، المفكك الأوصال أصلا ، فإن تيار عدم الانحياز واضح ضياعه وتشتته بما فيه الكفاية .

وفى الوقت نفسه فإن الفرقاء بدأوا بدرجات متفاوتة ولأسباب مختلفة يتقاربون بعض الشيء نسبيا ، بمعنى أن الأصدقاء السابقين أخذوا يتحفظون نوعا فى الصداقة المشبوبة ، فيما أخذ الأعداء السابقون يتحفظون أكثر فى العداوة المحمومة . من الحالة الأولى أوربا وأمريكا ، ومن الحالة الثانية على الترتيب أوربا والروسيا ثم أمريكا والروسيا ثم الصين والغرب وربما بعد ذلك الصين نفسها والروسيا . وبينما خفت أو خفتت صيحات الحرب بين الجميع تقريبا ، اشتدت العلاقات والمعاملات السلمية ومبادلة التكنولوجيا بين أغلبهم ، فى حين تسللت دعوات السلام بين البعض منهم ...الخ .

هذا عن تخلخل الكتل . أماتلطف الأيديولوجية ، وهذا أيضا تعبير يجمع بين التخفف من التطرف والميل نحو الاعتدال وبين التراجع والانحسار ، أو بين الشحوب والتميع وبين المرونة والتلاؤم ، فإن أحدا لايشك اليوم فى أن الروح الصليبية المتعصبة والتصلب العقائدى الهيستيرى ، تلك التى وصلت يوما إلى الذروة ، قد تراجعت وتراخت وخفتت أو حتى اختفت على كلا الجانبين على السواء ، كل أيضا بأحزابه وشيعه وفرقه وطوائفه . فحتى فى أعتى معاقل الرجعية وأعلى قلاع الرأسمالية فى أمريكا ماتت ودفنت تقريبا دعوة الحرب الصليبية المقدسة على الشيوعية ، فى حين لم يعد أحد يدعو كثيرا فيما يبدو إلى الثورة العالمية الشيوعية حتى فى صين ماو أو مابعد ماو .

تغـيرات هيكليـة ؟

أكثر من هذا فإن هناك من يرى ـ إن خطأ أو صوابا ـ فى بعض التطورات الاقتصادية والاجتماعية التى تزحف على كلا الجانبين ، كالأخذ بلون من التخطيط

والتدخل فى الغرب الرأسمالى وإعادة الاعتبار لعوامل الربح والحافز المادى فى الشرق الشيوعى ، مؤشرات أولية نحو تغييرات هيكلية فى النظم والأيديولوجيات المتناقضة ذاتها . وبصيغة أخرى ، فإن الرأسمالية الذكية تطعم نفسها بوعى أو عن غير وعى بعناصر أو جرعات اشتراكية ما ، والشيوعية الواقعية هى الأخرى تخفف نوعا عن عمد أو غير عمد من درجة تركيز محلولها الأيديولوجى أو من درجة حموضة المذهبية . وبصيغة أخيرة ، فإن الشرق بات يكتب أيديولوجيا من اليسار إلى اليمين ، والغرب من اليمين إلى اليسار ، وعند نقطة الوسط أو قرب نقطة ما فى الوسط سيلتقيان .

ليس هذا فحسب . بل إن البعض ليتفاءل حقا إلى حد تصور أنه تحت ضغط الرعب النووى وتحت تهديد انزلاق العنصر الأوربى فى مجال القوة العالمية ، سيرغم كل من القطبين المتنافرين على أن يخفف بالتدريج من تطرفه نحو اليمين أو اليسار حتى ، وإلى أن ، تلتقى الرأسمالية المطلقة والشيوعية الكاملة على أرض اشتراكية مشتركة . ومن هذا الالتقاء ينتهى البعض إلى تصور محور أوربى أبيض يستقطب العملاقين وينهى انقسام العالم إلى غرب وشرق ليبرز مكانه انقسامه إلى شمال وجنوب . ويعزز هذا التصور ـ الحالم ـ مايحدث الآن داخل معسكرى الشرق والغرب ، وهو ماننتقل إليه مباشرة .

فعلى الجانب الشرقى ، لايملك الباحث الموضوعى إلا أن يلاحظ ، بدهشة نوعا ، أن الخلافات الأيديولوجية والمعارك الفكرية الرهيبة التى لا حصر لها داخل المعسكر وبين الرفاق ، ومايترتب عليها من صراعات دموية وغير دامية فرقتهم ومزقته فرقا وشيعا ، هى جمعيا أوغالبا مرحلية عابرة فى نهاية المطاف وأيا كانت الأسباب أوالمبررات . بمعنى أن ماتفعله الروسيا اليوم مثلا وترفضه الصين بشدة وبحزم بل وتقاومه بحملة حرب ، تفعله الصين نفسها غدا بلا حرج ولاتحفظ . كالاتجاه ، مثلا ، إلى التصالح مع أمريكا والتعايش مع الغرب والانفتاح على أوربا وأمريكا ... الخ . كالتحول ، مثلا آخر ، إلى التكنولوجيا الحديثة كبديل عن القوة البشرية ... الخ . وما كان ، من ثم ، هرطقة وزندقة عقائدية بات اليوم مقبولا أومسموحا به ، وخوارج الأمس عادوا رفقاء اليوم وربما رفاق الغد من جديد . إنها دورة ، دورة تطورية أيديولوجية سياسية كاملة أو تكاد ، يخضع لها ويقع على منحناها فى مواقع متعاقبة كل الرفاق .

فيوجوسلافيا والتيتوية ، بكل ما تعنى من تسيير ذاتى وحافز الربح والملكية الصغيرة والاحتكاك الوثيق بالغرب ... الخ ، لم تعد انحرافا وخروجا فى نظر الروسيا ولا إلحادا ومروقا فى نظر الصين نفسها . وكذلك حال التجربة أو الابتعادة الرومانية إلى حد آخر .

وبعد أن كان الاتحاد السوفيتى ـ بعد الصين وحدها ـ هو العدو الأول ليوجوسلافيا أيديولوجيا ، أصبحت الصين ـ بعد ألبانيا وحدها ـ هى عدوها الأول ، والآن لم يعد لها من عدو سوى ألبانيا وحدها !

غير أن ألبانيا ، التى كانت العدو الأول «لانحراف» الروس العقائدى نحو التعايش السلمى ، فضلا بالطبع عن «انحراف» يوجوسلافيا ورومانيا ، والتى كانت الصديق الأوحد للصين داخل المعسكر فى صراعها ضد الروس ، لم تلبث أن أصبحت العدو الأول للصين بعد أن تحولت بدورها إلى التصالح مع أمريكا والتعايش والتعامل مع الغرب كالروس من قبل . وكما كانت ، أو إذا كانت ، الصين هى التى تولت توجيه الاتهام إلى السوفيت بالانحراف والتواطؤ مع الغرب الرأسمالى ، فان ألبانيا هى التى تولت فيما بعد توجيه الاتهام نفسه إلى الصين ذاتها وبدورها .[1] وهكذا فى التصفية الأخيرة أصبحت ألبانيا وحدها وبالتحديد مركز الرفض العقائدى الراديكالى اليوم داخل المعسكر جميعا ، مركز التطرف والنقاوة الأيديولوجية المطلقة يعنى ، أى بالتعريف والاستنتاج معقل الشيوعية النقية الحقة ، آخر معاقلها بالطبع !

مفارقة مذهلة ومتناقضة فذة بقدر ما تبدو ساخرة . لكنها ، فى الواقع ، إنما تضع أيدينا على القانون الكامن خلف كل هذه التناقضات ، والميكانيزم الحاكم لهذه التطورات أو التحورات . إذ يبدو أنها قاعدة أصولية عامة أن التطرف والتصلب العقائدى الذى يصل إلى حد الجمود الفكرى يتناسب تناسبا طرديا مع درجة التخلف والفقر المادى والرجعية الأصلية ، وعكسيا مع درجة التطور والتقدم نحو الرخاء المادى والتفتح الحضارى العام .

فألبانيا ، الجبلية المنعزلة الفقيرة الرعوية القبلية التى كانت تعيش فى العصور الوسطى إلى ماقبل ثورتها ، ألبانيا هى بلاشك أشد دول أوربا تخلفا وفقرا ورجعية بصفة تقليدية ، وهى بالتعويض وحده يقينا قمة التطرف الأيديولوجى داخل المعسكر وقمة الرفض للسوفيت على رأسه . وعلى العكس تماما ، الاتحاد بالطبع أصبح قمة تطور وتقدم المعسكر الشيوعى كله ماديا وحضاريا وثراء وإنتاجا ومستوى معيشة ، وبقدر هذا التطور

---

(١) أحمد فارس عبد المنعم ، «أبعاد الخلاف الصينى الألبانى» ، السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٨ ، ص ١٧٤ ـ ١٧٦ .: خيرى عزيز ، ص ١٣٢ ـ ١٣٩ .

خف تصلبه الفكرى وكان أسبق الرفاق إلى « التبرجز والارتداد أو الانحراف والهرطقة » كما اتهم من قبل بعضهم ... الخ .

اليوروشيوعيـة

انتقل الآن إلى المعسكر الغربى ، مركزين عدستنا مؤقتا على ذلك القطاع أو العنصر المتنحى من الاشتراكية وحده وسط محيط الرأسمالية السائد . ولنلاحظ أولا أن هذا العنصر يقل وزنه ودوره بشدة وبسرعة كلما اتجهنا غربا حتى يصل إلى أدناه ولانقول إلى نقطة التلاشى أو الصفر فى الولايات المتحدة ، بينما يحقق ذورته فى أقصى الشرق فى فرنسا وإيطاليا حيث توجد تقليديا أقوى أحزاب شيوعية فى أوروبا الغربية منذ الحرب الثانية ، فضلا بالطبع عن الأحزاب الاشتراكية الأكثر قوة والتى تولت الحكم والسلطة مرارا بالمشاركة أو منفردة .

الآن ، عن هذه الجزر الاشتراكية المنعزلة الواقعة خارج المعسكر الاشتراكى الأب ، انبثقت وتولدت مؤخرا طبعة أو ترجمة أوربية غربية جديدة للشيوعية الأم هى الشيوعية الأوربية أو اليوورشيوعية كما تعرف أحيانا Euro-communism. والخط المحورى المعلن فى هذه الفلسفة الجديدة هو التراجع عن حتمية الثورة الدموية الوطنية أو العالمية وعن صراع الطبقات الاجتماعية ، والقبول بالحل السلمى للصراع الاجتماعى ،وتعدد المراكز فى العالم الشيوعى polycentrism ، ثم أخيرا الاتجاه إلى التعايش السلمى مع سائر الأنظمة الاجتماعية فى الشرق كانت أو فى الغرب . وسواء قبلت أم لم تقبل الشيوعية المركزية الأم بهذه الابتعادة ، التى تكاد فيما يلوح تفرغ العقيدة الأصلية من معظم مضمونها الراديكالى ، فإنها على ما يبدو قد جاءت لتبقى .

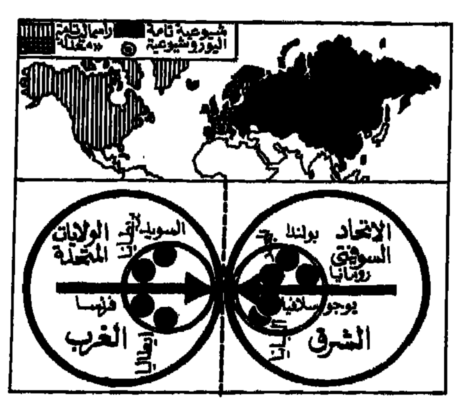
وهى بهذا ، أو بغيره ، تمثل مزيجا أو مزاوجة أو حتى زواج مصلحة marriage de covenance[1] بين راديكالية الشرق الاشتراكى وديموقراطية الغرب الرأسمالى ، وحلا وسطا بين الشيوعية الماركسية المتطرفة فى طرف واشتراكية الاصلاح والفابية والعمال والتأمين والمعاشات والخدمات وأشباهها فى أمثال بريطانيا وسكنديناڤيا فى الطرف الآخر . ثم هى تمثل بالدرجة نفسها محاولة من جانب أوربا الغربية للاستقلال أيديولوجيا عن الشرق وبابويته أو أبوته الكرملينية أو عن مركزيته ووصايته المسكوفية . ومن هذه

(١) Anouar Abdel-Malek, Nation &' revolution, p. 177.

الزاوية ، فإنها بلاشك تعد محاولة لإخضاع الشيوعية للقومية بدل الأممية ، إذ من الصعب أن نعرف ما إذا كانت اليوروشيوعية أوربية أكثر أم شيوعية أكثر ، بمعنى هل فيها من الشيوعية أكثر أم أقل مما فيها من الأوربية ، ولا نقول هل هى شيوعية بالاسم فقط أوربية بالفعل أساسا ؟

أيا ما كان ، فلعل هذه البذرة أو البادرة الجنينية أن تشكل طلائع مرحلة انتقال بين النقيضين وترسى رأس جسر للعبور بين العالمين ، رأسه الآخر ترسخه التجارب الاشتراكية أو الشيوعية غير التقليدية على الجانب الآخر من النهر فى يوجوسلافيا ورومانيا وأمثالها . وفى هذا السياق ، فلعل تجربة بولندا بنقابتها « تضامن » ، وإن أجهضت ، أن تعد محاولة تراجع ونكوص عن الشيوعية بصورتها الكاملة القائمة إلى اشتراكية مخففة « ممقرطة » .

وعلى أية حال فإن مجموع هذه الحالات والمحاولات يؤلف معا نطاقا انتقاليا بوضوح بين الأوربيتين ونظاميهما ، ويفتتح عملية تقارب تسبى من الغرب وديموقراطيته . والملاحظ ، بعد ، أن هذه التطورات إنما بدأت على التخوم الهامشية لكلا المعسكرين ، أى فى نطاق الوسط المتجاور والمتلاصق بينهما . فلو استمر هذا التطور والتقارب بنجاح من الجانبين نحو حل وسط أو نمط أوسط ، ثم توسع بالتدريج وتعمق فى كلا الاتجاهين شرقا وغربا إلى أن يصل إلى النواتين النوويتين فى أقصى الطرفين ، فلربما كان هذا هو « الحل التاريخى الوسط historic compromise » المقول أو المقبول بين النظامين .



شكل (٣٨) خريطة الايديولوجيا المعاصرة في نصف العالم الشمالي . لاحظ منطقة الانتقال في شرق وغرب أوربا . هل تصبح أوربا هي جسر التقارب في المستقبل بين الغرب والشرق ؟

وعلى أية حال فإن الملاحظ حاليا أن التوزيع الجغرافى للأيديولوجيات فى نصف الكرة الشمالى يبدى قدرا من التدرج النسبى مابين قطبيه النقيضين فى أقصى الشرق وأقصى الغرب ، أى بين الشيوعية الكاملة فى الأول والرأسمالية الكاملة فى الثانى . بعد الشيوعية الكاملة فى أقصى الشرق فى الاتحاد السوفيتى (ومن قبله موقعا فى الصين) ، تأتى الشيوعية غير التقليدية فى أجزاء من شرق أوربا (رومانيا ويوجوسلافيا) ؛ فاليوروشيوعية البازغة فى دول من غرب أوربا وسط محيط تختلط فيه الرأسمالية وتتطعم بألوان من اشتراكية الاصلاح والعمال والخدمات الاجتماعية خاصة فى سكنديناوفيا وبريطانيا ، وبعدها فقط نصل إلى الرأسمالية الكاملة غير المنقوصة فى الولايات المتحدة نفسها . تلك هى خريطة الأيديولوجيا الجغرافية أو جغرافية الأيديولوجيات (ideogeography الايديوغرافيا أو geo-ideology الجيوديولوجيا كما قد نسميها) .

الحل الوسط التاريخى ؟

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الشرق والاتحاد هو قطب وقمة الأيديولوجيا ، بينما أن الغرب وأمريكا هو قطب وقمة التكنولوجيا ، وأوربا الغربية هى الوسط الذى يأخذ بينهما من كلا العنصرين الأيديولوجيا والتكنولوجيا بطرف وبنسبة أو بأخرى ، لتأكدت لنا الخطة برمتها كجزء من عملية تقارب تاريخى تدريجى وئيد للغاية بين طرفى النقيض ، قد تنتهى على المدى البعيد إلى مايتصوره ويتنبأ به أو يتمناه البعض من أرض مشتركة يندغم فيها الجميع فى نظام أيديولوجى واحد تقريبا هو وسط بين الشيوعية الفاقعة والرأسمالية الكالحة ، لعله أن يكون الاشتراكية المعتدلة أو المعدلة أو العادلة أو العادية (؟) ...

ولو تحقق هذا أو شىء منه عاجلا أو آجلا ، فإن أوربا ، وأوربا الغربية خاصة ، المرشحة حاليا لأن تكون ميدان المعركة وأرض الصدام فى أى حرب عالمية قادمة ، قد تصبح على العكس أرض التقارب وميدان الانصهار والتصاهر بين الفرقاء والأضداد . ومثل هذا لن يكون بالأمر الغريب تماما ، حيث كانت أوربا الحديثة هى مهد كل التجديدات والمذاهب السياسية والاجتماعية الجديدة وموطن كل التخمرات والتفجرات والتجارب المذهبية سواء السلمية أو العنيفة ، سواء المعتدلة أو المتطرفة .

وإذا كانت نبوءة لينين عن أوربا الغربية كالموطن المرجح للثورة الشيوعية الدامية قد أثبتت عدم صحتها ، فلعل هذه بالمقابل أو كبديل أن تصبح موطنا للثورة الاشتراكية الهادئة المعتدلة المتدرجة . فإن صح هذا أو حدث ـ من يدرى ؟ ـ فلعله بدوره أن يكون دور أوربا الذى احتفظ لها به التاريخ للقرن القادم أو للقرن الحادى والعشرين ، وهى

التى باتت تبحث لنفسها عن دور جديد بعد أن فقدت دورها القديم أو التقليدى الذى بلغ ذروته فى القرن الماضى أو حتى منتصف القرن الحالى .

وعدا هذا على أية حال ، أفلا تتلخص قصة الصراع بين العملاقين والمعسكرين فى التحليل الأخير فى أنها بدأت صراعا أيديولوجيا أى بين الاشتراكية والرأسمالية ، فتحولت فى ظل وتحت ضغط العصر النووى إلى صراع بين الأيديولوجيا والتكنولوجيا أى على الترتيب بين المذاهب السياسية والأسلحة النووية ، فانتهت أخيرا بتغلب الأخيرة على الأولى خشية الانتحار النووى المتبادل ؟ وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن التكنولوجيا (التكنولوجيا النووية) قد أثبتت أنها أقوى عمليا من الأيديولوجيا (الأيديولوجيا المذهبية) ، فأرغمتها أو هى سترغمها على التقارب والاتجاه نحو الحل الوسط التاريخى .

ثم أخيرا وليس آخرا ، فلعل الدعوات السلامية التى انتشرت مؤخرا بين الفرقاء ، والآراء المطروحة أحيانا عن الحل المتبادل والمتزامن لحلفى الأطلنطى ووارسو ، بالإضافة إلى ما يتنبأ به البعض من غزو مبدأ عدم الانحياز لأوربا الغربية ثم من سيادته عالميا «كذا» ، لعل هذه التطورات وأمثالها أن تكون مؤشرات فى الاتجاه نفسه (؟) .

وبعد ، فلقد يكون هذا التصور كله رجما بالغيب أو من قبيل أحلام التعويض وأفكار التمنى والأمانى الطيبة الطوباوية التى تنفصل أكثر مما ينبغى عن الواقع المثبط ، وقد يسخر منها المستقبل بلارحمة . وما من شك أن التنبؤ السياسى بالمستقبل ليس فقط أمرا بالغ الصعوبة والعسر ، ولكنه قبل ذلك أمر خطر محفوف بالمزالق العلمية والشكوك . كذلك فليس فى العلم بطبيعة الحال مكان للتفاؤل أو التشاؤم ، ولكن إن كان ولابد فليس من مصلحة أحد أن يرجح إحدى الكفتين على الأخرى . ولعل هذا هو الموقف الموضوعى ، حتى علميا ، وهو لذلك الذى يمكن أن يكون بوصلة المستقبل .

فصحيح أن الدرس الذى يعلمه لنا تاريخ الصراعات البشرية والسياسية هو أن أعداء الأمس هم أصدقاء الغد ، وأن أصدقاء اليوم قد يصبحون أعداء الغد ، وأن التشكيلات السياسية فى العالم نمط متغير أبدا بالتدريج أو بالطفرة ، غير أن من الصحيح أيضا أن الدرس الأكبر والذى لاينبغى قط أن ننساه هو أنه ليس هناك مايمنع فى نهاية المطاف من أن يكون كل أعداء الأمس أصدقاء الغد جميعا ، وأن يصبح التشكيل السياسى الوحيد فى العالم كله هو استراتيجية السلام لا الصراع وحلف البشرية لا حلف الفضول . دعنا ــ على أية حال ــ نأمل ، ولننتظر لنرى ...

مطابع الشروق
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٥٢٠١ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN

الغلاف : حلمي التوني

استراتيجية الاستعمار والتحرير

قصة الاستعمار في العالم ، كفصل من ملحمة الصراع من أجل القوة ، قصة طويلة معقدة ، يستحق أن تروى في هذه الأيام التي يلفظ فيها الاستعمار سكرات الاحتضار وتشنجات النزع الأخير . والكتاب الحالي يعرض هذه القصة لا كسرد في الزمان ، ولكن أساساً كاستراتيجية في المكان ، بمعنى أنه يخضع مورفولوجية التاريخ لمورفولوجية الجغرافيا ، فيحول التاريخ إلى جغرافية تاريخية والسياسة إلى جغرافيا سياسية ، حتى تكون الدراسة علمية ، منهجية ، محايدة بحتة .

وليس صحيحاً أو دقيقاً أن الاستعمار ـ كما يرتبط في بعض الأذهان ـ ابن القرن التاسع عشر أساساً ، لا ولا هو من نسل السيادات البحرية وحدها وإن كان الاستعمار البحري من أبرز عناصره . وإنما الاستعمار قديم قدم الإنسان ربما ، مثلما يرتبط بكل البيئات والأقاليم عموماً . غير أنه إذا كان الاستعمار يمثل طرف القوة ، فقد كان التحرر دائماً هو طرف المقاومة في المعادلة . ولهذا فإن التحرير بدوره ظاهرة تاريخية أصيلة .

وفي اللحظة التي ترجح فيها كفة الصراع ، كان أمراً مقدوراً أن تطوى صفحة جغرافية الاستعمار لتتحول إلى حفريات الجغرافيا التاريخية ، وأن تبزغ جغرافية حديثة تماماً هي جغرافية التحرير كفصل حي نام ومزدهر في الجغرافيا السياسية . وإذا كانت جغرافية الاستعمار ـ كنظام علمي وفكري ـ هي من صنع علماء الغرب ، فجروها وسخروها ووضعوها في خدمة سياستهم واحتكاراتهم وحضاراتهم ، فلم يكن من الممكن ولا من المعقول أن يكتب جغرافية التحرير ـ بعد جغرافية الاستعمار ـ إلا جغرافي من أبناء آسيا أو أفريقيا . فكان هذا الكتاب .

ولكن ماذا بعد التحرير وثورة التحرير وجغرافية التحرير ... الخ ؟ حسناً ، عالم التحرير ـ كما يتفق ـ هو عالم الذرة والانقلاب النووي والرعب النووي والسلام النووي ، ولذا فهو أيضاً عالم التعايش السلمي والحياد الإيجابي وعدم الانحياز ثم أخيراً عالم الوفاق ، وعالمنا المعاصر بهذا طعم منطق أن لم نقل تنضج بكل محاذير وأخطار السياسة الاستراتيجية وإغراءاتها وخفاياها ابتداء من الاستقطاب الثنائي حتى الوفاق الثنائي . فكان لا بد للكتاب من أن ينقل عدسته إليه ويضعه في صميم بؤرتها ، بل وأن يسقط أشعتها على المستقبل ذاته إلى ما بعد الوفاق وعدم الانحياز مغامراً بذلك في آفاق الفكر السياسي والمستقبلية . وبهذا انتقل المنظور أو المنظار تباعاً من تلسكوب التاريخ البعيد ، إلى ميكروسكوب الحاضر المدقق ، إلى هوروسكوب المستقبل الفضفاض الغامض . فكان هكذا هذا الكتاب .